المؤلفات شبه الكاملة

-4-

ثلاثة مباحث في

النظرية الجنسية

الحياة الجنسية

العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي

سيغموند فرويد

ترجمة:

جورج طرابيشي



ثلاثة مباحث
في النظرية الجنسية



الكتاب: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية -الحياة الجنسية العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي**

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: مايو (آيار) 2015

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 999 - 9



الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشــر والتــوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز



www.mdrek.com read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

 Madarekpublishing  @mdrekpublishing  www.mdrek.com  Madarek PH  madarekpublishing



سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة

المجلد الرابع

ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية

الحياة الجنسية

العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي

ترجمة جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

فهرس المجلد الرابع




مكتبة
الفكر الجديد

ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية



تقديم

صدرت الطبعة الأولى من **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** سنة ١٩٠٥ وقد أعيدت طباعتها في حياة فرويد مراراً عدة. وفي خمس طبعات منها، وهي طبعات ١٩١٠ و١٩١٥ و١٩٢٠ و١٩٢٢ و١٩٢٤، تناول فرويد النص الأصلي بالتنقيح والتعديل، وأضاف إليه إضافات شتى تعكس كشوفه الجديدة والتطورات الطارئة على مبحث التحليل النفسي.

والنص الذي نقدِّم ترجمته هنا هو النص النهائي. وقد وضعنا المقاطع المنقَّحة الرئيسية بين قوسين [ ] وأتبعناها بعبارة (أضيف سنة....) أو (عُدِّل سنة....)، وهو أمر لا يخلو من فائدة. فلولا هذه الإشارات، فلربما عزا القارئ إلى فرويد الخمسيني[1] تصورات ما صاغها إلا في الستين أو حتى في السبعين من عمره؛ ومن قبيل ذلك مفاهيم النرجسية، والتنظيم القبتناسلي، والنظرية الجنسية الطفلية، إلخ. ثم إن هذه الإشارات تتيح للقارئ المدقق أن يتتبع، على نحو ملموس، التطور التاريخي للنظرية التحليلية النفسية.

بقي أن نقول إن **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** كان لها، في يوم صدورها الأول، وقع الفضيحة، وقد شوَّهت في نظر الجمهور العريض الصورة العلمية لفرويد الذي ما تورَّع بعضهم يومئذ عن اتهامه بأنه «مفكر بذيء وخطر». وعلى الرغم من مرور ثلاثة أرباع قرن على «الفضيحة»، وعلى الرغم من توطد مكانة التحليل النفسي كواحد من أقدر فروع العلم الحديث على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية، فإننا على ثقة أن بعض الأوساط الرقابية العربية ستستقبل ترجمة هذا الكتاب بازورار... وبالمنع.

١/ ١/ ١٩٨١

ج. ط




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم الطبعة الجديدة

كنا اعتمدنا في ترجمة **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** على الترجمة الفرنسية اليتيمة الصادرة عن دار غاليمار[1] عام ١٩٦٢ والتي كانت قامت بها بلانش ريفرشون عام ١٩٢٣ وتولى مراجعتها في عام ١٩٦٢ واضعا **معجم التحليل النفسي** جان لابلانش وجان برتران بونتاليس. أما هذه الطبعة التي بين يدي القارئ فقد اعتمدنا، في التعديلات الجذرية التي أدخلناها عليها في مسعى منا إلى تقريبها بأكبر قدر مستطاع إلى الأصل الألماني، على ثلاث ترجمات جديدة أكثر تقيُّداً بحرف النصّ الفرويدي، أولاها هي تلك التي قام بها بيير كوتيه وفرانك ريكسان غاليه عام ٢٠٠٦ في المجلد السادس من **مؤلفات فرويد الكاملة** الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية، وثانيتهما وثالثتهما هما الترجمتان الأحدث عهداً بعد والصادرتان عامي ٢٠١١ و٢٠١٢ عن دار فلاماريون ودار لوسوي واللتان قام بهما كل من فرنان كانبون ومارك جيرو على التوالي.

١/ ١/ ٢٠١٥

ج. ط

١ ـ ولد فرويد عام ١٨٥٦.«م».




مكتبة
الفكر الجديد

تصدير الطبعة الثالثة

بعد أن تسنى لي أن أراقب على مدى عشر سنوات موقف الجمهور من هذا الكتاب، بودي أن أضيف إلى هذه الطبعة الثالثة بعض ملاحظات تمهيدية من شأنها تبديد بعض ضروب من سوء الفهم وتفادي خيبة أمل مما قد يُطرح من أسئلة تتعذر الإجابة عنها ضمن حدود هذا الكتاب. وسوف نلحّ، في المقام الأول، على كون تحليلنا يرتكز إلى خبرات طبية يومية، يتعيّن على التنقيب التحليلي النفسي أن يعمِّقها وأن يستخلص منها قيمتها العلمية. و**المباحث الثلاثة في النظرية الجنسية** لا يمكن أن تحتوي بين دفتيها إلا ما يقرّ به التحليل النفسي أو يمكن له تأييده. ومن ثم يبدو مستبعداً أن تتمخض هذه المباحث عن نظرية شاملة في الجنسية؛ ومفهوم بالتالي ألا نكون اتخذنا موقفاً من بعض المشكلات الأساسية في الحياة الجنسية على الرغم مما قد يكون لهذه المشكلات من أهمية. غير أنني لا أريد أن يدخل في وهم أحد أن المؤلف تجاهل عن عمد هذه المشكلات أو أنه نحّاها جانباً غير مقرٍّ لها إلا بقدر ضئيل من الأهمية.

أما مدى ارتكاز هذا الكتاب إلى التجارب التحليلية النفسية ـ التي كانت حافزنا إلى تأليفه ـ فيتضح لا من اختيار المشكلات فحسب، بل كذلك من التسلسل الذي اعتمدناه في ترتيب موادنا.

فالنهج الذي نسير عليه يعتمد نوعاً من تسلسل هرمي إذ إننا نقدِّم، في كل هذه المادة الموصوفة، العوامل العارضة ونؤخِّر بالمقابل العوامل ذات الصلة بالجِبِلَّة؛ فنشوء الفرد أولى باهتمامنا هنا من نشوء النوع. وبالفعل، إن التظاهرات المشروطة بما هو عارض هي الموضوع الرئيسي للتحليل الذي يملك أن يؤولها بتمامها تقريباً. أما التظاهرات الجِبِلِّية فتبقى في خلفية الوقائع بنوع ما، وتجربة الحياة هي التي توقظها. ولو شئنا أن نقدِّر دورها حقَّ قدره لنأت بنا الشقة عن مضمار التحليل النفسي.



ثمة صلة مماثلة تحكم العلاقة بين النشوء الفردي والنشوء السلالي. فنشوء الفرد يمكن أن يُعدّ تكراراً لنشوء السلالة، وذلك ما دام هذا الأخير لم يتغيَّر بتأثير خبرة حياتية مستجدة. والتطور النشوئي الفردي يشفّ عن الاستعداد النشوئي السلالي المسبق. غير أن الجِبِلَّة ما هي، في حقيقتها، إلا رسابة من خبرة ماضية للسلالة، مضاف إليها خبرة حياتية مستجدّة للفرد بوصفها الحصيلة المجملة للعوامل العارضة.

لئن كانت محصلة دراستي هذه وثيقة الارتباط بمعطيات التحليل النفسي، فليس لي، من جهة أخرى، إلا أن أجهر بالاستقلال المبدئي لهذا الكتاب عن كل مبحث بيولوجي. فقد حرصت على تحاشي ولوج الدروب التي تفتحها لنا البيولوجيا الجنسية العامة أو البيولوجيا الجنسية المختصة بأنواع حيوانية محددة. وحصرت دراستي بما تتيحه لنا تقنية التحليل النفسي من معرفة ببيولوجيا الحياة الجنسية للإنسان. وبذلك تسنى لي أن أزيح النقاب عن بعض العلاقات والوقائع التي يكون بينها التقاء واتفاق في هذين المضمارين، بدون أن أراني مضطراً، مع ذلك، إلى التخلي عن بعض الأطروحات حينما يقودني التحليل النفسي إلى الأخذ ـ في عدد من النقاط الأساسية ـ بآراء ونتائج لا تتمشى مع تلك التي تقول بها البيولوجيا.

وقد أدخلت على هذه الطبعة الثالثة إضافات عديدة ولكن بدون أن أؤشِّر عليها بعلامات خاصة كما كنت فعلت في الطبعة السابقة. وصحيح أن العمل العلمي في مضمارنا قد خفَّف الآن من سرعة تقدمه، ولكن كان من الضروري مع ذلك إدخال إضافات جديدة على هذا النص حتى يبقى معقود الصلة بمستجدّات الأدبيات التحليلية النفسية.

فيينا تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٤



تصدير الطبعة الرابعة

أما وقد انحسرت اليوم أمواج زمن الحرب فلنا أن نلاحظ بحبور أن الاهتمام بالبحث التحليلي النفسي على صعيد العالم لم يلحقه ضرّ. غير أن هذا الاهتمام لا ينصبّ على أقسامه كلها على حدّ السواء. فلئن تكن الأقسام السيكولوجية الخالصة من التحليل النفسي، وذات الصلة باللاشعور والكبت والصراع المسبِّب لاضطرابات مرَضية ومكسب المرض وآليات تكوّن الأعراض، تحظى بالقبول وتؤخذ بعين الاعتبار على نطاق أوسع فأوسع، حتى من قبل خصومنا، فإن ذلك الشطر من النظرية الذي يتصل بالبيولوجيا، والذي عرضنا أفكاره الرئيسية في هذا النص الصغير، يواجَه على العكس بمعارضة خصوم كثُر. وهذا يصدق حتى على من كان أقبل من الأشخاص على التحليل النفسي، لحين من الزمن، إقبالاً شديداً، إذ نجد بعضهم يعرض عنه اليوم ويقترح فروضاً جديدة يراد بها الحدّ من دور العامل الجنسي في الحياة النفسية السوية والمرَضية على حدّ سواء.

على أنه لا يسعني، رغم ذلك، التسليم بأن هذا القسم من المذهب التحليلي النفسي يبتعد أكثر من غيره من الأقسام عن الواقع الفعلي المطلوب سبره. فذكرياتي والفحص المكرر باستمرار للمسألة تقطع بأن النظرية مبنية على مشاهدات أجريت بدقة وبلا تحيُّز؛ وليس من العسير عليّ، فضلاً عن ذلك، تفسير موقف الجمهور. ولنقل بادئ ذي بدء إن الباحثين، الذين يتوفر لهم قسط كافٍ من الصبر وطريقة مضمونة بما فيه الكفاية للمضيّ قدماً في التحليل وصولاً إلى طفولة المريض، هم وحدهم المؤهلون لتأييد صحة الفرضيات التي نتقدم بها هنا عن بداية الحياة الجنسية لدى الإنسان. والحال أنه كثيراً ما يتعذر نهج هذا النهج بالنظر إلى أن العلاج الطبي مطالب بالوصول إلى شفاء سريع للحالة المرَضية، في ظاهر الأمر على الأقل. والحق أنه، خلا الأطباء الذي يمارسون



التحليل النفسي، لا يمكن بصورة عامة لأحد النفاذ إلى هذا المضمار، ولا تتوفر له بالتالي أية إمكانية لتكوين حكم منزّه عما ينفر منه أو عما يحبِّذه شخصياً. ولو كان لبني الإنسان أن يتعلموا من الملاحظة المباشرة للأطفال، لكنا وفّرنا على أنفسنا تجشُّم مشقة كتابة مباحث هذا الكتاب الثلاثة.

وينبغي أن نتذكر بعد ذلك أن بعض مقاطع هذا الكتاب ـ تلك التي تلحّ على أهمية الحياة الجنسية في النشاط الإنساني كله وتلك التي نحاول فيها التوسع بمفهوم الجنسية[١] ـ قدّمت الذرائع لمعارضة التحليل النفسي ومقاومته. فبعضهم، ممن تستهويهم الكلمات الطنانة، مضى إلى حدّ الكلام عن نزعة جنسية كلية Pansexualisme للتحليل النفسي، ولم يحجم عن اتهامه، ولو عن شطط، بأنه يفسِّر «كل شيء» بالجنسية. وقد يكون المرء في حِلٍّ من أن يعجب لهذه الأمور لو جاز له أن يغفل عن دور الأهواء التي تبلبل العقول وتنسي الناس أشياء كثيرة. فمنذ زمن غير قليل أبان الفيلسوف **آرثر شوبنهاور**[٢] للناس مدى تعيُّن نشاطهم كله بالنوازع الجنسية ـ بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ـ فكيف حدث أن نسي فريق كبير من القراء مثل هذا التحذير اللافت للنظر؟ أما فيما يتعلق أخيراً بتوسيعنا مفهوم الجنسية ـ وهو التوسيع الذي فرضه علينا التحليل النفسي للأطفال ولمن يسمّون بالمنحرفين ـ فجوابنا على أولئك الذين يلقون، من عليائهم، نظرة ازدراء على التحليل النفسي أن عليهم أن يتذكروا مدى قرب الصلة بين المفهوم الموسَّع عن الجنسية كما يقول به التحليل النفسي وبين الإيروس كما قال به أفلاطون الإلهي[٣].

فيينا، أيار/ مايو ١٩٢٠

---

١ ـ لأعترف كمترجم أني اصطدمت بإشكال حقيقي في اعتماد «الجنسية» كمقابل عربي لمفهوم Sexsualitat الألماني كما يعتمده فرويد. ومردّ الإشكال إلى أن «الجنسية» هي ترجمة فاسدة في الاستعمال الشائع بالعربية لكلمة Nationality الإلزامية في كل بطاقة هوية أو جواز سفر والتي كان ينبغي أن تترجم بـ«قومية» أو حتى بـ «أمّية» (نسبة إلى الأمة) لولا الدلالة التي باتت لهذه اللفظة الأخيرة ولولا الأيديولوجيا القومية التي أبت الاعتراف بتقَوْمُن الدول «القطرية» وآثرت النسبة إلى «الجنس». «م».

٢ ـ آرثر شوبنهاور: من كبار الفلاسفة الألمان (١٧٨٨- ١٨٦٠) ـ من مؤلفاته: **أساس الأخلاق والعالم**. وقد عرض تصوره عن دور الجنس في حياة البشر في كتابه الأخير هذا. «م».

٣ ـ انظر س. نخمانسون: **نظرية الليبيدو لدى فرويد بالمقارنة مع نظرية الإيروس لدى أفلاطون**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ٣، سنة ١٩١٥.



المبحث الأول

الانحرافات الجنسية[1]

تلجأ البيولوجيا، لتفسير الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان، إلى فرضية وجود «غريزة جنسية»، على مثل ما يُفترض وجود غريزة لابتلاع الطعام، أي الجوع. غير أن اللغة الدارجة لا تحتوي، في مضمار الحاجة الجنسية، على لفظة مرادفة لكلمة الجوع، وعلى هذا تجد اللغة العلمية نفسها مضطرة إلى أن تستخدم لفظة الليبيدو[2].

---

١ ـ إن المعطيات المتضّمنة في المبحث الأول ترتكز إلى الكتابات المعروفة لكل من كرافت ـ إبينغ Krafft Ebing، مول Moll، موبيوس Moebius، هافلوك إليس Havelock Ellis، شرنك ـ نوتزينغ Schrenck Notzing، لوفنفلد Loewenfeld، أولنبرغ Eulenburg، إ. بلوخ I.Bloch، م. هيرشفلد M.Hirschfeld، وكذلك إلى مقالات منشورة في **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة** Jahrbuch Fur Sexuelle Zwischenstufen التي يتولى إصدارها هذا الأخير. وبما أن ثبت المراجع الكامل لموضوعنا موجود في الكتابات المشار إليها، فقد رأينا أن لا جدوى من إيراده بمزيد من التفصيل(*).

[أما النتائج المتحصلة عن الملاحظة التحليلية للمرتكسين فتستند إلى المعطيات التي زوَّدني بها السيد سادجر Sadger وإلى خبرتي الشخصية] (أضيف سنة ١٩١٠).

(*) الكتابات التي يشير إليها فرويد مكتفياً بتسمية كاتبيها هي على التوالي: كرافت ـ إبينغ: **الأمراض النفسية الجنسية: دراسة سريرية طبية شرعية**، شتوتغارت ١٨٨٦. ألبرت مول: **بحث حول الليبيدو الجنسي**، برلين ١٨٩٨. بول يوليوس موبيوس: **مساهمات في نظربة الفوارق بين الجنسين**، هال ١٩٠٣. هافلوك إلِّيس: **دراسات في علم نفس الجنس**، فيلادلفيا ١٨٩٧. ألبرت فون شرنك ـ نوتزينغ: **مقترحات علاجية بخصوص الأمراض النفسية الجنسية مع إحالة خاصة إلى الارتكاس الجنسي**، شتوتغارت ١٨٩٢. ليوبولد لوفنفلد: **الحياة الجنسية والأمراض العصبية**، فسبادونا ١٨٩٩. ألبرت أولنبرغ: **المرض العصبي الجنسي: الأعصبة التناسلية والأذهنة النفسية عند الرجال والنساء**، لايبزغ ١٨٩٥. إيفان بلوخ: **مساهمات في أسباب نشوء الأمراض النفسية الجنسية**، ١٩٠٢. ماغنوس هيرشفلد: **الرجل المِثلي**، لايبزغ، ١٩٠٣ والدورية التي أصدرها من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٢٣: **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة** هي أول مجلة في التاريخ تخصص للدراسة العلمية للسلوك الجنسي المثلي. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة بقلم مارك جيرو.

٢ ـ [إن اللفظة المؤائمة الوحيدة : اللذة (بالألمانية Lust) ملتبسة المعنى لسوء الحظ. إذ تدلّ على الإحساس بالحاجة وعلى إشباعها معاً] (أضيف سنة ١٩١٠).



يصطنع التصور الشعبي بعض أفكار راسخة لنفسه عن طبيعة الغريزة الجنسية وسماتها. فقد درج العرف على القول إن هذه الغريزة مفتقدة في الطفولة، وإنها تتكون في زمن البلوغ بالارتباط الوثيق مع السيرورات التي تفضي إلى النضوج، وإنها تتظاهر في صورة جذب لا يقاوم يمارسه أحد الجنسين على الآخر، وإن هدفها هو الوصال الجنسي، أو على أية حال جملة من الأفعال التي ترمي إلى هذا الهدف.

إن لدينا أسباباً وجيهة للاعتقاد بأن هذا الوصف لا يطابق الواقع إلا على نحو منقوص للغاية. ولو تفحصناه عن كثب لوجدناه يعجّ بجملة من الأخطاء والتحريفات والأحكام المتعجلة.

ولنبدأ بتثبيت مصطلحين. فالشخص الذي يمارس جذباً جنسياً سنسميه الموضوع الجنسي. والخبرة العلمية تثبت لنا وجود حيدانات كثيرة، تارة عن الموضوع وطوراً عن الهدف الجنسي، وعلينا أن نسعى إلى التعمُّق في فحص العلاقات التي تقوم بين هذه الحيدانات وبين ما نقدِّر أنه الحالة السوية.

١ ـ الحيدانات عن الموضوع الجنسي

لعل خير ترجمة للتصور الشعبي عن الدافع الغريزي الجنسي[٣] نلقاها في الأسطورة الشعرية القائلة إن الكائن الإنساني انقسم إلى نصفين ـ الرجل والمرأة ـ ما زالا يطلبان منذ ذلك اليوم الاتحاد ثانية بالحبّ. ومن ثم يثور لدى الناس عجب شديد متى ما علموا بوجود رجال ليست المرأة هي الموضوع الجنسي بالنسبة إليهم وإنما الرجل، وكذلك بوجود نساء ليس الرجل هو الذي يمثِّل بالنسبة إليهن الموضوع الجنسي بل المرأة. ويُطلق على هذه الفئة من الأشخاص اسم الجنسين المثليين، أو المرتكسين، وعلى الظاهرة اسم الارتكاس[٤]. وعدد

٣ ـ يؤثر فرويد أن يستخدم في جميع نصوصه مفهوم الدافع الغريزي Trieb (= Pulsion) بدل الغريزة Instinkt (= Instinct) بالنظر إلى أن هذه الأخيرة أجدر بأن تنسب إلى الحيوان من حيث أنها لا تقبل المقاومة وتنزع نزوعاً جبرياً إلى الإشباع، بينما الدافع الغريزي أجدر بأن يُنسب إلى الإنسان من حيث قابليته للمقاومة وللامتثال لروادع أخلاقية وقانونية وحتى جمالية. «م».

٤ ـ درجت العربية السائدة على توصيف هذه الظاهرة باسم الشذوذ، وهي تسمية تنطوي على حكم قيمة سلبي. وهذا خطأ كنا ارتكبناه في الطبعة الصادرة آنفاً عن دار الطليعة ببيروت. ومن هنا آثرنا الارتكاس كمقابل لكلمة Inversion. «م».



المرتكسين غفير بلا مراء، وإن كان يصعب في كثير من الأحيان تعرُّفهم[٥].

أ ـ الارتكاس

سلوك المرتكسين ـ نميِّز لدى المرتكسين الأنماط التالية:

أ ـ المرتكسون **المطلقون**، أي أولئك الذين ليس للجنسية عندهم سوى موضوع واحد يتمثل بالأفراد الذين ينتمون إلى جنسهم نفسه، بينما لا يمسّ فيهم أفراد الجنس الآخر وتراً، هذا إن لم يثيروا لديهم اشمئزازاً جنسياً. فإن كانوا رجالاً عجزوا، بحكم هذا الاشمئزاز، عن القيام بالفعل الجنسي السويّ، أو ما وجدوا فيه على أية حال لذة.

ب ـ المرتكسون **المزدوجون** (الخنوثة الجنسية النفسية)، أي أولئك الذين يمكن أن يتخذوا أياً من الجنسين على السواء موضوعاً لهم. وعليه، إن هذا النمط من الارتكاس لا يتسم بطابع الحصرية.

ج ـ المرتكسون **العارضون**، في هذه الحال يتحدد الارتكاس بالظروف الخارجية، وبخاصة منها عدم توفر الموضوع الجنسي السويّ أو ما يحاكيه؛ وفي هذه الحال قد يتخذ المرتكسون موضوعاً جنسياً لهم أشخاصاً من جنسهم نفسه يوفِّر لهم إتيانُ الفعل الجنسي معهم الإشباعَ المطلوب.

يختلف المرتكسون في الحكم الذي يصدرونه بأنفسهم على خصوصية دافعهم الغريزي الجنسي. فالارتكاس في عرف بعضهم شيء طبيعي مثلما يرى الكائن السويّ في اتجاه الليبيدو عنده شيئاً طبيعياً. وهم يطالبون لارتكاسهم بالحقّ بالمعاملة بمثل ما تعامل به الجنسية السويّة. ويسخط آخرون بالمقابل على الارتكاس ويستشعرونه على أنه قهر مرضي[٦].

ومن الممكن تمييز أنماط أخرى من الارتكاس، تبعاً لطور العمر الذي تتبدى فيه هذه التظاهرات الجنسية. فالارتكاس يبدو لدى بعضهم سمة موجودة منذ أبعد

---

٥ ـ بصدد الصعوبات المشار إليها أعلاه والمحاولات المختلفة التي جرت لبيان نسبة المرتكسين إلى الأسوياء، انظر مقال السيد هيرشفلد في **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة** (١٩٠٤).

٦ ـ هذه المقاومة للارتكاس يمكن أن توفِّر شروطاً موائمة للعلاج بالإيحاء أو بالتحليل النفسي.



زمن تعيه الذاكرة. أما لدى بعضهم الآخر فيظهر الارتكاس في زمن معيَّن، قبل البلوغ أو بعده[٧]. وقد تبقى هذه السمة الجنسية مدى الحياة، أو قد تختفي لحين من الزمن، وقد تكون مجرد فاصل نحو تطور سويّ. وأخيراً، قد لا تفصح عن نفسها إلا في زمن متأخر، بعد فترة طويلة من نشاط جنسي سويّ. بل لوحظت حالات تتسم بتذبذب دوري بين موضوع جنسي سويّ وموضوع ارتكاسيّ. وثمة حالات مثيرة للاهتمام، وهي تلك التي يتحول فيها الليبيدو إلى الارتكاس عقب تجربة مؤلمة مع موضوع جنسي سويّ.

إن هذه السلاسل المختلفة من التنوعات مستقلة إجمالاً عن بعضها بعضاً. وفي الحالات القصوى، أي في حالات الارتكاس التام، يمكننا الافتراض بأن الخصوصية الجنسية تظهر في وقت مبكر من الحياة وأن الفرد يعيش راضياً بها.

إن العديد من المؤلفين يأبون أن يجمعوا الحالات المشار إليها هنا تحت عنوان واحد، فيلحّون على ما بينها من أوجه اختلاف لا على ما بينها من أوجه شبه، وهذا أوفق لما كوّنوه لأنفسهم من آراء بصدد الارتكاس. لكن مهما تكن التقسيمات مبررة، فليس لنا أن نتجاهل أن جميع الدرجات الوسطى يمكن أن تتلاقى، بحيث تفرض فكرة السلسلة المتصلة الحلقات نفسَها.

مفهوم الارتكاس ـ لقد عُدّ الارتكاس في أول الأمر علامة فطرية على انحطاط عصبي. وآية ذلك أن أول الأشخاص الذين لاحظ الأطباء لديهم الارتكاس كانوا مرضى عصبيين، أو يبدون على الأقل كذلك. وتقوم هذه الدعوى على قضيتين ينبغي أن ننظر في كل منهما على حدة: أن الارتكاس فطري، وأن الارتكاس علامة انحطاط.

---

٧ ـ ذكر كتاب عديدون، بحقّ، أنه من غير الجائز الوثوق بما يورده المرتكسون من معطيات من سيرة حياتهم تتصل بالزمن الذي يظهر فيه الارتكاس، إذ ليس من المستبعد أن يكون المرتكسون قد طردوا من ذاكرتهم ـ عن طريق الكبت ـ وقائع كان من شأنها أن تشهد على ميولهم الجنسية الغيرية.

[لقد أثبت التحليل النفسي أن هذا الظن في محله، على الأقل في الحالات التي تسنى له أن يتعاطى وإياها. ولقد أحدث تغييراً حاسماً في التاريخ التذكري لهذه الحالات بسدّه الفجوات الناجمة عن النساية الطفلية] (عُدِّل سنة ١٩١٠).



الانحطاط ـ إن الاستخدام اللامتبصِّر لكلمة الانحطاط يثير هنا، كما في كل مكان، جملة اعتراضات. فقد درجت العادة على إطلاق اسم الانحطاط على كل تظاهرة مرَضية غير ناشئة في أسبابها عن رَضَّة أو عدوى. وبموجب تصنيف مانيان[٨] للمنحطِّين، صار بالإمكان أن تُدرج في باب الانحطاط حالات يؤدي فيها الجهاز العصبي وظائفه على أمثل وجه. ومن حقنا أن نتساءل ما قيمة فكرة الانحطاط، والحالة هذه، وماذا يمكن أن يكون المضمون الجديد للحكم بوجود «انحطاط»؟ يلوح أنه من الأصوب عدم الكلام عن الانحطاط في الحالات التالية:

١ ـ حيث لا تنضاف حيدانات خطيرة عديدة إلى حالة السواء.

٢ ـ حيث لا تتعرض قدرة الفرد على الإنتاج والحياة في جملتها لتلف خطير[٩].

أما أن المرتكسين ليسوا بهذا المعنى المشروع للكلمة من المنحطين، فهو ما يتأكد من جملة من الوقائع:

١ ـ يُلحظ الارتكاس لدى أفراد لا يعانون من حيدانات خطيرة أخرى عن حالة السواء.

٢ ـ يلحظ كذلك لدى أفراد لم تصب قدرتهم على الإنتاج بخلل، بل يتميَّزون بتطور فكري وبثقافة أخلاقية رفيعة[١٠].

---

٨ ـ فالانتان مانيان: طبيب نفسي فرنسي (١٨٣٥ ـ ١٩١٦). قال بمفهوم الانحطاط Dégénérescence في كتابه: **دروس سريرية عن الأمراض العقلية: تأملات عامة حول جنون الوراثيين أو المنحطين**. «م».

٩ ـ تبياناً لمدى الحيطة الواجبة عند تشخيص حالة انحطاط ما، ولمدى ضآلة أهمية هذا التشخيص على الصعيد العملي، سنورد المقطع التالي بقلم موبيوس(*): «لو ألقينا نظرة شاملة على المجال الفسيح للظاهرات التي جرى الاتفاق على تسميتها بالانحطاطية، والتي ما عدونا أن سلّطنا عليها هنا بصيصاً من ضوء، لأدركنا مدى ضآلة الأهمية التي ينبغي لنا أن نعلِّقها على تشخيص الانحطاط». (**حول الانحطاط، مسائل فاصلة في حياة الأعصاب والنفس**، المجلد ٢، ١٩٠٠).

(*) بول يوليوس موبيوس: طبيب أعصاب ألماني (١٨٥٣ ـ ١٩٠٧). له دراسات في ميادين شتى، ولا سيما عن الأدباء والفلاسفة من منظور الطب النفسي. «م».

١٠ ـ لا مناص لنا من التسليم مع الناطقين بلسان «الأورانية»(*) بأن عدداً من أبرز من نعرفهم من رجال التاريخ كانوا مرتكسين، بل ربما مرتكسين مطلقين.

(*) الأورانيون: أي حرفياً «السماويون»، والمقصود الجنسيون المثليون كما سيأتي البيان تواً «م».



٣ ـ لو غضضنا النظر عمن نعرفهم من المرضى بحكم خبرتنا الطبية وانطلقنا من أفق أرحب لواجهتنا مجموعتان من الوقائع تمنعاننا من اعتبار الارتكاس علامة انحطاط:

أ ـ لا يجوز أن ننسى أن الارتكاس كان ظاهرة شائعة، بل مؤسسة ذات وظائف هامة لدى شعوب العصر القديم في أوج مراحل حضارتها.

ب ـ إن الارتكاس منتشر على نطاق واسع لدى الأقوام البدائية والمتوحشة، على حين أن اسم الانحطاط لا يطلق في العادة إلا على الحضارات المتقدمة وحدها (إ. بلوخ)[١١]. بل إن للمناخ والعرق، حتى لدى شعوب أوروبا المتحضرة، تأثيراً كبيراً في شيوع الارتكاس وفي الحكم عليه[١٢].

الفطرة ـ لم يُعدّ الارتكاس فطرياً إلا لدى الفئة الأولى، أي فئة المرتكسين المطلقين. وتوكيداً لذلك اعتمدت شهادة هؤلاء المرتكسين عن أنفسهم في زعمهم أنهم ما عرفوا قط، في أي فترة من فترات حياتهم، اتجاهاً آخر لدافعهم الغريزي الجنسي. غير أن وجود فئتين أخريين من المرتكسين، وعلى الأخص فئة المرتكسين العرضيين، لا يتفق مع الفرضية القائلة بالطابع الفطري للارتكاس. ولهذا يميل أنصار هذه الفرضية ميلاً سافراً إلى عزل فئة المرتكسين المطلقين عن الفئات الأخرى، مما يعني عدولهم عن تفسير واحد وعام للارتكاس. ومن هذا المنطلق يتعيَّن التسليم بأن للارتكاس في عدد من الحالات طابعاً فطرياً، بينما منشؤه في غير هذه الحالات مغاير.

على النقيض من هذا التصور، هناك التصور الذي يقول إن الارتكاس **سمة**

١١ ـ إيفان بلوخ: طبيب جلدي ألماني (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢). لُقِّب بالمختص الأول في علم الجنس. اكتشف مخطوطة المركيز دي ساد الضائعة **أيام سدوم المئة والعشرون**. ونشر تحت اسم مستعار كتاباً عن **المركيز دي ساد، حياته وأعماله**. اشتهر بكتابه الموسوعي **حياة عصرنا الجنسية من خلال علاقاتها بالحضارة الحديثة**. وطبقاً لفرويد، كان له الفضل في مقاربة أنتروبولوجية للجنسية المثلية بعد أن كانت تعدّ مجرد ظاهرة مرَضية. «م».

١٢ ـ ميّز بعضهم في دراسة الارتكاس بين وجهة النظر المرَضية ووجهة النظر الأنتروبولوجية. وإ. بلوخ (**مساهمات في إتيولوجيا السيكوباتية الجنسية**، ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) هو الذي أجرى هذا التمييز، وهو الذي أوضح أيضاً مدى انتشار الارتكاس لدى الشعوب المتحضرة في العصر القديم.



مكتسبة للدافع الغريزي الجنسي، وذلك بالاستناد إلى الوقائع التالية:

١ ـ من الممكن أن نهتدي لدى العديد من المرتكسين، (وحتى لدى المرتكسين المطلقين)، إلى خبرة جنسية في مطلع حياتهم لا يعدو ميلهم الجنسي المثلي أن يكون استطالة لها وعقبى دائمة.

٢ ـ من الممكن أن نؤكد، بخصوص مرتكسين عديدين آخرين، أن الظروف الخارجية الموائمة أو غير الموائمة هي التي تؤدي في وقت مبكر أو متأخر إلى تثبيت الارتكاس (انحصار المعاشرة بأشخاص من نفس الجنس، التلاصق الجسدي في زمن الحرب، الاعتقال في السجون، الخوف من الأخطار المترتبة على العلاقات الجنسية الغيرية، العزوبة، الضعف الجنسي، إلخ).

٣ ـ في مقدور الإيحاء التنويمي إلغاء الارتكاس، وهو أمر قمين بأن يبعث على العجب الشديد في حال التسليم بالطابع الفطري.

إن أخذ هذه الوقائع بعين الاعتبار قد يحمل بعضهم على إنكار وجود ارتكاس فطري إنكاراً تاماً. ومن ثم قد يجوز القول (مع هافلوك إلِّيس)[١٣] إن التمعن في فحص حالات الارتكاس الفطري المزعومة قمين في أرجح الظن بأن يميط اللثام عن وجود خبرة في الطفولة المبكرة كان لها على اتجاه الليبيدو تأثير حاسم؛ وهذه الخبرة، وإن استبعدت من الذاكرة الشعورية، قابلة للاسترجاع عن طريق تأثير موائم. وفي رأي أنصار هذا التصور لا يمكن توصيف الارتكاس إلا بأنه مظهر شائع من المظاهر العديدة لتقلُّب الدافع الغريزي الجنسي، يتعيَّن بتأثير ظروف حياتية خارجية.

إن هذا الرأي، الجدير بكل تصديق في ظاهره، لا يصمد أمام الواقعة التالية التي يسهل التحقق منها: فكثيرون هم الأفراد الذين مرّوا بمثل تلك الخبرات الجنسية، حتى في مطلع حياتهم (الإغواء، الاستمناء المتبادل)، بدون أن يصيروا بنتيجة ذلك من المرتكسين، أو على أية حال بدون أن يتلبس ارتكاسهم صفة الديمومة. ومن ثم نجدنا مدفوعين إلى الافتراض بأن الخيار بين الطابع الفطري

١٣ـ هافلوك إلِّيس: طبيب وكاتب ومصلح اجتماعي بريطاني (١٨٠٩ ـ ١٩٣٩). له كتاب عن **الجنسية المثلية**، وكان أول من صاغ مفهومي النرجسية والإيروسية. وفرويد يحيل هنا إلى مقال له بعنوان: **الارتكاس الجنسي**. «م».



والطابع المكتسب ليس قاطعاً: فهو لا يستوعب الوقائع كلها أو لا يتطابق مع المعطيات الفعلية للارتكاس.

تفسير الارتكاس ـ سواء أآخذنا بالفرضية القائلة أن الارتكاس فطري أم بتلك القائلة إنه مكتسب، فإننا لا نكون فسّرنا ماهيته. ففي الحالة الأولى لا بدّ من تحديد ما هو فطري في الارتكاس، اللهم إلا إذا قنعنا بالتفسير الفجّ الذي يقول أن الكائن الإنساني يولد حاملاً معه دافعاً غريزياً جنسياً مرتبطاً مقدَّماً بموضوع جنسي معين. أما في الحالة الثانية فلنا أن نتساءل عما إذا كانت المؤثرات العارضة المختلفة كافية لتفسير السمة المكتسبة بدون أن يكون هناك استعداد مسبق لدى الفرد. ونفي هذا العامل الأخير ليس مما يمكن القبول به طبقاً لما تقدم بيانه.

اللجوء إلى الجنسية الثنائية ـ لقد تقدم كل من فرانك ليدستون Lydston[١٤] وكيرنان Kiernan[١٥] وشيفالييه Chevalier[١٦] على التوالي بنظرية لتفسير واقعة الارتكاس الجنسي تتناقض والرأي الشعبي. فالكائن البشري، بموجب هذا الرأي، لا بدّ أن يكون إما رجلاً وإما امرأة. والحال أن العلم يعرّفنا بحالات تمّحي فيها الحدود بين الطبائع الجنسية بحيث يغدو من العسير تحديد الجنس، وذلك من الناحية التشريحية أولاً. فالأعضاء التناسلية لدى هؤلاء الأشخاص تجمع بين خصائص الذكورة والأنوثة (الخنوثة). وفي بعض الحالات النادرة يوجد الجهازان التناسليان لكلا

١٤ ـ فرانك ليدستون: طبيب بولي وجراح أميركي (١٨٥٨ ـ ١٩٢٣). اشتهر بعملية زرع نسيج الخصية البشرية أو الحيوانية لدى الرجال المعانين من الشيخوخة وضعف الانتصاب أو من قصور الخصيتين. وتخصص أيضاً بالأنتروبولوجيا الإجرامية. من مؤلفاته: **العجز الجنسي والعقم المرتفقان بانحراف في الوظيفة الجنسية**، وكذلك **زرع الغدة التناسلية**. وفرويد يشير هنا إلى مبحثه المنشور في **التقرير الطبي والجراحي** لعام ١٨٨٩: **الانحراف الجنسي والشبق عند الرجل والمرأة**. «م».

١٥ ـ ج. غ. كيرنان: طبيب نفسي أميركي استشهد فرويد بآرائه في عدد من كتاباته. والإحالة في النص أعلاه إلى بحثه المنشور في **المجلة الطبية الأمريكية**، العدد ٤، عام ١٨٨٨: **الانحراف الجنسي وجرائم هوايتشابل**. وهذه الجرائم التي ارتكبت في الضاحية الشرقية من لندن بين ٣ نيسان/ أبريل ١٨٨٨ و١٣ شباط/ فبراير ١٨٩١ وقعت ضحيتها إحدى عشرة امرأة غالبيتهن من البغايا وما أمكن الاهتداء إلى هوية قاتلهن، ونسبت إلى جاك الذباح. «م».

١٦ ـ جوليان شوفالييه: طبيب نفسي فرنسي. اشتهر بكتابه الذي يرجع إليه فرويد هنا: **مرض في الشخصية: الارتكاس الجنسي**، الصادر عام ١٨٩٣. «م».



الجنسين جنباً إلى جنب مكتملي النمو (الخنوثة الحقيقية)؛ ولكن الأكثر شيوعاً أن يصيبهما جميعاً الضمور(١٧).

لكن ما هو ذو دلالة في هذه المظاهر الشذوذية هو أنها تلقي ضوءاً لامتوقعاً على تكوين البنية السويّة. فدرجة معيَّنة من الخنوثة التشريحية لا تخرج عن حدود السواء. وإننا لنجد لدى كل فرد، أذكراً كان أم أنثى، آثاراً من العضو التناسلي للجنس المقابل. وهذه الآثار إما أن توجد وجوداً ضامراً فلا تؤدي أية وظيفة، وإما أن يكون قد أعيد تكييفها لتؤدي وظائف مغايرة.

والتصور الذي يترتب على هذه الوقائع المعروفة منذ أمد بعيد هو التصور القائل بوجود تعضية ثنائية الجنس في الأصل اتجهت، في مسار تطورها، نحو الجنسية الأحادية، وحافظت في الوقت نفسه على بقايا ضامرة من الجنس المقابل.

كان من الممكن أن ننقل هذا التصور إلى المضمار النفسي فنفهم الارتكاس، في مختلف ضروبه، على أنه تعبير عن خنوثة نفسية. والبتّ في المسألة ما كان يقتضي إلا أن نتمكن من معاينة تطابق مطَّرد بين الارتكاس وبين العلامات النفسية والبدنية للخنوثة.

غير أن هذا التوقع كان مآله إلى خيبة. فالعلاقات بين النغولة النفسية المفترضة والنغولة التشريحية المقررة بصورة آلية ليست وثيقة ولا مطَّردة إلى الحدّ الذي زعمه بعضهم. وما نلقاه لدى المرتكسين هو في كثير من الأحيان انخفاض في الدافع الغريزي الجنسي (هافلوك إلِّيس) وضمور طفيف في الأعضاء، وهذا شائع، لكنه غير مطَّرد، ولا حتى غالب. ومن ثم لا مفرّ لنا من التسليم بأن الارتكاس والخنوثة البدنية هما بالإجمال مستقلان واحدهما عن الآخر.

---

١٧ ـ انظر آخر وصف مفصل للخنوثة البدنية لدى تاروفي Tarouffi(*): **الخنوثة والعنّة**، وكتابات نيوجباور Newgebauer(**): عدة أجزاء من **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة**.

(*) سيزار تاروفي: عالم تشريح إيطالي (١٨٢١ ـ ١٨٩٤). تُرجم كتابه **الخنوثة والعنّة** إلى الألمانية عام ١٩٠٣.

(**) نيوجيباور: طبيب نسائي بولوني (١٨٥٦ ـ ١٩١٤). يعدّ مرجعاً في مسألة الخنوثة. «م».



وكذلك عُلقت أهمية كبيرة على السمات الجنسية المسماة بالثانوية أو الثالثية، وعلى كثرة تواترها لدى المرتكسين (هـ. إلِّيس). وهذا في كثير من الأحيان صحيح، لكن لا يجوز لنا أن نغفل عن أن هذه السمات الثانوية والثالثية كثيرة التواتر أيضاً لدى أفراد الجنس المقابل، وتنمّ عن علامات نغولة، بدون أن يحدث لدى هؤلاء الأفراد أنفسهم ارتكاس في الموضوع الجنسي.

إن نظرية الخنوثة النفسية كانت ستبدو أقرب إلى الوضوح لو اقترن ارتكاس الموضوع الجنسي بتحوُّل مقابل في صفات الفرد النفسية والغريزية والطبعية المعتادة إلى الصفات المميِّزة للجنس الآخر. لكن ليس لنا أن نتوقع وجود مثل هذا الارتكاس الطبعي بقدر من التواتر إلا لدى المرتكسات من النساء، أما لدى الرجال فلا تتنافى الذكورة النفسية بأتمّ أشكالها مع الارتكاس. فإن أردنا التمسك بفرضية الخنوثة النفسية، فلا بدّ على الأقل أن نضيف أن تظاهراتها في مضامير شتى لا تتيح لنا أكثر من أن نعترف بوجود مشروطية متبادلة ضعيفة. والأمر بالمثل إجمالاً فيما يتعلق بالنغولة البدنية؛ وعلى حدّ ما يذهب إليه هلبان Halban[١٨]، فإن ضمور بعض الأعضاء ونمو السمات الجنسية الثانوية نسقان من الوقائع مستقلان في طروئهما واحدهما عن الآخر نسبياً.

لقد وجدت الجنسية الثنائية في شكلها الأكثر فجاجة تعريفاً لها في تصريح أحد الناطقين بلسان المرتكسين الذكور: «دماغ امرأة في جسم رجل»[١٩]. غير أننا لا ندري ما المقصود بـ «دماغ امرأة». والحق أن الرغبة في نقل المشكلة من المضمار السيكولوجي إلى المضمار التشريحي لا جدوى منها ولا مبرر لها في آن معاً. والتفسير الذي يحاوله كرافت - إيبنغ Krafft- Ebing[٢٠] يبدو أقدر على

---

١٨ - ج. هلبان: **تكوين الخصائص الجنسية**، في **ملفات الطب النسائي**، المجلد ٧٠، ١٩٠٣. انظر أيضاً ثبت المراجع الوارد فيه.

١٩ - قائل هذا القول هو ماغنوس هيرشفلد (١٨٦٨ - ١٩٣٥)، وهو من مؤسسي علم الجنس الألماني. «م».

٢٠ - ريشارد كرافت - إيبنغ: طبيب نفسي نمساوي (١٨٤٠ - ١٩٠٢). اشتهر بدراسته: **علم نفس الأمراض الجنسية، دراسة طبية نفسية شرعية برسم الأطباء ورجال القانون**. وله دراسة أخرى بعنوان: **سادية الرجل، مازوخية المرأة**. «م».



الإحاطة بالمشكلة من التفسير الذي يتقدم به أولريخ Ulrich[٢١]، لكنه لا يختلف عنه مع ذلك اختلافاً جوهرياً. يرى كرافت ـ إيبنغ أن الاستعداد الجنسي الثنائي الفطري يزوِّد الفرد بمراكز مخّية مزدوجة، مذكرة ومؤنثة، كما بأعضاء جنسية بدنية. وهذه المراكز لا تنمو إلا وقت البلوغ، وبصورة رئيسية تحت تأثير الغدة الجنسية المستقلة عنها من حيث الاستعداد الفطري. غير أننا نستطيع أن نقول عن هذه «المراكز» المخية ما سبق قوله عن الدماغ المذكر والمؤنث. ثم إننا نجهل، فضلاً عن ذلك، ما إذا كان يجوز لنا أن نسلِّم أصلاً بوجود مواطن مخّية محددة (مراكز) للوظائف الجنسية مشابهة للمواطن التي نسلّم بوجودها بالنسبة إلى وظيفة الكلام مثلاً.

وعلى أي حال، يمكن لنا أن نستبقي مما تقدم فكرتين: أولاهما أنه ثمة وجود في ما يخصّ الارتكاس لاستعداد جنسي فطري ثنائي، وإن كنا لا نعرف كنهه من حيث البنية التشريحية، وأنه ينبغي ثانياً أن نهتم بدراسة الاضطرابات التي تطرأ على الدافع الغريزي الجنسي في أثناء تطوره[٢٢].

٢١ ـ كارل هنريخ أولريخ: صحفي وقانوني ألماني. رائد حركة التحرر الجنسي المثلي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥). نشر عام ١٨٦٤ تحت اسم مستعار، نوما نومانتيوس، كتاباً في خمسة مجلدات تحت عنوان **مباحث حول لغز الحب بين الرجال** أطلق فيه على الجنسيين المثليين، قبل أن يشتهروا بهذا التوصيف، اسم الأورانيين، أي السماويين، نسبة إلى النعت الذي كان يطلق على الإلهة أفروديت. «م».

٢٢ ـ كان أول مؤلف يلجأ إلى الجنسية الثنائية لتفسير الارتكاس (بحسب ما ورد في هامش في المجلد السادس من **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة**) هو أ. غلاي Gley[*]، وذلك في مقال بعنوان **انحرافات الغريزة الجنسية** نشره في **المجلة الفلسفية** Revue Philosophique في شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٤٤. ومن المفيد أصلاً أن نلاحظ أن أكثر المؤلفين الذين يردّون الارتكاس إلى الجنسية الثنائية يلحّون على الدور الذي تضطلع به الجنسية الثنائية ليس لدى المرتكسين وحدهم، بل كذلك لدى أولئك الذين كان تطورهم سوياً، ويرون بالتالي أن الارتكاس هو نتيجة اضطراب في النمو. هذا ما كان قاله شيفالييه (**الارتكاس الجنسي**، ١٨٩٣). ويؤكد كرافت ـ إيبنغ (**مساهمة في توضيح الأحاسيس الجنسية المتضادة**، في **حوليات الطب العقلي والطب العصبي**، المجلد ١٣) أن عدداً كبيراً من المشاهدات يثبت أن هذا المركز الثاني (مركز الجنس الأدنى) يواصل دوره ولو بصورة كامنة. ويؤكد من يدعى الدكتور أردوين Arduin (**قضية النساء والأطوار الجنسية الوسيطة** في **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة**، المجلد ٢، ١٩٠٠) أنه «توجد في كل كائن بشري عناصر مذكرة ومؤنثة تنمو بعكس جنس الفرد من الجنسين الغيريين...» (انظر أيضاً م. هيرشفلد[**]: **التشخيص الموضوعي للجنسية المثلية في حولية الدرجات الجنسية الوسيطة**، المجلد١، ١٨٩٩،



الموضوع الجنسي لدى المرتكسين ـ تفترض نظرية النغولة النفسية أن الموضوع الجنسي عند المرتكس مناقض لموضوع الفرد السويّ. فالمرتكس تجتذبه، مثله مثل المرأة، الصفات الرجولية للجسم والنفس الذكريين. فهو يستشعر نفسه امرأة ويطلب الرجل.

الصفحة ٨ وما يليها). ويؤكد ج. هرمان Hermann(***) (**التكوين، قانون التولد**)، **المجلد ٥، الليبيدو والهوس**، ١٩٠٣) أنه توجد «لدى كل امرأة بذور وسمات ذكرية، ولدى كل رجل، على العكس، بذور وسمات أنثوية».

[ادعى ف. فليس Fliess(****) (**سياق الحياة**) في عام ١٩٠٦ أبوة فكرة الجنسية الثنائية من حيث قابليتها للتطبيق على الأفراد قاطبة] (أضيف سنة ١٩١٠). [أما في أوساط غير الاختصاصيين فتعزى فكرة الجنسية الثنائية البشرية إلى أ. فايننغر Weininger(*****)، وهو فيلسوف وافته المنية في مطلع العمر، وقد ألّف كتاباً، لا يتسم بقدر كبير من التبصر، على أساس هذه الفكرة (**الجنس والطبع**، ١٩٠٣). ومما تقدم يتأكد لنا بطلان ذلك الادعاء] (أضيف سنة ١٩٢٤).

(*) أوجين غلاي: أستاذ الفسيولوجيا والغدد في الكوليج دي فرانس بباريس (١٨٥٧ ـ ١٩٣٠). ترأس أكاديمية الطب الفرنسي. عدا عن مؤلفاته العلمية البحتة كتب محاولات في الفلسفة وتاريخ البيولوجيا. أما الدكتور أردوين فمجهول الهوية ولم يأتِ له ذكر في أدبيات التحليل النفسي إلا من خلال الشاهد الذي يورده فرويد له ومن خلال مقاله المنشور في **حولية الدرجات الجنسية الوسيطة** الذي أعيد نشره في المنتخبات التي جمعها لسلي بار في **السحاقية والنسوية في ألمانيا**، ١٨٩٥ ـ ١٩١٠. «م».

(**) ماغنوس هيرشفلد: طبيب وعالم جنسي ألماني (١٨٦٨ ـ ١٩٣٥). يعدّ أول من حامى عن حقوق الجنسيين المثليين، وناضل في سبيل إلغاء مادة معاقبة الجنسية المثلية في قانون العقوبات الألماني لعام ١٨٧١. نظّم **الرابطة العالمية للإصلاح الجنسي** ولقّبته الصحافة بـ «أينشتاين الجنس»، ودافع عن حقوق النساء والأمهات وحقهن في الإجهاض. هجر ألمانيا بعد استيلاء النازيين على السلطة فيها. من أهم مؤلفاته: **الجنسية المثلية عند الرجال والنساء**، **الجنس في العلاقات الإنسانية**، **العنصرية والتكريون**. «م».

(***) غونكل هرمان: عالم ألماني بتاريخ الأديان وبالعهد القديم (١٨٦٢ ـ ١٩٣٢). من مؤلفاته: **إسرائيل وبابل**، **القصص الشعبي في العهد القديم**. «م».

(****) فلهلم فليس: طبيب ألماني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨). اختص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة وحاول أن يربط بين أمراض الأنف والأعضاء التناسلية. دارت بينه وبين فرويد مراسلات غزيرة ابتداء من عام ١٨٨٧. ولكن فليس توقف عن مراسلة فرويد في عام ١٩٠٢ متهماً إياه بأنه انتحل أفكاره بخصوص الجنسية الثنائية، فأحرق فرويد على الأثر جميع رسائل صديقه القديم واتهمه بالهذاء الهذياني الذي يخفي وراءه ميولاً جنسية تجاهه. أما رسائل فرويد فقد بيعت لتاجرِ سقَطٍ فاشترتها منه ماري بونابرت، التي كان فرويد قد تولى تحليلها، ورفضت تسليمه إياها خوفاً من أن يحرقها. وقد طبعت لأول مرة عام ١٩٨٥، ثم صدرت طبعة جديدة منها غير مشذّبة عام ٢٠٠٦. «م».

(*****) أوتو فايننغر: فيلسوف وكاتب نمساوي (١٨٨٠ ـ ١٩٠٣). التقى فرويد عام ١٩٠٢ واعتنق البروتستانتية، ثم مات منتحراً وهو في الثالثة والعشرين من العمر. «م».



غير أن ذلك، وإن صدق على عدد كبير من المرتكسين، لا يمثّل خاصية عامة للارتكاس. فمما لا جدال فيه أن عدداً كبيراً من المرتكسين الذكور يبقون محتفظين بالخصائص النفسية للذكورة، ولا يظهرون إلا قدراً ضئيلاً من الخصائص الثانوية للجنس المقابل، ويطلبون في موضوعهم الجنسي الخصائص النفسية المؤنثة. ولو كان الأمر على غير ذلك لعزّ علينا أن نفهم لماذا يتعمّد المتعهرون الذكور، الذين يعرضون أنفسهم على المرتكسين، أن يحاكوا، اليوم كما في العصور الغابرة، المرأة في ملبسها ومظهرها الخارجي. ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان لهذه المحاكاة إلا أن تجرح المثل الأعلى للمرتكسين. وقد كان جلياً لدى الإغريق، حيث نلتقي في عداد المرتكسين أكثر الأفراد رجولة، أن ما كان يهيّج شهوتهم ليس ما هو ذكري لدى الغلام، وإنما ما تتصف به أجسام الغلمان من صفات أنثوية، وكذلك ما تتصف به نفوس هؤلاء الغلمان من خجل وحياء وتواضع ورغبة في التعلم وحاجة إلى الحماية. وكان الغلام إذا ما شبّ عن الطوق وصار رجلاً، لا يعود موضوعاً جنسياً للرجال، وقد يغدو بدوره مغرماً بالصبيان. وفي هذه الحالة، كما في حالات أخرى كثيرة، لا يكون الموضوع الجنسي هو ما ينتمي إلى الجنس ذاته، بل ما يجمع في ذاته بين الجنسين كليهما، فكأنما نحن هنا أمام تسوية بين حاثّة Motion تطلب الرجل وأخرى تطلب المرأة، ولكن بشرط أن يكون الموضوع الجنسي متصفاً بالخصائص التشريحية للرجل (جهاز تناسلي ذكري) [كما لو أنه انعكاس للطبيعة الثنائية الجنس للفرد المعني][٢٣] (أضيف سنة ١٩١٥).

والأمور لدى المرأة أقل التباساً بعد. فالمرتكسات الإيجابيات يبدين في كثير من الأحيان عن خصائص بدنية ونفسية ذكرية ويطلبن الأنوثة في موضوعهن

٢٣ - [لئن لم يتأتَّ للتحليل النفسي إلى يومنا هذا أن يوضح توضيحاً كاملاً أصول الارتكاس، فقد أمكن له على كل حال أن يكتشف الآلية النفسية لتكوينه وأن يعرض المسألة عرضاً جديداً. فقد تسنى لنا أن نتحقق، في جميع الحالات التي فحصناها، من أن أولئك الذين سيصيرون فيما بعد من المرتكسين يمرّون في السنوات الأولى من طفولتهم بطور قصير الأمد يتثبّت فيه الدافع الغريزي الجنسي بقوة على المرأة (في أغلب الأحيان على الأم) وأنهم، بعد أن يتخطوا هذه المرحلة، يتماهون مع المرأة ويغدون الموضوع الجنسي لأنفسهم، أي يطلبون، من منطلق النرجسية، يافعين يشبهونهم ويريدون منهم أن يحبّوهم كما أحبّتهم أمهم هم أنفسهم. وقد تسنى لنا أيضاً أن نشاهد في كثير من الأحيان أن من يقال لهم



الجنسي. ولكن التبحر في معرفة الوقائع من شأنه أن يكشف، هنا أيضاً، عن قدر

بالمرتكسين ليسوا البتة عديمي الحساسية بمفاتن المرأة. ولكنهم يحولّون الإثارة التي يحدثها فيهم الجنس الآخر إلى موضوع ذكري. وهم يكررون بذلك مدى حياتهم الآلية التي كانت السبب في نشوء ارتكاسهم. فاندفاعهم القهري نحو الرجل مشروط بهرب دائم من المرأة] (أضيف سنة ١٩١٠).

[يأبى التحليل النفسي كل الإباء التسليم بأن الجنسيين المثليين يؤلفون فئة لها تكوينها الخاص وقابلة للفصل عن سائر بني البشر. وقد تسنى له، من خلال دراسته لإثارات أخرى غير الإثارات الجنسية السافرة، أن يقرر أن الأفراد كلهم، أياً ما كانوا، قادرون على اختيار موضوع لهم من جنسهم نفسه، وأنهم جميعاً قاموا بهذا الاختيار في لاشعورهم. بل في وسعنا أن نجزم أن المشاعر الإيروسية التي تنصبّ على أشخاص من الجنس نفسه تلعب في الحياة النفسية السويّة دوراً لا يقل أهمية عن ذاك الذي تلعبه المشاعر المنصبّة على الجنس الآخر، وأن أهميتها كعلّة لنشوء الحالات المَرَضية لهي أكبر بعد. بل إن التحليل النفسي يرى أن اختيار الموضوع بصرف النظر عن جنسه، أي التعلق بمواضيع مذكرة ومؤنثة على حدّ سواء، على نحو ما يتبدى في طفولة الرجل كما في طفولة الشعوب، هو الحالة الأصلية، وأن هذه الحالة لا تتطور إلى جنسية سوية أو إلى ارتكاس إلا بنتيجة تقييدات تفرض تارة في اتجاه وطوراً في آخر. وعلى هذا، إن الاهتمام الجنسي الحصْري للرجل بالمرأة ليس في نظر التحليل النفسي من بديهيات الأمور، وليس مجرد ضرب من انجذاب ذي طبيعة كيماوية، بل يطرح معضلة لا بدّ لها من توضيح وتعليل. وإنما بعد البلوغ فحسب يتخذ الموقف الجنسي شكلاً نهائياً، ويأتي القرار عندئذ نتيجة لسلسلة من العوامل، مردّها جزئياً إلى جِبِلّة الفرد، وجزئياً إلى علل عارضة لا نعرفها كلها بعد. ومن الممكن، بطبيعة الحال، أن تكتسب بعض هذه العوامل أهمية قصوى فتحدد النتيجة باتجاه أو بآخر. غير أنه لا مناص لنا من التسليم، إجمالاً، بأن تنوع العوامل المحددة ينعكس في تعدد المواقف الجنسية. وفي الحالات الارتكاسية تُلحظ على الدوام غلبة عناصر جِبِلِّية موغلة في القدامة وآليات نفسية بدائية. ويلوح أن الاختيار الموضوعاني النرجسي والحفاظ على الأهمية الإيروسية للمنطقة الشرجية هما السمتان الأكثر جوهرية للأنماط الارتكاسية. على أنه لا جدوى على الإطلاق من الاستناد إلى عناصر جِبِلِّية من هذا النوع لفصل الحالات الارتكاسية القصوى عن غيرها. وبالفعل، إن السمات التي نلحظها في الحالات القصوى قد تتكرر أيضاً، وإن بدرجة أقل، في الحالات الانتقالية، وحتى لدى أفراد أسوياء كل السواء. والواقع أن الأنماط الارتكاسية يمكن أن تتنوع كيفياً، لكن التحليل يثبت لنا أن الفروق الشارطة لها لا تتنوع إلا كمياً. وفي جملة المؤثرات العرضية التي تحدد اختيار الموضوع الجنسي ميّزنا بوجه خاص الحرمان (أي الإحجام المبكر عن النشاط الجنسي من جراء التخويف منه). كما استرعى انتباهنا الدور الهام الذي يلعبه حضور الوالدين. وبالفعل، إن غياب أب قوي في الطفولة يمهد الطريق في كثير من الأحيان أمام الارتكاس. وأخيراً، لا يجوز أن نقيم أية صلة بين الارتكاس حيال الموضوع الجنسي وبين وجود سمات جنسية خنثوية لدى الفرد، إذ لا علاقة مطردة بين كلتا الظاهرتين (عدِّل سنة ١٩١٥).

[فيرنزي Ferenczi(*)، في مقال له بعنوان **حول تصنيف الجنسية المثلية الذكرية (المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ٢، ١٩١٤) أكد بصدد مسألة الارتكاس على جملة من النقاط الهامة. فهو يحتجّ بحقّ على ما تتعرض له عبارة «الجنسية المثلية» من سوء استعمال، فيقترح استبدالها بتسمية



أعظم من التنوع.

أنسب: «الإيروسية الاستجناسية Homoérotisme) إذ تشمل سلسلة بكاملها من الحالات التي تختلف اختلافاً كبيراً في أهميتها من الناحيتين العضوية والنفسية على السواء، وإن جمعت بينها سمة الارتكاس. ويطالب بتمييز نمطين على الأقل: من جهة أولى النمط الإيروسي الاستجناسي **الذاتي** الذي يستشعر فيه الفرد نفسه أنثى ويتصرف كأنثى، ومن الجهة الثانية النمط الإيروسي الاستجناسي **الموضوعاني** الذي يتصف فيه الفرد بكل سمات الذكورة ولكنه يقايض الموضوع الأنثوي بموضوع من نفس جنسه. وهو يرى في النمط الأول «حالة جنسية وسيطة» حقيقية بالمعنى الذي يعطيه ماغنوس هيرشفلد لهذه الكلمة. وبالمقابل، يلجأ إلى مصطلح أقل توفيقاً في نظرنا عندما يعدّ الفرد من النمط الثاني مريضاً مصاباً بالعصاب الوسواسي. ويضيف قوله إن الفرد من النمط الإيروسي الاستجناسي الموضوعاني هو وحده الذي يحاول أن يقاوم الميل إلى الارتكاس، وهو وحده الذي يتوفر له بعض الحظّ في الاستجابة للعلاج النفسي. ومع إقرارنا بوجود هذين النمطين فعلاً، نبيح لأنفسنا أن نضيف القول إن عدداً غير قليل من الأشخاص تمتزج لديهم درجة محددة من الإيروسية الاستجناسية الذاتية بقدر من الإيروسية الاستجناسية الموضوعانية.

وفي الآونة الأخيرة سلطت أبحاث علم الأحياء، وفي المقام الأول أبحاث يوجين شتايناخ(**) Steinach، ضوءاً باهراً على الشروط العضوية للإيروسية الاستجناسية، وكذلك على السمات الجنسية بوجه عام.

فقد أجريت تجارب، قُرن فيها الخصاء بزرع غدد الجنس الآخر، على أنواع شتى من الثدييات، فأمكن تحويل الذكور إلى إناث، وبالعكس. وقد بدت آثار هذا التحول واضحة بقدر متفاوت الكمال في السمات الجنسية البدنية وفي الموقف النفسي الجنسي (الإيروسية الذاتية والموضوعانية). ويقال إن العامل المحدد لهذا التحول الجنسي ليس ذلك الجزء من الغدة الذي يؤلف الخلايا التناسلية، وإنما هو الغدة التي تشكل النسيج الثنائي الخلية للعضو (غدة البلوغ).

وقد أمكن في بعض الحالات إحداث تحول جنسي لدى رجل مصاب بسلّ الخصيتين. فقد كان هذا الرجل يسلك حتى ذلك الحين مسلك الجنسي المثلي السلبي، أي مسلكاً أنثوياً. وقد وجدت لديه صفات أنثوية بارزة (تراكم شحمي في الثديين والردفين..إلخ). وبعد أن زرعت له خصية بشرية غير هابطة من مريض آخر، سلك مسلك الذكور وطفق يوجّه طاقته الليبيدوية توجيهاً سوياً نحو المرأة، واختفت لديه في الوقت نفسه السمات الأنثوية البدنية (أ. ليبشوتز Lipschutz(***): **غدة البلوغ ومفاعيلها**، بيرن ١٩١٩).

على أنه لا مسوغ لأن نتوقع أن تتمخض هذه التجارب الشائقة عن أساس جديد لنظرية الارتكاس، ومن السابق لأوانه أن نفترض أنها قمينة بأن تهدينا إلى طريق جديد للوصول إلى «شفاء» الجنسية المثلية بوجه عام. وينطق فليس بالحقّ إذ يقول إن هذه التجارب لا تطعن في صحة النظرية القائلة بوجود استعداد عام للجنسية الثنائية لدى الحيوانات العليا. ويلوح لنا على العكس أنه من الأرجح أن متابعة هذا النوع من التجارب كفيلة بتقديم برهان تأييدي لفرضية الجنسية الثنائية (أضيف سنة ١٩٢٠).

(*) ساندروز فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ - ١٩٣٣). ولد من أبوين يهوديين بولونيين فحوَّل كنيته من فرانكل إلى فيرنزي لتكون ذات وقع مجري. خضع للتحليل النفسي على يد فرويد، وحلّل



الهدف الجنسي لدى المرتكسين ـ إن ما ينبغي التأكيد عليه في المقام الأول هو أن الهدف الجنسي في الارتكاس لا يمكن في حال من الأحوال وصفه بأنه واحد متماثل. فالجماع عن طريق الشرج لدى الرجال ليس الشكل الوحيد للاتصال الجنسي لدى المرتكسين. وكثيراً ما يكون الاستمناء هدفهم الأوحد، كما أن الهدف الجنسي عندهم قد تصيبه موجات متعاقبة من الانكماش، حتى لا يتبقى منه سوى محض دفق عاطفي، وهذه حالة أقل تواتراً في الحب الجنسي الغيري. كذلك إن الأهداف الجنسية للمرتكسات من النساء متنوعة، ويبدو أن الملامسة عن طريق الأغشية المخاطية الفموية تتقدم هنا على غيرها من الأهداف.

خلاصة ـ من المحقق أننا نجد أنفسنا عاجزين هنا عن الاهتداء إلى تفسير مرضٍ لظهور الارتكاس على أساس المادة التي توفرت لنا حتى الآن، ولكن في وسعنا أن نسجِّل أننا توصلنا من خلال تنقيبنا هذا إلى رؤية لواقع الأمور قد تبدو أبعد أهمية بالنسبة إلينا من احتمال فك لغز المعضلة المطروحة. فقد تنبهنا الآن للخطأ الذي كنا وقعنا فيه إذ أقمنا روابط أوثق مما ينبغي بين الدافع الغريزي الجنسي والموضوع الجنسي. فقد أفادتنا الخبرة، التي زوّدتنا بها الحالات التي نعدّها غير

بدوره ميلاني كلاين وجيزا روهايم، وهما من أعلام المدرسة التحليلية. اشتكى من رياء كثرة من المحللين النفسيين ممن يخفون فشلهم في معالجة مرضاهم وراء مفهوم المقاومة والتحويل السلبي. لُقِّب بـ «الولد المزعج» للتحليل النفسي لأنه طالب بتعديل النظرية والمفاهيم تبعاً لكل حالة ولكل موضوع. ومن هنا كان تجديده على الصعيد النظري والسريري. ومن المفاهيم التي اعتمدها الاستبطان كمقابل للإسقاط. وأزاح النقاب عن الرغبات اللاشعورية للمحلِّل نفسه، وليس فقط للمحلَّل. من أهم مؤلفاته: **مفهوم الاستبطان، الطفل في الراشد، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية، الكحول والأعصبة، علم نفس النكتة والهزل، الرضة.** «م».

(**) يوجين شتايناخ: فسيولوجي نمساوي (١٨٦١ ـ ١٩٤٤). رائد في مجال علم الغدد. ترأس المعهد البيولوجي لأكاديمية العلوم الفييناوية. اشتهر بالتجربة التي أجراها على حيوان قارض يعرف باسم الخنزير الهندي، فخصى الذكر وزرع بيضتيه في الأنثى. كذلك اشتهر بالعملية الجراحية التي استهدف من ورائها إزالة التعب الناجم عن الشيخوخة وضعف الطاقة الجنسية عند الرجال المتقدمين في السن عن طريق ربط العروق. وكان فرويد نفسه والشاعر البريطاني وليم ييتس ممن أجريت لهم هذه العملية التي فقدت شهرتها تدريجياً مع اكتشاف الأدوية المنشطة للذكورة. «م».

(***) ألكسندر ليبشوتز: طبيب ليتوني (١٨٨٣ ـ ١٩٨٠). درّس في جامعات زوريخ وبون وبرن وفيينا وأستونيا والتشيلي. له ٢٢ مؤلفاً، واختص بعلم الغدد ومعالجة الأمراض السرطانية. «م».



سوية، أنه يوجد بين الدافع الغريزي الجنسي والموضوع الجنسي لِجام قد يغيب عن انتباهنا في الحياة الجنسية السويّة حيث يبدو الدافع الغريزي وكأنه يحتوي بذاته من الأساس على موضوعه. وهذا ما يدعونا إلى أن نفصل، إلى حدّ ما، بين الدافع الغريزي والموضوع. وعلى هذا النحو يكون مباحاً لنا أن نرخي عرى الرابط الذي يربط في ذهننا بين الدافع الغريزي الجنسي والموضوع. ذلك أنه من المرجح أن الدافع الغريزي الجنسي يوجد في أول الأمر مستقلاً عن موضوعه، وأن تظاهره لا يتعيَّن في أرجح الظن بإثارات صادرة عن الموضوع.

ب ـ اللاناضجون جنسياً والحيوانات باعتبارها مواضيع جنسية

على حين أن الأشخاص الذين يختارون موضوعهم الجنسي من غير الجنس الذي يفترض فيه أن يجذب الأسوياء، أي المرتكسين، يوحون للمراقب أنهم أفراد أسوياء من سائر النواحي الأخرى، نجد أن الحالات التي يقع فيها الاختيار على أشخاص غير ناضجين جنسياً (أطفال) كموضوع جنسي تتبدى لنا للحال على أنها حالات من الانحراف قائمة بذاتها. ويندر للغاية أن يكون الأطفال هم الموضوع الجنسي الوحيد، وفي العادة لا يعزى إليهم هذا الدور إلا حين يعزم فرد من الأفراد، وقد صار جباناً عنيناً، على اللجوء إلى مثل هذا الحل البديل، أو إلا حين لا يجد الدافع الغريزي الجنسي، وقد اندفع واستبدّ (لم يعد يحتمل الإرجاء)، موضوعاً أكثر مواءمة لإشباعه. ومهما يكن من أمر، فإن ما يسلِّط ضوءاً على طبيعة الدافع الغريزي الجنسي كونه يحتمل تنوعاً كبيراً في موضوعه وتدهوراً في مستواه إلى حدّ لا يهبط إليه الجوع، المتمسّك بموضوعه الخاص تمسكاً أقوى بكثير، إلا في حالات قصوى. وتصدق مثل هذه الملاحظة على مجامعة الحيوانات أيضاً، وما هي على ندرة كبيرة عند أهل الريف، إذ يبدو هنا وكأن الجاذب إلى الجنس الآخر قد تخطى حاجز النوع.

قد يطيب لبعضهم، لأسباب جمالية، أن يعزو هذه الحالات الخطيرة من انحراف الدافع الغريزي الجنسي، وغيرها من الحالات، إلى المرضى العقليين. لكن ذلك لا يبدو أمراً ممكناً. فالخبرة تفيدنا أن اضطرابات الدافع الغريزي



الجنسي لا تختلف في هذه الحالات عما هي عليه لدى الأسوياء، وأنها شائعة لدى شعوب بكاملها ولدى بعض الطبقات الاجتماعية. فالتغرير بالأطفال يقع بكثرة تبعث على القلق لدى معلمي المدارس ونظّارها، بالنظر إلى مواتاة الظروف لهم في هذه الأحوال. ونلتقي هذه الانحرافات عينها لدى المرضى العقليين، ولكن بدرجة أشدّ، أو قد تصير حصرية ـ وهو أمر له دلالته الكبيرة ـ فتحلّ محل الإشباع الجنسي السويّ.

إن هذه العلاقة الملفتة جداً للنظر بين مختلف التنوعات الجنسية في السلّم الذي يتدرج من الحالة السويّة إلى المرض العقلي لهي ظاهرة تستدعي التأمل. وإني لأجنح إلى الاعتقاد بأن الواقعة المطلوب تفسيرها قد يكون من شأنها أن تدلّنا على أن حاثات الحياة الجنسية هي من النوع الذي لا يقع إلا ضمن أضيق الحدود تحت سلطان النشاط النفسي الأعلى حتى في الحالات السويّة. وتدلّني خبرتي على أن الشخص الذي يعدّ غير سويّ عقلياً من وجهة النظر الاجتماعية والأخلاقية، في أي مضمار من مضامير الحياة، هو على الدوام غير سويّ في حياته الجنسية أيضاً. لكن عدداً كبيراً من الناس اللاأسوياء في الحياة الجنسية يضارعون بقية الناس من الجوانب الأخرى كافة ويتمثلون مثلهم تراث حضارتنا التي لا تزال نقطة ضعفها تكمن في الجنسية تحديداً.

على أن أعمّ ما يمكننا استخلاصه مما تقدم من هذه المناقشات هو أن طبيعة الموضوع الجنسي وقيمته ليس لهما إلا دور ثانوي في العديد من الظروف ولدى كثرة مذهلة من الأفراد. وينبغي أن نخلص من ذلك إلى أن الموضوع ليس هو العنصر الأساسي والثابت في الدافع الغريزي الجنسي(٢٤).

٢ ـ الحيدانات عن الهدف الجنسي

٢٤ ـ [الفارق اللافت للنظر بين حياتنا الإيروسية وحياة القدامى الإيروسية يتمثل في أن القدامى كانوا يشددون على الدافع الغريزي، بينما نشدد نحن على الموضوع. في العصور القديمة كان الدافع الغريزي هو الذي يُمجَّد فيُشبغ من ثم بدوره قيمة سامية على الموضوع حتى ولو كان حقيراً. أما في العصور الحديثة فنحن نزدري النشاط الغريزي بحدّ ذاته ولا نلتمس له المسوغات بنوع ما إلا في ما نجده في موضوعه من صفات ومزايا] (أضيف سنة ١٩١٠).



إن ما يُعتبر هدفاً جنسياً سوياً هو اتحاد الأعضاء التناسلية في الفعل المسمّى بالجماع على نحو يفضي إلى ارتخاء التوتر الجنسي وإلى انطفاء مؤقت للدافع الغريزي الجنسي (وهو إشباع مماثل من بعض وجوهه للشبع في الجوع). غير أننا نلتقي، حتى في العملية الجنسية الأكثر سواء، بذوراً قمينة بأن تؤدي، فيما لو نمت، إلى أنواع من الشذوذ توصف بأنها **انحرافات**. فبعض العلاقات الوسيطة مع الموضوع الجنسي (وهي علاقات تتوسط الطريق المؤدي إلى الجماع)، من قبيل ملامسته أو تملّيه بالنظر، تعتبر أهدافاً جنسية تمهيدية. وهذه الأفعال التمهيدية تصحبها من جهة أولى لذة، وتزيد من الجهة الثانية من شدة التهيُّج الذي ينبغي أن يدوم إلى حين إنجاز الفعل الجنسي. وقد اكتسبت إحدى هذه الملامسات، وأعني الملامسة بالأغشية المخاطية الفموية ـ وتعرف في العادة بالقبلة ـ قيمة جنسية رفيعة لدى شعوب كثيرة، ومنها الشعوب المتحضرة، على الرغم من أن أجزاء الجسم المعنيّة لا تتبع الجهاز التناسلي، بل تؤلف مدخل القناة الهضمية. وعلى هذا النحو نجد أنفسنا حيال عوامل تتيح لنا ربط الانحرافات بالحياة الجنسية السويّة ويمكن أن تفيدنا في تصنيف تلك الانحرافات. وبالفعل، إن الانحرافات هي إما:

أ ـ **تعدّيات** تشريحية تتخطى أجزاء الجسم المخصصة للاتصال الجنسي.

ب ـ **وقفات** عند بعض العلاقات الوسيطة بالموضوع الجنسي، وهي علاقات يُفترض المرور بها في الحالات السويّة مروراً سريعاً على طريق الهدف الجنسي النهائي.

أ ـ التعديات التشريحية

المبالغة في تقييم الموضوع الجنسي ـ إن القيمة النفسية التي تُعزى إلى الموضوع الجنسي باعتباره هدفاً شهوياً للدافع الغريزي الجنسي لا تقتصر إلا في أندر الحالات على الأعضاء التناسلية، بل تمتدّ إلى كامل جسم هذا الموضوع الجنسي وتنزع إلى استيعاب جميع الأحاسيس التي تصدر عنه. وتطال المبالغة في التقدير المجال النفسي أيضاً وتتجلى في ضرب من العماء المنطقي (وهَن الحكم)



حيال المزايا والكمالات النفسية للموضوع الجنسي، وفي انصياع سهل للأحكام التي تصدر عنه. وهكذا تغدو سرعة التصديق التي تترتب على الحب مصدراً مهماً من مصادر السلطة، **إن لم تكن مصدرها الأول**(٢٥).

والحال أن هذه المبالغة في التقييم الجنسي، التي لا تتفق مع انحداد الهدف الجنسي بتلاقي الأعضاء التناسلية لكل من الشريكين، هي التي تقود إلى توظيف أجزاء أخرى من الجسم لتكون هي الهدف الجنسي(٢٦).

ومن الممكن أن يُدرس دور المبالغة في التقييم الجنسي بصورة رئيسية لدى الرجل الذي باتت حياته الإيروسية وحده في متناول البحث، بينما لا يزال حجاب صفيق مضروباً على الحياة الإيروسية للمرأة، جزئياً بسبب ضمورٍ مصدرُه الحضارة، وجزئياً بفعل التكتم التقليدي وقدر من الافتقار إلى الصدق من جانب النساء(٢٧).

الاستخدام الجنسي للأغشية المخاطية الفموية ـ الشفوية ـ يعتبر استخدام الفم كعضو جنسي انحرافاً حين تلامس الشفتان (أو اللسان) الأعضاء التناسلية

٢٥ ـ لا يسعني في هذا المقام إلا أن أعيد إلى الأذهان ما يبديه المنوَّمون من خضوع ساذج لمنوِّمهم. وهذا ما جعلني أفترض أن طبيعة التنويم تتمثل في التثبيت اللاشعوري لليبيدو على شخص المنوِّم (بوساطة العنصر المازوخي في الدافع الغريزي الجنسي).

[تراءى لفيرنزي أن في مقدوره أن يربط بين القابلية للإيحاء وبين «العقدة الوالدية» (**حولية البحوث التحليلية النفسية والمرَضية النفسية**، المجلد ١، ١٩٠٩)] (أضيف سنة ١٩١٠).

٢٦ ـ [إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن المبالغة في التقييم الجنسي لا تحدث دوماً وحصراً في عملية الاختيار الموضوعاني، وسوف نصل فيما بعد إلى تفسير آخر أكثر مباشرة للدور الجنسي لأجزاء الجسم الأخرى] (أضيف سنة ١٩١٥). أما ما تذرع به أ. هوش(*) Hoche وإ. بلوخ من «شهية إلى التهيُّج» لتفسير امتداد الاهتمام الجنسي إلى أجزاء أخرى من الجسم غير الأجزاء التناسلية فلا يبدو لي على تلك الدرجة من الأهمية التي يعزوها إليه المؤلفان. فمختلف الطرق التي يسلكها الليبيدو تتصل فيما بينها بصلات تشبه تلك التي تربط بين الآنية المستطرقة، ولا بدّ أن نأخذ في اعتبارنا ظاهرة المجاري الجانبية. (أضيف سنة ١٩٢٠).

(*) ألفريد إريخ هوش: طبيب نفسي وعصبي ألماني (١٨٦٥ ـ ١٩٤٣). عارض بعنف التحليل النفسي الفرويدي. تركز اهتمامه على علم تحسين النسل. «م».

٢٧ ـ [في عدد معيّن من الحالات النموذجية لا نلاحظ لدى المرأة ميلاً إلى اتخاذ الرجل موضوعاً لـ«مبالغة في التقييم الجنسي»، لكن من النادر جداً ألا تنصبّ هذه المبالغة من جانب المرأة على طفلها] (أضيف سنة ١٩٢٠).



للشريك، لا حين تتلامس الأغشية المخاطية الشفوية للشريكين. وهذا الاستثناء(٢٨) هو بمثابة همزة وصل نحو الفعل السويّ. وحين يأنف المرء من الممارسات الأخرى السارية المفعول منذ بدايات البشرية ويعدّها انحرافات، فإنه يسلم زمامه **لشعور واضح بالقرف** يحميه من تبني أشباه هذه الأهداف الجنسية. غير أن الحدود التي تُرسَم لشعور القرف هذا غالباً ما تكون اعتبارية. فمن يقبّل بشغف شفتي فتاة جميلة قد يشمئزّ من استخدام فرشاة أسنانها، بالرغم من أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن فمه هو، وإن كان لا يقرفه، أنظف من فم الفتاة. ولنلحظ هنا الدور الذي يلعبه القرف: فهو يحول دون المبالغة في التقييم الليبيدوي للموضوع الجنسي، وإن كان في مقدور الليبيدو أيضاً أن يتغلب عليه. وعلى هذا، قد يباح لنا الافتراض بأن القرف هو واحدة من القوى التي تسهم في انكماش الهدف الجنسي. وكقاعدة عامة، تتوقف هذه القوى عند الأعضاء التناسلية ذاتها. إلا أنه لا ريب في أن الأعضاء التناسلية للجنس الآخر قد تكون بحدّ ذاتها مواضيع للقرف، وفي أن هذا السلوك هو واحدة من السمات المميِّزة لجميع المصابين بالهستيريا (وبخاصة منهم النساء). غير أن قوة الدافع الغريزي الجنسي تتجلى في ما تضربه من صفح عن هذا القرف (انظر لاحقاً).

الاستخدام الجنسي للفتحة الشرجية ـ نرى هنا بمزيد من الوضوح قياساً إلى الحالة السابقة أن القرف من استخدام الفتحة الشرجية كهدف جنسي هو الذي يصم هذا الاستخدام بوصمة الانحراف. وإني لآمل ألا يرميني أحد بالتحيُّز إذ ألاحظ أن الحجة التي يُعلل بها هذا القرف على أساس أن هذا الجزء من الجسم وظيفته الإخراج، وهو على تماس مباشر مع المواد المثيرة بحدّ ذاتها للتقزز ـ أي البراز ـ ليست أكثر قابلية للتصديق من السبب الذي تتذرع به الفتيات الهستريات لتعليل قرفهن من العضو التناسلي الذكري على أساس أنه يفيد في التبول.

إن الدور الجنسي للغشاء المخاطي الشرجي ليس محدوداً بحال من الأحوال بالاتصال بين الرجال، وإيثاره ليس العلامة الفارقة للحساسية الارتكاسية. بل

---

٢٨ ـ أي للقبلة. «م».



يلوح على العكس أن مضاجعة الذكور قائمة على أساس المماثلة بين هذه المضاجعة وبين الفعل الذي يتمّ مع امرأة، على حين أن الاستمناء المتبادل هو الهدف الجنسي الغالب في المعاشرة الجنسية بين المرتكسين.

دور أجزاء أخرى من الجسم ـ إن التعدي الجنسي إلى أجزاء أخرى من الجسم لا يمدّنا في مختلف تنوعاته بشيء جديد كل الجدة، ولا يزيدنا معرفة بالدافع الغريزي الجنسي الذي يؤكد على هذا النحو عزمه على الاستحواذ على الموضوع الجنسي من كل صوب ممكن. لكن فضلاً عن المبالغة في التقييم الجنسي، نلحظ في حالات التعدي التشريحي عنصراً جديداً ليس معلوماً بما فيه الكفاية لدى عامة الناس. فبعض أجزاء الجسم، كالأغشية المخاطية الفموية والشرجية ـ التي تؤكد جميع هذه الممارسات على أهميتها ـ قد تطالب بأن تُعدّ أعضاء تناسلية وأن تعامل على هذا الأساس. وسوف نرى كم أن هذا النزوع يبرره نمو الدافع الغريزي الجنسي وكم أنه يتحقق فعلاً في أعراض بعض الحالات المرضية.

بدائل غير ملائمة للموضوع الجنسي ـ التميمية Fétichisme ـ مثيرة حقاً للاهتمام هي الحالات التي يستبدل فيها الموضوع الجنسي السويّ بموضوع آخر متصل به ولكنه غير موائم على الإطلاق لبلوغ الهدف الجنسي السويّ. ولقد كان من الأفضل، توخّياً لمزيد من الوضوح في التصنيف، دراسة هذه الفئة الشائقة من الحيدانات ضمن إطار الحيدانات عن الموضوع الجنسي. غير أننا أرجأنا دراستها إلى ما بعد إحاطتنا **بالمبالغة في التقييم الجنسي**، هذه المبالغة التي بها ترتبط الظاهرات المقترنة بعزوف عن الهدف الجنسي.

إن بديل الموضوع الجنسي هو جزء من الجسم غير موائم كثيراً لهدف جنسي (الشعر، القدمان) أو موضوع جامد ذو صلة بالشخص المحبوب، وفي المقام الأول بحياته الجنسية (قطعة من ثيابه، لباسه الداخلي). ومن الممكن مقارنة هذه البدائل، في الحقيقة، بالتميمة التي يرى فيها المتوحش تجسيداً لإلهه.

إن الانتقال إلى الأشكال التميمية المقترنة بعزوف تام عن الهدف الجنسي السويّ أو المنحرف يتمثل بالحالات التي يشترط فيها بالموضوع، للوصول إلى



الهدف الجنسي، أن يشتمل على سمات تميمية (لون معيَّن للشعر، أو لباس بعينه، أو حتى بعض العيوب الجسمية). وما من تنوُّع آخر شبه مَرَضي من تنوعات الدوافع الغريزية الجنسية يثير اهتمامنا كما يثيره هذا التنوُّع، بالنظر إلى غرابة الظاهرات التي يتمخض عنها. فهو يفترض قدراً من الهبوط في النزوع إلى الهدف الجنسي السويّ (وهَن وظيفي في الجهاز التناسلي)[٢٩]. أما وجه القرابة مع الجنسية السويّة فيتمثل في المبالغة في تقييم الموضوع الجنسي التي هي، فيما يبدو، ضرورة نفسية والتي تطال كل ما هو مرتبط بهذا الموضوع. لذلك نلتقي اطراداً درجة محددة من التميمية حتى في الحب السويّ، وعلى الأخص في المرحلة الحبِّية التي لا يبدو فيها الهدف الجنسي قريب المنال أو قابلاً للتنفيذ:

ائتني بمنديل لامس صدرها

أو برباطِ ساقِ حبيبتي!

فاوست

ويكون الانتقال إلى الحالة المرضية بدءاً من اللحظة التي تتلبس فيها الحاجة إلى التميمة شكلاً ثابتاً وتحلّ محلّ الهدف السويّ، أو كذلك حين تنفصل التميمة عن الشخص المعني وتغدو وحدها هي الموضوع الجنسي. وتلك هي الشروط العامة التي يتم فيها الانتقال من محض تنوعات في الدافع الغريزي الجنسي إلى انحرافات مَرَضية.

يتجلى في اختيار التميمة، كما لاحظ بينيه Binet[٣٠] أولاً وكما أيّدته لاحقاً أدلّة عدة، التأثير الدائم لانطباع جنسي يكون المرء قد تلقاه، في غالب الحالات، في إبان طفولته المبكرة. ويعيد ذلك إلى أذهاننا الثبات الذي يضرب به المثل للحب الأول عند

٢٩ - [هذا الوهن يناظره استعداد جبلّي محدَّد. وقد وجد التحليل النفسي أن التخويف السابق لأوانه من الجنس هو من جملة العلل العارضة التي تسهم في تحويل الفرد عن الهدف الجنسي السويّ وتحمله على طلب بدائل له في مواضيع أخرى] (أضيف سنة ١٩١٥).

٣٠ - ألفريد بينيه: عالم نفسي وتربوي فرنسي (١٨٥٧ - ١٩١١). ساهم في تأسيس علم المقاييس النفسية، ولا سيما مقاييس الذكاء عند الأطفال. ولكن سلالمه الذكائية جرى توظيفها من بعده لأغراض عنصرية. من أشهر مؤلفاته: **مدخل إلى علم النفس التجريبي**، **الدراسات التجريبية للذكاء**، **المغناطيسية الحيوانية**، **التميمية في الحب**، **دراسات في علم النفس التجريبي**. وهذا الكتاب الأخير هو الذي يحيل إليه فرويد هنا. «م».



الأسوياء (On revient toujours à ses premières amours)[٣١]. ويظهر هذا الأصل الأول بجلاء في الحالات التي يكون فيها الموضوع الجنسي من طبيعة تميمية خالصة. ولنا عودة لاحقاً إلى دور الانطباعات الجنسية التي يتلقاها المرء في طفولته[٣٢].

وفي حالات أخرى يتدخل ترابط ذهني من طبيعة رمزية ولاشعورية في الغالب ليفرض إحلال التميمة محل الموضوع. وليس من الميسور دوماً الاهتداء إلى الطريق الذي تسلكه هذه الترابطات الذهنية (فالقدم رمز جنسي قديم جداً وقد ورد ذكره في الأساطير؛ كما أن «الفرو» يدين بدوره كتميمة، على ما تشير الدلائل جميعاً، إلى ما بينه وبين شعر العانة من شبه[٣٣]. ومع ذلك يلوح أن هذا الشكل من الرمزية ليس منقطع الصلة، هو الآخر، بالتجارب الجنسية المعاشة في الطفولة[٣٤].

ب ـ تثبيت الأهداف الجنسية التمهيدية

٣١ ـ بالفرنسية في النص. وهذا القول السائر، الذي يعود أصله إلى بيتين من الشعر في أوبرا **جوكوندا** للكاتب المسرحي الفرنسي شارل غيوم إتيين (١٧٧٧ ـ ١٨٤٥)، له مقابله في الشعر العربي، في بيت أبي تمام المشهور: ما الحب إلا للحبيب الأول. «م».

٣٢ ـ [أفسح التحليل النفسي في المجال، حينما تعمق في البحث، أمام نقد مبرَّر لأطروحة بينيه. فكل المشاهدات المتصلة بهذا الموضوع أكدت أن التميمة كانت قد تمكنت، منذ اللقاء الأول بها، من جذب الاهتمام الجنسي بدون أن تتيح لنا الظروف المصاحبة أن نفهم كيفية حدوث هذه الظاهرة. زد على ذلك أن جميع الانطباعات الجنسية «المبكرة» يجري إرجاعها بموجب تلك الأطروحة إلى ما بعد السنة الخامسة أو السادسة من عمر الفرد المعني، على حين أن التحليل النفسي يحملنا على الشك في إمكان حدوث تثبيتات مرضية جديدة في مثل هذا الزمن المتأخر. وحقيقة الوضع أن ثمة، خلف الذكرى الأولى المتصلة بتكوين التميمة، مرحلةً مطموسة ومنسية من النمو الجنسي، وهي مرحلة تمثلها التميمة كما لو أنها «ذكرى ستارية». وما التميمة في هذه الحال إلا بقية من بقايا تلك المرحلة المطموسة ورسابة من رساباتها. أما انقلاب تلك المرحلة الواقعة في السنوات الأولى من الطفولة إلى نزعة تميمية، وكذلك اختيار التميمة ذاتها، فأمران يتعيَّنان بالجِبِلَّة] (أضيف سنة ١٩٢٠).

٣٣ ـ [ضمن هذا السياق يغدو الحذاء أو الخفّ رمزاً للأعضاء التناسلية الأنثوية] (أضيف سنة ١٩١٠).

٣٤ ـ [توصل التحليل النفسي إلى ردم إحدى الفجوات التي لا تزال موجودة في فهم النزعة التميمية، إذ كشف النقاب عن الدور الذي يلعبه **التلذذ المكبوت بشمّ** الروائح البرازية في اختيار التميمة. فالقدمان والشعر تطلق رائحة نفاذة. وهي تُرفع إلى منزلة التمائم متى ما تمّ العزوف عن الأحاسيس الشمية. ففي تميمية القدم تغدو دوماً الأقدام القذرة والنتنة الرائحة هي الموضوع الجنسي، والإيثار التميمي للقدم قابل للتفسير أيضاً بنظريات الجنسية الطفلية (انظر فيما بعد). فالقدم تنوب مناب القضيب الذي يعزّ على الطفل التسليم بفقدانه لدى المرأة] (أضيف سنة ١٩١٠).

[وقد أمكن، في بعض حالات تميمية القدم، التحقق من أن **الدافع الغريزي إلى النظر**، الذي كان



طروء أهداف جديدة ـ إن جميع الظروف الخارجية والداخلية التي تباعد أو تعيق تحقيق الهدف الجنسي السويّ (العنة، الطابع الثمين للموضوع الجنسي، الأخطار المنسوبة إلى الفعل الجنسي) من شأنها بطبيعة الحال أن تعزز الميل إلى الوقوف عند الأفعال التمهيدية وإلى تحويلها إلى أهداف جنسية جديدة قابلة لأن تحلّ محل الهدف السويّ. والتعمق في الدراسة يظهر أنه مهما بدت هذه الأهداف الجديدة غريبة، فثمة ما يُلْمِع إليها في العملية الجنسية السويّة.

اللمس والنظر ـ إن قدراً من الملامسة ضروري، لدى الكائن الإنساني على الأقل، للبلوغ إلى الهدف الجنسي السويّ. فالأحاسيس التي تنبع من لمس بشَرة الموضوع الجنسي هي، كما هو معلوم لجميع الناس، منبع للذة من جهة أولى ومصدر، من الجهة الثانية، لإثارة جديدة. ومن ثم، إن الوقوف لبعض الوقت عند الملامسات لا يمكن أن يُدرج في عداد الانحرافات، بشرط استمرار الفعل الجنسي بعد ذلك بطبيعة الحال.

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالانطباعات البصرية التي يمكن ردّها في التحليل الأخير إلى الانطباعات اللمسية. فالانطباع البصري هو الذي يتأدى في غالب الأحيان إلى التهيُّج الليبيدوي، وهذه الوسيلة هي التي يعتمدها الانتخاب الطبيعي ـ [إن جاز استخدام مفاهيم غائية][٣٥] ـ كيما ينمي في الموضوع الجنسي صفات الجمال. وعادة ستر الجسم، التي توطدت مع الحضارة، توقظ الفضول الجنسي الذي يصبو إلى تكملة الموضوع الجنسي بالكشف عن أجزائه المستورة ولكن الذي يبقى مع ذلك قابلاً للتحويل (للإسماء Sublimation) باتجاه الحقل الفني إذا أمكن نقل الاهتمام من الأعضاء التناسلية إلى تمام شكل الجسم[٣٦].

والواقع أن غالبية الأسوياء يتوقفون، في العادة، عند الهدف الجنسي الوسيط

منصباً في الأصل على طلب رؤية الأعضاء التناسلية، توقف في منتصف الطريق بفعل ضروب الحظر والكبت، وتثبّت على القدم والحذاء كتميمة. ويتخذ عضو المرأة التناسلي في هذه الحال، وطبقاً لما يتصوره عنه الطفل، شكل عضو الرجل] (أضيف سنة ١٩١٥).

٣٥ ـ غائية: هنا نسبة إلى الإيديولوجيا الغائية. «م».

٣٦ ـ [يتراءى لي أنه لا جدال في أن فكرة «الجمال» تضرب بجذورها في الإثارة الجنسية، وأن الجميل لا يشير في الأصل إلا إلى ما هو مثير جنسياً. ولهذا صلة بواقع أن الأعضاء التناسلية، التي يتولد عن مرآها أقوى التهيُّج الجنسي، لا يمكن أن تُعتبر بحدّ ذاتها جميلة] (أضيف سنة ١٩١٥).



المتمثل بالنظر ذي الصبغة الجنسية، وهذا ما يتيح لهم أن يحوِّلوا مقداراً من الليبيدو نحو أهداف فنية أسمى. وبالمقابل، تغدو لذة النظر هذه انحرافاً: (أ) - إن اقتصرت على الأعضاء التناسلية وحدها؛ (ب) - إن ارتبطت بالتغلب على القرف كما هي حال **المتلصصين** على وظائف التبرُّز؛ (ج) - إن صرَفت عن الفعل الجنسي السويّ بدل أن تمهِّد السبيل له. وهذا ما يشاهد (إن جاز لي استخلاص نتيجة ما من تحليل عدد من الحالات) لدى الاستعرائيين Exhibitionnistes الذين يعرضون للآخرين أعضاءهم التناسلية حتى يعرض الآخرون لهم بدورهم أعضاءهم[٣٧].

إن هذه الانحرافات، التي يهدف الفرد فيها إلى أن يَرى ويُرى، تميط اللثام عن واقعة شائعة جداً، لنا إليها لاحقاً عودة بمزيد من التفصيل في معرض كلامنا عن الانحراف التالي، ونعني بها ظهور الهدف الجنسي في هذه الأحوال بمظهر مزدوج: **إيجابي وسلبي**.

والقوة التي تتصدى للذة النظر، والتي قد تتغلب عليها، هي **الحياء** (نظير القرف سابقاً).

السادية والمازوخية - لقد أطلق كرافت - إيبنغ على الرغبة في إيلام الموضوع الجنسي وعلى نقيضها - وهما أكثر الانحرافات شيوعاً وأهمية - اسم السادية أو المازوخية تبعاً لكونها إيجابية أو سلبية. ويؤثر مؤلفون آخرون مصطلحاً أكثر تحديداً وهو الألغولانيا Algolagnie[٣٨] لإبرازه اللذة التي تتأتى عن الألم والقسوة، على حين أن المصطلح الذي يستخدمه كرافت - إيبنغ يشير في المقام الأول إلى اللذة التي تتأتى عن كل شكل من أشكال الذل والخضوع.

أما فيما يتعلق بالألغولانيا الإيجابية، أي السادية، فمن الميسور أن نهتدي إلى

٣٧ - [يكشف التحليل النفسي في هذا الانحراف، كما في معظم الانحرافات الأخرى، عن كثرة متوقعة من الدوافع والدلالات. فالاستعرائية، مثلاً، ترتبط أيضاً إلى حدّ كبير بعقدة الخصاء؛ فهي بمثابة توكيد متجدد لسلامة العضو التناسلي الذكري، ولشعور الرضى الذي يخامر الصبي الصغير حين يدير في رأسه فكرة خلو الجهاز الأنثوي من هذا العضو] (أضيف سنة ١٩٢٠).

٣٨ - أي حب الألم. وهو مصطلح لم يكتب له البقاء ومنحوت من كلمتين إغريقيتين: ألغوس = الألم، ولاغنوس = الافتتان. «م».



أصولها في الحياة السويّة. فالطاقة الجنسية عند غالبية الرجال تشتمل على عناصر **عدوان**، أي على ميل إلى ممارسة العنف، وهو ميل قد تكون دلالته البيولوجية كامنة في ضرورة التغلب على مقاومة الموضوع بوسيلة أخرى غير المغازلة والإغراء. وعلى هذا، إن السادية تناظر تضخماً في تطور المقوِّم العدواني للدافع الغريزي الجنسي بعد أن يستقلّ بنفسه ويتضخَّم إلى أقصى حدّ ويغتصب عن طريق ضرب من الإزاحة الدور الرئيسي.

[تتأرجح دلالة مصطلح السادية، في اللغة المتداولة، بين موقف إيجابي محض، ثم عنيف تجاه الموضوع الجنسي، وبين الارتهان الحصري للإشباع اللذّيّ بإذلال هذا الموضوع وإخضاعه لضروب شتى من سوء المعاملة. وهذه الحالات الأخيرة هي وحدها التي يمكن أن تعدّ من قبيل الانحراف، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة] (أضيف عام ١٩١٥).

[وعلى المنوال نفسه، تدلّ لفظة المازوخية على جميع المواقف السلبية إزاء الحياة الجنسية والموضوع الجنسي، ويتجلى أقصى مظاهرها في ارتهان الإشباع بالألم البدني أو النفسي من جانب الموضوع الجنسي. وتبدو المازوخية، باعتبارها انحرافاً، أبعد شقّة من السادية عن الهدف الجنسي السويّ. وبوسعنا أن نتساءل عما إذا كانت فعلاً ظاهرة أولية، وعما إذا لم تكن نابعة على الدوام من تحوُّل في السادية[٣٩]. وكثيراً ما نعاين أن المازوخية لا تعدو أن تكون استمراراً للسادية وقد ارتدّت على الشخص ذاته الذي يحلّ في هذه الحال محلّ موضوعه الجنسي. ويحملنا التحليل السريري لهذه الحالات الخطيرة من الانحراف المازوخي على الاعتقاد بأنها نتيجة مركَّبة لسلسلة من العوامل التي تعزِّز وتثبِّت الموقف الجنسي السلبي الأصلي (عقدة الخصاء، الشعور بالذنب)]

٣٩ ـ [بالاستناد إلى بعض الفروض بصدد بنية الجهاز النفسي والأنماط الرئيسية للدوافع الغريزية العاملة فيه، أدخلت لاحقاً تعديلات بعيدة المدى على تصوُّري للمازوخية. فقد وجدتني منقاداً إلى التسليم بوجود مازوخية **أولية ـ شهوية** ـ يتطور بدءاً منها لاحقاً شكلان آخران: المازوخية **الأنثوية** والمازوخية **المعنوية**. أما السادية التي لا تجد متصرَّفاً لها في الحياة فترتدّ على الشخص ذاته لتكوّن المازوخية **الثانوية** التي تنضاف إلى المازوخية الأولية (انظر مقالي عن **المشكلة الاقتصادية للمازوخية**، ١٩٢٤)]. (أضيف سنة ١٩٢٤).



(عُدِّل سنة ١٩١٥).

والألم الذي يتمّ التغلب عليه في هذه الحالات شبيه بالقرف والحياء اللذين يتصديان، في الحالات التي تقدمت دراستها، لليبيدو بالمقاومة.

[تشغل السادية والمازوخية بين سائر الانحرافات مكانة خاصة. فالإيجابية والسلبية اللتان تحددان سماتهما الرئيسية المتعارضة هما أيضاً من مقومات الحياة الجنسية بوجه عام] (أضيف سنة ١٩١٥).

يدلّنا تاريخ البشرية الحضاري بلا أدنى مراء أن القسوة والدافع الغريزي الجنسي تربط بينهما صلة وثيقة. بيد أن تفسير هذه العلاقة لم يتعدّ حتى يومنا هذا إبراز أهمية العنصر العدواني في الليبيدو. ولا يحجم بعض المؤلفين عن الافتراض بأن العنصر العدواني الملحوظ في الدافع الغريزي الجنسي ما هو إلا رسابة من الشهوة إلى أكل لحم البشر، مما يعدل القول بأن وسائل السيطرة التي تستخدم في إشباع الحاجة الكبرى الأخرى، السابقة إلى الظهور من زاوية تطور النوع البشري، تلعب هنا دوراً[٤٠]. وقد وُجد أيضاً من يزعم أن كل ألم يتضمن في ذاته إمكانية لذة. وسنكتفي بالقول بأن تأويلاً كهذا لا يبعث على الرضى، وأنه من المحتمل أن تتضافر عدة نوازع نفسية في تكوين الانحراف الناتج عنها[٤١].

بيد أن أغرب سمات هذا الانحراف هي أن شكله الإيجابي وشكله السلبي يلتقيان بانتظام لدى الفرد الواحد. فمن يلذّ له في العلاقة الجنسية أن يوقع الألم بشريكه قادر أيضاً على الاستمتاع بما قد يساوره هو نفسه من ألم في أثناء العلاقة الجنسية. والسادي هو على الدوام أيضاً مازوخي، وإن يكن الجانب الموجب أو الجانب السالب من الانحراف أكثر نمواً لديه وقد يكون هو نشاطه الجنسي الغالب[٤٢].

٤٠ ـ [انظر ملاحظتي التي سيأتي بيانها لاحقاً عن الأطوار القبتناسلية من النمو الجنسي، وفيها تأييد لوجهة النظر هذه] (أضيف سنة ١٩١٥).

٤١ ـ [قادتني الأبحاث التي ذكرتها في الأخير إلى أن أخصّ طباق السادية/ المازوخية، بالنظر إلى أصله الغريزي، بمكانة على حدة وأن أفصله بالتالي عن سلسلة سائر «الانحرافات»] (أضيف سنة ١٩٢٤).



وعلى هذا النحو نشاهد أن بعض النوازع إلى الانحراف تتجلى على الدوام في شكل **أزواج متضادة**، وهو أمر يبدو لنا على جانب كبير من الأهمية من الناحية النظرية، كما ستثبت ذلك حالات أخرى سنتصدى لتحليلها لاحقاً[٤٣]. ومن الجليّ، فضلاً عن ذلك، أن طباق السادية والمازوخية لا يمكن إرجاعه إلى عنصر العدوان وحده. بل على العكس، فقد نميل إلى إرجاع الوجود المتواقت لمثل هذه العناصر المتضادة إلى التعارض بين الذكورة والأنوثة المتواجدتين في الجنسية الثنائية [وهو التعارض الذي يتوجب غالباً استبداله في التحليل النفسي بطباق الإيجاب ـ السلب] (عُدِّل سنة ١٩٢٤).

٣ ـ أفكار عامة حول جملة الانحرافات

التنوع والمرض ـ إن الأطباء، الذين سبقوا إلى دراسة الانحرافات من خلال بعض الحالات الثابتة، وفي شروط خاصة، وجدوا أنفسهم منقادين بطبيعة الحال إلى اعتبارها أعراضاً لمرض أو لانحطاط، مثلما كان الشأن مع الارتكاس. غير أن إثبات تهافت وجهة النظر هذه أسهل بعد مما في حالة الانحراف. فقد دلتنا التجربة أن معظم هذه الحيدانات، أو أقلها خطورة على أي حال، نادراً ما تغيب عن الحياة الجنسية للأفراد الأسوياء الذين ينظرون إليها على أنها مجرد خصوصيات تتعلق بحياتهم الشخصية. وقد يحدث، حيثما تكون الظروف مؤاتية، أن يستبدل الفرد السويّ الهدف الجنسي السويّ بانحراف ما، أو أن

---

٤٢ ـ حسبي هنا دليلاً أن أسوق الفقرة التالية من كتاب هافلوك إلّيس (**علم النفس الجنسي**، ١٩٠٣): «إن جميع حالات السادية والمازوخية التي نعرفها، وحتى الحالات التي عرضها كرافت ـ إيبنغ، تجعلنا نكتشف على الدوام (كما أثبت ذلك من قبل كولان سكوت(*) SCOTT COLIN وفيريه(**) FR) آثاراً من كلتا المجموعتين من الظاهرات لدى الفرد عينه.

(*) كولان سكوت: طبيب نفسي أميركي. وفرويد يحيل هنا إلى مقال مشهور له نشره في **المجلة الأمريكية لعلم النفس عام ١٨٩٦** بعنوان: **الجنس والفن**. «م».

(**) شارل فيريه: طبيب فرنسي(١٨٥٢ ـ ١٩٠٧). خدم مع جان مارتن شاركو في مستشفى السالبترير بباريس، وله مؤلفات عديدة في الطب وعلم النفس ومنها: **الأسرة العصابية، المغنطيسية الحيوانية، الغريزة الجنسية**. وإلى هذا الأخير يحيل فرويد. «م».

٤٣ ـ [انظر ما سنقوله فيما بعد عن «الازدواجية»] (أضيف سنة ١٩١٥).



يفسح له مكاناً إلى جانبه. وفي مقدورنا القول إن ما من فرد سويّ إلا ويوجد لديه عنصر، يمكن وصفه بأنه انحرافي، ينضاف إلى الهدف الجنسي السويّ؛ والمفروض أن هذه الواقعة كافية وحدها لإقناعنا بعدم جواز تحميل لفظ الانحراف معنى الشجب والزجر. وفي مضمار الحياة الجنسية تحديداً تواجهنا صعاب كأداء، تبدو عصية على التذليل حالياً، عندما نريد أن نقيم حداً فاصلاً قاطعاً بين ما هو محض تنوُّع في المجال الفيزيولوجي وبين الأعراض المَرَضية.

غير أن نوعية الهدف الجنسي الجديد تقتضي، في بعض هذه الانحرافات، تقييماً خاصاً. فبعض الانحرافات تبتعد غاية البعد عن السواء إلى حدّ لا نملك معه إلا أن نعلن أنها «مَرَضية»، وعلى الأخص منها الانحرافات التي يتغلب فيها الدافع الغريزي الجنسي على المقاومات (الحياء، القرف، الرعب، الألم) فيأتي أفعالاً خارقة للمألوف (لعق البراز، اغتصاب الجثث). غير أننا نخطئ، حتى في هذه الحالات، لو افترضنا أنه لا بدّ أن توجد بانتظام لدى مرتكبي تلك الأفعال ضروب خطيرة من الشذوذ أو من الأمراض العقلية. وليس لنا إلا أن نقرر هنا أيضاً أن أفراداً أسوياء من كل النواحي الأخرى قد يدخلون في زمرة المرضى من الناحية الجنسية حصراً، تحت سلطان أشد الدوافع الغريزية جموحاً. وبالمقابل، إن طابع اللاسواء الذي يطبع وجوه النشاط الأخرى يظهر دواماً فوق خلفية من سلوك جنسي غير سويّ.

وفي معظم حالات الانحراف لا يمكننا أن نكتشف الطابع المَرَضي في مضمون الهدف الجنسي الجديد، بل نجده في صلاته بحالة السواء. فحين لا يكتفي الانحراف بأن يظهر إلى جانب الحياة السويّة (من حيث الهدف الجنسي والموضوع)، وبقدر ما تكون الظروف مؤاتية له وغير مؤاتية لها، فينحّي من ثمّ الحياة الجنسية السويّة ليحُلَّ هو محلّها في الظروف جميعاً، فإنما في هذه الحالة وحدها، وحيثما يكون هناك انحصار وتثبيت، يسوغ لنا بصورة عامة أن نعتبر الانحراف عَرَضاً مرَضياً.

العنصر النفسي في الانحرافات ـ ربما يتوجب علينا أن نسلِّم بأن العامل النفسي لا يسهم بأوسع قسط في تحويل الدافع الغريزي الجنسي إلا في أشدّ



الانحرافات إثارة للنفور. ولا سبيل إلى المماراة في أن قدراً من النشاط النفسي يكون قد أفلح هنا، مهما تكن النتيجة فظيعة، في أن يسبغ على الدافع الغريزي الجنسي طابعاً مثالياً. فكلية قدرة الحب لا تظهر للعيان بأقوى مما تظهر به هذه الضروب من الشذوذ. وأسمى ما في الجنسية وأحطّ ما فيها تجمع بينهما على الدوام أوثق العرى (من السماء إلى الجحيم عبر العالم)(٤٤).

نتيجتان ـ رأينا في دراستنا للانحرافات أنه يتعيَّن على الدافع الغريزي الجنسي أن يدخل في صراع مع مقاومة بعض القوى النفسية، وأبرزها الحياء والقرف. وبوسعنا الافتراض أن دور هذه القوى يتمثّل بإبقاء الدافع الغريزي الجنسي ضمن حدود ما يعتبر سوياً. أما إذا نمت هذه القوى لدى الفرد مبكراً، قبل أن يبلغ الدافع الغريزي الجنسي كامل قوته، فإنها في أرجح الظن هي التي ترسم له مسار تطوره(٤٥).

وقد لاحظنا فضلاً عن ذلك أن عدداً معيَّناً من الانحرافات التي درسناها حتى الآن لا تغدو مفهومة إلا على ضوء التأثير المتضافر لعدة عوامل. فإن قبلت التحليل ـ أي التفكيك ـ فمعنى ذلك بالضرورة أنها من طبيعة مركّبة. وهذا ما يبيح لنا الافتراض أن الدافع الغريزي الجنسي ليس بحدّ ذاته معطى بسيطاً، وإنما هو مكوَّن من مقوِّمات شتى تعود إلى الانفصال في حالة الانحرافات. وهكذا تكون المشاهدات السريرية قد لفتت انتباهنا أيضاً إلى ضروب من الالتحام والانصهار انعدم كل تعبير عنها في المسار الأحادي النسق للسلوك السويّ(٤٦).

---

٤٤ ـ من مقدمة **فاوست** لغوته. «م».

٤٥ ـ [ينبغي من جهة أخرى، أن نعتبر القوى التي تحتجز النمو الجنسي، نظير القرف والحياء والأخلاق، مترسبات تاريخية لضروب الكف الخارجية التي تعرض لها الدافع الغريزي الجنسي عبر مسيرة التكون النفسي للبشرية. وفي مقدورنا أن نلاحظ بسهولة كيف يظهر أثر ضروب الكف هذه بعفوية في نمو الفرد الخاضع لتوجيهات التربية ولمؤثرات خارجية أخرى] (أضيف سنة ١٩١٥).

٤٦ ـ [أستبق هنا دراسة تكوين الانحرافات لأقول إن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الافتراض (تسنى لنا أن نتحقق من ذلك في مثال التميمية) أنه من المحتمل أن تكون بداية أولى لنمو جنسي سويّ قد سبقت تثبيت الإنحرافات. وقد تسنى للتحليل النفسي أن يبيِّن، من خلال حالات خاصة حتى الآن، أن الانحراف نفسه هو بنوع ما رسابة من تطور باتجاه العقدة الأوديبية، وأن أقوى مركبات الدافع الغريزي الجنسي في جبلَّة الفرد يعود إلى انتزاع الغلبة من جديد إثر كبت هذه العقدة] (أضيف سنة ١٩٢٠).



٤ ـ الدافع الغريزي الجنسي لدى العصابيين

التحليل النفسي ـ ليس في ميسورنا الوصول إلى معرفة أوسع بالدافع الغريزي الجنسي لدى بعض الأشخاص ممن هم أدنى ـ على أية حال ـ إلى السواء إلا إذا درسناهم عن طريق معيَّن. ذلك أنه ليس ثمة سوى وسيلة واحدة للخلوص إلى نتائج مفيدة بصدد الدافع الغريزي الجنسي في الأعصبة النفسية (الهستريا، العصاب الوسواسي، وما يسمى خطأً بالنوراستينيا [بالتأكيد أيضاً الخبل المبكر والبارانويا]) (عُدِّل سنة ١٩١٥)، وهي أن تخضع للتمحيص التحليلي النفسي وفقاً للطريقة العلاجية التي اتبعها للمرة الأولى بروير[٤٧] وأنا نفسي في عام ١٨٩٣، والتي أسميناها يومئذ بالمعالجة «التطهيرية»[٤٨].

ينبغي أن أقول بادئ ذي بدء، مكرراً بذلك ما كنت بيَّنته في كتابات أخرى، إن هذه الأعصبة النفسية ينبغي أن تعزى، على حدّ ما أتاحته لي خبراتي، إلى قوة الدوافع الغريزية الجنسية. ولا أقصد بقولي هذا أن طاقة الدافع الغريزي الجنسي تدخل في عداد القوى التي تغذِّي التظاهرات المرضية فحسب، بل أبغي التوكيد أيضاً على أن هذه المساهمة هي مصدر الطاقة الأهمّ، والوحيد الثابت، للعصاب. ومن ثم، إن الحياة الجنسية للأشخاص المعنيين تتظاهر كلياً، أو غالباً، أو جزئياً، في هذه الأعراض. وما الأعراض، كما أوضحت ذلك في موضع آخر، إلا النشاط الجنسي للمرضى. والدليل على ما أذهب إليه يمدّني به العدد المتزايد باستمرار من المشاهدات التحليلية النفسية

---

٤٧ ـ جوزف بروير: طبيب وعالم فيزيولوجي نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). اشتهر في تاريخ التحليل النفسي بوصفه محلل برتا بابنهايم المعروفة باسمها المستعار آنا أو، وهو التحليل الذي ترك بالغ الأثر لدى فرويد، فكان أن نشر بالاشتراك مع بروير عام ١٨٩٣ بحثاً عنوانه: **عن الآلية النفسية للظاهرة الهستيرية**. وبعد قدر من الخلاف معه وقدر من التفاهم أيضاً نشرا معاً عام ١٨٩٥ **دراسات في الهستيريا**. وقد اشتكى بروير لاحقاً من عجرفة فرويد وقال إنه كان يشعر وكأنه «دجاجة أمام نسر». وأنكر أن يكون الجنس هو في أصل جميع الاضطرابات العصابية. وبالمقابل، انتقده فرويد على كونه لم ينتبه إلى البعد الجنسي في الحالة المرضية لآنا أو، ولذلك لم يكتب لها الشفاء. ولكن يبقى أنه، إذا كان فرويد هو الأب المؤسس للتحليل النفسي، فإن بروير يكون بمثابة الجدّ الأول. «م».

٤٨ ـ الإحالة هنا إلى مقال فرويد وبروير المشترك: **عن الآلية النفسية للظاهرات الهستيرية**. «م».



التي كان موضوعها، على مدى خمسة وعشرين عاماً، مرضى الهستيريا وغيرهم من المعصوبين، والتي عرضت تفاصيلها في كتابات أخرى أو سأنشرها في وقت لاحق[٤٩].

في مستطاع التحليل النفسي أن يزيل أعراض الهستيريا بافتراضه أنها بديل ـ أو نسخة طبق الأصل إن جاز القول ـ لسلسلة من سيرورات ورغبات ونوازع نفسية مشحونة انفعالياً ما تسنى لها، بنتيجة فعل معيَّن (**الكبت**)، أن تجد طريقها إلى **التصفية** في صورة نشاط نفسي قابل لأن يستوعبه الشعور. فهذه التشكيلات الذهنية، المعتقلة في اللاشعور، تنزع إلى التعبير عن نفسها على نحو يتناسب وحمولتها الانفعالية، أي إلى **التصريف**. وهذا ما يحدث لدى المريض بالهستريا في عملية **الاستبدال**، أي التحوّل إلى ظاهرات بدنية[٥٠] ـ أي حصراً إلى أعراض هستيرية. فإذا ما استطعنا، بالاعتماد على تقنية محددة، أن نرجِع هذه الأعراض إلى تمثلات مشحونة وجدانياً وقادرة على شقّ طريقها إلى الشعور، تأتّى لنا أن نفهم بأكبر قدر من الدقة طبيعة هذه التشكيلات النفسية، التي بقيت لاشعورية إلى ذلك الحين، وأصلها.

نتائج التحليل النفسي ـ على هذا النحو تسنى لنا أن نقرر، بناء على الخبرة، أن هذه الأعراض هي بديل عن النوازع التي تستمد قوتها من الدافع الغريزي الجنسي ذاته. وهذا التصور يتفق تماماً مع ما كنا نعرفه عن خُلق الهستيريين، المنظور إليهم كنموذج للعصابيين كافة، قبل وقوعهم في المرض وعن العوامل التي أدت إلى هذا المرض. فالخُلق الهستيري يتيح لنا أن نتعرف جانباً من **الكبت الجنسي** يتخطى المعيار السويّ، واشتداداً في المقاومات التي يواجَه بها الدافع الغريزي الجنسي من قبيل الحياء والقرف والمنزع الأخلاقي، وإعراضاً شبه غريزي عن إيلاء أي اهتمام عقلي للمشكلة الجنسية، وهو الإعراض الذي من نتيجته،

٤٩ ـ [استكمالاً لما قلته، لا طعناً فيه، أعدِّل قولي كالآتي: إن الأعراض العصابية تقوم، من ناحية أولى، على مطالب الدوافع الغريزية الليبيدوية، ومن الناحية الثانية على معارضة الأنا الذي يقابلها بردّ ما] (أضيف سنة ١٩٢٠).

٥٠ ـ أو بمفردة واحدة: الاستبدان. «م».



ولا سيما في الحالات البارزة، جهل جنسي مطبق يمتد إلى سنوات ما بعد البلوغ(٥١).

هذه السمات الجوهرية للهستيريا كثيراً ما يحجبها ـ عن نظر المراقب السطحي ـ وجود متواتر لعامل جِبِلّي ثانٍ من عوامل الهستيريا، وأعني به النمو الزائد عن الحدّ للدافع الغريزي الجنسي. غير أن التحليل النفسي يعرف في كل مرة كيف يميط اللثام عن ذلك العامل وكيف يجد الحلّ لما هو متناقض وملغز في الهستيريا بملاحظته وجود تضادٌّ ثنائي ما بين الحاجة الجنسية المشتطة والنفور الجنسي المبالغ فيه.

إن الفرد الذي عنده استعداد أولي للهستيريا يصير هستيرياً بالفعل حين تلحّ عليه مطالبه الجنسية إلحاحاً شديداً إثر البلوغ أو نتيجة لظروف حياتية خارجية. وبين ضغط الدافع الغريزي ومقاومته عن طريق النفور من الجنس يظهر المرض كحلٍّ، مع أنه ليس في الواقع كذلك، إذ هو لا يحلّ الصراع، بل يسعى إلى التملص منه عن طريق تحويل النوازع الجنسية إلى أعراض مرَضية. وما مثال الهستيري ـ لنفرضه رجلاً ـ الذي يمرض إثر انفعال غير ذي شأن، وبنتيجة صراع غير ناشئ عن الشاغل الجنسي، إلا استثناء ظاهري. ففي وسع التحليل النفسي أن يثبت على الدوام أن العنصر الجنسي في الصراع هو الذي تسبَّب في المرض بحؤوله بين السيرورة النفسية وبين الوصول إلى تصفية سوية.

العصاب والانحراف ـ لئن تكن التصورات التي أعرضها هنا قد اصطدمت بخصوم، فمردّ ذلك، إلى حدّ كبير، إلى الخلط بين نمط الجنسية الذي اكتشفتُ وجوده في أصل الأعراض العصابية النفسية وبين الدافع الغريزي الجنسي السويّ. غير أن تعاليم التحليل النفسي تمضي إلى أبعد من ذلك بعد. فهو يفيدنا أن الأعراض المرَضية لا تتمخض على حساب الدافع الغريزي الجنسي الموصوف بالسويّ وحده (على الأقل ليس حصراً ولا غالباً)، بل تمثل تعبيراً استبدالياً عن دوافع غريزية كان يمكن لنا أن نصفها بأنها **منحرفة** (بالمعنى الواسع للكلمة) فيما

٥١ ـ **دراسات في الهستيريا**، ١٨٩٥. يقول ج. بروير في معرض كلامه عن المريضة التي طبَّق عليها للمرة الأولى الطريقة التطهيرية: «كانت حياتها الجنسية قد بقيت في حالة بدائية للغاية».



لو تهيأ لها التعبير عن نفسها مباشرة في مشاريع خيالية أو أفعال واقعية بدون أن تُستبعد من نطاق الشعور. إذاً فالأعراض تتكون جزئياً على حساب الجنسية اللاسوية: **فالعصاب، إن جاز القول، هو الصورة السالبة للانحراف**(٥٢).

إن الدافع الغريزي الجنسي لدى العصابيين النفسيين يكشف عن جميع الحيدانات التي درسناها سواء أبوصفها تنوعات في الحياة الجنسية السويّة أم بوصفها تظاهرات للحياة الجنسية المريضة.

أ ـ نلحظ في الحياة النفسية اللاشعورية لجميع العصابيين (بلا استثناء) ميولاً إلى الارتكاس ونوازع إلى تثبيت الليبيدو على أشخاص من الجنس نفسه. ومن المحال علينا، ما لم نتعمق في الفحص، أن نفهم ما سيكون لهذا العامل من أهمية في الشكل الذي ستتخذه اللوحة السريرية للمرض. وأقصى ما يتيّسر لي أن أقوله هنا هو أنه يوجد على الدوام ميل لاشعوري إلى الارتكاس، وأن هذا الميل هو ما يؤدي لنا أكبر خدمة لجلاء سرّ الهستيريا عند الذكور(٥٣).

ب ـ في مستطاعنا أن نستبين في اللاشعور، لدى العصابيين النفسيين، ميولاً إلى التعديات التشريحية تتجلى من خلال تكوين الأعراض المرَضية. وفي مقدمة هذه التعديات وأبرزها قوة ذاك الذي يعطي الأغشية المخاطية الشرجية والفموية دور أعضاء تناسلية.

ج ـ بين جملة العللِ التي تتأدى إلى تكوين الأعراض في الأعصبة النفسية ينبغي أن نعزو دوراً هاماً إلى الدوافع الغريزية الجزئية التي تؤلف في العادة أزواجاً

---

٥٢ ـ إن أخاييل المنحرفين الشعورية الواضحة، القابلة لأن تتظاهر في الظروف المواتية في شكل أفعال منسقة، والمخاوف الهذائية لمرضى البارانويا الذين يسقطونها على أشخاص آخرين إسقاطاً عدائياً، واستيهامات الهستيريين اللاشعورية التي يكتشفها التحليل النفسي خلف أعراضهم، إن جميع هذه التشكيلات تتطابق بمضمونها حتى في أدقّ التفاصيل.

٥٣ ـ كثيراً ما يقترن العصاب النفسي بارتكاس ظاهر. وفي هذه الحال يكون التيار الجنسي الغيريّ قد كُبت بتمامه. وإنصافاً لفلهلم فليس، من برلين، أقرّ بأني أدين لملاحظة كاشفني بها بتنبيهي إلى وجود ميل إلى الارتكاس دوماً وحتماً في حالات العصاب النفسي، وهو أمر كان قد تسنى لي أن ألاحظه في عدد من الحالات الفردية [إن هذا الكشف، الذي لم يقدَّر بعد حقَّ قدره، مقيّض له أن يمارس تأثيراً حاسماً على جميع النظريات الجنسية المثلية] (أضيف سنة ١٩٢٠).



متضادة والتي عرفناها من قبل من حيث اقتدارها على تشكيل أهداف جديدة: نظير لذة التلصّص ولذة الاستعراء، والدافع الغريزي إلى القسوة في شكليه الإيجابي والسلبي. ولا نستطيع أن نفهم الطبيعة المؤلمة للأعراض ما لم نأخذ في اعتبارنا هذا الدافع الذي يتحكم أيضاً بصورة شبه دائمة بجانب من السلوك الاجتماعي للمرضى. ومن جراء هذا الارتباط بين القسوة والليبيدو يتمّ كذلك تحوُّل الميول الحبّية إلى ميول عدائية، وهذه هي السمة المميِّزة لعدد كبير من الحالات العصابية، بل حتى البارانويا في جملتها على ما يظهر.

وتعظم أهمية هذه النتائج إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض خصوصيات واقع الأشياء:

أ ـ فحين يوجد في اللاشعور دافع غريزي جزئي مرتبط بدافع مضادّ له، نجد أن هذا الأخير فعال على الدوام هو الآخر. فكلِ انحراف «إيجابي» يقترن هنا إذاً بمقابله السلبي: فمن يكن في لاشعوره **استعرائياً** يكن في الوقت نفسه **تلصصياً**، ومن يشكُ من عواقب كبت لنوازع سادية فسيبدي استعداداً لأعراض مرَضية مشتقة من نوازع مازوخية. والوجود المتواقت للأزواج المتضادة في الأعصبة وتوازيها مع الانحرافات «الموجبة» المناظرة لها أمر ملفت للنظر بكل تأكيد. بيد أنه لا بدّ، في اللوحة السريرية للمرض، من أن ترجح كفة أحد هذين النازعين المتعارضين.

ب ـ في حالة أكثر شططاً من حالات الأعصبة النفسية يندر أن يوجد دافع غريزي واحد من هذه الدوافع الغريزية المنحرفة، بل نجد في العادة عدداً أكبر من هذه الدوافع، وعلى وجه العموم آثاراً من الدوافع الغريزية كافة. غير أن شدة كل دافع غريزي على حدة مستقلة عن درجة تطور الدوافع الغريزية الأخرى. ولهذا السبب أيضاً، تقدم لنا دراسة الانحرافات «الموجبة» نسخة دقيقة عن الانحرافات السالبة المقابلة لها.

٥ ـ الدوافع الغريزية الجزئية والمناطق الشهوية

إن جمعنا نتائج بحثنا بصدد الانحرافات الموجبة والسالبة بدا لنا واضحاً أن



في مقدورنا إرجاعها إلى مجموعة من «الدوافع الغريزية الجزئية». لكن هذه الدوافع الغريزية ليست أولية، بل هي قابلة لتفكيك إضافي. فنحن ما كان لنا ـ بادئ ذي بدء ـ أن نتصوَّر «الدافع الغريزي» إلا على أنه الممثل النفسي لمصدر تنبيهيّ دائم التدفق من داخل الجسم بالمقابلة مع التنبيه الناشئ عن إثارات خارجية المصدر ومتفرّقة متقطّعة. وعليه، إن الدافع الغريزي يحتل موقعه عند الحدّ الفاصل بين المضمارين النفسي والجسمي. والفرضية الأبسط والأكثر بداهة هي تلك التي تنصّ على أن الدوافع الغريزية لا كيف لها بحدّ ذاتها، بل توجد فقط بصفتها كمّاً قابلاً لأداء عمل معيَّن في الحياة النفسية. وإن ما يميِّز الدوافع الغريزية بعضها عن بعض ويخلع عليها طابعاً نوعياً هو ارتباطها **بمصادرها** البدنية من جهة أولى، **وبهدفها** من الجهة الثانية. ومصدر الدافع الغريزي عملية إثارة في عضو من الأعضاء، وهدفه القريب هو تسكين هذا التنبيه العضوي(٥٤).

وثمة فرضية مؤقتة أخرى في نظرية الدوافع الغريزية ليس لنا أن نضرب عنها صفحاً، ومؤداها أن التنبيهات البدنية هي على نوعين مردّهما إلى اختلافات في طبيعتها الكيمياوية. وسنصف أحد هذين النوعين من التنبيه بأنه جنسي نوعياً، وسنطلق على العضو الخاص به اسم **المنطقة الشهوية** التي عنها يصدر الدافع الغريزي الجنسي الجزئي(٥٥).

حين يتجه الميل الانحرافي نحو تجويف الفم وفتحة الشرج، يكون دور المنطقة الشهوية واضحاً. فهذه المنطقة تسلك من الوجوه كافة في هذه الحال كما لو أنها جزء من الجهاز الجنسي. وفي الهستيريا تصبح هذه المواضع من الجسم والأغشية المخاطية التابعة لها محلاً لأحاسيس جديدة ولتغيُّرات في التعصيب Innervation ـ [بل يمكن القول: لسيرورات مشابهة للانتصاب Erection] (أضيف سنة

٥٤ ـ [إن نظرية الدوافع الغريزية هي القسم الأهم من المذهب التحليلي النفسي، ولكنه أيضاً القسم الأقل اكتمالاً. وقد أضفت في أعمالي اللاحقة (**ما وراء مبدأ اللذة**، ١٩٢٠، **الأنا والهذا**، ١٩٢٣) إضافات جديدة إلى نظرية الدوافع الغريزية] (أضيف سنة ١٩٢٤).

٥٥ ـ [ليس من السهل أن أبرّر هنا هذه الفروض التي أوحت بها إليّ دراسة فئة خاصة من الأعصبة. غير أنه يبدو من المحال بالمقابل إصدار حكم نهائي بصدد الدوافع الغريزية الجنسية بدون أخذ هذه الفروض بعين الاعتبار] (أضيف سنة ١٩١٥).



١٩٢٠) - بحيث تؤدي وظائفها مثلما تؤديها الأعضاء التناسلية الفعلية حين تكون موضع إثارة جنسية سوية.

إن أهمية المناطق الشهوية كأجهزة ثانوية مكمِّلة وبديلة للأعضاء التناسلية تبرز بمزيد من الجلاء في الهستيريا أكثر مما في أي عصاب نفسي آخر. غير أن هذا لا يعني أن دور هذه المناطق لا يعتدّ به في سائر الحالات المرضية. وإنما كل ما هنالك أنه يكون أعسر على التمييز لأن أعراض هذه الحالات (العصاب الوسواسي، البارانويا) تتكون في مناطق من الجهاز النفسي بعيدة عن المناطق المركزية المتحكمة بوظائف الجسم. وأكثر ما يسترعي الانتباه في العصاب الوسواسي دور الحوافز التي تخلق أهدافاً جنسية جديدة، والتي تبدو مستقلة عن المناطق الشهوية. ومهما يكن من أمر، فإن عضو البصر هو الذي يضطلع بدور المنطقة الشهوية في التلصصية، بينما البَشَرة هي التي تؤدي هذا الدور في الحالات التي يتدخل فيها الألم والقسوة؛ البشرة التي تتمايز في بعض أجزاء الجسم وتتحول إلى أعضاء حواسية وإلى أغشية مخاطية؛ وعلى هذا فهي المنطقة الشهوية بامتياز(٥٦).

٦ - تفسير الغلبة الظاهرية للجنسية المنحرفة في الأعصبة النفسية

إن ما تقدَّم قد يكون صوَّر جنسية العصابيين النفسيين على غير صورتها الحقيقية. فربما أوحى أن المعصوب النفسي أقرب، في استعداده الفطري، إلى المنحرف وأبعد عن الكائن السويّ بالقدر نفسه. وبالرغم من أنه ثمة مجال واسع للافتراض بأن الاستعداد الجبلّي لهؤلاء المرضى ينطوي، فضلاً عن مقدار مسرف من الكبت الجنسي وعن قوة مفرطة للدافع الغريزي الجنسي، على ميل خاص إلى الانحراف، وإن بأوسع معاني الكلمة، فإن دراسة الحالات الأقل خطورة من غيرها تدلّ على أن هذا الفرض الأخير ليس ضرورياً على الدوام أو أنه لا بدّ لنا على الأقل، كيما نتمكن من تقييم الآثار المرَضية، من أن نغضّ النظر عن واحد من العاملين. فالحالة المرَضية لا تظهر لدى أغلب المعصوبين النفسيين إلا بعد

٥٦ - لا بدّ أن نذكر هنا فرضية مول MOLL القائلة بأن الغريزة الجنسية تنقسم إلى غريزة تماسُس وإلى غريزة انفشاش. والتماسس يعني الحاجة إلى ملامسة الجلد.



البلوغ، حينما تشتدّ مطالب الحياة الجنسية السويّة. وإنما ضد هذه الأخيرة في المقام الأول يكون الكبت موجَّهاً. أو إن الأعراض المَرَضية ستتظاهر لاحقاً حينما يفشل الليبيدو في مساره، وكأنه نهر سُدَّ مجراه الرئيسي فتدفق في مسالك جانبية ما كان سلكها من قبل. وعلى هذا المنوال يمكن للميل إلى الانحراف (السلبي بطبيعة الحال)، على قوته وبروزه لدى المعصوبين النفسيين، أن يتكون في مسالك جانبية، أو أن يتلقى على أية حال تعزيزات جانبية. وعلى هذا النحو يتوجب علينا في الواقع أن نربط الكبت الجنسي، باعتباره عاملاً داخلياً، بعوامل خارجية، مثل الحدّ من الحرية، وتعذُّر الوصول إلى هدف جنسي سويّ، والتنبه للأخطار التي تحفّ بالفعل الجنسي، إلخ؛ وهي عوامل قد تسبِّب أيضاً انحرافاً لدى أفراد ربما ظلوا لولاها أسوياء.

من الممكن، من هذا المنظور، أن تتفاوت مختلف حالات العصاب فيما بينها؛ فأحياناً يكون المستوى الفطري للميل المنحرف هو العامل الغالب في العصاب، وأحياناً أخرى يكون هذا العامل هو التعزيز الجانبي للميل المنحرف من جراء الحيدان عن الهدف والموضوع الجنسي السويّين. ومن الخطأ أن نتوهَّم وجود تعارض حيث لا وجود إلا لتآزر وتضافر. فالعصاب يصل إلى ذروته حين تعمل الجبِلّة والتاريخ الشخصي للفرد في اتجاه واحد. أما إذا كانت الجبِلّة طاغية بما فيه الكفاية لتدفع باتجاه العصاب، فقد تستغني عن المدد الذي يمكن أن تمدَّها به الخبرات المعاشة. وبالمقابل، إن صدمة بليغة من صدمات الحياة قد تدفع بفرد ذي جبِلَّة متوسطة إلى العصاب. وهذا يصدق أيضاً على الدور الإتيولوجي[٥٧] لكل من العنصر الفطري والعنصر المكتسب في مجالات أخرى.

وإن حبَّذنا مع ذلك أن نفترض أن وجود ميل نام إلى الانحراف هو واحدة من السمات المميزة للجبِلَّة العصابية النفسية، فلن يكون أمامنا مناص من أن نواجه احتمال وجوب التمييز بين عدد من الجبِلّات من هذا النوع تبعاً لغلبة منطقة شهوية بعينها أو دافع غريزي جزئي بعينه. أما مسألة معرفة ما إذا كان يتعيَّن علينا أن نعزو إلى الجبِلَّة المنحرفة اختيار شكل الإصابة المَرَضية فهذه نقطة لم

٥٧ ـ نسبة إلى الإتيولوجيا: علم الأسباب عموماً، ومبحث أسباب الأمراض خصوصاً. «م».



تدرس بعد، شأنها شأن العديد من المسائل في هذا المجال.

٧ ـ عودة إلى الطابع الطفلي للجنسية

لقد زدنا في عدد من تجوز تسميتهم بالمنحرفين زيادة كبيرة نتيجة للدور الذي عزوناه إلى النوازع المنحرفة في تكوين أعراض الأعصبة النفسية. فليس كبيراً فقط تعداد الفئة التي يؤلفها المعصوبون، بل تؤلف الأعصبة كذلك في تظاهراتها المتنوعة سلسلة متصلة الحلقات تمتدّ من المرض إلى الصحة. ولقد كان موبيوس محقاً إذ قال: إننا جميعاً هستيريون إلى حدّ ما[٥٨]. وهكذا نرانا منقادين، حيال الانتشار الواسع للانحرافات، إلى التسليم بأن الاستعداد للانحراف ليس ظاهرة نادرة واستثنائية، وإنما هو على الأرجح جزء لا يتجزأ مما يُعتبر بنية سويّة.

لقد أوضحنا أن النقاش ما زال يدور لمعرفة ما إذا كانت الانحرافات يعود السبب فيها إلى شروط فطرية، أم ما إذا كان مرجعها إلى خبرات معاشة عارضة، كما يؤكد بينيه بالنسبة إلى التميمية[٥٩]. ونحن الآن في حِلٍّ من القول إن ثمة عاملاً فطرياً في جميع الانحرافات، ولكنه **شيء فطري موجود لدى جميع بني البشر**، وهو، بصفته هذه، قد يتفاوت في شدته كاستعداد فطري ويحتاج إلى تأثيرات تأتيه من ظروف الحياة كيما يتظاهر. وبيت القصيد هنا الجذور الفطرية الجِبِلِّية للدافع الغريزي الجنسي التي تغدو في طائفة من الحالات هي الحامل الفعلي للجنسية (المنحرفة)، والتي، إذا لم تقمع في حالات أخرى قمعاً كافياً (الكبت)، قد تستحوذ بطريق ملتوٍ، وفي صورة أعراض مَرَضية، على قدر كبير من الطاقة الجنسية. وبالمقابل، وتحديداً في الحالات المواتية التي تتوسط الطرفين، قد يتاح، بفعل تقييد فعّال ـ وغيره من أشكال التغيُّر ـ للحياة الجنسية السويّة،

---

٥٨ ـ الإحالة هنا إلى كتاب بول يوليوس موبيوس: **مباحث في علم الأعصاب١: حول مفهوم الهستيريا**. لايبزغ ١٨٩٤. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥٩ ـ الإحالة هنا إلى كتاب ألفريد بينيه: **دراسات في علم النفس التجريبي** (١٨٨٨). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



كما نسمِّيها، أن ترسي دعائمها.

بيد أنه يبقى علينا أن نضيف أن الجِبِلَّة المفترضة الحاوية لبذور الانحرافات قاطبة لا يمكن العثور عليها إلا لدى الطفل. وهذا على الرغم من أن الدوافع الغريزية لا تتبدى لديه إلا بدرجات ضئيلة من الشدة. ولئن ساقنا ذلك إلى الافتراض بأن المعصوبين بقوا في الطور الطفلي من الجنسية، أو ارتدّوا إليه، فهذا ما يوجب أن يتحول اهتمامنا نحو الحياة الجنسية للطفل. وعلى هذا، سنحاول فيما يلي أن نكشف شبكة المؤثرات التي تتحكم بتطور الجنسية الطفلية حتى تنتهي إلى الانحراف، أو إلى العصاب، أو أخيراً إلى الحياة الجنسية السويّة.





المبحث الثاني

الجنسية الطفلية

إهمال ما هو طفلي ـ من الشائع بصفة عامة أن الدافع الغريزي الجنسي مفتقد في الطفولة ولا يستيقظ إلا في طور البلوغ. وهذا خطأ ولكنه ليس مجرد خطأ بسيط، إذ تترتب عليه نتائج جسام، لأنه هو المسؤول عن جهلنا الراهن بالشروط الأساسية للحياة الجنسية. أما لو تعمقنا بالمقابل في دراسة تظاهرات الجنسية عند الطفل، فلربما اكتشفنا السمات الجوهرية للدافع الغريزي الجنسي، ولربما فهمنا تطور هذا الدافع الغريزي ورأينا كيف ينهل من مصادر شتى.

والجدير بالملاحظة أن المؤلفين الذين عكفوا على دراسة السمات المميِّزة للراشد واستجاباته قد علَّقوا أهمية كبيرة على الحقبة ما قبل التاريخية المتمثلة بالسوابق الوراثية، بينما أهملوا الحقبة ما قبل التاريخية الأخرى التي نلقاها في وجود كل فرد، أقصد الطفولة. وهذا مع أن تأثير هذه الحقبة من العمر يفترض فيه أن يكون أيسر على الملاحظة من السوابق الوراثية وأولى منها بأن يحسب حسابه[1]. صحيح أن الأدبيات المتعلقة بالموضوع تشتمل على بعض إشارات إلى أفعال صادرة عن الجنسية المبكرة لدى الأطفال الصغار، من انتصاب واستمناء وحتى محاكاة للجماع، لكنها تورَد على الدوام كحالات استثنائية، خارقة للمألوف، وكأمثلة منكرة على الانحلال الأخلاقي المبكر. وما من مؤلف، فيما أعلم، تنبَّه إلى أن الدافع الغريزي الجنسي يظهر ظهوراً منتظماً لدى

١ ـ [إنه يستحيل أصلاً تحديد مدى الدور الذي ينبغي عزوه إلى السوابق الوراثية تحديداً دقيقاً قبل تقدير الدور الذي تضطلع به سوابق الطفل الشخصية] (أضيف سنة ١٩١٥).



الطفل، ولسنا نعثر عادة في المؤلفات التي تكاثرت في الآونة الأخيرة حول نمو الطفل فصلاً يحمل كعنوان «**النمو الجنسي الطفلي**»[٢].

٢ ـ لقد بدا لي هذا التوكيد فيما بعد مسرفاً في جرأته بحيث لم أرَ بداً من التحقق من صحته بمراجعة جديدة لما كتب في الموضوع. ولم يتبدل بعد هذه المراجعة رأيي. فالدراسة العملية للتظاهرات النفسية والبدنية للجنسية لدى الطفل لا تزال في طور ما قبل البداية. وقد أفصح مؤلف هو س. بلّ Bell(*) (**دراسة تمهيدية في انفعال الحب بين الجنسين في المجلة الأميركية لعلم النفس**، المجلد١٣، ١٩٠٢) عن رأيه على النحو التالي: «لا أعرف دارساً علمياً واحداً عُني بتحليل الانفعال كما يرى لدى المراهق». ولم تسترع التظاهرات الجنسية البدنية في طور ما قبل البلوغ الانتباه إلا من خلال صلتها بتظاهرات الانحلال، أو بصفتها هي نفسها تعبيراً عن الانحلال. فجميع الدراسات التي قرأتها عن سيكولوجية الطفل قد خلت من فصل عن حياته الحبية. ومن أمثلة ذلك الأعمال المعروفة لكل من بريير Preyer(**) (**روح الطفل**) وبلدوين Baldwin(***) (**النمو العقلي عند الطفل والعِرق** ١٨٩٥)، وبيريز Perez(****) (**الطفل بين الثالثة والسابعة**، ١٩٨٤) وسترومبل Strumpell(*****) (**علم الأمراض التربوي، نظرية أخطاء الأطفال**، ١٨٩٩)، وك. غروس Groos(******) (**حياة الأطفال النفسية**، ١٩٠٤)، وث. هلّر Heller(*******) (**مقدمة في التربية الطبية**، ١٩٠٤)، وجيم سولّي Sully(********) (**دراسات في الطفولة** ١٨٩٥)، إلخ، إلخ. ولتكوين فكرة عن الوضع الحالي للمسألة، يمكن الرجوع إلى مجلة **معايب الأطفال** Die Kinderfehler (بدءاً من عام ١٨٩٦). على أنه من المسلَّم به أن وجود الحب في حياة الطفل ما عاد بحاجة إلى إثبات. بيريز (المصدر الآنف الذكر) يؤيد وجوده؛ وك. غروس Groos (**ألعاب البشر**، ١٨٩٩) يعيد إلى الأذهان، على سبيل الحقيقة المعروفة، أن «بعض الأطفال يعرفون في زمن مبكر الانفعالات الجنسية وتساورهم إزاء الجنس الآخر حاجة إلى الملامسة». وأبكر ظهور للحب الجنسي (Sex - Love) سجّله س. بلّ، ضمن طائفة من مشاهداته، حالة طفل في الثالثة من عمره. انظر أيضاً هافلوك إلّيس (**الشعور الجنسي**، الملحق ٢).

[إن الحكم الصادر أعلاه على أدبيات الجنسية الطفلية لا يمكن التمسك به بتمامه بعد صدور كتاب ستانلي هال Hall(*********) الجامع (**المراهقة، سيكولوجيتها وصلاتها بالفيزيولوجيا والأنتروبولوجيا والسوسيولوجيا والجنس والجريمة والدين والتربية**، نيويورك ١٩٠٨). وبالمقابل، إن أحدث كتب أ. مول Moll(**********) (**الحياة الجنسية لدى الأطفال، برلين ١٩٠٩**) لا يطعن في صحة حكمي. وبالمقابل، انظر مقالة بلولر: **الأفعال الجنسية اللاسوية عند الأطفال في حولية الجمعية السويسرية للعناية بالصحة المدرسية**، المجلد ٩، ١٩٠٨). وفي كتاب السيدة الدكتورة هـ. فون هوغ ـ هلموت Hug-Hellmuth(***********) (**عن الحياة النفسية للأطفال**، ١٩١٣) يستردّ العامل الجنسي المهمل حتى اليوم حقّه كاملاً] (أضيف سنة ١٩١٥).

(*) سانفورد بلّ: أستاذ في جامعة كلارك الأمريكية التي ستدعو لاحقاً فرويد إلى إلقاء خمس محاضرات فيها. «م».

(**) وليم بريير: طبيب فيزيولوجي ألماني من أصل إنكليزي (١٨٤١ ـ ١٨٩٧). من مؤسسي علم نفس الأطفال. من مؤلفاته: **نفس الطفل والتنويم المغنطيسي**. «م».



النساية الطفلية ـ إن علة هذا النقص الباعث على الدهشة تكمن جزئياً في التحفظ التقليدي الذي يلتزم به المؤلفون بحكم تنشئتهم، وجزئياً في ظاهرة نفسية لم تخضع حتى الآن للتفسير. أقصد بها النساية العجيبة التي تسدل حجاباً صفيقاً على السنوات الست أو الثماني الأولى من الحياة بالنسبة إلى أغلب الناس (ليس جميعهم!). وقد قبلنا حتى الآن بهذه النساية على أنها واقعة طبيعية، فلم نعجب لها، مع أن ثمة داعياً للعجب. وبالفعل، كنا في إبان تلك السنوات التي لم تخلِّف في ذاكراتنا سوى نتف من ذكريات مبهمة قد استجبنا

(***) جيمس بالدوين: فيلسوف وعالم نفس أميركي (١٨٦٠ ـ ١٩٣٤). انتقد المذهب التجريبي، واشتهر بأبحاثه عن أصول الفكر المنطقي. من مؤلفاته: **الفكر والأشياء، تاريخ العقل، التأويلات الاجتماعية والأخلاقية للنمو العقلي**. «م».

(****) برنار بيريز: عالم نفس فرنسي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٣). اختصّ بدراسة النفسية الطفلية. من مؤلفاته: **سيكولوجيا الطفل، الفن والشعر لدى الأطفال**. «م».

(*****) لودفيغ سترومبل: فيلسوف ومربٍّ ألماني (١٨١٢ ـ ١٨٩٩). من مؤسسي علم التربية الذي كان رائده الفيلسوف يوهان هربارت. من مؤلفاته: **خواطر حول الدين والمشكلات الدينية، تاريخ الميتافيزيقا والسيكولوجيا وفلسفة الأديان**. «م».

(******) كارل غروس: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٦١ ـ ١٩٤٦). له دراسات عن اللعب عند الحيوانات والأطفال الذي اعتبره مقدمة لحياة الراشد. من مؤلفاته: **الحالة النفسية للأطفال**. «م».

(*******) ثيودور هلّر: تربوي ألماني (١٨٦٩ ـ ١٩٣٨). من مؤلفاته: **التربية العلاجية، حول سيكولوجيا الطفل وأمراضه النفسية**. «م».

(********) جيمس سولّي: عالم نفس وأستاذ فلسفة إنكليزي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٣). من مؤلفاته: **التشاؤم، دراسات حول الطفولة، أوهام، الوجيز في تدريس علم النفس**. «م».

(*********) غرانفيل ستانلي هال: فيلسوف وعالم نفس أميريكي (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). مؤسس أول مختبر لعلم النفس التجريبي في الولايات المتحدة الأمريكية. أصدر **المجلة الأمريكية لعلم النفس**. تخصص بدراسة الطفولة. وكان هو أول من اتخذ المبادرة إلى دعوة فرويد لإلقاء **الدروس الخمسة في التحليل النفسي** في جامعة كلارك. «م».

(**********) ألبرت مول: عالم نفس ألماني (١٨٢٦ ـ ١٩٣٩). كان من الرواد المؤسسين لعلم الجنس الحديث. من مؤلفاته: **دراسات حول الليبيدو الجنسي، حياة الطفل الجنسية، الانحرافات الجنسية والجنون والصحة العقلية، متى يمكن للجنسين المثلين أن يتزوّجوا**. «م».

(***********) هرمين هوغ فون هلموت: محللة نفسية نمساوية للأطفال. ماتت خنقاً على يد ابن أخيها الذي كانت تولّت تحليله. من مؤلفاتها: **محاولات في التحليل النفسي، يوميات تحليلية نفسية لفتاة صغيرة**. «م».



ـ على ما يقوله لنا الآخرون ـ استجابة تنضح بالحيوية لانطباعات العالم الخارجي وخبراته، وأظهرنا فرحنا وتوجعنا، مثلنا مثل سائر الناس، وأبدينا حباً وغيرة وغير ذلك من الأهواء التي كانت تعتلج يومئذ في نفوسنا. بل ينقل لنا الأشخاص الكبار شذرات مما تفوهنا به حفظوها هم في ذاكرتهم دليلاً على ذكائنا وحصافتنا. والحال أن ذلك كله يغيب عنا حين ندرك سنَّ الرشد. فكيف لذاكرتنا أن تتخلف هذا التخلف الكبير عن سائر وظائفنا النفسية؟ ومع ذلك، إن لدينا أسباباً وجيهة تحملنا على الاعتقاد بأن الذاكرة لم تكن في أي فترة أخرى أقدر على تسجيل الانطباعات واسترجاعها مما كانت عليه في سنوات الطفولة[٣].

ومن جهة أخرى يتعيَّن علينا أن نفترض أو يمكننا أن نستنتج، من الفحوص السيكولوجية التي تُجرى على غيرنا، أن الانطباعات التي نسيناها هي عينها التي خلَّفت في نفسنا أعمق الآثار وكانت ذات دور حاسم في تطورنا اللاحق. إذاً فلا مجال للكلام عن زوال فعلي لانطباعات الطفولة، وإنما الأمر أمر نساية مشابهة لتلك التي تمحو لدى المعصوبين ذكرى أحداث وخبرات طرأت في طور أسبق من العمر، والتي لا تتعدى أن تكون محض استبعاد عن الوعي (الكبت). يبقى أن نعلم ما كنه القوى التي تحتِّم كبت الانطباعات الطفلية. ومن يجد جواباً عن هذا السؤال يكن قد فسَّر أيضاً في أرجح الظن النساية الهستيرية.

ومهما يكن من أمر يجب ألا يغيب عنا أن وجود النساية الطفلية يفسح في المجال لإجراء مقارنة جديدة بين الحالة النفسية لكل من الطفل والعصابي. فقد تسنى لنا من قبل أن نلاحظ تشابهاً بينهما حين قررنا أن جنسية العصابي قد توقفت عند مرحلة طفلية، أو ارتدت إليها على أية حال. أفلا يقودنا هذا إلى الافتراض بأن النساية الطفلية نفسها ليست منقطعة الصلة بانفعالات الطفل الجنسية؟

---

٣ ـ حاولت أن أحلّ إحدى المعضلات المتعلقة بأقدم ذكريات الطفولة في مقال لي بعنوان: **الذكريات الستارية** نشر عام ١٨٩٩ (**انظر علم نفس أمراض الحياة اليومية**، الفصل الرابع).



مهما يكن من أمر، فإن رغبتنا في ربط النساية الطفلية بالنساية الهستيرية ليست محض لعب بالألفاظ. فالنساية الهستيرية، التي لها دورها في الكبت، لا تفسير لها إلا بوجود ذخيرة من الآثار الذاكرية لدى الفرد لا سيطرة للوعي عليها؛ وهذه الآثار الذاكرية هي عينها التي تصير، من خلال رابطة التداعي، مركزاً لجذب العناصر المستبعدة من قبل قوى الكبت النابذة عن دائرة الشعور(٤). وقد يكون بوسعنا القول إنه لولا النساية الطفلية لما كانت النساية الهستيرية.

وفي رأيي أن النساية الطفلية، التي تجعل من طفولة كل واحد منا ضرباً من زمن **ما قبل تاريخي** وتحجب عنا بواكير الحياة الجنسية، هي المسؤولة عن امتناعنا عن أخذ أهمية الطور الطفلي في نمو الحياة الجنسية بوجه عام بعين الاعتبار. ولا يمكن لمراقب واحد مفرد أن يسدّ هذه الثغرة في معرفتنا. وقد كنت نوهت، منذ عام ١٨٩٦، بدور السنوات الأولى من الحياة في نشوء بعض الظاهرات المهمة المتصلة بالحياة الجنسية(٥)، وما انقطعت منذ ذلك اليوم عن توكيد أهمية العامل الطفلي في الجنسية.

١ ـ مرحلة الكمون الجنسي في الطفولة وانقطاعاتها

حينما نتنبه لكثرة تواتر المشاعر الجنسية التي يقال إنها لاسوية واستثنائية لدى الطفل، وحينما نكتشف كذلك ذكريات من الطفولة بقيت لاشعورية في طفولة العصابيين، يمكن لنا أن نحدد السلوك الجنسي للطفل على النحو التالي(٦):

يبدو بحكم المؤكد أن الطفل يحمل معه من ولادته بذور النوازع الجنسية التي تنمو لحين من الزمن، ثم لا تلبث أن تُقمع تدريجياً، وهذا القمع تقطعه بدوره

٤ ـ [لا يمكن لنا فهم آلية الكبت ما دمنا لا نأخذ في اعتبارنا سوى عملية واحدة من هاتين العمليتين المتآزرتين. ومن الممكن تشبيه هذه الحال بحال السائح الذي يُرفع إلى قمة هرم الجيزة: فهو يُدفع من ناحية ويُجذب من ناحية أخرى] (أضيف سنة ١٩١٥).

٥ ـ الإحالة هنا إلى مقال كان نشره فرويد عام ١٩٨٦ تحت عنوان: **الوراثة وإتيولوجيا الأعصبة**. «م».

٦ ـ إن مصدر المعلومات والمشاهدات هذا قابل للاستخدام ما دامت سنوات طفولة عصابيي الغد لا تختلف إلا من حيث الشدة والوضوح ـ لا من حيث الماهية ـ عن سنوات طفولة الأفراد الذين بقوا أسوياء.



طفرات دورية من التطور الجنسي أو توقفه بعض الخصائص الفردية. ولسنا نستطيع أن نقطع برأي على وجه اليقين بصدد انتظام تأرجحات هذا التطور ودوريتها، لكن يبدو محققاً أن حياة الطفل الجنسية تتظاهر في حوالي السنة الثالثة أو الرابعة في صورة يمكن معها إخضاعها للملاحظة[٧].

ضروب الكف الجنسي - في طور الكمون، الكامل أو الجزئي، تتكون القوى النفسية التي ستقف فيما بعد عقبة في وجه الدوافع الغريزية الجنسية، وتحدّ من مجراها وتضيِّقه كما تفعل السدود (القرف، الحياء، الصبوات الأخلاقية والجمالية). ويساور المرء شعور، حيال الأطفال الذين رأوا النور في مجتمع متحضر، أن هذه السدود هي من صنع التربية، ولا مراء في أن للتربية نصيباً كبيراً

٧ - من الممكن أن نجد موازياً تشريحياً لهذه النظرية عن الجنسية الطفلية في الملاحظة التي كان باير Bayer سباقاً إلى إبدائها (**الملفات الألمانية للطب السريري**، المجلد ٧٣)، والتي مؤداها أن العضو الجنسي الباطني (الرحم) يكون في العادة أكبر حجماً عند الوليدة منه عند الطفلة المتقدمة في العمر. غير أنه لم يقم دليل، كما يلاحظ هلبان، على أن مثل هذا الانكماش في النمو عقب الولادة يصيب أيضاً سائر أجزاء الجهاز التناسلي. ويرى هلبان (**مجلة فن القبالة والطب النسائي**، المجلد ٥٣، ١٩٠٤) أن هذه السيرورة النكوصية تنتهي بعد بضعة أسابيع من بداية الحياة خارج الرحم.

[أما المؤلفون الذين يعتبرون الجزء البيني أو البيخلوي من الغدة التناسلية هو العضو المحدِّد للجنس فقد قادتهم البحوث التشريحية بدورهم إلى الكلام عن حياة الطفل الجنسية وفترة كمونها. وأقتطف هنا من كتاب ليبشوتز الذي تقدمت الإشارة إليه (انظر الهامش رقم ٢٣ من المبحث الأول. «م».) عن غدة البلوغ الفقرة التالية: «إننا نكون أقرب إلى الحقيقة إن قلنا إن تطور السمات الجنسية، الذي يتمّ في وقت البلوغ، هو بمثابة النهاية لسيرورة تزايدت سرعتها في ذلك الحين. ولكن بداياتها ترجع في رأينا إلى ما قبل ذلك بكثير، إلى عهد الحياة الجنينية داخل الرحم. وإن ما سُمِّي حتى الآن بكل بساطة بالبلوغ ما هو في الأرجح إلا طور ثانٍ هامّ للبلوغ يعلن عن نفسه في أواسط العقد الثاني من عمر الإنسان. أما الطفولة التي تمتدّ من الميلاد إلى مبتدأ هذا الطور الثاني المهمّ فمن الممكن تسميتها بالطور الوسيط من البلوغ». وقد نبّه فيرنزي في تعليق نقدي له على كتاب ليبشوتز (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ٦، ١٩٢٠) إلى التطابق بين المكتشفات التشريحية والمشاهدة السيكولوجية، وهو تطابق لا يخلّ به إلا واقع أن الذروة الأولى لنمو الأعضاء الجنسية تقع في مبتدأ المرحلة الجنينية، على حين أن التفتح الأول لحياة الطفل الجنسية يحدث ما بين السنة الثالثة والرابعة. وبديهي أنه من غير المفروض أن يتطابق تمام التطابق زمن التكوين التشريحي وزمن النمو النفسي. وقد أجريت بحوث بهذه الخصوص على الغدد التناسلية عند الإنسان. وبما أننا لا نستطيع، من جهة أخرى، أن نلحظ لدى الحيوانات فترة كمون بالمعنى السيكولوجي، فمن الأهمية بمكان أن نعلم إن كانت المشاهدات التشريحية، التي إليها يستند المؤلفون المذكورون للتوكيد على وجود ذروتين في النمو الجنسي، قابلة لأن تطبَّق أيضاً على أنواع عليا أخرى من العالم الحيواتي] (أضيف سنة ١٩٢٠).



فيها. ومع ذلك إن هذا التطور المشروط بالتعضية والمثبَّت بالوراثة قد يحدث أحياناً بلا تدخل من جانب التربية على الإطلاق. وعلى هذه الأخيرة، كيلا تتخطى حدودها، أن تكتفي بتتبع خطوط ما سبق رسمه وتشكيله عضوياً، وبتظهير مساره وتعميقه.

التكوين العكسي والإسماء ـ ما الكيفية التي تنبني بها هذه السدود البالغة الأهمية بالنسبة إلى الحضارة وإلى سواء شخصية الطفل لاحقاً؟ إنها تنبني في أرجح الظن على حساب نوازع الطفل الجنسية التي تستمر في الوجود في مرحلة الكمون، وإن حُوِّلت، كلياً أو جزئياً، عن الاستعمال الجنسي ووُجِّهت نحو غائيات أخرى. ويتفق علماء الاجتماع فيما يبدو على القول إن السيرورة التي تحوِّل القوى الجنسية عن هدفها وتستخدمها لأهداف جديدة، وهي السيرورة التي يطلق عليها اسم **الإسماء** Sublimation، تشكل واحداً من أهم العوامل في بناء المنجزات الحضارية. وسنضيف بملء طوعنا أن السيرورة عينها تلعب دوراً في التطور الفردي وأنها ترجع بأصولها إلى مرحلة الكمون الجنسي في الطفولة(٨).

وبوسعنا أن نصوغ فرضاً بصدد طبيعة آلية الإسماء. فالنوازع الجنسية من جهة أولى تبقى، في إبان سنوات الطفولة تلك، بلا استخدام ـ على اعتبار أن وظائف الإنسال لا تكون قد ظهرت بعد ـ وهذا ما يكوِّن بالفعل الطابع الرئيسي لمرحلة الكمون؛ وتكون النوازع الجنسية من جهة ثانية هي نفسها منحرفة، أي صادرة عن مناطق شهوية ومحمَّلة باندفاعات لا يمكن أن تنجم عنها، بدالّة التطور اللاحق للفرد، سوى أحاسيس كدر وتنغيص. ومن ثم، إن هذه النوازع الجنسية المستثارة ستستنجد بقوى نفسية مضادة (نوازع عكسية) تتولَّج، كيما تتمكَّن من قمع تلك الأحاسيس المستكرهة قمعاً فعالاً، ببناء السدود النفسية التي تقدَّم ذكرها: القرف، الحياء، الأخلاق(٩).

---

٨ ـ إني أقتبس تعبير «مرحلة الكمون الجنسي» من ف. فليس.

٩ ـ [في الحالة التي نناقشها هنا يتمّ إسماء الدوافع الغريزية الجنسية عن طريق التشكيل الارتجاعي. غير أنه مباح لنا بصورة عامة التمييز بين الإسماء والتشكيل الارتجاعي باعتبارهما سيرورتين مختلفتين. ومن الممكن أن يحدث الإسماء أيضاً بكيفيات أخرى أكثر بساطة] (أضيف سنة ١٩١٥).



الاختراقات في مرحلة الكمون ـ من غير أن نخدع أنفسنا بصدد الطبيعة الافتراضية وقلة الوضوح في تصوراتنا بصدد مرحلة الكمون أو الإرجاء الطفلية، سنرجع إلى الواقع لنقول إن هذا التوظيف للجنسية الطفلية يمثل للتربية مثلاً أعلى غالباً ما يحيد عنه الفرد، في هذه النقطة أو تلك، حيداناً بعيد المدى. وقد يتفق أحياناً أن تبرز للعيان على نحو مباغت شذرة لم يطلها الإسماء من مظاهر الحياة الجنسية، أو قد يظل ضرب من النشاط الجنسي مستمراً على امتداد فترة الكمون، إلى حين التفتح الكامل للدافع الغريزي الجنسي في زمن البلوغ. وبقدر ما قد يولي المربون الجنسية الطفلية قدراً ولو ضئيلاً من اهتمامهم، نراهم يسلكون مسلك من يشاطرنا آراءنا بصدد تشكيل الدفاعات الأخلاقية على حساب الجنسية، ومسلك من يعلم أيضاً أن النشاط الجنسي يجعل الطفل غير قابل للتربية. وبالفعل، إنهم يندّدون بجميع التظاهرات الجنسية لدى الطفل باعتبارها من «الرذائل» بدون أن يكون في مكنتهم أصلاً مواجهتها بصورة جدية. ولنا نحن من الأسباب ما يحملنا على توجيه عنايتنا إلى هذه الظاهرات التي تخشاها التربية وتتخوف منها، لأنها قمينة بأن تزيدنا علماً بصدد التشكل الأصلي للدافع الغريزي الجنسي.

٢ ــ تظاهرات الجنسية الطفلية

التمصّص ـ لأسباب سوف تتوضح فيما بعد، سنتخذ التمصّص(المصّ التلذُّذي) نموذجاً للتظاهرات الجنسية في الطفولة؛ وقد كان طبيب الأطفال المجري لندنر LINDNER[١٠] قد خصّه بدراسة ممتازة (١٨٧٩)[١١].

إن المص والتمصص، اللذين يظهران لدى الطفل الرضيع، وقد يستمران إلى سن الرشد، بل مدى الحياة أحياناً، قوامهما حركة إيقاعية تكررها الشفاه وليس هدفها تناول الغذاء. وإن جزءاً من الشفة نفسها، واللسان، وأية منطقة أخرى من

١٠ ـ صمويل لندنر: طبيب أطفال مجري(١٨٤٢ ـ ١٩١١). ألقى في بودابست عام ١٨٧٩ ثم نشر محاضرة عن المص والتمصص لدى الأطفال اشتهرت في تاريخ التحليل النفسي من خلال استشهاد فرويد وإشادته بها. «م».

١١ ـ في **حولية طب الأطفال**، المجلد ١٤، ١٨٧٩.



الجلد في متناول اليد، وحتى إبهام القدم، هي التي تغدو موضوعاً للمص. وقد يظهر في الوقت نفسه دافع غريزي آخر، هو الدافع الغريزي إلى القبض والشدّ بحركة إيقاعية على شحمة الأذن، كما قد يبحث الطفل لدى شخص آخر عن جزء من جسمه يتأتى له الإمساك به (وفي الغالب أيضاً شحمة الأذن). وتستغرق لذة المصّ كل انتباه الطفل، ثم تنيمه، أو تفضي به إلى استجابات حركية هي بمثابة ضرب من الرعشة الجنسية[١٢]. وكثيراً ما يترافق المص أيضاً بملامسات مكررة لبعض المناطق الحساسة من الجسم وللصدر وللأعضاء التناسلية الخارجية. وعلى هذا النحو ينتقل الأطفال في كثير من الأحيان من المص إلى الاستمناء.

[لقد تعرّف لندنر نفسه الطبيعة الجنسية لهذا النشاط وسلّم بها بلا مواربة. وكثيراً ما تدرج الأمهات التمصص في عداد سائر «رذائل» الطفل الجنسية. وقد عارض بعض أطباء الأطفال وأطباء الأعصاب بشدة هذا التصور، وبنوا معارضتهم هذه جزئياً على الخلط بين «الجنسي» و«التناسلي». ومعارضتهم هذه تطرح سؤالاً صعباً ولا سبيل إلى التملص منه وهو: ما المعيار الذي يمكن بالاستناد إليه تعرف التظاهرات الجنسية لدى الطفل؟ ويلوح لي أن تسلسل الظاهرات، الذي يميط عنه اللثام التحليل النفسي، يبيح لنا أن نقول إن التمصص مظهر جنسي، وأن ندرس فيه السمات الرئيسية للنشاط الجنسي الطفلي[١٣]] (أضيف سنة ١٩١٥).

١٢ ـ لدينا هنا من الآن الدليل على واقعة لن تلبث أن تثبت صحتها في حياة الراشد، وأعني بها كون الإشباع الجنسي خير دواء ضد الأرق. وأغلب حالات الأرق العصبي مردّها إلى عدم الإشباع الجنسي. ومعلوم أن بعض المرضعات ممن لا يردعهن وازع من ضمير يهدِّئن وينِمْن الأطفال الذين يوكل أمرهم إليهن بتدليك أعضائهم التناسلية.

١٣ ـ نشر الدكتور غالانت Galant في ١٩١٩ في مجلة **طب الأعصاب**، المجلد ٢٠، تحت عنوان **المصمصة**، اعترافاً لفتاة صبية لم تقلع عن مزاولة هذا الشكل من النشاط الجنسي، وهي تصف اللذة التي توفّرها لها المصمصة بأنها معادلة تماماً للذة الجنسية، وعلى الأخص لتلك التي تجتنى من قبلة الحبيب:

«لا تعطي القبلات كلها اللذة التي تعطيها المصمصة، كلا، ثم كلا! ومن المحال أن أصف إحساس النشوة الذي يسري في جسمي كله حينما أمصّ شيئاً ما. فأنا لا أعود من هذا العالم، وتغمرني سعادة عارمة، وأتجرد من كل رغبة. إنه لشعور رائع. لا أعود أتوق إلى غير السكينة، السكينة التي لا داعي بعد الآن لأن يعكرها شيء. إنه شعور يندّ جماله عن الوصف: لا إحساس على الإطلاق بالألم، أو بالاكتئاب، ولكأني انتقلت إلى عالم آخر» ـ (أضيف سنة ١٩٢٠).



الإيروسية الذاتية ـ إن المثال الذي ضربناه يستأهل منا اهتماماً خاصاً. فأكثر ما يلفت النظر في طابع هذا النشاط الجنسي، على ما يبدو لنا، هو أنه غير موجَّه نحو شخص آخر. فالطفل يستمد لذته من جسمه بالذات، وموقفه من ثم إيروسي ذاتي على حدّ تعبير هافلوك إلِّيس الموفق[١٤].

ومن الجلي أيضاً أن الطفل عندما يمصّ فإنما ينشد في هذا الفعل لذة سبق له أن خبرها، وهي تعود الآن إلى ذاكرته. والطفل يحظى بطلبته بمصّه جزءاً من البشرة أو من الغشاء المخاطي مصاً إيقاعياً. ومن اليسير علينا أن نتبيَّن ما طبيعة الظروف التي خبر فيها الطفل لأول مرة هذه اللذة التي يسعى الآن إلى تجديدها. فلا بدّ أن يكون النشاط الأولي والأساسي بالنسبة إلى حياة الطفل، أعني مصّ ثدي الأم أو ما ناب منابه، هو الذي علّمه ذلك. وسنقول إن شفتي الطفل اضطلعتا بدور **المنطقة الشهوية**، وإن الإثارة الناجمة عن تدفق اللبن الدافئ هي التي استتبعت التلذذ. وفي أول الأمر، ارتبط إشباع المنطقة الشهوية ارتباطاً وثيقاً بتسكين الجوع [فالنشاط الجنسي يرتكز بادئ ذي بدء إلى وظيفة تعمل من أجل بقاء الحياة ولا يستقل عنها إلا فيما بعد] (أضيفت هذه الجملة سنة ١٩١٥). وعندما نرى الطفل يترك الثدي وقد شبع، ويرتخي بين ذراعي أمه ويستسلم للرقاد، وقد احمرت وجنتاه وطافت على وجهه ابتسامة غبطة، لا نملك إلا أن نقول إن هذه الصورة تبقى نموذج التعبير عن الإشباع الجنسي الذي سيَخْبَره فيما بعد. غير أن الحاجة إلى تكرار الإشباع الجنسي سرعان ما تنفصل عن الحاجة إلى الغذاء، وهذا الانفصال يحتِّمه الدخول في مرحلة ظهور الأسنان حيث يتمّ تناول الطعام لا رضاعة فحسب، بل مضغاً أيضاً. وعندئذ لا يعود الطفل إلى استخدام شيء غريب عن جسمه ليكون موضوع المصّ، بل يؤثر جزءاً من بشَرته بالذات

١٤ ـ [الحق أن إلِّيس يستخدم عبارة «الإيروسي الذاتي» استخداماً مختلفاً بعض الشيء، وذلك بمعنى أن التهيُّج لا يستثار من الخارج، بل يصدر من الداخل. أما في نظر التحليل النفسي فليس الأصل هو الشيء الجوهري، وإنما الصلة بالموضوع] (عدِّل سنة ١٩٢٠). [قبل هذا التعديل ورد هذا الهامش في جميع الطبعات السابقة كما يلي: «بيد أن هـ. إلِّيس يشوِّش معنى اللفظ الذي ابتكره عندما يدرج في عداد الظاهرات الإيروسية الذاتية الهستيريا بجملتها والاستمناء بجميع مظاهره». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة].



لأنه أسهل منالاً ولأنه يتيح له أن يستقلّ عن العالم الخارجي الذي لا يسعه أن يتحكم به، وكذلك لأنه يخلق لنفسه على هذا النحو منطقة شهوية ثانية، وإن تكن أدنى أهمية من الأولى. وعدم كفاية هذه المنطقة الثانية ستكون واحداً من الأسباب التي ستحمل الطفل فيما بعد على طلب نظير لهذا الجزء معادل له في القيمة: أي شفتي شخص آخر، ولكأن لسان حاله يقول: «أسفي أنني لا أستطيع تقبيل نفسي».

وليس الأطفال كلهم يتمصصون. ولنا أن نفترض أن التمصص وقف على الأطفال الذين تكون الحساسية الشهوية للمنطقة الشفوية متطورة لديهم تطوراً قوياً بالخِلْقة. وإن استمرت هذه الحساسية، تولع الطفل فيما بعد بالقبل، ونشد القبل المنحرفة، ومتى شبّ عن الطوق ورقى إلى مدارك الرجال ظهر لديه ميل إلى الشرب والتدخين. أما إذا أصابه كبت، فسيتقزز من الطعام وسيغدو عرضة لقيء هستيري. وبنتيجة الاستعمال المشترك للمنطقة الفموية ـ الشفوية، سيتركز الكبت على وظيفة التغذية. وكثيرات من النساء اللائي عالجتهن، ممن يشكين من اضطرابات الشهية والكرة الهستيرية[١٥] والإحساس بالتضيُّق في الحلق والقيء، كنّ مارسن المصّ بشغف في عهد طفولتهن.

لقد عرَّفَنا التمصّص أو المصّ التلذُّذي إلى السمات الرئيسية الثلاث لتظاهر الجنسية الطفلية [وهذه الجنسية تنمو **بالاتكال** على إحدى الوظائف الفيزيولوجية الحياتية الأساسية] (أضيف سنة ١٩١٥). فهي لا تعرف بعد موضوعاً جنسياً، وهي **ذاتية الإيروسية**، وهدفها الجنسي يتموضع تحت هيمنة **منطقة شهوية**. ولنقل، استباقاً، إن هذه السمات تتكرر في معظم تظاهرات الدوافع الغريزية الجنسية عند الطفل.

٣ ــ الهدف الجنسي للجنسية الطفلية

سمات المناطق الشهوية ـ يمكن لمثال المص أن يضيف إلى جعبتنا معلومات كثيرة عن مقوِّمات المنطقة الشهوية. فالمنطقة الشهوية موضع من البشرة أو من الغشاء

١٥ ـ الكرة الهستيرية: تعبير يشير إلى ما يحسّ به الهستيري من وجود مؤلم لما يشبه الكرة في حلقومه أو صدره أو أمعائه. «م».



المخاطي يتولد عنه، حينما ينبَّه بكيفية خاصة، إحساس باللذة من نوع خاص. ولا ريب في أن التنبيه المولِّد للذة يرتبط بشروط معيَّنة لا معرفة لنا بها. وفي عداد هذه الشروط، يلعب الطابع الإيقاعي في أغلب التقدير دوراً، ولا يخفى هنا قدر من التشابه مع الحكّة. والأقل يقيناً من ذلك أن يكون طابع اللذة التي يولدّها هذا التنبيه «خصوصياً»، وأن تكون هذه الخصوصية تحديداً هي الحاوية للعامل الجنسي. وعلم النفس لا يزال يتلمس طريقه في الظلام تلمساً بصدد مسألة اللذة والكدر، ومن ثم تقضي الحكمة بالأخذ بأشدّ الفروض حذراً. وربما اهتدينا فيما بعد إلى أسباب تبيح لنا التوكيد على الطابع النوعي للإحساس اللذّي.

إن الخاصية الشهوية تبدو وثيقة الارتباط بمواضع معيَّنة من الجسم. فثمة مناطق شهوية مصطفاة، كما دلنا على ذلك مثال التمصّص. لكن هذا المثال عينه يفيدنا أيضاً أن أية منطقة من البشرة أو من الغشاء المخاطي يمكن أن تضطلع بدور المنطقة الشهوية، ومن ثم لا بدّ أن تكون متَّصفة ببعض الصفات التي تهيّئها لهذا الاستعمال. وعلى هذا، إن كيفية التنبيه، لا طبيعة المنطقة المنبّهة من الجسم، هي ذات الشأن الأكبر في توليد الإحساس اللذّي. فالطفل الذي يتمصّص يتقرّى ويختار، توخِّياً للذة، موضعاً من جسمه لا يلبث أن يغدو هو الموضوع الأثير بحكم التعوُّد. فإن شاءت له المصادفة أن يقع على منطقة موائمة جداً (حلمة الثدي، الأعضاء التناسلية)، حافظت هذه المنطقة على أولويتها. وإننا لنلتقي في تكوين أعراض الهستيريا ضروباً مماثلة من هذه الإزاحة. ففي هذه الحالة العصابية يصيب الكبت المناطق التناسلية الفعلية في غالب الأحيان، فتحوّل قابليتها للتهيُّج إلى مناطق شهوية أخرى عادة ما تكون مهملة في الحياة الراشدة، فتصير تسلك مذّاك فصاعداً مسلك الأعضاء التناسلية تماماً. غير أن أي جزء من الجسم يمكن، كما الحال في التمصّص، أن يكتسب قابلة التهيُّج المميِّزة للجهاز التناسلي، فيرقى بالتالي إلى مصاف المنطقة الشهوية. والمناطق الشهوية والمناطق القابلة للإثارة الهستيرية تتسم بسمات واحدة[١٦].

١٦ - [بعد مزيد من التمعن في التفكير، وبالاستناد إلى مشاهدات أخرى، انتهيت إلى عزو خاصية الإثارة الشهوية إلى جميع أجزاء الجسم وإلى الأعضاء الداخلية. انظر في تأييد ذلك ما سنقوله في موضع تالٍ عن النرجسية] (عدِّل سنة ١٩١٥).



الهدف الجنسي الطفلي - إن الهدف الجنسي للدافع الغريزي لدى الطفل هو الحصول على الإشباع عن طريق الإثارة المناسبة لمنطقة شهوية بعينها. ولا بدّ أن يكون الطفل قد خبر هذا الإشباع في زمن سابق كيما يرغب في تكراره، ولا مفرّ لنا من التسليم بأن الطبيعة عملت ألا يترك أمر خبرة هذا الإشباع للصدفة[١٧]. وقد عرفنا، فيما يتصل بالمنطقة الشفوية، الوسائل التي تتوسلها الطبيعة للوصول إلى غاياتها، إذ إن هذا الموضع من الجسم يفيد أيضاً في امتصاص الأغذية. وسنتعرف إلى كيفيات مماثلة أخرى من حيث هي مصادر للجنسية. وحالة الحاجة إلى تكرار الإشباع تكشف عن نفسها على نحوين: أولاً من خلال إحساس معيَّن بالتوتر يتَّسم بقدر من الإيلام، وثانياً من خلال تنبيه ذي أصل مركزي مُسْقَط على المنطقة الشهوية الطرفية، ولكن **ذات الدور الإتيولوجي المركزي**. في مقدورنا إذاً أن نحدِّد بكيفية أخرى الهدف الجنسي فنقول إن المهم هو أن يتمّ استبدال إحساس التنبيه المسقط على المنطقة الشهوية بتنبيه خارجي يسكّنه ويخلق شعوراً بالإشباع، وهذا التنبيه الخارجي هو في غالب الأحيان ملامسة يدوية مشابهة للتمصّص.

وأن تكون هذه الحاجة قابلة أيضاً للإيقاظ محيطياً، عن طريق تغيير للمنطقة الشهوية، فهذه واقعة تتفق تمام الاتفاق مع معارفنا الفيزيولوجية. غير أن الشيء الذي لا يخلو من بعض الغرابة هو ألا يكون من سبيل إلى تسكين تنبيه من التنبيهات غير إخضاع الموضع نفسه لتنبيه آخر.

٤ ـ التظاهرات الجنسية الاستمنائية[١٨]

لا يمكن إلا أن يطيب لنا للغاية أن نلاحظ أنه ما عاد علينا أن نعرف المزيد من الأمور الهامة بخصوص النشاط الجنسي لدى الطفل بعد أن باتت معروفة لدينا طبيعة الدافع الغريزي انطلاقاً من منطقة واحدة من المناطق الشهوية. أما ما

١٧ - [من العسير أن نتحاشى، في التفاسير البيولوجية، الأخذ بالكيفية الغائية في التفكير، على الرغم من أنه لا تتوفر لنا أية ضمانة لتفادي الزلل في دراستنا للحالات الخاصة] (أضيف سنة ١٩٢٠).

١٨ - انظر مقالي: **الطبع والإيروسية الشرجية**، ١٩٠٨[أضيف سنة ١٩١٠] وكذلك: **انزياحات الدافع الغريزي، وبالأخص في الإيروسية الشرجية**، ١٩١٧[أضيف سنة ١٩١٧].



سيصادفنا من فروق فيتعلق بالسبل الضرورية للوصول إلى الإشباع: المصّ بالنسبة إلى المنطقة الشفوية، أو عمل عضلي من نوع مختلف بالنسبة إلى المناطق الشهوية الأخرى تبعاً لطوبوغرافيتها وخصائصها.

نشاط المنطقة الشرجية ـ إن الموقع التشريحي للمنطقة الشرجية، مثله مثل موقع المنطقة الشفوية، يهيّئها لأن تجعل من إحدى الوظائف الفيزيولوجية متكأ لنشاط جنسي. وبوسعنا الافتراض أن الأهمية الشهوية لهذه المنطقة كانت في الأصل كبيرة. وإننا لنعلم من التحليل النفسي، بشيء من الدهشة، ما التحولات التي تطرأ في العادة على الإثارات الجنسية الصادرة عن هذه المنطقة، وكيف يتفق لهذه المنطقة في كثير من الأحيان أن تحتفظ، على امتداد حياة الفرد، بدرجة عالية من القابلية للتهيُّج الجنسي[١٩]. وإن للاضطرابات المعوية، الكثيرة التواتر لدى الطفل، دوراً في إبقاء هذه المنطقة في حالة من القابلية الشديدة للتهيُّج. فالالتهابات المعوية في مطلع العمر تجعل الطفل «عصبياً»، كما يقال؛ وفي زمن لاحق، تلعب الاضطرابات الهضمية دوراً مهماً في تزويد الحالات المرضية ذات الأصل العصابي بالعديد من أعراضها. ومتى ما أخذنا بعين الاعتبار المدلول الشهوي للمنطقة الشرجية ـ هذا المدلول الذي تبقى محافظة عليه ولو في صورة معدَّلة ـ أدركنا خطأ من يسخر من الدور الذي يعزى إلى البواسير في نشوء بعض الحالات العصابية، وهو الدور الذي كان الطب القديم يعلق عليه أهمية جلى.

إن الأطفال الذين يستخدمون قابلية المنطقة الشرجية عندهم للتهيُّج الشهوي يفضحون حقيقة أمرهم، إذ يمسكون موادهم البرازية إلى أن يتسبب تراكم هذه المواد في حدوث تقلصات عضلية عنيفة تُحْدِث بدورها، لدى مرورها بالصارّة الشرجية، إثارة شديدة. وبوسعنا الافتراض أنه من المحتمل جداً أن ينضاف إلى الإحساس بالوجع إحساس متوقع باللذة. وإن واحدة من أجلى علامات الشذوذ

١٩ ـ انظر بخصوص هذا الموضوع الأدبيات الغزيرة جداً حول الاستمناء، ولكن التي غالباً ما تضرب أخماساً بأسداس كما على سبيل المثال لدى روهلدر Rohleder[*]. وانظر أيضاً الدفتر الثاني من مناقشات **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** تحت عنوان: **حول الاستمناء**، فسبادن ١٩١٢ [أضيف سنة ١٩١٥].

* ـ هرمان روهلدر: طبيب وعالم جنس ألماني (١٨٦٦ ـ ١٩٣٤). اشتهر بكتاب له عن الاستمناء. «م».



الطبيعي أو العصبي الذي سيتظاهر مستقبلاً يقدِّمها الطفل حين يجلس على «القصرية» ويأبى إفراغ إمعائه ويعصى أوامر الأهل ويصرّ على ألا «يفعلها» إلا متى ما طاب ذلك له هو. وبديهي أنه لا يبالي إن وسَّخ حفاظه، وما يهمّه هو ألا تضيع منه اللذة الإضافية التي يستمدّها من التغوُّط. ولا يخطئ المربي إذ ينعت الأطفال الذين «يمسكون أنفسهم» بالرذلاء.

[يؤدي المحتوى المعوي إذاً، بالنسبة إلى الغشاء المخاطي المحبوّ بحساسية جنسية، دور جسم مهيِّج، مستبقاً بذلك، بنوع ما، عضواً آخر لن يعلن عن ظهوره إلا بعد مرحلة الطفولة. غير أن للمحتوى المعوي دلالات هامة أخرى أيضاً عند الطفل الرضيع. فهو يعدّه بطبيعة الحال جزءاً من جسمه، وهو في نظره «هدية» يثبِت بها، إن قدّمها، طاعته، وإن أمسكها، عصيانه وعناده. ثم لا تلبث «الهدية» أن تكتسب معنى «الطفل» الذي ترى إحدى نظريات الأطفال الجنسية أنه يُقتنى ويتخلق بالأكل ويولد من المعي] (أضيف سنة ١٩١٥).

إن إمساك المواد البرازية، الذي يستجيب في البداية لرغبة الطفل في استعمالها كمنبّه استمنائي للمنطقة الشرجية أو في استخدامها في علاقته بمن يرعاه من الأشخاص، لهو أصل من أصول قبض البطن الشائع لدى المرضى المعصوبين. ومما يظهر أهمية المنطقة الشرجية أننا لا نجد إلا قلة من المعصوبين لا يتخذون لأنفسهم عادات تغوّطية خاصة ولا يمارسون طقوساً يحرصون على أن تبقى سراً مخفياً[٢٠].

ولا يندر في الطور الثاني من الطفولة أن يوجد لدى الصغار تنبيه استمنائي حقيقي للمنطقة الشرجية بواسطة الإصبع، بدافع من أُكال ذي أصل مركزي أو

٢٠ - [في مقال أسهم في إفهامنا جسامة الدور الذي ينبغي أن نعزوه إلى إيروسية المنطقة الشرجية (**الشرجي والجنسي**، مجلة **إيماغو**، المجلد ٤، ١٩١٦)، أوضحت لو أندرياس سالومي Lou Andreas Salom أن أول تحظير يفرض على الطفل، ويكون متصلاً باللذة التي يجتنيها من النشاط الشرجي ونتاجه، يحدد كل مسار تطوره اللاحق. ففي هذه المناسبة يشعر المخلوق الصغير لأول مرة أنه محاط بعالم معادٍ لتظاهر دوافعه الغريزية. فيتعلم كيف يميِّز شخصه الصغير من الأغراب، وكيف يكبت للمرة الأولى طاقاته اللذِّية. ومنذئذ يغدو «الشرجي» رمز كل ما هو محرَّم وكل ما ينبغي نبذه من حياته. والفصل المطلق، المطلوب فيما بعد، بين المنطقتين الشرجية والتناسلية يتناقض مع علاقات التجاور التشريحي والتشابه الوظيفي القائمة بينهما. فالجهاز التناسلي لا يبرح يبدو لدى المرأة وكأنه «مستعار منه» على حدّ تعبير لو أندرياس سالومي] (أضيف سنة ١٩٢٠).



طرفي.

نشاط المناطق التناسلية ـ في جملة المناطق الشهوية لدى الطفل منطقة لا تنعم، قطعاً، بالأولوية ولا تصدر عنها المشاعر الجنسية الأولى، ولكنها مرشحة لتلعب الدور الأعظم مستقبلاً. وهي مرتبطة لدى الصبي والبنت بالتبول (الحشفة، البظر). وكونها محتواة، فضلاً عن ذلك، لدى الصبي في كيس مخاطي، يحتِّم أن تحدث فيها تنبيهات بفعل الإفرازات التي قد تشحذ أحاسيس جنسية مبكرة. والتنشيط الجنسي لهذه المنطقة الشهوية، التي هي جزء من الجهاز التناسلي الحقيقي، يؤلف بداية ما سيكون هو الحياة الجنسية «السويّة» لاحقاً.

وبالنظر إلى الموقع التشريحي لهذه المنطقة، وانغماسها بالإفرازات، والعناية المبذولة لها من غسل وفرك، وبعض التنبيهات العارضة (حركة الطفيليات المعوية لدى البنات الصغيرات)، يغدو من المحتم أن يحسّ الطفل ابتداء من طور الرضاعة باللذة التي يمكن أن تصدر عن هذا الموضع من جسمه، فتتولد لديه من ثم حاجة إلى التكرار. وإذا تذكرنا جملة العادات المتبعة للعناية بالطفل، وأخذنا في اعتبارنا أن إجراءات النظافة تماثل في مفعولها القذارة والإهمال، [لم نجد مناصاً من الافتراض أن أونانية[٢١] الرضيع، التي لا يكاد أي مخلوق يفلت من الوقوع في إسارها، تحدد الأولوية المستقبلية لهذه المنطقة الشهوية بالنسبة إلى النشاط الجنسي] (عُدِّل سنة ١٩١٥). أما الأفعال التي تضع حداً للتنبيه وتأتي بالإشباع فتتمثل إما بالدعك باليد، وإما بالضغط ـ المسبق التعيين غريزياً بكل تأكيد ـ عن طريق ضمّ الفخذين. والحركة الأخيرة هذه شائعة بكثرة لدى البنات الصغيرات. وبالمقابل، يفضِّل الصبيان اليد، وهذا ما يشفّ عن الدور الذي سيكون ذات يوم لغريزة السيطرة في النشاط الجنسي

٢١ ـ الأونانية Onanisme نسبة إلى أونان: اسم عبري معناه القويّ، وهو أحد أبناء يهوذا من امرأة كنعانية. وقد ورد ذكر قصته في التوراة، إذ اضطر إلى الزواج من أرملة أخيه، ولكنه امتنع عن مضاجعتها بصورة كاملة حتى لا تنجب منه. وقد أصبحت الأونانية مرادفاً للاستمناء، مع أنها تشير بالأصل إلى الجماع المبتور. «م».



للذكر[٢٢].

[ولمزيد من الوضوح يتعيَّن عليَّ الآن أن أشير إلى أنني أميِّز ثلاثة أطوار في الاستمناء الطفلي. فأول هذه الأطوار يناظر زمن الرضاعة، والثاني يقابل الفترة القصيرة التي يتفتح فيها النشاط الجنسي في حوالي السنة الرابعة، والطور الثالث هو وحده الذي يتطابق مع أونانية البلوغ، التي استأثرت وحدها حتى الآن باهتمام المراقبين] (أضيف سنة ١٩١٥).

الطور الثاني من الاستمناء الطفلي ـ تختفي أونانية الطفولة الأولى بعد وقت وجيز فيما يبدو. أما إذا استمرت إلى زمن البلوغ، فيكون ذلك أول حيدان خطير عن مسار التطور المفروض أن يسلكه الإنسان المتحضر. وفي زمن محدد يلي زمن الرضاعة (قبل السنة الرابعة في العادة)، يستيقظ الدافع الغريزي الجنسي لهذه المنطقة التناسلية مرة ثانية ويدوم زمناً ما إلى أن يتعرض لقمع جديد، وهذا بطبيعة الحال، إن لم يستمر بلا توقف. والمواقف المختلفة التي قد تنشأ عندئذ عديدة للغاية، وبيانها يحتاج منا إلى تحليل كل منها على حدة. غير أن جميع تفاصيل هذه المرحلة الثانية من النشاط الجنسي الطفلي تترك آثاراً عميقة (لاشعورية) في الذاكرة وتعيّن طبع الفرد إن كان مقيَّضاً له أن يكون سوياً معافى، وأعراض العصاب إن كان مقيَّضاً له أن يصير في المستقبل مريضاً[٢٣]. وفي هذه الحالة الأخيرة نلاحظ أن المرحلة الجنسية قد أُنتسيت، وأن الذكريات التي يمكن أن تشهد عليها قد خضعت لعملية إزاحة ونقل. وقد قلت آنفاً إني أستشف علاقة ما بين النساية الطفلية السويّة وبين النشاط الجنسي في هذا العمر. ونستطيع عن طريق التحليل النفسي أن نردّ إلى الشعور ما طوته

٢٢ - [إن استخدام طرائق خاصة في ممارسة الأونانية في طور لاحق من العمر ليس إلا محاولة للالتفاف على الحظر الذي يكون قد فُرض على هذه الممارسة في الطفولة] (أضيف سنة ١٩١٥).

٢٣ ـ [ما زلنا في حاجة إلى التعمق في أسباب ارتباط شعور المعصوبين بالذنب (كما أثبت ذلك مؤخراً بلولر) بذكرى نشاط أوناني يُمارس في أغلب الأحيان في زمن البلوغ. ومن الممكن التعبير عن هذه العلاقة بصورة تقريبية على النحو التالي: إن الأونانية تمثّل بمفردها تقريباً كل النشاط الجنسي عند الطفل وتتحمل بالتالي تبعة الشعور بالذنب الذي يُسقط على هذا النشاط] (أضيف سنة ١٩١٥ و١٩٢٠).



يد النسيان، وأن نلغي على هذا النحو دافعاً قهرياً مصدره المادة النفسية اللاشعورية.

عودة الاستمناء الطفلي المبكر ـ يعود التنبيه الجنسي لطور الرضاعة في إبان الطفولة الثانية في صورة دغدغة ذات منشأ مركزي، تتطلب إشباعاً عن طريق الأونانية أو عن طريق نوع من الاحتلام يؤدي، كما في احتلام الراشد، إلى إشباع بدون مداخلة يدوية. وهذه الحالة الأخيرة شائعة بكثرة لدى البنات الصغيرات في الطفولة الثانية، ولسنا نعرف شروطها على وجه اليقين. ويبدو أنه تسبقها في الغالب، إن لم يكن دائماً، مرحلة من الأونانية النشيطة. وأعراض هذا التظاهر للجنسية ليست بالكثيرة، والعضو التناسلي لا يزال ناقص النمو، وجهاز التبول يقوم بوظيفة القيّم عليه، ومعظم أمراض المثانة المزعومة في هذا الطور عبارة عن اضطرابات ذات أصل جنسي، **والتبول اللاإرادي** في الليل هو بمثابة احتلام، إلا إذا كان السبب فيه الصرع.

إن لتجدد النشاط الجنسي أسباباً داخلية ومناسبات خارجية. وتساعدنا أعراض الأعصبة والفحوص التحليلية النفسية على الاستدلال لاحقاً عن الأسباب الداخلية. أما الأسباب الخارجية العارضة فتكتسب في هذه الفترة أهمية كبيرة ودائمة. وأهم هذه المؤثرات إطلاقاً ذلك الذي يتمثل بالإغواء الذي يجعل من الطفل موضوعاً جنسياً مبكراً ويعلّمه كيف يتمّ إشباع المنطقة التناسلية في ظروف يكون لها في نفسه وقع عظيم. وغالباً ما يجد الطفل نفسه مدفوعاً إلى تجديد هذه الخبرات عن طريق ممارسة الأونانية. ومصدر الإغواء في هذه الحالات الراشدون أو رفاق الطفل. ولست أملك إلا أن أقرّ بأني بالغت، في مقالي المنشور عام ١٨٩٦ «**عن إتيولوجيا الهستيريا**»، في معدل تواتر حالات الإغواء هذه أو في أهميتها. لكنني كنت لا أزال أجهل يومئذ أن بعض الأفراد الذين ظلوا أسوياء يمكن أن يكونوا تعرضوا في طفولتهم للخبرات ذاتها. ومن ثم كنت أعلّق على الإغواء أهمية أكبر من تلك التي أعلّقها على عاملي الجِبِلَّة والنمو الجنسيين[٢٤]. وغني عن البيان أن الإغواء ليس ضرورياً لإيقاظ الحياة الجنسية لدى الطفل، وأن هذه اليقظة قد تحدث تلقائياً بتأثير علل باطنة.



الاستعداد المتعدد الأشكال للانحراف ـ من المفيد أن نلاحظ أن الطفل، الذي يتعرّض للإغواء، قد يصاب بانحراف متعدد الأشكال وينقاد إلى ضروب شتى من الشذوذ. وهذا يدل على وجود استعداد فطري لها لديه. وتفعيل هذا الاستعداد الفطري لا يلقى سوى مقاومة واهنة، على اعتبار أن السدود النفسية التي تعترض سبيل الشطط الجنسي (الحياء، القرف، الأخلاق) لم تنبنِ بعد أو هي قيد البناء، تبعاً لعمر الطفل. ومن هذا المنظور لا يختلف سلوك الطفل هنا عن سلوك المرأة المتوسطة التي لم يطلها تأثير الحضارة والتي حافظت بالتالي على استعداد فطري انحرافي متعدد الأشكال. ولا ريب في أن امرأة لديها مثل هذا الاستعداد يمكن أن تبقى، في ظروف الحياة العادية، سوية من الناحية الجنسية، أما إذا وقعت بين يدي مغوٍ ماهر فقد تستعذب جميع ضروب الانحراف وتمارسها مذذاك فصاعداً ضمن نشاطها الجنسي. وتستغل البغي هذا الاستعداد المتعدد الأشكال، وبالتالي الطفلي، لصالح حرفتها. وإن أخذنا في اعتبارنا ضخامة عدد البغايا والنساء اللائي لا سبيل إلى المماراة في قابليتهن للبغاء، وإن لم يحترفنه قط، لم نجد مناصاً من الإقرار بأن هذا الاستعداد للانحرافات كافة سمة بشرية عامة وأساسية.

الدوافع الغريزية الجزئية ـ لا يفيدنا الإغواء علماً بصدد بدايات الحياة الجنسية لدى الطفل، بل على العكس: فقد تضللنا حالات الإغواء بسهولة لأننا نواجه في هذه الحال أطفالاً خبروا، قبل الأوان، موضوعاً جنسياً ما كانت تدفعهم إليه أية حاجة. على أنه لا بدّ لنا من الإقرار بأن الحياة الجنسية الطفلية تتضمن، وإن كانت الغلبة فيها لدور المناطق الشهوية، مقوِّمات تحضّ الطفل على التوجه، من البداية، إلى أشخاص آخرين باعتبارهم موضوعاً جنسياً. ومن جملة هذه المقوِّمات

---

٢٤ ـ يسوق هافلوك إلِّيس في ملحق لدراسته عن **الشعور الجنسي** (١٩٠٣) طائفة من الشهادات قبسها من سيرة حياة أفراد أسوياء عن الإثارات الجنسية الأولى في طفولتهم وعن الظروف التي حدثت فيها. والثغرة التي تشكو منها هذه الشهادات بطبيعة الحال هي إغفالها لفترة النساية الطفلية، التي هي للحياة الجنسية بمثابة ما قبل التاريخ، ولا سبيل إلى ردم هذه الثغرة لدى الفرد العصابي إلا عن طريق التحليل النفسي. على أن تلك الشهادات نفيسة من أكثر من ناحية، والمعلومات التي استقيتها من تنقيبات من نوع مماثل هي التي حملتني على تعديل فروضي الإتيولوجية بالاتجاه الذي أخذت به في نصي هذا.



نخصّ بالذكر تلك التي تدفع بالأطفال إلى التلصص والاستعراء، وكذلك الدافع الغريزي إلى القسوة. هذه الدوافع الغريزية، التي لن تتوثق روابطها بالحياة التناسلية إلا فيما بعد، لها وجودها الملحوظ منذ الطفولة، رغم أنها تكون آنئذ مستقلة إلى حدّ ما عن النشاط الجنسي للمناطق الشهوية. فالطفل الصغير يجهل الحياء جهلاً تاماً، ويبدي في سنوات الطفولة الأولى لذة لا لبس فيها في كشف جسمه جاذباً الانتباه إلى أعضائه التناسلية. ونقيض هذا الميل، الذي نعدّه انحرافياً، هو التشوُّف إلى رؤية الأعضاء التناسلية لشخص آخر. ويظهر هذا التشوُّف في الطفولة الثانية حين يكون الحاجز الذي نصبه الحياء قد بلغ درجة معيَّنة من القوة. وبتأثير الإغواء، يمكن أن يكتسب الانحراف التلصصي أهمية قصوى في حياة الطفل الجنسية. على أن المشاهدات التي أجريتها على أطفال وعلى أشخاص أسوياء ومعصوبين جعلتني أستنتج أن المقوِّم الغريزي المتمثِّل بحبّ النظر يمكن أن يتظاهر في المضمار الجنسي تلقائياً. فإن اتجه انتباه الأطفال الصغار مرة إلى أعضائهم التناسلية، وفق النمط الاستمنائي في غالب الأحيان، مضوا في هذا السبيل بلا تدخل خارجي وأظهروا أعظم الاهتمام بالأجزاء التناسلية عند رفاقهم الصغار في اللعب. وبما أن فرصة إشباع هذا الفضول لا تسنح إلا في أثناء أداء وظيفتي التبول والتغوط، يصبح الأطفال **متلصصين**، أي ولوعين بمشاهدة هذين الفعلين الفيزيولوجيين. ومتى ما كبتت هذه الميول، بقيت الرغبة في رؤية الجهاز التناسلي (من الجنس نفسه أو من الجنس الآخر) قائمة، وقد تتخذ شكل دافع قهري متسلِّط يغدو، لدى بعض المعصوبين، قوة حاسمة الأثر في تكوين الأعراض المرَضية.

بيد أن مقومات القسوة في الدوافع الغريزية الجنسية تتسم في تطورها بقدر أكبر بعد من الاستقلال عن النشاط الجنسي المرتبط بالمناطق الشهوية. فالطفل بصفة عامة نزّاع إلى القسوة، لأن مرأى ألم الغير لا يكون قد كبح لديه بعد غريزة السيطرة، وذلك ما دامت الشفقة لا تنمو إلا في زمن متأخر نسبياً. وما أمكن إلى اليوم، كما نعلم، التوصل إلى تحليل سيكولوجي معمَّق لهذه الغريزة. [وأقصى ما نستطيع التسليم به أن الميل إلى القسوة يتفرع من غريزة السيطرة وأن



ظهوره في الحياة الجنسية يكون في وقت لما تضطلع فيه الأعضاء التناسلية بعد بدورها النهائي. وهو يسيطر على طور بأكمله من الحياة الجنسية سوف نصفه فيما بعد بأنه التنظيم القبتناسلي] (عُدِّل سنة ١٩١٥). والأطفال الذين يدللون على قسوة بالغة حيال الحيوانات وحيال أترابهم في اللعب يُشتبه في العادة، وبحقّ، بأن المناطق الشهوية عندهم تعرف نشاطاً كثيفاً ومبكراً. وعلى الرغم من أن جميع الدوافع الغريزية الجنسية تتسم في هذه الحال بنمو سابق لأوانه فإن النشاط الجنسي للمناطق الشهوية يبدو هو الراجح الكفة. وغياب الشفقة يستتبع خطراً محدداً، وهو أن تصبح الصلة التي انعقدت في أثناء الطفولة بين الدوافع الغريزية الشهوية والقسوة غير قابلة للفصم في الأطوار اللاحقة من الحياة.

إن أحد الجذور الشهوية للميل السلبي إلى القسوة (المازوخية) يتمثل في التنبيه المؤلم لمنطقة الإليتين، وهذه ظاهرة معروفة جيداً منذ **اعترافات** جان جاك روسو[٢٥]. وقد استخلص المربّون من ذلك، بحقّ، أن العقوبات الجسدية التي تُخصّ بها هذه المنطقة من الجسم عادة ينبغي الامتناع عن إنزالها بالأطفال اللذين هم عرضة، تحت

---

٢٥ ـ الإشارة هنا إلى ما أورده روسو في **اعترافاته** عن إحساس اللذة الذي خلَّفته في شعوره معلمة اللغة اللاتينية حين عاقبته، وهو في الثامنة من العمر، بضربه على إليتيه.

وقد روى روسو القصة في مطلع **اعترافاته** قائلاً بالحرف الواحد: «لما كانت الآنسة لامبرسييه تكنّ لنا عطف أمّ، فقد كان لها أيضاً سلطة أمّ، وكانت هذه السلطة تدفع بها أحياناً إلى أن تُنزِل بنا عقوبة الأطفال عندما نكون قد استحققناها. وقد اكتفت على مدى فترة أولى بتهديدنا بها. وكان هذا التهديد الجديد كل الجدّة بالنسبة إليّ يبدو لي مرعباً للغاية، ولكن بعد أن أنزلت العقوبة بي وجدتها أقل رهبة مما كنت أتوقع. والأغرب من هذا بعد أن ذلك القصاص زادني ولعاً بتلك التي أنزلته بي. بل لولا صدق هذا الشعور وما بي من وداعة فطرية لما كنت امتنعت عن السعي إلى أن تتكرر المعاملة ذاتها بعد أن أكون قد استحققتها. ذلك أني وجدت في الألم، بل في الخزي بالذات، مزيجاً من شهوانية خلّفت في نفسي رغبة، أكثر مما خلّفت خوفاً، في أن أكابده مجدّداً على يد الشخص نفسه. وبما أن ذلك كله يختلط على الأرجح بضرب من غريزة جنسية مبكرة، فإن هذه العقوبة عينها ما كانت لتبدو لي ممتعة إلى ذلك الحدّ فيما لو أنزلها بي أخوها [مدير المدرسة]».

ويضيف روسو أنه لما أنزلت الآنسة لامبرسييه به العقوبة ذاتها مرة ثانية تنبهتُ إلى أن عقوبة الضرب على الإليتين لا تؤتي أكلها فكانت هي المرة الأخيرة التي تلجأ فيها إليها. ويختم روسو بقوله: «من كان ليصدّق أن تلك العقوبة الطفلية، التي تلقيتها وأنا في الثامنة من العمر على يد آنسة في الثلاثين، قد قررت طبيعة مشاربي ورغباتي وأهوائي وأناي لمدى حياتي، وهذا بالضبط في وجهة معاكسة لتلك التي كان يفترض أن تتأدى إليها العقوبة طبيعياً». «م».



تأثير المتطلبات اللاحقة للتربية الحضارية، لأن يتحوَّل الليبيدو عندهم نحو قنوات جانبية[٢٦].

٥ ـ البحث الجنسي عند الطفل

[**الدافع الغريزي إلى المعرفة** ـ في الفترة عينها التي تدرك فيها حياة الطفل الجنسية أولى ذرى تفتحها ـ ما بين السنة الثالثة والخامسة ـ تظهر بواكير نشاط يعزى إلى الدافع الغريزي إلى المعرفة أو إلى البحث والتحري. والحال أننا لا نستطيع أن ندرج الدافع الغريزي إلى المعرفة في عداد المقوِّمات الغريزية الأولية، كما أنه من المتعذر أن نجعله تابعاً للجنسية حصراً. فنشاطه يناظر، من جهة أولى، شكلاً من أشكال إسماء الدافع الغريزي إلى السيطرة، وهو يستخدم، من الجهة الثانية، حبّ النظر كطاقة له. على أن العلاقات التي يقيمها مع الحياة الجنسية بالغة الأهمية، لأن التحليل النفسي يكشف لنا عن أن الدافع الغريزي إلى المعرفة لدى الطفل ينجذب، في وقت أبكر مما يُعتقد بصورة عامة، وبقوة لامتوقعة، نحو المشكلات الجنسية. بل قد يباح لنا القول إن هذه المشكلات هي التي توقظ ذلك

---

٢٦ ـ [خلصت في عام ١٩٠٥ إلى هذه الاستنتاجات بصدد الجنسية الطفلية بناء على نتائج فحوص تحليلية نفسية أجريت على راشدين. ولم يكن ثمة مجال يومئذ لممارسة الملاحظة المباشرة للأطفال بحرية، ولم تكن هذه الملاحظة قد أثمرت إلا بعض بيّنات متفرقة وبعض معطيات مفيدة. وقد نجحنا منذئذ، بتحليلنا بعض حالات العصاب الطفلي، في النفاذ بصورة أكثر مباشرة إلى الجنسية النفسية للطفل (**حولية البحوث التحليلية النفسية والمَرَضية النفسية**، المجلد ١، ١٩٠٩، والمجلدات التالية). وإنه ليسعدني أن أسجل أن الملاحظة المباشرة قد أيّدت الاستنتاجات التي كان انتهى إليها التحليل النفسي، وهذه شهادة حاسمة على مشروعية هذا المنهج في البحث.

لقد أمدنا تحليل رهاب صبي صغير في الخامسة من العمر (هانز الصغير) بمعلومات كثيرة لم يكن التحليل النفسي قد أعدَّنا لها بعد، ومنها أن الرمزية الجنسية، أي تمثيل ما هو جنسي بمواضيع وعلاقات غير جنسية، ترجع زمنياً إلى أولى المحاولات التي يبذلها الطفل للتعبير عن نفسه بالكلام. وقد وجدتني، فضلاً عن ذلك، مرغماً على التنبيه إلى وجود نقيصة في تفسيري السابق حينما لم أكتفِ بالتمييز المفهومي بين طوري **الإيروسية الذاتية والحب الموضوعاني**، بل أقمت بينهما انفصالاً زمنياً أيضاً.

والواقع أن التحاليل التي سقناها أعلاه، وكذلك المعلومات التي أمدّنا بها بلّ Bell، تفيدنا أن الأطفال ما بين الثالثة والخامسة من العمر قادرون بما لا يدع مجالاً للبس على القيام باختيار جنسي ذي طابع موضوعاني مصحوب بانفعالات قوية] (أضيف سنة ١٩١٠).



الدافع الغريزي.

لغز أبي الهول. إن الاهتمامات العملية، لا النظرية، هي التي تدفع بالطفل إلى هذا البحث. فهو حين يشعر بأنه مهدد بقدوم فعلي أو مفترض لطفل جديد إلى الأسرة، وحين يرتاب في أن هذا الحدَث قد يترتب عليه بالنسبة إليه نقص في العناية أو في الحب، يشرع بالتفكير ويطفق ذهنه يعمل. وأولى المشكلات التي تشغله، بمقتضى درجة نموه، ليست معرفة الفارق بين الجنسين، بل اللغز الكبير: من أين يأتي الأطفال؟ وهذا اللغز هو عينه اللغز الذي يطرحه وحش طيبة[٢٧] وإن في صورة محرَّفة يسهل تصويبها. وأما وجود الجنسين فالطفل يقبل به أول الأمر بلا اعتراض، ومن غير أن يعلِّق عليه أهمية كبيرة. ولا يماري الصبيان الصغار على الإطلاق في أن كل الأشخاص الذين يعرفونهم لهم جهاز تناسلي مماثل لجهازهم، إذ ليس في مكنتهم التوفيق بين غياب هذا العضو وبين الفكرة التي في تصوُّرهم عن هؤلاء الأشخاص الآخرين.

عقدة الخصاء والحسد القضيبي ـ يتمسك الصبيان الصغار بعناد بهذا الاعتقاد، ويذودون عنه ضد كل الوقائع المناقضة التي لا تلبث المشاهدة أن تكشف لهم عنها، ولا يتخلون عنه في كثير من الأحيان إلا بعد مرورهم بصراعات داخلية خطيرة (عقدة الخصاء). وجهودهم في سبيل إيجاد معادل لقضيب المرأة المفتقد تلعب دوراً كبيراً في تكوين انحرافات عديدة[٢٨].

إن افتراض وجود جهاز تناسلي واحد (عضو الذكورة) لدى بني الإنسان قاطبة هو أول نظرية من النظريات الجنسية الطفلية، الممتعة دراستها والخصبة نتائجها. ولا يهمّ الطفل في كثير أو قليل أن تؤيد البيولوجيا صحة ظنه بإقرارها أن بظر المرأة بديل فعلي عن القضيب. وبالمقابل، لا تمانع الفتاة الصغيرة في القبول والاعتراف بوجود جنس مغاير لجنسها عندما يقع نظرها على العضو

---

٢٧ ـ الإشارة هنا إلى أسطورة أوديب. «م».

٢٨ ـ [من المباح لنا أن نتكلم عن عقدة خصاء لدى المرأة أيضاً. فالأطفال من كلا الجنسين يتخيّلون نظرية مؤداها أن المرأة كان لها، في الأصل، قضيب، ثم فقدته نتيجة الخصاء. وحين يقتنع الصبيان في نهاية المطاف بأن المرأة لم تملك قضيباً قط، لا يندر أن يأخذهم ازدراء دائم للجنس الآخر] (أضيف سنة ١٩٢٠).



التناسلي للصبي الصغير، فيستبدّ بها الحسد القضيبي الذي يحرِّك فيها رغبة، بالغة الأهمية في نتائجها لاحقاً، في أن تكون بدورها صبياً.

نظريات الميلاد ـ يذكر كثير من الناس كم كان اهتمامهم عظيماً، في فترة ما قبل البلوغ، بمعرفة من أين يأتي الأطفال. والحلول التشريحية التي أخذوا بها يومذاك متنوعة للغاية، ومنها افتراضهم أن الأطفال يولدون من الثدي، أو يخرجون من البطن عن طريق شقّه، أو أن السرّة تنفتح لتفسح لهم ممراً[٢٩]. وبلا معونة التحليل النفسي، يعزّ على الكثيرين أن يتذكروا بحوثهم بصدد هذا الموضوع في طفولتهم؛ فهذه البحوث قد طالتها يد الكبت منذ زمن بعيد، لكن كانت جميعها تؤول إلى نتيجة واحدة: فالطفل يُنجَب بعد تناول نوع معيَّن من الطعام (كما في الحكايا الخرافية)، والأطفال يولدون من المعي، كما عند التغوط. وهذه النظريات الطفلية تذكِّرنا ببعض الأحوال السائدة في مملكة الحيوان، وعلى الأخص بوجود المخرج CLOAQUE عند الأنواع الدنيا من الثدييات.

التصور السادي للعلاقة الجنسية ـ متى عاين صغار الأطفال اتصالاً جنسياً بين الراشدين (وغالباً ما يتيح لهم هؤلاء الفرصة اعتقاداً منهم بأن الطفل أصغر سناً من أن يفهم الحياة الجنسية)، بادروا إلى تأويل الفعل الجنسي على أنه ضرب من سوء المعاملة أو من إساءة استعمال القوة، أي أنهم يخلعون على هذا الفعل مدلولاً سادياً. ويفيدنا التحليل النفسي أن انطباعاً كهذا في الطفولة الأولى يسهم إسهاماً كبيراً في تمهيد السبيل لاحقاً أمام إزاحة سادية للهدف الجنسي. ويهتم الأطفال اهتماماً كبيراً أيضاً بمعرفة ما كنه الاتصال الجنسي، أو التزوج كما يقولون؛ والحلّ الذي ينتهون إليه في العادة للغز هو أن ثمة اتصالاً يحدث في لحظة التبول أو التغوط.

فشل نمطي للبحث الجنسي الطفلي ـ في مقدورنا، بصفة عامة، أن نقول إن النظريات الجنسية الطفلية ما هي إلا انعكاس للجِبِلَّة الجنسية للطفل، وإنها تنمّ، رغم أخطائها العجيبة، عن تفهم للأفعال الجنسية أكبر مما قد يفترضه المرء بادئ

٢٩ ـ [تغزر النظريات الجنسية غزارة كبيرة في السنوات الأخيرة من الطفولة. ولم أورد منها هنا سوى أمثلة قليلة] (أضيف سنة ١٩٢٤).



الأمر. فالأطفال يتنبهون للتغيُّرات التي يحدثها الحمل لدى الأم، وتأويلهم لها صحيح. فأسطورة اللقلق تقابل منهم بارتياب كبير[٣٠] وإن كانوا لا يفصحون عنه. على أن الطفل، الجاهل بدور المني في الحياة الجنسية وبوجود الفتحة المهبلية عند المرأة ـ وهنا عنصران غير بارزي الحضور في ذلك العمر ـ لا يتأتى له أن يصل إلى نتيجة صحيحة في بحثه. وعندما يعزف عنه، يلحق ضرر مستديم بالدافع الغريزي إلى المعرفة عنده. ويقوم الطفل ببحوثه الجنسية بمفرده دوماً، وهي بالنسبة إليه خطوة أولى لشقّ طريقه في العالم. وهذا ما يشعره بالغربة عن أشخاص محيطه بعد أن كانوا، إلى ذلك الحين، يحظون بكامل ثقته] . (فصل أضيف سنة ١٩١٥).

٦ ـ أطوار نمو التنظيم الجنسي

[رأينا حتى الآن أن ما يميِّز الحياة الطفلية هو أنها إيروسية ذاتية في جوهرها (إذ إن الطفل يلقى موضوعه في جسمه بالذات)، وأن الدوافع الغريزية الجزئية تكون غير مترابطة ترابطاً وثيقاً فيما بينها، ومستقلة عن بعضها بعضاً في نشدانها اللذة. ويفضي النمو إلى ما اعتدنا أن نسمِّيه بالحياة الجنسية السويّة لدى الراشد، التي يوضع فيها نشدان اللذة في خدمة وظيفة الإنسال، بينما تؤلف الدوافع الغريزية الجزئية، الخاضعة لزعامة منطقة شهوية وحيدة، تنظيماً متيناً قادراً على بلوغ الهدف الجنسي المتمثل بموضوع جنسي غيري.

التنظيمات القبتناسلية ـ إن اعتمادنا على التحليل النفسي في دراسة ضروب الكف والاضطراب التي تعتري هذا النمو يتيح لنا أن نتعرف وجود بدايات وتشكيلات أولية لهذا التنظيم للدوافع الغريزية الجزئية من شأنها أن ينجم عنها نوع من نظام جنسي. ويمرّ الطفل في العادة بمختلف أطوار التنظيم الجنسي هذه بلا صعوبة، بدون أن يكون في المستطاع تمييزها إلا من خلال بعض القرائن. وإنما في الحالات المرَضية فحسب تبرز هذه الأطوار وتسترعي الانتباه ويغدو سهلاً تعرّفها.

٣٠ ـ يقال للأطفال في الغرب إن اللقالق هي التي تأتيهم بإخوة لهم. «م».



إننا نطلق على تنظيمات الحياة الجنسية التي لا تضطلع فيها المناطق التناسلية بعد بدور الزعامة صفة **القبتناسلية**. وقد عرفنا منها حتى الآن تنظيمين ينمّان عن عودة إلى الأشكال البدائية للحياة الحيوانية.

التنظيم الجنس القبتناسلي الأول هو ذاك الذي نسمِّيه بالفموي، أو إذا شئتم **بالافتراسي** CANNIBALE. وفي هذا الطور لا يكون النشاط الجنسي منفصلاً عن تناول الطعام، إذ لا يكون تمايز العمليتين قد ظهر للعيان بعد. ولكلا النشاطين موضوع واحد، والهدف الجنسي يتمثل **باستدماج** الموضوع، وهو نموذج بدئي لما ستكون عليه لاحقاً وظيفة **التماهي** IDENTIFICATION التي يفترض فيها أن تلعب دوراً هاماً في النمو النفسي. ومن الممكن أن نعدّ التمصّص رسابة من هذا الطور التنظيمي الذي ما كنا لنعرف بوجوده الافتراضي لولا علم الأمراض. وبالفعل، إن النشاط الجنسي لا يلبث، غبّ انفصاله عن النشاط الغذائي، أن يستبدل الموضوع الخارجي بجزء من جسم الفرد ذاته(٣١).

أما الطور القبتناسلي الثاني، فهو الذي نسميه بالطور **السادي ــ الشرجي**، وفيه يتجلى بوضوح التعارض الذي يستمر مدى الحياة الجنسية بين قطبين لا تمكن تسميتهما بعد **بالمذكر والمؤنث**، وإنما فقط **بالموجب والسالب**. ويبدو أن العنصر الموجب يتألف من الدافع الغريزي إلى السيطرة، المرتبط هو نفسه بالجهاز العضلي البدني. أما العضو الذي هدفه الجنسي سالب فيتمثل بالغشاء المخاطي المعوي الشهوي. ولكل ميل من هذين الميلين موضوعه الذي لا يتطابق مع موضوع الميل الآخر. وإلى جانبهما تنشط دوافع غريزية جزئية أخرى وفق نمط إيروسي ذاتي. وإنما في هذا الطور من نمو الحياة الجنسية نلتقي بالقطبية الجنسية ونعاين وجود موضوع إيروسي غيري. أما ما نفتقده بالمقابل فهو التنظيم والتبعية للوظيفة

٣١ ـ [بصدد بقايا هذا الطور لدى المعصوبين الراشدين، انظر مقال أبراهام (**مباحث حول المرحلة القبتناسلية الأولى لتطور الليبيدو**)، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ٤، ١٩١٦). وفي مؤلف لاحق (**مبحث في تاريخ تطور الليبيدو**، ١٩٢٤) يقسم أبراهام هذه المرحلة الفموية، وكذلك المرحلة السادية الشرجية التي تعقبها، إلى طورين يتميز كل منهما بسلوك مختلف إزاء الموضوع] (أضيف سنة ١٩٢٤).



الإنجابية[٣٢].

الازدواجية ـ قد يدوم هذا الشكل من التنظيم الجنسي مدى الحياة، ويستأثر لنفسه على نحو دائم بشطر كبير من النشاط الجنسي. وتضفي السادية الصريحة وأهمية المنطقة الشرجية، التي تؤدي دور المخرج، على هذا الشكل من التنظيم طابعاً بدائياً ضارباً في القدامة. وثمة سمة أخرى يتصف بها: فالدوافع الغريزية المتضادة تكون متطورة على نحو شبه متعادل في القوة، وهذا مسلك وُفِّق بلولر BLEULER إذ أسماه باسم **الازدواجية** AMBIVALENCE[٣٣].

إن فرضية وجود هذه التنظيمات القبتناسلية للحياة الجنسية تقوم على تحليل الأعصبة، وبدون معرفة هذه الأخيرة يكاد يتعذر الأخذ بها. ولنا أن نتوقع أن تقودنا بحوثنا التحليلية النفسية إلى معرفة أكمل فأكمل ببنية الوظائف الجنسية وتطورها.

وينبغي أن نضيف، استكمالاً لصورة الجنسية الطفلية، أنه غالباً، بل دائماً ما يقع منذ عهد الطفولة اختيار للموضوع (اختيار كنا حددناه بأنه من مميزات البلوغ) تتجه معه جميع الميول الجنسية نحو شخص واحد وتنشد عنده إشباعها. وعلى هذا النحو يتحقق في سنوات الطفولة شكل للجنسية هو أقرب الأشكال إلى الصورة النهائية للحياة الجنسية. أما الفارق بين هذه التنظيمات وبين الحالة النهائية فينحصر بأن تجمُّع الدوافع الغريزية الجزئية تحت زعامة المنطقة التناسلية وخضوعها الكامل لها لا يتحققان أبداً لدى الطفل، أو لا يتحققان إلا على نحو ناقص غاية النقص. والطور الأخير من النمو الجنسي هو وحده الذي سيوطِّد هذه الزعامة[٣٤].

اختيار الموضوع في زمنين ـ إن من سمات الاختيار الموضوعاني[٣٥] وقوعه

٣٢ ـ [يلفت أبراهام الانتباه (في ثاني المقالين المذكورين) إلى أن الشرج ينمو بدءاً من **الفم الأولي** Blastopore للجنين، وهذه واقعة بيولوجية تمثل فيما يبدو نموذجاً للتطور الجنسي النفسي] (أضيف سنة ١٩٢٤).

٣٣ ـ بالألمانية Ambivalenz. والإحالة هنا إلى مقال لبلولر نشره في **المجلة المركزية للتحليل النفسي**، العدد الأول، ١٩١١، تحت عنوان: **عرض حول الازدواجية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



في زمنين، أو على دفعتين. الدفعة الأولى تبدأ ما بين السنة الثانية والخامسة، ثم تتوقف أو قد تنكص في إبان فترة الكمون التالية لها. وهي تتميز بالطبيعة الطفلية للأهداف الجنسية. أما الدفعة الثانية فتبدأ عند البلوغ وتحدد الشكل النهائي الذي ستأخذه الحياة الجنسية.

إن وقوع الاختيار الموضوعاني على دفعتين وما يترتب عليه من وجود مرحلة كمون جنسي، أمر له خطورته الجسيمة في نشوء اضطرابات الحالة النهائية. فاختيار الطفل يستمر في إتيان مفاعيله، سواء أبقيت على شدتها الأولى، أم عرفت في أثناء البلوغ إنعاشاً وتجديداً. ولكن نتيجة الكبت، الذي يقع بين الطورين، لا تعود قابلة للاستخدام. ويطرأ على الأهداف الجنسية، المتكونة على هذا النحو، قدر من الوهن، فتتبدى في تلك الفترة على أنها مجرد تيار من **الحنّو** في الحياة الجنسية. والتحليل النفسي هو وحده الذي يستطيع أن يكشف أنه، وراء هذا الحنوّ، وهذا الإجلال وهذا التوقير، تختبئ الميول الجنسية القديمة المتولدة عن الدوافع الغريزية الجزئية التي أمست الآن معطلة. ولا يتسنى للمراهق أن يقوم باختيار موضوع شهواني جديد إلا بعد أن يشطب على مواضيع طفولته. وإن لم يقيَّض للتيارين أن يتلاقيا، تعذَّر أن يتحقق أحد المثل العليا للحياة الجنسية، وأعني به تركز جميع أنواع الرغبة على موضوع واحد]. (فصل أضيف سنة ١٩١٥).

٧ ــ مصادر الجنسية الطفلية

---

٣٤ ـ [في عام ١٩٢٣ عدّلت بنفسي تصوري فأدخلت على نمو الطفل طوراً ثالثاً يقع بعد التنظيمين القبتناسليين. وفي هذا الطور، الجدير من ذلك الحين بأن يسمى تناسلياً، نجد موضوعاً جنسياً، وقدراً من التلاقي بين الميول الجنسية حول هذا الموضوع، لكن ثمة فارقاً أساسياً بينه وبين التنظيم النهائي في زمن النضج الجنسي: فهذا الطور لا يعرف سوى ضرب واحد من الأعضاء التناسلية، هو العضو المذكر. ولهذا السبب أسميته طور **التنظيم القضيبي** (انظر: **التنظيم التناسلي الطفلي**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، المجلد ٩، ١٩٢٢). ويرى أبراهام أن نموذجه البيولوجي الأول يتمثل بالطابع اللامتمايز والمتماثل للبنية التناسلية لدى الجنين من كلا الجنسين] (أضيف سنة ١٩٢٤).

٣٥ ـ الموضوعاني لا يعني هنا نقيض ما هو ذاتي، أي Objectif، بل هو الصفة المنسوبة إلى الموضوع، وبالتحديد موضوع الحب أو الموضوع المنشود من قبل الدافع الغريزي، أي Objectal. «م».



أفادتنا بحوثنا حول الأصول البعيدة للجنسية أن التهيُّج الجنسي يتولد: أ ـ بوصفه صورة مستعادة لإشباع للدافع غريزي مرتبط بسيروورات عضوية غير جنسية. ب ـ من جراء تنبيه طرفي للمناطق الشهوية. ج ـ بفعل بعض الدوافع الغريزية التي لا نعرف أصولها بعد تمام المعرفة، نظير الدافع الغريزي إلى النظر والدافع الغريزي إلى القسوة. والنتائج التي نستخلصها بصدد الطفولة من تحليل الراشدين، والمشاهدات المباشرة التي نجريها على الأطفال، تهدينا إلى مصادر دائمة أخرى للإثارة الجنسية. ومما يعيب المشاهدة المباشرة أنها تفسح مجالاً بسهولة لضروب شتى من سوء الفهم. أما ما يجعل مهمة المحلل النفسي من جهة مقابلة عسيرة فهو أنه لا يصل إلى موضوع دراسته وإلى نتائجه إلا بعد طول لفّ ودوران. على أن الجمع بين المنهجين قمين بإيصالنا إلى درجة كافية من اليقين في المعرفة.

في سياق فحصنا للمناطق الشهوية وجدنا أن تلك المواضع من البشرة تتمتع بدرجة عالية من القابلية للإثارة مردّها إلى سطح الجلد بتمامه إلى حدّ ما. فلن نعجب إذاً إذا علمنا أنه يتحتم أن نعزو إلى بعض تنبيهات البشرة مفعولاً شهوياً لا مماراة فيه. ونخصّ بالذكر منها التنبيهات الحرارية التي لها أهمية بالغة، وربما ساعدنا ذلك على فهم المفاعيل العلاجية للحمام الساخن.

الإثارات الآلية ـ في هذا السياق نفسه تحتل مكانها الاهتزازات والحركات الإيقاعية ذات الأصل الآلي، التي تفعل فعلها وتثير أحاسيس مختلفة عن طريق الجهاز الحواسي للعصب الدهليزي[٣٦]، أو عن طريق البشرة، أو عن طريق الأعضاء العميقة (العضلات، المفاصل). وقبل أن نحلل الأحاسيس اللذّية المتولدة عن التنبيهات الآلية، ينبغي أن نشير إلى أننا سنستخدم في جميع الفقرات التي ستلي تعابير «التهيُّج الجنسي» و«الإشباع الجنسي» بغير ما تمييز، علماً بأننا ملزمون بأن نحدد معناها فيما بعد. وإني لأرى أن الدليل على ما يتولد من لذة عن بعض الاهتزازات الآلية يقدِّمه ولع الأطفال ببعض الألعاب، وإلحاحهم على تكرارها متى ما خبروها لمرة واحدة[٣٧]. فالهدهدة وسيلة دارجة لإنامة الأطفال. كما أن الاهتزازات الإيقاعية أثناء نزهة في العربة أو رحلة في القطار لها وقع أخاذ في

---

٣٦ ـ نسبة إلى دهليز الأذن. «م».



نفوس الأطفال الأكبر سناً، حتى إن الصبيان منهم على الأقل يحلمون جميعاً بأن يكونوا من سائقي القطارات أو حوذيي العربات. وهم يولون كل ما له صلة بالسكك الحديدية اهتماماً مسرفاً وملغزاً؛ ومتى وصلوا إلى سن نشاط المخيِّلة، أي قبيل البلوغ بقليل، اتخذوا منها نواة لترميز جنسي واضح. ومن الجلي أن ما يخلق رابطاً قهرياً بين الأحاسيس المتولدة عن حركة القطار وبين الجنسية هو الطابع اللاذّ المرتبط بالأحاسيس الحركية. فإذا ما تدخَّل بعد ذلك الكبت وقلَب إيثارات الطفل إلى ضدها، فلا يندر أن تأتي استجابة المراهق أو الراشد للهزهزة والهدهدة في صورة إحساس بالغثيان، أو قد ينهكهما السفر بالسكة الحديدية إنهاكاً شديداً، أو تنتابهما نوبات قلق وحصر، وقد ينشأ عن ذلك **حصَر السكة الحديدية** الذي لن يعدو في هذه الحال أن يكون وسيلة دفاعية يذود بها الفرد عن نفسه تكرار خبرة مؤلمة.

ضمن هذا السياق من الأفكار ينبغي أن نبحث عن تفسير لواقع أن التأثير المتضافر للذعر وللارتجاج الميكانيكي يولِّد نوبة خطيرة من الهستيريا الرَضِّية. وبوسعنا على الأقل الافتراض أن المؤثرات عينها التي تكون مصادر للإثارة إن كانت على درجة دنيا من الشدة قد تتسبب، إذا شطَّت وأسرفت، في حدوث اضطرابات عميقة في الآلية أو الكيماوية الجنسية.

النشاط العضلي ـ من الحقائق المعروفة أن الطفل يشعر بحاجة إلى ممارسة حرة للنشاط العضلي، وأنه يستمدّ من مثل هذه الممارسة لذة لا تعدلها لذة. أما معرفة ما إذا كانت هذه اللذة ذات صلة بالجنسية، وما إذا كانت تنطوي بذاتها على إشباع جنسي، أو ما إذا كانت توفِّر مناسبة لإثارات من هذا النوع، فمسألة أخرى قابلة لأن تخضع لفحص نقدي، بله لإعادة نظر تطول الفرض الذي تقدمنا به أعلاه والقائل إن اللذة المتولدة عن حركات سلبية هي من طبيعة جنسية أو قمينة على الأقل باستثارة أحاسيس جنسية. ولكن الواقع أن العديدين من الأشخاص يقرّون بأن أول مرة أحسّوا فيها بتهيُّج في أعضائهم التناسلية كانت

٣٧ ـ يتذكر بعض الأشخاص أنه ساورتهم أثناء تأرجحهم لذة جنسية، وذلك كلما لامس الهواء أعضاءهم التناسلية.



أثناء تعاركهم وتصارعهم مع رفاقهم في اللعب. ففي أشباه هذه المصارعات يقترن توتر جميع عضلات الجسم بالمفعول المهيِّج للاحتكاك بجلد الخصم. وحين يسعى أحدهم إلى التصارع الجسمي مع شخص بعينه، أو حين يميل في طور لاحق من العمر إلى التخاصم وإياه لفظياً («المرء يشاكس من يحبّ»)[٣٨]، فمن المباح لنا التكهن بأن اختياره الموضوعاني قد يقع على هذا الشخص. وأحد جذور الدافع الغريزي السادي يمكن أن يكون مرده إلى واقع أن النشاط العضلي ييسِّر التهيُّج الجنسي. والربط في أثناء الطفولة بين حب المصارعة والتهيُّج الجنسي سيسهم لدى عدد كبير من الأفراد في تحديد الاتجاه المفضل لاحقاً لدافعهم الغريزي الجنسي[٣٩].

السيرورات الانفعالية ـ إن المصادر الأخرى للإثارة الجنسية لدى الطفل أقل عرضة للشكّ. فمن السهل أن نتحقق، عن طريق المشاهدة أو عن طريق التحليل الارتجاعي، من أن جميع السيرورات الانفعالية التي بلغت درجة معيَّنة من الشدة، بما فيها الشعور بالهلع، ينعكس أثرها على الجنسية، وهذا ما سيساعدنا أصلاً على فهم العواقب الإمراضية لهذا النوع من الانفعالات. ومن الممكن أن يؤدي الخوف من الفحص أو التيقُّظ الذي يقتضيه فرضٌ صعب إلى تفتح التظاهرات الجنسية لدى تلامذة المدارس؛ وقد يدفع التهيُّج بالطفل في هذه الحال إلى لمس أعضائه التناسلية، بل قد يتسبب في نوع من الاحتلام بكل ما يستتبعه من عواقب مبلبلة. وسلوك الأطفال في المدرسة، الذي غالباً ما يقف المربون حيارى في تفسيره، ينبغي أن يُفهم بدالّة جنسيتهم التي هي قيد تفتُّح. والتهيُّج الذي يعقب بعض الانفعالات الشاقة على النفس (التخوف من شيء ما، الارتجاف هلعاً، الوقوع فريسة الذعر) يستمرّ لدى عدد غفير من الراشدين. وهذا ما يفسِّر لنا أن كثيرين من الأفراد يتحرّون عن مناسبات تنجم عنها أحاسيس من هذا النوع بشرط أن

٣٨ ـ قول سائر ألماني. «م».

٣٩ ـ [إن تحليل بعض حالات اضطرابات المشي ورهاب الخلاء يشير إلى الطبيعة الجنسية للذة الحركة. ومعلوم أن التربية الحديثة تستخدم الرياضة على نطاق واسع لتصرف الشبيبة عن النشاط الجنسي؛ والأصح أن نقول إنها تستبدل المتعة الجنسية النوعية بالمتعة المتأتية عن الحركة، وإنها تحكم على النشاط الجنسي بالنكوص إلى أحد مقوّماته الإيروسية الذاتية] (أضيف سنة ١٩١٠).



تصحبها ظروف ثانوية (انتماء إلى عالم متخيَّل، مطالعات، مسرح) من شأنها أن تخفِّف من الطابع الشاقّ للإحساس بالكدر والتنغيص.

ولو كان لنا أن نفترض أن الأحاسيس الشديدة الإيلام تؤتي هي الأخرى مفاعيل شهوية، وعلى الأخص إن لطَّفت من حدِّتها الظروفُ المصاحبة، لجاز لنا أن نرى في هذه الواقعة النفسية مصدراً رئيسياً من مصادر المازوخية الغريزية، ولتوضّحت بالتالي بعض الشيء طبيعتها المعقدة والمتعددة المظاهر(٤٠).

العمل الذهني ـ من الواضح أخيراً أن تركيز الانتباه على عمل ذهني وتوتر الفكر بوجه عام يترافقان لدى عدد غفير من الأحداث والراشدين بتهيُّج جنسي مصاحب، وهذا ما يمكن أن يُعدّ الأساس الوحيد للنظرية المشكوك فيها التي ترجِع الاضطرابات العصبية إلى «الإرهاق الفكري».

إن لخَّصنا الآن ما تفيدنا به مختلف البراهين والقرائن، التي لم يتسنَّ لنا أن نعرضها كاملة، عن مصادر التهيُّج الجنسي الطفلي، أمكن لنا استخلاص السمات التالية أو على الأقل استشفاف خطوطها العريضة: إن أسباباً عديدة تسهم في تحريك سيرورة الإثارة الجنسية، وإن تكن ماهيتها قد ازدادت إلغازاً وإبهاماً بالنسبة إلينا. وتضطلع بذلك في المقام الأول التنبيهات المباشرة للأسطح الحساسة (الأغشية وأعضاء الحواس)، وبصورة فورية ومباشرة الإثارات التي تتعرض لها بعض المناطق التي يقال لها المناطق الشهوية. ونوعية التنبيه هي المهمة هنا، وإن يكن عامل الشدة (فيما يتصل بالألم) ليس مما يهمل كل الإهمال. ولنضف إلى ذلك أن البدن ينطوي على استعدادات تجعل التهيُّج الجنسي يحدث كمفعول إضافي في عدد كبير من السيرورات الداخلية، حالما تتجاوز شدة هذه السيرورات عتبة كمٍّ معلوم. وما سمَّيناه بالدوافع الغريزية الجنسية الجزئية إما أن يُشتقّ مباشرة من هذه المصادر الداخلية للتهيج الجنسي، وإما أن يكون مركَّباً من عناصر من هذا النوع مما تسهم به المصادر والمناطق الشهوية. ولعل ما من حدث مهمّ يحدث في البدن إلا ويكون له قسط في إثارة الدافع الغريزي الجنسي.

٤٠ ـ [الإشارة هنا إلى ما يسمَّى بالمازوخية الشهوية] (أضيف سنة ١٩٢٤).



لا يبدو لي ممكناً في الوقت الراهن عرض هذه الأطروحة بمزيد من الوضوح والدقة. وذلك للأسباب التالية: أولاً لأن وجهة النظر المعروضة هنا هي في جملتها جديدة كل الجدة، وثانياً لأن ماهية التهيُّج الجنسي لا تزال غير معروفة لنا على الإطلاق. غير أني سأبدي هنا ملاحظتين تفتحان على ما يتراءى لي رحيب الآفاق:

تنوّع الجبلات الجنسية ـ أ ـ رأينا من قبل إمكانية ردّ تنوعات الجِبِلّات الجنسية الفطرية إلى اختلافات في نموّ المناطق الشهوية. وبوسعنا الآن القيام بشيء مماثل بأن نأخذ في اعتبارنا المصادر اللامباشرة للتهيُّج الجنسي. فمن المباح لنا أن نفترض أن هذه المصادر تغذّي لدى جميع الأفراد تيارات، وأن هذه التيارات ليست متعادلة القوة لديهم جميعاً، وأن التفاوت في تكوين المنابع الفردية للتهيُّج الجنسي يمدّنا بعون إضافي للتمييز بين الجِبِلَّات الجنسية المختلفة(٤١).

طرق التأثير المتبادل ـ ب ـ لنترك الآن الصورة المجازية التي أخذنا بها طويلاً في معرض كلامنا عن «منابع» التهيُّج الجنسي، ولنلجأ إلى صورة أخرى بافتراضنا أن كل طرق الارتباط التي تقود من وظيفة غير جنسية إلى وظيفة جنسية يمكن سلوكها في الاتجاه المعاكس أيضاً. فإن يكن جمع المنطقة الشفوية، مثلاً، بين كلتا الوظيفتين هو ما يفسّر حصول قدر من الإشباع الجنسي عند تناول الطعام، فإن ذلك يساعدنا أيضاً على أن نفهم لماذا تظهر اضطرابات فقدان الشهية حينما تختل الوظائف الشهوية للمنطقة المشتركة. ومتى ما علمنا أن تركيز الانتباه يمكن أن يولد إثارة جنسية، فبوسعنا الافتراض أن حالة التهيُّج الجنسية، بسلوكها الطريق نفسه ولكن بالاتجاه المعاكس، تتحكّم إلى حدّ ما بمقدار الانتباه الممكن توجيهه في الوجهة نفسها. وإن شطراً كبيراً من أعراض الأعصبة التي أرجعتُها إلى اضطرابات في السيرورات الجنسية يتبدى من خلال اضطرابات تطرأ على

---

٤١ ـ [النتيجة التي يتعيَّن لا محالة استخلاصها من العرض الآنف هي أن كل فرد لا بدّ أن تكون عنده إيروسية فموية وإيروسية شرجية وإيروسية إحليلية، إلخ، وأن ملاحظة وجود عقد نفسية مناظرة لهذه الأشكال من الإيروسية لا تعني وجوب الحكم بالانحراف أو العصاب. فالاختلافات التي تفصل السويّ عن اللاسويّ لا يمكن إلا أن تكون محصورة بالشدّة النسبية لمختلف مقوّمات الدافع الغريزي الجنسي وبالدور الذي يعود إلى هذه الاختلافات في نمو الأسوياء واللاأسوياء] (أضيف سنة ١٩٢٠).



الوظائف البدنية الأخرى غير الجنسية بدون أن تتَّسم بأي طابع جنسي. وهذا التأثير، الذي بقي إلى يومنا هذا غير مفهوم، يتجرد بعض الشيء من طابعه الملغز حينما نرى فيه النظير المقابل للمؤثرات الناظمة لعملية توليد التهيُّج الجنسي.

لكن الطرق عينها التي تسلكها الاضطرابات الجنسية لتتعدى على الوظائف البدنية الأخرى يتعيَّن أن تؤدي لدى الفرد، في حال الصحة، نشاطاً مهماً آخر. فهذه الطرق هي التي يفترض بها أن يسلكها تجنيد القوى الغريزية الجنسية لبلوغ أهداف غير جنسية، أي إسماء الجنسية. لكن لا معدى لنا عن الإقرار، ختاماً، بأننا لا نعرف بعد معرفة يقينية إلا النزر اليسير عن هذه الطرق المؤكد وجودها مع ذلك والممكن سلوكها، في أرجح الظن، في كلا الاتجاهين.



المبحث الثالث

تحولات البلوغ

مع بداية البلوغ تظهر تحولات تقود الحياة الجنسية الطفلية إلى صورتها السويّة النهائية. فقد كان الدافع الغريزي الجنسي حتى الآن إيروسياً ذاتياً في جوهره، أما من الآن فصاعداً فسيكتشف الموضوع الجنسي. وقد كان يصدر من قبل عن دوافع غريزية جزئية وعن مناطق شهوية تبحث، مستقلة عن بعضها بعضاً، عن قدر من اللذة باعتباره الهدف الجنسي الوحيد. أما الآن فيظهر هدف جنسي جديد، تتضافر على تحقيقه جميع الدوافع الغريزية الجزئية، بينما تخضع المناطق الشهوية لزعامة المنطقة التناسلية[1]. وبما أن الهدف الجنسي الجديد يعيِّن لكلا الجنسين وظائف مختلفة غاية الاختلاف، فإن التطور الجنسي لكل منهما يسير في مسالك متباينة أشدّ التباين. فتطور الرجل أدنى إلى المنطق وهو بالنسبة إلينا أسهل تأويلاً، بينما يحدث لدى المرأة ضرب من الانكماش. ولا يتأمن الطابع السويّ للحياة الجنسية إلا بالتقاء تيارين: تيار الحنو والمحبة وتيار الشهوانية في توجههما نحو الموضوع الجنسي والهدف الجنسي. [وأول هذين التيارين يحتوي في ذاته ما تبقى من التفتح الطفلي الأول للجنسية] (أضيف سنة ١٩٢٠).

ويكون الأمر أشبه بحفر نفق من جانبين.

يتمثل الهدف الجنسي الجديد لدى الرجل في قذف المنتجات الجنسية. والهدف الجديد ليس غريباً البتة عن الهدف القديم الذي كان ينشد اللذة، بل

---

١ ـ [إن العرض الإجمالي الذي نقدّمه هنا يرمي في المقام الأول إلى إبراز الفروق. وقد كنا أوضحنا آنفاً مدى اقتراب الجنسية الطفلية من التنظيم الجنسي النهائي بحكم الاختيار الموضوعاني وتطور المرحلة القضيبية] (أضيف سنة ١٩١٥).



على العكس يشبهه من حيث أن الحدّ الأقصى من اللذة يرتبط بالأحرى بالفعل النهائي للعملية الجنسية. فالدافع الغريزي الجنسي يضع نفسه الآن في خدمة الوظيفة التناسلية فيغدو إن صحّ التعبير غيرياً. وحتى نفهم إمكانية نجاح هذا التحول، فلا بدّ أن نأخذ في حسباننا الاستعدادات الأصلية وجميع خصائص الدوافع الغريزية.

وكما في كل مرة يتعيَّن أن تتخلق فيها في البدن ارتباطات جديدة و تراكيب جديدة تتمخض عن آليات معقدة، فإن تعطيل هذه السيرورة يتيح الظرف لنشوء اضطرابات مَرَضية. والحال أن جميع الاضطرابات المرَضية التي تطرأ على الحياة الجنسية يمكن أن تُعدّ، بحق، ضروباً من الكفّ في مسار النمو.

١ ــ زعامة المناطق التناسلية واللذة التمهيدية

إن بداية المسار الذي وصفناه وهدفه النهائي يتبديان لنا بوضوح. أما الأطوار الوسطى فما زالت غامضة علينا في أكثرها. ولا مناص لنا من أن ندعها على إلغازها من أكثر من ناحية.

لقد وقع الاختيار، لتحديد سمات سيرورة البلوغ، على أبرز القرائن وألفتها للنظر، أعني تطور الجهاز التناسلي الخارجي الذي كان تطابق توقفه النسبي عن النمو مع مرحلة الكمون الجنسي الطفلي. وفي الوقت نفسه تكون الأعضاء التناسلية الداخلية قد تطورت بما فيه الكفاية لتفرز منتجات تناسلية أو بالمقابل لتستقبلها بهدف تشكيل كائن حيّ جديد. هكذا يكون جهاز بالغ التعقيد قد تكوّن وأمسى صالحاً للاستعمال. ومن الممكن تشغيل هذا الجهاز عن طريق تنبيهات، والمشاهدة تدلنا على كيفيات ثلاث مختلفة لتولُّد التنبيهات. فهي إما أن تأتي من العالم الخارجي بطريق الإثارة المألوفة للمناطق الشهوية، وإما أن تنشأ من داخل البدن بطرق ما زال يتعيَّن استكشافها، وإما أن تنطلق أخيراً من الحياة النفسية التي هي بمثابة مستودع من الانطباعات الخارجية ومحطة استقبال للتنبيهات الداخلية. وتحدد هذه الآليات الثلاث حالة نسميها بـ «التهيُّج الجنسي». وتفصح هذه الحالة عن نفسها بنوعين من العلامات: نفسية وبدنية.



ومن جملة العلامات النفسية حالة من التوتر، ذات طابع شديد الإلحاح. أما العلامات البدنية العديدة فنخصّ منها بالذكر في المقام الأول سلسلة من التغيرات التي تطرأ على الجهاز التناسلي والتي تدل دلالة لا ريب فيها على التهيؤ للفعل الجنسي (انتصاب العضو المذكر وتندّي المهبل).

التوتر الجنسي ـ إن الطابع التوتري للتهيُّج الجنسي يثير إشكالاً حلُّه صعب بقدر ما هو مهمّ لفهم السيرورات الجنسية. وإني لأصرّ على أن الشعور بالتوتر له على الدوام طابع مؤلم، مهما اختلفت الآراء في علم النفس الحديث بصدد هذا الموضوع. وإن ما يحملني على الأخذ بذلك كون هذا الشعور ينطوي على حاجة ملِّحة إلى تغيير الموقف النفسي وكون مفعوله هو على الدوام من طبيعة حرَكية، وهو أمر غريب مطلق الغربة عن ماهية اللذة المحسوس بها. لكن ما إن نصنِّف التوتر الناجم عن التهيُّج الجنسي في عداد المشاعر المكدِّرة، حتى نصطدم بواقع أن هذا التوتر يَخْبَره الفرد في صورة شعور باللذة لا ريب فيه. والواقع أن السيرورات الجنسية ترتفق جميعها، وعلى الدوام، بتوتر وبلّذة؛ وحتى التغيرات التمهيدية التي تطرأ على الجهاز التناسلي تنمّ عن نوع من الإشباع. يبقى أن نعلم، والحال هذه، كيف يمكن للتوتر، الذي له طابع مكدِّر، وللشعور باللذة أن يتوافقا؟

إن كل ما يتصل بمشكلة اللذة والكدر يمسّ واحدة من النقاط الضعيفة الأكثر حساسية في علم النفس الحديث. وسنكتفي بأن نستخلص من شروط الحالة التي نحن بصددها أكبر قدر من المعلومات التي يمكن أن تزوِّدنا بها، من دون أن نسعى في الوقت نفسه إلى التصدي للمشكلة في جملتها[٢]. ولنبدأ بإلقاء نظرة على الطريقة التي تتكيَّف بها المناطق الشهوية مع النظام الجديد، إذ إن دوراً هاماً يعود إليها في استحداث التهيُّج الجنسي. وربما تكون العين هي أبعد المناطق الشهوية عن الموضوع الجنسي، ومع ذلك إنها هي التي تؤدي دوراً فائق الأهمية في الشروط التي سيتمّ فيها الانئخاذ بهذا الموضوع، إذ هي العضو الذي ينقل ذلك النوع من الإثارة الذي يمدّنا به الحسُّ بجمال الموضوع. ولهذا أصلاً نصف

٢ ـ [انظر محاولتي لحلّ هذه المشكلة في الملاحظات التي مهّدتُ بها لمقالي عن **المشكلة الاقتصادية للمازوخية**] (أضيف سنة ١٩٢٤).



خواص الموضوع الجنسي بأنها «فاتنة». وهذه الفتنة تسبِّب من جهة أولى لذة، وتؤدي، من الجهة الثانية، إلى زيادة التهيُّج الجنسي أو تستثيره إذا لم يكن قد وجد بعد. وإذا ما انضاف إلى هذا التهيُّج الأول تهيُّج ثانٍ، صادر عن منطقة شهوية مختلفة، كالملامسة باليد مثلاً، بقي المفعول واحداً: شعور باللذة سرعان ما تعززه لذة جديدة، ناشئة عن التغيرات التمهيدية، وزيادة في التوتر الجنسي سرعان ما تتلبس طابعاً واضحاً للغاية من الكدر إذا حيل بينها وبين الوصول إلى اللذة اللاحقة. ولربما بدت الحالة أوضح بعد حين تستثار بالملامسة، لدى شخص غير منفعل جنسياً، منطقة شهوية خاصة (بشرة الثدي مثلاً). فهذه الملامسة تكفي لاستثارة شعور باللذة، كما أنها أقدر من أي شيء آخر على توليد التهيُّج الجنسي الذي يستدعي بدوره مزيداً من اللذة. أما كيف تستثير اللذة المستشعرة لذة أعظم، فتلك هي المشكلة.

آلية اللذة التمهيدية ـ إن الدور الذي يعود إلى المناطق الشهوية واضح في الحالة التي ذكرنا. وما يصدق على إحدى المناطق يصدق على الباقيات. فهي جميعاً تفيد، إثر إثارة ملائمة، في خلق مقدار من اللذة يكون بمثابة منطلق لزيادة التوتر، وهذا التوتر مسؤول بدوره عن تقديم الطاقة المحرِّكة اللازمة لإتمام الفعل الجنسي. والمرحلة ما قبل الأخيرة في هذا الفعل تتمثل بإثارة ملائمة لمنطقة شهوية، وهي المنطقة التناسلية ذاتها المتمركزة في **حشفة القضيب**، عن طريق أنسب موضوع لهذا الغرض، وهو الغشاء المخاطي للمهبل. واللذة التي تتأتى عن هذه الإثارة تولِّد، بطريق الفعل المنعكس هذه المرة، الطاقة المحرِّكة التي تتحكم بقذف المنتجات الجنسية. وهذه اللذة الأخيرة، التي تصل إلى الذروة بشدَّتها، تختلف بآليتها عن ضروب اللذة السابقة لها. فهي تنتج برمتها عن تفريغ، أي هي لذة ترتكز إلى الإشباع، ومعها يختفي لأجل من الزمن توتر اللبيبدو.

يبدو لي أنه من المسوَّغ تثبيت هذا الفرق بين اللذة الناشئة عن إثارة المناطق الشهوية وبين اللذة المتأتية عن إفراغ المنتجات الجنسية باستخدام مصطلحات مختلفة في تسميتهما. فأولى هاتين اللذتين يمكن أن تُسمَّى **باللذة التمهيدية**، بالتعارض مع **اللذة النهائية** أو لذة إشباع النشاط الجنسي. واللذة التمهيدية هي



عينها تلك التي يمكن أن يفضي إليها الدافع الغريزي الجنسي الطفلي، وإن على نحو بالغ البدائية. أما الشيء الجديد في ظهوره فهو اللذة النهائية التي ترتبط بالتالي، في أرجح التقدير، بشروط معيَّنة لا تتوفر إلا مع البلوغ. ومن الممكن تلخيص صيغة الوظيفة الجديدة للمناطق الشهوية على النحو التالي: فهذه المناطق تفيد، عن طريق اللذة التمهيدية المستمدة منها كما في أثناء الطفولة، في إنتاج اللذة الإشباعية العليا.

وقد فسَّرتُ مؤخراً، بالاستناد إلى مثال آخر استقيته من مضمار مغاير تماماً من مضامير الحياة النفسية، حالة مماثلة أمكن فيها الوصول إلى مقدار أكبر من اللذة عن طريق إحساس أقلّ باللذة يؤدي، بنوع ما، دور العلاوة التشجيعية. وقد استعنت بهذا المثال لأحلل بمزيد من التمعن ماهية اللذة[٣].

أخطار اللذة التمهيدية ـ إن العلاقة التي قلنا بوجودها بين اللذة التمهيدية وحياة الطفل الجنسية يؤيدها الدور الإمراضي الذي قد تؤديه هذه اللذة. فمن الجليّ أن الآلية التي تنتظم فيها اللذة التمهيدية تنطوي على خطر محدد؛ وهذا الخطر، الذي يتهدد الإتمام السويّ للفعل الجنسي، قد يظهر حالما تصبح اللذة التمهيدية، في مرحلة من مراحل العملية الجنسية التحضيرية، أكبر مما ينبغي، وفي هذه الحالة تخور قوى الدافع الغريزي، فلا يعود في المستطاع مواصلة العملية الجنسية، ويقصر الشوط المطلوب قطعه، ويحلّ العمل التحضيري محل الهدف الجنسي السويّ. وبحسب ما تدلنا الخبرة، فإن الشرط الذي يتولد عنه هذا الضرر هو أن تكون المنطقة الشهوية المعنية، وبالتالي الدافع الغريزي الجزئي المناظر لها، قد أسهمت في إبان الحياة الطفلية بقسط مجاوز الحدّ في إنتاج اللذة. فإن تدخلت فيما بعد ظروف تنزع إلى استحداث تثبيت، ظهر في طور لاحق من الحياة دافع قهري يعترض سبيل اندماج اللذة التمهيدية في سياق جديد. وبالفعل، إنما على هذا النحو تتكون آلية انحرافات عديدة تمثّل ركوداً وتوقفاً عند الأفعال التمهيدية للسيرورة الجنسية.

---

٣ ـ انظر البحث الذي نشرته سنة ١٩٠٥ وجعلت عنوانه: **النكتة وصلاتها باللاشعور**. فـ «اللذة التمهيدية»، التي يتمّ الحصول عليها بتقنية النكتة، تُستخدم في إطلاق العنان للذة أعظم عن طريق رفع بعض ضروب الكفّ الداخلي.



ومن الممكن تفادي هذا الإجهاض للآلية الجنسية من جراء اللذة التمهيدية بسهولة أكبر فيما إذا كانت زعامة المنطقة التناسلية قد تحددت معالمها في أثناء الطفولة. ويبدو أن جميع الاستعدادات تُتخذ لهذا الغرض في مجرى الطفولة الثانية (من السنة الثامنة إلى البلوغ). ففي إبان هذه السنوات تسلك المناطق التناسلية شبيه سلوكها في زمن النضج، فتصير محلاً لتنبيهات ولتغيُّرات تحضيرية كلما حدث إحساس باللذة ناشئ عن إشباع منطقة شهوية ما، رغم عدم ارتباط ذلك بأي غائية بعد، أي رغم عدم مساهمته على الإطلاق في مواصلة السيرورة الجنسية. على هذا النحو يتكون في أثناء الطفولة، وإلى جانب لذة الإشباع، قدر من التوتر الجنسي، وإن يكن أقل ثباتاً وأوهن شدة. وبوسعنا الآن أن نفهم لماذا كنا محقين عندما قلنا، في معرض نقاشنا منابع الجنسية، إن السيرورة التي نحن بصددها تفعل فعلها باتجاه الإشباع الجنسي كما باتجاه الإثارة الجنسية على حدّ سواء. وهذا يبيِّن لنا أننا بالغنا في بادئ الأمر بالفارق بين الحياة الجنسية الطفلية والحياة الجنسية الراشدة، وهانحنذا نستدرك ونأتي بالتصويب الضروري. فالتظاهرات الجنسية الطفلية لا تحدد الانحرافات فحسب، بل كذلك التشكيلات السويّة للحياة الجنسية عند الراشدين.

٢ ـ مشكلة التهيُّج الجنسي

لم نفسر إلى الآن من أين يأتي التوتر الجنسي الذي يصاحب اللذة عند إشباع المناطق الشهوية، وماذا يمكن أن تكون ماهيته التي ما زلنا نجهلها جهلاً مطبقاً[٤]. وأول فرض يمْثُل للذهن أن هذا التوتر ناجم على نحو ما عن اللذة عينها. على أن هذا الفرض ليس بعيد الاحتمال جداً فحسب، بل سرعان ما يثبت تهافته أيضاً لأنه، عند بلوغ اللذة العظمى المرتبطة بإفراغ المنتجات الجنسية، لا يظهر أي توتر على الإطلاق، بل على العكس: فكل أثر للتوتر يزول. وهذا ما يسلمنا إلى الافتراض بأن اللذة والتوتر الجنسي لا يرتبطان فيما بينهما إلا بصورة غير مباشرة.

---

٤ ـ لا يخلو الأمر من فائدة أن نلاحظ أن لفظ «Lust» (اللذة بالألمانية) ينمّ عن الدور المزدوج الذي تؤديه الإثارات الجنسية إذ تنطوي، من جهة أولى، على إشباع جزئي، وتسهم في الجهة الثانية، في توليد التوتر الجنسي. فلفظة LUST ذات معنين. فهي تدلّ على التوتر الجنسي وعلى الإحساس بالإشباع.



دور المنتجات الجنسية ـ علاوة على أن إفراغ المنتجات الجنسية هو وحده الذي يضع في العادة حدّاً للتهيُّج الجنسي، فثمة قرائن أخرى تبيح لنا أن نقيم صلة بين التوتر الجنسي والمنتجات الجنسية. ففي حالة من يحيا حياةَ عفَّةٍ، يفرّج الجهاز التناسلي عن نفسه على فترات متفاوتة لا تخلو من انتظام؛ ففي الليل يحدث تفريغ مصحوب بإحساس من اللذة في أثناء هلوسة الحلم إذا ما كانت تمثِّل فعلاً جنسياً؛ وإننا لنميل في تفسير هذه السيرورة ـ الاحتلام الليلي ـ إلى الاعتقاد بأن التوتر الجنسي، الذي يفلح في سلوك طريق الهلوسة المختصر بديلاً عن الفعل، يحدث نتيجة تراكم المني في الحويصلات المخصَّصة للمنتجات الجنسية. والتجارب التي يمكن أن تجرى على قابلية الآلية الجنسية للاهتلاك تمدّنا بمؤشرات تعضد الاعتقاد نفسه. فحين تُستنفد المدخرات المنوية لا يغدو إنجاز الفعل الجنسي مستحيلاً فحسب، بل تنعدم أيضاً قابلية المناطق الشهوية للإثارة. وحتى لو أثيرت هذه المناطق بوسائل ملائمة، لامتنعت عن إنتاج أيّ لذة. وهكذا يتأكد لنا بهذه المناسبة أن درجة محددة من التوتر الجنسي ضرورية كيما تدخل المناطق الشهوية في طور التهيُّج.

قد ينساق المرء هنا إلى الأخذ بافتراض يلقى ـ إن لم أكن مخطئاً ـ قبولاً عاماً، ومؤداه أن تراكم المنتجات الجنسية هو الذي يخلق التوتر ويرعاه. وربما تكون الظاهرة ناشئة، والحالة هذه، عن ضغط هذه المنتجات على جدران الحويصلات، هذا الضغط الذي يفعل فعله كمنبِّه لمركز نخاعي، وتنبيهه هذا يُدرك بدوره من قبل مراكز نخاعية أعلى، فيظهر الإحساس بالتوتر بالتالي في المجال الشعوري. وأما أن تهيُّج المناطق الشهوية يؤدي إلى زيادة التوتر الجنسي فهذه واقعة لا سبيل إلى تفسيرها في هذه الحال ما لم نسلِّم بأن هذه المناطق الشهوية ترتبط بالمراكز بروابط تشريحية سابقة التكوُّن، وبأنها تزيد في هذه المراكز من قوة التنبيه، وبأن التوتر أخيراً يستثير الفعل الجنسي إذا بلغ درجة كافية، وإذا لم يبلغها حضَّ على إنتاج المواد الجنسية.

إن نقطة ضعف هذه النظرية، التي أخذ بها كرافت ـ إيبنغ مثلاً في وصفه للسيرورات الجنسية، تكمن في ما يلي: فلأنها لا تأخذ بعين الاعتبار سوى



النشاط الجنسي لدى الراشد حصراً، تهمل إلى حدّ كبير ثلاث أحوال من الوظائف كان يفترض بها أن تفسِّرها: لدى الطفل ولدى المرأة ولدى المخصي الذكر. ففي هذه الحالات الثلاث لا مجال للكلام عن تراكم للمنتجات الجنسية بالمعنى الذي يتمّ به لدى الرجل الذكر، مما يجعل من العسير تطبيق النظرية بحرفها وبتمامها. ولكن لنعترف مع ذلك بأن ثمة بعض شهادات تفسح مجالاً لإدراج هذه الحالات ضمن نطاق النظرية المذكورة. على أنه يبقى علينا أن نحاذر من تحميل عامل تراكم المنتجات الجنسية أكثر مما يحتمل.

تقييم دور الأعضاء الجنسية الداخلية ـ إن ما يثبت أن التهيُّج الجنسي مستقلّ إلى حدّ لا يستهان به عن إنتاج المواد الجنسية التجارب التي أجريت على المخصيين الذكور الذين يحافظون أحياناً على طاقة الليبيدو شبه كاملة رغم عملية خصائهم (علماً بأن النتيجة المعاكسة، التي هي هدف العملية بالذات، يتم إدراكها بصفة عامة). [ومن المعلوم منذ أمد بعيد، فضلاً عن ذلك، أن الأمراض التي تعطِّل إنتاج الغدد الجنسية لدى الرجل لا تمسّ الليبيدو والقوة الجنسية لدى الفرد الذي صار عقيماً] (أضيف سنة ١٩٢٠). فلا عجب إذاً، خلافاً لما يبدو لريغر RIEGER[٥]، ألا يؤثر فقدان الغدد المفرزة للمني عند التقدم في السن في الموقف النفسي للفرد. صحيح أن الخصاء، إذا تمّ في سن مبكرة قبل البلوغ، أدى إلى انتفاء الصفات الجنسية إلى حدّ ما، [لكن ليس من المستبعد حتى في هذه الحال أن تكون المسألة، بالإضافة إلى فقدان الغدد الجنسية، مسألة كفٍّ ـ مرتبط بهذا الفقدان ـ لنموّ عوامل أخرى]. (عُدِّل سنة ١٩٢٠).

[**النظرية الكيميائية** ـ إن تجارب استئصال الغدد التناسلية (المبيض، الخصيتين) لدى الحيوان، وزرع أعضاء مماثلة جديدة لدى الفقاريات[٦]، قد سلَّطت أخيراً ضوءاً على أصل التهيُّج الجنسي وقلَّلت في الوقت نفسه من

---

٥ ـ كونراد ريغر: طبيب نفسي وجامعي ألماني (١٨٥٥ ـ ١٩٣٩). أنشأ عيادة طبية نفسية باسمه في جامعة فورزبرغ ما لبثت أن تحولت إلى معهد علمي شهير. اختص بفراسة الدماغ، وله في ذلك كتاب مشهور بعنوانه: **العلاقات بين فراسة الدماغ والفيزيولوجيا والسيكولوجيا والأنتروبولوجيا**. «م».

٦ ـ انظر مؤلف ليبشوتز الآنف الذكر، ص ١٣.



الأهمية التي يمكن أن تعزى إلى تراكم المنتجات الجنسية الغددية. فقد أمكن تجريبياً (إ. شتايناخ) تغيير الذكر إلى أنثى والأنثى إلى ذكر، مما استتبع تبدلاً في مسلك الحيوان الجنسي والنفسي موافقاً للسمات الجنسية البدنية ومتواقتاً مع تغيُّرها. بيد أن هذا التأثير المحدِّد للجنس لا يمكن عزوه إلى ذلك الجزء من الغدة التناسلية الذي ينتج الخلايا النوعية (الحوين المنوي والبيضة)، بل يرتدّ إلى النسيج البيني (البيخلوي) الذي يسمِّيه لهذا السبب المؤلفون الذين تقدَّم ذكرهم بـ«غدة البلوغ». ومن الممكن أن تتمخض البحوث اللاحقة عن نتيجة تحملنا على التسليم بأن «غدة البلوغ» هي في الحالة الاعتيادية خنثوية، وبذلك يتوفر أساس تشريحي للنظرية القائلة بالجنسية الثنائية لدى الحيوانات العليا. ومن المرجح من الآن أن هذه الغدة ليست العضو الوحيد الذي يؤدي دوراً في إحداث التهيُّج الجنسي. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الكشف البيولوجي الجديد يتمشى مع ما نعرفه من قبل عن دور الغدة الدرقية في الجنسية. ونحن في حِلٍّ الآن من الاعتقاد بأن الجزء البيني (البيخلوي) من الغدد التناسلية ينتج مواد كيماوية خاصة تحملها الدورة الدموية فتشحن بعض أجزاء الجهاز العصبي المركزي بالتوتر الجنسي. ونحن نعرف من قبل حالة تتحول فيها إثارة ناشئة عن مواد سُمِّية خارجية المصدر إلى إثارة عضوية من نوع معيَّن. ولا سبيل في الوقت الحاضر لأن ندرس، ولو في شكل فروض، كيف ينشأ التهيُّج الجنسي عن تنبيه للمناطق الشهوية مسبوق بتوتر في الجهاز المركزي، وما مضاعفات التنبيهات السمّية والفيزيولوجية الخالصة التي تنجم عن هذه العمليات. وحسبنا هنا أن نستخلص من مثل هذا التصور فكرة تولّد مواد معيَّنة من نوع خاص عن الأيض الجنسي] (عُدِّل سنة ١٩٢٠). ذلك أن هذه الفرضية، التي قد تبدو للوهلة الأولى تعسفية، ترتكز إلى واقعة عظيمة الأهمية وإن كانت لا تحظى بالاعتبار الكافي. فما يمكن إرجاعه من الأعصبة إلى اضطرابات الحياة الجنسية ينمّ عن شَبَهٍ سريري كبير بظاهرات التسمم والتعفف الجنسي التي يولّدها التعاطي الدارج لبعض السموم المولّدة للذة (القلويات).

٣ ـ [نظرية الليبيدو

إن الفرضية القائلة إن للتهيُّج الجنسي أساساً كيمياوياً تتفق على أكمل وجه مع التصورات التي كوّنّاها لأنفسنا لنستعين بها على فهم التظاهرات النفسية للحياة الجنسية والسيطرة عليها. وقد أخذنا بمفهوم لليبيدو يجعل منه قوة متغيِّرة كمياً تتيح لنا أن نقيس السيرورات والتغيرات في مجال التهيُّج الجنسي. ونحن نميِّز هذا الليبيدو، من حيث أصله، من الطاقة التي ينبغي أن نفترض وجودها في أساس جميع السيرورات النفسية بوجه عام، إذ نعزو إليه، فضلاً عن طابعه الكمي، طابعاً كيفياً. وحين نميِّز بين طاقة الليبيدو وبين كل طاقة نفسية أخرى، نفترض أن السيرورات الجنسية في البدن تتميَّز عن وظائف التغذية بكيماوية خاصة. وقد بيّن لنا تحليل الانحرافات والأعصبة النفسية أن هذا التهيُّج الجنسي لا ينبع فقط من الأجزاء التي تسمى بالتناسلية، بل كذلك من سائر الأعضاء. وبذلك ننتهي إلى تصور كمٍّ ليبيدوي نطلق على ممثله النفسي اسم **الليبيدو الأنوي**، وتولّد هذا الليبيدو وزيادته ونقصانه وتوزيعه ونقلاته هي التي يفترض بها أن تمدّنا بالوسائل لتفسير الظاهرات الجنسية النفسية التي تقع تحت ملاحظتنا. غير أن هذا الليبيدو الأنوي لا يقع في متناول التحليل إلا متى أُستخدم نفسياً في شحن مواضيع جنسية، فتحوّل إلى **ليبيدو موضوعاني**. عندئذ نراه يتركز على المواضيع، يتثبت عليها أو يهجرها إلى غيرها، ويتحكم من المواقع التي استولى عليها بالنشاط الجنسي للأفراد، ويقود هذا النشاط في خاتمة المطاف إلى الإشباع، أي إلى انطفاء جزئي ومؤقت لليبيدو. ويتيح لنا التحليل النفسي لما درجنا على تسميته بالأعصبة التحويلية (الهستيريا والعصاب الوسواسي) الوصول إلى حدوس يقينية بصدد هذه النقطة.

أما فيما يتصل بمصائر الليبيدو الموضوعاني، فيتبين لنا أنه إن انفصل عن مواضيعه بقي معلقاً في حالة خاصة من التوتر، ثم لا يعتم في نهاية المطاف أن يرتدّ إلى الأنا ليعود ثانية ليبيدواً أنوياً. ونحن نطلق أيضاً على الليبيدو الأنوي، بالتعارض مع الليبيدو الموضوعاني، اسم الليبيدو **النرجسي**. ويتيح لنا التحليل النفسي أن نلقي نظرة على منطقة لا يباح لنا تجاوز حدّ معيَّن في ارتيادها، هي منطقة الليبيدو النرجسي، وأن نكوِّن فكرة عن العلاقات بين نوعي الليبيدو هذين(٧). ويبدو لنا الليبيدو الأنوي، أو



النرجسي، أنه هو الخزان الكبير الذي منه تنطلق التوظيفات الموضوعانية وإليه ترتدّ ثانية؛ كما يبدو لنا التوظيف الليبيدوي النرجسي للأنا أنه هو الحالة الأصلية المتحققة في الطفولة الأولى، وهي حالة لا تلبث أن تحتجب عن النظر لاحقاً متى ما توجه الليبيدو نحو الخارج، ولكنها تبقى على ما هي عليه في الواقع.

إن نظرية في الليبيدو تدّعي تفسير الاضطرابات العصابية والذهانية يفترض فيها أن تعبِّر عن جميع الظاهرات الملحوظة وعن السيرورات التي يمكن استنباطها منها بالمفردات التي يزوِّدنا بها تحليل الاقتصاد الليبيدوي. ويسير علينا أن نفترض أن تحولات الليبيدو الأنوي ستكون بالغة الأهمية، وعلى الأخص حيثما يكون المطلوب تفسير اضطرابات عميقة من طبيعة ذهانية. [والصعوبة التي تواجهنا هنا أن أداتنا في البحث، التي هي التحليل النفسي، لا تزوِّدنا مؤقتاً بمعطيات يقينية إلا حول تحوّلات الليبيدو الموضوعاني[٨]، بينما لا تتوفر لها المقدرة بعد على تمييز الليبيدو الأنوي تمييزاً جلياً عن سائر الطاقات التي تعمل في الأنا[٩]] (أضيف سنة ١٩١٥). [لهذا لا يمكننا في الوقت الحاضر أن نتابع تطوير النظرية الليبيدوية إلا عن طريق الفَرَض النظري. غير أننا نضحي بكل ما أكسبتنا إياه المشاهدات التحليلية النفسية حتى الآن إن طمسنا مع ك. غ. يونغ[١٠] معالم مفهوم الليبيدو، فرأينا فيه محض مرادف للقوة النفسية المحرِّكة بوجه عام.

إن فصل الحاثّات Motions الغريزية الجنسية عن سواها من الحاثّات، وقصر

٧ ـ [فقد هذا التقييد ما كان له من قيمة بعدما أمكن إخضاع أعصبة أخرى، غير الأعصبة التحويلية، للتحليل النفسي] (أضيف سنة ١٩٢٤).

٨ ـ [انظر الهامش السابق] (أضيف سنة ١٩٢٤).

٩ ـ [انظر مقالي: **من أجل إدخال النرجسية**، ١٩٢٤] (أضيف سنة ١٩١٥). [وقد عزوت خطأ في هذا المقال مصطلح «النرجسية» إلى ناكه Naecke مع أن هـ. إلِّيس هو الذي ابتدعه] (أضيف سنة ١٩٢٠).

١٠ ـ كارل غوستاف يونغ: من أشهر تلاميذ فرويد ثم من أشهر معارضيه لاحقاً (١٨٧٥ ـ ١٩٦١). طبيب وعالم نفسي سويسري كتب بالألمانية. طوّر مذهب علم النفس الفردي بالمعارضة مع التحليل النفسي كما قال به فرويد. وصاغ مفهوم علم اللاشعور الجمعي انطلاقاً من مباحثه في مجال الانتروبولوجيا والميثولوجيا والأديان والأحلام والخيمياء، إضافة إلى الفلسفة والفن والأدب. وكان له تأثير كبير على تطور العلوم الإنسانية في القرن العشرين، وحتى على الفن السينمائي. من أشهر مؤلفاته: **تحليل الأحلام، جدل الأنا واللاشعور، أحلام الأطفال، علم النفس والخيمياء، طاقات النفس، الإنسان ورموزه، مشكلات النفس المعاصرة، علم نفس اللاشعور، علم النفس والدين، علم النفس والاستشراق**. «م».



مفهوم اللبيبدو على الأولى وحدها، يجدان أقوى سند لهما في الفرضية التي صغناها في ما تقدَّم حول وجود كيماوية خاصة للوظيفة الجنسية] (أضيف سنة ١٩٢٠).

٤ ــ تمايز الرجل والمرأة

معلوم أن التمايز القاطع بين سمات الذكورة وسمات الأنوثة لا يظهر إلا في طور البلوغ، وهو تضاد يؤثر فيما بعد أكثر من أيٍّ سواه تأثيراً فاصلاً في تشكيل صورة الحياة البشرية. والحق أن الاستعدادات الذكرية والأنثية تفصح عن وجودها في عهد الطفولة بالذات. وإن ضروب الكفّ الجنسي (الحياء، القرف، الشفقة) تنمو في عمر مبكر لدى البنات الصغيرات وتواجه لديهن مقاومة أدنى مما لدى الصبيان الصغار. ويبدو أن الميل إلى الكبت الجنسي يضطلع لدى البنات أيضاً بدور أكبر، وحين تتظاهر لديهن الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية تتلبس إيثاراً الشكل السلبي. غير أن النشاط الايروسي الذاتي للمناطق الشهوية واحد لدى الجنسين، وهذا يحول دون ظهور الفارق الجنسي في سني الطفولة بالوضوح الذي يظهر عليه عقب البلوغ. بيد أننا لو أخذنا بعين الاعتبار التظاهرات الإيروسية الذاتية والاستمنائية، جاز لنا أن نتقدم بأطروحة مفادها أن جنسية البنات الصغيرات ذات طابع ذكري في أساسها. بل نستطيع، فيما لو جعلنا لمفهومي الذكورة والأنوثة مضموناً أكثر تحديداً، أن نؤكد أن اللبيبدو هو على الدوام وباطراد من ماهية ذكرية، وأنه يظهر لدى الرجل ولدى المرأة على السواء، وبغضّ النظر عن كون موضوعه رجلاً أو امرأة[١١].

ومنذ اطلعتُ على نظرية الجنسية الثنائية، علَّقت أهمية كبرى على هذا

١١ ـ [لا بدّ من التنبّه إلى أن مفهومي «المذكر» و«المؤنث»، اللذين لا يحيط بهما ظلّ من شكّ في نظر عامة الناس، هما من أشدّ المفاهيم تعقيداً من وجهة النظر العلمية. فهذان اللفظان يستعملان بثلاثة معانٍ مختلفة. فـ«المذكر» و«المؤنث» يمكن أن يعنيا **«الإيجاب»** و**«السلب»**. وقد يؤخذان أيضاً بالمعنى **البيولوجي**، أو أخيراً بالمعنى **السوسيولوجي**. ويتوقف التحليل النفسي في المقام الأول عند أول هذه المعاني. وبهذا المعنى نعتنا اللبيبدو لتوّنا بأنه «ذكري». وبالفعل، إن الدافع الغريزي موجب دوماً، حتى وإن يكن هدفه سلبياً. وأوضح ما يكون معنى «المذكر» و«المؤنث» عندما يُحمل هذا اللفظان على معناهما البيولوجي. ففي هذه الحال يشير لفظا «المذكر» و«المؤنث» إلى وجود حيوانات منوية أو بييضة، مع ما يشتق منهما من وظائف مختلفة. وفي العادة يُربط العنصر «الموجب» وتظاهراته الثانوية،



العامل، وفي رأيي أنه من المتعذر تأويل التظاهرات الجنسية التي تُلحظ فعلياً لدى الرجل والمرأة إن لم تؤخذ الجنسية الثنائية بعين الاعتبار.

المناطق الشهوية الرائدة لدى الرجل ولدى المرأة ـ باستثناء ذلك ليس لي ما أضيف إلى ما تقدم سوى أن المنطقة الشهوية الرائدة تتركز لدى البنت الصغيرة في البظر، الذي هو معادل المنطقة التناسلية الذكرية المتركزة في حشفة القضيب. وكل ما تسنى لي أن أعلمه من خبرتي عن استمناء البنات الصغيرات أكّد لي أهمية البظر وأسبقيته على سائر الأجزاء التناسلية الخارجية التي لن تضطلع بدور مهمّ في الحياة الجنسية إلا فيما بعد. بل إني لأشكّ في أن يكون في المستطاع سوق البنت الصغيرة، بتأثير الإغواء، إلى شيء آخر غير الاستمناء البظري إلا في أحوال استثنائية. والتفريغات العفوية للتهيُّج الجنسي، الكثيرة التواتر لدى البنات الصغيرات تحديداً، تأخذ شكل تقلصات في البظر؛ وانتصابات هذا العضو المتكررة قمينة بتنويرهن بصدد التظاهرات الجنسية لدى الجنس الآخر ـ حتى ولو لم تتوفر لهن معلومات مسبقة ـ إذ تتيح لهن أن ينسبن إلى الصبيان أحاسيس مناظرة لما يساورهن من أحاسيس في نشاطهن الجنسي الذاتي.

إن شئنا أن نفهم التطور الذي يحيل البنت الصغيرة إلى امرأة، فلا بدّ لنا من تتبع الأطوار المختلفة التي يمرّ بها التهيُّج البظري لاحقاً. فالبلوغ، الذي يحمل معه انطلاقة الليبيدو الكبرى لدى الفتى، يتصف لدى الفتاة بموجة جديدة من الكبت تصيب الجنسية البظرية في المقام الأول. وإن ما يجري كبته عندئذ هو عنصر من

كالنمو العضلي الواضح والسلوك العدواني والليبيدو الأعظم شدة، بالعنصر «المذكر» مأخوذاً بمعناه البيولوجي، لكن ليس من المحتم أن يكون الأمر كذلك. ففي عدد من الأنواع الحيوانية نشاهد، بالفعل، أن الصفات المشار إليها تعود إلى الإناث. أما المعنى السوسيولوجي الذي نعزوه إلى لفظي «المذكر» و«المؤنث» فمبني على أساس مشاهداتنا اليومية لسلوك الأفراد من كلا الجنسين. فهذه المشاهدات تثبت لنا أن وجود صفات أحد الجنسين لدى فرد بعينه لا يتنافى ووجود صفات من الجنس الآخر، إن من وجهة النظر البيولوجية وإن من وجهة النظر السيكولوجية. وبالفعل، يتسم كل كائن إنساني، من وجهة النظر البيولوجية، بمزيج من الصفات العائدة إلى جنسه ومن الصفات العائدة إلى الجنس الآخر، وكذلك بمزيج من العناصر الموجبة والسالبة، سواء اتفقت هذه العناصر النفسية مع الصفات البيولوجية أو لم تتفق] (أضيف سنة ١٩١٥).



الجنسية الذكرية. أما لدى الذكور فإن تعضيد العقبات في وجه الجنسية بفعل الكبت المصاحب لزمن البلوغ يكون بمثابة عنصر منبِّه لليبيدو وحاضٍ له على قدر أكبر من النشاط. وبالتوازي مع ارتفاع مستوى الليبيدو تزداد المبالغة في التقييم الجنسي وتدرك ذروتها في قبالة المرأة التي تتمنع وتنكر صفتها الجنسية. ويحتفظ البظر، حين يستثار في أثناء الفعل الجنسي الذي يغدو في نهاية المطاف مباحاً للمرأة، بدوره في نقل الإثارة إلى الأجزاء التناسلية المجاورة، مثله في ذلك مثل نشارة الحطب الصمغي التي تستخدم في إشعال النار في كتلة من حطب أقسى. وقد تنقضي أحياناً وهلة من الزمن قبل أن يتمّ هذا النقل لا تكون أثناءها المرأة حساسة باللذة. وقد تمسي هذه اللاحساسية دائمة حين تمتنع منطقة البظر عن تحويل قابليتها للتهيُّج إلى منطقة أخرى ـ وقد يكون مردّ ذلك بصورة رئيسية إلى شدة نشاط منطقة البظر في أثناء الطفولة. ومعلوم أن لاحساسية النساء هي في الغالب ظاهرية وموضعية فحسب. فلئن انعدمت حساسيتهن بتنبيهات الفتحة المهبلية فإنهن يبقين حساسات بالتنبيه الذي مصدره البظر أو إحدى المناطق الأخرى. وبالإضافة إلى هذه العلل الشهوية لانعدام الحساسية، هناك علل أخرى ذات طابع نفسي، ومشروطة كسابقتها بالكبت. ومتى ما تمّ بنجاح نقل التنبيه الشهوي من البظر إلى فتحة المهبل، يحدث لدى المرأة تغيُّر في المنطقة الرائدة يرتهن به مستقبل حياتها الجنسية، بينما يحافظ الرجل على المنطقة ذاتها منذ طفولته. وتغيُّر المنطقة الشهوية الرائدة واندفاعة الكبت في طور البلوغ ـ هذه الاندفاعة التي تبغي فيما يبدو إلغاء الذكورة الطفلية ـ يوفران الشروط التي تهيِّئ المرأة للعصاب، وعلى الأخص للهستيريا. وهذه الشروط وثيقة الصلة بماهية الأنوثة.

٥ ــ العثور على الموضوع

في الوقت الذي تفرض فيه سيرورة البلوغ زعامة المناطق التناسلية ويشير فيه اندفاع عضو الذكورة الذي صار قابلاً للانتصاب إلى الهدف الجديد، أي الدلوف إلى تجويف من الجسم من شأنه إثارة المنطقة التناسلية، يفسح النمو النفسي مجالاً للجنسية للعثور على موضوعها، على نحو ما أُعِدَّت له العدة منذ

الطفولة. فيوم كان الإشباع الجنسي مرتبطاً بتناول الغذاء، كان الدافع الغريزي يعثر على موضوعه خارج الجسم في ثدي الأم، ثم ما لبث هذا الموضوع أن أُفتقد، ربما حين اقتدر الطفل على أن يرى الشخص صاحب العضو الذي يمدّه بالإشباع بتمام شخصه. ومنذئذ يغدو الدافع الغريزي إيروسياً ذاتياً، ولا تستعاد العلاقة الأصلية ثانية إلا بعد تجاوز طور الكمون. وليس من قبيل المصادفة أن تكون رضاعة الطفل من ثدي أمه قد صارت هي النموذج الأول لكل علاقة حب. فالعثور على الموضوع الجنسي إن هو في واقع الأمر إلا اهتداء جديد إليه[١٢].

الموضوع الجنسي في فترة الرضاعة ـ غير أنه يتبقى من هذه العلاقة الجنسية، التي هي أولى العلاقات وأهمّها، حتى بعد انفصال النشاط الجنسي عن التغذية، رسابة ذات شأن تسهم في الإعداد للاختيار الموضوعاني، ومن ثم في استعادة السعادة المفتقدة. فعلى امتداد فترة الكمون يتعلم الطفل أن **يحبّ** اشخاصاً آخرين يمدّون إليه يد العون في عوزه الأصلي ويلبّون حاجاته؛ ويتكوّن هذا الحب وفق نموذج العلاقة بالأم في فترة الرضاعة واستمراراً لها. وقد يأبى بعضهم أن يماثل بين المشاعر الحانية والإيثارية التي يخصّ بها الطفل الأشخاص الذين يتولون العناية به وبين الحب الجنسي، لكنني أعتقد أن التعمق في البحث السيكولوجي من شأنه أن يقرر هذا التماثل بيقين لا يرقى إليه الشك. فعلاقات الطفل بالأشخاص الذين يعنون به هي له بمثابة مصدر لا ينضب للإثارة والإشباع الجنسيين انطلاقاً من المناطق الشهوية، ولا سيما أن الشخص المكلف بالعناية بالطفل (الأم عادة) يظهر له مشاعر مشتقة من حياته الجنسية الخاصة، فيعانقه ويهدهده وينظر إليه، بلا أدنى ريب، نظرته إلى بديل عن موضوع جنسي كامل[١٣]. وأرجح الظن أن الأم ستُبغت بشدة إن قلنا لها إنها توقظ

١٢ ـ [يفيدنا التحليل النفسي أن اختيار الموضوع الجنسي يتمّ بطريقتين مختلفتين. فإما أن يتم، كما رأينا من قبل، بالطريقة الاتكالية، أي عن طريق التعلق ببعض المواضيع التي ترجع أصولها إلى الطفولة الأولى، وإما أن يتلبس طابعاً من النرجسية حيث يبحث الفرد عن ذاته ويجدها في شخص آخر. ولهذه الطريقة الأخيرة أهمية بالغة في الحالات المرَضية، ولكن ذلك لا يدخل ضمن الإطار الذي اختططناه لأنفسنا هنا] (أضيف سنة ١٩١٥).



على هذا النحو، بملاطفاتها، الدافع الغريزي الجنسي لدى طفلها وتعيّن مدى شِدَّته مستقبلاً. فهي تعتقد أن ملاطفاتها تنمّ عن حب لاجنسي و«طاهر»، وذلك ما دامت تتحاشى أن تثير أعضاء الطفل الجنسية أكثر مما تستوجبه العناية بجسمه. لكننا نعلم أن الدافع الغريزي الجنسي لا يوقظه تنبيه المنطقة التناسلية وحدها؛ فما نسمِّيه بالحنو لا بدّ أن يؤثِّر بدوره يوماً في المنطقة التناسلية. ثم إن الأم لو زادت اطلاعاً على أهمية الدوافع الغريزية في مجمل الحياة النفسية، وفي كل النشاط الأخلاقي والنفسي، لامتنعت حتى بعد استثارتها عن توجيه أي لوم إلى نفسها. فهي لا تفعل سوى تأدية واجبها حين تعلّم الطفل أن يحبّ؛ فهو يُفترض فيه بالفعل أن يصير كائناً مكتمل الصفات، محبواً بحاجة جنسية نامية قوية، قادراً على أن يحقق في حياته كل ما يقتضيه الدافع الغريزي. ونحن لا ننكر أن الشطط في الحنوّ الوالدي قد يكون ضارَّ العواقب لأنه قد ينمي شهوانية مبكرة، وقد يفسد الطفل بـ«التدليل» ويجعله عاجزاً عن العزوف مؤقتاً عن الحب أو غير قادر على الاكتفاء بحب أكثر اعتدالاً واتزاناً. ولئن أظهر الطفل جوعاً لا يشبع إلى حنو الوالدين، فذلك نذير جليّ بعصبية لاحقة. ومن جهة أخرى، إن الوالدين العصابيين هما اللذان يجنحان في غالب الأحيان، كما هو معلوم، إلى الشطط في الحنوّ، فيوقظان بمداعباتهما استعدادات الطفل للمرض العصابي. ويدلنا هذا المثال على أن ثمة طرقاً مباشرة أكثر من الوراثة لينقل الوالدان العصابيان إلى الأولاد ما يعانونه من اضطرابات.

الحَصَر الطفلي ـ يشير سلوك الأطفال، من نعومة أظفارهم، إلى أن تعلقهم بالأشخاص الذين يعنون بهم هو من قبيل الحب الجنسي. وما الحصر عند الأطفال أصلاً إلا تعبير عن شعورهم بافتقاد الشخص المحبوب. لهذا نراهم يقابلون كل غريب بالخوف، والظلام يثير قلقهم لأنهم لا يرون فيه الشخص الحبيب، ولا يسكن لهم روع إلا متى أمسكوا بيد هذا الشخص. وإننا لنهوِّل من

١٣ ـ أنصح أولئك الذين قد تصدمهم تأويلاتي أن يقرؤوا ذلك المقطع من كتاب هافلوك إلِّيس، **دراسات في علم النفس الجنسي**، الذي يتناول فيه المؤلف العلاقات بين الأم والطفل تناولاً يتفق إلى حدّ بعيد مع تأويلي.



شأن قصص الغيلان والعفاريت المرعبة التي تقصّها المربِّيات حين نحمّلها تبعة المخاوف الطفلية. فمثل هذه القصص لا تؤثر إلا في من كان لديه استعداد مسبق من الأطفال، على حين أنها تبقى بلا مفعول على الإطلاق بالنسبة إلى سواهم. والأطفال الذين بكّر دافعهم الغريزي الجنسي بالظهور، أو شطّ وأسرف في إلحاحه، هم الذي يظهرون استعداداً مسبقاً للقلق والحصر. ويسلك الطفل في هذه الحال سلوك الراشد: فالليبيدو لديه ينقلب إلى حصر حينما يعجز عن الوصول إلى إشباع؛ كما أن الراشد، الذي صار معصوباً لبقاء الليبيدو لديه بلا إشباع، يسلك في حَصَره سلوك الطفل فيطفق ينتابه الخوف حين يُترك بمفرده، أي بلا وجود شخص يمكنه فيما يتراءى له أن يعتمد على حبه؛ ونراه يلجأ، تسكيناً لهواجسه، إلى تدابير صبيانية إلى أبعد مدى[١٤].

حاجز المحارم ـ إن وفِّق حبّ الوالدين إلى الحؤول دون الاستيقاظ المبكر الدافع الغريزي الجنسي لدى الطفل قبل حينه، أي حال دون تزويد هذا الدافع الغريزي، قبل أن تتوفر شروط البلوغ الجسمانية، بقوة يتمكن معها التهيُّج النفسي من النفاذ، بكل تأكيد، إلى الجهاز التناسلي، استطاع هذا الحب أن يفي بالمهمة المتوقعة منه، وهي توجيه خطى الطفل متى ما صار راشداً في اختيار الموضوع الجنسي. صحيح أن الطفل سينزع بطبيعة الحال إلى اختيار الأشخاص الذين أحبّهم في طفولته بدافع من ليبيدو مخفف بنوع ما[١٥]. غير أن إرجاء النضج الجنسي يوفِّر الزمن الضروري لبناء حاجز المحارم إلى جانب سائر ضروب الكفّ

١٤ ـ إني أدين لصبي صغير في السنة الثالثة من العمر بمعلوماتي عن أصل الحصر الطفلي. ففيما كان يوماً في غرفة معتمة سمعته يصيح: «كلميني يا خالتي فأنا خائف بسبب الظلام». فأجابته الخالة: «وما فائدة ذلك ما دمت لا تستطيع أن تراني؟». فأجاب الطفل: «ذلك لا يهمّ، فالظلام يذهب إن تكلم أحد ما». إذاً فالطفل ما كان يخشى الظلام، بل كان سبب قلقه غياب شخص محبوب من قبله، وكان بوسعه أن يؤكد أن روعه سيسكن حالما يشعر بحضور هذا الشخص. [إن واحدة من أهم نتائج التحليل النفسي كشفه أن الحصر العصابي ينشأ من الليبيدو، وأنه من نتاجه، مثلما الخلّ من نتاج النبيذ. ولمزيد من التفصيل راجع كتابي **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، ١٩١١ ـ ١٩١٧، المحاضرة الخامسة عشرة، بالرغم من أني لا أستطيع أن أزعم أني قدَّمت فيه الحل الشافي والنهائي للمشكلة] (أضيف سنة ١٩٢٠).



الجنسي. وبذلك يتأتى للطفل أن يتمثل التعاليم الأخلاقية التي تستبعد بصراحة ووضوح من مجال الاختيار الموضوعاني الأشخاص الذين أحبّهم في طفولته والذين هم من ذوي الأرحام. والمجتمع هو الذي يفرض هذا التقييد، اضطراراً منه إلى الحؤول دون استيعاب الأسرة لجميع القوى التي هو بحاجة إليها لبناء تنظيمات اجتماعية أعلى؛ ولذلك يلجأ المجتمع إلى جميع الوسائل التي من شأنها أن تؤدي لدى كل عضو من أعضائه، وعلى الأخص لدى المراهقين، إلى تراخي الروابط العائلية التي ما كان ثمة روابط غيرها تشدّ الفرد في طفولته[١٦].

غير أن الاختيار الموضوعاني يتمّ أول الأمر في شكل تمثلات وتصورات، ولا يتأتى للحياة الجنسية قيد النضج عند المراهق أن تسلك، مؤقتاً، غير طريق التخيُّل، أي طريق تصورات معيَّنة ليس مقيَّضاً لها أن تخرج إلى حيِّز التنفيذ[١٧]. وفي هذه المنتجات التخيُّلية تحديداً تتبدى ثانية لدى جميع الكائنات الإنسانية الميول والنوازع الطفلية وقد عززها ضغط النمو البدني؛ وأهم هذه الميول وأكثرها تواتراً

١٥ - [انظر ما قلته آنفاً بصدد الاختيار الموضوعاني وتيار الحنو لدى الطفل(*)] (أضيف سنة ١٩١٥).

(*) انظر أعلاه المبحث الثاني، فقرة: **اختيار الموضوع في زمنين**. «م».

١٦ - [ثمة مجال للافتراض أن حاجز المحارم هو من المكاسب التاريخية للبشرية، وأن الوراثة العضوية هي التي ثبّتته لدى الكثيرين من الأفراد، مثله في ذلك مثل كثير غيره من محظوراتنا الأخلاقية (انظر فرويد: **الطوطم والتابو**، ١٩١٢ - ١٩١٣). بيد أن التحليل النفسي يكشف لنا عن مدى الصراع الذي يتعيَّن على الفرد أن يخوض غماره في مراحل نموّه ليتغلّب على الإغراءات التي تدفع به نحو حب المحارم. كما يكشف لنا أنه كثيراً ما يسقط الفرد في شرك هذه الإغراءات، سواء أفي الخيال أم حتى في الواقع] (أضيف سنة ١٩١٥).

١٧ - [إن تخيلات زمن البلوغ تنطلق من التحريات الجنسية عينها التي كان الطفل قد تخلى عنها في خاتمة المطاف. وهذه التخيلات قد توجد حتى قبل نهاية مرحلة الكمون، وقد تبقى برمتها، أو بجزء منها، أسيرة اللاشعور. ولهذا أيضاً يتعذر في كثير من الأحيان تحديد زمن ظهورها. ودورها عظيم في تكوين أعراض شتى؛ وهي لهذه الأعراض بمثابة مراحل تمهيدية، ومن ثم فهي تمثّل الأشكال والصور التي يتخذها إشباع بعض المقوّمات الليبيدوية المكبوتة. أضف إلى ذلك أنها النماذج المحتذاة للتخييلات الليلية التي تصير شعورية في شكل أحلام. وما الأحلام في كثير من الأحيان إلا إحياء لهذا النوع من التخيلات، تحت تأثير التنبيهات المتخلفة من حالة اليقظة في اليوم السابق («البقايا النهارية»). وإن من التخيلات الجنسية في زمن البلوغ ما يتميّز منها بتواتره لدى كل فرد على وجه التقريب، أياً ما كانت خبراته الشخصية. ولنذكر ضمن هذا السياق نفسه الرؤيا التي تصوِّر للطفل أنه شهد الجماع بين والديه، وأن شخصاً يحبّه قد أغواه وغرّر به في سن مبكرة، وأنه مهدد بالخصاء، وأنه تعرَّض في



الانفعال الجنسي الذي يتلبس في أغلب الأحيان طابعاً متبايناً تبعاً لانجذاب الطفل جنسياً نحو والديه: الابن نحو الأم، والبنت نحو الأب[١٨]. وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه نبذ هذه التخيُّلات المحرمية وتجاوزها، يتحقق أيضاً عمل سيكولوجي مميِّز لفترة البلوغ، هو من أهمّ المهام ومن أشدِّها إيلاماً في آن معاً، وأعني به المجهود الذي يبذله الطفل لينعتق من سلطة والديه، هذا المجهود الذي عنه وحده ينشأ التعارض، البالغ الأهمية بالنسبة إلى التقدم الحضاري، بين الجيل الجديد والجيل القديم. وعند كل مرحلة من مراحل التطور هذه، التي يتعيَّن على كل كائن سويّ اجتيازها، يمكن أن يتوقف بعض الأفراد؛ وهكذا نقابل أشخاصاً لم ينعتقوا قط من سلطة الوالدين، وما استطاعوا أن يفصلوا عن والديهم مشاعرهم الحانية، أو على الأقل ما استطاعوا ذلك إلا على نحو منقوص. وفي طليعة هؤلاء بنات صبايا بقين مقيمات، على فرح عظيم من الأهل، على الحب

أثناء إقامته في رحم الأم لصروف شتى. ومن هذا القبيل أيضاً ما يسمى بـ«الرواية العائلية» التي يبني فيها المراهق أسطورة كاملة انطلاقاً من الفارق بين موقفه القديم في زمن طفولته من والديه وموقفه الراهن. وقد أوضح أ. رانك(*) في بحث له بعنوان **أسطورة ميلاد البطل**، ١٩٠٩، العلاقة القائمة بين هذا النوع من التخييلات وبين الميتولوجيا.

لقد قيل بحق إن عقدة أوديب هي العقدة النووية في الأعصبة، وإنها تؤلف الجانب الأكثر جوهرية من مضمون العصاب. ففيها تبلغ الذروةَ الجنسيةُ الطفلية التي سيكون لها لاحقاً تأثير حاسم في جنسية الراشد. وتقع على عاتق كل كائن إنساني مهمة السيطرة على عقدة أوديب، فإن فشل في هذه المهمة وقع فريسة للعصاب. وقد علَّمنا التحليل النفسي أن نقدِّر أكثر فأكثر الأهمية الجوهرية لعقدة أوديب، وبوسعنا القول إن ما يفرّق بين خصوم التحليل النفسي وأنصاره هو مدى الأهمية التي يعلِّقها هؤلاء الأخيرون على هذه الواقعة] (أضيف سنة ١٩٢٠). [في كتاب آخر (**رضة الميلاد**، ١٩٢٤)، يرجع رانك التعلق بالأم إلى الحقبة الجنينية ما قبل التاريخية، مبيِّناً على هذا النحو الأساس البيولوجي لعقدة أوديب. وخلافاً لما تقدّم قوله أعلاه، يعلل حاجز المحارم بالأثر الرضّي للحصر الناجم عن واقعة الميلاد] (أضيف سنة ١٩٢٤).

(*) أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). مارس التحليل النفسي كهاوٍ، بعد أن غيَّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تمثلاً بالطبيب الطيِّب القلب رانك في مسرحية إبسن **بيت الدمية**، الذي قدّم له نموذجاً مناقضاً لأبيه الذي كان سكيراً مدمناً. من أشهر مؤلفاته: **رضمة الميلاد**، **دون جوان وقرينه**، **مساهمة في النرجسية**، **أسطورة ميلاد البطل**. «م».

١٨ ـ انظر تأويلاتي عن حتمية القدر المقدر في أسطورة أوديب في **تأويل الحلم**، ١٩٠٠.



البنوي التام والكامل إلى ما بعد البلوغ بزمن طويل؛ ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن هؤلاء البنات يعجزن، إذا ما تزوجن، عن وهب أزواجهن كل ما هو من حقهم؛ فيصبحن زوجات باردات، ويبقين فاقدات الحسّ جنسياً. وبوسعنا أن نستخلص من ذلك أن الحب البنوي، غير الجنسي في ظاهره، والحب الجنسي يتغذيان من مصادر واحدة، أي أن الحب البنوي ما هو إلا تثبيت طفلي لليبيدو.

كلما تمعَّنا عن كثب في الاضطرابات الأبعد عمقاً في النمو الجنسي النفسي، تبدَّت لنا بما لا يدع مجالاً للبس أهمية العنصر المحرمي في الاختيار الموضوعاني. وفي حالات الأعصبة النفسية يبقى النشاط الجنسي النفسي، الذي يجدّ في إثر الموضوع، أسير اللاشعور بكامله أو بالشطر الأكبر منه نتيجة لإنكار الجنسية. والبنات اللائي تساورهن حاجة إلى حنوّ مسرف، ويستبدّ بهن رعب مسرف أيضاً إزاء متطلبات الحياة الجنسية، عرضة لإغراء لا يقاوم يدفع بهن من جهة أولى إلى السعي في الحياة وراء مثل أعلى منسوج من حب لاجنسي، ومن الجهة الثانية إلى تمويه الليبيدو عندهن بالحنوّ الذي في متاحهن الإفصاح عنه بدون أن يكون لزاماً عليهن تأنيب أنفسهن، وذلك بحفاظهن مدى حياتهن على عواطفهن الطفلية تجاه الوالدين والإخوة والأخوات، هذه العواطف التي يحْييها البلوغ ويجدِّدها. وفي مستطاع التحليل النفسي أن يثبت لهذه الفئة من الأفراد بلا صعوبة أنهم واقعون في حبّ أهلهم، بالمعنى المألوف لهه الكلمة، وذلك بتقصيه، من خلال أعراضهم المرَضية، أفكارهم اللاشعورية وردِّه إياها إلى الشعور. والأمر بالمثل في حالة الفرد الذي يبدأ أول الأمر حياة سوية، ثم لا يلبث أن تظهر عليه سمات مرَضية غبّ إخفاقه في تجربة حب. ونستطيع أن نثبت، على وجه اليقين، أن آلية المرض تتمثل بارتداد الليبيدو لدى هذا الفرد إلى الأشخاص الذين أحبَّهم في طفولته.

الآثار البعيدة للاختيار الطفلي للموضوع ـ ليس، حتى لمن وُفِّق إلى تحاشي تثبيت الليبيدو لديه على المحارم، أن ينعتق تمام الانعتاق من تأثير هذا التثبيت. فلا مرية في أن صدى واضحاً من هذه المرحلة الأولية هو الذي يحمل الفتى على أن يختار موضوعاً لحبّه الجادّ الأول امرأة ناضجة، وهو الذي يحمل الفتاة على التدلُّه

بحبِّ رجلٍ كهل له قدره من الاعتبار: فمثل هؤلاء الأشخاص يحيون فيهم صورة الأم أو صورة الأب[١٩]. وبوسعنا الافتراض أن الاختيار الموضوعاني يتمّ، بصفة عامة، بالاستناد إلى هذين النموذجين، وإن بهامش أكبر من الحرية. فالرجل يبحث قبل كل شيء عن صورة الأم التي هيمنت عليه منذ طفولته. وتتفق هذه الواقعة إلى حدّ غير قليل مع الواقعة الأخرى التي تتمثل في أن الأم تعارض بشدة - إن كانت لا تزال على قيد الحياة - هذه الصورة الجديدة عن شخصها وتقابلها بالعداء. وإذا أخذنا باعتبارنا أيضاً ما لعلاقات الأطفال بوالديهم من أهمية في الاختيار اللاحق للموضوع الجنسي، فهمنا بلا مشقة أن أي اضطراب في هذه العلاقات لدى الطفل تترتب عليه أخطر العواقب بالنسبة إلى الحياة الجنسية الراشدة. وهكذا يكون لغيرة المحبين في أرجح الظن جذور في خبرات الطفولة، أو على الأقل تعضيد لها فيها. والمشاحنات بين الوالدين أو عدم التوفيق في زواجهما تستتبعها استعدادات وخيمة للاضطرابات في النمو الجنسي أو للإصابة العصابية لدى أولادهما.

إن عاطفة الطفل نحو والديه تترك آثاراً بليغة من شأنها، متى ما انبعثت في البلوغ، أن تتحكم بوجهة الاختيار الموضوعاني؛ لكن ليس هذا هو العامل الوحيد الذي ينبغي أن يؤخذ في الحساب. فثمة نقاط انطلاق أخرى، لها هي الأخرى أصول مبكرة، تتيح للراشد أن يختطّ لنفسه، بوحي من خبرات الطفولة، عدداً من الخيارات الجنسية المتسلسلة، وأن يحدد بالتالي شروطاً بالغة التنوع للاختيار الموضوعاني[٢٠].

الوقاية من الارتكاس - إن أحد الأهداف الواضحة للاختيار الموضوعاني هو عدم الفشل في التوجه نحو الجنس الآخر. والمشكلة، كما هو معلوم، لا تجد حلاً لها إلا بعد قدر من التردد والتحيُّر. فحين تأزف ساعة البلوغ يضلّ الفرد سبيله

١٩ - انظر مقالي المعنون: **نمط خاص من الاختيار الموضوعاني لدى الرجل**، ١٩١٠(*).

(*) انظر نص هذا المقال في الكتاب التالي: **الحياة الجنسية**. «م».

٢٠ - [لا سبيل إلى فهم عدد غفير من خصائص الحياة الحبّية، وكذلك الطابع القهري الذي تتلبسه الأهواء الحبية، إلا بالرجوع إلى الطفولة وإلا إذا اعتبرت أصداء لظاهرات حدثت في ذلك الطور من العمر، وآثارها لا تزال ملموسة] (أضيف سنة ١٩١٥).



الأول في كثير من الأحيان، بدون أن يترتب على هذا الضلال ضرر مقيم. وقد نبّه دسوار DESSOIR[٢١] بحقّ (١٨٩٤) إلى اطراد تكرر الخصائص نفسها في الصداقات المشبوبة التي تشدّ المراهقين والمراهقات إلى أفراد من جنسهم نفسه كما لو أن الأمر أمر قانون. أما القوة التي تحول دون الارتكاس الدائم للموضوع الجنسي فهي في المقام الأول الجاذبية التي تمارسها الصفات المتضادة لأحد الجنسين على الجنس الآخر. ولا يسعنا هنا، في إطار هذا المبحث، أن نحاول الإتيان بتفسير لهذه الظاهرة[٢٢]. غير أن هذا العامل لا يكفي وحده لاستبعاد الارتكاس. فثمة عناصر ثانوية إضافية تفعل في الاتجاه نفسه. ونخصّ بالذكر منها، في المقام الأول، التأثير الكابح للمجتمع؛ فحيثما لا يعدّ الارتكاس جريمة نشاهد أنه يتطابق والرغبة الجنسية للعديد من الأفراد. وبوسعنا أيضاً الافتراض أن ذكريات الفتى عن طفولته، التي كان فيها موضع عناية أمه أو نساء أُخر ممن تعهدنه بالرعاية وهو طفل، تسهم إسهاماً حاسماً في توجيه اختياره نحو المرأة [بينما يثنيه عن جنسه ردع الأب المبكر له عن النشاط الجنسي وموقف التنافس الذي كان وقفه منه. لكن لنبادر إلى الإضافة بأن هذين العاملين يفعلان فعلهما أيضاً لدى الفتاة التي يتطور نشاطها الجنسي تحت رعاية الأم بصورة خاصة. وبذلك تنتهي إلى وقوف موقف عدائي حيال جنسها، له أبلغ الأثر في اختيارها الموضوعاني في الحالات التي تعدّ سوية] (عُدِّل سنة ١٩١٥). ويبدو أن تنشئة الصبيان على أيدي أفراد من الجنس المذكر (العبيد في العصور القديمة) يسّرت التطور باتجاه الجنسية المثلية؛ وشيوع الارتكاس في الأوساط الأرستقراطية اليوم يمكن أن يجد له تفسيراً أكمل إن أخذنا في اعتبارنا أن الأسر الارستقراطية تستعين بالخدم الذكور بصورة خاصة، وأن الأمهات فيها لا يتولين كامل العناية

---

٢١ ـ ماكس دسوار: فيلسوف وعالم نفسي ألماني (١٨٦٧ ـ ١٩٤٧). أحد المؤسسين الرئيسيين لما سُمّي في حينه بـ«عِلم الفن». نظّم المؤتمرات الدولية الأولى لعلم الجمال وعلم الفن. مؤلفه الرئيسي الصادر عام ١٩٠٦ هو **علم الجمال وعلم الغذاء**. «م».

٢٢ ـ [يجدر التنويه هنا بنصّ لفيرنزي (**مبحث في النظرية التناسلية**، ١٩٢٤)، وهو نص غني وثريّ بالأفكار وإن كان لا يخلو من شطط في الخيال. فهو يشتقّ الحياة الجنسية للحيوانات العليا من تاريخ تطورها البيولوجي].



بأولادهن. ونلاحظ في بعض حالات الهستيريا أن الشروط التي حدّدت اختيار الموضوع الجنسي، وأتاحت بالتالي إمكانية دوام الارتكاس، ترتدّ في أصلها إلى كون أحد الوالدين قد اختفى في وقت مبكر (لموته أو لطلاقه عن شريكه أو لابتعاده)، مما جعل كل حبّ الطفل ينصبّ على الوالد المتبقي له.




مكتبة
الفكر الجديد

خلاصة

لقد آن الأوان فيما يبدو لنا لنحاول رسم صورة إجمالية لكل ما تقدم. فقد انطلقنا من حيدانات الدافع الغريزي الجنسي عن موضوعه وهدفه وطرحنا على أنفسنا السؤال التالي: هل هذه الحيدانات ناشئة عن استعداد فطري أم أنها مكتسبة؟ وإنّ ما أتاح لنا إمكان الإجابة هو المعلومات التي استقيناها من الموقف الجنسي كما لاحظناه لدى الأشخاص المصابين بأعصبة نفسية، وهم فئة كثيرة التعداد من الناس، لا تنأى بهم الشقة كثيراً عن الأفراد الأسوياء. وقد حصلنا على هذه المعلومات بواسطة منهج التحليل النفسي. وقد تحققنا من أن أفراد هذه الفئة توجد لديهم استعدادات مشتركة لجميع الانحرافات، في شكل قوى لاشعورية تتعيَّن بها طائفة بكاملها من الأعراض. وبذلك أمكن لنا القول إن العصاب هو الصورة السالبة للانحراف. وبعدما تأكد لنا شيوع الاستعداد للانحراف على نطاق واسع، لم نجد مناصاً من الافتراض بأن الاستعداد للانحرافات هو حقاً الاستعداد العام، الأصلي، للدافع الغريزي الجنسي البشري الذي لا يغدو سوياً إلا بفعل تغيرات عضوية وضروب من الكف النفسي تطرأ في أثناء تطوره. ومن ثم راودنا الأمل بأن نعثر على هذا الاستعداد الأصلي لدى الطفل. وضمن القوى التي تحدِّد وجهة الدافع الغريزي الجنسي ذكرنا في المقام الأول الحياء والقرف والشفقة والتصورات الاجتماعية التي تفرضها الأخلاق والسلطة. وهكذا كان كل حيدان للحياة الجنسية يبدو لنا، حالما يأخذ صفة الثبات، ناجماً عن تعطيل للنمو وعلامة من علامات الطفالة. وقد ألححنا على التأثير الراجح الكفة للتنوعات في الاستعدادات الأصلية، مع تسليمنا بأنه ليس بينها وبين مؤثرات الحياة تعارض، بل تعاون. وبما أننا سلَّمنا من جهة أخرى بأن التعقيد هو من صفات الاستعداد الأصلي، فقد بدا لنا الدافع الغريزي الجنسي



بحدّ ذاته مركّباً من عوامل شتى، وهي عوامل لا تلبث أن تنفصم وتتفكك عناصرها في الحالات الانحرافية. وبذلك يمكن للانحرافات أن تتبدى إما على أنها نتيجة ضروب من الكفّ، وإما على أنها حصيلة تفكك وانفصام في مجرى تطور سويّ. ويلتقي هذان التصوران في الفرضية القائلة إن الدافع الغريزي الجنسي عند الراشدين يتكون عن طريق اندماج العديد من نوازع الحياة الطفلية على نحو تؤلف معه وحدة، أو صبوة إلى هدف أوحد.

وقد فسّرنا أيضاً غلبة الميول الانحرافية لدى العصابيين النفسيين بإرجاعنا المرض إلى التحول إلى روافد جانبية من جراء انسداد المجرى الرئيسي بفعل (الكبت). ثم توجّهنا نحو تحليل الحياة الجنسية في أثناء الطفولة[1]. وقد تأسفنا لما يُبدى من رغبة في تجاهل الدافع الغريزي الجنسي لدى الطفل، ولما توصف به التظاهرات الجنسية التي لا تندر مشاهدتها في هذا العمر بأنها ظاهرات شاذة عن القاعدة العامة. وقد بدا لنا، على العكس، أن الطفل يحمل معه، حين ولادته، بذور نشاط جنسي، وأنه يشعر عند الرضاع بإشباع من طبيعة جنسية، وأنه لا يفتأ بعد ذلك يطلب هذا الإشباع في فعل (التمصّص) المألوف. وقلنا إن نشاط الطفل الجنسي هذا لا ينمو مثلما تنمو الوظائف الأخرى، بل يدخل في طور من الكمون بعد فترة تفتُّح وجيزة تمتدّ بين السنة الثانية والخامسة. وذكرنا أن تولد التهيُّج الجنسي لا يتوقف في هذا الطور، بل يستمرّ وينتج احتياطياً من الطاقة يتمّ استخدامها، في شطر كبير منها، لغائيات أخرى غير الغائية الجنسية؛ أي أنها تقدِّم، من جهة أولى، عناصر جنسية من شأنها أن تغذِّي المشاعر الاجتماعية، وتبني من جهة أخرى (بواسطة الكبت والتشكيلات الارتجاعية) الحواجز الجنسية التي سيكون لها دور تؤديه لاحقاً. والاستنتاج الذي بدا أنه يفرض نفسه هو أن هذه القوى المرصودة لمحاصرة الدافع الغريزي الجنسي ضمن اتجاهات معيَّنة تنمو

١ - [لا يصدق هذا على الميول إلى الانحراف التي تظهر في الأعصبة في «الصورة السالبة» فحسب، بل كذلك على الميول «الموجبة»، أي الانحرافات بملء المعنى. ومن ثم، من الخطأ إرجاع الانحرافات بملء المعنى حصراً إلى ميول طفلية قُيِّض لها أن تتثبت، بل ينبغي اعتبارها أيضاً نكوصاً نحو هذه الميول نتيجة لانسداد مجرى التطور الحرّ أمام التيارات الأخرى للحياة الجنسية. لهذا يمكن معالجة الانحرافات «الموجبة» هي أيضاً بطرائق التحليل النفسي] (أضيف سنة ١٩١٥).



في الطفولة بمؤازرة التربية وعلى حساب النوازع الجنسية التي يكون لها، في أغلب الأحيان، طابع انحرافي. ومن الممكن أن يفلت شطر من النوازع الجنسية الطفلية من هذا الاستخدام ليفصح عن نفسه في صورة نشاط جنسي. وهكذا يلوح أن تهيُّج الطفل الجنسي يمتح من مصادر عدة: وفي المقام الأول من المناطق الشهوية التي ينشأ عنها إشباع كلما أمكن تنبيهها بصورة موائمة. وتشير الدلائل كافة إلى أن وظيفة المنطقة الشهوية يمكن أن تقوم بها جميع مواضع البشرة وجميع أعضاء الحواس [بل ربما أي عضو] (أضيف سنة ١٩١٥). غير أنه توجد بعض مناطق شهوية متميزة تتوفر لها من البداية قابلية التهيُّج بحكم بنيتها العضوية. أضف إلى ذلك أن التهيُّج الجنسي يأتي كنتاج هامشي، إن جاز التعبير، لعدد كبير من السيرورات العضوية متى ما بلغت درجة كافية من الشدة، وعلى الأخص إن كانت عبارة عن انفعالات قوية، حتى ولو من طبيعة مؤلمة. ولا تكون الإثارات التي تصدر عن مختلف هذه المصادر متوافقة بعد فيما بينها، بل تنشد كل واحدة منها هدفاً منفصلاً هو مجرد الفوز بلذة ما. وهذا ما يحملنا على الافتراض بأن الدافع الغريزي الجنسي في الطفولة لا يكون بعد **ذا مركز واحد**، وأنه يكون في بداية الأمر بلا موضوع، أي **إيروسياً ذاتياً**.

وفي إبان سنوات الطفولة أيضاً تشرع المنطقة الشهوية للأعضاء التناسلية بالإعلان عن نفسها، وذلك إما لأنها توفِّر للمنطقة التناسلية، مثلها مثل أي منطقة شهوية أخرى، إشباعاً في حال استثارتها استثارة حسِّية موائمة، وإما لأنها تولِّد، بكيفية غير مفهومة بعد تماماً، ومن خلال إشباع آتٍ من مصادر أخرى، تهيُّجاً جنسياً يكون ذا صلة خاصة بالمنطقة التناسلية. وقد وجدنا لزاماً علينا أن نقرّ، آسفين، بأنه ليس متاحاً لنا أن نقدم تفسيراً مُرْضياً للعلاقة القائمة بين التهيُّج الجنسي والإشباع الجنسي، ولا كذلك للعلاقة التي نفترض أنها قائمة بين نشاط المنطقة التناسلية ونشاط المنابع الأخرى للجنسية.

[لقد تبيَّن لنا في دراستنا للاضطرابات العصابية أنه توجد في الحياة الجنسية الطفلية، من البداية، باكورة تنظيم للمقوِّمات الغريزية الجنسية. ففي طور أول، ممعن في التبكير، ترجح كفة الإيروسية **الفموية**، بينما يتَّسم الطور الثاني من



التنظيمات «**القبتناسلية**» بغلبة **السادية والإيروسية الشرجية**؛ وإنما في الطور الثالث (الذي لا يتطور لدى الطفل إلا بعد أيلولة الزعامة إلى القضيب) تغدو الحياة الجنسية متعيِّنة بما تسهم به فيها المناطق التناسلية بحصر المعنى.

كان لزاماً علينا أن نلاحظ بعد ذلك، على دهش عظيم منا، أن هذا الازدهار المبكِّر للحياة الجنسية الطفلية (من السنة الثانية إلى الخامسة) يؤدي إلى ظهور اختيار موضوعاني، بكل ما يصحب ذلك من أنشطة نفسية بالغة التنوع، بحيث يباح لنا أن نعدّ هذه المرحلة، رغم انعدام التنسيق بين المقوِّمات الغريزية المختلفة ورغم عدم وضوح الهدف الجنسي، بشيراً هاماً بالتنظيم الجنسي النهائي اللاحق.

وقد بدا لنا أن ما يستوجب انتباهاً خاصاً هو حدوث النمو الجنسي لدى بني الإنسان **على دفعتين متعاقبتين**، أي وجود انقطاع في هذا النمو متعيِّن بمرحلة الكمون. وبالفعل، إن ذلك واحد من الشروط التي تتيح للإنسان التقدم نحو مستوى أرقى من الحضارة، كما أنه يقدِّم لنا أيضاً تفسيراً لجنوحه إلى العصاب. ونحن لا نقع على شيء من هذا القبيل لدى الحيوانات القريبة من الإنسان. وللاهتداء إلى أصول هذه الخاصية في التطور الإنساني، لا بدّ من الرجوع إلى التاريخ البدائي للجنس البشري] (أضيفت هذه الفقرات الثلاث سنة ١٩٢٠).

ولا يسعنا أن نحدد ما درجة النشاط الجنسي في الطفولة التي ينبغي أن تُعدَّ سويّة وغير معيقة للنمو اللاحق. وقد أوضحنا أن تظاهرات الجنسية الطفلية ترتدي طابعاً استمنائياً في المقام الأول. ثم لاحظنا بعد ذلك، بالاستناد إلى التجربة والخبرة، أن المؤثرات الخارجية ذات الصلة بالإغواء قد تتسبب في حدوث انقطاعات سابقة لأوانها في مرحلة الكمون، بل قد تلغي هذه المرحلة برمتها، فيتبدى الدافع الغريزي الجنسي عند الطفل عندئذ انحرافياً متعدد الأشكال. ورأينا أخيراً أن كل نشاط جنسي سابق لأوانه، ناجم عن علة كهذه، يجعل تربية الطفل أشداً عسراً.

بالرغم من أن معرفتنا بالحياة الجنسية الطفلية تشكو من فجوات واسعة، فقد توجَّب علينا أن نحاول دراسة التغيرات التي تطرأ مع البلوغ. وقد اعتبرنا أن من أهم هذه التغيرات، أولاً، خضوع جميع الإثارات الجنسية، كائناً ما كان



مصدرها، لزعامة المناطق التناسلية، وثانياً، السيرورة التي تتأدى إلى العثور على الموضوع. والمعالم الأولى لهاتين الظاهرتين ترتسم في الطفولة. فأولاهما تتمّ بفضل آلية استخدام اللذة التمهيدية التي تغدو فيها الأفعال الجنسية، التي كانت مستقلة إلى ذلك الحين عن بعضها بعضاً، بمثابة تمهيد للهدف الجنسي الجديد ـ إفراغ المنتجات الجنسية ـ الذي تدرك فيه اللذة ذروتها، فيزول من ثمَّ التهيُّج الجنسي. وقد كان علينا عندئذ أن نأخذ بعين الاعتبار تمايز الكائن الجنسي إلى رجل وامرأة، وقد وجدنا أن الأيلولة إلى امرأة تقتضي كبتاً جديداً يختفي معه جزء من ذكورة المرأة الطفلية ويهيِّء هذه الأخيرة لاستبدال منطقة تناسلية رائدة بأخرى. ولاحظنا أخيراً أن الاختيار الموضوعاني تتحدد معالمه الأولى في الطفولة، ثم لا تعتم هذه المعالم، ونقصد بها عاطفة الطفل الجنسية تجاه والديه والأشخاص الذين يُعنون به، أن تستعاد عند البلوغ، ولكنها لا تلبث أن تُهجر من جديد بفعل حاجز المحارم الذي يكون قد نُصب أثناء ذلك؛ وعندئذ يتجه الاختيار نحو أشخاص آخرين لهم شبه بمن تقدَّمهم. ولنضف إلى ذلك، ختاماً، أن سيرورات النمو الجسمي والنفسي في مرحلة البلوغ الانتقالية تتم في بادئ الأمر بغير ما رابط بينها، إلى أن يؤدي اندفاع نفسي وعشقيّ جارف إلى تعصيب الأعضاء التناسلية، فتتحقق أخيراً الوحدة المميِّزة للوظيفة الحُبِّية السويّة.

عوامل اضطراب النمو ـ إن كل مرحلة من مراحل هذا التطور الطويل الأمد يمكن أن تغدو نقطة تثبيت، وكل تمفصل في هذا التركيب المتشابك قد يتيح فرصة لتفكك في الدافع الغريزي الجنسي، كما برهنت لنا على ذلك أمثلة عدة. ويبقى علينا أن نعدِّد مختلف العوامل الداخلية والخارجية القادرة على الإخلال بالنمو وأن نحدِّد ما الموضع من الآلية الذي يقع عليه الخلل. ولكن لنلحظ أن العوامل في تعداد كهذا لن تكون جميعها متكافئة في القيمة، وأنه سيكون من الشاقّ تقدير كل منها بحقّ قدره.

الجِبِلَّة والوراثة ـ بنبغي أن نذكر هنا، في المقام الأول، الفوراق الخِلقية في الجِبِلَّات الجنسية، وهي في أرجح الظن ذات أهمية فاصلة، وإن لم يكن من الممكن تبيُّنها إلا باستنتاجها من تظاهراتها اللاحقة، وهذا بدون أن يكون في



مقدورنا الوصول إلى يقين مطلق. ونحن نعتقد أن قوام هذه الفروق رجحان مصدر بعينه من مصادر الإثارة الجنسية، ونفترض أنها لا بدّ أن تظهر في المحصلة النهائية للنشاط الجنسي، حتى ولو بقيت ضمن حدود السواء. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنه لا يمكن تصور تنوعات في الاستعداد الأصلي قمينة بأن تؤدي بصورة محتَّمة، وبلا تدخل عوامل أخرى، إلى حياة جنسية غير سوية. ومن الممكن أن نصف هذه التنوعات بأنها «انحطاطية»، وأن نرى فيها تعبيراً عن انحلال متوارث. وسأسوق بهذا الصدد ملحوظة مثيرة للاهتمام وجديرة بالذكر. فقد تحققت، في أكثر من نصف الحالات المَرَضية التي عالجتها من هستيريا خطيرة وعصاب وسواسي، إلخ، من أن الآباء كانوا يعانون من إصابة بالزهري جرى اكتشافها وعلاجها قبل الزواج، سواء أأفضت هذه الإصابة إلى سُهام أو شلل عام، أم أمكن الاستدلال عليها من تاريخ الحالة. وإني لألحّ إلحاحاً خاصاً على واقع أن الأطفال الذين صاروا لاحقاً عصابيين ما كانوا يحملون في أجسامهم أية علامة من علامات الزهري الوراثي، مما كان سيوجب أن نعدّ عدم السواء في جِبِلَّتهم الجنسية آخر صدى من أصداء الوراثة الزهرية. ولكن بدون أن أزعم أن التحدر من أبوين زهريين هو الشرط الإتيولوجي النظامي واللازم لجِبِلَّة عصابية، فإني أعتقد أن الترابطات التي لاحظتها ليست بنت الصدفة، ولا عديمة الدلالة.

أما فيما يتصل بالمعطيات الوراثية لدى المنحرفين الإيجابيين فإن معرفتنا بشروطها أوهى، لأنه يعزّ أصلاً على طرائقنا في الاستقصاء أن تطالها. ومع ذلك، لدينا أسباب وجيهة للافتراض بأن ما يصدق على الأعصبة يصدق أيضاً على الانحرافات. وبالفعل، كثيراً ما نلتقي في الأسرة الواحدة حالات انحرافية وأعصبة نفسية متوزعة بين كلا الجنسين على النحو التالي: فالذكور ـ أو واحد منهم على الأقل ـ مصابون بانحراف موجب، بينما تعاني الإناث، طبقاً لميل جنسهن إلى الكبت، من انحراف سالب، أي الهستيريا. وهذا دليل بيِّن على الروابط الجوهرية التي تحققنا من وجودها في هذين النوعين من الاضطرابات المَرَضية.

التشكُّل اللاحق ـ على أننا لا نستطيع مع ذلك أن نذود عن التصور القائل إن



عمل المقوِّمات المختلفة للجِبِلَّة الجنسية هو وحده الذي سيحدِّد الشكل الذي ستتخذه الحياة الجنسية. فالمشروطية تتواصل وتمضي قدماً إلى الأمام، وثمة احتمالات أخرى تظهر إلى حيِّز الوجود تبعاً في كل مرة للمصير الذي تؤول إليه التيارات الجنسية الصادرة عن هذا المصدر أو ذاك. وعليه، إن هذا **التشكل اللاحق** هو العنصر الحاسم في محصلة الحساب، بينما يمكن لجِبِلَّة موصوفة من قبل بأنها متماثلة أن تفضي إلى ثلاثة مآلات نهائية مختلفة:

١ ـ فإن حافظت جميع الاستعدادات على علاقة واحدة فيما بينها (وقد حددناها بأنها غير سوية) وقويت مع النضج، تكن النتيجة الممكنة الوحيدة حياة جنسية منحرفة. وصحيح أن هذه الاستعدادات الجبلِّية غير السويّة لم تخضع بعد لتحليل معمَّق، إلا أننا نعرف مع ذلك حالات يمكن تفسيرها بسهولة في إطار هذه الفرضية وحدها. وهكذا يرتئي بعض المؤلفين أن طائفة بكاملها من الانحرافات التثبيتية تفترض بالضرورة وجود ضعف فطري في الدافع الغريزي الجنسي. ولا يبدو لي هذا الرأي قابلاً للأخذ به في صورته الحالية، وإنما يكون خصباً إن طُبِّق مصطلح (الضعف الفطري) على عامل جِبِلِّي بعينه من العوامل الغريزية الجنسية، أعني المنطقة التناسلية التي ستقع على عاتقها فيما بعد وظيفة التنسيق بين هذه التظاهرات الجنسية التي تكون لا تزال متفرقة والتأليف فيما بينها لهدف الإنسال. وبالفعل، إن الاندماج الذي كان يفترض به أن يتمّ وقت البلوغ لا يمكن له إلا أن يفشل، والمقوِّم الأقوى بين المقوِّمات الجنسية الأخرى هو الذي سيفرض في هذه الحال فاعليته في صورة انحراف[٢].

٢ ـ **الكبت** ـ ويكون ثمة مآل آخر إذا تعرضت بعض المقوِّمات الجنسية، التي نتكهن بأنها مفرطة في القوة، لعملية **كبت** في أثناء النمو؛ والكبت كما قلنا لا يعني البتة الزوال والاضمحلال. فالتنبيهات تحدث الآن كما كانت تحدث من قبل، لكنها تتحول عن هدفها بفعل عائق نفسي، وتسلك طرقاً أخرى إلى أن

٢ ـ [كثيراً ما نلاحظ، في مستهل مرحلة البلوغ، وجود تيار من الجنسية السويّة، لكنه أضعف من أن يقاوم أولى العقبات التي تقابله من الخارج، فيتبدد ويحلّ محله نكوص يفضي بدوره إلى انحراف] (أضيف سنة ١٩١٥).



تفصح عن نفسها في صورة أعراض. والحق أنه قد تنجم عن ذلك حياة جنسية شبه سوية ـ وفي الغالب محدودة ـ مع تكملة لها في صورة مرض عصابي نفسي. وهذه الحالات تحديداً هي التي أصبحت مألوفة لدينا بنتيجة الفحوص التحليلية النفسية للمعصوبين. فالحياة الجنسية تبدأ عند هؤلاء كما تبدأ عند المنحرفين، إذ إن شطراً واسعاً من طفولتهم يكون قد استغرقه نشاط جنسي انحرافي، وهو نشاط قد يمتدّ أحياناً إلى ما بعد زمن البلوغ؛ وبعد ذلك، ولأسباب داخلية، يحدث من جراء الكبت انقلاب، ويكون ذلك بوجه عام قبل البلوغ، لكنه قد يحدث في بعض الأحيان أيضاً بعده بكثير؛ ومنذئذ، ومن غير أن تنطفئ النوازع القديمة، يحلّ العصاب محلّ الانحراف. وهو ما يذكّرنا بالمثل القائل: (**بغي في الصبا، وراهبة في المشيب**)، ولو أن أجل الصبا لم يكن في الحالة التي نحن بصددها مديداً؛ وهذا الحلول للعصاب محل الانحراف في حياة الفرد، وتوزع الحالات الانحرافية والعصابية بين أفراد الأسرة الواحدة، كل ذلك ينبغي إرجاعه إلى واقع أن العصاب هو الصورة السالبة للانحراف.

٣ ـ **الإسماء** ـ قد يكون هناك مآل ثالث لاستعداد جِبِلّي غير سويّ يتمثل في سيرورة «**الإسماء**». فالتنبيهات المفرطة في قوتها والنابعة من مصادر مختلفة للجنسية تجد لها متصرَّفاً واستخداماً في مجالات أخرى، بحيث تتمخَّض الاستعدادات الخطرة بحدّ ذاتها في البداية عن زيادة لا يستهان بها في الإنتاجية النفسية. وذلك هو أحد مصادر النشاط الفني؛ والحال أن تحليل طباع الأفراد الموهوبين والمحبوِّين باستعداد فني قمينٌ بأن يكشف عن تنوع في العلاقات بين الإبداع والانحراف والعصاب، تبعاً لكون الإسماء كاملاً أو ناقصاً. ويبدو أن القمع عن طريق **التشكيل الارتجاعي** ـ الذي رأينا أن آثاره الأولى تبدأ بالظهور في مرحلة الكمون وقد يستمر مدى الحياة إن كانت الظروف مؤاتية ـ ينبغي أن يُعدّ ضرباً من الإسماء[٣]. وإن ما نسمِّيه بـ«الطبع» لدى فرد من الأفراد مبنيٌّ إلى

٣ ـ التشكيل الارتجاعي: مصطلح تحليلي نفسي يشار به إلى سمة من سمات الطبع أو إلى نمط تكراري من السلوك يعتمده الشعور كآلية دفاعية لمعارضة تحقيق رغبة لاشعورية. وينمّ التشكيل الارتجاعي عن نفسه لدى العصابيين الوسواسيين بتصلب في شخصية المريض في مواقفه الأخلاقية، وهو تصلب قد يخفي وراءه شهوة محظورة من طراز سادي شرجي في الغالب. «م».



حدّ كبير من مواد الإثارات الجنسية، ويتكون من دوافع غريزية مثبَّتة منذ الطفولة، ومن أبنية تشيَّد بطريق الإسماء، ومن إنشاءات أخرى مرصودة لقمع النوازع الانحرافية ـ التي يكون قد اتضح أنها غير قابلة للاستعمال ـ قمعاً ناجعاً[٤]. ومن ثم قد يباح لنا القول إن الاستعداد الجنسي الانحرافي عموماً لدى الطفل يمكن أن يُعدّ مصدر سلسلة بكاملها من فضائلنا، وذلك بقدر ما يكون هو الذي أعطى إشارة البدء بإنتاجها عن طريق التشكيل الارتجاعي[٥].

الخبرات المعاشة العارضة ـ بالقياس إلى السيرورات التي عددناها: الاندفاعات الجنسية الجامحة وضروب الكبت والإسماء (ونحن على جهل مطبق بالآلية الداخلية للسيرورتين الأخيرتين)، تبدو جميع المؤثرات الأخرى ثانوية الأهمية. ومن يعتبر الكبت والإسماء وجهاً من الاستعدادات الجبلِّية للفرد وتعبيراً حيّاً عنها، جاز له القول إن الصورة النهائية التي تؤول إليها الحياة الجنسية هي في المقام الأول حصيلة جِبِلَّة فطرية. لكن لا يسع أحداً محبواً بالقدر الكافي من البصيرة أن يماري في أنه يتعيَّن علينا، حتى وإن سلَّمنا بهذا التشابك من العوامل، أن نفسح مكاناً لبعض المؤثرات المرتبطة بخبرات عارضة سواء أعرضت للمرء في طفولته أم في زمن لاحق. [وليس من السهل تقدير أهمية كل من العوامل الجبلِّية والعوامل العارضة. ودائماً ما نميل من الناحية النظرية إلى المبالغة في شأن الأولى، بينما ترجح كفة الثانية في أثناء الممارسة العلاجية. ومهما يكن من أمر، فليس يجوز لنا أن ننسى أن ما بين هاتين السلسلتين من العوامل تعاوناً لا تنافياً. فالعامل الجبِلِّي بحاجة إلى خبرات معاشة كيما يؤدي دوره؛ والعامل العارض لا يستطيع أن يفعل فعله إلا بالارتكاز إلى جِبِلَّة معيَّنة. وبوسعنا، في أكثر الحالات، أن

٤ ـ [لقد أمكن التثبُّت من أن بعض السمات الطبعية ليست منقطعة الصلة هي ذاتها بمقوِّمات شهوية محددة. ومن ذلك أن العناد والتقتير وحب النظام قابلة للإرجاع إلى نشاط المنطقة الشهوية الشرجية. أما الاستعداد الإحليلي ـ الشهوي القويّ فيتولد عنه الطموح] (أضيف سنة ١٩٢٠).

٥ ـ يصف لنا إميل زولا، بما له من معرفة ثاقبة بالطبيعة البشرية، في روايته **فرح الحياة** فتاة تضحي عن طيب خاطر وبتجرد مطلق عن الغرض بكل ما تملكه وبكل ما كان يمكن أن تطالب به، وبثروتها وأعزّ مطامحها، في سبيل من تحبّ، بدون أن تفكر بالثواب. هذه الفتاة كانت تستحوذ عليها في طفولتها حاجة لا يروى لها غليل إلى الحب، لكن هذه الحاجة عينها هي التي دفعت بها إلى ارتكاب فعل بالغ القسوة حينما وجدت نفسها مرة وقد أوثرت عليها فتاة أخرى.



نتخيَّل «سلسلة متتامّة» تعوِّض فيها الشدّة المتزايدة لأحد العاملين عن الشدّة المتناقصة للعامل الآخر؛ على أنه لا يجوز بحال من الأحوال اتخاذ ذلك ذريعة لنفي وجود حالات قصوى عند طرفي السلسلة.

ونكون أكثر توافقاً مع البحث التحليلي النفسي إن جعلنا لخبرات الطفولة الأولى مكانة الصدارة بين سائر العوامل العارضة. فالسلسلة الإتيولوجية تنقسم إلى سلسلتين: أولاهما هي السلسلة **الاستعدادية**، والثانية السلسلة **النهائية**. وفي أولى السلستين يتضافر تأثير كل من الجِبِلَّة والخبرات المعاشة في الطفولة، مثلما يتضافر في ثانيتهما تأثير الاستعدادات والخبرات الرضّية اللاحقة. ويكون من نتيجة جميع الظروف غير المؤاتية للنمو الجنسي حدوث **نكوص**، أي رجوع إلى طور سابق من النمو] (أضيف سنة ١٩١٥).

و الآن لنواصل تعداد العوامل التي أقررنا بأن لها أثرها في النمو الجنسي، سواء أمثَّلت قوى فعالة أم مجرد تعابير عن هذه القوى.

النضج المبكر ـ لنذكر بين جملة العوامل الهامة التبكير الجنسي التلقائي الذي نلتقيه دواماً في إتيولوجيا الأعصبة، رغم أنه قد لا يكون كافياً بحدّ ذاته (مثله مثل أي عامل آخر) لتشغيل السيرورة المرَضية. ويتجلى التبكير في ما يطرأ على مرحلة الكمون من انقطاع أو اختصار أو إلغاء، ويتسبب في حدوث اضطرابات باستثارته تظاهرات جنسية منطبعة حتماً بطابع انحرافي ـ وهذا سواء نتيجة لضعف تمخُّض ضروب الكفّ الجنسي من جهة أولى، أو لضعف نمو الجهاز التناسلي من الجهة الثانية. وهذه الاستعدادات للانحراف قد تبقى كما هي، أو قد تصير، بعد الكبت، هي المحركات الغريزية للأعراض العصابية. وعلى أية حال، إن النضج الجنسي المبكِّر يزيد من صعوبة سيطرة الهيئات النفسية العليا على الدافع الغريزي الجنسي على نحو ما هو مطلوب في طور لاحق من العمر، كما أنه يزيد من قوة الطابع القهري للتظاهرات النفسية للدافع الغريزي الجنسي. وكثيراً ما يقترن التبكير الجنسي بالتبكير العقلي، وبهذه الصفة نلتقيه في طفولة أنبغ الناس وأكثرهم قدرة على الإبداع. على أنه لا يبدو في هذه الحالة مسبِّباً للمرض بنفس ما يكون عليه من فاعلية في حال ظهوره منفرداً.



[**العوامل الزمنية** ـ ثمة عوامِل أخرى تتطلب أن نأخذها بعين الاعتبار وأن نصنِّفها ـ إلى جانب النضج المبكر ـ في عداد العوامل «**الزمنية**». ويبدو أن التطور السلالي هو ما حدّد التعاقب الذي تنشط بموجبه الحاثات الغريزية المتنوعة، وكذلك مدة تظاهرها، قبل أن تختفي تحت تأثير حاثة غريزية تقتحم الساح حديثاً أو بنتيجة كبت نموذجي. ومع ذلك يبدو أن ثمة تنوعات في هذا التعاقب الزمني كما في مدته، وهي تنوعات قد تكون حاسمة الأثر من حيث المحصلة النهائية. فلا يستوي أن يظهر تيار بعينه قبل التيار المعاكس له أو بعده، إذ يتعذر في هذه الحال إلغاء مفعول الكبت. ذلك أن التفاوت الزمني في تجميع العناصر يستتبع بانتظام تغيُّراً في النتيجة. ومن جهة أخرى، إن بعض الحاثات الغريزية التي تظهر بقوة بالغة الشدة قد تختفي أيضاً بسرعة مدهشة للغاية. ومن هذا القبيل التعلق الجنسي الغيري الذي يبديه في أول الأمر من سيصير لاحقاً من الجنسيين المثليين السافرين. وميول الطفولة، مهما تلبّس ظهورها طابعاً عنيفاً، لا تبرر الخوف من أن تسيطر سيطرة دائمة على طبع الراشد. فمن الممكن أيضاً أن نتوقع زوالها لتفسح مكاناً للميل المعاكس لها (**فقساة الحكام لا يدوم حكمهم طويلاً**)[٦]. أما الأسباب التي تتحكم بالاختلالات ذات الطابع الزمني في سيرورات النمو فتغيب تماماً عن إدراكنا. وكل ما هنالك أننا نستشفّ عن بعد طائفة من المشكلات البيولوجية، وربما التاريخية أيضاً، بدون أن يكون في مستطاعنا بعد الاقتراب منها إلى مسافة تجعلها في متناولنا] (أضيفت سنة ١٩١٥).

التدبّق ـ مما يزيد من أهمية جميع التظاهرات الجنسية المبكرة وجود عامل نفسي نجهل أصله ولا نستطيع أن نتكلم عنه كمفهوم سيكولوجي إلا بصفة مؤقتة. والمقصود به **التدبُّق** أو قابلية انطباعات الحياة الجنسية **للتثبيت**، وهي صفة نلتقيها لدى المرشحين لاحقاً لأن يصيروا عصابيين أو لدى المنحرفين، ومن الواجب أخذها بعين الاعتبار استكمالاً للمعطيات. وبالفعل، إن التظاهرات

---

٦ ـ قول سائر بالألمانية يُعتقد أن أول من قاله هو الكاتب الروماني والفيلسوف الرواقي سينيكا (١ ـ ٦٥ م). «م».



الجنسية المبكرة عينها لا تُحدِث لدى أشخاص آخرين مثل ذلك التأثير العميق بحيث ترغمهم على تكراره قهرياً وتعيِّن بالتالي لدافعهم الغريزي الجنسي اتجاهاته على مدى الحياة. ولعل أحد الأسباب التي تفسِّر لنا هذا الميل إلى التدبق يتمثل في واقعة سيكولوجية لا يمكن بدونها تعليل الأعصبة، ونقصد بها غلبة الآثار الذاكرية على الانطباعات الحديثة العهد في الحياة النفسية. ومن الجليّ أن هذه الواقعة السيكولوجية تتوقف على درجة النمو العقلي، وتزداد أهمية بازدياد ثقافة الفرد. ولقد قيل عن الإنسان المتوحش إنه «الابن الشقيّ للحظة»(٧). ونظراً إلى العلاقة الضدية بين الحضارة والتطور الحرّ للجنسية ـ ومن الممكن أن نتتبع آثار هذه العلاقة على المدى البعيد في الشكل الذي ستتخذه حياتنا بالذات ـ فإن مجرى حياة الطفل الجنسية لا يكون ذا شأن يذكر بالنسبة إلى الحياة في الأطوار البدائية من الحضارة والثقافة، بقدر ما هو على العكس بالغ الأهمية في الأطوار المتقدمة.

التثبيت ـ والحال أن التأثير الموائم الذي تمارسه العوامل النفسية التي عددناها للتوّ يعضد ويعزِّز الإثارات العارضة في زمن الجنسية الطفلية. فهذه الإثارات (وفي المقام الأول الإغواء على يد أطفال آخرين أو من قبل الراشدين) تخلق حالات جنسية قابلة لأن تتثبت ولأن تتلبس بالتالي طابعاً مَرَضياً دائماً، بمعونة العوامل النفسية التي تقدمت الإشارة إليها. وإن جانباً لا يستهان به من الحيدانات عن الحياة الجنسية السويّة كما يمكن أن تُلاحظ لاحقاً لدى الراشدين المعصوبين أو المنحرفين يكون متحدداً من البداية بانطباعات وخبرات تعرضوا لها في أثناء الطفولة التي تُعدّ، زعماً، متجردة من الصفة الجنسية. وعلى هذا ينبغي أن ندرج في عداد العلل والأسباب الجِبِلَّة المؤاتية والنضج الجنسي المبكر والميل المتعاظم إلى

٧ ـ بوسعنا الافتراض أن قوة الميل إلى التدبُّق ترجع أيضاً إلى شدة النشاط الجنسي البدني في السنوات السابقة من الحياة(*).

(*) أرجح الظن أن القولة التي يستشهد بها فرويد: «المتوحش هو الابن الشقيّ للحظة» تعود إلى الفيلسوف والمستشرق الفرنسي فولني(١٧٥٧ ـ ١٨٢٠) في كتابه عن «**مناخ الولايات المتحدة الأمريكية وتربتها**» الذي وصف فيه الهندي الأحمر «المتوحش» بأنه «أسير اللحظة» ولا يصدر بالتالي في أفعاله عن أي قانون مسبق. «م».



التدبُّق، وأخيراً الإثارات العارضة للدافع الغريزي الجنسي بفعل مؤثرات خارجية.

يبقى أنه يتعيَّن علينا، في مختتم مباحثنا هذه بصدد اضطرابات الحياة الجنسية، أن نقرّ آسفين بأننا لا نزال أبعد ما نكون عن معرفة ما فيه الكفاية عن السيرورات البيولوجية التي فيها تكمن ماهية الجنسية، وبأنه ليس متاحاً لنا بالتالي أن نصوغ بالاعتماد على معلوماتنا المتفرقة نظرية قادرة على فهم الأحوال السويّة والمرَضية على حدّ سواء.



الحياة الجنسية




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

النصوص التي يتألف منها هذا الكتاب، والتي كتبها فرويد على فترات متفاوتة بين عام ١٩٠٧ و١٩٣١، تمثِّل امتداداً لا غنى عنه **لمباحثه الثلاثة في النظرية الجنسية**، فضلاً عن أنها تعكس التطور الذي أصابته النظرية التحليلية النفسية على امتداد العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وهي ذات أهمية خاصة من منظور الإشكالية التي أثارتها ولا تزال تثيرها الفرويدية: أهي تفسير جنسي أحادي للإنسان وللتاريخ كما انتقدها ولا يزال ينتقدها المنتقدون؟ أم أنها محاولة للقول الصريح في الحياة الجنسية للإنسان التي بقيت إلى زمن فرويد مستبعدة من عالم القول ومعتَّماً عليها؟ وأياً ما يكن من أمر فإن هذه النصوص المجموعة هنا والتي كتبها فرويد متفرقة على مدى ربع قرن تعكس هي نفسها مدى ما أصابته رؤية مؤسس التحليل النفسي لحياة الإنسان الجنسية من تطور وإغناء وحتى من إعادة نظر أحياناً.

وقد كنا اعتمدنا في ترجمة هذه النصوص على الترجمة الفرنسية التي كان قام بها، بالتعاون مع دنيز برجيه، جان لابلانش، المختص الكبير بالمصطلح التحليلي النفسي، والتي تولى اختيارها وإصدارها تحت عنوان **الحياة الجنسية**. ولكن صدور الطبعة الجديدة لمؤلفات فرويد في عشرين مجلداً عن المنشورات الجامعية الفرنسية والتي قام بها فريق عمل جماعي بإشراف جان لابلانش نفسه أتاح لنا إدخال تعديلات على ترجمتنا الأولى تتميَّز بقدر أكبر من التقيُّد بحرف النصوص الفرويدية، فضلاً عن تعضيدها بمزيد من الهوامش، سواء ما اتصل منها بالأعلام أو بالوقائع أو بالمصطلحات التي قد تحتاج إلى إيضاح بالنسبة إلى القارئ غير المتضلِّع من القاموس التحليلي النفسي.

ج. ط




مكتبة
الفكر الجديد

ـ ١ ـ

الشروح الجنسية التي تعطى للأطفال (١٩٠٧) رسالة مفتوحة إلى د. م. فورست[١]

زميلي العزيز

إنك إذ تسألني إبداء رأيي في مسألة «الشروح الجنسية التي تعطى للأطفال»، لا تتوقع مني، على ما أفترض، بحثاً منهجياً جامعاً يستوعب كل ما كتب في الموضوع، على فرط تفصيله، بل تريد أن تعرف الحكم المستقلّ الذي يمكن أن يصدر عن طبيب خصوصي مثلي حمله نشاطه المهني على إيلاء المشكلات الجنسية اهتمامه البالغ. إني أعلم أنك تتبعت باهتمام جهودي العلمية، وأنك لا تنكرني ولا تجبّتي بلا دليل أو برهان، نظير ما يفعل العديد من الزملاء الآخرين، لمجرد أني أرى في الجِبِلَّة الجنسية ـ النفسية وفي التأذيات التي تتعرض لها الحياة الجنسية أهمَّ مصدر للأمراض العصابية الواسعة الانتشار. وإني أعلم أيضاً أنه قد وردت مؤخراً إشارة ودية في مجلتك إلى كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** الذي شرحت فيه تركيب الدافع الغريزي الجنسي والاضطرابات التي يتعرض لها نمو هذا الدافع في مسار تطوره إلى الوظيفة الجنسية بحصر المعنى.

لزام عليّ إذاً أن أجيب عن سؤالك: هل يمكن، بوجه عام، أن نعطي الأطفال شروحاً بصدد الحياة الجنسية؟ وفي أي عمر وبأية صورة نستطيع أن نفعل ذلك؟

---

١ ـ كتب فرويد هذه الرسالة بناء على طلب من الدكتور موريتز فورست الذي كان يترأس تحرير مجلة **الطب الاجتماعي وعلم الصحة** الصادرة في هامبورغ، وقد نشرتها المجلة في عددها الصادر في حزيران/ يونيو ١٩٠٧. «م».



اسمح لي بأن أعترف لك، بادئ ذي بدء، بأني أفهم حقَّ الفهم أن يدور نقاش حول النقطتين الثانية والثالثة، ولكنني لا أفهم إطلاقاً أن يقع خلاف في الآراء بصدد النقطة الأولى. فما الغرض الذي يرمي إليه من يريد أن يخفي عن الأطفال - أو عن المراهقين بالأحرى - مثل تلك الشروح بصدد الحياة الجنسية للكائنات الإنسانية؟ أيخشى أن يوقظ قبل الأوان اهتمامهم بهذه الأمور، قبل أن يستيقظ فيهم هذا الاهتمام عينه من تلقاء نفسه؟ وهل يأمل بهذا الإخفاء أن يحتوي دوافعهم الغريزية الجنسية إلى أن يأتي اليوم الذي يتاح لها فيه أن تسلك الطرق التي يفتحها أمامها النظام الاجتماعي البورجوازي وحده؟ وهل يقصد بذلك أن يؤكد لنا أن الأطفال لن يبدوا اهتماماً بأمور الحياة الجنسية وألغازها، ولا تفهماً لها، ما لم يحرِّضهم على ذلك شخص من الخارج؟ وهل يعتقد أن المعرفة التي ينبغي أن يحجبها عنهم لا يمكن أن تصل إليهم بطريق آخر؟ أم أنه يريدهم فعلاً وجدِّياً أن يحكموا في المستقبل على كل ما يتصل بالجنس كما لو أنه شيء دنيء وشنيع شاء ذووهم ومربّوهم أن يبقوهم بمنأى عنه أطول مدة ممكنة؟

إنني حقاً لا أدري أياً من هذه المقاصد يمكن اتخاذه سبباً لكتمان كل ما يتصل بالجنس عن الأطفال، على نحو ما هو معمول به في الوقت الحاضر. فجميع هذه التعلاَّت سخيفة في نظري، ويصعب عليّ أن أفنِّدها جاداً. غير أني أذكر أني وجدت، بين رسائل المفكر الكبير وصديق الإنسان مولتاتولي Multatuli[2] إلى أسرته، بعض سطور هي بحدّ ذاتها أكثر من جواب:

«هناك في رأيي أشياء هي بالإجمال موضع تكتُّم أكثر مما ينبغي. فمن الحكمة صون طهارة خيال الطفل، لكن ليس الجهل هو ضامن هذه الطهارة. بل إني أعتقد أن إخفاء شيء من الأشياء عن الصبيان والبنات من شأنه أن يزيدهم اشتباهاً في الحقيقة. فبسائق الفضول نرانا نتطلع إلى النفاذ إلى كنه أمور لو وجدنا

---

٢ - مولتاتولي: شاعر ومفكر هولندي موضوعي المنزع (١٨٢٠ - ١٨٨٧). اسمه الحقيقي إدوارد ديكر. لكنه لقَّب نفسه بمولتاتولي، أي باللاتينية «تألمت كثيراً». فضح الظلم الاستعماري الذي كان يتعرض له سكان جاوة الثلاثون مليوناً. كان فرويد يرى أن كبرى مآثره هي أنه استبدل قدر الإغريق بفكرة العقل والضرورة. «م».



من يصارحنا بها دونما إسراف في التفاصيل لما أعرناها اهتماماً كبيراً ولما أثارت اهتمامنا أصلاً. ولو كان بالإمكان الإبقاء على ذلك الجهل، لكنت برغم كل شيء سلّمت بذلك؛ لكن الإبقاء عليه من رابع المستحيلات. فالطفل يتصل بغيره من الأطفال؛ وتوضع بين يديه كتب تدفع به إلى إعمال الفكر؛ وتكتُّم ذويه بصدد ما يكون ـ رغم كل شيء ـ قد اكتشفه لن يزيده إلا توقاً إلى طلب معرفة المزيد. وهذا التوق الذي لا يحظى إلا بتلبية جزئية وخفيَّة يؤجج ضرام القلب ويفسد المخيِّلة؛ وبذلك ينزلق الطفل إلى حمأة الخطيئة على حين يكون الأهل لا يزالون مقيمين على اعتقادهم بأنه لا يعرف شيئاً عن الإثم»[٣].

لست أدري إن كان لأحد أن يبدي في هذا الموضوع أحسن من هذا الرأي، لكن ربما كان في الإمكان أن نضيف إليه إضافة ما. فما يدفع بالراشدين إلى وقوف موقف «التكتم» حيال الأطفال هو بكل تأكيد التحشم المعهود لدى هؤلاء الأهل أنفسهم وشعورهم هم أنفسهم بالخطأ؛ ولكن من المرجح أن وراء ذلك التكتم شيئاً من الجهل النظري من قبلهم، وهو جهل تمكن مكافحته فيما لو قُدِّمت للراشدين بعض الشروح. فالراشدون يميلون إلى الاعتقاد بصفة عامة بأن الدافع الغريزي الجنسي لا وجود له عند الأطفال ولا يعلن عن ظهوره لأول مرة لديهم إلا مع البلوغ، بالتوازي مع نضج الأعضاء التناسلية. وهذا خطأ فاحش، وعليه تترتب عواقب خطيرة فيما يتصل بالنظرية والممارسة على حدّ سواء. والحال أنه من الميسور منتهى اليسر تصحيحه عن طريق الملاحظة والمشاهدة، حتى إن المرء ليأخذه العجب ويتساءل كيف أمكن الوقوع فيه أصلاً. والحقيقة أن الوليد يأتي إلى الدنيا حاملاً معه الجنسية Sexualitat؛ وبعض الأحاسيس الجنسية تصاحب نموه رضيعاً وطفلاً صغيراً؛ والقليل القليل من الأطفال يبقون بمنأى عن الأنشطة والأحاسيس الجنسية قبل البلوغ. ومن يهمّه أن يطَّلع على عرض مفصَّل لهذه الآراء، فبوسعه الرجوع إلى كتابي الآنف الذكر **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، الصادر في فيينا عام ١٩٠٥. ومنه سيعلم أن أعضاء التناسل بحصر المعنى ليست هي الأعضاء الوحيدة في الجسم التي تتولد منها أحاسيس لذِّية

٣ ـ **رسائل مولتاتولي**، نشرها و. سبوهر، ١٩٠٦، م١، ص٢٦.



جنسية، وأن الطبيعة التي لها جانبها من القسر والإجبار قد عملت على أن تكون الأعضاء التناسلية بالذات عرضة لإثارات محتومة في الطفولة الأولى. وهذه الفترة من الحياة، التي يتولّد فيها قدر معيَّن من اللذة الجنسية الحقيقية من جراء تنبيه نقاط معيَّنة في البشرة الجلدية (المناطق **الشهوية**)، أو بفعل نشاط بعض الدوافع الغريزية البيولوجية والإثارة المتبادلة في العديد من الحالات الانفعالية، أقول: هذه الفـترة توصف بأنـها فترة **الإيروسية الذاتية** على حدّ تعبير هافلوك إلِّيس HAVELOCK ELLIS[٤]. وكل ما يفعله البلوغ أنه يعطي الأعضاء التناسلية الأولوية على سائر المناطق والمصادر الأخرى التي تنتج اللذة؛ ومن ثم، إنه يرغم الإيروسية على وضع نفسها في خدمة وظيفة التناسل. وبديهي أن هذه السيرورة قد تعطِّلها ضروب شتى من الكفّ، فلا تقطع كامل شوطها لدى العديد من الأفراد، من المرشَّحين للانحراف والعصاب مستقبلاً. ومن جهة أخرى يستطيع الطفل، قبل إدراكه سنّ البلوغ بزمن مديد، أن ينجز معظم الأفعال النفسية للحياة الحبِّية (الحنوّ، التفاني، الغيرة). وكثيراً ما تصاحب ظهور هذه الحالات النفسية أحاسيس بدنية ناشئة عن الإثارة الجنسية، بحيث لا يعود يخامر الطفل شكّ في ترابط الظاهرتين. زبدة الكلام أن الطفل يكون متهيئاً، قبل البلوغ بزمن طويل، للحبّ، خلا الإنسال؛ وفي مقدورنا القول بوثوق بأن «التكتم» لا يحرمه إلا من القدرة على التحكم عقلياً بأفعال هو مهيَّأ لها نفسياً ومكيَّف لها بدنياً.

إن اهتمام الطفل عقلياً بألغاز الحياة الجنسية وظمأه إلى المعرفة الجنسية يتجليان بالفعل في سنّ مبكرة غاية التبكير. ولئن تعذَّر من قبل التقدُّم على نحو متواتر بمثل الملاحظات التي أتقدَّم بها الآن، فليس ذلك إلا لأن الأهل كانوا وكأنما ضربت على أعينهم غشاوة فأعمتهم عن ملاحظة اهتمام الطفل هذا، أو لأنهم كانوا، إذا تعذر عليهم ألا يلحظوه، يبادرون حالاً إلى قمعه وخنقه. لقد عرفت

٤ ـ هافلوك إلِّيس: طبيب وعالم نفس بريطاني (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩). من مؤسسي علم الجنس. عانى من التزمت في العهد الفكتوري، فقرّر وهو في السادسة عشرة من العمر أن يكرِّس نفسه لدراسة الجنس. وكانت له مراسلات ودية مع فرويد الذي اقتبس منه أصلاً مفهوم الإيروسية الذاتية. من مؤلفاته: **عالم الأحلام، دراسات في علم النفس الجنسي**. «م».



صبياً مدهشاً له من العمر اليوم أربع سنوات كان والداه الفهيمان يحاذران من أن يقمعا بالقوة والعنف جانباً من نموه وتطوره. فقد كان هانز الصغير، الذي لم يتعرض بالتأكيد لمحاولة للتغرير به من قبل حاضنته، يبدي منذ بعض الوقت أعظم الاهتمام بذلك الجزء من جسمه الذي كان يطلق عليه اسم «الفرفورة»[٥]. ولم يكن قد تجاوز ربيعه الثالث يوم سأل أمه: «ماما، هل لك أنت أيضاً فرفورة؟». فأجابته أمه: «بالطبع، وماذا كنت تظن؟». وقد طرح السؤال نفسه على أبيه مرات عدة. وفي ذلك العمر أيضاً، وفيما كان يزور لأول مرة إصطبلاً، وقع نظره على بقرة تُحلب، فهتف مذهولاً: «انظري، إنها تخرج الحليب من الفرفورة». وقبل بلوغه الرابعة بأشهر ثلاثة راح يكتشف من تلقاء نفسه، وبالاعتماد على ملاحظته وحدها، جملة من الوقائع الصحيحة. فقد رأى الماء يخرج من قاطرة فقال: «انظري، القاطرة تفرفر، فأين فرفورتها إذاً؟». واستغرق بعد ذلك في التفكير ثم أضاف قوله: «للكلب والحصان فرفورة! لكن الطاولة والكرسي لا فرفورة لهما». وأخيراً، وفيما كانت أخته الصغرى، ولها من العمر أسبوع واحد، تُحمَّم على مرأى منه، بدرت منه هذه الملاحظة: «إن فرفورتها لا تزال صغيرة. لكنها يوم ستكبر فستكبر هي أيضاً» (وقد نُقل إليّ أن صبياناً آخرين من العمر نفسه يقفون الموقف نفسه تجاه فارق الجنسين). وأودّ هنا أن أدحض دحضاً قاطعاً احتمال أن يكون هانز الصغير طفلاً شهوانياً أو حتى ذا استعداد مسبق للمرض؛ وإنما أعتقد فقط أنه لا يرزح ـ وهو الذي ما خوَّفه أحد ـ تحت وطأة شعور بالذنب، وهو يكاشفنا من ثم بسذاجة وبراءة بما يدور في فكره[٦].

المشكلة الكبيرة الثانية التي تشغل بال الطفل ـ في سن متقدمة قليلاً في أرجح الظن ـ هي التالية: من أين يأتي الأطفال؟ وغالباً ما ترتبط هذه المشكلة بمولد أخ صغير أو أخت صغيرة غير مرغوب فيهما. وهذا واحد من أقدم أسئلة الإنسانية الفتية وأدقِّها؛ ومَن باستطاعته تأويل الأساطير والتقاليد ففي مكنته أيضاً أن يستشفَّه في اللغز

٥ ـ فرفر في لغة الأطفال بال. وفي مصر يقال طرطر. «م».

٦ ـ إضافة سنة ١٩٢٤: انظر بصدد إصابة «هانز الصغير» لاحقاً بالعصاب وشفائه منه بحثي **تحليل رهاب لدى صبي في الخامسة من العمر** (انظر ترجمتنا لهذا النص في المجلد الثالث. «م»).



الذي يطرحه وحش طيبة على أوديب[٧]. والأجوبة التي تعطى عنه في دور حضانة الأطفال تجرح غريزة البحث والتنقيب المستقيمة لديهم؛ وغالباً أيضاً ما تزعزع للمرة الأولى ثقة الطفل في والديه. وعندئذ يشرع بالارتياب بالراشدين وبالاحتفاظ لنفسه بأخصّ اهتماماته وأكثرها صميمية. وبين يديّ وثيقة صغيرة يمكن أن تبيّن لنا كم يعذِّب هذا الظمأ إلى المعرفة في كثير من الأحيان كبار السن من الأطفال: وهي رسالة كتبتْها إلى خالتها فتاةٌ صغيرة لها من العمر أحد عشر عاماً ونصف عام، لا أمَّ لها، بعد أن تداولت في هذه المشكلة مع أختها الأصغر منها سناً:

«خالتي العزيزة مالي،

«أرجو أن تكوني طيبة بما فيه الكفاية فتكتبي لي وتعْلِميني كيف حصلتِ على بنتك كريستل وابنك بول. لا بدّ أنك تعلمين ذلك ما دمت متزوجة. لقد تجادلنا بالأمس بصدد هذا الموضوع ونتمنى حقاً أن نعرف الحقيقة. متى ستأتين إلى سالزبورغ؟ فكما ترين، يا خالتي العزيزة مالي، إننا لا نفهم كيف يأتي اللقلق بالأطفال[٨]. وفي رأي ترودل[٩] أن اللقلق يأتي بهم في قميص. ونودّ بعد ذلك أن نعرف هل فعلاً يأخذهم من المستنقع، ولماذا لا نرى أبداً أطفالاً في المستنقع. أرجوك أن تخبريني أيضاً كيف يعرف الإنسان مسبقاً أنه سيتلقاهم. أجيبيني بصورة مفصَّلة».

«مع ألف تحية وقبلة منا نحن الاثنتين.

«حبيبتك الفضولية ليلي».

لا أعتقد أن هذه الرسالة المؤثرة عادت على الأختين بالإيضاحات المطلوبة. وتلك التي كتبت هذه الرسالة وقعت فيما بعد ضحية ذلك العصاب الذي ينشأ عن أسئلة لاشعورية لم تتلقَّ من جواب، عن أفكار استحواذية تستعاد وتجترّ[١٠].

لا أعتقد أن ثمة سبباً وجيهاً واحداً يبرر الامتناع عن تزويد الأطفال بالشروح التي يتطلبها ظمؤهم إلى المعرفة. صحيح أنه إذا كان قصد المربي أن يقمع في أبكر وقت

---

٧ ـ من هو المخلوق الذي يمشي على أربع صبحاً، وعلى اثنتين ظهراً، وعلى ثلاث مساء؟ «م».

٨ ـ في بعض أقطار الغرب يفسر الأهل سرَّ الولادة للأطفال بأن اللقالق هي التي تأتي بهم. «م».

٩ ـ واضح أن هذا هو اسم الأخت الصغرى. «م».

١٠ ـ غير أن هذا الاجترار حلّ محلَّه، بعد بضع سنوات، خبل مبكر.



ممكن كل محاولة يقوم بها الطفل للاستقلال بتفكيره، وذلك لصالح تلك «الاستقامة» التي يعلي الجميع من كعبها، فأيسر سبيل إلى ذلك أن يضلّله على الصعيد الجنسي وأن يخوّفه في المضمار الديني. ومؤكد أن أصحاب الشكائم القوية من الأطفال يقاومون هذه التأثيرات؛ فهم ينضوون تحت لواء التمرد على سلطة الأهل، ثم على كل سلطة لاحقاً. وإن لم يتلقَّ الأطفال الشروح التي طلبوها ممن هم أكبر سناً منهم، واصلوا في دخيلة أنفسهم تقليب هذه المشكلة على وجوهها وحاولوا أن يشيدوا فرضيات للحلّ تختلط فيها الحقيقة، التي حدسوا بها، اختلاطاً يسترعي الانتباه بالخطأ الفاضح. أو نراهم يتهامسون فيما بينهم بمعلومات تدمغ الحياة الجنسية، بسبب شعور الإثم الذي يعتمل في نفوس هؤلاء الباحثين الصغار، بطابع الرهبة والبشاعة. وهذه النظريات الجنسية الطفلية جديرة بأن تُجمع وتدرس. ومنذ ذلك الحين يفتقد معظم الأطفال الموقف الصحيح الوحيد من المسائل المتصلة بالجنسية، والكثيرون منهم لا يعودون إليها بعدئذ أبداً.

يلوح أن الغالبية الكبرى من المؤلفين، من ذكور وإناث، ممن كتبوا حول مسألة الشروح الجنسية التي تعطى للصغار قد وقفوا موقف التأييد منها. لكن أكثرية المقترحات التي تتناول الكيفية التي ينبغي أن تعطى بها هذه الشروح والزمان الذي ينبغي أن يتمّ فيه ذلك تتّسم بالخرَق الفاضح، حتى إن المرء لينزع إلى الاستنتاج بأن هذا التنازل لم يكن سهلاً على المعنيين. ولست أعرف من كل ما كُتب في الموضوع سوى استثناء واحد: تلك الرسالة التفسيرية اللطيفة التي تزعم سيدة تدعى إيما إكشتاين ECKSTEIN[11] أنها كتبتها لابنها الذي له من العمر حوالي عشر من السنين[12]. ومن المؤكد، من جهة أخرى، أن حجب كل معرفة

١١ - إيما إكشتاين: مريضة مشهورة في تاريخ التحليل النفسي إذ تولى فرويد نفسه معالجتها يوم كان لها من العمر سبعة وعشرون عاماً. ولدت في فيينا سنة ١٨٦٥ وتوفيت سنة ١٩٢٤ من أسرة فييناوية نبيلة ولكن ذات تقاليد اشتراكية، وشاركت بنشاط في الحركة النسوية النمساوية. استشارت فرويد في عام ١٨٩٢ بخصوص آلام معوية وحالة اكتئابية أثناء المحيض. وقد وجّه فرويد مريضته نحو صديقه الطبيب فلهلم فليس المختص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة. وإذ شخّص لديها هذا الأخير ارتباطاً جسمياً ونفسياً بين العضو التناسلي والأنف، أجرى لها عملية جراحية، ولكنه نسي الميسم (أداة الكي) في أنفها، فأصيبت بتشوه دائم في وجهها. مارست التحليل النفسي بنفسها لفترة من الزمن وانتمت إلى الحركة النسوية. وقد أصدرت في عام ١٩٠٤ كتاباً عن تربية الأطفال. «م».



بالمضمار الجنسي عن الأطفال لأطول مدة ممكنة، ثم مكاشفتهم ذات يوم على حين بغتة بنصف الحقائق، وبلغة مفخَّمة ومتشدِّقة، ليس هو الطريقة الصالحة. وإن أغلب الأجوبة عن السؤال الذي فحواه: «كيف أخبر طفلي بذلك؟» تترك في نفسي، أنا على الأقل، انطباعاً مكرباً أحبِّذ معه لو أن الأهل لم يأخذوا على عاتقهم إطلاقاً تقديم هذه الشروح. وأهمّ ما في الأمر ألا يصل الأطفال أبداً إلى الاعتقاد بأن ذويهم يريدون أن يخفوا عنهم وقائع الحياة الجنسية وحدها دون سواها من الوقائع التي ليست في متناول أفهامهم بعد. ولهذا يتعيَّن في المقام الأول أن تُعالج المسائل التي تتصل بالجنسية من بادئ الأمر مثلما تعالج سائر الأمور الجديرة بأن تُعرف. وعلى عاتق المدرسة تقع المهمة الأولى: فبدلاً من أن تتحاشى كل ما له صلة بالأمور الجنسية يجب عليها، على العكس من ذلك، أن تدرج في برنامجها التعليمي الخاص بعالم الحيوان جميع وقائع التناسل بكل أهميتها وخطورتها وأن تلحّ على حقيقة أن الإنسان يشاطر الحيوانات العليا في وظائفه الرئيسية كافة. وبعد ذلك، وإن امتنع الأهل في البيت عن بثّ خوف التفكير في نفوس أولادهم، فلن يندر أن يتكرر بتواتر غالب ما كنت استرقت السمع إليه مرة في إحدى غرف نوم الأطفال: فقد انهال صبي صغير بالتأنيب على أخته الأصغر منه قائلاً: «كيف يخطر لك أن تتصوري أن اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال الصغار؟ فأنت تعلمين أن الإنسان حيوان ثديي. فهل تعتقدين إذاً أن اللقلق يأتي للثدييات الأخرى بأطفالها؟». إن فضول الطفل لن يصل أبداً إلى مستوى أعلى مما ينبغي إن أُحسن إشباعه على نحو موائم في كل مرحلة من مراحل التعليم. وعلى هذا الأساس ينبغي، عند نهاية التعليم الابتدائي (وقبل الانتقال إلى التعليم الثانوي)، أي بعد ختام الطفل السنة العاشرة من عمره، أن يجري تنويره بصدد جميع التظاهرات النوعية للجنسية عند بني الإنسان، مع التوكيد في الوقت نفسه على مدلولها الاجتماعي. وسنّ التثبيت[١٣] هو أخيراً أنسب فترة لتعليم الطفل ـ بعد أن يكون قد اطَّلع اطلاعاً تاماً على كل ما له صلة

١٢ ـ إيما إكشتاين: **المسألة الجنسية في تربية الأطفال**، ١٩٠٤.

١٣ ـ التثبيت أو سر الميمون عند المسيحيين: طقس ديني يقام للطفل في أعمار مختلفة بحسب التقاليد، وقبيل البلوغ عند بعض الأوروبيين لتثبيت معموديته. «م».



بالجسد ـ الواجبات الأخلاقية المقيّدة لإشباع الدوافع الغريزية. وهكذا يلوح لي أن هذه الخطة في شرح أمور الحياة الجنسية للطفل، التي يتمّ تنفيذها مرحلة مرحلة وبتواصل لا انقطاع فيه ـ على أن تتولى المدرسة هذه المبادرة التثقيفية ـ هي أحسن طريقة ممكنة إذ تأخذ في حسبانها نموَّ الطفل وتتفادى بذكاء الأخطار المحتملة.

وإني لأرى أن أهمّ تقدُّم تمّ إحرازه في مضمار تربية الطفل كان في فرنسا حيث أحلَّت الدولة محل كتاب التعليم الديني كتاباً في المبادئ العامة يزوِّد الطفل بالمعلومات الأولى عن وضعيته المدنية وعن الواجبات الأخلاقية التي ستقع على عاتقه مستقبلاً. بيد أن تعليم المبادئ العامة هذه فيه من جوانب النقص ما يدعو إلى الأسف، وذلك من حيث أنه لا يحيط أيضاً بميدان الحياة الجنسية. وهذه ثغرة يتعيَّن على المربين والمصلحين أن يعملوا على سدِّها! وبديهي أن شيئاً من هذا لا يمكن أن نطمح إليه في البلدان التي لا تزال التربية فيها بصورة كاملة أو جزئية بين أيدي رجال الدين. فرجل الدين لن يسلِّم أبداً بالتشابه في الماهية بين الإنسان والحيوان، لأنه لا يستطيع أن يتنازل عن فكرة خلود النفس التي هو بأمسّ الحاجة إليها ليقيم المطلب الأخلاقي على أساس مكين. وهكذا يتضح لنا مرة أخرى كم نبعد عن الحكمة لو ارتضينا بسياسة الترقيع، وكم يتعذر إنجاز إصلاح منفرد في جانب من الجوانب بدون تغيير أسس النظام برمّته.




مكتبة
الفكر الجديد

ـ ٢ ـ

عن النظريات الجنسية الطفلية
(١٩٠٨)

إن المادة التي بنينا عليها الأطروحة التي ستلي جاءت من مصادر عدة. أولاً، من الملاحظة المباشرة لما يقوله الأطفال ويفعلونه؛ ثانياً، مما يدلي به العصابيون الراشدون من خلال ما يسوقونه في أثناء المعالجة التحليلية النفسية من ذكريات شعورية يحتفظون بها في عهد طفولتهم؛ ثالثاً وأخيراً، من استنتاجات وفروض وذكريات لاشعورية تساق إلى الشعور ويتمّ الحصول عليها بواسطة التحليل النفسي للعصابيين.

إن يكن أول هذه المصادر الثلاثة غير كافٍ بحدّ ذاته لنقيم على أساسه معرفة كاملة بموضوعنا، فإنما ذلك بسبب سلوك الراشدين إزاء حياة الأطفال الجنسية. فهم لا يقرّون لهم بأي نشاط جنسي، وبالتالي لا يجشّمون أنفسهم مشقّة ملاحظته لديهم، ويقمعون من الجهة الأخرى ما قد يسترعي الانتباه من تظاهرات هذا النشاط عينه. وهذا ما يضيّق علينا السبيل إلى الاستقاء من معين هذا المصدر الذي هو أصفى المصادر وأغزرها. أما فيما يتصل بالمعلومات البريئة عن كل تأثير، التي يزوِّدنا بها الراشدون بصدد ذكرياتهم الطفلية الشعورية، فمن الممكن توجيه اعتراض جوهري إليها، وهو أنه ربما أصابها تزوير استرجاعي؛ غير أن هذه المادة سيجري تقييمها، على كل حال، على ضوء واقعة محددة، وهي أن أولئك الذين يقدِّمونها لنا كافلين صحَّتها قد سقطوا هم أنفسهم ضحية العصاب. أما مادة ثالث المصادر فستنهال عليها كل الانتقادات المعهودة: فالتحليل النفسي ليس مما يوثق به، كما لا يمكن التسليم بصحة الاستنتاجات التي ينتهي إليها. ولا يسعني هنا بطبيعة الحال أن أضع على حجر المحك صحة مثل هذا الحكم. ولكن يسعني



بالمقابل أن أؤكد أن جميع أولئك الذين يعرفون التقنية التحليلية النفسية ويمارسونها يثقون ثقة كبيرة بنتائجها.

لست مستطيعاً أن أجزم أن نتائجي كاملة، لكن في مقدوري فقط أن أنوِّه بما بذلته من جهد للظفر بها.

تبقى مسألة شائكة، وهي أن نقرر إلى أي مدى يباح لنا أن نعزو إلى الأطفال جميعاً، أي إلى كل طفل على حدة، ما ننقله هنا عن الأطفال بصفة عامة. فمن المحقق أن ضغط التربية وتفاوت شدة الدافع الغريزي الجنسي يمكن أن يتمخضا عن فروق فردية كبيرة في سلوك الطفل الجنسي، وأن أثرهما سيبرز بوجه خاص في الزمن الذي يظهر فيه اهتمام الأطفال بالجنس. ولهذا لم أقسم عرضي هذا بحسب أطوار الطفولة المتعاقبة، بل أعدت تجميع ما يؤتي مفعوله في زمن متفاوت التبكير تبعاً للأطفال. وإني لعلى اقتناع على كل حال بـأن ما من طفل - إن كان على الأقل صحيح العقل وكم بالأحرى إن كان على قدر مرموق من الذكاء - إلا وتشغله المشكلات الجنسية في سنوات **ما قبل البلوغ**.

إني لا أعير اهتماماً يذكر للاعتراض الذي يزعم أن العصابيين يؤلفون فئة خاصة من الأفراد يتسم المنتمون إليها بجِبِلَّة انحطاطية وينبغي الامتناع بالتالي عن استخلاص نتائج معيَّنة من طفولتهم لتعميمها على طفولة سائر الأفراد. فالعصابيون أشخاص كغيرهم من الناس، وليس من الميسور دائماً تمييزهم بسهولة في طفولتهم عمن سيبقون في طور لاحق من العمر أصحاء معافين. وإن واحدة من أثمن النتائج التي أوصلتنا إليها مباحثنا التحليلية النفسية هي أن العصابيين لا ينطوون على مضمون نفسي خاص، وقف عليهم دون سواهم، بل إن العقد التي تتسبب في مرضهم، كما يقول ك.غ يونغ[1]، هي العقد عينها التي نقاومها

---

١ - كارل غوستاف يونغ: طبيب نفسي سويسري (١٨٧٥ - ١٩٦١). عمل في أول الأمر مع جانيه وبلولر، ثم مع فرويد. وقد أسس في سنة ١٩١٠ **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**. والصداقة التي توثقت عراها بينه وبين فرويد رشَّحته لأن يكون خليفته في يوم من الأيام. لكنه ما لبث أن اختلف مع فرويد(١٩١٢) إلى حدّ القطيعة. وقد صبّ جهوده على دراسة الرمزية والميتولوجيا والظاهرات الثقافية. وقال بـ «اللاشعور الجمعي»، وفسّر الليبيدو على أنه الطاقة الحيوية، لا الطاقة الجنسية فحسب. وكان هو الذي أوجد مصطلح «العقدة» الذي ذاع تداوله في التحليل النفسي. «م».



ونكافحها، نحن الأصحاء الأسوياء من الناس. والفارق الوحيد أن الأشخاص الأصحاء يعرفون كيف يسيطرون على هذه العقد دونما أضرار جسيمة قابلة عملياً للكشف عنها، بينما لا يفلح العصابيون في قمع هذه العقد إلا مقابل تشكيلات بديلة باهظة الكلفة، أي أنهم لا يفلحون في ذلك عملياً. أضف إلى هذا أن العصابيين والأسوياء أقرب إلى بعضهم بعضاً في طفولتهم مما سيكونون عليه في طور لاحق، بحيث لا أستطيع أن أزعم أنه خاطئ ذلك المنهج الذي يفيد مما يقوله العصابيون عن طفولتهم ليستخلص، قياساً عليها، استنتاجات بصدد الحياة الطفلية السوية. ولكن بما أن عصابيي الغد يشفّون في جِبِلّاتهم في أكثر الأحيان عن دوافع غريزية جنسية بالغة القوة وعن نزوع إلى التبكير، أي إلى التعبير قبل الأوان عن هذه الدوافع الغريزية، فإنهم سيتيحون لنا أن نعاين على نطاق واسع النشاط الجنسي الطفلي، وعلى نحو أحدّ وأجلى مما هو متاح في العادة لمقدرتنا على الملاحظة في قبالة غيرهم من الأطفال. ومهما يكن من أمر، فإنه سيعزّ علينا أن نقدِّر القيمة الفعلية للمعلومات التي يزوِّدنا بها راشدون عصابيون ما لم نتلقَّ ونجمع أيضاً ذكريات طفولة الأصحاء من الراشدين، على منوال ما فعل هافلوك إلِّيس(٢).

إن ظروفاً خارجية وداخلية غير موائمة قضت بأن تكون المعلومات التي سأعرضها هنا متصلة بصورة رئيسية بالتطور الجنسي لجنس واحد، هو الجنس المذكر. غير أن عرضاً كهذا الذي أقوم به هنا لا يقتصر بالضرورة على قيمته الوصفية الخالصة. فمعرفة النظريات الجنسية الطفلية، ومعرفة الأشكال التي تتلبسها في دماغ الأطفال، يمكن أن تكون مفيدة من أكثر من زاوية، بل مفيدة أيضاً إلى حدّ مدهش في تفهمنا للأساطير والحكايات. على أن معرفة كهذه لا غنى عنها على الإطلاق لتصور طبيعة الأعصبة بالذات: فهنا تبقى النظريات الطفلية سارية المفعول ويكون لها نصيب غالب في الشكل الذي ستتجلى به الأعراض.

* * *

٢ ـ الإحالة هنا إلى كتاب هافلوك إلِّيس: **دراسات في علم النفس الجنسي**، المجلد الثالث: **تحليل الدافع الجنسي؛ الحب والألم؛ الدافع الجنسي لدى النساء**. فيلادلفيا ١٩٠٣. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



لو كان فِي مقدورنا أن ننعتق من شرطنا الجسماني، وأن نرى، وقد تحوّلنا إلى كائنات مفكِّرة خالصة قدمت ـ مثلاً ـ من كوكب آخر، إلى أشياء عالمنا هذا بعيون جديدة، فلربما لن يستوقف انتباهنا شيء كأن نعاين وجود جنسين بين الكائنات البشرية؛ جنسين يضخمّان، على **تشابههما** العظيم، الفروق بينهما بالأمارات والعلامات الخارجية. والحال أنه لا يلوح أن الأطفال يختارون هم أيضاً هذه الواقعة الأساسية منطلقاً لأبحاثهم بصدد المشكلات الجنسية. فبما أنهم يعرفون آباءهم وأمهاتهم منذ أقدم زمن يمكن أن تعيه ذاكرتهم، فإنهم يسلِّمون بوجودهم كواقع لا مجال لمزيد من التنقيب فيه. والصبي يسلك المسلك نفسه إزاء أخت صغيرة له لا يفصلها عنه سوى فارق طفيف في السنّ لا يتعدى السنة أو السنتين. وفي حال كهذه لا يستيقظ فضول الأطفال إلى المعرفة من تلقاء نفسه كما لو أنه حاجة طفلية إلى السببية، وإنما تشحذه الدوافع الغريزية الأنوية التي تسيطر عليهم متى ما وجدوا أنفسهم ـ لنقل بعد ختام سنتهم الثانية ـ في مواجهة طفل جديد يأتي إلى الدنيا. أما الأطفال الذين ما وقع نظرهم قط على طفل غريب جاء يحتل مكانه بدوره في غرفة نومهم، فإنهم قادرون بدورهم، بما يتأتى لهم أن يلاحظوه في بيوت أخرى، على أن يضعوا أنفسهم في الموقف نفسه. وبانتهاء تلك المرحلة التي كان فيها والدا الطفل يقفان عليه كل عنايتهما، وسواء أعاش هذه النهاية فعلاً أم توجس منها خفية بحقٍّ، فإن إرهاصه بأنه سيتوجّب عليه من الآن فصاعداً، وإلى الأبد، أن يشاطر القادم الجديد كل ما يملكه سيوقظ لديه، ولا بدّ، حياته العاطفية وسيشحذ قدرته على التفكير. ويبدي الطفل الأكبر سناً حيال مزاحمه عداء لا يخفي نفسه، بل يفرَّج عنه من خلال أحكام لا دماثة فيها ولا وداعة، ومن خلال رغبات كهذه: «ليأخذه اللقلق»، وما شابه؛ وقد لا يحجم حتى عن محاولة الاعتداء على حياة ذلك الراقد في مهده الذي لا حول له ولا قوة. وبصفة عامة، إن كان فارق العمر كبيراً جاء التعبير عن هذا العداء الأولي أقلَّ حدّة؛ كذلك، إذا ما تقدم العمر بالطفل قليلاً ولم يأتِه أخ أو أخت، فقد ترجح لديه كفة الرغبة في رفيق يشاركه اللعب، على نحو ما تأتّى له أن يلحظ ذلك في بيوت أخرى.



بحافز من هذه المشاعر ومن هذه الهموم، يطفق الطفل ابتداء من ذلك الحين بالاهتمام بالمشكلة الحياتية الأولى والكبرى ويطرح على نفسه السؤال التالي: **من أين يأتي الأطفال؟** وهو سؤال يعني في الحقيقة أول ما يعني: من أين جاء، بوجه خاص، هذا الطفل الذي عكّر عليَّ صفوي؟ وإن صدى هذا السؤال/ اللغز الكبير يترجَّع، على ما يتراءى لنا، في عدد كبير من ألغاز الأساطير والخرافات؛ بل إن السؤال نفسه هو، مثله مثل كل بحث، نتاج لضرورات الحياة، كما لو أن الفكر أنيطت به مهمة تلافي تكرار تلك الخبرات التي هي مبعث جزع شديد. لكن لنفرض أن فكر الطفل انعتق بسرعة من تأثير المشاعر والهموم، وتابع اشتغاله كغريزة بحث وحب استطلاع مستقلة. فإن لم يكن الطفل تعرَّض لتخويف مبالغ فيه، فإنه مهتدٍ عاجلاً أو آجلاً إلى الطريق الأقصر: طلب جواب من والديه أو من الأشخاص الذين يمثِّلون بالنسبة إليه مصدر العلم والمعرفة. لكن هذا طريق مسدود. فالطفل يفوز إما بجواب تهربي وإما بتوبيخ على رغبته في المعرفة، أو قد يتمّ التخلص منه بجواب ذي بُعد ميتولوجي مؤداه، كما الحال في البلدان الجرمانية، ما يلي: إن اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال، وإنه يذهب للإتيان بهم من الماء. ولي من الأسباب ما يحملني على الافتراض أن عدد الأطفال الذي لا يقنعهم هذا الحلّ أكبر بكثير مما يتصوَّر الأهل، وأن هذا الجواب يقابل منهم بشكّ قوي، حتى وإن لم يجهروا به دوماً. وإني لأعرف طفلاً، له من العمر سنوات ثلاث، ما إن تلقى تفسيراً كذاك حتى اختفى عن الأنظار، على هلع شديد من مربيته؛ وقد عثر عليه فيما بعد عند حافة المستنقع الكبير المجاور للقصر حيث هرع يبحث عن الأطفال في الماء. وأعرف طفلاً آخر ما كان في وسعه أن يسمح لشكّه بتجاوز حدود معلومة: فهو يعلم أن ليس اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال، وإنما.. مالك الحزين. ويلوح لي من كثير من المعلومات التي تجمَّعت عندي أن الأطفال يأبون تصديق نظرية اللقلق، ولكنهم بعد أن يُخدعوا ويُصدّوا لمرة أولى تبدأ تنتابهم الشكوك والظنون بأن في الأمر شيئاً محظوراً يحتفظ به «الكبار» لأنفسهم، ولهذا السبب يحيطون بحوثهم اللاحقة بالسرية. ولكنهم بذلك يكونون قد عاشوا أول موضوع لـ «صراع نفسي»، وهذا بقدر ما أن الآراء التي



يذهب إليها تفضيلهم المبني على إحساس غريزي ـ وإن لم تكن «حسنة» في نظر الكبار ـ تتواجه وتتعارض مع آراء أخرى مبنية على سلطة هؤلاء «الكبار»، وإن لم تكن مناسبة لهم، هم الصغار. وقد يتحول هذا الصراع النفسي سريعاً إلى «انفلاق نفسي»، إذ يغدو أحد الرأيين ـ وهو ذاك الذي يتمشى مع «طيبة» الصبي الصغير وإن اقتضى منه التوقف عن التفكير ـ هو الرأي الواعي السائد، على حين أن الرأي الثاني، الذي يكون عمل البحث والتنقيب قد رفده أثناء ذلك بأدلَّة جديدة ولكن محرومة من حقّها في أن تؤخذ بعين الاعتبار، يمسي هو الرأي المقموع «اللاشعوري». وعن هذا السبيل تكون عقدة العصاب النووية قد تكوَّنت.

لقد أتاح لي مؤخراً تحليل صبي صغير في ربيعه الخامس[٣] ـ وهو تحليل شرع به أبوه قبل أن يضعه في متناولي لأنشره ـ أن أتحقق على نحو غير قابل للدحض من صحّة فكرة طالما كانت ساقتني إليها التحاليل النفسية للراشدين. فأنا أعلم الآن أن التحول الذي يطرأ على الأم في فترة الحمل لا يدقّ عن نظر الطفل الثاقب، وأن الطفل قادر تماماً خلال فترة من الزمن على استشفاف العلاقة الصحيحة بين تضخُّم جسم أمه وبين مجيء طفل جديد. وفي الحالة المشار إليها كان الصبي الصغير قد بلغ من العمر ثلاثة أعوام ونصف عام حين وُلدت أخته، وأربعة أعوام وتسعة أشهر حين بدر منه من التلميحات الواضحة الدلالة ما ينمّ عن أنه عارف بالحقيقة. بيد أن هذا الاكتشاف الذي توصَّل إليه في زمن مبكر للغاية ظل محفوظاً في دخيلة نفسه، ثم ما لبث أن كُبت ونُسي فيما بعد، بالتوازي مع المصائر اللاحقة للتحرِّي الجنسي عند الطفل.

هكذا نرى أن «خرافة اللقلق» لا تجد محلاً لها بين النظريات الجنسية الطفلية؛ بل على العكس من ذلك: فملاحظة الحيوانات، التي نادراً ما تخفي حياتها الجنسية والتي يشعر الطفل أنه قريب منها غاية القرب، تعزِّز شكوك الطفل وريَبه. وما إن يكتشف الطفل بعد ذلك أن الوليد يتكون وينمو في جسم الأم ـ وهو يتوصل إلى هذا الاكتشاف أيضاً بصورة مستقلة ـ حتى يكون الطريق قد أمسى

٣ ـ هو هانز الصغير الذي تقدَّمت الإشارة إليه في المقال السابق. «م».



أمامه ممهَّداً لحلّ المعضلة التي كان جعلها من أول الأمر محكّاً لقوة تفكيره. بيد أنه يتعطَّل عن كل تقدم لاحق بفعل جهل لا سبيل إلى تداركه، ومن جراء نظريات مغلوطة يفرضها عليه فرضاً المستوى الذي وصل إليه تطور جنسيته بالذات.

إن هذه النظريات الجنسية التي سأتناولها بالفحص الآن تتصف جميعها بسمة لافتة للنظر. فعلى الرغم من ضلالها الفاضح، فإن كل نظرية منها تحتوي على شذرة من الحقيقة الخالصة؛ وهي مشابهة من هذا المنظور لتلك الحلول التي توصف بأنها «عبقرية» والتي يحاول الراشدون أن يجدوها للمعضلات التي يطرحها الوجود والتي تتجاوز العقل البشري. وأما ذلك الجانب السديد والصحيح منها فمردّه إلى أن تلك النظريات نشأت في أصلها عن مقوِّمات الدافع الغريزي الجنسي التي تفعل فعلها في بدن الطفل أيضاً؛ والحق أن فرضيات كتلك لم تأتِ نتيجة لقرار نفسي عسفي أو لصدفة الانطباعات والخبرات، بل تولَّدت عن مقتضيات الجِبِلَّة الجنسية ـ النفسية؛ ولهذا يسعنا أن نتكلم عن نظريات جنسية طفلية نمطية، ولهذا أيضاً نلتقي تصورات مغلوطة واحدة لدى جميع الأطفال الذين يكون لنا إلى حياتهم الجنسية منفذ.

ترتبط أولى هذه النظريات بواقعة إغفال الفوارق بين الجنسين، وهو الإغفال الذي ذكرنا من البداية أنه السمة المميزة لموقف الطفل. إن هذه النظرية تنسب إلى **جميع الكائنات البشرية ـ بمن فيها الكائنات الأنثية ـ قضيباً**، كذاك الذي يعرفه الصبي الصغير من خلال جسمه بالذات. وفي هذا التكوين الجنسي الذي يفترض بنا أن نعدَّه «سوياً» يمثِّل القضيب بالنسبة إلى الطفل منذ ذلك الحين المنطقة الشهوية القائدة، الموضوع الجنسي الإيروسي الذاتي الأساسي؛ والقيمة التي يخلعها عليه تجد انعكاسها المنطقي في عدم قدرته على تصور شخص مشابه لذاته بدون ذلك العنصر الجوهري. فحين يقع نظر الصبي الصغير على الأجزاء التناسلية لأخت صغيرة له، تنمّ عباراته عن أن حكمه المسبق والمنحاز قد استحكم لديه بما يكفي لكي يتعسّف في تأويل ما يقع تحت إدراكه البصري؛ فبدلاً من أن يتحقق ويتأكد من فقدان العضو لدى أخته، يقول بصورة **مطّردة وقياسية**، وعلى



سبيل المواساة والمصالحة: السبب في ذلك أنه... لا يزال صغيراً؛ لكنه، يوم ستكبر، سيكبر معها. ويعاود تصور المرأة ذات القضيب ظهوره لاحقاً في أحلام الراشد: ففي حالة من التهيُّج الجنسي الحُلُمي يبطح أرضاً امرأة ما ويعرِّيها من ثيابها، ويهمّ بالجماع، فإذا بمرأى قضيب نام تمام النموّ محلَّ الأعضاء التناسلية الأنثية يضع حداً للحلم وللتهيُّج. والخناثى الكثيرات اللائي تعجّ بهن آداب العصور القديمة الكلاسيكية يقدِّمن نسخة طبق الأصل عن هذا التصور الذي لا مفرّ من أن يكون تمثَّل لكل طفل في يوم من الأيام. وبوسعنا أن نلاحظ أن هذا التصور لا يجرح مشاعر غالبية الناس العاديين، على حين أن الأشكال الخنثية للأعضاء التناسلية التي تسمح الطبيعة أحياناً بإنتاجها بصورة واقعية تقابل من قبل الناس بأشدّ النفور في الغالب.

إذا «تثَّبت» تصور المرأة ذات القضيب هذا لدى الطفل، وقاوم جميع المؤثرات الحياتية اللاحقة، وقضى على المرء بالعجز عن التخلي عن القضيب لدى موضوعه الجنسي، فإن هذا الفرد لا مندوحة له، حتى ولو عاش حياة جنسية سوية، عن أن يصير جنسياً مثلياً وعن أن يبحث عن مواضيعه الجنسية بين الذكور الذين يذكِّرونه، بما يتصفون به من سمات بدنية ونفسية، بالمرأة. أما المرأة، المرأة الواقعية، المرأة كما سيتعرّفها في طور لاحق من عمره، فستبقى على الدوام مستحيلة بالنسبة إليه كموضوع جنسي، لأنها تفتقد إلى عنصر الإثارة الجنسية الأساسي، بل قد تغدو موضوع كره ومقت عنده إن اقترنت صورتها بخبرة أخرى من خبرات الطفولة. والطفل الذي يتسلط عليه في المقام الأول تهيُّج القضيب لا يلبث أن يتعود على اجتناء لذة من تهييج هذا القضيب بيده؛ فإن ضبطه أهله أو الأشخاص الذين يقومون على أمره متلبِّساً بهذا الجرم وتوعّدوه بقطع عضوه امتلأت نفسه ذعراً. ويتناسب مفعول هذا «التهديد بالخصاء» مع القيمة المعزوة إلى هذا الجزء من الجسم: ومن ثم يكون بالغ العمق ودائم الأثر. وتنطق الأساطير والخرافات بما يعتمل في حياة الطفل الوجدانية من تمرد وثورة، وتنمّ عن مشاعر الرعب المرتبطة بعقدة الخصاء، ولسوف يبقى الوعي في طور لاحق من العمر على نفوره من تذكُّر هذه العقدة. والحال أن أعضاء المرأة



التناسلية متى ما وقع نظر الجنسي المثلي عليها في زمن لاحق وتمثلت في تصوره مبتورة منقوصة، أيقظت في نفسه ذلك التهديد، فاستكره مرآها بدل أن يلتذّ به. ولا سبيل إلى تغيير أي شيء في ردّ الفعل هذا، حتى ولو تأكد الجنسي المثلي عن طريق العلم من أن فرضيته الطفلية، التي تصوَّر بموجبها أن للمرأة أيضاً قضيباً، ليست سخيفة ولا متهافتة إلى الحدّ الذين كان يظن. فقد أقرّ علم التشريح بأن البظر، في داخل الفرج، هو العضو المناظر للقضيب، كما أمكن لعلم وظائف أعضاء العمليات الجنسية أن يضيف أن هذا القضيب الصغير، الذي لا يكبر، يسلك في طفولة المرأة فعلاً كما لو أنه قضيب حقيقي: فهو مركز الإثارات التي تدفع بالبنت الصغيرة إلى لمسه، وقابليته للتهيُّج تخلع على نشاط البنت الجنسي طابعاً ذكرياً، ولا بدّ في سنوات البلوغ من موجة كبت وقمع لتتمكن الأنثى من الظهور والإعلان عن نفسها بعد إجلاء هذه الجنسية الذكرية. والحال أن الوظيفة الجنسية مصابة لدى الكثيرات من النساء بالضمور، إما لأن البظر حافظ عندهن بعناد على قابليته للتهيُّج، فيبقين باردات الحسّ في أثناء الجماع، وإما لأن الكبت اشتطّ أكثر مما ينبغي، مما يلغي شطراً من مفعوله عن طريق تشكيل هستيري للبدائل. وهذا كله ليس من شأنه أن يطعن في صحة النظرية الجنسية الطفلية التي تفترض أن المرأة تحوز، مثلها مثل الرجل، قضيباً.

من اليسير علينا أن نلحظ أن البنت الصغيرة تشاطر أخاها تقديره تماماً؛ فهي تبدي اهتماماً كبيراً بذلك الجزء من جسم الصبي الصغير؛ لكن سرعان ما يغلب على هذا الاهتمام الحسد. فالبنت الصغيرة تشعر أنها مغبونة، وتقوم بمحاولات للتبوُّل بنفس الوضعية التي يتبوَّل بها الصبي الصغير بحكم امتلاكه القضيب الكبير؛ وحين تقمع في نفسها هذه الرغبة: كم كنت أحبذ لو كنت صبياً، فإننا نعلم ما النقص الذي يفترض بهذه الرغبة أن تتداركه.

لو كان في مقدور الطفل أن يتبع ما يشير به عليه تهيُّج القضيب، لاقترب قليلاً من حلّ المعضلة التي تؤرِّقه. فأما أن الطفل ينبت وينمو في جسم الأم فما هذا، كما هو بادٍ للعيان، بتفسير كافٍ. إذ كيف يدلف إليه؟ وما الذي يعطيه إشارة البدء بالنمو؟ وأما أن للأب ضلعاً بالأمر، فهذا قريب الاحتمال، ولا سيما



أنه يقول إن الطفل هو أيضاً طفله[٤]. ومن جهة أخرى، إن للقضيب أيضاً، بدون أدنى ريب، نصيبه في تلك العمليات الغامضة، والشاهد على ذلك ما يطرأ عليه من تهيُّج طوال فترة إعمال الفكر. وترتبط بهذا التهيُّج نوازع قهرية لا يملك لها الطفل تأويلاً؛ نوازع غامضة، مبهمة، إلى إتيان فعل من أفعال العنف: الولوج، التحطيم، ثقْب ثقوب في كل مكان. ولكن لا يكاد الطفل يهمّ على هذا النحو بسلوك الطريق الصحيح بأن يصادر على وجود المهبل ويتعرف في فعل ولوج قضيب الأب في الأم الفعل الذي يتكوَّن به الطفل في جسم الأم، حتى يتوقف عند هذه النقطة عن البحث وقد أسقط في يده: فهذا البحث يصطدم بالنظرية التي تنصّ على أن الأم تحوز قضيباً نظير الرجل، ومن ثم يبقى الطفل على جهل بالتجويف الذي يستقبل القضيب. وقد يطيب للناس أن يعتقدوا أن إخفاق الطفل في مجهوده التفكيري يسهِّل عليه نبذ هذا التفكير ونسيانه. غير أن هذا الاجترار الفكري وهذا الشك هما في الواقع النموذج الأول المحتذى لكل عمل فكري لاحق يتصل بحلّ المعضلات، وهذا الفشل الأول يكون له مفعول شالّ على مدى العمر.

إن الجهل بوجود المهبل يسمح أيضاً للطفل بالاقتناع بثانية نظرياته الجنسية. فإن كان الطفل ينمو في جسم الأم ثم يخرج منه، فليس لذلك سوى سبيل واحد، وهو الفتحة المعوية. **فالطفل لا بدّ على هذا الأساس أن يُفرَغ كما يُفرغ الغائط أو البراز.** وإن عاد الطفل في السنوات التالية إلى تقليب السؤال عينه على وجوهه بينه وبين نفسه، أو تناقش بصدده مع طفل آخر، فقد تظهر عندئذ إلى حيِّز الوجود معلومات جديدة، ومنها الافتراض أن الطفل يخرج من السرة التي تنفتح أو أن البطن تُشقّ ليُستخرج منها الطفل، على نحو ما يقع للذئب في حكاية **الفتاة ذات القبعة الحمراء**[٥]. ويفصح الأطفال عن هذه النظريات جهاراً ويحتفظون منها فيما بعد بذكرى شعورية، فلا تعود تحتوي على ما يصدم

٤ ـ انظر بصدد هذه النقطة **تحليل طفل في الخامسة من العمر (هانز الصغير).**

٥ ـ **الفتاة ذات القبعة الحمراء**: واحدة من أشهر قصص الأطفال في الثقافات الأوروبية الشعبية. لها عدة روايات، من أشهرها رواية الأخوين غريم، وإليها يحيل فرويد على الأرجح، إذ فيها تحديداً يلتهم الذئب الفتاة ذات القبعة الحمراء ومعها جدَّتها. ولكن الصياد المخلِّص يقر بطن الذئب ويستخرج منها الفتاة وجدَّتها.«م».



المشاعر. وهؤلاء الأطفال أنفسهم ينسون عندئذ أنهم كانوا يؤمنون في السنوات السابقة بنظرية أخرى عن الولادة ينتصب في سبيلها الآن عائق حديث الظهور، هو عائق كبت المقوِّمات الجنسية الشرجية. فمن قبل كان البراز شيئاً يمكن الكلام عنه بلا خجل في حجرة الأطفال، ولم يكن الطفل يومذاك يقف بمنأى إلى هذا الحدّ عن نوازعه الجِبِلّية المحُيَّة للبراز، ولم يكن بالتالي من المهانة له أن يأتي إلى العالم مثلما تأتي كومة من كومات الروث التي لم يقم دونها بعد حاجز القرف والتقزز. والحق أن النظرية المخرجية(٦)، التي تبقى صحيحة بالنسبة إلى ضروب عدة من الحيوان، كانت النظرية الوحيدة الأقرب إلى الطبيعة التي أمكن لها أن تفرض نفسها على الطفل باعتبارها قريبة من الحقيقة.

لكن كان من المنطقي تماماً في هذه الحال أن ينكر الطفل على المرأة امتياز الإنجاب المؤلم. فلئن كان الأطفال يأتون إلى الدنيا عن طريق الشرج، فبوسع الرجل أن ينجب مثله مثل المرأة. ومن ثم يستطيع الصبي الصغير بدوره أن يتوهم أنه ينجب هو الآخر أطفالاً بدون أن يكون ثمة داعٍ لأن نعزو إليه بسبب ذلك ميولاً أنثوية. فهو بذلك لا يدلِّل إلا على الحضور الذي لا يزال فعالاً لإيروسيته الشرجية.

إن لبثت نظرية الولادة المخرجية مقيمة في الشعور في السنوات التالية للطفولة، وهذا يحدث أحياناً، فإنها تحمل معها أيضاً حلاً للمسألة المتصلة بأصل الأطفال، لكنه يكون هذه المرة حلاً لا يتصف من الأصالة بشيء. فالأمور تجري هنا كما في الحكايا. فحسب المرء أن يأكل شيئاً بعينه حتى ينجب طفلاً. والمريضة العقلية تبثّ لاحقاً الحياة من جديد في تلك النظرية الطفلية عن الولادة. ومَثَلُ ذلك أن مريضة بالهوس اقتادت الطبيب حين كان يقوم بجولته إلى ركن في زنزانتها حيث وضعت كومة من البراز، وقالت له ضاحكة: «هوذا الطفل الذي أنجبته اليوم».

أما ثالثة النظريات الجنسية النمطية فتخطر للأطفال حين يتسنى لهم، بطريق

٦ ـ نسبة إلى المخرج: وهو الفتحة المشتركة للمسالك البولية والمعوية والتناسلية لدى بعض الفقاريات، وبخاصة الطيور. «م».



المصادفة البيتية، أن يشهدوا عملية الاتصال الجنسي بين والديهم، أو بتعبير أصحّ أجزاء منقوصة منها. ومهما يكن الجزء الذي يعرض منها في هذه الحال لإدراكهم ـ وضعية كل من الوالدين، الصوت الذي يصدر عنهما، أو أي تفصيل آخر مشابه ـ فإن التصور الذي يتوصلون إليه في الأحوال جميعاً هو ذاك الذي يمكن لنا أن نسمِّيه **التصور السادي للجماع**: فهم يرون إلى الجماع وكأنه عملية عنف يفرضها الطرف الأقوى على الطرف الأضعف، ويماثلون بينه، وبخاصة الذكور منهم، وبين تجربة المصارعة التي غالباً ما تقدِّم لهم صورة عن العلاقات بين الأطفال، والتي لا تخلو من مسحة من الإثارة الجنسية. وما تسنى لي أن أتحقق من أن الأطفال يتعرفون في ما لاحظوا وقوعه بين والديهم تلك القطعة الناقصة اللازمة لحلّ أحجية الأطفال. بل تبدى لي أن الأطفال كانوا في غالب الأحيان يجهلون هذه العلاقة، وذلك على وجه التحديد نتيجة لتأويلهم فعل الحب على أنه فعل عنف. غير أن هذا التصور السادي للجماع يوحي هو نفسه وكأنه تكرار لذلك الدافع القهري الغامض إلى مزاولة نشاط كان يرتبط، في زمن التفكير الأول بلغز أصل الأطفال، بتهيُّج في القضيب. وليس لنا أن نستبعد كذلك احتمال أن يكون الدافع القهري السادي الأول، الذي كاد الطفل يحزر معه سرَّ الجماع، قد ظهر هو نفسه تحت تأثير ذكريات أشد إبهاماً عن العلاقات بين الوالدين، تلك الذكريات التي تلقّى الطفل مادتها حين كان لا يزال يشاطر والديه، في سنوات طفولته الأولى، غرفة نومهما، بدون أن يحسن يومئذ استغلالها[٧].

إن هذه النظرية السادية عن الجماع التي من شأنها، إن عُزلت عن سياقها، أن تضلل البحث عند النقطة عينها التي كان سيسعه فيها الاهتداء إلى أدلة، ما هي بدورها إلا تعبير عن أحد المقوِّمات الجنسية الفطرية، وهو مقوِّم يتفاوت في قوة

٧ ـ يؤكد رتيف دي لابروتون(*) في سيرته الذاتية التي نشرها سنة ١٧٩٤ بعنوان **السيد نيقولا** هذا التأويل السادي الخاطئ للجماع في أثناء كلامه عن انطباع يعود تاريخه إلى السنة الرابعة من عمره.

(*) رتيف دي لابروتون: كاتب فرنسي (١٧٣٤ ـ ١٨٠٦). له مسرحيات وروايات إيروسية، وشهادات عن الثورة الفرنسية في ثمانية مجلدات. ولكن يبقى أشهر أعماله سيرته الذاتية: **السيد نيقولا أو كشف القناع عن القلب الإنساني**. «م».



ظهوره بحسب الأطفال، ومن ثم يمكن اعتبارها صحيحة إلى حدّ ما: فهي تحزر جزئياً ماهية الفعل الجنسي و«صراع الجنسين» الذي يسبقه. ولا يندر كذلك أن يتمكن الطفل من إسناد تصوره إلى إدراكات حسية عارضة يلتقطها من جهة أولى بصورة صحيحة، ولكنه يؤولها من الجهة الأخرى ومن جديد تأويلاً خاطئاً، بل معكوساً. وبالفعل، إن المرأة تنفر في العديد من الحالات من المجامعة الزوجية التي لا تعود عليها بأي لذة، بل فقط بخطر حمل جديد؛ ومن الممكن في هذه الحال أن توحي الأم للطفل المفروض فيه أنه مستسلم للرقاد (أو المتظاهر بالنوم) بانطباع لا سبيل إلى تأويله حقاً إلا على أنه فعل دفاع ضد فعل عنف. وفي حالات أخرى، إن الزواج بجملته هو الذي يقدِّم للطفل المنتبه مشهد صراع مستديم تفصح عنه انفجارات صوتية حانقة وحركات عدوانية؛ ومن ثم لن يعجب الطفل إن استمر هذا الصراع ليلاً أيضاً وإن استخدمت فيه الأساليب عينها التي يلجأ إليها في العادة في علاقاته مع إخوته وأخواته أو مع رفاقه في اللعب.

وإن وقع نظر الطفل على بقع دم في سرير والدته أو ملابسها الداخلية، رأى فيها أيضاً توكيداً لتصوره. فهي عنده بمثابة دليل على أن والده ارتكب ليلاً عدواناً جديداً ضد الأم، على حين أننا نميل نحن إلى تفسير بقعة الدم هذه على أنها دليل بالأحرى على وقفة في العلاقات الجنسية[8]. وإن العديد من ظاهرات «الخوف من الدم» التي تبدو وكأنها لا تفسير لها لدى العصبيين قابلة في الواقع للتفسير على ضوء ذلك الربط. وخطأ الطفل هنا ينطوي مرة أخرى على شذرة من الحقيقة؛ فبقعة الدم تكون بالفعل، في موقف محدَّد بعينه، بمثابة مؤشر إلى أن المعاشرة الجنسية الأولى قد بوشرت.

وبالارتباط مع المعضلة التي لا حلّ لها، معضلة معرفة من أين يأتي الأطفال، يشغِل الطفل فكره بمسألة أخرى: ما كنه تلك الحالة التي يوصف الفرد فيها بأنه «متزوج» وما مؤداها؟ وإجابته عن هذا السؤال تختلف باختلاف الكيفية التي يربط بها بين الانطباعات العارضة التي يمدّه بها والده وبين الانطباعات التي تمدّه

---

٨ ـ المقصود واقعة الطمث. «م».



بها دوافعه الغريزية الخاصة والتي تكون موسومة بعد بقدر من اللذة. بيد أن القاسم المشترك بين هذه الإجابات كافة هو أن الطفل يحدس بأن الارتباط بعلاقة زواج من شأنه أن يوفِّر إشباعاً لذّياً ويفترض أنه لا داعي بعدئذ للخجل من مثل هذا الإشباع. وأكثر ما لاقيته من التصورات شيوعاً التصور الذي يفترض أن «**الواحد يتبول أمام الآخر**»؛ ومن صيغ هذا التصور واحدة تريد أن تسوق، فيما يبدو، المزيد من المعرفة في إطار رمزي: «**الرجل يتبول في قصرية المرأة**». وفي أحيان أخرى يكمن معنى الزواج في ما يلي: «**الواحد يري الآخر مؤخرته**» (دونما خجل). وفي حالة محددة أفلحت فيها التربية في تأخير المعرفة الجنسية زمناً طويلاً، خطرت لفتاة في الرابعة عشرة من العمر ـ عرفت الحيض من زمن ـ فكرة أن حالة الزواج قوامها «**خلط الدم**». وبما أن أختها الصغيرة لم تكن قد حاضت بعد، فقد حاولت المغتلمة الفتية الاعتداء على صديقة لها قدمت لزيارتها ـ وكانت قد ساررتها بأنها حائض ـ لترغمها على «خلط الدم» ذاك.

إن الآراء الطفلية بصدد طبيعة الزواج، التي كثيراً كما تبقى محفوظة في الذاكرة الواعية، لها أهمية كبيرة في تفهم الأعراض في حال الإصابة بعصاب لاحقاً. وأول ما تفصح هذه الآراء عن نفسها في ألعاب الأطفال حين يقلِّد هؤلاء حالة الزواج؛ وقد تتلبس الرغبة في الزواج لاحقاً شكل تعبير طفلي، فتتبدى في رهاب تتعذر معرفته على حقيقته في أول الأمر أو في عرَض مناظر[٩].

تلكم هي في تقديري أهم النظريات الجنسية النمطية التي يبتدعها الأطفال بصورة عفوية في السنوات الأولى من طفولتهم، وهذا حصراً تحت تأثير المقوِّمات الغريزية الجنسية. وإني أعلم أني ما وُفِّقت إلى تقديم مادة كاملة، ولا إلى بيان علاقة هذه المادة ببقية حياة الطفل بياناً كاملاً أيضاً لا ثغرات فيه. على أنه بوسعي بعد أن أستكمل هنا بعض النقاط التي لن يخفى ـ إذا لم أفعل ـ ما بها من نقص على كل شخص مطَّلع. ومن ذلك مثلاً النظرية المهمة التي تقول إن الطفل يُنجَب عن طريق القبلة، وهي نظرية تشي في وضوح بغلبة الفم كمنطقة شهوية. وهذه النظرية، على حدّ خبرتي، وقف على الإناث حصراً، وكثيراً ما نلتقيها

٩ ـ أبعد ألعاب الأطفال دلالة بالنسبة إلى العصاب اللاحق «لعبة الدكتور» ولعبة «البابا والماما».



كعامل مسبِّب للمرض لدى الفتيات اللواتي خضع لديهن البحث الجنسي لضروب بالغة القوة من الكفّ في طفولتهن. وقد توصلت إحدى مريضاتي من خلال انطباع عارض إلى نظرية «الترخيم»[١٠]؛ وهذه، كما هو معلوم، عادة دارجة لدى بعض الأقوام، والغرض منها في أرجح الظن مقاومة الشك، الذي لا يُقطع دابره بتمامه أبداً، بصدد الأبوة. فقد أقام خال تلك المريضة، وكان لا يخلو من غرابة أطوار، في البيت عدة أيام متوالية بعد ولادة طفله، وكان يستقبل زواره بالروب دي شامبر، ومن ثم استنتجت مريضتي أن الوالدين كليهما شاركا في الولادة، وأنه كان عليهما بالتالي لزوم الفراش.

عند بلوغ الأطفال السنة العاشرة أو الحادية عشرة تبدأ تتوارد عليهم المعلومات المتصلة بالمسائل الجنسية. فمن قُيِّض له من الأطفال أن يترعرع في جوّ اجتماعي أقل ضغطاً وتزمتاً، وأتاحت له ظروف موائمة أن يلاحظ بعض الملاحظات، لا يتردد في أن يروي للآخرين ما يعرفه، لأن ذلك يشعره بنضجه وتفوقه. وما يعلمه الأطفال عن هذا السبيل هو الحقيقة في أغلب الأحيان، إذ يتكشف لهم على هذا النحو وجود المهبل ووظيفته. ولكن فيما عدا ذلك فإن الشروح والتفاسير التي يتناقلونها عن بعضهم بعضاً كثيراً ما يخالطها الخطأ وتُشحن برسابات من النظريات الجنسية الطفلية القديمة. وهي لا تكون كاملة أبداً ولا كافية لحلّ المعضلة الأولى. فكما الجهل بالمهبل في أول الأمر، كذلك إن الجهل بالمني هو الذي يحول دون فهم المسألة برمتها. فالطفل لا يستطيع أن يرهص بأي مادة أخرى غير البول يفرزها عضو الرجل، ولا يندر أن تسخط «الفتاة البريئة»، في ليلة عرسها بالذات، على زوجها لأنه «يتبوَّل فيها». والمعلومات التي تتناهى إلى الأطفال في سنوات ما قبل البلوغ تمدّ التحري الجنسي عندهم بزخم جديد؛ غير أن النظريات التي يبتدعها الأطفال عندئذ لا تعود تتسم بتلك السمة النمطية والأصلية التي كانت تميِّز النظريات الابتدائية في الطفولة الأولى حين كان في مقدور المقوِّمات الجنسية الطفلية أن تجد تعبيرها في نظريات بدون أن يصيبها كفّ أو يطرأ عليها تحول. ولم تبدُ لي

١٠ ـ الترخيم: إلزام الدجاجة بحضانة البيض حتى يفقس ويخرج منه الصوص. «م».



الجهود الفكرية اللاحقة لفكّ الألغاز الجنسية جديرة بأن تُجمع وتصنَّف: فهي ما عادت تلعب ذلك الدور الممرض الذي كان لها أن تلعبه فيما مضى. وبديهي أن وفرتها وقف في المقام الأول على طبيعة التفسير المتلقى. أما أهميتها فتكمن بالأحرى في كونها توقظ الآثار التي باتت لاشعورية من تلك المرحلة الأولى للاهتمام الجنسي، بحيث لا يندر أن يرتبط بها نشاط جنسي استمنائي وشطر من الانفصال العاطفي عن الوالدين. ومن هنا كان حكم الإدانة الذي يصدره المربّون إذ يرتؤون أن تفسيراً مثل ذلك التفسير يُعطى في تلك السنوات قمين بأن «يفسِد» الأطفال.

إن من شأن بعض الأمثلة أن توضح ما العناصر التي يتواتر ترددها في تأملات الأطفال الاجترارية المتأخرة بصدد الحياة الجنسية. فقد سمعت فتاة من زميلاتها في المدرسة أن الرجل يعطي المرأة بيضة، فترخمها في جسمها. كما أن صبياً تناهى إلى مسمعه أيضاً كلام عن البيضة، فماثل بين هذه «البيضة» وبين اللفظ السوقي الذي يطلق على الخصية[11]، وراح يضرب أخماساً بأسداس ليعلم كيف يتأتى لمحتوى كيس الخصيتين أن يتجدد باستمرار. ويندر أن تقطع التفاسير شوطاً كافياً لوضع حدّ للشكوك الأولية بصدد العمليات الجنسية؛ ومن ذلك أن البنات كثيراً ما يطرق أسماعهن قول من يقول إن الاتصال الجنسي لا يحدث إلا مرة واحدة، ولكنه يدوم زمناً طويلاً جداً، أربع وعشرين ساعة، وإن سلسلة الأطفال جميعاً تنتج عن هذه المرة الوحيدة؛ وقد يداخلنا الاعتقاد بأن الطفل استقى معرفته في هذه الحال من عملية التناسل لدى بعض الحشرات؛ غير أنه لا شيء يؤيد صحة هذا الافتراض، بل تبدو النظرية وكأنها ابتكار عفوي. وتجهل بنات أُخر بفترة الحمل، بالحياة في جسم الأم، فيفترضن أن الطفل يأتي إلى الدنيا حالاً بعد ليلة المعاشرة الأولى. وقد اتخذ مرسيل بريفو Prévost[12] في كتابه **رسائل نساء** من هذا الخطأ الذي تتورط فيه الفتاة موضوعاً لقصة شائقة. ويعسر علينا استنفاد موضوعات هذا

---

١١ ـ البيضة بالألمانية EL والخصية HODE. ولكن العامة يسمون بالألمانية الخصية بيضة، تماماً كما يفعل العامة بالعربية. «م».



التحري الجنسي المتأخر عند الأطفال أو عند المراهقين الذين لبثوا مقيمين عند الطور الطفلي. وهي بالإجمال ليست عديمة الفائدة، ولكنها تخرج عن نطاق اهتمامي. ولا يتعيَّن عليّ هنا إلا أن أشير إلى أن الأطفال يختلقون أشياء خاطئة كثيرة بغية نقض معرفة أقدم وأفضل، لكنها باتت مكبوتة ولاشعورية.

إن الكيفية التي يتصرف بها الأطفال إزاء المعلومات التي تعطى لهم لها أهميتها هي الأخرى. فالكبت الجنسي يكون قد قطع لدى العديدين منهم شوطاً قصياً، فتتلاشى لديهم الرغبة في سماع أي شيء، ويفلحون في البقاء على جهلهم حتى في السنوات اللاحقة، ظاهرياً على الأقل، إلى أن يزيح التحليل النفسي للمعصوبين النقاب عن المعرفة النابعة من الطفولة الأولى. وإني أعرف أيضاً اثنين من الصبيان، واحدهما في العاشرة وثانيهما في الثالثة عشرة من العمر، تلقيا بكل تأكيد شروحاً جنسية، ولكنهما ردّا دعوى حامل المعلومات إليهما بقولهما: من الممكن أن يتصرف أبوك وغيره هذا التصرف، لكني على يقين تام بأن أبي لن يقدم على فعل شيء من هذا القبيل. على أنه مهما تنوعت مسالك الأطفال المتأخرة هذه حيال إشباع حب الاستطلاع الجنسي إلى المعرفة، فمن المباح لنا، فيما يتصل بسنوات الطفولة الأولى، أن نصادر على وجود سلوك مشابه تماماً، وأن نفترض أنهم كانوا في ماضي أيامهم يبذلون أشقّ الجهود ليكتشفوا ما يفعله الوالدان معاً كيما يأتي الأطفال.

١٢ ـ مرسيل بريفو: كاتب فرنسي (١٨٦٢ ـ ١٩٤١). له روايات سيكولوجية حاول الربط فيها بين المأثور والحداثة، ومن أشهرها **أنصاف العذارى**. «م».




مكتبة
الفكر الجديد

ـ ٣ ـ

الأخلاق الجنسية «المتحضرة» والمرض العصبي في الأزمنة الحديثة (١٩٠٨)

يركز ف. إهرنفلز EHRENFELS[1] في كتابه الصادر حديثاً بعنوان **الأخلاق الجنسية**[2] على الفارق بين الأخلاق الجنسية «الطبيعية» والأخلاق التي يقال لها «المتحضرة». وفي رأيه أن الأخلاق الجنسية «الطبيعية» هي تلك التي تتيح لقوم من الأقوام البشرية أن يحافظ بصورة مستديمة على عافية جيدة وعلى مقدرته على الحياة، على حين أن الأخلاق الجنسية «المتحضرة» هي تلك التي تحفز من يتقيَّدون بها على بذل مجهود حضاري كثيف ومنتج. والمقارنة بين الخاصية التكوينية والخاصية الحضارية لدى شعب من الشعوب قمينة بأن تبرز أسطع الإبراز هذا التضاد. وإني إذ أحيل القارئ إلى كتاب ف. إهرنفلز مباشرة ليصل إلى تقييم أفضل لهذا التيار المهم من تيارات الفكر، أودّ هنا أن أستخلص منه فقط ما يمكن أن يتصل بمساهمتي الخاصة.

إنه لمن اليسير أن نفترض أن الأفراد، متى ما سادت أخلاق جنسية متحضرة، اصطدموا بمعوِّقات شتى تبهظ بوطأتها على صحتهم ومقدرتهم على الحياة، وأن

---

١ ـ كريستيان فون إهرنفلز: فيلسوف نمساوي وأستاذ الفلسفة في جامعة براغ. يعتبر مؤسس علم نفس الشكل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٢). ارتأى أن الشكل يتخطى مجموع أجزائه وله قانونه الذاتي. صادم معايير عصره بدعوته إلى إصلاح اجتماعي يقوم على نظام تعدد الزوجات، وباعتباره نظام الزوجة الواحدة ضاراً حضارياً ومعيقاً لمنطق التكاثر الداروني. «م».

٢ ـ **أسئلة عند حدود الحياة العصبية والحياة النفسية**، فسبادن ١٩٠٧(*).

(*) الواقع أن هذا هو العنوان الفرعي لكتاب إهرنفلز الذي عنوانه الرئيسي: **الأخلاق الجنسية**. «م».



الأذى الذي يتحمله هؤلاء الأفراد من جراء التضحيات المفروضة عليهم يبلغ في خاتمة المطاف درجة يشكِّل معها خطراً يتهدد بصورة غير مباشرة هدفهم الحضاري. ويعزو ف. إهرنفلز أيضاً إلى الأخلاق الجنسية السائدة في مجتمعنا الغربي المعاصر جملة بكاملها من الأضرار، ولا يجد محيصاً عن تحميل تلك تبعة هذه. ولئن أقرّ بأنها مسوَّغة تماماً من أجل تقدم الحضارة، فإنه يرى أيضاً أن إصلاحها ضرورة لازبة. وعنده أن السمة المميِّزة للأخلاق الجنسية المتحضرة المهيمنة علينا هي إخضاع حياة الرجل الجنسية لمطالب الجنس المؤنث وشجب كل صلة جنسية غير الصلة الجنسية الزوجية في إطار الزواج الأحادي. وصحيح بعد ذلك أن أخذ الفارق الطبيعي بين الجنسين بعين الاعتبار يحتِّم الاعتدال في معاقبة الرجل على زيغه والتسليم له بازدواجية الأخلاق كأمر واقع. بيد أن مجتمعاً يعرِّض نفسه للشبهة بحكم هذه الأخلاق المزدوجة لا يمكنه أن يدفع بـ«حب الحقيقة والاستقامة الإنسانية»[٣] إلى ما وراء حدٍّ ضيِّق معلوم، ويكون لزاماً عليه أن يحرِّض أعضاءه على تمويه الحقيقة وعلى صبغ الأشياء بصبغة زاهية كاذبة وعلى خداع أنفسهم وخداع الآخرين. ومما يزيد في ضرر الأخلاق الجنسية المتحضرة أنها تشلّ، بحكم تبريرها للزواج الأحادي، عامل **الانتخاب الذكوري**، وهو العامل الوحيد الذي يمكن لنا أن نتوقع أن يكون له تأثيره الإيجابي على تحسين التكوين الجِبِلِّي للإنسان، على اعتبار أن **الانتخاب الحيوي** مقلَّص إلى أضيق حدوده لدى الشعوب المتحضرة باسم حب الإنسانية وعلم الصحة[٤].

والحال أن طبيبنا يغفل، في تعداده للأضرار التي يلقي بتبعتها على عاتق الأخلاق الجنسية المتحضرة، عن ضرر سنعمد هنا إلى مناقشة مدلوله بالتفصيل. وأعني به ذلك التزايد، الممكن عزوه إلى تلك الأخلاق، في العصبية الحديثة، أي في تلك الأمراض العصبية التي تنتشر انتشاراً سريعاً في مجتمعنا المعاصر. فقد يتفق أن يلفت مريض عصبي انتباه الطبيب إلى التعارض الواجب عليه أن يلاحظه

٣ ـ **الأخلاق الجنسية**، ص٣٢ وما بعدها.

٤ ـ المصدر نفسه، ص٣٥.



في نشوء المرض بين الجِبِلَّة والمطلب الحضاري بقوله مثلاً: «لقد صرنا في أسرتنا جميعنا من العصبيين لأننا أردنا أن نكون أحسن مما نستطيع أن نكونه بحكم أصلنا ومنبتنا». وكثيراً ما يتفق أيضاً أن تشحذ تفكيرَ الطبيب ملاحظتُه أن أولئك الذين يقعون ضحايا المرض العصبي هم بالتحديد أسلّاءُ آباءٍ من أصول قروية بسيطة وسليمة، متحدرين من أسر خشنة وقوية، قدموا إلى المدينة الكبيرة وكأنهم من الغزاة الفاتحين وأتاحوا لأولادهم أن يرتقوا في أجل وجيز من الزمن إلى أعلى مستوى ثقافي. بيد أن أطباء الأعصاب في المقام الأول هم أنفسهم الذين أعلنوا قوة العلاقة بين «تزايد العصبية» والحياة المتحضرة الحديثة. أما كيف يبررون هذا الترابط، فهذا ما سنراه من خلال تمحيصنا بعض مقتطفات من تصريحات مراقبين مشاهير.

قال ف. إرب ERB[٥]: «المسألة الأساسية أن نعرف هل ازدادت أسباب العصبية في حياتنا الحديثة بما فيه الكفاية لتعلل الزيادة الكبيرة في هذه العصبية. وعن هذا السؤال نستطيع أن نجيب بالإيجاب بلا تردد، على نحو ما سيتبيَّن لنا فيما لو ألقينا نظرة خاطفة على أشكال حياتنا المعاصرة.

«إنه ليتضح لنا حالاً من جملة من الوقائع العامة أن الفتوحات الخارقة للأزمنة الحديثة، والاكتشافات والاختراعات في الميادين كافة، والمحافظة على وتيرة التقدم في مواجهة المزاحمة المتعاظمة، ما أمكن الوصول إليها إلا لقاء مجهود عقلي عظيم ولا يمكن الحفاظ عليها إلا مقابل هذا الثمن. وإن ما يتطلبه الكفاح في سبيل الحياة من الإنتاجية من قبل الفرد قد زاد زيادة مرموقة؛ وهو لا يستطيع تلبية هذا الطلب إلا إذا جنّد قواه العقلية قاطبة. وفي الوقت نفسه ارتفعت حاجات الفرد ومطامحه في الاستمتاع بمباهج الحياة في الأوساط كافة. ورتعت في ترف منقطع النظير شرائح من السكان ما كان لها من منفذ إليه في ماضي الزمن، وطغت موجة اللاتدين والتذمر والجشع على دوائر لا تني في اتساع من المجتمع، وانقلبت شروط المواصلات رأساً على عقب بنتيجة التعاظم الهائل في حركة المرور والنقل، وبفضل شبكة البرق

٥ ـ فلهلم هنريخ إرب: طبيب أعصاب ألماني (١٨٤٠ ـ ١٩٢١). ترك أكثر من ٢٥٠ مؤلفاً وبحثاً في الأمراض العصبية وغيرها. «م».



والهاتف العالمية؛ فكل شيء يتمّ الآن بسرعة وعجلة، فيكون السفر في الليل، والعمل والاتصال في النهار؛ وحتى «رحلات الاستجمام» صارت مصدر تعب للجهاز العصبي. وباتت الأزمات السياسية والصناعية والمالية الكبرى تطال بالإثارة دوائر من المجتمع أوسع بكثير مما في الماضي. وعمّ بين الناس طراً الاهتمام بشؤون الحياة السياسية؛ فالصراعات السياسية والدينية والأخلاقية، والنشاطات الحزبية، والحملات الانتخابية، والجمعيات والروابط التي تتكاثر تكاثراً هائلاً، هذا كله يُهيج العقول، ويرغم الفكر على بذل جهود جديدة بلا انقطاع، ويأكل من وقت الاستجمام والنوم والراحة. وقد أضحت الحياة في المدن الكبيرة تتصف بمزيد من الرهافة والجلبة معاً. فالأعصاب مرهقة، والناس تطلب منفرجاً لها عن طريق زيادة المحفِّزات وطلب المثير من المتع والملذات، مما لا يتأتى عنه سوى مزيد من التعب. ويولي الأدب الحديث اهتمامه الأول للمشكلات التي تتطلب أكثر من غيرها إعمال الفكر، والتي تثير الأهواء كافة وتحرك الشهوانية وتتغنى بحب اللذة وبازدراء كل مبدأ خلقي وكل مثل أعلى؛ ويعرض هذا الأدب لذهن قارئه حالات مرَضية، ومشكلات تتصل بالأمراض النفسية الجنسية، ومعضلات ثورية، وما إلى ذلك. والموسيقى الصاخبة والملحفة التي تُحقن بها مسامعنا بمقادير كبيرة تثير الأعصاب وتهيج الآذان. كما تهيج العروض التمثيلية الحواس كافة وتأسرها. وحتى الفنون الجميلة باتت تيمِّم شطر ما هو منفر، بشع، مستكره، وشطر ما يثير ويهيج، ولا تتردد هي الأخرى في أن تضع تحت أبصارنا، بأمانة تدعو للحنق والسخط، أبشع ما ينطوي عليه الواقع وأشنعه.

«إن هذا التوصيف الإجمالي كافٍ بحدّ ذاته ليرينا كم من الأخطار تحدق بالتطور الحضاري الحديث؛ على أنه بوسعنا استكماله بتفاصيل أخرى أيضاً!»(٦).

وقال بنسفانغر BINSWANGER(٧): «لقد حُدِّدت مواصفات النوراستينيا

٦ ـ **حول تزايد العصبية في عصرنا**، هايدلبرغ ١٨٩٥.

٧ ـ لودفيغ بنسفانغر: طبيب نفسي سويسري (١٨٨١ ـ ١٩٦٦). جمعته بيونغ وفرويد علاقة أولية، ولكنه لم يلبث أن تحول نحو الفينومينولوجيا تحت تأثير الفيلسوفين الألمانيين إدموند هوسرل ومارتن هايدغر، واقترح منهجاً جديداً باسم التحليل الوجودي. من مؤلفاته: **ذكريات عن فرويد**، **الحلم والوجود**. «م».



على أنها في المقام الأول مرض عصري. وقد حسب بيرد BEARD[٨]، الذي ندين له بأول وصف مميِّز لها، أنه اكتشف بذلك مرضاً عصبياً جديداً تطور وانتشر بوجه خاص فوق الأرض الأمريكية. وبديهي أن هذا الفرض كان مغلوطاً. بيد أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون طبيب **أمريكي** هو أول من تنبه للسمات المميِّزة لهذا المرض وتمكّن من تحديدها: فهذه واقعة تشهد دون أدنى شك على الترابط الوثيق بين هذا المرض وبين الحياة العصرية بما يصاحبها من ركض محموم وراء المال والممتلكات، ومن تقدم خارق في الميدان التقني تحولت معه جميع معوِّقات حركة المرور والتنقل الزمانية والمكانية إلى محض أوهام»[٩].

وقال كرافت إيبنغ KRAFT-EBING[١٠]: «إن طراز حياة عدد غفير من الناس المتحضرين يتصف في أيامنا هذه بجملة من العوامل المضِرّة بالصحة، مما يتيح لنا أن نفهم بسهولة ويسر الانتشار المحموم للعصبية، إذ إن هذه العوامل المؤذية تؤثِّر في المقام الأول وفي الغالب من الأحيان في المخ. ولقد طرأت خلال السنوات العشر الأخيرة تحولات بعيدة المدى على الأوضاع السياسية والاجتماعية للأمم المتحضرة، وبخاصة في مضمار التجارة والصناعة والزراعة. وقد ترتبت عليها تبدلات مهمة في المهنة والوضعية المدنية والمُلكية، وهذا على حساب الجهاز العصبي الذي يتعيَّن عليه أن يلبي تنامي المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية بمضاعفته من إنفاق الطاقة مع أن ما يعتاضه عنها لا يفي بالغرض

٨ ـ جورج ميلر بيرد: طبيب أعصاب أمريكي (١٨٣٩ ـ ١٨٨٣). نحت مفهوم النوراستينيا، أي النهَك العصبي. من مؤلفاته: **العصبية الأمريكية، حالات من الهستيريا والنوراستينيا، المنبهات والمخدرات، الاستعمال الطبي للكهرباء**. «م».

٩ ـ **باتولوجيا النوراستينيا وعلاجها**، ١٨٩٦.

١٠ ـ ريشارد فون كرافت ـ إيبنغ: طبيب نفسي نمساوي من أصل مجري (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢). ترك دراسة مشهورة عن علم نفس الأمراض الجنسية بعنوان Psychopathia Sexualis نحت فيها مصطلح السادية والمازوخية بالإحالة إلى المركيز دي ساد وليوبولد فون ساشر ـ مازوخ. من مؤلفاته الأخرى: **سادية الرجل ومازوخية المرأة، أشكال المازوخية، الكآبة، العصبية والحالات النوراستينية**. «م».



على الإطلاق»[١١].

إن موضع اعتراضي على هذه النظريات ـ وعلى كثير غيرها مما يبدو مشابهاً لها ـ ليس كونها مغلوطة، بل كونها عاجزة عن تقديم تفسير وافٍ لخصوصيات ظهور الاضطرابات العصبية، وكونها تغفل على وجه التعيين أهمَّ عامل إتيولوجي[١٢] على الإطلاق. وإن ضربنا صفحاً عن الأشكال اللامتعينة واللامحددة لـ «العصبية»، ووضعنا نصب أعيننا الأشكال الحقيقية لـ «الحالة المرضية العصبية»، وجدنا أن تأثير الحضارة الضارّ يقتصر في جوهره على القمع الذي تنزله بالحياة الجنسية للشعوب (أو الطبقات) المتحضرة الأخلاقُ الجنسية «الحضارية» المهيمنة على هذه الشعوب.

لقد سعيت إلى سوق الأدلة على هذه الدعوى في جملة من المقالات المتخصصة[١٣]، ولن أكرر هنا ما سبق لي قوله؛ لكنني أريد أن أعرض أهمّ الحجج التي أوصلتني إليها أبحاثي.

إن ملاحظة سريرية ثاقبة تبيح لنا أن نميِّز بين مجموعتين من حالات المرض العصبي: **الأعصبة** بحصر المعنى **والأعصبة النفسية**[١٤]. فالاضطرابات (الأعراض) في الأعصبة الأولى، سواء أأفصحت عن نفسها بعوامل بدنية أم بعوامل نفسية، تبدو من طبيعة سُمِّية؛ ومسلكها جميعها مماثل تماماً لمسلك الظاهرات التي تصاحب إفراطاً أو حرماناً من بعض سموم الأعصاب. وهذه

---

١١ ـ **العصبية والحالات النوراستينية**، ١٨٩٥، ص٢ (في نوثناجل[*]: **الوجيز الاختصاصي في علم الأمراض والعلاج**).

(*) هرمان نوثناجل: طبيب داخلي وأستاذ جامعي ألماني (١٨٤١ ـ ١٩٠٥). عمل فرويد في بدء حياته الطبية في قسمه، فأعطاه لقب **تلميذ مساعد**. من مؤلفاته: **حول نوبة الصرع**. «م».

١٢ ـ الإتيولوجيا: علم الأسباب بصورة عامة، ومبحث أسباب المرض بصورة خاصة. «م».

١٣ ـ **مجموعة مقالات مقتضبة حول نظرية الأعصبة**، فيينا ١٩٠٦.

١٤ ـ الأعصبة النفسية التي يميِّزها فرويد عن الأعصبة بحصر المعنى، أي الأعصبة السّمية، تشمل الأعصبة الوراثية والأعصبة التحويلية (الهستيريا الحصَرية والهستيريا الاستبدالية والعصاب الوسواسي) والأعصبة النرجسية. أما الأعصبة السمِّية الراهنة، التي ينبغي البحث عن أسبابها في حاضر المريض، لا في ماضيه، فتشمل العصاب الحصري والنوراستينيا وهجاس المرض. «م».



الأعصبة ـ التي تُجمَع في غالب الأحيان تحت اسم النوراستينيا ـ قد تنجم، من غير أن تقتضي مساهمة مرض وراثي، عن بعض التأثيرات الضارة للحياة الجنسية؛ وبالفعل، إن شكل المرض يطابق أتم المطابقة نمط الأذى حتى إنه ليسعنا في كثير من الأحيان استنتاج الإتيولوجيا الجنسية الخاصة دفعة واحدة من اللوحة السريرية. وبالمقابل، لا يوجد تطابق مطرد وقياسي من الطراز نفسه بين الشكل الذي يتخذه هذا المرض العصبي وبين التأثيرات الضارة الأخرى للحضارة، وهي التأثيرات التي يحمّلها المؤلفون المشار إليهم تبعة المرض. وعلى هذا نستطيع أن نعلن أن العامل الجنسي هو العامل الرئيسي الذي يتسبب في نشوء الأعصبة بحصر المعنى.

أما في الأعصبة النفسية فإن تأثير الوراثة أهم شأناً، وتعليل نشوئها أقل شفافية. غير أن طريقة خاصة في الاستقصاء، تعرف باسم التحليل النفسي، أتاحت لنا أن نتحقق من أن أعراض هذه الاضطرابات (الهستيريا، العصاب الوسواسي، إلخ) **نفسية المنشأ** ومتعلقة بنشاط العقد اللاشعورية (المكبوتة) الفاعلة على صعيد التصوُّر والتخيُّل. وقد مكّنتنا هذه الطريقة عينها من معرفة هذه العقد اللاشعورية وبيَّنت لنا أن لها، إجمالاً، مضموناً جنسياً: فمصدرها يكمن في الحاجات الجنسية للأشخاص غير الحاصلين على إشباع، وهي تمثِّل بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص نوعاً من بديل عن الإشباع. وعلى هذا يتعيَّن علينا أن نرى في جميع العوامل الضارة بالحياة الجنسية، التي تقمع نشاطها وتغيِّر وجهة أهدافها، عوامل مسبِّبة للمرض في حالة الأعصبة النفسية أيضاً.

وبديهي أن قيمة التمييز النظري بين الأعصبة السُّمِّية والأعصبة النفسية المنشأ لا يطعن فيها واقع أننا نعاين لدى معظم المرضى العصبيين اضطرابات منشؤها سمّي ونفسي على حدّ سواء.

ومن يكن على استعداد الآن ليبحث معي عن إتيولوجيا المرض العصبي في المقام الأول في التأثيرات الضارة التي تتعرض لها الحياة الجنسية، فلن يمانع في تتبع الشروح التالية التي ترمي إلى إدراج موضوعة تزايد الأمراض العصبية في سياق أعمّ وأشمل.

إن حضارتنا قائمة، بصفة بالغة العمومية، على قمع الدوافع الغريزية. فقد



تنازل كل فرد عن جزء من ملكيته، من سلطانه المستقل، من نوازع شخصيته العدوانية وميولها الثأرية؛ وإنما من هذه التنازلات والتقْدِمات تتألف الملكية الحضارية المشتركة للخيرات المادية والخيرات الفكرية. وإذا استثنينا ضروريات الحياة، فإن العواطف العائلية، النابعة من الإيروسية، هي التي دفعت بالأفراد فرادى إلى ذلك التنازل. وقد تمّ هذا التنازل تدريجياً في مجرى تطور الحضارة؛ وقد صادق الدين على كل تقدم على حدة؛ فالجزء الذي تنازل عنه كل فرد من إشباع دوافعه الغريزية قُدِّم قرباناً للآلهة؛ أما الرصيد المشترك الذي تراكم على هذا النحو فقد خُلعت عليه الصفة «الحرمية». وكل من يعجز، بحكم تكوينه الجِبِلِّي غير المرن، عن المشاركة في هذا القمع للدوافع الغريزية يضع نفسه في موقف المعارض للمجتمع بوصفه «جانحاً» أو «خليعاً»[١٥]، وذلك بقدر ما لا يستطيع أن يفرض نفسه على هذا المجتمع عينه بوصفه عظيماً من العظماء، أو بوصفه «بطلاً» بحكم مركزه الاجتماعي وكفاءاته الرفيعة.

من المرجح أن الدوافع الغريزية، أو بالأحرى الدوافع الغريزية الجنسية ـ إذ إن الاستقصاء التحليلي يفيدنا أن الدافع الغريزي الجنسي مركَّب من عناصر عدة، من دوافع غريزية جزئية ـ أكمل تشكيلاً لدى الإنسان منها لدى معظم الحيوانات العليا؛ وهو على كل حال أكثر ثباتاً لدى الإنسان، لأنه أحرز نصراً شبه كامل على الصفة الدورية التي يبدو أنه أسيرها لدى الحيوانات. ثم إن الدافع الغريزي الجنسي يضع تحت تصرف المجهود الحضاري كمية هائلة من القوى، وهذا في أرجح الظن بحكم السمة البارزة التي يتسم بها، وأعني قدرته على تغيير وجهة هدفه بدون أن يخسر شيئاً يذكر من قوته. ويطلق اسم القدرة على الإسماء SUBLIMATION على هذه القابلية لمقايضة الهدف الذي هو في الأصل جنسي مقابل هدف آخر لا يعود يصدق عليه الوصف بأنه جنسي، لكنه على صلة قربى نفسية بالهدف الأول. وبالتعارض مع هذه القدرة على الإزاحة والنقل التي فيها تكمن قيمة الدوافع الغريزية الجنسية، قد يحدث أن

١٥ ـ الخليع: ينبغي أن تؤخذ هذه الكلمة بمعناها القديم، أي ذاك الذي تبرأت منه قبيلته، وليس بمعناها المتداول اليوم، أي المتهتك أخلاقياً. «م».



تتعرض هذا الأخيرة لتثبيت بالغ القوة يلغي صلاحتها للاستعمال وقد يحطّها إلى ما يسمى بالشذوذ. وأغلب الظن أن القوة الأصلية للدوافع الغريزية الجنسية متفاوتة بتفاوت الأفراد؛ ومن المحقق أن ما تكرِّسه برسم الإسماء متقلب. ويلوح لنا أن الجِبِلَّة الفطرية لكل فرد هي صاحبة القول الفصل في تحديد المقدار الغريزي الجنسي القابل لدى كل فرد للإسماء وللاستخدام. كما تفلح الحياة والمؤثرات الفكرية التي يتعرض لها الجهاز العقلي في تزويد الإسماء بكمية إضافية. ومن المؤكد أن عملية الإزاحة والنقل هذه لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية، مثلما لا تستطيع آلاتنا الاستمرار إلى ما لا نهاية أيضاً في تحويل الحرارة إلى عمل ميكانيكي. ويبدو أن مقداراً معلوماً من الإشباع الجنسي المباشر لا غنى عنه لمعظم البِنْيات؛ وإن لم يتوافر هذا المقدار من الإشباع، الذي يتفاوت كمّه من فرد إلى آخر، كان عقاب ذلك تظاهرات يتعيّن علينا أن نصنِّفها، لما تنزله من ضرر بالوظيفة ولما تتسم به من طابع تنغيصي ذاتي، في عداد الحالات المرَضية.

إن آفاقاً أرحب تنفتح أمامنا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدوافع الغريزية الجنسية لدى الكائنات الإنسانية لا ترمي إطلاقاً في الأصل إلى خدمة التناسل، وإنما هدفها كيفيات معيّنة في الحصول على اللذة[١٦]. وبهذه الصورة تتظاهر في طفولة الإنسان حيث تدرك هدفها في الحصول على اللذة لا في الأعضاء التناسلية وحدها، بل كذلك في مواضع أخرى من الجسم (المناطق الشهوية)، فيسعها على هذا النحو أن تعزف عن كل ما لا يمثل لها موضوعاً مستحباً. ونطلق على هذا الطور اسم طور **الإيروسية الذاتية**، ونوكل إلى التربية مهمة وضع حدّ له لأن تطاوله وامتداده في الزمن من شأنهما أن يجعلا الدوافع الغريزية الجنسية عصية على كل رقابة وغير قابلة للاستعمال لاحقاً. على هذا المنوال يتحول الدافع الغريزي الجنسي في مسار تطوره من الإيروسية الذاتية إلى الحب الموضوعاني[١٧]، ومن الاستقلال الذاتي للمناطق

١٦ ـ انظر: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، ١٩٠٥.

١٧ ـ الموضوعاني OBJECIAL نسبة إلى موضوع الحب، وقد اخترنا إضافة نون النسبة هنا تمييزاً عن الموضوعي OBJECTIF. «م».



الشهوية إلى تبعيتها لزعامة الأعضاء التناسلية العاملة في خدمة الإنجاب. وفي مجرى هذا التطور يقع كفّ على جزء من الإثارة الجنسية، التي يمدّ بها الفردَ جسمُه بالذات، باعتباره غير صالح للاستخدام للوظيفة التناسلية، ويكون مصيره، متى ما كانت الفرصة مؤاتية، التوجيه نحو الإسماء. على هذا النحو يكون المصدر الذي منه تتأتى القوى القابلة للاستخدام من قبل المجهود الحضاري، في شطرها الأكبر، هو القمع الذي تتعرض له تلك العناصر من التهيُّج الجنسي التي توصف بأنها **منحرفة**.

بالإحالة إذاً إلى تاريخ تطور الدافع الغريزي الجنسي نستطيع تمييز ثلاث مراحل من الحضارة: مرحلة أولى يكون فيها نشاط الدافع الغريزي الجنسي حراً، حتى خارج نطاق الأهداف التناسلية؛ ومرحلة ثانية يُقمع فيها كل شيء في الدافع الغريزي الجنسي خلا ما يفيد منه في التناسل؛ ومرحلة ثالثة يكون فيها التناسل المشروع هو الهدف الجنسي الوحيد المأذون به. وتتطابق هذه المرحلة الثالثة مع أخلاقنا الجنسية «المتحضرة» الراهنة.

إن اتخذنا ثانيةً تلك المراحل معياراً للقياس، لم نجد بداً من أن نلاحظ باديءَ ذي بدء أن عدداً غير قليل من الناس لا ينطبق عليهم، لأسباب تتعلق بجِبِلَّتهم، هذا المقياس. فما ذكرناه لتوّنا عن تطور الدافع الغريزي الجنسي من الإيروسية الذاتية إلى الحب الموضوعاني لا يتحقق لدى فئة بكاملها من الناس إلا بصورة منقوصة وغير جذرية، وتكون نتيجة هذه الاضطرابات في النمو نوعين من الحيَدان الضارّ عن الجنسية السوية، أي الجنسية التي هي مفيدة لتقدم الحضارة؛ وهما حيدانان يسلكان إزاء بعضهما بعضاً مسلك الموجب والسالب على وجه التقريب. فهناك أولاً ـ وباستثناء الأشخاص الذين يكون لديهم الدافع الغريزي الجنسي بصفة عامة متضخم النمو وغير قابل لأن يُكفّ ـ الفئات المختلفة من **المنحرفين** الذين حال عندهم التثبيت الطفلي على هدف جنسي مؤقت دون أيلولة الزعامة إلى الوظيفة التناسلية، وهناك بعد ذلك **الجنسيون المثليون** أو **المرتكسون** الذين يحيد عندهم الهدف الجنسي، على نحو لم تتوضح بعد خفاياه كلها، عن الجنس المقابل. وإن تكن مَضَرَّة هذين الشكلين من اضطرابات النمو أقل شأناً مما كان يمكن لنا أن نتوقّع، فلا بدّ أن نعزو هذا التخفيف إلى التركيب



المعقد للدافع الغريزي الجنسي الذي يتيح للحياة الجنسية أن تتخذ أيضاً شكلاً نهائياً قابلاً للاستخدام حتى وإن يكن عنصر أو أكثر من عناصر هذا الدافع الغريزي قد استبعد من النمو. بل كثيراً ما تتميز جِبِلّة الأشخاص المصابين بالارتكاس، أي الجنسيين المثليين، بكون دوافعهم الغريزية الجنسية قابلة منتهى القابلية للإسماء الحضاري.

إن تكن الانحرافات والجنسية المثلية جامحة، وعلى الأخص ذات طابع حصري، يُمْسِ المصابون بها تعساء ولا فائدة ترتجى منهم اجتماعياً، وهذا ما يرغمنا على أن نتعرف في المطالب الحضارية للمرحلة الثانية مصدرَ عذابٍ لشطر من البشرية. ومصير هؤلاء الأشخاص الذين يشذّون بحكم جِبِلّتهم بالذات عن الآخرين متعدِّد الوجوه وقد يختلف تبعاً لاختلاف نصيبهم من الدافع الغريزي الجنسي قوة أو ضعفاً. ففي الحالة الأخيرة، أي عندما يكون الدافع الغريزي الجنسي ضعيفاً بوجه الإجمال، يوفَّق المنحرفون إلى قمع النوازع التي تضعهم في موضع التناقض مع المتطلبات الأخلاقية قمعاً تاماً. لكن تلك هي التجلية الوحيدة التي يقتدرون عليهم من الناحية الفكرية، لأنهم يستنفدون في قمع دوافعهم الغريزية الجنسية القوى التي كانوا سيجنِّدونها لولا ذلك في خدمة المجهود الحضاري. وهكذا نراهم مكفوفين في عالمهم الداخلي ومشلولين في العالم الخارجي. وقد يقع لهم ما سنقوله لاحقاً بصدد الاستنكاف الجنسي الذي تتطلبه من الرجال والنساء المرحلة الحضارية الثالثة.

أما إن كان الدافع الغريزي الجنسي قوياً وفي الوقت نفسه منحرفاً، فثمة مخرجان ممكنان: الأول ـ ولن نطيل الوقوف عنده ـ أن يبقى الأشخاص المعنيون منحرفين، ويتعيّن عليهم من ثم أن يتحملوا تبعة حيدانهم عن المرجعية الحضارية؛ والثاني أكثر إثارة للاهتمام بكثير، وهو التالي: قد يتوصل هؤلاء الأشخاص، تحت تأثير التربية والمتطلبات الاجتماعية، إلى ضرب من القمع لدوافعهم الغريزية المنحرفة، ولكن هذا القمع ما هو في الحقيقة بقمع، بل نكون أقرب إلى الصواب لو أسميناه إخفاقاً في القمع. فصحيح أن الدوافع الغريزية الجنسية لا تتظهر عندئذ إلى الخارج بصفتها هذه ـ وذلك هو وجه النجاح ـ لكنها تتظهر بكيفيات أخرى



تعادل في ضررها، بما تنزله من أذى بالفرد نفسه وبالمجتمع الذي لا يعود هذا الفرد بقادر على أن يفيده بشيء، الضررَ الذي كان سينشأ عن الإشباع الفعلي للدوافع الغريزية المقموعة: وهنا تحديداً يكمن فشل هذه السيرورة الذي ترجح كفته على المدى الطويل على كفة نجاحها. وتؤلف الظاهرات البديلة التي تنتج هنا من جراء قمع الدافع الغريزي ما نطلق عليه اسم الأمراض العصبية، وعلى الأخص اسم الأعصبة النفسية (انظر مستهل مقالنا هذا). وينتمي العصابيون إلى الفئة التالية من الناس: فنظراً إلى الطابع الشموس لجِبِلَّتهم نراهم لا يتوصلون، تحت ضغط المطالب الحضارية، إلى قمع دوافعهم الغريزية إلا بصورة ظاهرية، وبفشل متكرر، ولهذا السبب لا يتأتى لهم أن يواصلوا المساهمة في الأعمال الحضارية إلا لقاء إنفاق كبير في القوى وإفقار داخلي كبير هو الآخر، أو قد يضطرون بين الحين والآخر إلى التوقف بسبب مرضهم. وقد وصفتُ الأعصبة بأنها «الصورة السالبة» للانحرافات لأنه إنما فيها تتظهر الحاثّات المنحرفة، بعد كبتها، بدءاً من اللاشعور النفسي، لأنها تحتوي في حالة من «الكبت» على نفس نوازع المنحرفين الإيجابيين.

تفيدنا الخبرة أنه يوجد بالنسبة إلى غالبية الناس حدّ لا تستطيع جِبِلَّتهم أن تمتثل، في حال تخطِّيه، لمطلب الحضارة. فكل من يبغي أن يكون أعظم نبلاً مما تتيحه له جِبِلَّته يسقط ضحية العصاب؛ ولو ظلت متاحة له إمكانية البقاء على دونيته، لكان شعر بأنه أحسن حالاً. وإن ملاحظة الأشخاص الذين ينتمون إلى جيل واحد تثبت في كثير من الأحيان، وعلى نحو لا لبس فيه، صحة الفكرة القائلة إن العلاقة بين الانحراف والعصاب هي علاقة الموجب بالسالب. فكثيراً ما يتفق على صعيد الإخوة والأخوات أن يكون الأخ منحرفاً جنسياً، بينما تكون الأخت ـ وهي المحبوَّة باعتبارها أنثى بدافع غريزي أضعف قوة ـ مصابة بعصاب، ولكن أعراضها تفصح عن النوازع عينها التي تفصح عنها انحرافات أخيها النشِط جنسياً. ومن هذا المنطلق نفسه يكون الرجال، في كثير من الأسر، أصحّاء إجمالاً، ولكن متحللي الأخلاق إلى حدّ غير مرغوب فيه اجتماعياً، بينما تكون النساء نبيلات وعلى قدر مفرط من الرهافة، ولكن مصابات في الوقت نفسه بأمراض عصبية خطيرة.



إنه لوجه صارخ من وجوه ظلم المجتمع أن يتطلب المستوى الحضاري مسلكاً جنسياً واحداً من الناس جميعاً، مع أن بعضهم يستطيع الاضطلاع به بلا جهد بفضل جِبِلَّته، بينما يتعيَّن على بعضهم الآخر أن يتحمل أبهظ التضحيات النفسية في سبيل ذلك؛ وإن هذا لإجحاف لا سبيل إلى الخلاص منه في غالب الأحيان إلا بالامتناع عن التقيُّد بالمبادئ الأخلاقية.

لقد كان الأساس الذي انطلقنا منه حتى الآن في تأملاتنا هذه هو متطلبات ما افترضنا أنه المرحلة الحضارية الثانية التي تشجب كل نشاط جنسي مدموغ بالانحراف وتبيح بالمقابل الاتصال الجنسي الموصوف بالسواء. وقد رأينا أنه في ظل هذا التوزيع للحرية والتقييد الجنسيين يُنحَّى بعض الأفراد ويُعزلون باعتبارهم منحرفين، ويُدفع ببعضهم الآخر، ممن يجاهدون كيلا يكونوا منحرفين ـ مع أن جِبِلَّتهم كانت تقتضي أن يكونوا من المنحرفين ـ إلى حضن الأمراض العصبية. ويسير علينا الآن أن نتكهن بما سيحدث فيما لو جرى فرضُ المزيد من القيود على الحرية الجنسية وفيما لو رفع المطلب الحضاري إلى مستوى المرحلة الثالثة، أي فيما لو شُجب كل نشاط جنسي لا تجري ممارسته ضمن نطاق الزواج المشروع. فعدد الأشخاص الأقوياء الذين يعارضون جهراً وعلانية المطلب الحضاري سيزداد زيادة كبيرة، كما سيزداد بالمقدار نفسه عدد الأشخاص الضعفاء الذين، إذا ما حوصروا بين ضغط المؤثرات الحضارية والمقاومة الصادرة عن تكوينهم الجِبِلِّي، لم يكن أمامهم من ملاذ يلجؤون إليه سوى الحالة المَرَضية العصابية.

لنحاول الآن أن نجيب عن أسئلة ثلاثة تبرز هنا: ١ ـ ما العبء الذي يفرضه على الفرد المطلب الحضاري للمرحلة الثالثة؟ ٢ ـ هل في مقدور الإشباع الجنسي المأذون به أن يقدِّم تعويضاً مقبولاً عن العزوف الذي يُرغم عليه الفرد إرغاماً؟ ٣ ـ ما العلاقات بين الأضرار التي يُحْتَمل أن تنشأ عن هذا العزوف وبين تثميره الحضاري؟

إن الإجابة عن السؤال الأول تتصل بمشكلة كثيراً ما وجدت من يعالجها، ولن يكون في مستطاعنا أن نستنفدها هنا، أقصد مشكلة الاستنكاف الجنسي. فمرحلتنا الحضارية الثالثة تقتضي من الفرد المفرد من كلا الجنسين الاستنكاف



إلى حين الزواج، ومن كل من لا يتزوج زواجاً مشروعاً الاستنكاف على مدى الحياة. ثم إن ما يحلو للسلطات أن تؤكده من أن الاستنكاف الجنسي ليس ضاراً ولا عسيراً التقيُّد به قد حظي أيضاً بتأييد عدد جمّ من الأطباء. إلا أنه من المباح لنا أن نقول إن مهمة السيطرة على حاثة بمثل قوة الدافع الغريزي الجنسي عن طريق آخر غير إشباعها قد تتطلب تجنيد كل طاقات الكائن البشري. وإن أقلية من الناس فقط تتوصل إلى هذه السيطرة عن طريق إسماء القوى الغريزية الجنسية وتحويلها عن الأهداف الجنسية إلى أهداف حضارية أسمى وأرفع، وهذا لا يتأتى لها على كل حال إلا على نحو متقطع، وبمنتهى الصعوبة والعسر في شرخ الصبا والشباب. أما بقية الناس فيسقط أكثرهم ضحية العصاب أو يعانون من ضرر ما. وتدلّ التجربة أن معظم الأفراد الذين منهم يتألف مجتمعنا لا تؤهِّلهم بنيتهم لفريضة الاستنكاف. ولئن يكن بعض الأفراد يقعون فريسة المرض بمجرد فرض تقييد ما جنسي عليهم، فإن مطالب الأخلاق الجنسية لحضارتنا الراهنة تدفع نحو أشكال من المرض أكثر تبكيراً وأشد خطورة؛ والحق أننا لا نعرف طريقة للوقاية من الخطر الذي يتعرض له النزوع الجنسي السوي من جراء قصور في الجِبِلَّة أو اضطرابات في النمو أفضل من الإشباع الجنسي ذاته. وكلما كان عند الفرد استعداد مسبق للعصاب قلّ تحمله للاستنكاف؛ فالدوافع الغريزية الجزئية التي لا تكون قد أخذت مجراها إلى التطور السوي، بالمعنى الذي تكلمنا عنه آنفاً، تغدو بنتيجة ذلك أعصى على الكفّ. ولكن حتى من قُيِّض لهم أن يحافظوا على عافية جيدة، في الشروط المطلبية للمرحلة الحضارية الثانية، لن يكون أمام أكثرهم منجى في هذه الحال من السقوط فريسة العصاب. ذلك أن القيمة النفسية للإشباع الجنسي تتعاظم طرداً مع الحرمان منه؛ فالليبيدو[١٨] الذي كان في حالة ركود بات مقتدراً الآن على اكتشاف هذه أو تلك من نقاط الضعف التي يندر

١٨ ـ الليبيدو: كلمة لاتينية الأصل تعني النزوة، الهوى، الشهوة، الشهية، الحاجة الطبيعية، إلخ. وكان ألبرت مول أول من أعاد إحياءها، وعنه اقتبسها التحليل النفسي. ولكن سرعان ما وقع انشقاق بصدد تفسيرها: فعلى حين أنها ظلت تعني عند فرويد قوة الغريزة الجنسية والطاقة الجنسية، حدَّدها يونغ بأنها طاقة نفسية حيوية. «م».



أن تخلو منها بنية الحياة الجنسية[١٩]، وعلى شقّ طريقه من خلالها للظفر بإشباع بديل عصابي في صورة عرَض مرَضي. ومن له إلمام بالشروط التي تتسبَّب في وقوع الإنسان ضحية المرض العصابي فلن يعزّ عليه أن يقتنع بأن تزايد الأمراض العصبية في مجتمعنا ناجم عن زيادة القيود الجنسية.

هذا يقودنا حالاً إلى مسألة معرفة ما إذا كان الاتصال الجنسي في الزواج الشرعي قميناً بالتعويض تعويضاً كاملاً عن الحظر المفروض عليه قبل الزواج. والحال أن المادة التي بين أيدينا تبيح لنا أن نجيب عن هذا السؤال بالسلب، ولكنها من الوفرة بحيث لا نجد محيصاً عن لزوم الإيجاز الشديد في عرضها. ولنذكّر بادئ ذي بدء بأن أخلاقنا الجنسية المتحضرة تقيِّد أيضاً الاتصال الجنسي ضمن نطاق الزواج بالذات، إذ تفرض على المتزوجين من الناس الاكتفاء بعدد محدود للغاية في أغلب الأحيان من الأنسال. ويكون من نتيجة ذلك أن الزواج لا يوفِّر اتصالاً جنسياً مُرضياً إلا لسنوات معدودات، هذا بالإضافة إلى أنه لا بدّ أن نطرح منها أيضاً الزمن الذي يتعيَّن في أثنائه الامتناع عن معاشرة المرأة لأسباب تتعلق بقواعد الصحة. وبعد تلك السنوات الثلاث أو الأربع أو الخمس ينكث الزواج بما كان قطعه من وعد بإشباع الحاجات الجنسية، لأن جميع الوسائل التي أمكن الاهتداء إليها حتى الآن لمنع الحمل تفسد المتعة الجنسية، وترنِّق حساسية الطرفين المرهفة، أو تؤثر مباشرة كعوامل إمراضية؛ والخوف من نتائج العلاقات الجنسية يقلِّص أولاً التوادَّ الجسماني المتبادل بين الزوجين، ثم يقلِّص بعد ذلك أيضاً، في غالب الأحيان، ارتباطهما المعنوي الذي يفترض به أن يرث الهوى الأول الجامح. ولا يلبث الإحباط الجسدي والخيبة النفسية، اللذان يؤول إليهما مصير غالبية الزيجات، أن يعودا بالزوجين إلى الوضع الذي كانا عليه قبل الزواج: ولا يكون تغيَّر شيء سوى أنهما خسرا وهماً وبات لزاماً عليهما من جديد أن يجنِّدا طاقتهما للسيطرة على دوافعهما الغريزية الجنسية وتحويلها عن هدفها. ولا جدوى من البحث في مدى نجاح الرجل ـ الذي يكون قد بلغ أوج نضجه ـ في هذه المهمة. وتدلّنا الخبرة أنه غالباً ما يلجأ في هذه الحال إلى تلك الشذرة من

---

١٩ ـ باللاتينية في النص: VITA SEXUALIS. «م».



الحرية الجنسية التي يخصّه بها، وإن في صمت وعلى مضض، الدستور الجنسي المتزمت[٢٠]. وما الأخلاق الجنسية «المزدوجة»، السارية المفعول في مجتمعنا بالنسبة إلى الرجال، إلا اعتراف دامغ بأن المجتمع الذي استنّ تلك الأحكام لا يؤمن هو نفسه بإمكانية التقيُّد بها. بيد أن الخبرة تفيدنا أيضاً بأن النساء، اللائي لم يُقسم لهن إلا نصيب زهيد من القدرة على إسماء الدوافع الغريزية، وذلك باعتبارهن حاملات المصالح الجنسية للبشرية، النساء اللائي يستطعن في أغلب الظن أن يجدن بغيتهن من الإشباع لدى طفلهن الرضيع باعتباره موضوعاً جنسياً، وإن كان يعجزهن أن يلقين مثل هذا الإشباع متى نما الطفل وكبر، أقول: إن الخبرة تفيدنا أيضاً بأن هؤلاء النساء، اللائي يخيِّب الزواج آمالهن، يسقطن فريسة أعصبة قاسية تنغِّص عليهن حياتهن كلها. والحق أن الزواج، في ظل الشروط الحضارية الراهنة، كفَّ منذ زمن بعيد عن أن يكون ذلك الدواء الناجع الشافي لاضطرابات النساء العصبية؛ ولئن كنا نحن الأطباء لا نزال نوصي به في مثل هذه الأحوال، فإننا نعلم حقَّ العلم مع ذلك أن الفتاة لا بدّ أن تكون صاحبة صحة جيدة جداً من المنظور النفسي كيما «تتحمل» الزواج؛ وإننا ننصح زبائننا الذكور بمنتهى الصراحة بالامتناع عن الزواج من فتاة عانت قبل زواجها من اضطرابات عصبية. فدواء الحالة العصبية الناجمة عن الزواج سيكون الخيانة الزوجية بالأحرى؛ ولكن بقدر ما تكون المرأة تلقَّت تربية صارمة، فإنها تنصاع بقدر أكبر من الجدّ لمتطلبات الحضارة، وتفزع فزعاً أشدَّ من مثل ذلك الحلّ، ولا تجد ملاذاً تلوذ به في هذا النزاع بين رغائبها وبين حسّ الواجب لديها سوى العصاب مرة أخرى. فلا شيء يحمي فضيلتها بمثل ذلك الأمان سوى المرض. وعلى هذا، إن حالة الزواج، التي يفترض بها أن تكون التعِلَّة التي يتصبَّر بها الرجل المتحضر عن دوافعه الغريزية الجنسية في ريعان شبابه، لا يمكن أن تلبي المطالب التي تترتب على قيامها هي ذاتها؛ ومن ثم، لا مجال لأن يكون في مقدور حالة الزواج هذه التعويض عن العزوف السابق.

٢٠ ـ أي معاشرة البغايا عند الاقتضاء. «م».



ولكن حتى من يسلِّم معنا بالأضرار التي تتسبب فيها الأخلاق الجنسية المتحضرة يمكن أن يحتجّ، رداً على سؤالنا الثالث، بأن المكسب الحضاري الذي يتأتى من مثل هذا التقييد الجنسي المفرط يعوِّض في أغلب التقدير تعويضاً وافياً عن تلك الأضرار التي لا تضرب بقسوة وصرامة سوى أقلية من الناس. وإني لأسلِّم بعجزي عن موازنة الخسارة بالربح هنا؛ لكن في وسعي، فيما يتصل بتقدير الخسائر، أن أتقدَّم بجملة من الاعتبارات. فلو عدنا إلى موضوعة الاستنكاف التي عرضت لها من بعض جوانبها، لكان عليَّ أن أؤكد أن الاستنكاف يتسبَّب في أضرار أخرى غير تلك التي تنجم عن الأعصبة، وأن خطورة هذه الأعصبة لم تُقدَّر في أغلب الأحيان حقَّ قدرها.

إن ما تنزع إليه تربيتنا وحضارتنا من تأخير لنمو الجنسية والنشاط الجنسي لا يكون في بادئ الأمر ضاراً على وجه التحقيق، بل يغدو ضرورياً إذا أخذنا بعين الاعتبار كم يتأخر الزمن بالشباب المنتمين إلى الطبقة المتعلمة كيما يقتدروا على كفاية أنفسهم وكسب رزقهم. وهذا يعيد إلى أذهاننا بالمناسبة الترابط الوثيق بين مؤسساتنا الحضارية كافة وبين صعوبة تغيير جزء منها بدون تغييرها كلها. والاستنكاف بعد السنة العشرين من العمر لا يمكن إلا أن يترتب عليه ضرر للفتى الشاب، حتى وإن لم يفضِ إلى المرض العصبي. صحيح أن ثمة من يقول إن الكفاح ضد هذا الدافع الغريزي الجامح وما يقتضيه من تعزيز وتعضيد لجميع القوى الأخلاقية والجمالية لحياة النفس «يسقي» الخُلْق، وهذا يصدق بالفعل على بعض العرائك والأمزجة التي تتميز بجِبِلَّة مؤاتية. ولنضف إلى ذلك أن تمايز الطبائع الفردية الذي بات سمة بالغة البروز من سمات عصرنا ما كانت لتتاح له هذه الإمكانية لولا التقييد الجنسي. لكن الكفاح ضد الشهوانية يستنفد في الغالبية العظمى من الأحوال كل الطاقة المتاحة للشخصية، وهذا على وجه التعيين في الوقت الذي يكون فيه الفتى بحاجة إلى قواه جميعاً ليحتلّ لنفسه مكاناً في المجتمع وليفوز بنصيبه منه. وطبيعي أن الصلة بين الإسماء الممكن والنشاط الجنسي اللازم تختلف باختلاف الأفراد، وكذلك باختلاف المهن. فالفنان المستنكف ظاهرة شبه مستحيلة، بينما ليس العالم الشاب المستنكف بالظاهرة



النادرة. فبوسع الأخير، نتيجة لاستنكافه، أن يحرر قواه برسم بحوثه، على حين أن القدرة الخلاقة لدى الأول ستجد حافزاً قوياً في أرجح الظن في تجربته الجنسية. وبصفة عامة، لم يتولّد لديّ اقتناع بأن الاستنكاف الجنسي يساعد على تأهيل رجال عمليين ذوي عزيمة واستقلال، أو مفكرين أصلاء، أو قادة محرِّرين، أو مصلحين حكماء؛ بل الأغلب أن تكون حصيلته أناساً مستقيمين ولكن ضعفاء، لا يلبثون أن يذوبوا لاحقاً في الجمهرة الكبرى التي من عادتها أن تمتثل، ولو على مضض، لإيعازات الأقوياء من الأفراد.

إن النتائج المتحصلة عن الجهود الاستنكافية تعبِّر أيضاً عن واقع أن الدوافع الغريزية تركب رأسها، كما يقال، ولا تأتمر في سلوكها بغير أمر نفسها. فالتربية المتحضرة ترمي فقط إلى قمع الدوافع الغريزية بصورة مؤقتة إلى حين الزواج، ومن ثم ترخي لها العنان لتستغله على الوجه المرام. غير أن التدابير المتشددة تفلح أكثر من التدابير المقسطة في لجم الدوافع الغريزية. ومن ثم قد يجاوز القمع الحدّ في شدته، فتكون نتيجته ـ وهي نتيجة غير مرغوب فيها ـ أن يصاب الدافع الغريزي الجنسي بضرر مستديم لا يبارحه حتى بعد تحريره. ولهذا، إن الاستنكاف المطلق في فترة الشباب ليس في كثير من الأحيان خير إعداد للزواج بالنسبة إلى الرجل. وهذا ما تدركه النساء بحسّهن، فيؤثرن من بين المتقدمين لطلب أيديهن أولئك الذين سبق لهم أن تصرفوا كرجال مع نساء أخريات. كذلك، إن الأضرار التي ينزلها بشخصية المرأة مطلب الاستنكاف المتشدِّد إلى حين الزواج ملموسة بقوة هي الأخرى. وظاهر للعيان أن المهمة التي تأخذها التربية على عاتقها لتقمع شهوانية الفتاة إلى حين الزواج ليست بالمهمة الميسورة، بل لا بدّ لتلك التربية من اللجوء إلى أصرم التدابير. فهي لا تحظر كل اتصال جنسي ولا تعلق قيمة كبرى على صون عفة الأنثى فحسب، بل تبعد أيضاً عن الكائن الذي في سبيله إلى أن يصير امرأة كل إغراء وتبقيه أسير الجهل المطبق بواقع الدور الذي هو من نصيبه، ولا تسمح له بأية بادرة حب لا يكون مآلها إلى زواج. وتكون نتيجة ذلك أنه متى ما أذنت السلطة الوالدية للبنات على حين بغتة بالوقوع في شباك الحب، لا تكون الفتيات قد تهيَّأن لذلك نفسياً، فيقبلن على الزواج من دون أن يستوثقن



من مشاعرهن وعواطفهن. وبحكم هذا الإرجاء المصطنع لوظيفة الحب، لا تخبّئ الفتيات للرجل الذي احتفظ لهن برغبته كلها إلا خيبة وإحباطاً؛ فهن ما زلن عاطفياً أسيرات لوالديهن الذين قمعوا بسلطانهم الدافع الغريزي الجنسي لديهن، كما أنهن يتصرفن جسدياً مع أزواجهن تصرف الباردات، فيتعذر على الرجل الوصول إلى أية متعة جنسية رفيعة القيمة حقاً. لست أدري إن كان نموذج المرأة المخدَّرة الحسّ موجوداً أيضاً خارج نطاق التربية المتحضرة، لكنني أعتقد أن ذلك محتمل. ومهما يكن من أمر، فإن التربية تكوِّن على وجه التحقيق هذا الطراز من النساء. وهؤلاء النساء اللائي يحبلن بلا لذة لا يبدين فيما بعد ميلاً إلى الإنجاب بكثرة في الألم. وهكذا، إن الإعداد للزواج يحبط أهداف الزواج بالذات. ومتى ما تغلبت المرأة في وقت لاحق على تأخر نموّها واستيقظت لديها، وهي في أوج وجودها كأنثى، قدرتها الكاملة على الحب، تكون علاقتها بزوجها قد تردّت وتدهورت منذ عهد بعيد؛ ولا يبقى أمامها من تعويض، وهي التي ارتضت الخنوع إلى ذلك الحين، غير أن تختار بين رغبة متأججة بلا إشباع أو الخيانة أو العصاب.

إن سلوك الرجل الجنسي في كثير من الأحيان **نموذج أول** لسائر أنماط استجاباته الأخرى في العالم. فالرجل، الذي يأخذ غلاباً موضوعه الجنسي، سيبدي بكل تأكيد عزيمة مماثلة لا تتزعزع في نشدان أهداف أخرى. أما من يمتنع بالمقابل، ولأسباب شتى، عن إشباع دوافعه الغريزية الجنسية الجامحة، فسيكون مسلكه في سائر مجالات حياته مسلكَ تساهلٍ وخنوع أكثر منه مسلكَ قوةٍ وعزيمة. ولو أخذنا الجنس المؤنث بجملته، لأمكن لنا أن نلحظ بسهولة أن الحياة الجنسية هي النموذج الأول لممارسة وظائف أخرى. فالتربية تحظر على النساء الاهتمام عقلياً بالمشكلات الجنسية مع أن حبّ الاستطلاع لديهن نحوها متأجج؛ وهي تخيفهن وتبثّ الذعر في نفوسهن إذ تعلّمهن أن حب الاستطلاع هذا ليس من الأنوثة في شيء، بل هو علامة استعداد مسبق للخطيئة. ومن ثم تلقي التربية في قلوبهن خوف التفكير، فتفقد المعرفة قيمتها في أنظارهن؛ ويمتدّ حظر التفكير إلى ما وراء الدائرة الجنسية، جزئياً من جراء تداعيات وترابطات محتومة، وجزئياً



بصورة آلية، شأنه في ذلك شأن حظر التفكير، الديني المصدر، الذي يُفرض على الرجل، أو شأن الولاء الأعمى الذي تطلبه السلطة من رعاياها الصالحين. وإني لا أرى الرأي الذي ذهب إليه موبيوس MOEBIUS(٢١)، في كتاب له هو مثار لاعتراضات كثيرة(٢٢)، من أن «ضعف المرأة العقلي الفيزيولوجي» قابل للتفسير بالتعارض البيولوجي بين العمل الفكري والنشاط الجنسي. بل أرى على العكس من ذلك أن الدونية الفكرية، التي هي حقيقة واقعة لا مماراة فيها لدى الكثيرات من النساء، ينبغي أن تردّ إلى ما يفرض عليهن، على نحو ما يتطلب القمع الجنسي، من كفّ عن التفكير.

حين تعالج مسألة الاستنكاف، لا يجري التمييز بجلاء ووضوح بين شكلين من أشكاله: الاستنكاف عن كل نشاط جنسي والاستنكاف عن العلاقات الجنسية مع الجنس الآخر. فالكثيرون من الأفراد، ممن يتباهون بأنهم أفلحوا في رفع أنفسهم إلى مصاف المستنكفين، لا يتوصلون إلى ذلك في الحقيقة إلا بطريق الاستمناء أو بمساعدة إشباعات مشابهة تتصل بالنشاط الإيروسي الذاتي في الطفولة الأولى. لكن بسبب هذا الرابط على وجه التحديد لا تكون هذه البدائل عن الإشباع الجنسي عديمة الأذى بالمرة: فهي تخلق لدى الفرد استعداداً مسبقاً للإصابة بشتى أشكال الأعصبة والأذهنة التي يتحدد شرطها الأول بنكوص الحياة الجنسية إلى نماذجها الطفلية. ولا يتجاوب الاستمناء بتاتاً، بالأصل، مع المتطلبات المثالية للأخلاق الجنسية المتحضرة، بل هو يزجّ بالشباب في منازعات مع المثل الأعلى مماثلة لتلك التي تزجّ بهم فيها التربية والتي يبغون تحاشيها عن طريق الاستنكاف. ناهيك عن أنه مفسدة للخلق، أولاً بالعادات السيئة، إذ يعلّم الفرد أن يبلغ أهدافاً ذات شأن بسهولة محبَّبة إلى النفس، ودونما تعب، أي وفق مبدأ **النمط النموذجي الأولي للجنسية**، بدل أن يجنِّد في سبيلها مقداراً كبيراً من

٢١ ـ بول يوليوس موبيوس: طبيب أعصاب ألماني (١٨٥٣ ـ ١٩٠٧)، سبق فرويد في تعريفه للهستيريا. كتب دراسات نفسية عن غوته وروسو وشوبنهاور ونيتشه. من مؤلفاته: **الحالة العصبية، مساهمات في نظرية الفوارق بين الجنسين، حول الأمراض العصبية الوراثية، مقالات حول مسائل الإيمان**.«م».

٢٢ ـ الإحالة هنا إلى كتابه: **حول حمق المرأة الفيزيولوجي**، ١٩٠٠. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الطاقة، وثانياً بالأخاييل التي تصاحب الإشباع، إذ يُرفع الموضوع الجنسي إلى درجة من الامتياز والكمال لا يسهل الوصول إلى مثلها في الواقع. حتى إن كاتباً فكاهياً (كارل كراوس KRAUS في الصحيفة الفييناوية FACKEL[٢٣]) أمكن له، بقلب الحجة، أن يعبِّر عن الحقيقة تعبيراً تهكمياً بهذه العبارة: ما الجماع إلا بديل غير كافٍ عن الاستمناء!

لقد تضافرت قوة مطلب الحضارة وصعوبة فريضة الاستنكاف لتجعلا من تحاشي اجتماع الأعضاء التناسلية لكلا الجنسين جوهر مبدأ الاستنكاف ولتحثّا على أنماط أخرى من النشاط الجنسي، مما يعدل في الواقع نصف امتثال له. والحق أنه منذ أن سقطت العلاقات الجنسية السوية ضحية اضطهاد بالغ القسوة من قبل الأخلاق، وكذلك من قبل علم أصول الصحة ـ من جراء احتمالات العدوى ـ تعاظمت الأهمية الاجتماعية على نحو لا يقبل جدالاً لذلك النمط من العلاقات بين الجنسين الذي يوصف بالانحراف والذي تضطلع فيه أجزاء أخرى من الجسم بدور الأعضاء التناسلية. وهذه الأنشطة لا يمكن أن توصف بأنها غير مؤذية نظير ضروب أخرى من الشطط في المعاشرة الجنسية، وهي تستأهل فضلاً عن ذلك الإدانة على الصعيد الخلقي لأنها تخفض تلك العلاقة الجادة التي هي علاقة الحب بين كائنين بشريين إلى مستوى لعبة لطيفة غير ذات شأن ولا تحتاج إلى مشاركة النفس. وثمة عاقبة أخرى لتفاقم صعوبة سَوْق حياة جنسية سوية، وهي انتشار الإشباع الجنسي المثلي؛ إذ لا مفرّ من أن نضيف إلى قائمة الجنسيين المثليين بحكم جِبِلَّتهم، والجنسيين المثليين الذين صاروا كذلك في طفولتهم، الجمهرة الكبرى من أولئك الذين طرقوا في سن النضج سبيل الجنسية المثلية الفرعي على إثر انسداد المجرى الرئيسي لتصريف طاقتهم الليبيدوية.

إن جميع هذه العواقب المحتومة واللاقصدية لمطلب الاستنكاف يجمع بينها قاسم مشترك واحد وهو أنها تتسبب في تدهور جوهري في التمهيد للزواج الذي يفترض

---

٢٣ ـ أي **المشعل**. وكارل كراوس: مسرحي وشاعر كاتب ساخر نمساوي (١٨٧٤ ـ ١٩٣٦). له عشرات من المؤلفات، وأصدر مجلة **المشعل** الساخرة على مدى أربعين عاماً، واتخذها منبراً لنقد أخلاق عصره ونقد الثقافة النمساوية في جملتها. «م».



به مع ذلك، من وجهة نظر الأخلاق الجنسية، أن يكون الوريث الوحيد للصبوات الجنسية. فجميع الرجال الذين أشبعوا الليبيدو عندهم بطريق آخر غير الطريق السوي وبشروط أخرى غير الشروط السوية، باللجوء إلى الاستمناء أو إلى ممارسات جنسية منحرفة، تجلت قوتهم في الزواج منقوصة. كذلك، إن النساء اللائي لا يتبقى أمامهن سوى شبيه هذه الوسائل لحماية بكارتهن يسلكن سلوك المخدَّرات في العلاقات الجنسية ضمن نطاق الزواج. وهذا الزواج، الذي يبدأ بنقص في القدرة على الحب لدى الطرفين، يكون أسهل قابلية للفصم بعد من سواه. ومن جراء هذا النقص في قدرة الرجل على الحب، لا تفوز المرأة بإشباع وتبقى مخدرة، مع أن استعدادها للبرودة، الناجم عن تربيتها، كان يمكن التغلب عليه بخبرة جنسية مكينة. ويصعب على مثل هذين الزوجين تحاشي النسل أكثر مما يصعب على زوجين صحيحين، لأن قوة الرجل الموهنة لا تتحمل إلا بعسر موانع الحمل. وبما أن العلاقات الجنسية هي مصدر الإكراهات كافة في هذه الحال، فسرعان ما يتمّ العزوف عنها للخروج من المأزق، ولو كان في ذلك هدم لأساس كل حياة زوجية.

إني أناشد العارفين بالأمور أن يؤكدوا أني لا أبالغ إطلاقاً، وأني على العكس أصوِّر وضعاً لا يقلّ خطورة عن أوضاع أخرى مشابهة، ناهيك عن أنه وضع متواتر يمكن أن يلاحَظ دوماً وتكراراً. والحق أن غير أهل العلم لا يمكن لهم أن يتصوروا كم يندر أن نلاقي رجالاً ذوي قوة جنسية سوية، وكم يكثر أن نلتقي البرودة لدى النصف المؤنث من أزواج المتزوجين الواقعين تحت هيمنة الأخلاق الجنسية التي ترفع حضارتنا لواءها؛ كما يشقّ عليهم أن يتصوروا كم يرتبط الزواج بالنسبة إلى الزوجين كليهما بضروب من العزوف والاستنكاف، وإلامَ تتقلص الحياة الزوجية، تلك السعادة التي طالما كانت موضع اشتهاء! لقد سبق أن ذكرت أن المخرج الأجلى للعيان في هذه الظروف هو المرض العصبي؛ غير أنه بودِّي أن أبيِّن أيضاً كيف يؤثِّر مثل هذين الزوجين أيضاً على ولدهما الوحيد أو على أولادهما القليلي العدد. قد يحسب المرء أن المسألة هنا مسألة انتقال في الوراثة، ولكن لو أنعمنا النظر فيها لتبيَّن لنا أن الأمر ناجم عن تأثير انطباعات وخبرات طفلية قوية. فالمرأة المعصوبة، التي لا يوفِّر زوجها لها الإشباع، أمّ شديدة القلق على ابنها، مسرفة أشدّ الإسراف في توفير

الحماية له: فهي تحوّل باتجاهه حاجتها إلى الحب وتوقظ فيه تبكيراً جنسياً. وسوء التفاهم بين الزوجين يهيِّج حياة الطفل العاطفية، فتنتابه بقوة، منذ نعومة أظفاره، مشاعر الحب والكره والغيرة. وتلقى القوة القامعة دعماً ومؤازرة من التربية الصارمة التي لا تسمح بأي نشاط للحياة الجنسية التي تبكِّر على هذا النحو غاية التبكير في الاستيقاظ؛ وصراع كهذا في سنّ مبكرة كهذه ينطوي على كل ما هو لازم ليشعل فتيل المرض العصبي الذي يدوم مدى الحياة.

أعود الآن إلى ما سبق لي توكيده من أنه عندما يدور الكلام عن الأعصبة فنادراً ما تؤخذ بعين الاعتبار خطورتها بكامل مداها. ولا أقصد بذلك الاستهانة التي تقابل بها هذه الحالات، والاستخفاف الذي تُنحَّى به من قبل الأهل، كما من قبل الأطباء الذين يؤكدون بثقة واعتداد أن بضعة أسابيع من العلاج بالمياه أو بضعة أشهر من الراحة والاستجمام قد تكون كافية لإزالتها. فهذه محض آراء صادرة عن أطباء وغير أطباء جهلة، ومجرد كلمات يقصد بها على الأخص مواساة المريض ومدّه بأسباب العزاء لردح من الزمن. ونحن نعلم على العكس أن العصاب المزمن، حتى وإن لم يقضِ قضاء مبرماً على كل قدرة لدى المريض على العيش، يشكل عبئاً باهظاً على مدى الحياة، مثله إلى حدّ ما مثل السلّ أو المرض القلبي. ولقد كان من الممكن غضّ النظر عن هذا الموقف لو كان المرض العصابي يستبعد من نطاق النشاط الحضاري عدداً ضئيلاً فقط من الأفراد الضعفاء، ويبيح بالمقابل للباقين أن يسهموا بقسطهم فيه، ولو على حساب محض إزعاجات شخصية. والحال أنه لزام عليَّ، على النقيض من ذلك، أن ألفت الانتباه إلى واقع أن العصاب، أينما تجلى وأياً يكن الشخص الذي نلتقيه لديه، قادر دوماً على إحباط المشروع الحضاري وإفشاله، وعلى الاضطلاع بعمل القوى النفسية المقموعة، عدوة الحضارة. وعلى هذا، إن المجتمع، الذي يدفع ثمن الانصياع لأوامره ونواهيه البعيدة المدى تزايداً في العصبية لدى الناس، لا يمكنه تسجيل أي كسب لقاء مثل تلك التضحيات. بل هو في الواقع لا يحرز أي كسب. لنتأمل مثال امرأة لا تحبّ زوجها لأن الشروط التي دشّن بها زواجها منه وتجربتها في الحياة الزوجية لم تمدّها بأي سبب للتدلّه بحبّه. وهذا مع أنه كان بودِّها حقاً لو



تحبّه لأن ذلك وحده يستجيب لمثل الزواج الأعلى الذي قامت كل تربيتها على أساسه. وعلى هذا، إنها ستقمع في داخل نفسها جميع النوازع التي تريد أن تفصح عن الحقيقة وأن تعارض تطلعاتها المثالية، وستبذل قصاراها بوجه خاص لتقوم بدور الزوجة المحبة الراعية. وستكون نتيجة هذا القمع الذاتي مرضاً عصابياً، وفي أجل قصير من الزمن سيكون هذا العصاب قد أخذ لها بثأرها من ذلك الرجل الذي لا تحبّه، وسبَّب له من الهموم وضروب عدم الرضى بقدر ما كان سيسبِّبه له محض الاعتراف بواقع الحال على حقيقته. وإن هذا لمثال نموذجي على ما يمكن أن يفعله العصاب. ومثل هذا الفشل في التعويض يمكن أن يُلحظ أيضاً بعد قمع نوازع أخرى مناوئة للحضارة لكنها ليست ذات طابع جنسي مباشر. من ذلك، مثلاً، أن من صار **طيِّباً طيبة مفرطة** من جراء القمع القوي لنزوعه الجبِلِّي إلى القسوة والصرامة يعاني في وقت لاحق من نزف شديد في الطاقة يعجز معه عن إنجاز أي شيء مما تتطلبه نوازعه التعويضية، ويؤول به الحال في خاتمة المطاف إلى أن يصير أقل طيبة مما لو أنه لم يقمع ميوله.

زد على ذلك أن تقييد النشاط الجنسي يقترن إجمالاً، بالنسبة إلى شعب من الشعوب، بتزايد في قلق الحياة وجزع الموت، مما يخلّ بقدرة الفرد على الاستمتاع وبما لديه من استعداد لمواجهة الموت في سبيل هدف من الأهداف؛ ويتجلى ذلك في تقلص ميله إلى الإنجاب، وتكون النتيجة استبعاد هذا الشعب أو هذه المجموعة من الأشخاص من المساهمة في بناء المستقبل. وهذا كله يبيح لنا أن نتساءل عما إذا كانت أخلاقنا الجنسية «المتحضرة» تستأهل التضحيات التي تفرضها علينا، ولا سيما إذا كانت الحبال التي تشدّنا إلى مذهب المتعة قوية إلى حدّ يتعذر معه علينا ألا ندرج مقداراً معيناً من الإشباع والسعادة الفرديين في عداد أهداف تطورنا الحضاري. وبديهي أن ليس على عاتق الطبيب تقع مهمة التقدم بمشاريع للإصلاح، لكن يُخيَّل إليّ مع ذلك أنه في مقدوري التنويه بالطابع الملحّ والمستعجل لمثل هذه الإصلاحات من خلال التوسع بالعرض الذي قدّمه ف. إهرنفلز عن الأضرار التي تتسبّب فيها أخلاقنا الجنسية «المتحضرة»، والتنويه بدورها في انتشار العصبية في الأزمنة الحديثة.



ـ ٤ ـ

نمط خاص من الاختيار الموضوعاني لدى الرجل (١٩١٠)

تركنا للشعراء حتى الآن مهمة تصوير «الشروط المحدِّدة للحب»، أي الشروط التي بموجبها يختار الناس موضوعهم والكيفية التي يوفِّقون بها بين خيالاتهم والواقع. وبالفعل، يتحلى الشعراء بصفات تؤهلهم للاضطلاع بمثل هذه المهمة: ومنها في المقام الأول حساسية مرهفة تتيح لهم أن يدركوا خلجات نفس الآخرين الخفية، وشجاعة لا يترددون معها في إطلاق الحرية للاشعور لينطق بما يشاء. بيد أن ثمة شيئاً ما ينتقص، من المنظور المعرفي، من قيمة ما يبوحون لنا به. فلزام على الشعراء أن يستثيروا لذة فكرية وجمالية معيّنة، وكذلك بعض عواطف ومشاعر محددة؛ ومن ثم لا يسعهم أن يمثِّلوا الواقع كما هو، بدون تعديله، بل يتعيَّن عليهم أن يعزلوا بعض جوانبه، وأن يخفوا بعض مظاهره المحرجة، وأن يلطِّفوا صورته الإجمالية، وأن يسدّوا ثغراته. تلكم هي امتيازات ما يسمى بـ«الحرية الشعرية». وهم لا يستطيعون، فضلاً عن ذلك، أن يولوا اهتماماً يذكر لأصل الحالات النفسية التي يصفونها في صورة ناجزة ولتطورها. ومن ثم، ألا يتعيَّن على العلم، بيده الأثقل وزناً ولقاء قدر أقلّ من المتعة الجمالية، أن يهتم بهذه الموضوعات التي سبقه الشعراء إلى صياغتها والتي تخلب ألباب الإنسانية منذ آلاف السنين؟ والحق أن من شأن هذه الملاحظات أن تبرر ما عقدنا عليه النية من إخضاع الحياة الحبِّية لبني الإنسان لمعالجة علمية صارمة. أفلا يمثِّل العلم عزوفاً عن مبدأ اللذة هو أكمل ما يقتدر عليه نشاطنا النفسي؟

* * *

تسنح لنا في أثناء المعالجات التحليلية النفسية فرص شتى لجمع معطيات عن



حياة العصابيين الحُبِّية. وقد نتذكر عندئذ أننا لاحظنا أو حُدِّثنا عن سلوك مماثل لدى أفراد هم بالإجمال أسوياء أو حتى لدى أشخاص من النوابغ. ومتى ما توفَّرت لنا مادة نستطيع أن نصنِّف معها هذه المعطيات، تهيَّأ لنا أن نستخلص بمزيد من الجلاء أنماطاً متمايزة. وسأصف بادئ ذي بدء نمطاً من أنماط الاختيار الموضوعاني لدى الرجل، لأنه يتَّسم بجملة من «الشروط المحدِّدة للحب» التي يبدو تواجدها معاً عصياً على الفهم، بل باعثاً على الحيرة والبلبلة ولأنه يقبل مع ذلك تفسيراً تحليلياً نفسياً بسيطاً.

١ ـ أول هذه الشروط المحدِّدة للحب ينبغي أن يوصف بأنه نوعي خالص: فحسبنا أن نلتقيه حتى نشرع بالبحث عن المواصفات الأخرى للنمط. ولنطلق عليه اسم شرط **الثالث المغبون** TIERS LESE؛ وهو يقتضي ألا يختار الفرد أبداً موضوعاً لحبِّه امرأة لا تزال حرة، وبعبارة أخرى، فتاة أو امرأة وحيدة، وإنما حصراً امرأة يستطيع رجل آخر، أزوجاً كان أم خطيباً أم صديقاً، أن يدَّعي أن له فيها حقَّ ملكيةٍ. وقد يبدو هذا الشرط في العديد من الحالات محتوماً إلى حدٍّ تبقى معه المرأة في بادئ الأمر بعيدة عن حقل الانتباه أو حتى مزدراة ما دامت غير مملوكة لأحد، لكنها سرعان ما تغدو موضوعاً للحالة الحبِّية حالما تدخل في واحدة من العلاقات المشار إليها مع رجل آخر.

٢ ـ قد يكون الشرط الثاني أقل اطِّراداً، ولكنه يبعث على قدر مماثل من الدهشة هو الآخر. ولا يتحقق النمط بتمامه إلا إذا انضاف هذا الشرط إلى الأول، مع أنه كثيراً ما يلوح وكأن الشرط الأول وحده كافٍ. ومؤدى الشرط الثاني هذا ما يلي: إن المرأة العفيفة والتي هي فوق الشبهات لا يكون لها أبداً تلك الجاذبية التي من شأنها أن ترفعها إلى مرتبة الموضوع الحُبِّي؛ فمثل هذه الجاذبية وقف على المرأة التي تحيط بحياتها الجنسية بصورة أو بأخرى سمعة سيئة، أي المرأة التي يستباح الشك في وفائها أو أهْلِيَّتها للثقة. ومن الممكن لهذه السمة الأخيرة أن تتفاوت على نطاق واسع، فتتراوح من الظلال الخفيفة التي تتلبس سمعة امرأة متزوجة غير نَفور من المغازلة إلى سلوك العاهرة أو فنانة الحب التي لا تتكتم بصدد تعدد علاقاتها. ومهما يكن من أمر، فإن الرجال الذين ينتمون إلى



النمط الذي نحن بصدده لا يسعهم الاستغناء عن قدر ولو طفيف من هذا القبيل. وفي مقدورنا أن نطلق على هذا الشرط تسمية فجّة في صراحتها، هي **حب المومسات**.

وكما أن الشرط الأول يتيح لنوازع حب المصارعة والعدوان أن تحظى بمبتغاها من الإشباع من خلال الرجل الذي تُسلب منه زوجته المحبوبة، كذلك إن الشرط الثاني، الذي يتطلب من المرأة أن تتصف بقدر من العهر، ذو صلة بالدور الفعال **للغيرة** التي تبدو وكأنها بمثابة حاجة عند هذا الطراز من العشاق. فعندما يتأتى لهم أن يغاروا أخيراً يدرك هواهم أوجه، وتحظى المرأة بكامل قيمتها في نظرهم، وهم لا يفوِّتون أبداً فرصة من شأنها أن تتيح لمثل تلك المشاعر العارمة أن تنتابهم. وأعجب ما في الأمر أن هذه الغيرة ليست موجهة ضد المالك المشروع للمرأة المحبوبة، وإنما ضد غرباء، ضد دخلاء جدد ممن يستطيعون أن يلقوا الشبهات على المرأة المحبوبة. وفي الحالات المشتطة لا يظهِر العاشق أية رغبة في امتلاك المرأة لنفسه وحده، بل يلوح وكأن العلاقات المثلثة الأطراف تطيب له إلى أبعد حدّ. فأحد مرضاي، وكان قد عانى أشد المعاناة من جهالات سيدة قلبه، لم يبدِ مع ذلك أي اعتراض على مشروع زواجها؛ بل على النقيض من ذلك، فقد عمل على تيسيره بجميع الوسائل الممكنة؛ ولم يظهِر إزاء الزوج أدنى غيرة على مدى السنوات التالية. وفي حالة نمطية أخرى، أبدى المريض غيرة شديدة حيال الزوج في أول علاقاته الغرامية، وأرغم معشوقته على قطع كل صلة زوجية لها بزوجها، ولكنه سلك في علاقاته العديدة التالية مسلك غيره ولم يرَ في الزوج مصدر إزعاج أو مضايقة.

والفقرات التالية ستصف هذه المرة لا الشروط المطلوب توفُّرها في الموضوع الحبِّي، بل سلوك العاشق حيال موضوع اختياره.

٣ ـ في الحياة الحبية السوية تتعين قيمة المرأة باستقامتها الجنسية وتنخفض كلما تدانت إلى صفات المومس. والحال أن النساء المتصفات بهذه الصفات هن اللائي يحظين من الرجال المنتمين إلى النمط الذين نحن بصدده بمعاملتهن كما لو أنهن **مواضيع حُبِّية رفيعة القيمة كل الرفعة**؛ وبيِّن أن هذا السلوك يشذّ في



ظاهره عن السلوك السويّ شذوذاً يبعث على الدهشة. وتقترن العلاقات الحبية بهؤلاء النساء بإنفاق عظيم في الطاقة النفسية، إذ تبلغ حداً من التطرف تُنحَّى معه الاهتمامات الأخرى كافة؛ وتستأثر هؤلاء النساء بالحب كله وحدهن؛ ومطلب الوفاء الذي يفرضه الرجل على نفسه يتجدد تكراراً كلما اصطدم بما ينقضه على صعيد الواقع الفعلي. وتتسم العلاقات الحبِّية التي نحن بصدد وصفها بطابع **قهري** بارز كل البروز؛ وهذا الطابع هو في الحقيقة، وإلى حدّ ما، خاصية كل حالة من الحالات الحبِّية. بيد أن الوفاء وقوة العلاقة لا يبيحان لنا أن نستنتج أن صلة حب واحدة من هذا النوع تملأ كل الحياة الحبِّية للشخص المعني أو لا تقع له إلا مرة واحدة في حياته هذه. بل على العكس من ذلك؛ فعلى مدى حياة من ينتمون من الأفراد إلى هذا النمط تتكرر مثل تلك الأشياء مراراً عدة، حاملة الخصائص نفسها، وكأن الهوى الواحد منها نسخة طبق الأصل عن الآخر. وحتى المواضيع الحبِّية يمكن لها، بتأثير شروط خارجية معيَّنة، وعلى سبيل المثال تغيير مكان الإقامة أو الجوار، أن ينوب بعضها مناب بعضها الآخر حتى ليصل بها الأمر إلى **تشكيل سلسلة طويلة**.

٤ ـ إن أكثر ما يثير عجب المراقب لدى هذا النمط من العشاق ميلهم السافر إلى **إنقاذ** المرأة المحبوبة. فالرجل راسخ الاقتناع بأن المرأة المحبوبة بحاجة إليه، وأنها بدونه ستفقد كل سيطرة أخلاقية على نفسها، وستسقط سريعاً إلى مستوى يرثى له. وعلى هذا فهو ينقذها بقدر ما لا يتخلى عنها. وقد تجد نية الإنقاذ هذه ما يبررها في بعض الحالات الخاصة حين يمكن التذرع بأن المرأة المحبوبة ليست أهلاً للثقة من وجهة النظر الجنسية وبأن مركزها الاجتماعي مهدد؛ ولكن هذه النية تبقى ظاهرة للعيان حتى حيثما لا تفلح في العثور على أساس من الواقع تستند إليه. فقد عرفتُ رجلاً ينتمي إلى النمط الذي نحن بصدد وصفه، برع كل البراعة في غزو قلوب محبوباته بفنٍّ في الحوار والإغواء لا يضاهى، ومع ذلك ما كان يدَّخر جهداً في العلاقة الغرامية التالية لكي يدفع بحبيبة الساعة إلى طريق «الفضيلة» بالاستعانة بمقالات من تأليفه.

لو ألقينا نظرة شاملة على مختلف قسمات اللوحة كما رسمناها ـ الشرط



الذي يقتضي ألا تكون المرأة المحبوبة حرة، والشرط الذي يماثل بينها وبين المومس، والقيمة الرفيعة المسبغة على المرأة المحبوبة، والحاجة إلى الغيرة، والوفاء الذي يمكن أن يتجدد بسهولة مع كل موضوع من المواضيع المؤلفة لسلسلة ـ لاستبعدنا احتمال استخلاصها كلها من مصدر واحد. ومع ذلك، لو تعمَّقنا في التحليل النفسي لتاريخ حياة الأشخاص المشار إليهم، لتوصَّلنا إلى ذلك بسهولة ويسر. فهذا الاختيار الموضوعاني ذو الطابع الخاص وهذا السلوك الحبّي الغريب لا يختلفان في الأصل النفسي عن الاختيار والسلوك اللذين نلتقيهما في الحياة الحبِّية للفرد السويّ: فمصدرهما كامن في تثبيت محبة الطفل على الأم، وهما يمثِّلان واحداً من مخارج هذا التثبيت. ولكن الحياة الحبِّية السوية لا تطالعنا إلا بعدد محدود للغاية من السمات التي تنمّ على نحو لا يتطرق إليه الشك عن النموذج الأموي في الاختيار الموضوعاني ـ ومن قبيل ذلك، مثلاً، اصطفاء الذكور الشباب لنساء ناضجات السن ـ على اعتبار أن الليبيدو يكون قد انفصل بسرعة نسبياً عن الأم. أما في النمط الذي نحن بصدده، فيكون الليبيدو قد طال مكوثه على العكس عند الأم، حتى إلى ما بعد ابتداء البلوغ، بحيث أن المواضيع الحبِّية التي يقع عليها الاختيار لاحقاً تحافظ على بصمة السمات الأموية وتغدو جميعها بدائل أموية يمكن تعرُّفها بسهولة. والمقارنة مع تشكُّل الجمجمة لدى الوليد تفرض نفسها هنا: فعندما تطول مدة الولادة، لا بدّ أن تأتي جمجمة الطفل متطاولة وكأنها صُبَّت في قالب المضيق السفلي لحوض الأم.

يتعيَّن علينا الآن أن نسوق من الحيثيات ما نبرِّر به حكمنا بأن السمات المميزة للنمط الذي نحن بصدده ـ الشروط المحددة للحب وللسلوك الحبِّي ـ تدين بأصلها فعلاً للتشكيل الأموي. وهذه مهمة سهلة نسبياً فيما يتصل بالشرط الأول: كون المرأة غير حرة، أو شرط الثالث المغبون. فيسير علينا أن ندرك حالاً أن الأم هي ملك للأب في نظر الطفل الذي يترعرع ضمن نطاق أسرته، وأن هذه الواقعة تغدو في نظر هذا الطفل عنصراً غير قابل للانفصال عن الماهية الأموية، وأن الثالث المغبون إن هو إلا الأب بشخصه. وتندرج في سياق الطفولة أيضاً سمة أخرى، وهي المغالاة في التقييم التي ترفع المرأة المحبوبة إلى مصاف



كائن فريد، منقطع النظير، لا يمكن لأي كائن آخر أن ينوب منابه، وذلك لأن المرء لا تكون له سوى أم واحدة، ولأن الصلة بالأم تقوم على أساس حدث لا يمكن أن يحوم حوله شك ولا سبيل لأن يتكرر[1].

إن يكن مفروضاً في المواضيع الحبّية، في النمط الذي نحن بصدده، أن تكون في المقام الأول بدائل عن الأم، فلن يشقّ علينا أن نفهم كونها تؤلف سلسلة، حتى وإن تناقض ذلك تناقضاً ظاهرياً ومباشراً مع شرط الوفاء. فالتحليل النفسي يفيدنا من خلال أمثلة أخرى أيضاً أن الموضوع المتعذر استبداله والفاعل فعله في اللاشعور غالباً ما يتجلى في شتات من المواضيع التي تؤلف سلسلة لامتناهية ـ وهي لامتناهية لأن كل بديل يورث حسرة على غياب الإشباع الذي إليه تصبو النفس. وعلى هذا المنوال، إن اللذة الجشعة التي يطرح بها الطفل الأسئلة في طور معيَّن من عمره قابلة للتفسير بواقع أن لدى الأطفال سؤالاً وحيداً يريدون طرحه، وإن كان لا يتخطى شفاههم أبداً؛ وعلى هذا المنوال أيضاً، إن ميل الكثيرين من العصابيين إلى الثرثرة والهذر قابل للتفسير بما يضغط على صدورهم من سرّ يلحف عليهم بالبوح به، وإن كانوا لا يجهرون به أبداً برغم الإغراءات كافة.

بالمقابل، إن الشرط الثاني المحدِّد للحب، أي مومسية الموضوع المختار، يبدو وكأنه يتنافى بقوة مع أي اشتقاق بدءاً من العقدة الأموية. فالراشدون يطيب لهم أن يتصوروا في فكرهم الشعوري الأم في صورة شخص ذي نقاء أخلاقي ناصع؛ ولعل ما من شيء يجرح المشاعر ويهيض الكرامة إن جاء من الخارج، ويخلق في النفس وقعاً موجعاً مراً إن نبع من الداخل، كالشك الذي قد يحوم حول صفة الأم تلك. بيد أن هذا التنافي الباتر بين الأم والمومس هو على وجه التحديد الذي سيحدو بنا إلى دراسة تاريخ تطور هاتين العقدتين والصلة اللاشعورية بينهما، وذلك على ضوء ما عرفناه منذ أمد طويل من أن ما يتبدى في الشعور منفلقاً إلى حدّين متناقضين يؤلِّف في الغالب من الأحيان كياناً واحداً في اللاشعور. وعلى الأثر يعود بنا بحثنا إلى العهد الذي يحوز فيه الطفل لأول مرة معرفة كاملة بما فيه

---

١ ـ الإشارة هنا إلى كون الأمومة واقعة مادية لا يمكن أن يحوم حولها شك في مقابل الأبوة التي تبقى واقعة استنتاجية وقابلة لأن تحوم حولها الشبهات. «م».



الكفاية بالعلاقات الجنسية بين الراشدين، وذلك عند مشارف البلوغ. فالمعلومات الفجّة التي يتلقاها عندئذ والتي ترمي بلا مواربة إلى إثارة ازدرائه واشمئزازه، تضعه على بيّنة من سرّ الحياة الجنسية، وتقوّض سلطة الراشدين بحكم تنافيها مع انفضاح أمر نشاطهم الجنسي. وأعظم وقع تخلفّه هذه الكشوف في نفس المطلّع الجديد على الأسرار هو ما اتصل منها بالعلاقة بين والديه. فهو كثيراً ما يميل إلى نفي هذه العلاقة نفياً قاطعاً بقوله مثلاً: «ربما كان أهلك وغيرهم يفعلون أشياء من هذا القبيل معاً، ولكن هذا مستحيل بالنسبة إلى أهلي».

إن لـ«الشروح الجنسية» لازمةً نادراً ما تنفصل عنها: ألا هي المعرفة بوجود بعض نساء يتخذن من الممارسة الجنسية حرفة لهم ويجلبن على أنفسهن من جراء ذلك الازدراءَ العام. ومثل هذا الازدراء لا يمكن أن يكون غريباً عن فكر الغلام؛ فهو لا يساوره حيال أولئك التعيسات سوى مزيج من الانجذاب والاشمئزاز، حالما يعلم أن في مقدورهن أن يولجنه هو أيضاً إلى الحياة الجنسية التي كان يتصورها حتى الآن وكأنها امتياز موقوف على «الكبار». وفيما بعد، ومتى ما انقطع لديه دابر كل شك فيما يقال له، وحين يمسي متعذراً عليه أن يتمسك بفكرة أن والديه استثناء لا تسري عليه قاعدة ذلك النشاط الدنيء، يقول بينه وبين نفسه، محاكماً الأمور بقحة كلبية، إن الفارق بين الأم والمومس ليس كبيراً إلى ذلك الحدّ، وذلك ما دامتا تفعلان الشيء عينه في خاتمة المطاف. وبالفعل، توقظ فيه التفاسير التي يكون قد تلقّاها الآثارَ الذاكرية للانطباعات والرغبات التي يرجع تاريخها إلى طفولته الأولى، وتنشّط من جديد بدءاً من هذه الآثار بعض الحاثات النفسية. ويطفق يشتهي الأم نفسها، بالمعنى الذي تكشّف له عنها حديثاً، ويبغض من جديد أباه وكأنه غريم ينهض عائقاً أمام رغبته؛ ويقع، كما نقول، تحت سلطان عقدة أوديب[٢]. إنه لا يغفر لأمه ويعتبر أنها خانته إذ خصّت أباه، لا هو نفسه، بحظوة المعاشرة الجنسية. ولا يكون لهذه الحاثات من مآل، إن لم ينقضِ أمرها بسرعة، غير أن تتابع مجراها في الأخاييل؛ ومدار هذه الأخاييل، مهما تنوعت أشكالها، هو على النشاط الجنسي للأم ؛ أما التوتر الذي يصاحبها فيجد حلاً له بيسر فائق في الاستمناء. وتحت ضغط المفعول المتضافر الذي

٢ ـ هذه أول مرة يستخدم فيها فرويد في كتاباته مفهوم عقدة أوديب. «م».



تمارسه بإلحافٍ هاتان الحاثَّتان، الشهوة والظمأ إلى الانتقام، تكون أخاييل خيانة الأم هي المأثورة بفارق كبير على ما سواها؛ والعشيق الذي تقترف معه الأم خيانتها يتشح بصورة شبه دائمة بملامح أنا الصبي، وبتعبير أدقّ، ملامح الشخصية الذاتية المسبغ عليها هالة من المثالية والمرفوعة ـ وقد أدركت مدارك الرجال ـ إلى مستوى الأب. وما كنت وصفته في غير هذا المكان باسم «الرواية العائلية»[٣] يتضمن الصيغ العديدة التي تتشكل بدءاً من هذا النشاط التخييلي، وكذلك تداخلها مع شتى الاهتمامات الأنانية التي تخالج الصبي في ذلك العمر. وبما أننا استكملنا دراسة هذا الجزء من النمو النفسي، فلن يعود في مستطاعنا بعد الآن أن ندرج في عداد الوقائع المتناقضة والعصية على الفهم كون الشرط الذي يزاوج بين المرأة المحبوبة والمومس مشتقاً مباشرة من العقدة الأموية. وطراز حياة الرجل الحبِّية الذي نصفه هنا يحمل آثار تاريخ هذا التطور ويمكن فهمه ببساطة على أنه تثبيت للغلام على أخاييل سن البلوغ، هذه الأخاييل التي تجد في زمن لاحق منفذاً لها في نهاية المطاف إلى واقع الحياة. وما من مانع يحول دون التسليم بأن المثابرة في سن البلوغ على الاستمناء قد أسهمت في تثبيت هذه الأخاييل.

أما الصلة بين هذه الأخاييل، التي تكون قد تمكنت في اندفاعها من السيطرة على الحياة الحبِّية الفعلية، وبين الميل إلى إنقاذ المرأة المحبوبة فتبدو وكأنها مجرد صلة رخوة، سطحية، قابلة للإرجاع إلى أساس شعوري. فالمرأة المعشوقة، بنزوعها إلى التقلُّب وعدم الوفاء، تعرِّض نفسها لأخطار: فمن المفهوم من ثمّ أن يبذل عاشقها قصاراه ليدرأ عنها شرَّ هذه الأخطار بسهره على فضيلتها وبمعارضته نوازعها الشريرة. بيد أن دراسة الذكريات الستارية[٤] والأخاييل والأحلام الليلية تدلنا على أننا هنا بإزاء عملية «عقلنة»، موفَّقة كل التوفيق، لدافع لاشعوري؛

٣ ـ أ. رانك: **أسطورة ميلاد البطل**، ١٩٠٩؛ **كتابات في علم النفس التطبيقي**، الدفتر٥، طبعة ١٩٢٢(*).

(*) كان مقال فرويد «**الرواية العائلية للعصابيين**» قد نشر بلا عنوان في كتاب رانك المشار إليه. «م».

٤ ـ الذكرى الستارية: ذكرى يتذكرها المريض في التحليل النفسي بوضوح ودقة وكثافة، وتكون في الظاهر واهية الأهمية، وهي في الواقع تشكيل بديل لتمويه بعض الأخاييل والاستيهامات اللاشعورية. وقد عزا إليها فرويد، من حيث أنها تمثل السنوات المنسية من الطفولة، قيمة معادلة لقيمة المضمون الظاهر للحلم من حيث أنه تشكيل بديل عن الأفكار الكامنة. «م».



عقلنة شبيهة، في مجال الحلم، بالصياغة الثانوية[٥] الناجحة. والواقع أن الدافع إلى **الإنقاذ** له مدلوله وتاريخه الخاصان؛ فهو فسيلة مستقلة بذاتها من العقدة الأموية[٦]، أو بتعبير أدقّ، من العقدة الوالدية. فحين يطرق مسامع الطفل قول من يقول له إنه يدين بحياته لوالديه، وإن أمه **هدته الحياة**، تعتمل في نفسه جنباً إلى جنب حاثات عطف ومحبة وحاثات تكافح لتجعل منه رجلاً كبيراً، رجلاً مستقلاً، وتتولد عن اجتماعهما رغبة في ردّ تلك الهدية إلى والديه وفي إهدائهما مقابلها هدية تعادلها قيمة. فالأمور تجري هنا كما لو أن الصبي المغتاظ يقول بينه وبين نفسه: لست بحاجة إلى شيء يأتيني عن طريق أبي، وبودّي أن أردّ إليه كل ما كلّفته إياه. وعلى الأثر يستغرق في الأخاييل التي تصوّر له أنه ينقذ أباه من **خطر يتهدد حياته**، فيبرئ على هذا النحو ذمّته نحوه. وكثيراً ما تتحول هذه الأخيولة إلى شخص الإمبراطور أو الملك أو أي عظيم من العظماء؛ ومن شأن هذا التحريف أن يجعلها قابلة لأن تصير شعورية، بل صالحة للاستخدام من قبل الشعراء. وحين يكون الأب هو موضوع أخيولة الإنقاذ، فإن معنى التحدي هو الذي ترجح إلى حدّ بعيد كفته؛ أما إذا كان موضوعها الأم، فإنها تتلبس في معظم الأحيان دلالة حنوّ ومحبة. فالأم منحت الطفل الحياة، وليس من اليسير مقابلة هذه الهدية الفريدة في نوعها بأخرى تعادلها قيمة. ولكن عن طريق تغيير بسيط في المعنى ـ وهو تغيير ميسور أمره في اللاشعور، ويشبه على صعيد الشعور الانزلاق من مفهوم إلى آخر ـ يكتسب إنقاذ الأم مدلول إعطائها طفلاً أو استيلادها طفلاً يكون بطبيعة الحال صورة طبق الأصل عن الغلام نفسه. وهذا المدلول لا يباين مباينة أكبر مما ينبغي المعنى الأصلي لفعل «الإنقاذ»؛ ومن ثم، إن تغيير المعنى لم يكن جزافياً. فالأم أعطتك حياة، حياتها بالذات. وأنت تعطيها مقابلها حياة أخرى، حياة طفل يشبه ذاتك أعظم الشبه. ويعرب الابن عن

٥ ـ الصياغة الثانوية: هي الطور الثاني من عمل الحلم بعد سيرورات التكثيف والنقل والإزاحة والتشخيص، وقوامها إخراج المضمون الظاهر للحلم إخراجاً منطقياً. «م».

٦ ـ النسبة إلى الأم بالعربية هي الأُمّي، ولكن بالنظر إلى التباس هذا النعت (دلالته على الجاهل غير المتعلم)، فقد تجاوزنا قواعد النسبة والاشتقاق، وقلنا «أموي» بدلاً من «أمي». «م».



اعترافه بالجميل برغبته في أن ينجب من الأم ابناً يكون شبيهه: وهكذا يتماهى، في تخييل الإنقاذ، تماهياً تاماً مع الأب. فجميع دوافع الحنو والمحبة والاعتراف بالجميل والشهوة والغلمة والتحدي والاستقلال الذاتي تحظى بإشباعها عبر رغبته الوحيدة في أن **يكون هو نفسه أباه**. ولا يتلاشى عنصر الخطر هو الآخر في أثناء تغيير المعنى؛ فالولادة هي بالتحديد ذلك الخطر الذي نجا منه الابن بجهود الأم. والولادة هي الخطر الأول الذي يتهدد الحياة، مثلما هي النموذج الأول لجميع الأخطار التي ستلي والتي يساورنا حيالها الحصر؛ وأرجح الظن أن تجربة الميلاد هي التي خلقت فينا ذلك الدفق من الانفعال الذي نطلق عليه اسم الحَصَر. ومكدوف[7]، بطل الأسطورة الإسكتلندية الذي لم تضعه أمه، بل أُستخرج من بطنها بعملية قيصرية، لم يعرف بنتيجة ذلك الحصَر[8].

لقد أصاب أرتميدورس[9]، وكان في العصور القديمة مفسِّر منامات، كبد الحقيقة حين قال إن الحلم يتغير مغزاه تبعاً لشخص الحالم. وبمقتضى القوانين الناظمة للتعبير عن الأفكار اللاشعورية، فإن فعل «أنقذ» يمكن أن يتغيّر معناه تبعاً لكون صاحب أخيولة الإنقاذ امرأة أو رجلاً. فبالنسبة إلى الرجل يمكن أن يعني الإنقاذ إنجاب طفل، أي أن يكون هذا الرجل هو علة ولادته، كما يعني بالنسبة إلى المرأة أن تضع طفلاً.

هذه المعاني المختلفة لفعل «أنقذ» يمكن تعرُّفها بوضوح في الأحلام والأخاييل على ضوء ارتباطها بالماء بوجه خاص. فحين يرى رجل في المنام أنه ينتشل امرأة من الماء، فهذا معناه أنه يجعل منها أماً، وهذا معناه بدوره، بمقتضى التأملات التي سبقت، أنه يجعل منها أمه. وحين تنتشل امرأة كائناً ما (طفلاً) من الماء فإنما تدلل بذلك، مثلها مثل ابنة فرعون في قصة موسى، على أنها أمه، أي تلك التي

٧ ـ مكدوف: شخصية إسكتلندية، من أدبيات القرن الرابع عشر، أعاد شكسبير توظيفها في مسرحية **مكبث** ليلبسها ثوب قاتل الملك مكبث. «م».

٨ ـ شكسبير: **مكبث**، الفصل الرابع. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٩ ـ أرتميدورس الأفسسي: كاتب كتاب **تفسير الأحلام** في خمسة مجلدات، وكان يعتقد أن الأحلام وحي من الآلهة واستباق للغيب. وقد نقل إسحق بن حنين كتابه من الإغريقية إلى العربية بعنوان **كتاب تعبير الرؤيا**. «م».



أنجبته[١٠].

وقد يتفق أيضاً أن تنطوي أخيولة الإنقاذ، إن كان الأب موضوعها، على معنى المحبة. فهي تعبِّر في هذه الحال عن الرغبة في أن يكون الأب ابناً له، أي في أن يكون له ابن شبيه بالأب. وإنما بسبب جميع هذه العلائق بين فكرة الإنقاذ والعقدة الوالدية يؤلف الميل إلى إنقاذ المرأة المعشوقة سمة رئيسية من سمات النمط الحُبِّي الذي نصفه هنا.

ولا يبدو لي ضرورياً هنا أن أبرهن على صحة منهجي هذا الذي يرمي فقط، كما عندما اعتمدت مفهوم **الإيروسية الشرجية**[١١]، إلى أن يستخلص من مادة المشاهدات أنماطاً متطرفة ومحددة المعالم بدقة. وفي الحالين كليهما، يبقى كبيراً جداً عدد الأفراد الذين يتعذّر علينا أن نلحظ لديهم سمات نمطنا هذه إلا على نطاق محدود أو في صورة قسمات أقلّ وضوحاً. ومن الجلّي أنه لن يتأتّى لنا أن نقيِّم هذه الأنماط تقييماً صحيحاً ما لم نكن أولاً قد عرضنا السياق الذي تندرج فيه بتمامه.

١٠ ـ أ. رانك: مصدر آنف الذكر.

١١ ـ الإحالة هنا إلى مقال فرويد **الطبع والإيروسية الشرجية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



- ٥ -

حول التخفيضات الشائعة للحياة الحبيّة

(١٩١٢)

(١)

متى ما تساءل المحلل النفسي عن الآفة التي بسببها يطلب الناس في أكثر الأحيان معونته، فإنه لا يملك إلا أن يجيب، إذا نحّى جانباً الحصَر في مختلف أشكاله وصوره: هي العنَّة النفسية. فهذا الخلل الغريب يصيب ذوي الجبِلَّة الليبيدوية القوية من الناس، وتتظاهر علائمه في أن الأعضاء الجنسية التنفيذية تأبى إتمام الفعل الجنسي، بالرغم من أنه قد يثبت فيما بعد كما من قبل أنها سليمة ومؤهلة لأداء وظيفتها، وبالرغم من وجود نزوع نفسي قوي إلى إتمام هذا الفعل. وأول خطوة نحو فهم هذه الحالة يخطوها المريض نفسه حين يكتشف أن هذا الخوَر لا يتجلى إلا في محاولاته مع أشخاص بعينهم، على حين أنه لا يعاني من شيء من هذا القبيل مع أشخاص آخرين. وعندئذ يفطن إلى أن كفّ قوة رجولته ناجم عن سمة خاصة يتَّسم بها الموضوع الجنسي، وقد يصرِّح أحياناً أنه يشعر بأن ثمة قوة تعتقله من داخل نفسه، وأن ثمة إرادة مضادة تفلح في إعاقة قصده الشعوري. لكنه لا يستطيع أن يخمِّن ما كنه هذا العائق الداخلي وما السمة الخاصة للموضوع الجنسي التي عنها ينشأ. فإن تكررت خبرته بمثل هذا الخوَر، فقد يقدِّر في أرجح الظن، بمقتضى تلك العملية المعروفة التي يقال لها الربط المغلوط، أن ذكرى المرة الأولى هي التي فرضت، بما تمثِّله من حصر باعث على الاضطراب، تكرار إحباط المحاولات التالية: أما تلك المرة الأولى عينها فيرّدها إلى



انطباع يزعم أنه ساوره «مصادفة واتفاقاً». ولقد سبق لباحثين عدة أن كتبوا ونشروا دراسات تحليلية نفسية عن العنّة النفسية[1]. وبوسع كل محلل نفسي أن يؤكد صحة ما ورد فيها من إيضاحات، بالاستناد إلى خبرته السريرية الخاصة. فالأمر يتعلق فعلاً بالمفعول الكافّ الذي تمارسه بعض العقد النفسية التي لا تقع في متناول معرفة الفرد. والمضمون الغالب لهذه المادة الإمراضية هو، في الأعم الغالب، التثبيت المحرمي Incestueux اللامتغلَّب عليه على الأم أو الأخت. وينبغي، فضلاً عن ذلك، أن نأخذ بعين الاعتبار تأثير الانطباعات والخبرات المؤلمة العارضة، ذات الصلة بالنشاط الجنسي الطفلي، والعوامل التي تنتقص، بصفة بالغة العمومية، من قوة الليبيدو الذي كان مفروضاً فيه أن ينصبّ على الموضوع الجنسي المؤنث[2].

إن أخضعنا لدراسة تحليلية معمّقة حالات من العنّة النفسية المؤكّدة، فهاكم ما نعلمه عن السيرورات الجنسية النفسية التي تتحكّم بهذه الحالات. فأساس الآفة هنا مرة أخرى ـ وربما كما في جميع الاضطرابات العصابية ـ كفّ في تاريخ تطور الليبيدو وصولاً إلى تشكله النهائي الذي في مقدورنا وصفه بأنه سويّ. فثمة تياران لم يلتقيا هنا، علماً بأن اجتماعهما وحده يكفل سلوكاً

١ ـ م شتاينر(*): **العنّة الوظيفية لدى الرجل وعلاجها**، ١٩٠٧؛ ف. شتيكل(**): **حالات الحصر العصبية وعلاجها**، فيينا ١٩٠٨ (الطبعة الثانية ١٩١٢)؛ فيرنزي(***): **التأويل والعلاج التحليليان للعنة الجنسية النفسية لدى الرجل، في مجلة الطب العصبي والنفسي**، ١٩٠٨.

(*) ماكسيميليان شتاينر: طبيب نمساوي مختص بالأمراض الجلدية والزهرية (١٨٧٤ ـ ١٩٤٢).

(**) فلهلم شتيكل: طبيب نمساوي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠) من أوائل تلاميذ فرويد. ولكنه أعاد النظر في مفهوم اللاشعور، مما جعل فرويد يكتب إليه بأنه أساء إساءة بالغة إلى التحليل النفسي. فردّ عليه: «أنت لا ترى سوى ما أنزل بك من حيف، وتتجاهل الأخطاء التي ارتكبتها»، من مؤلفاته: **المرأة الباردة، الاستمناء والجنسية المثلية**. «م».

(***) ساندورز فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). تولى فرويد تحليله نفسياً، ولكن طريقيهما افترقا لاحقاً. لُقّب بـ «الطفل الرهيب للتحليل النفسي» بعد الانتقادات اللاذعة التي وجّهها إلى «المرائين» من معاصريه من المحللين النفسيين. من مؤلفاته: **الرضة، تأملات حول المازوخية، الطفل في الراشد**. «م».

٢ ـ ف. شتيكل، مصدر آنف الذكر، ص ١٩١ وما يليها (الطبعة الألمانية).



حبّياً سوياً كل السواء؛ وبوسعنا تمييز هذين التيارين واحدهما من الآخر بالقول إن أولهما هو تيار **المحبة**، وثانيهما هو تيار **الشهوانية**.

الأقدم عهداً بين هذين التيارين هو تيار المحبة. ومصدره الزمني سنوات الطفولة الأولى؛ ويتكوَّن بالاستناد إلى اهتمامات غريزة حفظ الذات، وينصبّ على أفراد الأسرة والأشخاص الذين يتولون الطفل بالعناية. ويسوق معه من البداية رواسب من الدوافع الغريزية الجنسية، تشفّ عن نفسها بقدر متفاوت من الوضوح منذ عهد الطفولة، وهي رواسب يكتشفها التحليل النفسي في زمن لاحق لدى العصابيين في الحالات كافة. ويتناظر هذا التيار مع **الاختيار الموضوعاني الطفلي الأولي**. وهو يبيِّن لنا أن الدوافع الغريزية الجنسية تهتدي إلى مواضيعها الأولى بالاستناد إلى تقييمات الدوافع الغريزية الأنوية، تماماً مثلما تأتي خبرة الإشباعات الجنسية الأولى بالاستناد إلى الوظائف البدنية اللازمة لصون الحياة. و«محبة» الوالدين والأشخاص الذين يتعهدون الطفل بالعناية، هذه المحبة التي نادراً ما تنكر طابعها الإيروسي - «الطفل دمية إيروسية» - لها دور كبير في زيادة مساهمة الإيروسية في توظيفات الدوافع الغريزية الأنوية لدى الطفل وفي رفع هذه التوظيفات إلى مستوى لا مناص من أخذه بعين الاعتبار في النمو اللاحق، وعلى الأخص متى ما ساهمت في ذلك بعض الظروف الأخرى.

إن تثبيتات المحبة الطفلية هذه تستمرّ على امتداد الطفولة، وما تنفكّ تجرف معها قدراً من الإيروسية التي تتحول، بنتيجة ذلك، عن أهدافها الجنسية. والحال أنه متى ما أزفت ساعة البلوغ، انضاف إليها التيار «الشهواني» القوي الذي لا يخطئ بعد الآن أهدافه. وهذا التيار لا يتخلف أبداً، على ما تشير الظواهر، عن سلوك الطرق السابقة، وعن توظيف شحنات ليبيدوية أقوى بكثير في مواضيع الاختيار الطفلي الأول. ولكنه إذ يصطدم هنا بالعقبة التي تكون قد نُصبت في غضون ذلك، أي حاجز المحارم، فإنه سيبدي ميلاً إلى الاهتداء في أبكر وقت ممكن إلى الممرّ الذي يتيح له الانتقال من هذه المواضيع غير الموائمة، في الواقع، إلى مواضيع أخرى أجنبية يمكن معها للمرء أن يحيا حياة جنسية فعلية. هذه المواضيع الأجنبية سيجري اختيارها بدورها وفق نموذج المواضيع الطفلية، لكنها



ستشدّ إليها المحبة التي كانت متركزة على المواضيع السابقة. فالرجل يترك أباه وأمه ـ كما يأمر النصّ التوراتي ـ ويلحق زوجته: وعندئذ يتلاقى تيارا المحبة والشهوانية. وأعلى درجات الهوى الشهواني ستستتبع أعلى مستوى ممكن من التقييم النفسي (مغالاة الرجل في **تثمينه السوي للموضوع الجنسي**).

ثمة عاملان محدِّدان اثنان قد يقضيان بالإخفاق على هذا التقدم في مجرى تطور الليبيدو. أولاً كمية **الحرمان الفعلي** التي ستعترض سبيل الاختيار الموضوعاني الجديد وستنتقص من قيمة هذا الأخير في نظر الفرد. وبالفعل، ما معنى أن يتجه المرء نحو الاختيار الموضوعاني ما دام لا حظَّ له على الإطلاق في أن يتمكّن من اختيار شيء مناسب؟ والعامل الثاني هو كمية **الجاذبية** التي يمكن أن تبديها المواضيع الطفلية الواجب هجرها، وهذه الكمية تتناسب طرداً مع التوظيف الإيروسي الذي شُحنت به في أثناء الطفولة. وإن يكن هذان العاملان على قدر كافٍ من القوة شرعت الآلية العامة لتشكيل العصاب بالاشتغال. فالليبيدو يشيح عن الواقع، فيحتكره النشاط التخييلي (الانطواء على الذات)، فيعزز صور المواضيع الجنسية الأولى ويتثبت عليها. لكن حظر المحارم يرغم الليبيدو الميمِّم شطر هذه المواضيع على البقاء أسير اللاشعور. فإذا بالتيار الشهواني، التابع الآن للاشعور، يتظاهر في أفعال استمنائية، ويسهم من ثمّ في تعزيز ذلك التثبيت. ولا يغيِّر في واقع الأمر شيئاً أن يكون التقدم، الذي باء بالفشل في الواقع، قد تحقق الآن في الخيال، وأن تكون قد نابت مناب المواضيع الجنسية الخيالية، في المواقف التخييلية التي تفضي إلى إشباع استمنائي، مواضيع أجنبية. فعن طريق مثل هذه البدائل يمكن للأخاييل أن تغدو شعورية، ولكن لا يكون قد تحقق أي تقدم على الإطلاق في الوضعية الفعلية لليبيدو.

على هذا النحو قد يتفق أن ترتبط كل شهوانية الفتى، في اللاشعور، بمواضيع محرمية، أو بعبارة أخرى أن تتثبت على أخاييل محرمية لاشعورية. وتنجم عن ذلك عندئذ عنّة مطلقة؛ وقد تتواكب هذه العنَّة مع ضعف فعلي، تمّ اكتسابه في الوقت نفسه، في الأعضاء التي تمارس الفعل الجنسي.

لا ضرورة، كيما ينشأ ما يسمّى بالعنَّة النفسية بحصر المعِنى، لأن تتحقق



جميع هذه الشروط بدقة تامة. فليس من المحتّم أن يخضع التيار الشهواني بكامل مقداره للمصير الذي يرغمه على الاختباء خلف تيار المحبة؛ بل لا بدّ أن يبقى على قدر كافٍ من القوة أو أن يفلت من الكفّ بالقدر الذي يكفي أيضاً ليشقّ لنفسه بصورة جزئية طريقاً إلى الواقع. بيد أن أظهر العلائم تتيح لنا أن نتحقق من أن النشاط الجنسي عند أمثال هؤلاء الأشخاص ليس محمولاً بتمام القوة الدافعة النفسية. فهذا النشاط متقلب، سهل تعكيره، أخرق في التنفيذ في كثير من الأحيان، ولا يظفر إلا بقدر زهيد من المتعة. لكن أول ما يحتاجه هو أن يتجنب تيار المحبة. وعلى هذا المنوال يفرض انحداد ما نفسه في الاختيار الموضوعاني. فالمواضيع الوحيدة التي ينشدها التيار الشهواني، الذي بقي فاعلاً نشطاً، هي المواضيع التي لا تذكِّره بالأشخاص المحرميين المحظورين عليه؛ فإذا ما ثار في نفس الشخص انفعال من شأنه أن يفضي إلى تثمين نفسي عالٍ، لم يتمخض عن إثارة للشهوانية، بل صبّ في مشاعر حنو ومحبة ليس لها مفعول إيروسي. والحق أن الحياة الحبِّية عند أمثال هؤلاء الأشخاص تظلّ موزعة (منفلقة) بين اتجاهين يجسِّدهما الفن في الحب السماوي والحب الأرضي (أو الحيواني). فحيثما أحبّوا ما اشتهوا، وحيثما اشتهوا ما استطاعوا أن يحبّوا. فهم يبحثون عن مواضيع لا حاجة بهم إلى أن يحبِّوها، وذلك كيما يبقوا شهوانيتهم على مبعدة من مواضيع حبّهم؛ وبمقتضى قوانين «الحساسية العُقدية complexuelle»[٣] و«عودة المكبوت» يطرأ ذلك القصور الغريب في نوعه الذي هو العنَّة النفسية متى ما كان الموضوع، الذي وقع عليه الاختيار لتحاشي حب المحارم، منطوياً على سمة، غير بارزة في الغالب من الأحيان، تعيد إلى الذاكرة الموضوع المطلوب تحاشيه.

في مواجهة اضطراب كهذا ودرءاً له، تكون وسيلة الحماية الرئيسية التي يلجأ إليها الإنسان الذي تعاني حياته الحبِّية من مثل ذلك الانفلاق هي التخفيض النفسي للموضوع الجنسي، على حين أن المغالاة في التقييم، التي تكون في الحالات السوية من نصيب الموضوع الجنسي، تمسي وقفاً على الموضوع المحرمي

٣ ـ العقدية: نسبة إلى العقدة. والحساسية العقدية مفهوم يقتبسه فرويد عن كارل يونغ في كتابه **دراسات في الترابطات برسم التشخيص**. «م».



وعلى ممثّليه. وبقدر ما يتحقق شرط التخفيض هذا تقتدر الشهوانية على الإفصاح عن نفسها بحرية وتتمخض عن نجاحات جنسية وعن درجة عالية من اللذة. وثمة عامل آخر يسهم في الوصول إلى هذه النتيجة. فالأشخاص الذين لم يصبّ لديهم تيار المحبة وتيار الشهوانية في مجراهما السوي، تكون حياتهم الحبِّية في غالب الأحيان بعيدة أيضاً عن الاتسام بالرهافة والنعومة: فهم قد حافظوا على أهداف جنسية منحرفة، وعدم تحقيق هذه الأهداف يكون له في نفوسهم وقع الحرمان الحادّ من اللذة، على حين أن تحقيقها لا يبدو ممكناً إلا بوساطة موضوع جنسي مخفوض القيمة، منتقص القدر.

لقد تحدثنا في مساهمة لنا سابقة[٤] عن أخاييل الغلام الذي يخفض أمه إلى منزلة المومس؛ وها نحنذا ندرك الآن الدوافع التي تجعل هذه الأخاييل قابلة للفهم. فهي بمثابة جهود لبناء جسر، ولو بصورة استيهامية، فوق الهوة الفاصلة بين كلا تياري الحياة الحبِّية، ولتحويل الأم، عن طريق خفضها، إلى موضوع للشهوانية.

(٢)

قمنا حتى الآن بفحص نفسي ـ طبي للعنة النفسية، وهذا مما لا يبرر عنوان هذا المقال. لكن سيتضح لنا حالاً أن هذا المدخل كان ضرورياً للوصول إلى موضوعنا الحقيقي.

لقد أرجعنا العنَّة النفسية إلى عدم تلاقي تياري الحياة الحبِّية، تيار المحبة وتيار الشهوانية؛ وفسّرنا هذا الكفّ في النمو بتأثير تثبيتات طفلية قوية وبتأثير الإحباط الذي يظهر لاحقاً. والاعتراض الأول الذي ينبغي الردّ به على هذه النظرية هو شططها وإسرافها: إذ هي تفسِّر لنا لماذا يعاني بعض الأشخاص من العنَّة النفسية، ولكنها تدع الغموض يلفّ واقع أن ثمة أشخاصاً آخرين يتأتى لهم الإفلات من هذه الآفة. إن جميع العوامل الظاهرة المشار إليها: التثبيت الطفلي القوي، حاجز المحارم، الإحباط في سنيّ النمو في فترة ما بعد البلوغ، يمكن أن تتواجد عملياً

---

٤ ـ نمط خاص من الاختيار الموضوعاني لدى الرجل. «م».



لدى جميع البشر المتحضرين؛ ومباح لنا بالتالي أن نتوقع أن تكون العنَّة النفسية آفة عامة شاملة في إطار الحضارة، لا مجرد مرض يصيب قلة من الناس دون كثرتهم.

من الممكن التملُّص بيسر من هذه الحجة عن طريق التذرع بالعامل الكمّي في حتمية المرض، وهو عامل يتحكم بقدر أو بآخر بمفعول سائر العوامل المذكورة، وبه يناط ظهور مرض بعينه أو عدم ظهوره. لكني على عظيم رغبتي في الإقرار بصوابية هذا الجواب لا تساورني النية في اطِّراح الحجة المشار إليها؛ بل أودّ أن أتقدم، على العكس، بأطروحة تجعل من العنَّة النفسية ظاهرة أكثر انتشاراً بكثير مما قد نظن، على اعتبار أن درجة محددة من هذه العنَّة هي سمة من السمات التي تتصف بها فعلياً الحياة الحبِّية للإنسان المتحضر.

لو توسعنا بمفهوم العنَّة النفسية ولم نحدَّه بفشل الجماع في الحالات التي يتوفر فيها مع ذلك نشدان للذة وجهاز تناسلي سليم، لتوجَّب علينا في المقام الأول أن نشمل به جميع أولئك الرجال الذين يقال إنهم مصابون بخدار نفسي؛ فالفعل عندهم يتمّ بلا خور ولكن كذلك بلا كسب في اللذة: وحالات هؤلاء أكثر تواتراً مما قد يحلو لنا أن نتصور. ويكشف البحث التحليلي النفسي في مثل هذه الحالات عن العوامل الإتيولوجية عينها التي اكتشفناها في العنَّة النفسية بالمعنى الضيق للكلمة، بدون أن تجد الفوارق في الأعراض بنتيجة ذلك تفسيراً فورياً لها. ويقودنا هؤلاء الرجال المصابون بالخدار، بحكم تشابه يسهل تبريره، إلى العدد الضخم من النساء الباردات اللائي لا يمكن وصف سلوكهن الحبِّي أو فهمه بأحسن مما لو قارّنا بينه وبين العنَّة النفسية الأكثر صخباً لدى الرجل[٥].

لكن لو أننا، بدل أن نتطلع إلى التوسع بمفهوم العنَّة النفسية، أنعمنا النظر في الأشكال التي تتظاهر بها أعراضها بالصورة المبسَّطة التي صورّناها بها، لما وجدنا بدأً من التسليم بأن السلوك الحبِّي لدى الرجل في حضارتنا الحالية يحمل، في مجمله، طابع العنَّة النفسية: فتيار المحبة وتيار الشهوانية لم يندمجا كما ينبغي إلا لدى عدد ضئيل من الكائنات المتحضرة: فالرجل يشعر بصورة شبه دائمة

٥ ـ إننا نسلِّم بلا جدال بأن برودة المرأة موضوع معقد، يمكن تناوله من وجهة نظر أخرى أيضاً.



بالمحدودية في نشاطه الجنسي بحكم احترامه للمرأة، وهو لا يظهِر ملء قوته إلا قبالة موضوع جنسي مخفوض القيمة؛ وهذا أمر يستند، من جهة أخرى، إلى واقع انطواء أهدافه الجنسية على عناصر منحرفة لا يبيح لنفسه إشباعها مع امرأة يحترمها. لذلك نراه لا يتوصل إلى متعة جنسية كاملة إلا متى ما كان في مستطاعه أن يسلس قياده بلا رادع للإشباع، وهو ما لا يجرؤ على فعله، مثلاً، مع زوجته ذات الحياء والحشمة. من هنا تنبع حاجته إلى موضوع جنسي مخفوض، إلى امرأة من منزلة دنيا لا يتعيَّن عليه أن يعيرها اهتمامات جمالية، ولا تعرفه في حياته الفعلية ولا تستطيع أن تحكم عليه. وإنما على امرأة كهذه يؤثر أن يقف قوته الجنسية، حتى وإن كانت محبته تذهب بتمامها إلى امرأة من مستوى أعلى. وغالباً ما يُلاحظ لدى الرجال المنتمين إلى الطبقات الاجتماعية العليا ميل إلى اتخاذ امرأة من مقام أدنى عشيقة لهم لأجل مديد من الزمن أو حتى إلى اختيارها زوجة. وقد لا يعدو الأمر أن يكون، في هذه الحال أيضاً، نتيجة للحاجة إلى الفوز بموضوع جنسي مخفوض ترتبط به سيكولوجياً إمكانية الإشباع الكامل.

لن أتردد في أن أعزو أيضاً تبعة هذا السلوك الحبِّي الكثير التواتر لدى الرجال المتحضرين إلى العاملين اللذين يتحكمان بالعنَّة النفسية الحقيقية، وأعني بهما: التثبيت المحرمي القوي في الطفولة والإحباط الفعلي في المراهقة. وما سأقوله ليس مما يحلو سماعه، فضلاً عن أنه ظاهر التناقض، ولكن ليس لي مناص من قوله، وهو أن الرجل كيما يكون في حياته الحبِّية حراً حقاً، وبالتالي سعيداً، لا بدّ أن يكون تغلَّب على احترامه للمرأة، وتآلف مع فكرة العلاقة المحرمية بالأم أو الأخت. ومن يخضِع نفسه، إزاء هذا المطلب، لفحص ضمير جادّ فسيكتشف في أرجح الظن أنه يعدّ الفعل الجنسي في دخيلة نفسه، ورغماً عن كل شيء، فعلاً مُحِطّاً لا يلِّطخ ولا يلِّوث الجسم وحده. وهذا التقييم، الذي لا يقرّ به بطبيعة الحال بطيبة خاطر، لن يجد من أصل له، مهما أطال البحث، إلا في تلك المرحلة من حداثته التي كان التيار الشهواني لديه قد بلغ فيها درجة ملموسة من القوة ولكنه ارتطم بتحظير الإشباع عليه بوساطة موضوع أجنبي بقوة تكاد تكون مماثلة لتحظيره عليه بوساطة موضوع محرمي.



وبدورهن تقع النساء في حضارتنا تحت تأثير المفعول اللاحق لتربيتهن، ويتحملن فضلاً عن ذلك عواقب سلوك الرجال. وبديهي أن الخسارة بالنسبة إلى المرأة واحدة سواء أجاءها الرجل في عزّ سلطانها أم حلّ محلَّ المغالاة الأولية في التقييم، المرتبطة بحالة العشق، انخفاضٌ في القيمة على إثر امتلاك الرجل لها. ونلحظ هنا أن الحاجة إلى موضوع جنسي مخفوض هي عند المرأة أقل مما عند الرجل، ولهذا صلة في أرجح الظن بالشرط الآخر التالي، وهو أن المرأة تعتمل لديها بصفة عامة نفس الحاجة التي تعتمل لدى الرجل إلى المغالاة في التقييم الجنسي. غير أن بقاء المرأة أمداً طويلاً من الزمن بمنأى عن النشاط الجنسي وطول بقاء شهوانيتها أسيرة الاستيهامات تترتب عليهما بالنسبة إليها نتيجة مهمة أخرى. فهي في كثير من الأحوال تقف عاجزة، في طور لاحق، عن فصم الرابط الذي يربط النشاط الشهواني بالمحظورات، وينجلي من ثم أمر عنَّتها النفسية، أي برودتها، متى ما أبيح لها في نهاية المطاف هذا النشاط. ومن هنا كان مسعى الكثيرات من النساء إلى التكتم وصون السرّ لأجل آخر من الزمن، حتى في حال إباحة العلاقة لهن؛ ومن هنا أيضاً كان اقتدار نساء أخريات على استشعار أحاسيس سوية حالما يتوفَّر لهن من جديد شرط المحظور في علاقة حب سرية؛ فخيانتهن للزوج تمكّنهن من ضمان وفاء مجدَّد للعشيق.

وعندي أن شرط الحظر في حياة المرأة الحبِّية يضاهي لدى الرجل الحاجة إلى خفض الموضوع الجنسي. فكلاهما نتيجة للفاصل الزمني الذي يفصل بين النضوج والنشاط الجنسيين، والذي تفرضه الحضارة عن طريق التربية. وكلاهما يرمي إلى تصفية العنَّة النفسية الناجمة عن عدم توافق حاثة المحبة وحاثة الشهوة. ولئن تمخضت الأسباب الواحدة عن نتيجة مختلفة إلى هذا الحدّ لدى كل من المرأة والرجل، فلربما كان بوسعنا أن نعزو ذلك إلى فارق آخر في السلوك بين الجنسين. فالمرأة المتحضرة لا تنتهك إجمالاً الحظر المضروب على نشاطها الجنسي في فترة الانتظار، ومن ثم تنعقد لديها صلة وثيقة بين الحظر والجنسية. أما الرجل فيخرق في غالب الأحيان هذا الحظر، بشرط خفض الموضوع، ومنذئذ يصبح هذا الشرط عينه جزءاً من حياته الحبِّية.



ونظراً إلى الجهود الحثيثة التي تبذل في إطار الحضارة المعاصرة لإصلاح الحياة الجنسية، فقد لا يكون من النافل أن نذكِّر بأن المبحث التحليلي النفسي لا طموح له في هذا المجال أكثر مما لأي مبحث آخر. فليس له من هدف غير أن يكشف عن علاقات محددة بردِّه الظاهر إلى الخبيء. ولئن أفادت الإصلاحات من كشوفه لتستبدل ما هو ضارّ بما هو أصلح، فذلك يوافقه. ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ بأن مؤسسات أخرى لن تتطلب تضحيات أخرى، وربما أفدح.

(٣)

يترتب على تدجين الحضارة للحياة الحبِّيّة خفض عام للمواضيع الجنسية، وفي هذا ما قد يحدونا إلى الانتقال بأبصارنا من المواضيع إلى الدوافع الغريزية ذاتها. فالأذى الناجم عن الإحباط الأولي للمتعة الجنسية يتمثل في أن هذه المتعة، متى ما أرخي لها العنان لاحقاً في إطار الزواج، لا تؤتي ثمارها على نحو يبعث على تمام الرضى. غير أن الحرية الجنسية اللامحدودة لو أبيحت من البداية لما أفضت إلى نتيجة أفضل. فمن السهل أن نثبت أن القيمة النفسية للحاجة الحبِّيّة تتدنى حالما يغدو إشباع هذه الحاجة سهلاً ميسوراً. فلا بدّ من عقبة كيما يتمّ إسماء الليبيدو؛ وحيثما لا تكون المقاومات الطبيعية في وجه الإشباع كافية نجد أن البشر، في كل آن وزمان، يعمدون إلى اصطناع مقاومات متواضع عليها لكي يتمكنوا من التمتع بالحبّ. وهذا يصدق على الأفراد كما على الشعوب. ففي الأزمنة التي ما عاد فيها الإشباع الحبِّي يصطدم بصعاب، على نحو ما آلت إليه الحال في الأرجح في طور أفول الحضارة القديمة، صار الحبّ غير ذي قيمة، وفرغت الحياة، واقتضى الأمر تشكيلات ارتجاعية قوية لإحياء القيم العاطفية التي لا غنى عنها. ونستطيع من هذه الزاوية أن نؤكد أن التيار الزهدي في المسيحية ابتدع للحب منظومة من القيم النفسية ما كان للعصور القديمة الوثنية أن تخلعها عليه. وقد أدرك هذا التيار أسمى دلالة له مع الرهبان المتنسكين الذين ملأ حياتهم بتمامها تقريباً الكفاحُ ضد الغواية الليبيدوية.

من المؤكد أننا نميل أول الأمر إلى أن نعزو الصعاب القائمة في هذا المجال إلى خصائص عامة لدوافعنا الغريزية العضوية. فالأهمية النفسية لدافع ما من الدوافع



الغريزية تنمو، بالفعل، طرداً مع إحباطها، وهذه بلا مراء قاعدة عامة. فلو أننا حاولنا أن نُخضِع للجوع، في شروط متماثلة، عدداً معلوماً من أشخاص مختلفين أقصى الاختلاف فيما بينهم، لوجدنا جميع الفروق الفردية تمَّحي طرداً مع تعاظم الحاجة الآسرة إلى الطعام، لتظهر مكانها الأمارات الأحادية الشكل لهذه الغريزة اليتيمة اللامشبعة. لكن هل من المحقق أيضاً أن إشباع دافع من الدوافع الغريزية بوجه عام يؤدي إلى خفض ملحوظ أيضاً في قيمته النفسية؟ ليذهب الفكر بنا، مثلاً، إلى العلاقة التي تقوم بين المدمن والخمر. أفليس صحيحاً أن الخمر يقدِّم دوماً لشاربه الإشباع السُمِّي نفسه الذي غالباً ما شبَّهه الشعراء بالإشباع الإيروسي - وهو تشبيه مقبول أصلاً من وجهة نظر علمية؟ وهل سمع أحد منا قطّ أن المدمن يضطر إلى تغيير الشراب بلا انقطاع لأنه سرعان ما يسأم من شراب لا يتبدل؟ العكس هو الصحيح: فالتعود يوثِّق العلاقة دوماً بين الإنسان وبين نوع الخمر الذي يشربه. وهل تظهر لدى المدمن حاجة إلى الرحيل إلى بلد يكون فيه الخمر أغلى ثمناً أو استهلاكه محظوراً كيما ينشِّط، بمثل هذه الصعاب والعوائق، إشباعه الآيل إلى تدنٍّ؟ كلا، على الإطلاق. فلنصغ إلى ما قاله واحد من كبار معاقري الخمرة - وهو بوكلن Bocklin[٦] - عن علاقة هؤلاء بهذه: فهم يتحدثون عن أصفى حال من الانسجام ويضربون بتلك العلاقة مثالاً لزواج موفق سعيد[٧]. فهل من سبب يحتِّم أن تكون علاقة العاشق بموضوعه الجنسي مختلفة إلى هذا الحدّ؟

وعليه، ومهما بدا الأمر مستغرباً، إني أعتقد أنه قد يكون لزاماً علينا أن نفكر باحتمال معيَّن، وهو أن تكون طبيعة الدافع الغريزي الجنسي بالذات منطوية على شيء لا يوائم تحقيق الإشباع التام. ومن التاريخ الطويل والصعب لتطور هذا الدافع الغريزي يبرز دفعة واحدة عاملان قد يكون في مستطاعنا تحميلهما تبعة مثل هذه الصعوبة. أولهما أن الموضوع النهائي للدافع الغريزي الجنسي لا يعود، من جراء

٦ - أرنولد بوكلن: رسام ونحات سويسري (١٨٢٧ - ١٩٠١). من كبار ممثلي الرمزية الألمانية، وممن مهدوا لظهور السريالية. «م».

٧ - فلويركه: **عشر سنوات مع بوكلن**، الطبعة الثانية، ١٩٠٢.



انقسام الاختيار الموضوعاني إلى مرحلتين يتوسطهما تدخل حاجز المحارم، هو الموضوع الأصلي، وإنما بديله فحسب. والحال أن التحليل النفسي يفيدنا ما يلي: عندما يتلاشى الموضوع الأصلي لحاثة رغبية من جراء الكبت، فإنه غالباً ما تمثِّله سلسلة لامتناهية من المواضيع البديلة، لا يكون أي منها كافياً ملء الكفاية. وهذا من شأنه أن يفسِّر لنا التقلُّب في الاختيار الموضوعاني، وذلك «الجوع إلى التهيُّج»[8] الذي هو سمة غالبة متواترة في الحياة الحبِّية عند الراشدين.

أما فيما يتصل بالعامل الثاني فنحن نعلم أن الدافع الغريزي الجنسي ينقسم في البداية إلى سلسلة طويلة من المقوِّمات ـ أو ينبع بالأحرى من سلسلة كهذه ـ وهذه المقوِّمات قابلة جميعها لأن تدمج في التشكل اللاحق لهذ الدافع الغريزي، ولكن لا بدّ قبل ذلك من أن تُقمع أو تستخدم استخداماً مغايراً. وهي في المقام الأول مقوِّمات غريزية كوبروفيلية[9] لم تلبث أن انكشف تناقضها مع المتطلبات الجمالية لحضارتنا، وفي أغلب التقدير منذ أن أخذنا بالوضعية الواقفة وارتفعنا بعضو حاسة الشمّ عندنا فوق الأرض؛ ثم إنها في المقام الثاني، وإلى حدّ غير قليل، حفزات سادية تنتمي إلى الحياة الحبِّية. غير أن جميع سيرورات النمو والتطور هذه لا تطال سوى الطبقات العليا من هذه البنية المعقدة. أما السيرورات الأساسية التي تؤمِّن التهيُّج الحبِّي فتبقى ثابتة بلا تغيير. فالتبرزي مرتبط ارتباطاً حميماً لا فكاك له بالجنسي؛ ومن ثم، إن موقع الأعضاء التناسلية ـ Inter Urinas Et Faeces[10] ـ يبقى هو العامل المحدِّد الثابت الذي لا يتغيَّر. وبوسعنا أن نقول هنا، مقتبسين المقولة المعروفة لنابليون الكبير: التشريح هو القدر[11]. أما الأعضاء التناسلية بحدّ ذاتها فلم تتبع أشكال الجسم

٨ ـ مفهوم صاغه ألفريد هوش في بحثه: **حول مسألة التقييم القضائي للجنح الجنسية**، ١٨٩٦، وقبسه عنه إيفان بلوخ الذي قبسه عنه بدوره سيغموند فرويد في **المباحث الثلاثة في النظرية الجنسية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٩ ـ الكوبروفيليا: اللذة الجنسية للتبرز. «م».

١٠ ـ باللاتينية في النص: **بين البول والبراز**. وتمامه: **بين البول والبراز نولد**، وهو قول مأثور نُسب خطأ على مدى قرون إلى القديس أوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠)، إلى أن أثبت البحث الحديث أن قائله هو فورفوريوس الصوري (٢٣٤ ـ ٣٠٥) في كتابه: **الردّ على النصارى**. «م».



الإنساني في تطورها نحو الجمال، بل بقيت حيوانية، ومن ثم إن الحب في جوهره لا يزال كما كان بالأمس حيوانياً. ومن العسير تربية الدوافع الغريزية الحبِّية إذ تتمخض تربيتها تارة عن أكثر من القدر اللازم، وطوراً عن أقل من القدر اللازم. وما تتطلع الحضارة إلى أن تفعله بها لا يبدو قابلاً للتحقيق بدون خسارة محسوسة في اللذة، على حين أن دوام الحاثات غير المستعملة يتجلى في النشاط الجنسي في صورة عدم إشباع.

قد لا يكون ثمة مناص بالتالي من أن نتآلف مع فكرة مؤداها أن التوفيق بين مطالب الدوافع الغريزية الجنسية ومطالب الحضارة أمر مستحيل مطلق الاستحالة، وأن العزوف، والعذاب، وكذلك في مستقبل بعيد جداً خطر انطفاء الجنس البشري، أمور لا سبيل إلى تفاديها. صحيح أن هذه النبوءة القاتمة ترتكز إلى فرض واحد مؤداه أن عدم الإشباع المترتب على الحضارة هو نتيجة بعض الخصائص التي اتسمت بها الدوافع الغريزية الجنسية تحت ضغط الحضارة؛ غير أن عجز الدوافع الغريزية الجنسية هذا عن تأمين الإشباع الكامل، حالما تخضع للمتطلبات الأولية للحضارة، يغدو هو نفسه مصدراً لإنجازات حضارية عظمى يتمّ تحقيقها عن طريق إسماء متعاظم دوماً لمقومّات تلك الدوافع الغريزية. وبالفعل، هل كان سيوجد لدى البشر دافع إلى أن يضعوا القوى الغريزية الجنسية في خدمة استعمالات مغايرة فيما لو كان في مستطاعها، عن طريق شكل موائم من التوزيع، توفير إشباع يرتفق بلذة كاملة؟ الحق أنهم ما كانوا في هذه الحال ليتنازلوا لحظة واحدة عن هذه اللذة، ولما عادوا ينجزون أي تقدم. ومن ثم يبدو أن الفارق غير القابل للاختزال بين مطالب الدافعين الغريزيين ـ الدافع الغريزي الجنسي والدافع الغريزي الأنوي ـ هو ما يجعل البشر أهلاً لاجتراح إنجازات أسمى فأسمى دوماً، وإن يكن ذلك متلازماً بخطر دائم يقع فيه في الوقت الحاضر من هم أضعف من غيرهم، وأعني به العصاب.

ليس في نية العلم أن يخيف أو أن يعزِّي. غير أنني على استعداد أنا نفسي

١١ ـ كان نابليون قد قال: **السياسة هي القدر** حسبما يروي غوته في المحادثة مع نابليون التي جرت بينهما في بلدة إرفورت في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨١٨. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



للتسليم عن طواعية بأن استنتاجات بمثل هذه الأهمية كان ينبغي أن تقوم على أساس أوسع، وأنه ربما كان من شأن كيفيات أخرى لتطور البشرية أن تفسح في المجال أمام تصحيحٍ للنتائج التي استخلصتها من الكيفيات التي عالجتها هنا على حدة.



- ٦ -

من أجل إدخال النرجسية[1]
(١٩١٤)

(١)

جاء مصطلح النرجسية من الوصف السريري، وقد اختاره ب. ناكه NAECKE[2] في عام ١٨٩٩ ليشير به إلى سلوك الفرد حين يعامل جسمه بطريقة مشابهة لتلك التي يعامل بها في العادة جسمَ موضوعٍ جنسي: فهو يتأمله مجتنياً من ذلك لذة جنسية، ويلامسه، ويداعبه، إلى أن يفوزَ من هذه الممارسات بالإشباع الكامل. والنرجسية، إذا ما بلغت هذا الحدّ، يصير لها دلالة الانحراف الذي يستغرق كلية الحياة الجنسية للشخص المعني، ولنا أن نتوقع بالتالي أن نلتقي عندها بالظاهرات عينها التي نلتقي بها في دراستنا لسائر الانحرافات.

وقد تبيَّن للملاحظة التحليلية النفسية فيما بعد أن سمات محددة من السلوك النرجسي تتكرر لدى كثرة من الأشخاص ممن يعانون من اضطرابات أخرى، وعلى

١ - هذا العنوان ليس، كما ترجمه بعضهم، «مدخلاً» إلى النرجسية كمفهوم جاهز ومكتمل الإنشاء، وإنما هو دعوة إلى «إدخال» هذا المفهوم في نظرية التحليل النفسي مع كل ما يترتب على ذلك من تطوير له وتكييف. ولعل رغبة فرويد هذه في إدخال مفهوم النرجسية إلى التحليل النفسي قد تكون أملتها عليه، كما لاحظ جون ستراتشي مترجم مؤلفات فرويد الكاملة إلى الإنكليزية، الحاجة إلى الردّ على تلميذيه المنشقَّين عنه يونغ وآدلر اللذين كانا رفعا عالياً راية «الليبيدو غير الجنسي» و«الاحتجاج الذكوري». «م».

٢ - بول ناكه: طبيب نفسي وعالم إجرام ألماني (١٨٥١ - ١٩١٣). أدخل إلى علم النفس مصطلح النرجسية ونشر دراسات علمية عن الجنسية المثلية. والإحالة في النص إلى بحث له بعنوان: **فحص نقدي للمبحث عن الجنسية السوية والمَرَضية** نشره عام ١٨٩٩. وقد أقرّ فرويد لاحقاً بأنه أخطأ وبأن أول من نحت مصطلح النرجسية هو هافلوك إلّيس. «م».



سبيل المثال لدى الجنسيين المثليين على ما يذهب إليه سادجر[٣]. ثم كان الانتهاء إلى الافتراض بأن توظيفاً معيَّناً لليبيدو، مما ينبغي إطلاق اسم النرجسية عليه، يمكن أن يكون له دور في حقل أوسع بكثير وأن يطالب بمكانه في النمو الجنسي النظامي للكائن البشري[٤]. وقد قادت إلى الافتراض عينه مصاعب العمل التحليلي النفسي مع العصابيين: فقد بدا بالفعل أن سلوكاً نرجسياً من النوع نفسه يمثِّل حداً من حدود التأثير الذي تمكن ممارسته على هؤلاء المرضى. والنرجسية، بهذا المعنى، لن تكون انحرافاً، وإنما تكملة ليبيدوية لأنانية غريزة الحفاظ على الذات، هذه الغريزة التي يعزى نصيب منها، بحقٍّ، إلى كل كائن حيّ.

لقد حملتنا دوافع قاهرة على الاهتمام بفكرة وجود نرجسية أولية سوية حينما تصدَّينا لإخضاع تصور الخبل المبكر (كرابلن)[٥] أو الفصام (بلولر)[٦] لفرضية نظرية الليبيدو. فهؤلاء المرضى، الذين اقترحت أن نطلق على مرضهم اسم البارافرينيا[٧]، تتجلى لديهم سمتان طبعيتان رئيسيتان: هذاء العظمة والانصراف

٣ ـ الإحالة هنا إلى مقال إيزيدور سادجر[*]: **مثال على انحراف متعدد الأشكال مع غيابات هستيرية** في **مجلة التحليل النفسي والأمراض النفسية** (١٩١٠). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) إيزيدور سادجر: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٧ ـ ١٩٤٢). مات في معسكر اعتقال نازي. نحت كلمة السادومازوخية. أقرّ فرويد بمديونيته له في تحليله للجنسية المثلية. «م».

٤ ـ هـ. أ. رانك: **مساهمة في النرجسية**، في **حولية التحليل النفسي**، المجلد ٣، ١٩١١.

٥ ـ إميل كرابلن: طبيب نفسي ألماني يعدّ مؤسس علم النفس العلمي الحديث (١٨٥٦ ـ ١٩٢٦). سعى إلى تصنيف الأمراض العقلية بالاعتمادِ على مقاييس سريرية موضوعية. كانت له أسبقية إلى استخدام مفهوم الذهان، وطبقّه على الخبل المبكّر بوصفه ذهاناً مزمناً يتظاهر لدى المراهق موسوماً باضطرابات عقلية وعاطفية خطيرة تقود تدريجياً إلى الانهيار النفسي. عرف كتابه **الوجيز في الطب النفسي برسم الطلبة والأطباء** تسع طبقات متتالية. «م».

٦ ـ يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). أدخل على المعجم الطبي النفسي مفهوم الفصام ومفهوم التوحد الانطوائي AUTISME. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وكان من مساعديه كارل يونغ وكارل أبراهام. رفض مفهوم إميل كرابلن عن الخبل المبكر واستبدله بمفهوم السكيزوفرينيا(الفصام). من مؤلفاته: **اكتشاف التوحد الانطوائي، التاريخ الطبيعي للنفس، حول سيكولوجيا التنويم المغنطيسي**. «م».

٧ ـ البارافرينيا: مصطلح روّج له الطبيب النفسي الألماني كارل كاهلباون (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩)، وتبناه من بعده إميل كرابلن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٦)، لتسمية نوع محدد من الذهان المترافق بهذيان بارانوئي مزمن وانفصال عن الواقع سواء أترافق أم لم يترافق بهلوسات، دونما خلل في الوظيفة المعرفية. «م».



باهتمامهم عن العالم الخارجي (الناس والأشياء). وبفعل هذا التحول الأخير يفلتون من تأثير التحليل النفسي ويستعصي بالتالي على جهودنا الوصول إلى شفائهم. غير أن واقعة انصراف المريض بالبارافرينيا عن العالم الخارجي تقتضي تحديد مواصفاتها بمزيد من الدقة. فالمصاب بالهستيريا، أو بالعصاب الوسواسي، يتخلى هو الآخر، ضمن حدود مرضه، عن علاقته بالواقع. غير أن التحليل يدلّ على أنه لا يلغي أبداً علاقته الإيروسية بالناس والأشياء، وإنما يحافظ عليها في خياله؛ أي أنه يستعيض من جهة أولى عن المواضيع الواقعية بمواضيع وهمية من ذاكرته، أو يخلط هذه بتلك؛ ويعزف من الجهة الثانية عن إتيان الأفعال الحركية لبلوغ أهدافه ذات الصلة بهذه المواضيع. وإنما حالة الليبيدو هذه هي التي ينبغي أن نستخدم من أجلها عن حسن معرفة ودراية ذلك المصطلح الذي يداوره يونغ بغير ما تمييز: انكفاء الليبيدو[8]. أما المريض بالبارافرينيا فأمره يختلف. إذ يبدو أن هذا المريض يسحب بالفعل ليبيدوه من الناس والأشياء في العالم الخارجي، بدون أن يُحِلَّ محلهم مواضيع أخرى في أخاييله. وإذا ما حدث بعد ذلك هذا الاستبدال، فإنه يبدو ثانوياً، ومندرجاً في إطار محاولة للشفاء ترمي إلى إرجاع الليبيدو إلى المواضيع[9].

هنا ينطرح السؤال: ما هو، في الفصام، مصير الليبيدو المسحوب من المواضيع؟ إن هذاء العظمة الذي نلتقيه في هذه الحالات يدلنا هنا على الطريق. فمن المؤكد أن هذا الهذاء ظهر على حساب الليبيدو الموضوعاني[10]. فالليبيدو

٨ ـ الانكفاء INTROVERSION: مفهوم استحدثه يونغ عام ١٩١٠ في مقاله: **عن صراعات النفس الطفلية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٩ ـ انظر بصدد هذه النقطة المناقشة حول «نهاية العالم» في تحليل الرئيس شريبر، **حولية التحليل النفسي**، السنة ٣، ١٩١١، وكذلك أبراهام: **الفروق الجنسية النفسية بين الهستيريا والخبل المبكر، في مساهمات سريرية في التحليل النفسي**، ١٩٠٨، ص ٢٣ وما بعدها.

١٠ ـ الموضوعاني هنا OBJECTAL وليس الموضوعي OBJECTIF. والعلاقة الموضوعانية هي علاقة الذات بموضوع خارجي بالنسبة إليها. والمواضيع في هذه العلاقة الموضوعانية ليست هي الأشياء، أو ليست هي الأشياء وحدها، وإنما أيضاً الأشخاص من حيث هم موضوع للحبّ. ومن ثم إن الليبيدو الموضوعاني هو الليبيدو المنصب على شخص آخر، على حين أن الليبيدو الأنوي هو الليبيدو المنصب على الذات. «م».



المسحوب من العالم الخارجي انصبّ على الأنا، مما يتمخض عن ظهور وضع نستطيع أن نطلق عليه اسم النرجسية. لكن هذاء العظمة نفسه لا يُخلق من العدم؛ فهو على العكس، كما نعلم، تكبير لحالة سابقة الوجود وتعبير أوضح عنها. وهكذا، إن هذه النرجسية التي ظهرت عن طريق استثمار التوظيفات الموضوعانية لن نجد أمامنا مناصاً من أن نتصورها على أنها حالة ثانوية جرى بناؤها على أساس نرجسية أولية ألقت دونها حجاباً تأثيرات شتى.

سألفت النظر مرة أخرى إلى أنني لا أريد هنا أن أوضح مسألة الفصام أو أن أتعمق فيها. وإنما كل بغيتي أن أعيد جمع ما سبق قوله في مواضع أخرى، وذلك لأبرر به هذا الإدخال لمفهوم النرجسية.

إن هذا التوسيع، المشروع في رأيي، لنظرية الليبيدو، يجد تدعيماً ثالثاً له في ملاحظاتنا وتصوراتنا الخاصة بالحياة النفسية للأطفال والشعوب البدائية. فنحن نلقى لدى هذه الشعوب سمات كان في مقدورنا أن نعزوها، فيما لو كانت منفردة، إلى هذاء العظمة: المغالاة في تقييمها لقوة رغائبها وأفعالها النفسية (كلية قدرة الفكر)، والإيمان بالقوة السحرية للكلمات، وتقنية محددة حيال العالم الخارجي هي «السحر» الذي يبدو أنه تطبيق منطقي لتلك المفترضات الموسومة بهذاء العظمة[11]. وفي عصرنا الحاضر نتوقع أن نلقى لدى الطفل، الذي يشقّ علينا أكثر بعدُ النفاذ إلى مجاهل نموه، موقفاً مماثلاً تماماً حيال العالم الخارجي[12]. على هذا النحو يتكون لدينا تصور عن توظيف ليبيدوي ابتدائي للأنا؛ وهو توظيف يتمّ في طور لاحق فقط التخلي عن جزء منه لصالح المواضيع؛ غير أنه يبقى، بصورة أساسية، مستمراً، ويكون مسلكه إزاء التوظيفات الموضوعانية أشبه بمسلك جسم دويبة مجهرية وَذَفية[13] حيال الشوى الكاذبة التي تصدر عن هذا الجسم عينه. وفي مبحثنا التحليلي النفسي، الذي كانت

---

١١ ـ انظر الفقرات المناظرة في كتابي **الطوطم والتابو**، ١٩١٣.

١٢ ـ س. فيرنزي: **أطوار نمو حس الواقع**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة١، ١٩١٣.

١٣ ـ الوذفة أو البروتوبلازما: المادة الحيّة الأساسية في الخلايا الحيوانية، ومنها تتألف المتموِّرات التي هي من أبسط الأجناس الحيوانية والتي تمدّ أو (تُصْدِر) شوى كاذبة هي لها بمثابة أقدام. «م».



نقطة انطلاقه الأعراض العصابية، كان من المحتم في أول الأمر أن يبقى مصير الليبيدو المثمَّر هذا التثمير مجهولاً منا. وما كانت تسترعي انتباهنا سوى فيوض هذا الليبيدو، أي التوظيفات الموضوعانية التي يمكن أن تُصدَر ثم أن تُسحب من جديد. وإننا لنستشفّ هنا، بالإجمال، تضاداً بين الليبيدو الأنوي والليبيدو الموضوعاني. فكلما تشبّع واحدهما افتقر الثاني. وأعلى طور من أطوار النمو يمكن أن يصل إليه الليبيدو الموضوعاني يتمثل في حالة العشق والهيام التي تبدو لنا أشبه بتنازل من قبل الفرد عن شخصيته بالذات لصالح التوظيف الموضوعاني؛ ونقيض هذه الحالة يطالعنا في تخييل نهاية العالم (أو الإدراك الذاتي لها) لدى المريض بالبارانويا[١٤]. أما فيما يتصل أخيراً بالتمييز بين ضروب الطاقة النفسية، فإننا نخلص إلى أنها تكون في أول الأمر، في حالة النرجسية، مجتمعة، متداخلة، يشقّ على تحليلنا ذي الطابع الإجمالي أن يميِّز فيما بينها؛ وإنما مع التوظيف الموضوعاني فحسب يغدو في الإمكان التمييز بين طاقة جنسية، هي الليبيدو، وبين طاقة تابعة للدوافع الغريزية الأنوية.

قبل أن أمضي قدماً إلى الأمام يتعيَّن عليَّ أن أعرض لمسألتين تفضيان بنا إلى لبّ الصعاب التي تكتنف موضوعنا. أولاهما: ما علاقة النرجسية، التي نبحث فيها هنا، بالإيروسية الذاتية التي وصفناها بأنها حالة لليبيدو في بدايته؟ وثانيتهما: إذا عزونا إلى الأنا توظيفاً ليبيدوياً أولياً، فما الداعي بعد لأن نميِّز بين ليبيدو جنسي وبين طاقة غير جنسية مصدرها الدوافع الغريزية الأنوية؟ ثم إننا لو فرضنا أن هناك من الأساس طاقة نفسية من نمط واحد، أفما كنا سنوفِّر بذلك على أنفسنا جميع الصعاب التي تكتنف التمييز بين طاقة تتمثل بدوافع الأنا الغريزية وطاقة تتمثل بليبيدو الأنا، أي بين ليبيدو أنوي وليبيدو موضوعاني؟ بصدد النقطة الأولى سأبدي الملاحظة التالية: لا مندوحة لنا من التسليم بأن لا وجود من البداية لدى الفرد لوحدة قابلة لأن تضاهى بالأنا؛ فالأنا يتحتّم عليه أن يمرّ بنموّ وتطور. غير أن الدوافع الغريزية الإيروسية الذاتية تكون موجودة من الأصل؛ ولا بدّ بالتالي

---

١٤ ـ إن لنهاية العالم هذه آليتين: فإما أن يعود كل التوظيف الليبيدوي لينصبّ على الموضوع المحبوب، وإما أن ينكفئ مرتداً نحو الأنا.



لشيء ما، لتأثير نفسي جديد أن ينضاف إلى الإيروسية الذاتية لتتشكل من ثم النرجسية.

إن أي محلل نفسي سيساوره، ولا بدّ، ضيق واضح متى ما وجد نفسه ملزماً بأن يجيب إجابة فاصلة عن السؤال الثاني. وسيساوره مع الضيق شعور بأنه يتخلى عن الملاحظة والمشاهدة ليستغرق في مجادلات نظرية عقيمة؛ ومع ذلك، ليس له أن يتهرب من محاولة توضيح المسألة. فمن المؤكد أن تصورات كمثل تصور الليبيدو الأنوي وطاقة الدوافع الغريزية الأنوية، إلخ، ليست بيّنة للعيان بما يكفي لإدراكها، ولا غنية بما يكفي في مضمونها. والحال أن أية نظرية تأملية في العلاقات موضوع البحث لا بدّ لها بادئ ذي بدء من الاستناد إلى مفهوم واضح دقيق. على أن ذلك هو، في رأيي، الفارق بين نظرية تأملية خالصة وبين علم مبني على تأويل الملاحظة والخبرة. فعلم كهذا الأخير لن يحسد النظر التأملي على ما ينعم به من امتياز في بناء أحكام واضحة دقيقة، لا غبار عليها من وجهة النظر المنطقية، بل سيقنع مغتبطاً بتصورات أساسية مبهمة، ضبابية، لا يمكن إلا بلأي تمثُّلها، عاقداً الأمل على أن يتمكن من الإحاطة بها بمزيد من الجلاء والوضوح في مسيرة تطوره، مع استعداده في الوقت نفسه لأن يقايضها بغيرها إذا ما دعت الضرورة. وآية ذلك أن هذه الأفكار ليست هي أساس العلم الذي عليه كل شيء يقوم: إنما هذا الأساس هو، على العكس، الملاحظة وحدها. وليست هذه الأفكار هي ركائز البناء، وإنما طابقه العلوي، ومن الممكن استبدالها أو رفعها بغير ما ضرر. وهذه التجربة لا تزال تُشاهد، في أيامنا هذه، في مجال الفيزياء: فحدوسها الأساسية بصدد المادة، ومراكز الثقل، والجاذبية، إلخ، تكاد لا تقلّ قابلية للنقاش عن التصورات المناظرة لها في مضمار التحليل النفسي.

يستمد مفهوما الليبيدو الأنوي والليبيدو الموضوعاني قيمتهما من أصلهما: فقد تمّ إنشاؤهما بدءاً من الخصائص الصميمية للسيرورات العصابية والذهانية. وتمييزنا في الليبيدو بين جانب موقوف على الأنا، وآخر متعلق بالمواضيع، هو التتمة المحتومة لفرضية أولى تفرِّق ما بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية. وقد فرض عليّ هذه التفرقة تحليلُ الأعصبة التحويلية الخالصة (الهستيريا



والعصاب الوسواسي)، وكل ما أعلمه هو أن كل المحاولات التي بذلت لتعليل هذه الظاهرات بوسائل أخرى قد مُنيت بفشل ذريع.

وما دام لا وجود على الإطلاق لأية نظرية في الدوافع الغريزية، أياً ما كان اتجاهها، فمن المباح لنا أو المفروض علينا بالأحرى أن نمتحن بادئ ذي بدء أية فرضية من الفرضيات بدفاعنا عنها بتماسك منطق إلى أن تتهافت أو تثبت صحتها. والواقع أن كثرة من الحجج تشهد لصالح الفصل البدئي بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، بصرف النظر عن النفع الذي يمكن أن يعود به هذا الفرَض على تحليل الأعصبة التحويلية(١٥). وإني لأعترف بأن هذا الاعتبار ليس بحدّ ذاته خلواً من الالتباس، إذ قد تكون الطاقة المعنية طاقة نفسية حيادية لا تتحول إلى طاقة ليبيدوية إلا عن طريق التوظيف الموضوعاني. غير أن هذا التمييز المفهومي يناظر أولاً التفريق الشعبي الشائع بين الحب والجوع. وهناك ثانياً اعتبارات **بيولوجية** ترجِّح الكفة لصالحه. فالفرد يعيش بالفعل وجوداً مزدوجاً: من حيث أنه لذاته غاية ذاته، ومن حيث أنه حلقة في سلسلة هو مربوط إليها بغير إرادته أو على كل حال بدون تدخل إرادته. فهو نفسه يعدّ الجنسية واحدة من غاياته، في حين أن ثمة منظوراً آخر يكشف لنا عن أن هذا الفرد عينه هو مجرد استطالة لبلاسماه الرُشَيْمية(١٦) التي يضع تحت تصرفها قواه مقابل مكافأة من اللذة، وعن أنه الحامل الفاني لجوهر خالد ـ ربما ـ مثله مثل بِكر الأسرة الذي لا يملك إلا بصفة مؤقتة الإقطاعة الوراثية التي ستؤول من بعده إلى بكره بدوره. وعلى هذا، إن التمييز بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية يرمي فقط إلى التعبير عن وظيفة الفرد المزدوجة هذه. ويتعيَّن علينا ثالثاً أن

---

١٥ ـ الأعصبة التحويلية NEVROSES DE TRANSFERT: هي من الأعصبة النفسية المنشأ، ويدرج فرويد في عدادها الهستيريا الحَصَرية والهستريا الاستبدالية (أو الاستبدانية) والعصاب الوسواسي. وقد أطلق عليها نعت «التحويلية» لأن المصاب بها يحوّل نحو الطبيب الذي يعالجه، إيجاباً أو سلباً، مشاعره الحبّية أو العدائية. «م».

١٦ ـ Plasma germinal: مصطلح يقتبسه فرويد من أبحاث البيولوجي الألماني أوغست فايزمان (١٨٣٤ ـ ١٩١٤): **عن ديمومة الحياة** (١٨٨٢)، **عن الحياة والموت** (١٨٩٢)، **البلاسما الرشيمية** (١٨٩٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



نتذكر أن جميع تصوراتنا المؤقتة في مضمار علم النفس لا بدّ لها يوماً من أن تقام على أساس ركائز عضوية. ويبدو قريب الاحتمال في هذه الحال أن يكون ثمة وجود لمواد معيَّنة ولسيرورات كيمياوية تنتج مفاعيل الجنسية وتتيح لحياة الفرد أن تتواصل في حياة النوع. وإننا لنأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار إذ نُحِلّ محلّ تلك المواد الكيمياوية المحددة قوى نفسية محددة.

بما أنني كنت من قبل قد حرصت بصفة عامة على إبقاء علم النفس بعيداً عن كل ما هو مغاير له، بما في ذلك الفكر البيولوجي بالذات، فبودِّي أن أقرّ هنا بصراحة بأن فرضية تمايز الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، وبالتالي نظرية الليبيدو، ترتكز في جانب يسير للغاية منها على أساس سيكولوجي، بينما تنهض في جوهرها على أساس علم الأحياء. وعلى هذا سأكون منطقياً مع نفسي بما يكفي لأتخلى عن هذا الفرض إذا ما تمخض العمل التحليلي نفسه عن فرض آخر يكون أصلح للاستعمال من الأول. وهذا إلى يومنا لم يقع. ومن المحتمل جداً أن تكون الطاقة الجنسية، أي الليبيدو ـ في واقع الأشياء العميق ـ مجرد نتاج تمايزي للطاقة التي تفعل فعلها في النفس البشرية. غير أن توكيداً كهذا لا يفضي إلى نتيجة. فهو يتصل بأشياء بعيدة من الأساس غاية البعد عن المشكلات التي تطرحها ملاحظتنا، أشياء هزيلة غاية الهزال بالمضمون، حتى إنه ليستوي الأخذ بذلك التوكيد أو رفضه. وإنه لمن المحتمل جداً أن تكون وحدة الهوية الأصلية هذه ضعيفة الصلة أيضاً باهتماماتنا التحليلية النفسية ضعف الصلة بين القرابة الأصلية بين العروق البشرية كافة وبين الدليل الذي يفترض بالمُطالب بحقِّه من الميراث أن يقدِّمه للسلطات المختصة بشؤون الإرث لإثبات قرابته من الموصي المتوفى. إن جميع هذه التهويمات النظرية لا تفضي بنا إلى نتيجة. وبما أنه لا يسعنا أن نتوقع من علم آخر أن يقدِّم لنا على صحن من فضة الحجج الفاصلة في تأييد نظرية الدوافع الغريزية، فإن الأولى بنا أن نحاول أن نتبيَّن ما هو الضوء الذي يمكن أن يلقيه على هذه الألغاز الأساسية لعلم الأحياء تصور شامل للظاهرات السيكولوجية. فلنتآلف إذاً مع احتمال الخطأ، ولكن من غير أن يصرفنا ذلك عن محاولة استخلاص جميع النتائج التي يمكن استخلاصها



من الفرضية التي أسلفنا الإشارة إليها عن التضادّ بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. فهذه الفرضية فرضها علينا تحليل الأعصبة التحويلية؛ فلنرَ إذاً هل يمكن أن يأتي تطويرها خلواً من التناقضات وخصباً، وهل يمكن تطبيقها على اضطرابات مَرَضية أخرى، كالفصام على سبيل المثال؟

بديهي أن الأمر سيختلف فيما لو سيق الدليل على أن نظرية الليبيدو قد سبق لها أن فشلت في تطلعها إلى تفسير هذا المرض الأخير. وهذا ما كان أكده ك. غ. يونغ[١٧]، فأرغمني من ثم على الخوض في هذه التفصيلات التي كنت أفضِّل أن أعفي نفسي منها. والحق أني كنت أحبِّذ أن أمضي إلى النهاية في الطريق الذي كنت تقدمت فيه من خلال تحليل حالة شريبر[١٨]، ملتزماً الصمت بصدد المفترضات الانطلاقية. غير أن ما زعمه يونغ كان، على أية حال، حكماً متسرعاً. والأسس التي بناه عليها غير كافية. إنه يحتج بادئ ذي بدء بشهادتي أنا نفسي حينما قلت إنني وجدتني مضطراً، إزاء صعوبات تحليل شريبر، إلى توسيع مفهوم الليبيدو، أي إلى التخلي عن مضمونه الجنسي، وإلى المماثلة بين الليبيدو وبين الاهتمام النفسي بصفة عامة. وقد سبق لفيرنزي، في نقد جذري لمقال يونغ[١٩]، أن قال كل ما ينبغي قوله لتقويم هذا التأويل الخاطئ. ولست مستطيعاً إلا أن أصادق على نقده، وأن أكرر القول بأنني لم أفصح عن أي تخلٍ من ذلك النوع عن نظرية الليبيدو. أما حجة يونغ القائلة إن انسحاب الليبيدو لا يمكنه وحده أن يكون علة فقدان الوظيفة الواقعية السوية[٢٠] فما هي بحجة، وإنما هي

١٧ ـ **تحولات الليبيدو ورموزه**، في **حولية التحليل النفسي**، السنة ٤، ١٩١٢.

١٨ ـ دانييل بول شريبر: رئيس سابق لمحكمة الاستئناف في الساكس. ومن هنا لقبه بـ «الرئيس شريبر». نشر سنة ١٩٠٣ سيرة ذاتية بعنوان **مذكرات مريض بالأعصاب**. وقد حلل فرويد هذه المذكرات في مقال طويل له سنة ١٩١١ بعنوان: **ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا (الرئيس شريبر)**. «م».

١٩ ـ **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١، ١٩١٣. ومقال فيرنزي الذي يشير إليه فرويد يحمل كعنوان: **نقد مقال يونغ: تحولات الليبيدو ورموزه.** هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٠ ـ فقدان الوظيفة الواقعية السوية: تعبير يستعيره فرويد من الفيلسوف وعالم النفس الفرنسي بيير جانيه. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



قرار، مرسوم، مصادرة على المطلوب[٢١]، استباق للحكم، وتهرب من النقاش: إذ إن ما كان ينبغي البحث فيه هو بالتحديد ما إذا كان ذلك ممكناً وكيف. وقد قارب يونغ، في مقاله الكبير التالي[٢٢]، أن يصل إلى الحلّ الذي كنت أشرت إليه منذ زمن بعيد حينما قال: «بهذا الصدد ينبغي بكل تأكيد أن نأخذ بعين الاعتبار النقطة المذكورة ـ وإليها يرجع فرويد على كل حال في مقاله عن شريبر ـ التي مؤداها أن انطواء الليبيدو الجنسي يفضي إلى توظيف للأنا. ومن المحتمل في هذه الحال أن يكون فقداننا لوظيفة الواقعية مجرد نتيجة لذلك. والحق أن تفسير سيكولوجيا فقدان الواقعية على هذه الشاكلة احتمال له وجهه من الإغراء». ومع ذلك، إن يونغ يمتنع عن المضيّ قدماً إلى الأمام في طريق هذا الاحتمال. فبعد بضعة أسطر، لا غير، يتنكب عن هذه الطريق بملاحظته أن ما يمكن أن ينجلي عنه الأمر في هذه الحال هو «سيكولوجيا ناسك زاهد، لا الخبل المبكر». أما إلى أي حدّ تعجز هذه المقارنة الفاسدة عن الإتيان بحلّ، فهو ما تبّينه لنا الملاحظة التالية: إن ناسكاً كذاك «جاهد ليستأصل من نفسه كل أثر لاهتمام جنسي» (إنما فقط بالمعنى الشعبي لكلمة «جنسي») لا يجسّد بالضرورة والحتم تثميراً مَرَضياً لليبيدو. فمن المحتمل جداً أن يصرف بصورة كاملة اهتمامه الجنسي عن الكائنات البشرية، وأن يُسْميه ويصعِّده في الوقت نفسه في صورة اهتمام متعاظم بالمضمار الإلهي أو الطبيعي أو الحيواني، بدون أن يصاب الليبيدو عنده بانكفاء في اتجاه تخييلاته، أو بارتداد نحو أناه. ويبدو أن هذه المقارنة تغفِل إغفالاً تاماً التمييز الممكن بين الاهتمام ذي الأصل الإيروسي والاهتمام النابع من مصادر أخرى. ولنتذكر فضلاً عن ذلك أن أبحاث المدرسة السويسرية[٢٣]، على ما لها من أفضال، لم تتوصل إلا إلى توضيح نقطتين فقط في اللوحة السريرية للخبل المبكر: وجود عُقد سبق التأكد من وجودها لدى الأفراد الأصحاء والمعصوبين،

٢١ ـ بالإنكليزية في النص: TO BEGS THE QUESTION. «م».

٢٢ ـ **محاولة لتقديم نظرية التحليل النفسي، في حولية التحليل النفسي**، السنة ٥، ١٩١٣.

٢٣ ـ هي المدرسة التي كان يتزعمها يوجين بلولر، مدير مستشفى الأمراض العقلية في زوريخ الذي كان يعرف باسم بورغولزلي والذي كان يقصده الطلبة من جميع أرجاء أوروبا للدراسة. وكان يونغ مساعداً لبلولر. «م».



والتشابه بين تشكيلاتهم الاستيهامية وبين أساطير الشعوب. بيد أن تلك الأبحاث لم تتمكن من تسليط الضوء على آلية الدخول في المرض. وستتيح لنا هذه الملاحظة أن ننفض أيدينا من توكيد يونغ الزاعم أن نظرية الليبيدو قد أخفقت في مواجهة الخبل المبكر، وأنها غير مؤهلة بالتالي لمواجهة الأعصبة الأخرى أيضاً.

(٢)

يتراءى لي أن ثمة صعاباً من نوع خاص تحول دون دراسة النرجسية دراسة مباشرة. وأرجح الظن أن المدخل الرئيسي إليها يبقى تحليل حالات البارافرينيا. فكما أن الأعصبة التحويلية أتاحت لنا أن نقتفي أثر الحاثات الغريزية الليبيدوية، كذلك إن الخبل المبكر والبارانويا سيفتحان لنا الباب إلى فهم سيكولوجيا الأنا. وسيتعيَّن علينا مرة أخرى أن نهتدي إلى البساطة الظاهرية للحالة السوية تخميناً ورجماً انطلاقاً من التواءات الحالة المَرَضية ومبالغاتها. أضف إلى ذلك أن بعض الطرق الأخرى تبقى مفتوحة أمامنا في تناولنا للنرجسية، وسوف أصفها الآن بالتسلسل التالي: دراسة المرض العضوي، دراسة هجاس المرض، ودراسة الحياة الحبِّية لدى الجنسين.

حتى نتمكن من تقدير تأثير المرض العضوي على توزيع الليبيدو، سأتابع ملاحظة كان قد قدَّمها لي شفهياً س. فيرنزي. فمن المعروف للداني والقاصي، ومما يبدو لنا بدهياً، أن من يعاني من وجع عضوي وتوعُّك يصرف اهتمامه عن أشياء العالم الخارجي بقدر ما لا تكون ذات صلة بآلامه. والتدقيق في الملاحظة يتيح لنا أن نعلم أنه يسحب اهتمامه الليبيدوي أيضاً من مواضيعه الحبِّية، ويمتنع عن الحب ما دام يعاني من الوجع. وإن تكن هذه الواقعة معروفة إلى حدّ الابتذال، فليس لذلك أن يحول بيننا وبين محاولة ترجمتها إلى لغة نظرية الليبيدو. وعندئذ سنقول: إن المريض يسحب توظيفاته الليبيدوية باتجاه أناه ليعود إلى إصدارها ثانية بعد شفائه. «إن روحه تضيق عند أبسط نقرة في الضرس»، كما يقول لنا ف. بوش BUSCH[٢٤] بصدد وجع الأسنان لدى الشاعر. إن

٢٤ ـ فلهلم بوش: رسام وشاعر ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩٠٨). اشتهر بتطوير تقنية الرسوم المتحركة وبحكاياته الفكاهية. «م».



الليبيدو والاهتمام الأنوي يكون مصيرهما هنا واحداً، ويتعذر من جديد تمييز واحدهما من الآخر. وأنانية المريض المعروفة جيداً تستردّهما كليهما[٢٥]. ولئن بدا ذلك لنا بدهياً، فإنما لأننا على يقين من أننا سنسلك المسلك نفسه في الموقف عينه. وأما أن الاضطرابات البدنية تطرد الميول الحبِّية الأشدّ اضطراماً وتُحِلّ محلّها بغتة لامبالاة تامة، فذلك موضوع جرى استغلاله كما يجب في الملهاة.

إن حالة النوم، مثلها مثل المرض، تمثل انسحاباً نرجسياً من مواقع الليبيدو باتجاه ذات الشخص، أو بتعبير أدقّ، باتجاه الرغبة في النوم دون سواها من الرغبات. وفي هذا السياق تندرج، على خير وجه، أنوية الأحلام. وفي هاتين الحالتين نعاين، إن لم يوجد شيء آخر، أمثلة على تعديلات في توزيع الليبيدو من جراء تعديل في الأنا.

إن هجاس المرض، كالمرض العضوي، يتمخض عن إحساسات بدنية مزعجة ومؤلمة، ويلتقي وإياه أيضاً من حيث تأثيره في توزيع الليبيدو. فالمصاب بهجاس المرض يسحب اهتمامه وليبيدواه ـ وهذا الأخير بجلاء لا مزيد عليه ـ من أشياء العالم الخارجي ويركِّزهما كليهما على العضو الذي يشغل باله. غير أن ثمة فارقاً بين هجاس المرض والمرض العضوي يتقدم إلى مركز الصدارة: فالأحاسيس المؤلمة في حالة المرض العضوي تقوم على أساس تغيُّرات قابلة للبرهان عليها، وليس الأمر بالمثل في حالة هجاس المرض. لكننا لن نكون قد تخطّينا إطار تصورنا العام للسيرورات العصابية فيما لو تقدمنا بالأطروحة التالية: إن هجاس المرض لا بدّ أن يكون على حقّ، إذ إن التغيُّرات العضوية ليست عديمة الوجود في حالته أيضاً. فماذا يمكن أن تكون هذه التغيُّرات؟

إننا سنهتدي هنا بهدي الخبرة التي تدلّنا على أن أحاسيس بدنية من نوع مزعج، مضاهية لتلك التي يعاني منها الهجاسيون، توجد أيضاً في الأعصبة الأخرى. وقد كنت قلت مرة[٢٦] إنني أميل إلى تصنيف الهجاس

٢٥ ـ يواجه المترجمَ العربي إشكالٌ في ترجمة مصلح Egoismus الألماني (Egoisme بالفرنسية) لأنه يعني في آن معاً: الأنانية والأنوية. «م».

٢٦ ـ في مقال لفرويد عام ١٩١٢ تحت عنوان: «**مناقشة حول الاستمناء**». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



Hypocondrie إلى جانب النوراستينيا وعصاب الحصر باعتباره ضرباً ثالثاً من الأعصبة الراهنة[٢٧]. وأرجح الظن أننا لا نغلو غلواً مسرفاً لو تصوَّرنا أن الهجاس يسهم بقسط طفيف لكن مطَّرد في تكوين سائر الأعصبة أيضاً. وأسطع مثال على ذلك عصاب الحصر والهستيريا التي تنبني على أساس هذا العصاب. وهنا نلتقي بنموذج لعضو ذي حساسية مؤلمة، هو عرضة ـ بصورة من الصور ـ للتغيُّر ولكن من غير أن يكون مريضاً بالمعنى المألوف للكلمة: أعني به العضو التناسلي وهو في حالة التهيُّج. فهو يكون عندئذ محتقناً، منتفخاً، رطباً، وموضع أحاسيس شتى. وإذا ما وصفنا بصفة الشهوية Erogénéité ذلك الجزء من البدن الذي هو مسرح لنشاط قوامه إرسال تنبيهات باتجاه الحياة النفسية من شأنها أن تثيرها جنسياً، وإذا ما قرّ في أذهاننا أن الاعتبارات المستقاة من معين نظرية الجنسية قد جعلتنا منذ زمن طويل نألف التصور القائل إن بعض أجزاء الجسم الأخرى ـ المناطق الشهوية Erogènes ـ يمكن أن تنوب مناب الأعضاء التناسلية وأن تضاهيها في مسلكها، فعندئذ لا يبقى أمامنا سوى خطوة واحدة نخطوها. وبالفعل، يمكن لنا أن نقرر أن الشهوية هي خاصية عامة لأعضاء البدن كافة، وهذا ما يبيح لنا أن نتكلم عن زيادة أو نقصان في الشهوية في أي جزء من أجزاء البدن. وكل تعديل في شهوية أعضاء البدن يمكن أن يناظره تعديل موازٍ في توظيف اللبيدو في الأنا. وهنا تحديداً ينبغي لنا أن نفتِّش عن العوامل التي عنها ينشأ الهجاس، والتي يمكن أن يكون لها على توزيع اللبيدو تأثير مماثل لتأثير الإصابة الفيزيقية التي تتعرض لها الأعضاء البدنية.

إن تابعنا تأملاتنا في هذا الاتجاه نلاحظ أننا نلتقي هنا، لا بمشكلة الهجاس فحسب، بل كذلك بمشكلة الأعصبة الراهنة الأخرى، وتحديداً النوراستينيا والعصاب الحصَري. ولهذا السبب سنتوقف عند هذه النقطة. ويجدر بنا التنويه في هذا السياق بأنه ليس في نية الاستقصاء السيكولوجي المحض أن يتوغل إلى

٢٧ ـ هي الأعصبة التي ينبغي البحث عن منشئها في حاضر المريض وفي بدنه وفي نفسه، ومصدرها في الغالب الإحباط في الإشباع الجنسي. وقد أدرج فرويد في الأعصبة الراهنة العصاب الحَصَري والنوراستينيا وهجاس المرض. «م».



هذا الحدّ في اختراقه لحرمة حدود البحث الفيزيولوجي. لكن لنذكر فقط أنه في مقدورنا أن نفترض، ابتداء من هنا، أن علاقة الهجاس بالبارافرينيا[٢٨] شبيهة بعلاقة سائر الأعصبة الراهنة بالهستيريا والعصاب الوسواسي؛ ومن ثم، إن تبعيته لليبيدو الأنوي مطابقة لتبعية هذه الأعصبة لليبيدو الموضوعاني؛ وعليه، إن الحصر الهجاسي هو، من جانب الليبيدو الأنوي، مكافئ للحصر العصابي. أضف إلى ذلك أن من التصورات التي باتت مألوفة لدينا أن آلية الدخول في المرض وتكوين العرض في الأعصبة التحويلية والانتقال من الانكفاء إلى النكوص ترتبط بركود STASE في الليبيدو الموضوعاني[٢٩]. ومن ثم، من المباح لنا أن نداور أيضاً فكرة ركود في الليبيدو الأنوي وأن نربط بينه وبين ظاهرات البارافرينيا والهجاس.

طبيعي أن فضولنا سيثير هنا المسألة التالية: ما الذي يحتِّم أن يتخلف عن ركود الليبيدو هذا في الأنا إحساسٌ بالكدر؟ وحسبي في هذه الحال أن أجيب بأن الكدر هو، بوجه عام، تعبير عن زيادة في التوتر، وأن ثمة بالتالي كماً من الظاهرة الفيزيقية ينتقل، هنا كما في أي مكان آخر، إلى الكيف النفسي متمثِّلاً بالكدر؛ وأما فيما يتعلق بتمخُّض الكدر فقد لا يكون العامل الحاسم هو الكمّ المطلق لهذه السيرورة الفيزيقية، وإنما بالأحرى وظيفة معيَّنة لهذا الكمّ المطلق. وانطلاقاً من هذه النقطة قد يجوز لنا أن نتطرق حتى إلى المسألة التالية: من أين ينبع في نهاية الأمر في مضمار الحياة النفسية ذلك الإكراه الضاغط باتجاه الخروج من حدود النرجسية وتثمير الليبيدو في المواضيع؟ وقد يكون الجواب المطابق لنهجنا الفكري كالآتي: إن هذا الإكراه يظهر إلى حيِّز الوجود حينما يتجاوز توظيف الأنا بالليبيدو حداً معيناً. إن أنانية جارفة تقي صاحبها من المرض، لكن لا محيص للمرء في نهاية المطاف من أن يحبّ كيلا يقع مريضاً، ولا معدى له عن الوقوع مريضاً متى ما وقف عاجزاً عن الحب من جراء

٢٨ ـ يجدر التذكير هنا بأن فرويد يطلق اسم البارافرينيا إما على الفصام حصراً، وإما على حالة مزيجة من الفصام والهذاء (البارانويا). «م».

٢٩ ـ انظر: **حول أنماط الدخول في المرض العصابي**، ١٩١٣.



الإحباط. وإنما على هذا المنوال تقريباً يتصور هـ. هايني[٣٠] المنشأ النفسي لخلق العالم:

المرض كان المنطلق الأول والأخير
لكل الاندفاعة الخلاقة؛
بالخلْق كان يمكنني أن أشفى،
بالخلْق وجدت الصحة[٣١].

لقد تعرفنا في جهازنا النفسي وسيلة متميِّزة أُوكلت إليها مهمة السيطرة على التنبيهات التي ما كانت، بغير ذلك، إلا لتخلِّف أحاسيس مؤلمة أو أثراً إمراضياً. فالصياغة النفسية تجترح مآثر وأعمالاً باهرة لكي تحوِّل داخلياً مجرى التنبيهات غير القابلة لتصريف خارجي فوري أو التنبيهات التي لا يرتجى لها حالاً مثل هذا التصريف. غير أنه سيان بادئ ذي بدء، بالنسبة إلى مثل هذه الصياغة الداخلية، أن تطال مواضيع واقعية أو خيالية. فالفرق لا يظهر إلا في طور لاحق، وذلك حين يؤدي ارتداد الليبيدو نحو المواضيع اللاواقعية (الانكفاء) إلى ركود في الليبيدو. ففي الأمراض البارافرينية يتيح هذاء العظمة مثل هذه الصياغة الداخلية لليبيدو الذي يرتدّ في هذه الحال نحو الأنا؛ وربما بعد إحباط هذا الهذاء يغدو ركود الليبيدو في الأنا إمراضياً ويطلق سيرورة الشفاء التي تضلِّلنا بحجبها عنا طبيعة المرض[٣٢].

٣٠ ـ هنريخ هايني: من كبار الكتاب والشعراء الألمان في القرن التاسع عشر(١٧٩٧ ـ ١٨٥٦). يُعتبر آخر شعراء الرومانسية وطاوي صفحتها في آن معاً. عانى كثيراً من المشاكل النفسية والموضوعية بسبب أصوله اليهودية ولم تُغفر له هذه الأصول رغم اعتناقه المسيحية بصيغتها البروتستانتية عام ١٨٢٥. وقد أولى لاحقاً اهتماماً للثقافة الإسلامية الأندلسية التي أشاد بها في قصيدة مشهورة له بعنوان **المنصور**:

تلك كانت البداية
فحيثما أُحرقت الكتب
أُحرق أيضاً البشر. «م».

٣١ ـ من ديوانه: **أشعار جديدة، أناشيد خلق العالم**، النشيد السابع. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣٢ ـ رطانة طبية باللغة الألمانية غير قابلة للترجمة الحرفية يشار بها إلى خطأ الطبيب حين يحسب الأعراض المرَضية أعراض مرض آخر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



سأغامر هنا بالتقدم بضع خطوات صغيرة أخرى في مضمار آلية البارافرينيا، فألخِّص التصورات التي تبدو لي من الآن جديرة بأن نوليها ما تستأهله من اعتبار. وإني لأرى أن الفارق بين الأمراض البارافرينية وبين الأعصبة التحويلية يكمن في ما يلي: فالليبيدو، الذي أمسى حراً بنتيجة الإحباط، لا يبقى متعلقاً بمواضيع استيهامية، بل ينسحب مرتداً إلى الأنا؛ وعندئذ يظهر هذاء العظمة كاستجابة للسيرورة النفسية الرامية إلى التحكم بهذه الكتلة من الليبيدو، وبالتالي كاستجابة للانكفاء نحو التشكيلات الاستيهامية على نحو ما يحدث في الأعصبة التحويلية؛ ومن فشل هذه العملية النفسية ينبثق هجاس البارافرينيا، المشاكل لحصر الأعصبة التحويلية. ونحن نعلن أن هذا الحصر قابل للحلّ عن طريق صياغة نفسية لاحقة، أي عن طريق استبدال أو تشكيل ارتجاعي أو تشكيل حمائي (رهاب). وتضطلع بهذا الدور في الأمراض البارافرينية محاولة الترميم التي عنها تنشأ التظاهرات المرَضية التي ندهش لها. وكثيراً - بل غالباً - ما لا ينفصل الليبيدو في البارافرينيا إلا انفصالاً جزئياً عن المواضيع، مما يتيح لنا أن نميِّز في اللوحة السريرية لهذا المرض ثلاث مجموعات من التظاهرات: ١ - التظاهرات التي تتصل بمحاولة الحفاظ على الحالة السوية أو على العصاب (التظاهرات الترسبية)؛ ٢ - تظاهرات السيرورة الباتولوجية (أي انفصال الليبيدو عن المواضيع وما يعقبه: هذاء العظمة، الهجاس، اختلاط الانفعالات، كل ضروب النكوص)؛ ٣ - التظاهرات التي تتصل بالترميم والتي تثبِّت من جديد الليبيدو على المواضيع، إما بطريقة هستيرية (الخبل المبكر، البارافرينيا بحصر المعنى)، وإما بطريقة عصاب وسواسي (البارانويا). ويحدث هذا التوظيف الجديد لليبيدو ابتداء من مستوى آخر وفي شروط أخرى غير التوظيف الأولي. والمفروض بالفارق بين الأعصبة التحويلية التي تنشأ في أعقاب هذا التوظيف الجديد وبين التشكيلات المناظرة للأنا السويّ أن يتيح لنا النفاذ إلى أعمق أغوار بنية جهازنا النفسي.

* * *

تقدِّم لنا حياة الحبّ عند الكائنات البشرية، بتنوع تمايزاتها بين المرأة والرجل،



مدخلاً ثالثاً إلى دراسة النرجسية. فكما أن الليبيدو الموضوعاني حجب عن ملاحظتنا في بادئ الأمر الليبيدو الأنوي، كذلك لاحظنا أول الأمر ونحن ندرس الاختيار الموضوعاني لدى الأطفال (والمراهقين) أن هؤلاء يستمدون مواضيعهم الجنسية من خبراتهم الإشباعية الأولى. فهم يعيشون الإشباعات الجنسية الإيروسية الذاتية الأولى بالترابط مع أداء الوظائف الحيوية التي عليها المعوّل في بقاء الفرد. فالدوافع الغريزية الجنسية تستند أول الأمر إلى إشباع الدوافع الغريزية الأنوية ولا تستقلّ عنها إلا في وقت لاحق. غير أن هذا الاستناد يتجلى أيضاً من خلال الواقعة التالية، وهي أن الأشخاص الذين يتولون أمر تغذية الطفل وتوفير أسباب العناية والحماية له هم الذي يغدون مواضيعه الجنسية الأولى، وفي طليعتهم الأم أو من ينوب منابها. لكن بالإضافة إلى هذا النمط وهذا المصدر في الاختيار الموضوعاني، وهو ما نستطيع أن نسمِّيه بالنمط الاتكالي[٣٣]، عرَّفنا الاستقصاء التحليلي النفسي إلى نمط ثانٍ ما كنا نتوقع أن نلتقي به. فقد وجدنا بجلاء ما بعده من مزيد لدى الأشخاص الذين أصيب تطور الليبيدو عندهم باعوجاج، نظير المنحرفين والجنسيين المثليين، أنهم لا يختارون موضوعهم الحبِّي اللاحق وفق طراز الأم، وإنما وفق طراز شخصهم بالذات. ومن الواضح أنهم يختارون أنفسهم موضوعاً للحب، معتمدين بالتالي نمطاً في الاختيار الموضوعاني يمكننا أن نسميه نرجسياً. وإنما في هذه الملاحظة ينبغي أن نعثر على الدافع الأقوى الذي يرغمنا على الأخذ بفرضية النرجسية.

والواقع أننا لم نخلص إلى الاستنتاج من ذلك أن الكائنات البشرية تنقسم إلى فئتين متمايزتين كل التمايز تبعاً لنمط الاختيار الموضوعاني لديهما: النمط الاتكالي أو النمط النرجسي؛ بل على النقيض من ذلك، فنحن نؤثر أن نأخذ بفرضية تقول إن الطريقين اللذين يتأديان إلى الاختيار الموضوعاني مفتوحان كلاهما لكل كائن بشري، بحيث أن كلاً منهما يمكن أن تكون له الأفضلية.

٣٣ ـ النمط الاتكالي ANACLITIQUE أو الاستنادي PAR ETAYAGE. فثمة خلاف بين المترجمين الإنكليز والفرنسيين. وهو بالألمانية ANLEHNUNGSTYPUS، والمقصود اختيار الموضوع الجنسي بالاستناد إلى أو بالاتكال على علاقة الطفل، وعلى الأخص الطفل الذكر، بأمه أو بمن ينوب منابها. «م».



وما نقوله هو أن للكائن البشري موضوعين جنسين أصليين: ذاته والمرأة التي تتولى أمر العناية به؛ وبذلك نفترض وجود النرجسية الأولية لدى كل كائن بشري، وهذه النرجسية يمكن أن تفصح عن نفسها يوماً بصورة قاهرة في اختياره الموضوعاني.

إن المقارنة بين الرجل والمرأة تدلّ عندئذ على أن علاقتهما بنمط الاختيار الموضوعاني تنطوي على فروق أساسية، وإن لم تكن هذه الفروض بطبيعة الحال مطردة اطراداً مطلقاً. فالحب الموضوعاني المحض بحسب النمط الاتكالي سمة مميِّزة بوجه خاص للرجل. فلديه تتجلى المغالاة الملفتة للنظر في التقييم الجنسي، ومردّها إلى نرجسية الطفل الأولية، وهي تعبِّر من ثم عن تحويل لهذه النرجسية إلى الموضوع الجنسي. وتفسح هذه المغالاة في التقييم الجنسيٍ في المجال أمام ظهور تلك الحالة الخاصة التي تعرف باسم العشق، والتي تذكّرنا بضرب من القهر العصابي، ويمكن إرجاعها من ثم إلى افتقار ليبيدوي للأنا لصالح الموضوع. أما لدى المرأة فإن تطور النمط الأكثر تواتراً، والأكثر صفاء وأصالة في أرجح الظن، يرتدي طابعاً مغايراً كل المغايرة. ففي هذه الحال يبدو أن تكوين الأعضاء الجنسية المؤنثة، التي كانت إلى حين نموها في مرحلة البلوغ في حالة من الكمون، يؤدي إلى زيادة في النرجسية الأصلية غير مؤاتية لحب موضوعاني بالمعنى المطَّرد، أي حب مقترن بمغالاة في التقييم الجنسي. وهكذا تقوم، وعلى الأخص في حال التطور باتجاه الجمال، حالة تستكفي فيها المرأة بذاتها، وهذا ما يعوِّضها عن حرية الاختيار الموضوعاني التي ينكرها عليها المجتمع. فأمثال هؤلاء النساء لا يحببن، بحصر معنى الكلمة، سوى أنفسهن، وربما بمثل القوة التي يحبُّهن بها الرجل. وحاجتهن لا تدفع بهن إلى أن يُحبِبن، بل إلى يُحبَبن، ولا يفوز بإعجابهن من الرجال إلا من يتوفر فيه هذا الشرط. وليس لنا أن نستهين بأهمية هذا النمط من النساء بالنسبة إلى الحياة الحبِّية عند الكائن البشري. فسحرهن على الرجال كبير، لا لأسباب جمالية فحسب ـ فهن في العادة أجمل النساء ـ بل كذلك بفعل ظروف سيكولوجية فريدة. إذ يبدو بجلاء أن النرجسية لدى شخص من الأشخاص تمارس جذباً كبيراً على الأشخاص الذين تنازلوا عن

كامل قسطهم من نرجسيتهم الخاصة وصار الحب الموضوعاني طِلبتهم؛ وفتنة الطفل ترتكز إلى حدّ لا يستهان به إلى نرجسيته، إلى كونه يستكفي بذاته، إلى استغلاقه ومناعته؛ كذلك الحال بالنسبة إلى سحر الحيوانات التي يبدو عليها وكأنها لا تكترث لنا، نظير القطط وسباع الحيوان؛ وحتى المجرم الكبير ومحترف التنكيت يأسران اهتمامنا ـ حينما يصوِّرهما لنا الشعر ـ بما يظهرانه من نرجسية متماسكة المنطق إذ يُبقِيان على أناهما بمنأى عن كل ما يمكن أن ينتقص من شأنه. فلكأننا نحسدهما على الحالة النفسية المغتبطة التي يقيمان فيها، على الوضع المنيع لليبيدو عندهما بعد أن تخلينا نحن أنفسنا عن مثل هذا الوضع. بيد أن الفتنة الساحرة للمرأة النرجسية لا تعتم أن تسفر عن وجهها السيء؛ فعدم فوز الرجل العاشق بالإشباع، وشكوكه بصدد حب المرأة له، وشكاواه من طبيعتها الغامضة الملغزة تعود في شطر كبير من أصولها إلى عدم التطابق في نمط الاختيار الموضوعاني لدى كل منهما.

قد لا يكون من نافل القول أن أؤكد أن وصفي هذا للحياة الحبِّية المؤنثة لا ينطوي على أي تحيُّز يرمي إلى أن يحطّ من شأن المرأة. فعلاوة على أنني أربأ بنفسي بوجه عام عن كل تحيُّز، فإنني أعرف أيضاً أن هذه الطرق المختلفة لتحقيق الذات تتناظر، من خلال علاقة بيولوجية بالغة التعقيد، مع تباين الوظائف. أضف إلى ذلك أنني مستعدّ للتسليم بوجود كثرة من النساء ممن يحببن وفق النمط المذكر ويبدين بدورهن عن تلك المغالاة في التقييم الجنسي التي هي من سمات هذا النمط.

وحتى بالنسبة إلى النساء النرجسيات اللائي يبقين باردات إزاء الرجل، ثمة طريق يتأدى بهن إلى الحب الموضوعاني التام. ففي الطفل الذي ينجبنه يتبدى لهن جزء من جسمهن ذاته وكأنه موضوع منفصل عنهن، موضوع يسعهن من الآن فصاعداً، وانطلاقاً من النرجسية، أن ينذرن له حبهن الموضوعاني التام. كما أن ثمة نساء أخريات لا يحتجن إلى انتظار إنجاب طفل لكي ينخرطن في طريق التطور الذي يبدأ من النرجسية (الثانوية) لينتهي إلى الحب الموضوعاني. فهؤلاء النساء يساورهن قبل البلوغ شعور بأنهن ذكور، ويقطعن شوطاً من نموهن بالاتجاه



الذكوري؛ وحتى بعد أن يضع النضوج الأنثي حداً لهذا المنزع، تبقى متاحة أمامهن إمكانية الصبوّ إلى مثل أعلى مذكر هو بالتحديد مواصلة تلك الكينونة الغلامية التي كنَّ عليها فيما سبق.

بوسعنا أن نختم هذه الملاحظات بخلاصة حول الطرق المفضية إلى الاختيار الموضوعاني. فالمرء يحبّ:

١ ـ وفق النمط النرجسي:

أ ـ ما هو كائن عليه هو ذاته؛

ب ـ ما كان عليه هو ذاته؛

ج ـ ما يودّ لو يكونه هو ذاته؛

د ـ الشخص الذي كان جزءاً من ذاته؛

٢ ـ وفق النمط الاتكالي:

أ ـ المرأة التي تُغذّي؛

ب ـ الرجل الذي يحمي؛

وسلسلة الأشخاص الأبدال التي تتفرع من هذين النمطين. ولا يمكن تبرير البند ج في النمط الأول إلا بعد شروح سنوافي بها القارئ لاحقاً.

ويبقى بعد ذلك، وضمن سياق آخر، أن نقيِّم أثر الاختيار الموضوعاني النرجسي في الجنسية المثلية لدى الذكور.

إن نرجسية الطفل الأولية، التي افترضنا وجودها، والتي تؤلف واحدة من مسلمات نظريتنا في الليبيدو، قد لا يكون سهلاً إدراكها بالملاحظة المباشرة بقدر ما يتسنى توكيد صحتها ببرهان تراجعي ابتداء من نقطة أخرى. فإذا أخذنا في اعتبارنا موقف الوالدين المحبّ حيال أولادهما، فلن نجد مناصاً من أن نتعرف فيه انبعاثاً وتجديداً لنرجسيتهما الخاصة التي عزفا عنها منذ أمد بعيد. ومعروف أن هذه العلاقة العاطفية تهيمن عليها المغالاة في التقييم، وقد كنا رأينا في هذه المغالاة، ضمن سياق الاختيار الموضوعاني، مؤشراً على وجود نرجسية دامغة.



وبالإضافة إلى ذلك ثمة ميل قهري إلى عزو جميع ضروب الكمال إلى الطفل، وهو أمر لا تقرّه الملاحظة المحايدة، وإلى إخفاء جميع عيوبه وتناسيها؛ وإنكار وجود الجنسية الطفلية له صلة وثيقة بهذا الموقف. غير أنه قد يتجلى أيضاً لدى الأبوين حيال طفلهما ميل إلى تعليق جميع المكتسبات الحضارية التي اغتصبا الاعتراف بها من نرجسيتهما ذاتها، وإلى أن يجدِّدا بخصوصه هذه المرة المطالبة بامتيازات تمّ التخلي عنها منذ عهد بعيد. فالمرض، والموت، والحرمان من المتع، والقيود المفروضة على الإرادة أمور لا تصدق على الطفل، وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع على حدّ سواء لا تسري عليه، وهو سيكون حقاً وفعلاً من جديد مركز الكون وقلبه. **صاحب الجلالة الطفل**[٣٤]، كما يتصور المرء أنه كان في غابر الأيام. فالطفل سيحقق الأحلام الرغبية التي لم يحققها الوالدان، فيصير رجلاً عظيماً، بطلاً، مكان الأب؛ وإن كان أنثى فستتزوج أميراً، على سبيل التعويض المتأخر على الأم. والبند الشائك حقاً في النظام النرجسي، أقصد خلود الأنا الذي يدحضه الواقع بعنف، يهتدي إلى مكان أمين إذ يجد ملاذاً له لدى الطفل. ومهما يكن حب الأهل لأولادهم مؤثراً، وفي الواقع طفلياً، فإنه لا يعدو أن يكون نرجسيتهما ذاتها وقد انبعثت وأفصحت، بالرغم من تحولها إلى حب موضوعاني، عن طبيعتها القديمة على نحو لا تخطئه العين.

(٣)

التشويشات التي تتعرض لها نرجسية الطفل الأولية، ردود فعله الدفاعية على هذه التشويشات، الطرق التي يضطر من جراء ذلك إلى سلوكها: تلك هي الموضوعات التي أودّ أن أدعها جانباً باعتبارها مادة مهمة لا تزال تنتظر من يعكف على دراستها ومعالجتها؛ غير أنه بوسعنا مع ذلك أن نستخلص منها أهم جزء فيها على الإطلاق، وأعني «عقدة الخصاء» (الخوف على القضيب لدى الصبي، والحسد القضيبيّ لدى البنت) وأن نخضعه للبحث على ضوء تأثير

---

٣٤ ـ بالإنكليزية في النص: HIS MAJESTY THE BABY. وهو اسم لوحة مشهورة من عهد إدوارد السابع (١٨٤١ ـ ١٩١٠) تصوّر رجلي شرطة لندنيين وهما يوقفان السير في شارع رئيسي لتمكين ممرضة من اجتياز الطريق ومعها عربة طفل. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الترهيب الجنسي في السنوات الأولى من العمر. إن الاستقصاء التحليلي النفسي يتيح لنا أن نتتبع في حالات أخرى مصائر الدوافع الغريزية الليبيدوية حين تنفصل عن الدوافع الغريزية الأنوية وتغدو متعارضة وإياها؛ غير أنه يتيح لنا، في مضمار عقدة الخصاء، أن نرجع باستدلالنا إلى زمن وموقف نفسي كان فيهما النوعان كلاهما من الدوافع الغريزية يعملان متضافرين باعتبارهما اهتمامات نرجسية متداخلة تداخلاً لا فكاك فيه. وقد استخلص أ. آدلر[٣٥] من هذا السياق مبدأه في «الاحتجاج الذكوري» الذي رفعه ـ أو كاد ـ إلى مرتبة القوة الغريزية الوحيدة التي تفعل فعلها في تكوين الأعصبة، وكذلك في تكوين الخلق والطبع؛ وهو لا يبني احتجاجه هذا على ميل نرجسي، مما يحتِّم في هذه الحال أن يكون بدوره ليبيدوياً، وإنما على تقييم اجتماعي. ومن وجهة نظر المبحث التحليلي النفسي، جرى من البداية الاعتراف بوجود «الاحتجاج الذكوري» وبأهميته، غير أنه جرى التأكيد أيضاً ضد آدلر على طبيعته النرجسية وعلى كمون أصله في عقدة الخصاء. إن «الاحتجاج الذكوري» ينتمي إلى تكوين الطبع، وهو واحد من جملة عوامل أخرى تسهم في هذا التكوين. ومن ثم فهو غير مؤهَّل بحال من الأحوال لجلاء مشكلات الأعصبة التي لا يريد آدلر أن يرى فيها شيئاً آخر سوى الكيفية التي تخدم بها مصلحة الأنا. وإني لأرى أنه من غير الممكن على الإطلاق بناء نشوء العصاب على الأساس الضيِّق لعقدة الخصاء، مبلغاً ما بلغت قوتها، لدى المرضى الذكور، حينما تلعب دورها في عداد المقاومات المناوئة لشفاء العصاب. بل إنني أعرف أخيراً حالات عصابية لا يلعب فيها «الاحتجاج الذكوري»، أو في مفهومنا نحن عقدة الخصاء، أي دور إمراضي، هذا إن لعب من دور على الإطلاق.

إن ملاحظة الراشد السوي تدلنا على أن هذاء العظمة السابق لديه قد سكن

٣٥ ـ ألفريد آدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). يهودي بالمولد وبروتستانتي بالاختيار. اقترب أول الأمر من التحليل النفسي الفرويدي ثم استقل بنفسه ليرسي الأسس لعلم النفس الفردي، ومن بعده لعلم نفس الأعماق. وبالمعارضة مع النظرية الفرويدية عن الليبيدو أكد آدلر على دور عقدة النقص وما تستدعيه من «احتجاج ذكوري» مثَّل عليه بـ «عقدة نابليون». من أشهر مؤلفاته: **معرفة الإنسان، معنى الحياة، المزاج العصبي، مثل أعلى برسم الحياة.** «م».



وخمد، وأن السمات النفسية التي استنتجنا منها وجود النرجسية الطفلية لديه قد امَّحت وتلاشت. فإلامَ صار الليبيدو الأنوي عنده؟ وهل يفترض بنا أن نسلِّم بأن كمَّه كله قد استهلك في توظيفات موضوعانية؟ إن احتمالاً كهذا يأتي، على ما هو ما بادٍ للعيان، مناقضاً لكل خطٍّ عرضنا هذا؛ غير أننا نستطيع أيضاً أن ننتقل إلى سيكولوجيا الكبت لنبحث فيها عن شيء من شأنه أن يهدينا إلى جواب آخر عن هذا السؤال.

لقد علمنا أن ثمة حاثات غريزية معيَّنة بكون مآلها إلى الكبت الإمراضي متى ما دخلت في نزاع مع تصورات الفرد الحضارية والأخلاقية. ونحن لا نعني أبداً بهذا الشرط أن معرفة الفرد بوجود هذه التصورات هي محض معرفة فكرية، وإنما نقصد أن يعترف بما لها من سلطان عليه وأن يخضع للمتطلبات النابعة منها. وقد قلنا إن الكبت يصدر عن الأنا، وبوسعنا الآن أن نقول بمزيد من التحديد: عن تقدير الأنا لذاته. فالانطباعات والخبرات والحفزات والحاثات الرغبية التي يرخي لها فرد بعينه العنان في داخل نفسه أو يفصح عنها على الأقل شعورياً هي عينها التي قد تقابل من فرد آخر بالرفض والشجب، أو قد يخنقها حتى قبل أن يتسنى لها أن تصير شعورية. غير أن الفارق بين هذين الشخصين، وهو الفارق المتضمِّن لشرط الكبت، يمكن التعبير عنه بكيفية أخرى تفسح في المجال أمام إدراجه في نظرية الليبيدو. إذ نستطيع أن نقول إن ثاني الشخصين أنشأ في داخل نفسه مثالاً يقيس به أناه الراهن، بينما لم يتكوَّن لدى الأول مثال من هذا القبيل. وعلى هذا، يكون تكوين المثال من جانب الأنا شرط الكبت.

إن هذا الأنا المثالي هو ما يتجه إليه من الآن فصاعداً حبُّ الذات الذي كان ينعم به الأنا الواقعي في الطفولة. ويبدو أن النرجسية انزاحت إلى هذا الأنا المثالي الجديد الذي يمتلك، مثله مثل الأنا الطفلي، جميع ضروب الكمال وصفاته. وكما يجري في كل مرة في ميدان الليبيدو، فإن الإنسان يظهر هنا عجزه عن العزوف عن الإشباع الذي نعم به في يوم من الأيام. فهو لا يريد أن يستغني عن كمال طفولته النرجسي؛ ولئن لم يستطع أن يحافظ عليه، إذ إن تأنيبات الآخرين في أثناء نموه قد بلبلته، كما أن ملكة الحكم قد استيقظت لديه، فإنه يجاهد الآن



من أجل اكتسابه مرة ثانية في شكل جديد هو شكل مثال الأنا[٣٦]. وما يسقطه أمام ناظريه على أنه مثاله إنما هو بديل نرجسيته الطفلية الضائعة؛ فيوم كان طفلاً كان بذاته مثال ذاته.

هنـا تتـاح لنـا الفـرصـة لتفحص العلاقة بين تكوين المثال هذا وبين الإسماء SUBLIMATION. فالإسماء سيرورة تتعلق بالليبيدو الموضوعاني وقوامها اتجاه الدافع الغريزي نحو هدف آخر غير ذي صلة بالإشباع الجنسي؛ والتركيز هنا يكون على هذا التحول نحو طريق آخر يباعد الشقَّة عما هو جنسي. أما المثْلَنة IDEALISATION فسيرورة تتعلق بالموضوع، وعن طريقها يُضخَّم هذا الموضوع ويُنفج نفسياً من دون أن تتغيَّر طبيعته. والمثلنة ممكنة سواءً أفي مضمار الليبيدو الأنوي أم في مضمار الليبيدو الموضوعاني. فالمغالاة في التقييم الجنسي للموضوع هي، على سبيل المثال، مَثلَنة له. وعلى هذا، وبقدر ما أن الإسماء سيرورة تتصل بالدافع الغريزي والمثْلَنة سيرورة تتصل بالموضوع، فلا مناص لنا من الإبقاء على هذين المفهومين منفصلين واحدهما عن الآخر.

إن تكوين مثال الأنا كثيراً ما يُخلط، على حساب الوضوح في الفهم، بينه وبين إسماء الدوافع الغريزية. فمن قايض نرجسيته بتعظيم لمثال أنوي سام لا يكون بالضرورة قد أسمى دوافعه الغريزية الليبيدوية. صحيح أن مثال الأنا يتطلَّب مثل هذا الإسماء، لكنه لا يستطيع الحصول عليه غصباً؛ فالإسماء يبقى سيرورة من نوعٍ خاص؛ وقد يحثّ المثال الأنوي على استهلالها، لكن إنجازها يبقى مستقلاً أتمَّ الاستقلال عن حثّ كهذا. ولدى المعصوبين تحديداً نلتقي أعظم الفروق في التوتر بين نمو مثال الأنا وبين كمية إسماء دوافعهم الغريزية الليبيدوية البدائية. وبوجه الإجمال، إن إقناع الإنسان المثالي بأن الليبيدو عنده قد استقر في

---

٣٦ ـ يلاحظ القارئ هنا أن فرويد لا يميِّز تمييزاً واضحاً بين مثال الأنا IDEALICH وبين الأنا المثالي ICHIDEAL، وهو ما استدركه لاحقاً بعض المنتمين إلى مدرسته، ومنهم الفرنسي دانييل لاغاش الذي عرَّف مثال الأنا IDEAL DU MOI بأنه ما يتطلبه الأنا الأعلى من الأنا أن يكونه، والأنا المثالي MOI IDEAL بأنه ما ينتظره الإنسان من ذاته أن يكونه وفق النموذج الكلي القدرة للنرجسية الطفلية. «م».



موقع غير موائم أعسر بكثير من إقناع الإنسان البسيط الذي لزم حدود التواضع في ادعاءاته. وعلاقات تكوين المثال والإسماء بالعوامل المحدِّدة للعصاب مختلفة كل الاختلاف هي الأخرى. فتكوين المثال يزيد، كما رأينا، من متطلبات الأنا، وهو الذي يضغط بأعظم القوة باتجاه الكبت؛ بينما يمثِّل الإسماء المخرج الذي يفسح في المجال أمام إشباع هذه المتطلبات بدون أن يستتبع كبتاً.

ولن يدهشنا أن نعثر في نهاية المطاف على هيئة نفسية خاصة مولجة بمهمة السهر على تأمين الإشباع النرجسي الصادر عن مثال الأنا، ومن شأنها أن تخضِع لهذا الغرض الأنا الواقعي لمراقبة دائمة وتقيسه بالمثال. وإن تكن مثل هذه الهيئة موجودة، فمن المستحيل أن تكون موضوعاً لاكتشاف مفاجئ؛ والحق أننا لا نستطيع إلا أن نتعرفها بما هي كذلك، وبوسعنا أن ندعي أن ما نسمّيه بضميرنا يتمتع بهذه الخاصية. إن تعرُّف هذه الهيئة يتيح لنا أن نفهم الأفكار الهذائية التي يحسب المعاني منها أنه في نقطة المركز من انتباه الآخرين، أو بتعبير أصحّ هذاء المراقبة الذي نلحظه بجلاء لا مزيد عليه في أعراض الأمراض البارانوئية، وإن لم يكن من المتعذر أن ينفرد أيضاً بالظهور كمرض قائم في ذاته أو لماماً في عصاب من الأعصبة التحويلية. وفي مثل هذه الأحوال يشكو المرضى من أن ثمة سلطة مطَّلعة على أفكارهم، ومن أنها تراقب أفعالهم وترصد حركاتهم ونـأماتهم؛ وهم يعرفون بعمل هذه السلطة المستقل من خلال أصوات تخاطبهم، على نحو له دلالته، بضمير الغائب («إنه لا يزال الآن يفكر بكذا»، «إنه الآن يذهب»). وهذه الشكوى لها ما يبررها، فهي تصف الحقيقة؛ إذ توجد بالفعل، ولدينا نحن جميعاً في الحياة السوية، سلطة من هذا القبيل تراقب وتعرف وتنتقد جميع نياتنا ومقاصدنا. وهذاء المراقبة يمثِّلها في صورة نكوصية، كاشفاً على هذا النحو عن منشئها وعن السبب الذي يحدو بالمريض إلى شقّ عصا الطاعة والتمرد عليها.

إن ما حفز الفرد على تشكيل مثال الأنا، الذي توكل إلى الضمير مهمة حراسته، كان بالتحديد نفوذ الوالدين النقدي كما نقله إليه صوتهما؛ وبمرور الوقت ينضاف إليه المربون والأساتذة والحشد الغفير واللامحدد من سائر أفراد



الوسط المحيط (الأقران، الرأي العام).

على هذا النحو تنجذب مقادير ليبيدوية كبيرة، هي في أساسها جنسية مثلية، لتشكل مثال الأنا النرجسي. وهي إذ تصونه وتحافظ عليه تجد سبيلاً إلى التحول عن مجراها وإلى إشباع ذاتها. وفي الواقع، كان تـأسيس الضمير تجسيداً في مرحلة أولى لنقد الوالدين، وفي مرحلة تالية لنقد المجتمع؛ وتتكرر السيرورة عينها حينما يكون الميل إلى الكبت ناشئاً عن حظر أو عقبة كانا في الأصل خارجيين تماماً. وهنا تأتي الأصوات، وتلك الجمهرة المتروكة على إبهامها ولاتعيُّنها، لتحتل مكانة الصدارة، من جراء المرض، بحيث أن تاريخ تطور الضمير يكرر نفسه نكوصياً. أما التمرد على هذه الهيئة الرقابية فينبع من واقعة محددة ـ موافِقة للخاصية الرئيسية للمرض ـ تتمثل في رغبة الفرد في أن ينعتق من جميع ضروب النفوذ تلك، بدءاً بنفوذ والديه، وفي أن يسحب منها طاقته الليبيدوية الجنسية المثلية. وعندئذ يرتدّ إليه ضميره، في شكل نكوصي، وكأنه تأثير معادٍ من قبل العالم الخارجي.

تدل تظلمات المريض البارانوئي أيضاً على أن النقد الذاتي الذي يصدر عن الضمير يتوافق في الواقع مع مراقبة الذات لذاتها، وهي المراقبة التي على أساسها يقوم عليه هذا النقد. فالنشاط النفسي الذي اضطلع بوظيفة الضمير هو عينه الذي وضع نفسه في خدمة الاستبطان الذي يقدِّم للفلسفة مادة عملياتها الفكرية. وربما لم يكن ذلك منقطع الصلة بالميل الذي يتصف به المصابون بالبارانويا إلى بناء مذاهب وأنظمة نظرية[٣٧].

إنه لمن الأهمية بمكان بكل تأكيد أن نتمكن من أن نتعرف في مضامير أخرى بعد إلى القرائن الدالة على نشاط هذه الهيئة التي ترصد وتنتقد والتي ارتقت بنفسها إلى مستوى الضمير والاستبطان الفلسفي. وأرجع هنا إلى ما وصفه هـ. سلبرر Silberer[٣٨] بأنه «الظاهرة الوظيفية»، وهي واحدة من الإضافات النادرة، التي لا

٣٧ ـ أضيفُ هنا الفرض البسيط التالي: وهو أن تكوين تلك الهيئة التي تراقب وترصد وتعزيزَها يحتمل جداً أن يكونا بمثابة غلاف للظهور المتأخر للذاكرة (الذاتية) ولعامل الزمن الذي لا يسري على السيرورات اللاشعورية.



سبيل إلى المماراة في قيمتها، إلى نظرية الأحلام. فقد بيَّن سلبرر، كما هو معلوم، أنه في إمكاننا أن نلحظ مباشرة، في الحالات الواقعة ما بين النوم والصحو، تحوّل الأفكار إلى صور بصرية. غير أن الصورة التي تظهر في مثل هذه الظروف لا تمثِّل بوجه الإجمال مضموناً فكرياً، بل الحالة (جودة الصحة، التعب، إلخ) التي يكون عليها الشخص الذي يغالب النوم. وقد أوضح كذلك أن نهاية الحلم أو بعض فقرات مضمون الحلم لا تعني، في العديد من الأحوال، سوى شيء واحد وهو الإدراك الذاتي للنوم واليقظة. وبذلك يكون قد أثبت مساهمة المراقبة الذاتية ـ أي هذاء الترصد البارانوئي ـ في تكوين الحلم. وهذه المساهمة متقلبة وغير ثابتة؛ وربما غفلتُ عنها لأنها ما كانت تلعب دوراً كبيراً في أحلامي الخاصة. أما لدى الأشخاص الموهوبين فلسفياً والمعتادين عل الاستبطان فمن الممكن أن تغدو هذه المساهمة واضحة سافرة.

لنتذكر هنا أننا كنا وجدنا أن تكوين الحلم يتمّ تحت سيطرة رقابة ترغم أفكار الحلم على التعرُّض لتحريف. بيد أننا لا نتمثل هذه الرقابة في صورة قوة خاصة، وإنما اخترنا هذا التعبير لنشير إلى ذلك الجانب الخاص من الميول الكابتة المهيمنة على الأنا والمتجهة صوب أفكار الحلم. وإن توغلنا إلى أبعد من ذلك في بنية الأنا، وسِعنا أن نتعرف أيضاً في مثال الأنا وفي تظاهرات الضمير الدينامية رقيب الحلم. وإن يكن هذا الرقيب على شيء من التأهب حتى في أثناء النوم، فسنفهم أن يسهم الترصد الذاتي والنقد الذاتي، اللذان يفترضهما نشاطه، بقسطهما في مضمون الحلم من خلال مضامين كهذه: إنه الآن أكثر استغراقاً في النوم من أن يستطيع التفكير، أو إنه الآن على وشك الاستيقاظ[٣٩].

٣٨ ـ هربرت سلبرر: محلل نفسي نمساوي عصامي (١٨٨٢ ـ ١٩٢٣). انتمى، بعد التعرف إلى فرويد، إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**، ثم تحوَّل لاحقاً نحو التصوف والباطنية والخيمياء. ومات منتحراً. من أهم مؤلفاته: **مشكلات الروحانية ورموزها**. والإحالة في النص إلى بحثه: **تقرير حول النهج الكفيل باستحداث بعض الظاهرات الهلوسية الرمزية وإخضاعها للمراقبة في مجلة التحليل النفسي والطبي النفسي**، ١٩٠٩. «م».

٣٩ ـ لا أستطيع أن أبتّ هنا في ما إذا كان التمييز بين هيئة الرقابة هذه وبقية الأنا أهلاً لتقديم أساس سيكولوجي للفصل الذي تقرره الفلسفة بين الوعي ووعي الذات.



بوسعنا، ابتداء من هنا، أن نحاول مناقشة مشكلة حسّ الذات لدى السويّ ولدى المعصوب.

إن حسّ الذات يبدو لنا بادئ ذي بدء تعبيراً عن عظمة الأنا، بدون أن تدخل في الاعتبار العناصر التي تتألف منها هذه العظمة. فكل ما يملكه المرء أو تطاله يده، وكل أثر متبقٍ من الحسّ الأولي بكلية القدرة حظي بالتأييد من الخبرة والتجربة، يسهم في إنماء حسّ الذات.

وما دمنا أدخلنا هنا تمييزنا بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، فلزام علينا أن نقرّ بأن حسّ الذات منوط، على نحو حميم للغاية، بالليبيدو النرجسي. وإننا لنستند هنا إلى الواقعتين الرئيسيتين التاليتين: فحسّ الذات يتنامى في البارافرينيا ويتقلص في الأعصبة التحويلية؛ أما في الحياة الحبِّية فإن حسّ الذات لدى الكائن المعني يتقدم إذا حظي بالحب ويتقهقر إذا لم يحظَ بالحب. وقد كنا ذكرنا أن الهدف والإشباع في الاختيار الموضوعاني النرجسي يتمثلان في أن يكون المرء محبوباً.

أضف إلى ذلك أنه من اليسير أن نلاحظ أن توظيف الليبيدو في المواضيع لا ينمي حسّ الذات. فالتبعية إزاء الموضوع المحبوب يكون من نتيجتها تقليص هذا الحسّ؛ فالعاشق إنسان ذليل وخانع. فمن يحبّ يدفع غرامته، إن جاز القول، من حساب نرجسيته بالذات، ولا يستطيع أن يحظى بتعويض إلا إذا صار محبوباً بدوره. ومن جميع هذه المنظورات يبقى حسّ الذات، فيما يبدو، وثيق الصلة بالعنصر النرجسي في الحياة الحبِّية.

إن إدراك المرء لعنَّته، لعجزه عن الحب من جراء اضطرابات نفسية أو بدنية، يؤثِّر إلى أعلى درجة في خفض حسّ الذات. وهنا ينبغي أن نبحث، في تقديري، عن أحد مصادر مشاعر النقص والدونية التي لا يتردد المرضى المعانون من عصاب تحويلي في الكشف عنها. غير أن المصدر الرئيسي لهذه المشاعر هو افتقار الأنا الناجم عن كون مقادير كبيرة للغاية من التوظيفات الليبيدوية قد سحبت من الأنا، وهو من ثم الجرح الذي تنزله بالأنا النوازع الجنسية التي لا تعود خاضعة لسيطرته.



لقد أصاب أ. آدلر[٤٠] إذ نوّه بأن إدراك المرء لدونيته العضوية يلعب دوره كمهماز لطاقته الذهنية، إذا كانت موفورة له، ويزيد في مردودها عن طريق التعويض المضاعف. غير أنه من الغلوّ المحض أن يُعزى كل إنتاج لمردود جيّد، على منوال ما يفعل آدلر، إلى شرط الدونية العضوية الأصلية هذا. فليس الرسامون كلهم يعانون من اضطرابات بصرية، وليس الخطباء كلهم ممن كانوا يشكون من التأتأة في أول الأمر. ولدى عدد غفير من الأشخاص يرتكز المردود الممتاز إلى مواهب عضوية من الطراز الأول. والواقع أن الدونية العضوية وضروب الضمور تلعب في إتيولوجيا الأعصبة دوراً طفيفاً لا يزيد على الدور الذي تلعبه المعطيات الإدراكية الراهنة في تكوين الحلم. والواقع أيضاً أن العصاب يستخدم تلك الدونية كذريعة وتعلّة، مثلما يستخدم أي عامل متاح آخر. وما إن نصدِّق ما تؤكده لنا امرأة معصوبة من أنه كان من المحتم أن تقع مريضة لأنها دميمة، بشعة الخلقة، لا فتنة لها ولا سحر بحيث يتعذر أن يحبَّها أحد، حتى تُنبِّهنا إلى خطئنا المريضةُ التالية: فهي مقيمة على عصابها وعلى صدودها عن الجنس لا تبارحهما، على الرغم من أن ظاهرها يدل على أنها من النوع الذي يُشتهى، بل على الرغم من أنها مشتهاة فعلاً أكثر من متوسط النساء. والغالبية من النساء الهستيريات هنّ بين بنات جنسهن من الجذابات، بل من الحسناوات؛ وعلى العكس من ذلك نجد أن ضروب القبح وضمور الأعضاء، وهي عاهات تكثر في الطبقات الدنيا من مجتمعنا، لا تزيد إطلاقاً في نسبة انتشار الأمراض العصابية بين هذه الطبقات.

إن علاقات حسّ الذات بالإيروسية (أي بالتوظيفات الليبيدوية الموضوعانية) يمكن التعبير عنها بالصيغ التالية: من الواجب التمييز بين حالتين، وذلك تبعاً لكون التوظيفات الحبِّية موافقة للأنا أو واقعة على العكس تحت الكبت. ففي الحالة الأولى (استخدام الليبيدو على نحو موافق للأنا) يكون الحب مثمَّناً تثميناً عالياً مثله مثل كل نشاط آخر للأنا. إن الحب بحدّ ذاته، من حيث هو رغبة مضطرمة وحرمان، يخفض حسَّ الذات؛ على حين أن هذا الحسّ يرتفع ويعلو إن

٤٠ ـ الإحالة هنا إلى كتاب ألفريد آدلر: **دراسة حول الدونية العضوية** (١٩٠٧). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



يكن المرء محبوباً، مبادِلاً حباً بحب، مالكاً للموضوع المحبوب. وعندما يُكبت الليبيدو، يستشعر المرء التوظيف الحبّي على أنه انتقاص حادّ من قدر الأنا؛ ومتى ما كان الإشباع الحبّي مستحيلاً، فلا سبيل إلى إعادة إغناء الأنا إلا بسحب الليبيدو من المواضيع. وارتداد الليبيدو الموضوعاني إلى الأنا، أي تحوُّله إلى نرجسية، يمثّل بنوع ما استعادة افتراضية لحبٍّ موفَّق. يضاف إلى ذلك أن الحب الموفق الفعلي يناظر أيضاً الحالة الأصلية التي يكون من المتعذر التمييز فيها بين الليبيدو الموضوعاني والليبيدو الأنوي.

إن خطورة موضوع بحثنا هذا واستحالة استيعابه بنظرة إجمالية قد تبرران إضافتي لبضع ملاحظات أخرى بتسلسل أشد تهافتاً بعد.

إن نموّ الأنا قوامه التنائي عن النرجسية الأولية، وإن تولَّد عنه في الوقت نفسه ميل شديد إلى استرجاع هذه النرجسية. ويتمّ هذا التنائي عن طريق نقل الليبيدو إلى مثال أنوي يجري فرضه من الخارج، كما يتمّ الإشباع عن طريق تحقيق هذا المثال.

ويكون الأنا قد أصدر في الوقت نفسه التوظيفات الليبيدوية الموضوعانية، فيصيبه من جراء ذلك افتقار لصالح هذه التوظيفات، وكذلك لصالح مثال الأنا، ويعود إلى الاغتناء من جديد عن طريق الإشباعات الموضوعانية، وكذلك عن طريق تحقيق هذا المثال.

إن جانباً من حس الذات أولي، وهو فضالة النرجسية الطفلية، وجانباً آخر منه يكمن أصله في ما تؤكده التجربة من كلية قدرتنا (تحقيق مثال الأنا)، وجانباً ثالثاً ينبع من إشباع الليبيدو الموضوعاني.

إن مثال الأنا يخضِع الإشباع الليبيدوي ذا الصلة بالمواضيع لشروط صارمة، إذ يحمل رقيبه على رفض جانب من هذا الإشباع باعتباره غير موائم. وحينما لا ينمو مثال أنوي كهذا، يدخل النازع الجنسي الذي نحن بصدده كما هو، أي باعتباره انحرافاً، في تركيب الشخصية. فالسعادة التي ينشد الإنسان بلوغها هي أن يكون من جديد، وكما كان في طفولته، وحتى في ما يتصل بنوازعه الجنسية، مثال ذاته.



إن العشق قوامه طفح لليبيدو الأنوي على الموضوع. وهو يملك القدرة على إلغاء ضروب الكبت وعلى إعادة إحياء الانحرافات. إنه يرفع الموضوع الجنسي إلى مرتبة المثال الجنسي. ويكون حدوثه، في النمط الموضوعاني أو الاتكالي، على أساس تحقيق الشروط المحدِّدة للحب الطفلي، مما يبيح لنا القول: إن ما يحقق هذا الشرط المحدِّد للحب الطفلي تجري مَثْلَنَتُه.

يمكن للمثال الجنسي أن يدخل في علاقة مساعفة مثيرة للاهتمام مع مثال الأنا. فحين يصطدم الإشباع النرجسي بعقبات فعلية، يكون في مستطاع المثال الجنسي أن يفيد في تقديم إشباع بديل. وعندئذ يحب المرء، وفق نمط الاختيار النرجسي، ما كانه هو نفسه وما فقده، أو ما يتمتع بضروب الكمال التي ما أتيح له هو قط أن يتمتع بها. والصيغة الموازية للصيغة السابقة مؤداها كما يلي: إن من يملك الصفة الرفيعة، التي لا يحوزها الأنا لبلوغ المثال، هو الذي يغدو محبوباً. وتنطوي مثل هذه الحيلة على أهمية خاصة بالنسبة إلى العصابي الذي يؤول حاله إلى افتقار، من جراء توظيفاته الموضوعانية المسرفة، في ذات أناه ويغدو عاجزاً عن تحقيق مثاله الأنوي. وبعد أن يكون بدّد ليبيدوه في المواضيع يبحث عن طريق يعيده إلى النرجسية بأن يختار لنفسه، وفق النمط النرجسي، مثالاً جنسياً يتمتع بضروب الكمال التي يعزّ عليه بلوغها. وبالفعل، إنه لا يستطيع أن يؤمن بوجود طريقة أخرى للشفاء، ويفصح مراراً وتكراراً في أثناء العلاج عن توقعه لهذا الطريقة، ويوجه هذا التوقع إلى شخص الطبيب الذي يعالجه. وخطة الشفاء هذه تصطدم بطبيعة الحال بعجز المريض عن الحب، كنتيجة لاتساع نطاق كبوتاته. وحينما نحرره إلى حدّ ما، عن طريق المعالجة، من هذه الكبوتات، تطالعنا بوجه عام هذه النتيجة التي ما كنا نرمي إليها: فالمريض يتهرب الآن من متابعة العلاج ليقوم باختيار حبِّي، موكلاً إلى حياته المشتركة مع الشخص الذي يحبه مهمة إنجاز عملية إبلاله وشفائه. وكان بوسعنا أن نرضى عن هذه النتيجة لولا أنها تنطوي على جميع أخطار التبعية المرهقة تجاه هذا المنقذ.

من مثال الأنا يتفرع طريق ذو دلالة يقودنا إلى فهم سيكولوجيا الجموع. فلهذا المثال، علاوة على جانبه الفردي، جانب اجتماعي؛ فهو أيضاً المثال المشترك



لأسرة أو لطبقة أو لأمة. وفضلاً عن الليبيدو النرجسي، يستأثر هذا المثال بكمية كبيرة من الليبيدو الجنسي المِثْلي عند شخص من الأشخاص، وهذا الليبيدو يرتدّ عن ذلك الطريق إلى الأنا. وعدم الإشباع الناجم عن عدم تحقيق هذا المثال يحرر كمية من الليبيدو الجنسي المثلي لا تلبث أن تتحول إلى شعور بالإثم (الحصَر الاجتماعي)[٤١]. وقد كان الشعور بالإثم في الأصل حصَراً من الخصاء على يد الوالدين، أو بتعبير أدقّ خوفاً من فقدن حبهما؛ ثم لا تلبث جمهرة الرفاق اللامحدَّدة الهوية أن تحلّ محلَّ الوالدين. وعلى هذا النحو يتأتّى لنا أن نفهم على نحو أفضل لماذا تنشأ البارانويا في كثرة من الأحيان عن إصابة يتعرَّض لها الأنا، عن إحباط للإشباع في مضمار مثال الأنا؛ ويتأتى لنا أن نفهم على نحو أفضل أيضاً تلاقي المَثْلَنة والإسماء في مثال الأنا، وتقهقر الإسماءات، وربما أيضاً إعادة صياغة المُثُل في الأمراض البارافرينية.

٤١ ـ في **لسان العرب**: الحَصَر ضرب من العيّ. حصِر الرجل حَصراً مثل تعِب تعَباً فهو حصِر: عيِيَ في منطقه. وحصَر صدره: ضاق. والحصر: ضيق الصدر. «م».



ـ ٧ ـ

حول انزياحات الدوافع الغريزية وعلى الأخص في الإيروسية الشرجية (١٩١٧)

منذ عدة سنوات قادتني المشاهدة التحليلية النفسية إلى الأخذ بفرض مؤداه أن التلاقي المستديم للخصائص الطبعية الثلاث التالية: **الترتيب، الاقتصاد، العناد**، يشفّ عن تعزيز للمقوِّم الإيروسي الشرجي في الجِبِلَّة الجنسية للأشخاص الذين تكونت لديهم، في مسار نموهم، وتتويجاً لإيروسيتهم الشرجية، هذه الأشكال المتميزة لرد الفعل من قبل الأنا[١].

لقد كانت بغيتي يومئذ التعريف بعلاقة معترف بها على صعيد الوقائع؛ وأما فيما يتعلق بتقييمها النظري فما كنت ألقي إليه بالاً. ومنذئذ حظي ذلك التصور بقبول عام: فكل خصيصة من هذه الخصائص الثلاث، البخل وفرط التدقيق والعناد، تنبع من المصادر الغريزية للإيروسية الشرجية أو ـ توخياً لمزيد من الحذر والكمال في التعبير ـ تتلقى مدداً وفيراً من هذه المصادر. وفي الواقع، لم تكن الحالات الخاصة الموسومة بسمة خاصة نتيجة لاجتماع هذه العيوب الثلاثة المشار إليها (الطبع الشرجي) سوى حالات متطرفة كان من المحتم أنْ يتكشف فيها الترابط موضوع بحثنا حتى للملاحظة الفجّة.

وبعد مضي بضع سنوات، وبهدي من خبرة تحليلية قاهرة، استخلصت من جملة وفيرة من الانطباعات استنتاجاً مؤداه أنه لا مناص لنا من التسليم بأن تطور الليبيدو البشري يمرّ، قبل مرحلة الزعامة التناسلية، بمرحلة من «تنظيم

١ ـ **الطبع والإيروسية الشرجية**، ١٩٠٨.



قبتناسلي» تضطلع فيها السادية والإيروسية الشرجية بالدور القيادي[٢].

ومنذئذ لم يعد ثمة مهرب من طرح السؤال المتعلق بمعرفة إلامَ تؤول لاحقاً الحاثات الغريزية الإيروسية الشرجية. وبالفعل، ما مصيرها بعد أن تفقد أهميتها بالنسبة إلى الحياة الجنسية بنتيجة توطد التنظيم التناسلي النهائي؟ هل تبقى على قيد الوجود بصفتها تلك، وإنما في حالة كبت؟أم هل يكتب لها أن تُسْمى أو أن تُستهلك بنتيجة انزياحها إلى سمات طبعية أم أنها تجد لها ملاذاً في البنية الجديدة للجنسية المتحددة بزعامة الأعضاء التناسلية؟ أو بالأحرى، وما دام أي مصير من مصائر الإيروسية الشرجية هذه لا ينفي في أغلب التقدير المصائر الأخرى، إلى أي حدّ أو بأية كيفية تتوزع مختلف الاحتمالات التي تقرر مصير الإيروسية الشرجية التي لا يمكن على كل حال أن يُسدَّ مجرى مصادرها العضوية بمجرد احتلال التنظيم التناسلي لمقدمة المسرح؟

قد نميل إلى الاعتقاد بأن المادة اللازمة للإجابة عن هذا السؤال وفيرة، وذلك ما دامت سيرورات التطور والانزياح المشار إليها تدور لا محالة لدى جميع الأشخاص الذي خضعوا في زمن لاحق للتنقيب التحليلي النفسي. بيد أن هذه المادة كتيمة للغاية، وكتلة الانطباعات التي تترجع باستمرار تترك أثراً يبعث على شديد الحيرة، بحيث أجدني عاجزاً حتى في الساعة الراهنة عن تقديم حلّ كامل للمشكلة، وغير مستطيع أن أعطي سوى عناصر من شأنها أن تساعد على حلّها. وإني إذ أفعل ذلك لن أدع الفرصة تمرّ بدون أن أشير، إن كان السياق يأذن بذلك، إلى بعض انزياحات غريزية أخرى لا تخصّ الإيروسية الشرجية. وأخيراً، إنه لا تكاد هناك حاجة إلى التذكير بأن سيرورات التطور المشار إليها ـ هنا كما في مواضع أخرى في التحليل النفسي ـ جرى استنتاجها ابتداء من أشكال النكوص التي قسرَتْها عليها السيروراتُ العصابية.

نستطيع أن نأخذ كنقطة انطلاق لهذه المناقشات الواقعة التالية: فبحسب ما تشير إليه الظواهر كلها فإنه من الصعب الفصل في منتجات اللاشعور ـ من خواطر وأخاييل وأعراض ـ بين مفاهيم البراز (المال، الهدية) والطفل والقضيب؛

٢ ـ **الاستعداد للعصاب الوسواسي**، ١٩١٣.



فهي قابلة بسهولة لأن ينوب بعضها مناب بعضها الآخر. ونحن نعلم جيداً أننا، بما نقوله هنا، نطلق عن خطأ على اللاشعور تسميات تُستخدم في مجالات أخرى من الحياة النفسية، وأننا ننساق وراء إغراء الفائدة التي يمكن أن تعود بها علينا المقارنة. ولنكرر القول أيضاً في صيغة لا سبيل إلى الطعن فيها إن تلك العناصر غالباً ما تُعامل في اللاشعور باعتبارها متكافئة وكما لو أنها قابلة لأن يقوم بعضها مقام بعضها الآخر بدون أن يكون في ذلك ضير.

وأيسر ما يمكن أن يلاحظ ذلك في العلاقات بين «الطفل» و«القضيب». وإنه ليس أمراً عديم الدلالة في أرجح الظن أن يكون رمز مشترك قابلاً لأن ينوب مناب كل منهما على السواء في لغة الحلم الرمزية كما في لغة الحياة اليومية. فالطفل، مثله مثل القضيب، يقال له «الصغير». ومن الحقائق الواقعة المعروفة أن اللغة الرمزية لا تقيم في كثير من الأحيان اعتباراً لفارق الجنسين. وهكذا، إن «الصغير»، الذي كان يعني في الأصل عضو الذكورة، أمكن استخدامه بصورة ثانوية في الإشارة إلى العضو التناسلي المؤنث.

إذا تقصينا بما فيه الكفاية من العمق العصاب لدى امرأة بعينها، لا يندر أن نرتطم في نهاية المطاف برغبتها المكبوتة في أن يكون لها كالرجل قضيب. ذلك أن حظاً عاثراً عارضاً في حياة المرأة ـ حظاً عاثراً لا يعدو هو نفسه في كثرة من الأحيان أن يكون نتيجة لجبلّة ضاربة بقوة إلى الذكورة ـ يكون قد نشَّط من جديد تلك الرغبة الطفلية التي ندرجها، تحت عنوان الحسد القضيبي، في عداد عقدة الخصاء، وجعلها تصبح، من جراء انسحاب الليبيدو، الحامل الرئيسي للأعراض العصابية. ولدى نساء أُخر لا يشفّ شيء عن هذه الرغبة في القضيب؛ فقد احتلت مكانها الرغبة في إنجاب طفل؛ فإن حرمتهن منه الحياة فقد يتفجر عندئذ لديهن العصاب. فلكأن هؤلاء النسوة أدركن ـ مع أنه ربما كان ذلك مستحيلاً كدافع ـ أن الطبيعة أعطت المرأة طفلاً كبديل عن الشيء الآخر الذي تعيَّن عليها أن تحرمها منه. ولدى نساء أُخر أيضاً يتبيَّن لنا أن الرغبتين كانتا ماثلتين في الطفولة وقد تناوبتا في العمل. ففي بادئ الأمر كنّ يرغبن في قضيب مثل الرجل، وفي زمن لاحق، ولكن بدون أن يجاوزن طور الطفولة، حلّت الرغبة في



أن يكون لهن طفل محل الرغبة الأولى. ولسنا نستطيع أن ننحّي جانباً ما يساورنا من انطباع بأن عوامل عارضة في الحياة العائلية، ووجود الإخوة أو عدم وجودهم، وخبرة ميلاد طفل جديد في حقبة موائمة، هي المسؤولة عن ذلك التنوع الذي لا يحول مع ذلك دون أن تكون الرغبة في القضيب مطابقة في جوهرها للرغبة في الحصول على طفل.

وقد يكون في وسعنا أن نحدد المصير الذي تؤول إليه الرغبة الطفلية في الحصول على قضيب حين تغيب شروط العصاب في الحياة اللاحقة. فهي تنقلب عندئذ إلى رغبة في الرجل أو إنها، بعبارة أخرى، تعتمد الرجل بوصفه استطالة للقضيب. وبفعل هذا الانقلاب، تتحول الحاثة، التي كانت موجَّهة ضد الوظيفة الجنسية الأنثوية، إلى حاثة موائمة لها. ويغدو في إمكان هؤلاء النساء عندئذ أن يحيين حياة حُبِّية وفق النمط المذكر للحب الموضوعاني، وهو النمط الذي يمكنه أن يثبِّت موقعه بجانب النمط المؤنث المحض والمشتق من النرجسية. وقد سبق لنا أن رأينا[٣] أن الطفل في حالات أخرى هو الذي يفسح في المجال للانتقال من حب الذات النرجسي إلى الحب الموضوعاني. إذاً، بصدد هذه النقطة أيضاً يمكن أن يُمثَّل الطفل بالقضيب.

لقد سنحت لي الفرصة مراراً لأستمع إلى نساء يسردن لي الأحلام التي أعقبت علاقاتهن الجنسية الأولى. كانت هذه الأحلام تنمّ بلا جدال عن رغبتهن في الاحتفاظ لأنفسهن بالقضيب الذي أحسسن به. فهي تعادل إذاً، بصرف النظر عن باعثها الليبيدوي، نكوصاً مؤقتاً من الرجل إلى القضيب كموضوع للرغبة. وقد تميل المرأة في الأغلب إلى أن تُرجِع، بطريقة عقلانية خالصة، رغبتها في الحصول على رجل إلى رغبتها في الحصول على طفل، إذ لا محيد لها عن أن تفهم في يوم من الأيام أنه لا سبيل إلى الحصول على طفل بدون تدخل الرجل. ولكن من الممكن أن يكون قوام الأمر كالتالي بالأحرى: إن الرغبة في الرجل تظهر مستقلة عن الرغبة في الطفل، وإذا ما انبعثت دوافع ممكن فهمها تنتمي بكليتها إلى سيكولوجيا الأنا، فإن الرغبة القديمة في القضيب تقترن عندئذ

٣ ـ في المبحث السابق: **من أجل إدخال النرجسية**. هامش الترجمة الفرسية الجديدة.



بها بوصفها تعضيداً ليبيدوياً لاشعورياً.

إن أهمية السيرورة التي جئنا بوصفها تكمن في كونها تحوِّل اتجاه جزء من الذكورة النرجسية للمرأة الصبية ليصبّ في مجرى الأنوثة وتجعل بالتالي من هذا الجزء عادم الأذى بالنسبة إلى الوظيفة الجنسية المؤنثة. والحال أنه عن طريق آخر يتاح حتى لعنصر من عناصر إيروسية المرحلة القبتناسلية أن يغدو أهلاً للاستخدام في مرحلة الزعامة التناسلية. فالطفل يعتبر بالفعل «لومفاً» (انظر تحليل هانز الصغير)[٤]، شيئاً ينفصل عن الجسم مروراً بالمعي؛ وعلى هذا النحو يمكن لكمية من التوظيف الليبيدوي الذي كان مثمَّراً في المحتوى المعوي أن تنسحب على الطفل الذي يولد مروراً بالمعي. ومن الشواهد اللغوية على وحدة الهوية هذه بين الطفل والبراز قولنا: أهدت طفلاً[٥]. فالبراز هو بالتحديد الهدية الأولى، جزء من جسم الرضيع لا يقبل بانفصاله عنه إلا بإيعاز من الشخص المحبوب، وعن طريقه يُظهِر حبَّه لهذا الشخص حتى بدون أن يسأله ذلك: فهو بصفة عامة لا يوسّخ الأشخاص الغرباء (ردّ الفعل نفسه مع البول، وإن بدرجة أقل شدة). والتغوط يتيح للطفل أول مناسبة ليحسم أمره بين الموقف النرجسي وموقف الحب الموضوعاني. فإما أن يتنازل بانقياد عن برازه، أي «يضحِّي» به لقاء الحب، أو يمسكه برسم الإشباع الإيروسي الذاتي، وفيما بعد لتوكيد إرادته الخاصة. وبهذا القرار الأخير يتكون التحدي (المعاندة والتمسك بالرأي) الذي ينجم عن ثبات نرجسي في الإيروسية الشرجية.

وأغلب الظن أن الدلالة الأولى التي يفضي إليها الاهتمام بالبراز ليست الذهب/العملة، وإنما الهدية. فالطفل لا يعرف من مال آخر غير ذاك الذي يعطى له؛ لا يعرف المال المكتسب، ولا المال الشخصي الموروث. وبما أن البراز هو هديته الأولى، فإنه يحوِّل بيسر اهتمامه بهذه المادة إلى تلك المادة الجديدة التي

٤ ـ كان هانز الصغير يسمي برازه «لومفاً». راجع ترجمتنا لـ **التحليل النفسي لرهاب الأطفال: هانز الصغير** في الجزء الثالث من **مؤلفات فرويد شبه الكاملة**. «م».

٥ ـ هذا التعبير لا وجود له بالعربية، ولكن يقال لفعل الولادة بالألمانية GEBOREN WERDEN. والحال أن GEBOREN مشتقّ من فعل GEBEN أي أعطى أو أهدى. «م».



تمْثُل له في الحياة باعتبارها أثمن هدية. ومن يشكّ في اشتقاق الهدية هذا يخلق به أن يرجع إلى خبرته بالعلاج التحليلي النفسي، وأن يدرس الهدايا التي يتلقاها بوصفه طبيباً من المريض، وأن يأخذ حذره من عواصف التحويل[٦] التي يمكن أن يثيرها فيما لو أهدى هو نفسه المريض هدية.

وعليه، إن الاهتمام بالبراز يستمر من جهة أولى في صورة اهتمام بالمال، وينتقل من الجهة الثانية إلى الرغبة في إنجاب طفل. وفي هذه الرغبة في الطفل تلتقي عندئذ حاثة إيروسية شرجية وحاثة تناسلية (الحسد القضيبي). غير أن للقضيب أيضاً دلالة إيروسية شرجية، مستقلة عن الاهتمام بالطفل. فالعلاقة بين القضيب وقناة الغشاء المخاطي التي يملؤها ويهيجها تتجسد قبلياً في المرحلة القبتناسلية السادية الشرجية. فحزمة البراز ـ أو «قضيب البراز» على حدّ تعبير أحد المرضى ـ هي، إن جاز القول، القضيب الأول، والغشاء المخاطي الذي يهيجه هذا القضيب هو غشاء فتحة المعي. وثمة أشخاص بقيت الإيروسية الشرجية عندهم قوية وبلا تغيير إلى زمن ما قبل البلوغ (بين السنة العاشرة والثانية عشرة)؛ ومنهم نعلم أنه تطوَّر لديهم، في أثناء تلك المرحلة القبتناسلية، وفي ألعابهم المنحرفة، تنظيم مماثل للتنظيم التناسلي، كان فيه القضيب والمهبل يُمثَّلان بقضيب البراز والمعي. ونستطيع أن نعاين لدى اشخاص آخرين، من المصابين بالعصاب الوسواسي، ثمرة تدهور نكوصي في التنظيم التناسلي. والأمر يتجلى لديهم على النحو التالي: إن جميع الأخاييل التي يتخيلونها في البدء وفق نمط تناسلي تتحول إلى أخاييل من طبيعة شرجية، فيحلّ محلّ القضيب عمود البراز، ومحل المهبل المعيُ.

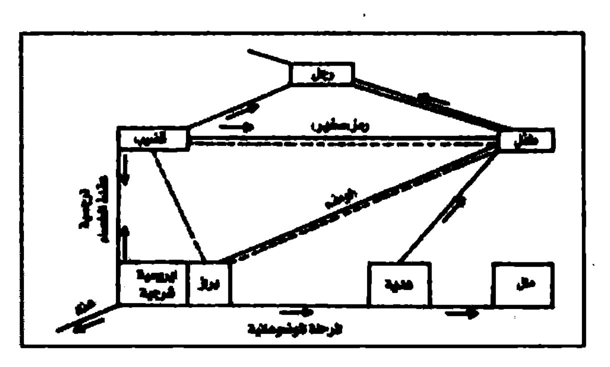
عندما ينكص الاهتمام بالبراز بطريقة سوية، يكون من نتيجة المماثلة العضوية التي بيّناها هنا تحويل هذا الاهتمام إلى القضيب. فإن تناهى إلى علم الولد لاحقاً، بنتيجة التقصّي الجنسي، أن الطفل يولد من المعي، يصبح هذا الطفل عندئذ الوريث الرئيسي للإيروسية الشرجية، لكن يكون سلفه هو القضيب، في هذا

٦ ـ التحويل: مصطلح تحليلي نفسي يشار به إلى الظاهرة التي قد تطرأ أثناء المعالجة التحليلية عندما يسقط المريض المعالَج مشاعرَه الحبِّية، أو العدائية في بعض الحالات، على شخص الطبيب المعالِج. «م».



الاتجاه كما في الآخر.

إنني لعلى اقتناع بأن العلاقات المتعددة في سلسلة البراز/ القضيب/ الطفل غدت الآن شبه مستغلقة على الفهم. لذا سأحاول أن أتدارك هذا القصور برسم بياني نتناول بالتمحيص، من خلال مناقشته، المعطيات نفسها، ولكن بترتيب مختلف هذه المرة. ومن دواعي الأسف أن هذه الوسيلة الفنية ليست مرنة بما فيه الكفاية لخدمة مقاصدنا، أو إننا نحن الذين لم نتدرب بعد تدرُّباً كافياً على استعمالها بالطريقة المواءمة. وعلى كل حال، أرجو القارئ ألا يقابل المخطط أدناه بمتطلبات صارمة.



عن الإيروسية الشرجية ينبثق، عبر توظيف نرجسي، التحدي بوصفه استجابة ذات دلالة تصدر عن الأنا رداً على مطالب الآخرين؛ و ينقلب الاهتمام المركَّز على البراز إلى اهتمام بالهدية ثم بالمال. و يولِّد دخول القضيب إلى المسرح لدى البنت الصغيرة الحسد القضيبي الذي ينزاح فيما بعد إلى رغبة في الحصول على رجل باعتباره حاملاً لقضيب. وكانت الرغبة في الحصول على قضيب قد تحولت من قبل إلى رغبة في الحصول على طفل، أو فلنقل إن الرغبة في الطفل قد حلّت محلّ الرغبة في القضيب. والمماثلة العضوية بين القضيب والطفل (الخط المنقَّط في الرسم) تتجلى في امتلاك رمز مشترك بينهما كليهما (الصغير). ومن الرغبة في الطفل يقود طريق عقلاني (الخط المزدوج) إلى الرغبة في الحصول على رجل. وقد كنا قيّمنا من قبل دلالة هذا الانزياح للدافع الغريزي.

وإنه لمن الأسهل بكثير أن نتعرف لدى الرجل جانباً آخر من هذا الترابط.



فحلقاته تنعقد متى ما تحقق الطفل في أثناء استقصاءاته الجنسية من انعدام القضيب لدى المرأة. فالقضيب يقع عندئذ تحت الإدراك بوصفه شيئاً يمكن فصله عن الجسم وتُعقل هويته بوصفه نظير البراز الذي كان أول قطعة من مادة الجسم تَعيَّن على الطفل أن يتنازل عنها. على هذا النحو يدخل التحدي الشرجي القديم في تكوين عقدة الخصاء. ومن المؤكد أن المماثلة العضوية التي بموجبها تمّ تصوّر محتوى المعي على أنه رائد القضيب في أثناء المرحلة القبتناسلية لا يمكن أن تدخل هنا في الحساب، غير أنها تعثر على بديل نفسي عبر التقصي الجنسي.

حينما يأتي الطفل إلى الوجود يتعرفه التقصي الجنسي على أنه «لومف» ويوظِّف فيه اهتماماً إيروسياً شرجياً قوياً. وتتلقى الرغبة في الطفل مدداً ثانياً من المصدر نفسه متى ما أفادت الخبرة الاجتماعية بأنه من الممكن أيضاً اعتبار الطفل عربون حب، أي هدية. هذه الأشياء الثلاثة: عمود البراز والقضيب والطفل، هي كلها أجسام صلبة تهيِّج بدخولها أو بخروجها قناة الغشاء المخاطي (الشرج، والمهبل الذي يتمّ في الوقت نفسه، وبحسب تعبير لو أندرياس - سالومي[٧] الموفق، تأجيره له)[٨]. ولا يكون التقصي الجنسي الطفلي قد استطاع أن يعرف من واقع الأشياء هذا سوى ما يلي: إن الطفل يسلك المجرى نفسه الذي يسلكه عمود البراز. وبالإجمال، إن هذا التقصي لا يقود إلى اكتشاف وظيفة القضيب. غير أنه من المفيد مع ذلك أن نلاحظ أن تطابقاً عضوياً يعاود ظهوره، بعد طول لفّ ودوران، في الحياة النفسية في صورة تماثل لاشعوري.

٧ - لو أندرياس سالومي: أديبة ألمانية من أصل روسي (١٨٦١ - ١٩٣٧). كان من أشهر من وقعوا في إسار حبها الفيلسوف نيتشه والشاعر ريلكه. التقت بفرويد عام ١٩١١ وصادقت ابنته آنا فرويد. من مؤلفاتها: **حب النرجسية**، **في ظل الأب (مراسلات مع آنا فرويد)**، **رسالة مفتوحة إلى فرويد** عرضت فيها تصورها الخاص للشهوة بوصفها اندفاعة حيوية غير قابلة للجم. «م».

٨ - «**الشرجي**» و«**الجنسي**»، في مجلة إيماغو، العدد الرابع، ١٩١٦.



ـ ٨ ـ
تابو البكارة
(١٩١٨)

قليلة هي خصائص الحياة الجنسية لدى البدائيين التي تبدو لنا غريبة غرابة تثمينهم للبكارة، أي لكون المرأة بكراً لم يمسسها أحد. فالقيمة التي يعلِّقها طالب الزواج اليوم على البكارة تبدو لنا مقررة سلفاً وبديهية حتى إننا لنقع في شبه ارتباك إذا ما دعت الحاجة إلى بناء هذا الحكم على أساسٍ بيِّن. والواقع أننا، إذ نطالب الفتاة حين زواجها من رجل من الرجال بألا تكون حاملة معها لذكريات عن علاقات جنسية قد تكون عقدتها مع رجل آخر، لا نفعل شيئاً سوى أننا نوسّع منطقياً حق الامتلاك الحصري للمرأة ـ وهو الحق الذي يؤلف ماهية الزواج الأحادي ـ ونسحب في الوقت نفسه هذا الاحتكار على الماضي.

ولا يصعب علينا عندئذ أن نبرر، بما لدينا من آراء عن حياة المرأة الحبِّية، ما كان يبدو للوهلة الأولى حكماً مسبقاً. فمن أشبع رغبة الفتاة الحبِّية الأولى التي طالما أمسكتها وتجشمت مشقة احتجازها، وتغَّلب من ثمّ على المقاومات التي نصبتها لدى هذه الفتاة تأثيرات وسطها وتربيتها، يكن قد أقام معها علاقة دائمة لا يمكن بعد الآن أن تقيمها مع أي رجل آخر. وعلى أساس هذه التجربة تدخل المرأة في حالة تبعية تضمن دوام امتلاكها بلا ممانعة وتوفِّر لها المقدرة على مقاومة الخبرات الجديدة والإغراءات الخارجية.

إننا ندين لكرافت ـ إيبنغ بتعبير «التبعية عن طريق الجنس»؛ فقد اختاره في عام ١٨٩٢ ليصف واقع أن الشخص يمكن أن يحرز معدلاً مرتفعاً للغاية من الخضوع والتبعية لشخص آخر أقام معه صلة جنسية[١]. ومن الممكن أن تذهب هذه التبعية



أحياناً إلى حدّ بعيد جداً، فيفقد الشخص كل استقلال إرادي ويرضى بالتضحية بمنتهى القسوة بصالحه الخاص؛ على أن الباحث المذكور ما فاته أن ينوّه بأنه «كيما تدوم العلاقة فترة ما، لا بدّ قطعاً من درجة معيَّنة من الاتّباع». والواقع أن هذه الدرجة من التبعية الجنسية ضرورية لا غنى عنها لقيام الزواج المتحضر ولاحتواء ما يتهدده من ميول إلى المكاثرة من الزوجات. وهذا العامل يؤخذ في الحسبان دوماً في تنظيمنا الاجتماعي.

لقد أرجع كرافت ـ إيبنغ أصل التبعية الجنسية إلى التلاقي بين «درجة عالية للغاية من الحالة الحبِّية وضعف الشخصية» عند أحد الطرفين وبين أنانية لا حدود لها عند الطرف الآخر. غير أن مكتسبات الخبرة التحليلية لا تبيح لنا أن نقنع بمحاولة التفسير البسيطة هذه. بل بوسعنا بالأحرى أن نعزو دور العامل الحاسم هنا إلى كمية المقاومة الجنسية التي تمّ التغلب عليها، بالإضافة إلى الطابع المركّز والأحادي الذي اتخذه هذا التغلّب. وعليه تكون التبعية أكثر تواتراً وشدة بما لا يُضاهى لدى المرأة منها لدى الرجل، كما تكون لدى هذا الأخير، من جهة أخرى، أكثر تواتراً في عصرنا هذا منها في العصور القديمة. وفي الحالات التي أمكن لنا فيها أن ندرس هذه التبعية الجنسية لدى الرجل، تبدّت لنا على أنها نتيجة لواقع أن امرأة بعينها تمكنت من التغلب على العنَّة النفسية لدى هذا الرجل الذي صار منذئذ موثق الرباط إليها. ويبدو لنا ذلك قميناً بتفسير الكثير من الزيجات الغريبة المخالفة للمألوف، والعديد من المصائر المأساوية الفاجعة.

إننا لا نكون قد وصفنا كما ينبغي سلوك الشعوب البدائية التي سنتكلم عنها الآن إذا قلنا إنها لا تعزو إلى البكارة أي قيمة، وإذا سقنا دليلاً على ذلك لجوءها إلى افتراع البنات الصبايا خارج إطار الزواج وقبل أي اتصال جنسي. بل يبدو بالأحرى أن فضّ البكارة عملية بالغة الأهمية بالنسبة إلى هذه الشعوب أيضاً، ولكنها صارت لديها موضوعاً محاطاً بتابو[٢]، لمحظور ينبغي وصفه بأنه ديني.

١ ـ كرافت إيبنغ: **ملاحظات حول «التبعية الجنسية» والمازوخية**، في **حولية الطب العقلي**، السنة ١٠، ١٨٩٢.



فبدلاً من أن يُترك للخطيب، زوج الفتاة المقبل، أمر إنجاز هذه العملية، يقضي العرف **بتجنيبه إياها**[٣].

لست أزمع أن أجمع هنا كل الشهادات الأدبية على وجود هذا المحظور، أو أن أتتبع مدى انتشاره الجغرافي، أو أن أحصي جميع الأشكال التي يتجلى من خلالها. وإنما سأكتفي بأن ألاحظ أنه يغلب كثيراً أن نلتقي لدى الشعوب البدائية المعاصرة هذا الافتضاض للبكارة خارج إطار الزواج الذي لا يُعقد إلا لاحقاً له. هكذا يقول كراولي[٤]: «يتمّ احتفال الزواج هذا بافتراع غشاء البكارة من قبل شخص مسمى لهذا الغرض هو غير الزوج، وأكثر ما يكون ذلك شيوعاً في المراحل المتأخرة من الحضارة، وبخاصة في أوستراليا»[٥].

لكن إن يكن من الواجب ألا يأتي الافتراع نتيجة للاتصال الزوجي الأول، فلا مناص من أن يكون شخص ما قد قام به قبل ذلك، بطريقة أو بأخرى. وعليه سأستشهد فقط ببضع فقرات من كتاب كراولي الذي تقدمت بي الإشارة إليه؛ ومن شأن هذه الفقرات أن تنوّرنا بصدد هذه النقطة وأن تبرّر في الوقت نفسه ما سنبديه من ملاحظات نقدية:

ـ الصفحة ١٩١: «لدى قبيلة الديبري وبعض القبائل المجاورة (في أوستراليا) جرى العرف على إزالة غشاء بكارة البنت متى ما بلغت (JOURN - ANTHROP - INST - XXIV 169.). أما لدى قبائل بورتلاند وغلينلغ فإن مهمة إزالة غشاء بكارة العروس تقع على عاتق امرأة عجوز، ولا يندر أن يستعان

٢ ـ التابو TABOU، كلمة بولينيزية الأصل. روّج له في اللغات الأوروبية الرحالة جيمس كوك، وأقرب كلمة يمكن أن يترجم إليها بالعربية هو الحرام كمقابل للحلال. «م».

٣ ـ كراولي: **الوردة المحرمة، دراسة في الزواج البدائي**. لندن ١٩٠٢؛ بارتلز ـ بلوس: **المرأة في الطبيعة وفي العلم الشعبي**، ١٩٨١؛ فقرات شتى لدى فريزر: **الحرام وأخطار النفس**؛ وهافلوك ـ إلّيس: **دراسات في علم نفس الجنس**.

٤ ـ إرنست كراولي: عالم جنسي وأنتروبولوجي وصحفي رياضي إنكليزي (١٨٦٧ ـ ١٩٢٤). اشتهر بدراسته الأنتروبولوجية المعنونة **الوردة المحرمة** التي درس فيها طقوس الزواج عند البدائيين. وله كذلك دراسة أخرى بعنوان: **التابو الجنسي**. «م».

٥ ـ المصدر الآنف الذكر، ص ٣٤٧. الشاهد والشواهد ـ التالية ـ بالإنكليزية في النص. «م».



برجال بيض لافتراع الصبايا (BROUGH SMITH. OP.CIT, 319, 11).

- الصفحة ٣٠٧: «إن التمزيق القصدي لغشاء البكارة يتمّ في الطفولة أحياناً، لكنه يجري في العادة في زمن البلوغ... وكثيراً ما يُقرن، كما في أوستراليا، بعملية مجامعة رسمية».

- الصفحة ٣٤٨ (بخصوص القبائل الأوسترالية التي تفرض قيوداً على الزواج الخارجي، ونقلاً عن إفادة لسبنسر وجيلن)[٦]: «يُفترع غشاء البكارة بصورة مصطنعة، ويقوم الرجال من الحضور بعد ذلك، وفق ترتيب محدد، بمجامعة الفتاة (طقسياً، لنكرر القول).. وتتم العملية على مرحلتين: إزالة غشاء البكارة ثم المجامعة».

- الصفحة ٣٤٩: «لدى قبيلة الماساي (إفريقيا الاستوائية)، يؤلف إخضاع البنت لهذه العملية إجراء من أهم الإجراءات التمهيدية للزواج (J.THOMSON.OP.CIT, 258). ولدى قبائل الساكاي (ماليزيا) والباطا (سومطرة) والألغوبير السولاوينرية يتولى فضَّ البكارة أبو العروس (PLOSS U.BARTELS,OP.CIT, 490, 11,). وفي الفيلبين يمتهن بعض الرجال حرفة افتراع العرائس في حال أن غشاء البكارة لم يتمّ فضّه في الطفولة على يد امرأة عجوز توكل إليها أحياناً هذه المهمة (FEATHERMAN,OP.CIT, 474, 11). ولدى بعض قبائل الإسكيمو يعهد إلى «الأنجيكول»، أي الكاهن، بمهمة افتراع العروس» (IBID, 406, 111).

إن الملاحظات التي أعلنت عنها تتصل بنقطتين. أولاً، ينبغي أن نعرب عن أسفنا من كون هذه المعطيات لا تميِّز بمزيد من الدقة بين محض إزالة غشاء البكارة بلا جماع وبين الجماع الذي يهدف إلى إزالة هذا الغشاء. ففي إحدى الحالات فقط جرى النص بصريح العبارة على أن العملية تنقسم إلى مرحلتين: الافتراع (باليد أو بأداة) ثم المجامعة التي تليه. أما المادة، الغنية جداً أصلاً، التي يزودنا بها بارتلز - بلوس BARTELS - PLOSS[٧]، فهي ليست ذات غنى

---

٦ - الإحالة هنا إلى كتاب بلدوين سبنسر(١٨٦٠ - ١٩٢٩) وفرنسيس جيمس جيلن(١٨٥٦ - ١٩١٢): **القبائل الأصلية في أوستراليا الوسطى**، لندن ١٨٩٩. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



يذكر لنا لأن الدلالة السيكولوجية لعملية الافتراع تغيب تماماً في وصفهما لها لصالح النتيجة التشريحية. ثم إننا كنا نودّ لو نعلم ما وجه الاختلاف بين الجماع «الطقسي» (الشكلي المحض، الاحتفالي، الرسمي) الذين يتمّ في تلك الظروف وبين الاتصال الجنسي المألوف. والحق أن المؤلفين الذي أمكن لي أن أطّلع على كتاباتهم كانوا إما مفرطين في التحشم فأمسكوا عن التصريح بصدد هذه النقطة وإما أنهم استهانوا بدورهم بالدلالة السيكولوجية لمثل تلك التفاصيل الجنسية. ولنا أن نأمل في أن تكون التقارير الأصلية التي دوَّنها الرحّالة والآباء المرسلون أكثر وضوحاً وصراحة. ولكن نظراً إلى أنه من رابع المستحيلات في أيامنا هذه[8] الوصول إلى هذه المنشورات التي هي في الغالب أجنبية، فإني لا أستطيع أن أقطع برأي في هذا الخصوص. ومهما يكن من أمر، فإنه يسعنا أن نتحاشى التشكيك في هذه النقطة الثانية بافتراضنا أن طقس التظاهر بالجماع يمثِّل بديلاً أو ربما يقوم مقام جماع الذي كان ينفَّذ بتمامه في أزمنة سابقة[9].

وإن شئنا تفسير تابو البكارة هذه، فبوسعنا الاستعانة بجملة من العوامل التي سأتناولها بالعرض السريع. فبصفة عامة تنزف البنت دماً عند افتراعها؛ ومن ثم، إن أول محاولة للتفسير ترتكز إلى خوف البدائيين الذين يعتبرون الدم مقرّ الحياة. وتشهد على تابو الدم هذه أحكام شتى لا صلة لها إطلاقاً بالجنسية. وجليّ للعيان أن هذا التابو مرتبط بتحظير القتل، وأنه بمثابة حماية من الظمأ إلى الدم، من الرغبة في قتل إنسان الأصول الأولى. ويجمع هذا التصور بين تابو البكارة وتابو الطمث الذي لا ينعدم أبداً وجوده. ولا يستطيع البدائي أن يفصل ظاهرة الحيض الملغزة عن التصورات السادية. فهو يؤول الطمث، وعلى الأقل الطمث الأول، على أنه ناجم عن عضة من حيوان من عالم الأرواح، أو ربما على أنه علامة على

٧ ـ أي في أواخر الحرب العالمية الأولى. «م».

٨ ـ الإحالة هنا إلى الكتاب المشترك لكل من الأخوين بارتلز وبول بلوس: **المرأة في العلاقة الجنسية، تحقيق أنطروبولوجي وتاريخي**. «م».

٩ ـ لا مجال للشك في أنه في العديد من حالات الطقوس الزواجية الأخرى كان أشخاص آخرون غير العريس، وعلى سبيل المثال زملاؤه ورفاقه (غلمان جوقة الشرف بموجب عاداتنا)، يُمنحون حق التمتع بالعروس.



اتصال جنسي بهذه الروح. وغالباً ما يكون في الإمكان تعرّف روح أحد الأسلاف في هذه الروح، وعندئذ نفهم، بالرجوع إلى مصادر أخرى للمعرفة[10]، أن تكون الفتاة بمثابة تابو باعتبارها ملكاً لروح هذا السلف.

غير أن ثمة ما ينبّهنا، من ناحية أخرى، إلى ضرورة عدم المبالغة في أهمية عامل كعامل الخوف من الدم. فهذا العامل لم يتمكن، بالفعل، من كبح عادات معيّنة كختان الصبي، بل - وهذا أفظع - ختان البنت (بتر البظر والشفرين الصغيرين)، وغيرها من العادات التي درجت عليها تلك الشعوب عينها أحياناً. كذلك إنه لم يحل دون تثمين هذه الشعوب لطقوس أخرى يهرق فيها الدم. لا داعي إذاً لأن يأخذنا العجب إن وجدنا أن ذلك الخوف قد تمّ التغلب عليه لصالح الزوج لدى المعاشرة الأولى.

ثمة تفسير ثانٍ يبتعد هو الآخر عن المضمار الجنسي، غير أنه عظيم الأهمية في المضمار العام. ومؤداه أن البدائي فريسة لحالة من القلق المستمر، المتربص دوماً، الشبيه بالقلق الذي نفترض وجوده لدى العصابيين الحصاريين بموجب نظرية التحليل النفسي في الأعصبة. هذه الحالة القلقة تتجلى بمزيد من الحدة في الظروف التي تنأى بصورة أو بأخرى عن المألوف، إذ تحمل في طياتها شيئاً جديداً، لامتوقعاً، لامفهوماً، يبعث على القلق. من هنا ينشأ الطقس، الذي لن يلبث أن يعمّ على سعة في الأديان المتأخرة بالارتباط مع استهلال كل نشاط جديد، وابتداء كل حقبة زمنية، وولادة أول وليد للإنسان أو الحيوان أو النبات. ذلك أن الأخطار التي يعتقد الإنسان القلق أنها تكمن له بالمرصاد لا تتطابق عادة مع توقعه إلا في مستهل الموقف الخطِر، وعندئذ فحسب ينبغي له أن يأخذ حذره منها. والاتصال الجنسي الأول في إطار الزواج يستوجب بكل تأكيد، نظراً إلى خطورته، أن تُتخذ كمقدمة له تلك التدابير الاحتياطية. وهاتان المحاولتان التفسيريتان - وأولاهما ترتكز إلى الخوف من الدم وثانيتهما إلى الخوف من البدايات - لا تناقض واحدتها الأخرى، بل على العكس تجد كل منهما ما يعززها في الثانية. فالاتصال الجنسي الأول فعلٌ تترتب عليه بالتأكيد نتائج جسام؛ ومما

١٠ - انظر **الطوطم والتابو**، ١٩١٣.



يزيد في جسامة هذه النتائج اقتران هذا الفعل بسيلان للدم.

وثمة تفسير ثالث ـ وهو الذي يحبِّذه كراولي ـ يلفت انتباهنا إلى واقع أن تابو البكارة يندرج في سياق يشمل الحياة الجنسية بأسرها. فليس الجماع الأول مع المرأة هو وحده التابو، وإنما جميع العلاقات الجنسية هي كذلك. بل يكاد يجوز لنا القول إن المرأة بتمام شخصها تابو[11]. فالمرأة ليست تابواً فقط في المواقف الخاصة المرتبطة بحياتها الجنسية: الطمث، الحمل، المخاض، الولادة؛ بل تخضع العلاقات بالمرأة، حتى خارج هذا الإطار، لقيود بالغة الكثرة والصرامة حتى لنجد أنفسنا في حِلٍّ من التشكيك في الحرية الجنسية المزعومة لدى المتوحشين. صحيح أن حياة البدائيين الجنسية لا تعرف في بعض الحالات أي رادع؛ غير أنها تبدو في العادة أسيرة نواهٍ أكثر تشدداً من نواهي المراحل الأكثر تحضراً. فعندما يعقد الرجل العزم على القيام بشيء ما خاص: غزوة، صيد، حرب، يتعيَّن عليه أن يجتنب المرأة، وأن يجتنب على الأخص معاشرتها جنسياً؛ فإن لم يمتنع قُضي على قواه بالخور وكان الفشل نصيبه المحقق. ولا نستطيع أيضاً أن نتجاهل ما تنطوي عليه أعراف الحياة اليومية من ميل إلى الفصل بين الجنسين. فالنساء يعشن مع النساء، والرجال مع الرجال، ولا وجود إن جاز التعبير لحياة عائلية ـ بالمعنى الذي نفهمه اليوم من هذه العبارة ـ لدى العديد من قبائل البدائيين. وقد يشطّ الفصل في بعض الأحيان شططاً مسرفاً بحيث لا يجوز لأفراد أحد الجنسين أن يتلفظوا بأسماء أشخاص من الجنس الآخر، وبحيث تبتدع النساء لغة خاصة بهن وبمفردات خاصة. ويمكن للحاجة الجنسية في كل آن وحين أن تخرق حاجز هذا الفصل، لكن اللقاء حتى بين الزوجين ينبغي أن يتمّ، في عرف العديد من القبائل، خارج إطار البيت وفي جو من السرية.

وحيثما يفرض البدائي تابواً، فمعنى ذلك أنه يخشى خطراً؛ ولسنا نستطيع أن ننكر حقيقة واقعة، وهي أن شتى ضروب الحظر والتحاشي تنمّ عن خوف جوهري حيال المرأة. وربما أمكن تعليل هذا الخوف بكون المرأة هي غير الرجل، وبكونها تبدو لامفهومة، يلفّها السرّ، غريبة، ومن ثم عدوة. فالرجل يخاف أن

---

١١ ـ إلى اليوم لا نزال نقول للمرأة بالعربية حرمة. «م».



تضعفه المرأة، أن تعديه أنوثتها فينكشف عندئذ عجزه. والمفعول المنيم، المرخي، للجماع يمكن أن يكون النموذج الأصلي لهذا القلق؛ ولئن اتسع نطاق هذا القلق فيما بعد فمبرِّر ذلك ما يستشعره البدائيون من تعاظم لنفوذ المرأة على الرجل بفعل العلاقات الجنسية ومدى ما تستأثر به من الاعتبار في أثنائها. وما من شيء من هذا كله قد شاخ، وما من شيء منه قد فقد قيمته في أيامنا هذه بعد.

إن العديدين من الدارسين للبدائيين الذين لا يزالون يحيون بين ظهرانينا إلى يومنا هذا رأوا أن النازع الحبِّي لدى البدائيين ضعيف نسبياً، وأنه لا يبلغ أبداً شدته المألوفة لدى المتحضرين من البشر. ولكن دارسين آخرين فنّدوا هذا الرأي. ومهما يكن من أمر، فإن الأعراف التابوية التي جرى الكشف عنها تشهد على وجود قوة معارضة للحب، لأنها تقصي المرأة باعتبارها غريبة وعدوة.

يوضح كراولي، بعبارات لا تختلف إلا قليلاً عن المصطلحات المألوفة للتحليل النفسي، أن كل فرد يعزل نفسه عن الآخرين بـ «تابو بهدف الانفراد الشخصي»[١٢]، وأن الفروق الصغيرة في ما هو متشابه من الجوانب الأخرى هي الأساس الذي تقوم عليه مشاعر الغرابة والعداوة بين الأفراد. وإنه لمن المغري لنا أن نوسّع نطاق هذه النظرة، فنشتقّ من «نرجسية الفروق الصغيرة»[١٣] هذه النزعةَ العدوانية التي تخوض في كل علاقة تنعقد بين البشر حرباً مظفرة ضد الشعور بالتضامن، وتهزم الوصية التي تأمر كل الناس بأن يحبّوا كل الناس. ويعتقد التحليل النفسي أنه حدس بأن واحداً من الحوافز الرئيسية لموقف الرفض النرجسي، الذي يمازجه قدر غير قليل من الازدراء، الذي يقفه الرجل من المرأة ينبغي أن يعزى إلى عقدة الخصاء وإلى ما لهذه العقدة من تأثير على الحكم الصادر على المرأة.

١٢ ـ بالإنكليزية في النص. «م».

١٣ ـ **نرجسية الفروق الصغيرة**: مفهوم أساسي في الفكر التحليلي النفسي، وسيعود فرويد إلى توظيفه في نصوص تالية أخرى كما في **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا** (١٩٢١) **وقلق في الحضارة** (١٩٢٩) **وموسى والتوحيد** (١٩٣٩). وقد اكتسب هذا المفهوم مدلولاً جيوبوليتيكياً للإشارة إلى العداوة التي قد تنشب بين الشعوب المتجاورة جغرافياً والمتشابهة حضارياً كما في مثال الألمان والفرنسيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.«م».



بيد أنه يخلق بنا أن نلاحظ أن هذه التأملات الأخيرة قد شطّت بنا بعيداً عن موضوعنا. فالتابو العام الذي تحاط به المرأة لا يلقي أي ضوء على الأحكام الخاصة التي تتصل بالمجامعة الأولى مع فتاة بعينها. وهنا نجدنا وقد رجعنا أدراجنا إلى التفسيرين الأولين: الخوف من الدم والخوف من البدايات، وهما تفسيران لا نجد مناصاً من أن نقول إنهما لا ينفذان إلى لب المبدأ التابوي موضوع بحثنا. فظاهر للعيان أن الأساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ هو الحرص على الحؤول بين **الزوج المقبل** وبين الدخول في علاقة أو تماس مع شيء غير قابل تحديداً للفصل عن المجامعة الأولى، وإن يكن المفروض، كما بيّنا ذلك في مستهل مقالنا هذا، أن تتمخض هذه العلاقة نفسها عن رابطة من نوع خاص تربط تلك المرأة بهذا الرجل.

ليست مهمتنا هذه المرة أن نناقش أصل هذه التابوات أو دلالتها. فهذا ما كنت فعلته في كتابي **الطوطم والتابو**؛ ففيه أوضحت أن ازدواجية أصلية هي الشرط الأول للتابو، وذُدت فيه عن الفكرة التي تقول إنه متولد عن سيرورات ترجع إلى ما قبل التاريخ وأفضت إلى تأسيس الأسرة البشرية. ولم يعد في مستطاعنا اليوم أن نتعرف هذه الدلالة الأولى في الأعراف والعادات القديمة التي يراعيها في أيامنا هذه البدائيون. ولكم ننسى بسهولة أن الشعوب الأكثر بدائية تحيا هي الأخرى في ظل حضارة نائية جداً عن الأزمنة البدائية، حضارة لا تقلّ عراقة في الزمن عن حضارتنا، وتمثّل هي الأخرى حقبة من التطور متأخرة زمنياً، وإن تكن مختلفة عن حضارتنا.

إننا نجد لدى البدائيين المعاصرين أن التابو منسوج في لحمة نظام بارع، مشابه تماماً لذاك الذي ينبني في أرهبة العصابيين: فمحلّ الدوافع القديمة تحل دوافع جديدة تتوافق وإياها بانسجام. لكن فلننحِّ جانباً هذه المشكلات النشوئية، لنعود إلى الفكرة القائلة إن البدائي يؤسس تابواً حيثما يخشى خطراً. وهذا الخطر هو، بوجه عام، خطر نفسي لأن البدائي ليس مكرهاً على القيام هنا بتفرقتين تبدوان لنا محتمتين. فهو لا يميِّز الخطر المادي من الخطر النفسي، ولا الخطر الواقعي من الخطر الوهمي. وبموجب تصوره الأرواحي Animiste والمنطقي للعالم، فإن كل



خطر إنما ينبع من النية العدوانية لكائن حيّ مشابه له، سواء أصدر هذا الخطر عن قوة من قوى الطبيعة أم عن بشر أم عن حيوانات. ومن جهة أخرى، اعتاد هذا البدائي أن يسقِط على العالم الخارجي حفزاته العدوانية الداخلية، وأن يعزوها على هذا النحو إلى المواضيع التي يستشعرها على أنها مزعجة أو غريبة ليس إلا. ومن ثم، إنه يتعرف في المرأة أيضاً مصدراً للأخطار، والمجامعة الأولى معها تنطوي بالتالي على خطر بالغ الشدة.

والحال أنني أعتقد أننا سنفوز ببعض الإيضاحات بصدد كنه هذا الخطر الكبير والسبب في كونه يتوعد الزوج المقبل تحديداً لو درسنا بمزيد من التدقيق سلوك النساء اللائي يحيين في أيامنا هذه، وفي ظل حقبتنا الحضارية، عندما يواجهن الظروف نفسها. وأخمِّن أن النتيجة التي ستتمخض عنها هذه الدراسة هي أنه يوجد فعلاً خطر من هذا القبيل، وأن البدائي يدفع عن نفسه بالتالي، من خلال تابو البكارة، خطراً من حقه أن يستشعره، حتى وإن يكن محض خطر نفسي.

إننا نرى أنه من الطبيعي أن تضمّ المرأة بعد الجماع، وفي ذروة الإشباع، الرجل بين ذراعيها، ونعدّ ذلك تعبيراً عن عرفانها والتزامها بالتبعية الدائمة. لكننا نعلم أنه ليس من المحتم إطلاقاً أن تستتبع المعاشرة الجنسية الأولى سلوكاً من هذا القبيل أيضاً. فهي لا تعني للمرأة في أكثر الأحيان إلا خيبة وإحباطاً؛ ومن ثم تبقى المرأة باردة، بلا إشباع، ولا بدّ في العادة من مزيد من الوقت، ومن تكرار مطَّرد للعملية الجنسية، كيما تعرف المرأة هي الأخرى طريقها إلى الإشباع. وما أكثر الحالات التي تبدأ بهذه البرودة في مستهل العلاقة، وهي برودة عابرة، لتنتهي إلى نتيجة مؤلمة تتمثل في برودة دائمة لا يتوصل الرجل إلى التغلب عليها مهما بذل للمرأة من حبّ وحنوّ. وعندي أن برودة المرأة هذه لم تحظَ منا بالفهم الكافي، وأنه لا بدّ لنا من تفسيرها بقدر الإمكان ـ فيما عدا الحالة التي ينبغي أن تلقى التبعة فيها على عنة الرجل ـ بظاهرات قريبة منها.

لن أقف هنا عند محاولات التهرب ـ وهي كثيرة ـ من المجامعة الأولى، إذ ينبغي لنا أن نفهمها بصور شتى، وقبل كل شيء ـ وهذا إن لم يكن بصفة دائمة ـ بوصفها تعبيراً عن ميل المرأة العام إلى الدفاع عن نفسها. بالمقابل، إني أعتقد أن بعض الحالات



الباتولوجية تلقي ضوءاً على لغز البرودة الأنثوية؛ أقصد بذلك الحالات التي تفصح فيها المرأة بصراحة بعد المجامعة الأولى، بله عند كل مجامعة جديدة، عن عدائها للرجل بأن تشتمه وتهينه، أو ترفع يدها عليه، أو تضربه فعلياً. وهذا ما كان يحدث في حالة مدهشة من هذا القبيل، حالة تسنى لي أن أخضِعها لتحليل معمَّق، علماً بأن تلك المرأة كانت تحبّ زوجها حباً جماً، وكان من عادتها أن تطلب بنفسها الجماع، وتجد فيه بدون أي احتمال للخطأ متعة عارمة. وأعتقد أن هذه الاستجابة المضادة الغريبة هي نتيجة لتلك الحاثات عينها التي لا يسعها في العادة الإفصاح عن نفسها إلا بالبرودة بدون أن يكون في مكنتها مع ذلك أن تعبِّر عن نفسها بنفسها. ذلك أن ما يكون في البرودة ـ وهي الحالة الأكثر تواتراً بكثير ـ متحداً بفعل الكفّ ينفصل في الحالة الباتولوجية إلى عنصريه المقوِّمين الاثنين إن جاز القول، تماماً كما يحدث ـ وهذا ما نعرفه منذ زمن بعيد ـ في الأعراض التي يقال لها «ثنائية الطور» للعصاب الوسواسي. والخطر الذي يخلقه فعل افتراع الفتاة العذراء يتمثل في أن المفترع يجلب على نفسه عداءها، ومن ثم يكون من مصلحة الزوج المقبل أن يتملص من مثل هذه البغضاء.

يتيح لنا التحليل الآن أن نرهص بيسر بطبيعة الحاثات التي تسهم في تعيين هذا السلوك المفارق الذي أتوقع أن أجد فيه تفسير البرودة. فالجماع الأول يحرك سلسلة من الحاثات غير القابلة للاستعمال برسم المسلك الأنثوي المرجو، والتي لن يعاود بعضها ظهوره على الإطلاق في العلاقات اللاحقة. ويذهب بنا الفكر أول الأمر إلى الألم الذي ينوب الفتاة من الافتراع، وقد يميل بعضهم إلى اعتبار هذا العامل حاسماً فلا يعود يبحث عن غيره. لكن ليس من الحق أن نعزو إلى الألم مثل هذه الدلالة، بل ينبغي بالأحرى أن نرى مكانه جرحاً نرجسياً ينشأ عن تدمير عضو من الأعضاء ويجد تمثيلاً عقلياً له في وعي المرأة المفتضَّة بكارتها بما أصابها من نقصان في قيمتها الجنسية. غير أن عادات الزفاف لدى البدائيين تحذِّرنا من مثل هذا الغلوّ في التقدير. فقد علمنا أن الطقس يجري في العديد من الأحوال على مرحلتين: فبعد تمزيق غشاء البكارة (باليد أو بأداة) يجري جماع رسمي أو تظاهر بالمجامعة مع ممثل عن الزوج؛ وهذا ينبِّهنا إلى أن مغزى نظام التابو لا يكمن بتمامه في واقعة تحاشي الافتراع التشريحي، وإلى أن



المطلوب تجنيب الزوج شيئاً آخر بعد غير ردّ المرأة على الجرح المؤلم.

إننا نلقى سبباً آخر للخيبة في الجماع الأول في عدم التطابق، لدى المرأة المتحضرة على الأقل، بين التوقع ونجاز الفعل. فإلى ذلك الحين كانت العلاقة الجنسية مقرونة بقوة بالمحظور؛ ولهذا السبب لا يكون وقع العلاقة المشروعة والمباحة في النفس مماثلاً. وعمق هذا الاقتران يتجلى بصورة شبه هزلية في ميل الخطيبين إلى أن يخفيا عن الغرباء جميعاً، وحتى عن ذويهما، علاقتهما الحبِّية الجديدة مع أن ما من ضرورة توجب ذلك ولا وجود لأية معارضة يُخشى جانبها. وكثيراً ما تصرِّح الفتيات بأن حبهن يفقد في نظرهن من قيمته إذا ما علم بأمره آخرون. وقد يكون هذا الدافع أحياناً من القوة بحيث يحول دون أي تطور للحب في الزواج. فالمرأة لا تستعيد قدرتها على بذل المحبة إلا في إطار علاقة غير مباحة ومحتَّم عليها أن تبقى طيَّ الكتمان، وتكون فيها المرأة واثقة من أنها تدخل فيها بملء إرادتها بدون أن تكون واقعة تحت أي تأثير.

على أن هذا الدافع لا يمضي بنا بدوره بعيداً؛ وفضلاً عن ذلك إنه لا يتيح لنا، بحكم ارتباطه بالشروط الحضارية، أن نجري مقارنة جيدة مع وضع البدائيين. أما العامل التالي، المبني على تاريخ تطور الليبيدو، فإنه لا يكتسب، بالمقابل، بنتيجة ذلك إلا المزيد من الدلالة والأهمية. فقد دلتنا جهود التحليل النفسي كم تكون التوظيفات الليبيدوية الأولى منتظمة وقوية. والمقصود بذلك هنا رغبات جنسية محتجزة منذ عهد الطفولة؛ وقوام هذه الرغبات في غالب الأحيان لدى المرأة تثبيت لليبيدو على الأب أو على الأخ الذي يقوم له مقام البديل. ويغلب أن تستهدف هذه الرغبات شيئاً آخر غير الجماع أو أنها لا تشتمل على الجماع إلا بصفته هدفاً غير محدَّد. فالزوج هو على الدوام، إن جاز القول، مجرد بديل، وليس هو بحالٍ الرجل بملء معنى الكلمة. بل ثمة رجل آخر كان أول من وسم بميسمه الطاقة الحبِّية لدى المرأة، وهذا الآخر هو في الحالات النمطية الأب، أما الزوج فما هو في أحسن الأحوال إلا الثاني. وبيت القصيد الآن أن نعرف مدى شدة هذا التثبيت ومدى ما ينبغي أن يكون عليه من تصلب وثبات كيما يتمّ نبذ الرجل البديل باعتباره عاجزاً عن إشباع المرأة. إذاً فالبرودة منوطة بشروط نشوء العصاب. فكلما كان العنصر النفسي أعظم قوة في



حياة المرأة الجنسية، وكلما أظهر توزيع الليبيدو عندها مقدرة أكبر على مقاومة صدمة المجامعة الأولى، كان وقع الامتلاك الجسدي لهذه المرأة أخفَّ وطأة. وهكذا يمكن أن تتثبت البرودة باعتبارها كفاً عصابياً أو أن تقدِّم أساساً لتمخُّض أعصبة أخرى. ومن ثم، إن أي ضعف في قدرة الرجل، ولو كان طفيفاً، يمكن أن يكون له أثر كبير، وإن كعامل مساعد.

إن العرف الذي درج عليه البدائيون في إيكال عملية فضّ غشاء البكارة إلى رجل شيخ أو قديس أو كاهن، وباختصار إلى بديل للأب (انظر ما تقدم)، يبدو والحالة هذه وكأنه يأخذ بعين الاعتبار دافعاً رغبياً جنسياً قديماً. ويتهيأ لي أن طريقاً مباشراً يقود من هذه الواقعة إلى **حق الليلة الأولى**(١٤) الذي كان يتمتع به السيد الإقطاعي في العصور الوسطى والذي دار حوله نقاش كثير. وقد حامى أ. ج. ستورفر Storfer(١٥) عن التصور عينه(١٦)، وأوَّل، فضلاً عن ذلك، العرف الواسع الانتشار الذي يقال له «الزواج على طريقة طوبيا»(١٧) - (وهو عرف يقضي بالاستنكاف في الليالي الثلاث الأُوَل) - على أنه اعتراف بامتيازات ربّ الأسرة. وكان ك. غ. يونغ قد ذهب من قبل هذا المذهب في تأويله له(١٨).

١٤ - باللاتينية في النص: JUS PRIMAE NOCTIS. «م».

١٥ - أدولف جوزف ستورفر: (١٨٨٨ - ١٩٤٤) صحفي وناشر ومحلل نفسي نمساوي مجري. أجرى تحليله النفسي على يد فرويد، وتعاون مع أوتو رانك وآنا فرويد في نشر أول مجموعة لمؤلفات مؤسس التحليل النفسي. من أشهر كتبه: **الكلمات ومصيرها**، **في غابة اللغة**، **من الألف إلى الياء**، وهو دراسة حول اشتقاق أسماء الأعلام. «م».

١٦ - **حول الوضع الخاص لقتل الأب**، في **كتابات علم النفس التطبيقي**، السنة ١٢.

١٧ - طوبيا: كلمة عبرية معناها: الله طيِّب. والإشارة هنا إلى طوبيا اللاوي، وهو من السبي البابلي. وفي التوراة سفر باسمه من ١٤ إصحاحاً. وفي الإصحاح السادس أن ابنه، ويدعى بدوره طوبيا، تلقى نصيحة من الملاك، رفيقه في الدرب، بأن يتزوج من سارة ابنة رعويل، فتردد طوبيا محتجاً بأنه قد سمع أنه كان عُقد لها على سبعة أزواج فماتوا جميعهم أو قتلهم الشيطان، وأبدى تخوفه من أن يصيبه بدوره ما أصابهم. فردّ عليه الملاك بأن الشيطان لا يقوى إلا على من إذا تزوج نفى الله من قلبه وتفرغ لشهوته كالبغل، ولذلك عليك إذا تزوجتها ودخلت المخدع أن تمسك عنها ثلاثة أيام، وبعد انقضاء الليلة الثالثة تأخذ البكر بخوف الرب وأنت راغب في البنين أكثر من الشروة لكي تنال بركة ذرية إبراهيم. «م».

١٨ - **أهمية الأب في مصير الفرد**. في **حولية التحليل النفسي**، السنة ١، ١٩٠٩.



وعلى هذا، لن يدهشنا أن نجد بين بدائل الأب الموكل إليهم فضّ البكارة صورة الآلهة بالذات. ففي العديد من أقاليم الهند كان يتعيَّن على العروس أن تضحي بغشاء بكارتها على مسلة خشبية مقدسة[١٩]. وبحسب ما رواه القديس أوغسطينوس[٢٠] فإن العادة كلها كانت من ضمن طقس الزفاف الروماني في عصره[٢١]، مع فارق واحد وهو أن العروس ما كان عليها إلا أن تجلس فوق قضيب بريابوس الضخم[٢٢].

وثمة دافع آخر يرسي جذوره في طبقات أبعد غوراً بعد. وهو المسؤول الأول عن رد الفعل الظاهري التناقض تجاه الرجل، ويتجلى تأثيره في رأيي في برودة المرأة أيضاً. فالجماع الأول يحرِّك لدى المرأة حاثات أخرى غير تلك التي تقدَّم بنا وصفها، حاثات تتعارض بوجه خاص مع الوظيفة والدور الأنثويين.

لقد اتضح لنا من تحليل عصابيات عديدات أنهن يمررن في مستهل حياتهن بمرحلة يحسدن فيها أخاهن على امتلاكه علامة ذكورة ويعتبرن أنفسهن لحرمانهن منها (أو بتعبير أدقّ لاختزالها لديهن) مغبونات ومهملات. ونحن ندرج هذا «الحسد القضيبي» في عداد «عقدة الخصاء». وإذا جعلنا «الذكورة» صفة من يريد أن يكون ذكراً، أمكننا أن ننعت هذا السلوك بأنه «احتجاج

١٩ ـ المسلات المقدسة عند الهنود LINGAM: مسلات خشبية أو حجرية على شكل قضيب ولها صفات قدسية. «م».

٢٠ ـ القديس أوغسطينوس: من أبرز آباء الكنيسة لدى الكاثوليكيين والأنغليكانيين (٣٥٤ ـ ٤٣٠). ولد في سوق أهراس في الجزائر من أم أمازيغية (القديسة مونيكا) وأب روماني وثني. خذل أمه واعتنق المانوية وعاش حياة متهتكة. هجر قرطاجة إلى ميلانو حيث وقع تحت تأثير أسقفها أمبروسيوس. وفي عام ٣٨٦ اعتنق المسيحية وروى تفاصيل مسيرته الروحية في كتابه المشهور **الاعترافات**. يلقب بـ «ابن الدموع» نسبة إلى دموع أمه التي تقول الأسطورة إنها بقيت تذرف لمدة عشرين سنة ليهتدي إلى المسيحية. «م».

٢١ ـ بلوس وبارتلز: **المرأة**، م١ و١٢، ودولور(*): **الآلهة الخالقة**، باريس ١٨٨٥ (معاد طبعه عن طبعة ١٨٥٢)، ص ١٤٢ وما بعدها.

(*) جاك أنطوان دولور: عالم آثار ومؤرخ فرنسي (١٧٥٥ ـ ١٨٣٥). تخصص في التأريخ لمدينة باريس وللثورة الفرنسية، فضلاً عن الديانات السابقة للوثنية وللتوحيد. من مؤلفاته: **التاريخ النقدي لطبقة النبلاء، جرائم وآثام النبلاء والكهنة، تاريخ الثورة الفرنسية، العبادات التي سبقت الوثنية، التاريخ المختصر لمختلف العبادات**. «م».

٢٢ ـ بريابوس: إله القوة التناسلية عند الذكور لدى الرومان. «م».



ذكوري»، وهو نعت ابتدعه آدلر ليعلن أن هذا العامل هو عامل عام في العصاب[٢٣]. ويغلب في تلك المرحلة ألا تخفي البنات الصغيرات حسدهن وما يستتبعه من عداء تجاه شقيقهن الأوفر حظاً منهن؛ وقد يحاولن أيضاً أن يتبولن واقفات كما يفعل أخوهن جهراً منهن بمساواتهن المزعومة. وفي الحالة التي أسلفت ذكرها عن عدوان صريح يقع بعد الجماع على الرجل المحبوب مع ذلك من قبل المرأة المعتدية عليه، أمكن لي أن أتحقق من أن تلك المرحلة تمّ اجتيازها قبل الاختيار الموضوعاني الأول. وإنما في طور لاحق فحسب اتجه ليبيدو البنت الصغيرة نحو أبيها، وكان ما رغبت فيه عندئذ بدل القضيب.. طفلاً[٢٤].

لن يدهشني أن أجد في حالات أخرى تسلسلاً معكوساً لهذه الحاثات، بحيث أن هذا الجانب من عقدة الخصاء لا يسري مفعوله إلا بعد إنجاز الاختيار الموضوعاني. لكن المرحلة الذكورية لدى المرأة، أي المرحلة التي تحسد فيها الصبي على قضيبه، أقدم عهداً في تاريخ تطورها وأقرب إلى النرجسية الأصلية منها إلى الحب الموضوعاني.

لقد أتاحت لي المصادفة منذ فترة من الزمن الفرصة لدراسة حلم عروس صبية، وكان من الميسور أن أتعرف ما في هذا الحلم من ردّ فعل على فضّ بكارتها. فقد كان يشفّ بلا قسر عن رغبة المرأة في أن تخصي زوجها الشاب وأن تحتفظ لنفسها بقضيبه. وكان من الممكن بكل تأكيد إعطاء الحلم تأويلاً أكثر براءة فنقول إنها كانت ترغب في أن تطيل أمد المجامعة وأن تكررها؛ بيد أن بعض تفاصيل الحلم كانت تتجاوز هذه الدلالة، كما أن طباع الحالمة وسلوكها اللاحق كانت ترجّح كفّة الأخذ بالتأويل الأصرم. وخلف هذا الحسد القضيبي تكشفت من ثم مرارة المرأة العدائية تجاه الرجل، وهي المرارة التي لا يجوز بتاتاً إغفال شأنها في العلاقات بين الجنسين والتي من أوضح علائمها التطلعات والإبداعات الأدبية لـ «المتحررات» من النساء. وقد أرجع

---

٢٣ ـ الإحالة هنا إلى مقال ألفريد آدلر: **النغولة النفسية في الحياة وفي العصاب**، في **المجلة الطبية**، ١٩١٠، العدد ٢٨. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٤ ـ **انظر حول انزياحات الدوافع الغريزية، وبالأخص في الإيروسية الشرجية**، ١٩١٧ (انظر المقالة السادسة من هذا الكتاب). (م).



فيرنزي (أجهل إن يكن هو أول من فعل ذلك) هذه المرارة، من خلال فرضية بيولوجية إحاثية PALEOBIOLOGIQUE[٢٥]، إلى زمن تمايز الجنسين. فالجماع كان يتمّ في البداية، على ما يرى، بين فردين من جنس واحد، ولكن أحدهما كان سباقاً إلى النمو، ومن ثم أرغم الأضعف على تقبل الاتصال الجنسي. ومرارة هذه الدونية تتجلى في سلوك المرأة الراهن. وأعتقد أنه لا يحقّ لنا أن نلوم أحداً على لجوئه إلى مثل هذه الفروض ما دام يتفادى الغلوَّ في تقييمها.

بعد تعدادنا على هذا النحو لدوافع استجابة المرأة الظاهرية التناقض لعملية فضّ بكارتها، وهي استجابة يستمرّ أثرها في البرودة، يمكننا أن نخلص إلى القول باقتضاب إن الجنسية غير الناجزة لدى المرأة تلقي بحملها على عاتق الرجل الذي عرفت معه الاتصال الجنسي الأول. وهكذا يأخذ تابو البكارة كامل معناه، ويتأتى لنا أن نفهم مرمى المبدأ الذي يسعى إلى تجنيب الرجل - الذي ستجمعه وهذه المرأة حياة مشتركة مديدة - أخطاراً كهذه. وفي أطوار أكثر تقدماً من الحضارة يخلي تقدير هذا الخطر مكانه لوعد بالخضوع والتبعية، وكذلك بكل تأكيد لدوافع وإغراءات أخرى: فالبكارة تعدّ ثروة لا يجوز للرجل التنازل عنها. غير أن تحليل الخلافات الزوجية يُظهر أن الدوافع التي تحدو بالمرأة إلى الانتقام لافتراعها لم تخمد جذوتها هي الأخرى تمام الخمود في الحياة النفسية للمرأة المتحضرة. وأعتقد أن كل مراقب لا بدّ أن يستوقف انتباهه كون المرأة تبقى في عدد لا يستهان به من الحالات باردة وتشعر بالتعاسة في زواجها الأول، ثم تصبح بعد فصم عرى هذا الزواج زوجة سعيدة ومحبة مع زوجها الثاني. وبذلك يكون ردّ الفعل القديم قد أُستنفد بنوع ما من خلال الموضوع الأول.

ومهما يكن من أمر فإن تابو البكارة لم يختفِ تمام الاختفاء من حياتنا المتحضرة. فالروح الشعبية تعرفه، وقد يلجأ الشعراء أحياناً إلى استخدامه. يرينا

٢٥ ـ نسبة إلى الإحاثة: أي علم أشكال الحياة المتحجرة في ما قبل التاريخ. «م».



أنزنغروبر ANZENGRUBER[٢٦] في ملهاة له كيف يستنكف فلاح شاب ساذج عن الزواج من المرأة التي كان مفترضاً أن تصير زوجة له لأنها «عاهرة ستكلِّف أول من يأتيها حياته». ولهذا السبب يقبل بأن تتزوج من غيره، ولن يمتلكها من ثم قبل أن تترمل وتضمحل قدرتها على الأذى. وعنوان المسرحية: **سم العذراء** يذكرنا بأن الحواة يتركون الثعابين السامة تعضّ أول الأمر في منديل كيما يتسنى لهم بعد ذلك مداورتها باليد بلا خطر[٢٧].

وأروع وصف في شكل تمثيلي معروف لتابو البكارة نلقاه في شخصية يهوديت في مأساة هيبل[٢٨]: **يهوديت وأليفانا**. فيهوديت امرأة صبية كانت بكارتها يحميها تابو. وقد أصيب زوجها الأول ليلة العرس بشلل نتيجة لقلق غامض ولم يجرؤ منذئذ على مقاربتها. تقول: «إن جمالي هو جمال ست الحسن[٢٩]. فمن ينعم به يحلّ به الهذيان أو الموت». وإذ كان القائد الآشوري

٢٦ ـ لودفيغ أنزنغروبر: كاتب نمساوي من أشهر مسرحيي عصره (١٨٣٩ ـ ١٨٨٩). أراد نفسه مصلحاً اجتماعياً، وكان ذا منزع ليبرالي ومناوئ لرجال الدين. من أشهر مسرحياته: **راعي الكنيسة، ابنة المرابي، الوصية الرابعة، الفولاذ والحجر، سمّ العذراء**. وله أيضاً روايات. «م».

٢٧ ـ على الرغم من الاختلاف، في الموقف، فإن ثمة قصة قصيرة رائعة لشنتزلر A.SCHINTZLER[*] بعنوان **مصير البارون لايزندورغ** تستأهل أن نستشهد بها هنا. فعاشق الممثلة الصبية الخبيرة بفنون الحب أعاد إليها بنوع ما بكارتها بعدما وقع ضحية لحادث، فاستنزل لعنة الموت على كل من يقربها من بعده. وقد امتنعت المرأة الصبية لفترة من الزمن عن كل علاقة جنسية. ولكنها لما وقعت في غرام أحد المغنين صممت، كيما تتخلص من المأزق، على أن تمنح البارون ليلة طالما صبا إليها منذ سنوات وسنوات بلا نجاح. ولكن على نفسه سقطت اللعنة: فما كاد يعلم بسبب فوزه بسعادته غير المؤمَّلة حتى قضى ضحية نوبة قلبية.

(*) آرثر شنتزلر: طبيب وكاتب نمساوي (١٨٦٢ ـ ١٩٣١). أيقظت كثرة المترددين على عيادته من الممثلين والمغنين كطبيب مختصّ بأمراض الحنجرة ميوله الجمالية، فهجر الطب إلى الأدب. عالج بجرأة الموضوعات الجنسية حتى اتهم بالإباحية. وكان عالمه المحبَّب ككاتب هو عالم الحلم. ولهذا قال عنه فرويد: «أعتقد أني تحاشيت اللقاء به خوفاً من أن ألتقي فيه قريني». من مؤلفاته: **عودة كازانوفا، الغريبة، القصة المحلوم بها**. «م».

٢٨ ـ فريدريش هيبل: مؤلف مسرحي ألماني (١٨١٣ ـ ١٨٦٣). مؤلف ثلاثية **النيبلونجن** والمسرحية الرومانسية **يهوديت وأليفانا** التي استوحى موضوعها من قصة البطلة التوراتية التي أنقذت مدينتها بإغوائها أليفانا، قائد جيوش نبوخذ نصر، وقطعت رأسه في أثناء نومه. «م».

٢٩ـ ست الحسن: نبات سامّ معمّر من فصيلة الباذنجانيات. «م».



يحاصر مدينتها، تفتقت في ذهنها فكرة إغوائه والقضاء عليه بجمالها، متدبرة بذلك دافعاً وطنياً تخفي به دافعاً جنسياً. وبعد أن افترعها ذلك الرجل القوي، المشهور ببأسه وغلظته، استمدت من السخط الذي دبّ في نفسها القوة الكافية لتقطع رأسه، وصارت من ثم محررة شعبها. ونحن نعلم جيد العلم أن قطع الرأس هو البديل الرمزي عن الخصاء؛ وعليه، إن يهوديت هي المرأة التي تخصي الرجل الذي افترعها، مثلما شاء ذلك أيضاً حلم العروس الصبية الذي تكلمت عنه للتو. وإنما عن قصد خلع هيبل طابعاً جنسياً على القصة الوطنية المقتبسة من منحولات العهد القديم، إذ إن يهوديت التوراتية تستطيع أن تفخر بأنها ما تلوثت، وليس في النص التوراتي أصلاً أية إشارة إلى ليلة عرسها المشؤومة. وأرجح الظن أن الشاعر، بما أوتيه من حساسية مرهفة، أرهص بالدافع السحيق القدم الذي يكمن وراء القصة المغرضة، فما فعل سوى أن أعاد إلى الموضوع مضمونه الأولي.

لقد أوضح إ. سادجر SADGER في تحليل ممتاز كيف أن هيبل كان مشروطاً في اختياره لموضوعه بعقدته الوالدية، وكيف كان ينحاز دواماً إلى جانب المرأة ويقف موقف المناصر من جميع الخلجات والحفزات الدفينة التي تعتمل في نفسها[٣٠]. وقد نوّه أيضاً بالدوافع التي احتجّ بها المؤلف ليدخل على موضوعه ما أدخله عليه من تحويرات، ووصفها بحقٍّ بأنها خادعة، وقال إنه ليس لها من غرض غير أن تبرِّر خارجياً وأن تموِّه جوهرياً ما كان عند الشاعر نفسه لاشعورياً. ولن أتطرق هنا إلى التفسير الذي أعطاه سادجر للسبب الذي أوجب على يهوديت التي ترمَّلت طبقاً للرواية التوراتية أن تصير عذراء أرمل. وهو يشير إلى أن من أغراض الاستيهامات الطفلية أن تنكر وجود العلاقات الجنسية بين الوالدين وأن تجعل من الأم عذراء لم يمسسها بشر. لكنني سأضيف ما يلي: ما إن ردّ الشاعر إلى بطلته بكارتها حتى توقَّفت مخيِّلته المتعاطفة مطوّلاً عند رد الفعل العدائي الذي استثاره فضّ البكارة.

بوسعنا إذاً أن نختم فنقول: إن الافتراع ليست نتيجته الحضارية الوحيدة شدّ وثاق المرأة بصورة دائمة إلى الرجل؛ بل هو يطلق أيضاً استجابة عدائية ضاربة في

٣٠ ـ **من الباتوغرافيا إلى السيكوغرافيا**، مجلة **إيماغو**، السنة ١، ١٩١٢.



القِدم ضد الرجل، استجابة قد تتلبس أشكالاً باتولوجية تفصح عن نفسها في كثرة من الأحيان بضروب من الكفوف في حياة الزوجين الحبِّية، وإليها نستطيع أن نعزو نجاح الزيجات الثانية في الغالب بالمقارنة مع الأولى. وإنما في تلك الاستجابة العدائية يجد تابو البكارة المثير للاستغراب والخوفُ الذي يحمل الزوج لدى البدائيين على تحاشي الافتراع ملءَ تبريرهما.

ومنذئذ يصبح من المثير للاهتمام بالنسبة إلينا، بوصفنا من المحللين النفسيين، أن نلتقي نساء تتجلى لديهن الاستجابتان المتعارضتان كلتاهما، أعني استجابة الخضوع والتبعية واستجابة العداء، وقد بقيتا مرتبطتين واحدتهما بالأخرى. فهناك نساء يظهرن خلافاً تاماً مع أزواجهن ولا يسعهن إلا أن يجاهدن بغير طائل للافتراق عنهم. وكلما نهدن إلى منح رجل آخر حبَّهن، تدخلت صورة الرجل الأول، الذي لم يعد مع ذلك محبوباً، ولجمتهن عن هذه المحاولة. وهكذا يفطن التحليل إلى أن هاتيك النسوة ما زلن قيد استجابة خضوع وتبعية لزوجهن الأول، ولكن ليس هذه المرة بدافع من المحبة. فهن لا يستطعن انعتاقاً منه لأنهن لم يروين ظمأهن إلى الثأر منه. وفي بعض الحالات اللافتة للنظر نشاهد أن حفزتهن إلى الانتقام لم يُقيَّض لها حتى أن تصير شعورية.



- ٩ -

التنظيم التناسلي الطفلي
(للإدراج في النظرية الجنسية)
(١٩٢٣)

إن صعوبة العمل في مجال البحث والاستقصاء في التحليل النفسي تتجلى تحديداً في أن المرء قد يمرّ، بالرغم من ملاحظة ممتدة على نحو متواصل على مدى عشرات السنوات، بسمات عامة ووقائع مميزة فلا يفطن لها إلى أن تفرض نفسها عليه في خاتمة المطاف فرضاً فلا يعود في مستطاعه تجاهلها. والغرض من الملاحظات التالية تدارك تقصير من هذا القبيل في مضمار التطور الجنسي الطفلي.

إن من قرأ كتابي **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** (١٩٠٥) يعلم حقَّ العلم أنني لم أعمد قط إلى إعادة النظر فيه، بل حافظت على ترتيبه الأول وأخذت بعين الاعتبار ما حققته معرفتنا من تقدم، فأقحمت عليه فقرات وعدّلت في نصه. ومن المحتمل في عمل كهذا ألا يقبل كل من القديم والجديد في كثرة من الأحيان بالانصهار بملء الطواعية في وحدة براء من التناقضات. وبالفعل، كان التركيز في أول الأمر على الفارق الرئيسي في **الحياة الجنسية** بين الأطفال والراشدين؛ أما لاحقاً فقد تبوأت مكانة الصدارة **التنظيمات القبتناسلية** لليبيدو والواقعة المدهشة التالية التي تترتب عليها عواقب جسيمة: **المسار الثنائي الطور** للتطور الجنسي. وفي خاتمة المطاف، إن **الاستقصاء الجنسي الطفلي** هو ما استأثر باهتمامنا، وابتداء منه أمكن لنا أن نتبيَّن **كم يقترب مآل الجنسية الطفلية** (في حوالي السنة الخامسة) من الشكل المكتمل للجنسية لدى الراشد. وعند هذه النقطة كنت وقفت في آخر طبعات النظرية الجنسية (١٩٢٢).



في الصفحة ٦٣ من هذه الطبعة[١] كنت أشرت إلى أنه «غالباً» بل دائماً ما يقع منذ عهد الطفولة اختيار للموضوع (اختيار كنا حددناه بأنه من مميزات البلوغ)، بحيث تتجه جميع الميول الجنسية نحو شخص واحد وتنشد عنده إشباعها. على هذا النحو يتحقق في سنوات الطفولة شكل للجنسية هو أقرب الأشكال إلى الصورة النهائية للحياة الجنسية. أما الفارق بين هذه التنظيمات وبين الحالة النهائية فينحصر بأن تجمُّع الدوافع الغريزية الجزئية وخضوعها الكامل لزعامة المنطقة التناسلية لا يتحققان أبداً لدى الطفل، أو لا يتحققان إلا على نحو ناقص غاية النقص. والطور الأخير من التطور الجنسي هو وحده الذي سيوطد هذه الزعامة في خدمة التناسل.

إنني لن أرضى اليوم عن رأي كهذا يقول إن زعامة الأعضاء التناسلية لا تتحقق إلا على نحو ناقص للغاية في الطفولة الأولى. فحياة الطفل الجنسية تضاهي إلى حدّ أبعد من ذلك بكثير حياة الراشد الجنسية، وهذا ليس فقط فيما يتصل بحدوث اختيار موضوعاني. وحتى إذا لم يتمّ التوصل إلى تركيب حقيقي للدوافع الغريزية الجزئية تحت زعامة الأعضاء التناسلية في أوج تطور الجنسية الطفلية، فإن الاهتمام بالأعضاء التناسلية والنشاط الجنسي يكتسبان مع ذلك أهمية غالبة لا تكاد تقلّ عن تلك التي يتلبسانها في سنّ النضوج. والطابع الرئيسي لهذا «**التنظيم التناسلي الطفلي**» هو في الوقت نفسه ما يميّزه عن التنظيم التناسلي النهائي عند الراشد. وهو يتمثل في أن **عضواً تناسلياً واحداً**، هو عضو الذكورة، يضطلع بالنسبة إلى الجنسين كليهما بدور. وعلى هذا، لا وجود لزعامة تناسلية، وإنما هناك فقط زعامة للقضيب PHALLUS.

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نصف هذه الوضعية إلا لدى الطفل الذكر؛ فالمعرفة بالسيرورات المناظرة لدى البنت الصغيرة ليست بالمتاحة لنا. إن الصبي الصغير يفطن بكل تأكيد إلى الفارق بين الرجال والنساء، ولكنه لا تتاح له في بادئ الأمر الفرصة ليربط بين هذا الفارق وبين اختلاف في أعضائهم التناسلية. فطبيعي بالنسبة إليه أن يفترض لدى جميع الكائنات الحية الأخرى،

١ ـ الصفحة ٨٥ من الطبعة التي بين يدي القارئ. «م».



أبشرية كانت أم حيوانية، وجود عضو تناسلي مشابه لذاك الذي يملكه هو نفسه. بل إننا نعلم أنه يبحث في الأشياء الجامدة أيضاً عن شيء يضاهي عضوه[2]. فهذا الجزء من الجسم الذي تسهل إثارته ويتغيّر حجمه، والذي هو ثرّ للغاية بالأحاسيس، يشغل إلى أقصى درجة اهتمام الطفل ويعيِّن باستمرار مهام جديدة للدافع الغريزي إلى التقصي والتنقيب عنده. وقد يرغب في أن يراه لدى أشخاص آخرين أيضاً كيما يقارن بينه وبين عضوه الخاص به، ثم إنه يتصرف كما لو أن لديه فكرة مبهمة عن واقع أن هذا العضو قابل ومفروض فيه أن يكون أكبر. والقوة الدافعة التي سيُبِين عنها هذا الجزء من الجسم في زمن لاحق، عند البلوغ، تتجلى منذ ذاك العهد بصورة رئيسية على أنها حاجة ملحة إلى التقصي والتنقيب، على أنها حب استطلاع جنسي. وإن العديد من أفعال الاستعراء والعدوان التي يقترفها الطفل، والتي لو ارتكبها في سن أكبر لاعتبرت بلا تردد مظهراً من مظاهر الشبق والفسق، لا تعدو أن تكون عند إخضاعها للتحليل تجارب في خدمة الاستطلاع الجنسي.

في أثناء هذه التقصيات يتوصل الطفل إلى الاكتشاف التالي، وهو أن القضيب ليس ملكاً مشتركاً بين جميع الكائنات المشابهة له. والفرصة إلى هذا الاكتشاف تتاح له متى ما وقع نظره عرضاً على الأعضاء التناسلية لشقيقة صغيرة أو لرفيقة له في اللعب؛ وحتى قبل هذا الاكتشاف، فإن فطنة الأذكياء من صغار الصبيان إلى ما يحدث في أثناء تبول البنات ـ فهم يلحظون وضعية مغايرة ويسمعون صوتاً مختلفاً ـ تولِّد لديهم شبهة بوجود شيء مختلف؛ وعندئذ يحاولون أن يكرروا ملاحظاتهم في شروط قمينة بأن تأتيهم بتوضيح. ومعروف لدينا ردّ فعلهم على الانطباعات الأولى الناشئة عن معاينتهم فقدان القضيب. فهم ينكرون هذا النقص ويتهيأ لهم أنهم يرون بالرغم من كل شيء عضواً؛ أي أنهم يسدلون ستاراً يحجب التناقض بين المشاهدة العيانية والحكم المسبق،

---

٢ ـ إنه لمن اللافت للانتباه على كل حال أن نلاحظ مدى قلة ما يلقاه من اهتمام لدى الطفل الجزءُ الآخر من العضو التناسلي المذكر، أي الخصيتان ومحتواهما. وبحسب ما نستدل من التحاليل فإنه ليس في مقدور الطفل أن يحدس بأن شيئاً آخر غير القضيب يؤلف أيضاً جزءاً من العضو التناسلي.



بافتراضهم أن ذلك العضو لا يزال صغيراً وأنه سيكبر عما قريب، وينتهون على مهل إلى الاستنتاج التالي ذي الأهمية الوجدانية الكبرى: لقد كان موجوداً على كل حال من قبل، ثم جرى بعد ذلك استئصاله. أي أن فقدان القضيب يُفهم على أنه نتيجة خصاء، ومن ثم يجد الطفل نفسه في وضع يتعيَّن عليه معه أن يواجه مشكلة الخصاء من خلال علاقتها بشخصه بالذات. والتطورات اللاحقة معروفة إلى حدّ يغني عن ضرورة التذكير بها هنا. والأطروحة الوحيدة التي سنتقدم بها هي أنه **من المتعذر تقدير أهمية دلالة عقدة الخصاء تقديراً صحيحاً ما لم يؤخذ في الحسبان ظهورها في طور زعامة القضيب** PHALLUS[٣].

ونحن نعرف أيضاً ما يترتب على هذا الاقتناع النهائي بانعدام وجود القضيب لدى المرأة من انتقاص لقدر المرأة، ومن اشمئزاز من المرأة، ومن نزوع إلى الجنسية المثلية. وقد أرجع فيرنزي مؤخراً، وبحق، الرمز الميتولوجي للقبح المقزز، رأس ميدوزا[٤]، إلى الانطباع المتخلف عن العضو التناسلي المؤنث المجرَّد من القضيب[٥]. على أنه ليس لنا أن نتصور أن لدى الطفل استعداداً للتعميم السريع للملاحظة التي أبانت له أن بعض أفراد الجنس المؤنث لا يملكون قضيباً؛ فحسبه رادعاً له عن ذلك الفرضُ الذي يصوِّر له أن غياب القضيب هو نتيجة الخصاء كعقاب. وبدلاً من أن يعمد الطفل إلى التعميم، يرسخ في اعتقاده أن بعض الأفراد الأزرياء من الجنس المؤنث هم وحدهم الذي دفعوا غرامة العضو التناسلي، وهم في أرجح الظن أشخاص قارفوا الذنب مثله بما يجيش في نفوسهم من رغبات آثمة. أما المحترمات من النساء، من أمثال أمه، فيحتفظن لأجل طويل

---

٣ ـ لقد لوحظ بصواب أن الطفل يكوّن فكرة عن التأذي النرجسي من جراء الخسارة الجسمانية بدءاً من فقدان ثدي الأم بعد الرضاع، وبدءاً كذلك من الإخراج اليومي للبراز، بل بدءاً من الميلاد بنتيجة الانفصال عن جسم الأم. غير أنه لا يجوز لنا الكلام عن عقدة خصاء إلا بدءاً من اللحظة التي يرتبط فيها تصور الخسارة هذه بالعضو التناسلي المذكر.

٤ ـ ميدوزا: مسخ مؤنث ميتولوجي، كان رأسها مضفوراً بالثعابين، وقد اجتزه الملك برسيوس وقدَّمه للإلهة أثينا. «م».

٥ ـ في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة٩، ١٩٢٣، الدفتر ١. وبودِّي أن أضيف أن المقصود في الأسطورة هو العضو التناسلي للأم. وأثينا، التي تحمل رأس ميدوزا على درعها، هي بالتالي المرأة التي لا يمكن الاقتراب منها، المرأة التي يخنق مرآها كل تفكير بالتقرب الجنسي منها.



بالقضيب. وعلى هذا، فأن يكون الشخص امرأة لا يتطابق بعد في نظر الطفل مع واقع فقدان القضيب[٦]. وفي وقت لاحق، وحين يتصدى الطفل لمعضلتي أصل الأطفال وميلادهم، وحين يحدس بأن النساء هن وحدهن القادرات على الإنجاب، عندئذ فقط تتجرد الأم هي الأخرى من القضيب؛ وقد تشاد أحياناً نظريات بالغة التعقيد لتفسير مقايضة القضيب بطفل. وفي هذا كله يبدو العضو التناسلي المؤنث وكأنه بمنأى دائم عن القابلية للاكتشاف. وكما نعلم، إن الطفل يعيش في بطن (= معي) الأم ويتم إنجابه عن طريق فتحة المعي. ومع هاتين النظريتين الأخيرتين نكون قد تخطّينا زمنَ المرحلة الجنسية الطفلية.

وليس أمراً عديم الأهمية أن نتصور في أذهاننا التحولات التي تطرأ على القطبية الجنسية المألوفة لدينا في أثناء التطور الجنسي الطفلي. فالتضاد الأول يظهر مع الاختيار الموضوعاني الذي يفترض بالفعل ذاتاً وموضوعاً. ففي طور التنظيم القبتناسلي الشرجي/ السادي لا يكون ثمة وجود لمذكر ومؤنث، وإنما التعارض المهيمن هو التعارض بين **الإيجابي والسلبي**[٧]. وفي الطور التالي، طور التنظيم التناسلي الطفلي، يكون ثمة وجود **للمذكر**، ولكن بدون أن يكون ثمة وجود **للمؤنث**؛ فالمقابلة التي تقوم في هذا الطور هي التالية: **إما عضو تناسلي مذكر أو مخصي**. وإنما عندما يكتمل التطور في زمن البلوغ، تتطابق القطبية الجنسية مع المذكر والمؤنث. فالمذكر يجمع بين الذات والإيجابية وامتلاك القضيب، والمؤنث يديم الموضوع والسلبية. وعندئذ يتحلى المهبل بقيمته كمأوى للقضيب، وتؤول إليه وراثة بطن الأم.

٦ ـ لقد تبيَّن لي من تحليل امرأة صبية كانت بلا أب، ولكن كانت لها خالات كثيرات، أنها ظلت سادرة إلى طور متأخر من مرحلة الكمون في اعتقادها بوجود القضيب لدى أمها وبعض خالاتها. وكانت تعتبر خالة لها بلهاء بحكم المخصية، وهذا هو بالضبط الشعور الذي كان يساورها إزاء نفسها.

٧ ـ انظر **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، الطبعة الخامسة، المؤلفات الكاملة، م٥، ص٦٢.



ـ ١٠ ـ

أفول عقدة أوديب
(١٩٢٤)

تكشف عقدة أوديب أكثر فأكثر عن أهميتها كظاهرة مركزية للمرحلة الجنسية في الطفولة الأولى. ولا تلبث بعد ذلك أن تأفل، فترزح تحت نير الكبت كما نقول ويعقبها طور الكمون. ولكننا لا ندري بعد بوضوح ما السبب في زوالها؛ وتفيدنا التحاليل فيما يبدو بأن زوالها يأتي نتيجة للمعاناة من خيبات مؤلمة. فالبنت الصغيرة التي تريد أن ترى إلى نفسها على أنها تلك التي يحبّها أبوها أكثر من سواها تخضع لا محالة ذات يوم أو آخر لعقاب قاسٍ من قبل هذا الأب، فإذا بها تصبح وكأنها طريدة الفردوس. والصبي الذي يعتبر أمه ملكاً له يتحقق بالتجربة من أنها تشيح عنه بحبِّها وعنايتها لتقفهما على قادم جديد. ويعمّق التفكير من أهمية هذه التأثيرات إذ يشدّد على أن تجارب مؤلمة كهذه، معاكسة لمضمون العقدة، إنما هي أمر محتوم. وحتى عندما لا تطرأ خبرات كتلك التي أشرنا إليها كأمثلة، فإن غياب الإشباع المأمول والإحباط المتواصل لرغبات الطفل يقودان العاشق الصغير لا محالة إلى الإقلاع عن نوازعه المقطوع منها الرجاء. وعلى هذا، يجوز القول بأن عقدة أوديب تأفل من جراء فشلها أو من جراء استحالتها الداخلية.

وقد يجوز لنا أيضاً أن نفترض أن عقدة أوديب محتَّم عليها السقوط لأن أوان زوالها قد آن مثلما تسقط الأسنان اللبنية متى ما نبتت الأسنان النهائية. وحتى إذا كانت الغالبية الكبرى من بني البشر تعيش عقدة أوديب فردياً، فإن هذه العقدة تبقى على كل حال ظاهرة متعيِّنة بالوراثة، قائمة على أساسها، ولا مناص لها من التلاشي وفقاً للبرنامج متى ما بدأت مرحلة النمو المسبق التعيين التي لا بدّ أن



تعقبها. وسيان في مثل هذه الحال إن حدث ذلك في هذه المناسبة أو تلك؛ بل سيان أيضاً إن تعذر اكتشاف المناسبة التي حدث فيها.

وليس لنا أن نماري في أن هذين التصورين لهما كليهما مبرراتهما. بل إنهما يتوافقان واحدهما مع الآخر؛ فثمة إمكان للتصور المتصل بنشوء الفرد ONTOGENETIQUE ليحتلّ مكانه إلى جانب التصور المتصل بنشوء النوع PHYLOGENETIQUE وذي الآفاق الأوسع مدى. فالفرد برمته مقيَّض له، منذ ولادته، أن يموت، وربما كانت جبلَّته العضوية تنطوي من الأساس على مؤشّر إلى ما سيموت به. على أنه يبقى من المفيد أن نتتبع الكيفية التي يجري بها تنفيذ هذا البرنامج الفطري، والطريقة التي تستفيد بها ضربات القدر العارضة من الاستعداد الجِبِلّي.

لقد أتيح لنا مؤخراً أن نكتسب المزيد من المقدرة على إدراك واقع أن النمو الجنسي للطفل يتقدم وصولاً إلى مرحلة ينتقل فيها الدور القيادي إلى العضو التناسلي. غير أن هذا العضو التناسلي هو فقط العضو المذكر، وبمزيد من الدقة القضيب، بينما يبقى العضو المؤنث بمنأى عن أن يُكتشف بعد. هذه المرحلة القضيبية، التي هي في الوقت نفسه مرحلة عقدة أوديب، لا تواصل تطورها وصولاً إلى التنظيم التناسلي النهائي، بل يطويها زمن الكمون وينوب منابها. بيد أن زوالها يتمّ بطريقة نمطية وبالاستناد إلى أحداث وخبرات تتكرر بانتظام.

حين يحوِّل الطفل (الذكر) اهتمامه إلى عضوه التناسلي، فإنه يشي باهتمامه هذا بمداعبته عضوه بسخاء، ثم لا يلبث أن يتحقق بالتجربة من أن الكبار لا يوافقونه على سلوكه هذا. وسرعان ما يرتسم في الأفق تهديد متفاوت في وضوحه وفجاجته: فهذا الجزء من جسمه الذي يعلِّق عليه أعظم الأهمية سيُسلب منه. ويصدر هذا التهديد بالخصاء في أكثر الأحيان عن النساء؛ إذ يغلب أن يسعين إلى تعزيز سلطانهن بالتهديد بالاستعانة بالأب أو بالطبيب الذي سيتولى، كما يجزمن، تنفيذ العقوبة. وفي عدد معين من الحالات تلِّطف النساء أنفسهن رمزياً من حدّة التهديد، بإعلانهن أن المقصود ليس بتر العضو التناسلي، الذي هو في واقع الأمر سالب، وإنما بتر اليد التي تقارف الذنب إيجابياً. وكثيراً



ما يتعرض الصبي الصغير للتهديد بالخصاء لا لأنه يلاعب قضيبه بيده، وإنما لأنه يبلّل في كل ليلة فراشه ولأن أهله يعجزون عن حمله على أن «يَنْظُف». ويتصرف الأشخاص الذين يتعهدونه بالعناية كما لو أن سلس البول الليلي هذا هو عاقبة لإفراطه في مداعبة قضيبه ودليل عليه، وهم بوجه الاحتمال محقّون في ذلك. ومهما يكن من أمر، فإن دوام عادة تبليل الطفل فراشه حقيق بأن يُربط باحتلام الراشد كتعبير عن التهيُّج التناسلي عينه الذي كان حدا بالطفل عهدئذ إلى الاستمناء.

وما نؤكده على هذا الأساس هو أن التنظيم التناسلي القضيبي عند الطفل ينحلّ ويتلاشى على إثر ذلك التهديد بالخصاء. على أنه لا يضمحلّ للحال، وبدون أن يقترن ذلك التهديد بمضاعفات أخرى. فالطفل لا يصدِّق التهديد في بادئ الأمر ولا ينصاع له على الإطلاق. وقد أضفى التحليل النفسي قيمة جديدة على نوعين من الخبرات لا بدّ أن يمر بهما كل طفل ومن شأنهما أن يهيّئاه لخسارة أجزاء مثمَّنة عالي التثمين من جسمه: أعني بهما سحب ثدي الأم بصورة مؤقتة في البدء ثم ذات يوم بصورة نهائية، والانفصال المطلوب يومياً لمحتوى المعي. لكن لا شيء يبيح لنا الجزم بأن هاتين الخبرتين يسري مفعولهما بالتواقت مع التهديد بالخصاء. فالطفل لا يبدأ يحسب حساباً لاحتمال الخصاء إلا بعد أن يمرّ بخبرة جديدة، ولكنه يبقى هذه المرة أيضاً متردداً، على مضض من أمره، جاهداً إلى التخفيف من أهمية مشاهدته الخاصة.

إن المشاهدة التي تنتهي إلى تحطيم حاجز عدم التصديق لدى الطفل هي مشاهدة العضو التناسلي المؤنث. إذ يأتي يوم يقع فيه نظر الطفل، المعتزّ بامتلاكه قضيباً، على المنطقة التناسلية لبنت صغيرة، فيجد نفسه مكرهاً بالتالي على الاقتناع بفقدان القضيب لدى كائن مشابه له إلى أقصى حدود الشبه. ومن ثم يغدو فقدان عضوه هو نفسه أمراً يمكن تصوره هو الآخر، وبذلك يكون التهديد بالخصاء قد آتى مفعوله آجلاً.

لا يجوز أن يصل بنا ضيق الأفق إلى الحدّ الذي يصل إليه لدى الأشخاص الذين يتوعدون الطفل ـ وقد أوكل إليهم أمر العناية به ـ بالخصاء، كما لا يجوز



أن يغيب عنا أن حياة الطفل الجنسية في تلك السن لا يستغرقها على الإطلاق الاستمناء. فبوسعنا أن نقيم البرهان على أن قوام هذه الحياة الجنسية هو الموقف الأوديبي حيال الوالدين، وأن الاستمناء ما هو إلا تفريغ تناسلي للتهيُّج الجنسي المتصل بهذه العقدة وأنه يدين لهذه العلاقة بالأهمية التي سيتلبسها في الأطوار اللاحقة من العمر. إن عقدة أوديب تتيح للطفل إمكانيتين للإشباع، واحدة إيجابية والأخرى سلبية. فبوسعه، وفق النمط المذكّر، أن يضع نفسه موضع الأب وأن يتطلّع إلى أن يعاشر على منواله الأم، وفي هذه الحال يصير يستشعر الأب وكأنه عقبة؛ أو قد يتطلع إلى أن يحلّ محلّ الأم وأن يستأثر بحبّ الأب، وفي هذه الحال تغدو الأم فائضة عن الحاجة. أما ما كنه المعاشرة الحبِّية التي تحمل بين طياتها الإشباع، فإن الطفل لا يستطيع أن يكوِّن لنفسه عنها إلا تصورات شديدة الإبهام؛ على أن الشيء الأكيد هو أن القضيب يلعب دوراً على نحو ما تنمّ عنه أحاسيسه المتصلة بهذا العضو. ولا تكون الفرصة قد سنحت بعد للطفل للشكّ في عدم وجود القضيب لدى المرأة. وقبول إمكانية الخصاء، قبول فكرة أن المرأة مخصية، يضع حداً عندئذ لإمكانيتي الإشباع في إطار عقدة أوديب. فالإمكانيتان كلتاهما تنطويان على خسران للقضيب: الأولى، أي المذكرة، كنتيجة للعقاب؛ والثانية، أي المؤنثة، كافتراض ومسلَّمة. وإن يكن الإشباع الحبِّي، على أرضية عقدة أوديب، يتكلف لا محالة كثمنٍ القضيبَ، فعندئذ ينشب بصورة محتَّمة أيضاً صراع بين الاهتمام النرجسي بذلك الجزء من الجسم وبين التوظيف الليبيدوي للمواضيع الوالدية. وفي هذا الصراع تكون الغلبة في العادة لأولى هاتين القوتين؛ فيشيح أنا الطفل من ثم عن عقدة أوديب.

لقد شرحت في نص آخر بالتفصيل[1] كيف يتمّ ذلك. فالتوظيفات الموضوعانية تهمل وتستبدل عن طريق التماهي. وسلطة الأب أو الأهل يستبطنها الأنا، فتؤلف فيه نواة الأنا الأعلى الذي يستعير من الأب الصرامة ويديم حظره للعلاقة المحرمية، ويؤمِّن على هذا النحو الأنا ضد خطر عودة التوظيف الموضوعاني الليبيدوي. أما النوازع الليبيدوية المتصلة بعقدة أوديب فتُجرَّد جزئياً

١ - يشير فرويد هنا إلى نصه **الأنا والهذا**. «م».



من صفتها الجنسية ويتمّ إسماؤها ـ وهذا ما يحدث بوجه الاحتمال لدى كل تحوُّل إلى تماهٍ ـ وتُكفّ جزئياً من حيث الهدف وتُبدَّل إلى حاثات حنوٍّ ومحبة. وهذه السيرورة بمجملها تنقِذ، من ناحية أولى، العضو التناسلي وتدفع عنه خطر خسرانه، ومن ناحية ثانية تشلّه وتعطِّل اشتغاله. ومع هذه السيرورة يبدأ زمن الكمون الذي يعطِّل النمو الجنسي للطفل.

لست أرى من داعٍ على الإطلاق لإنكار اسم «الكبت» على واقعة انصراف الأنا عن عقدة أوديب، على الرغم من أن كبوتات لاحقة تحدث في أغلب الأحيان بمساعدة من الأنا الأعلى الذي يكون لا يزال في تلك المرحلة قيد التكوين. غير أن السيرورة التي وصفناها هي أكثر من مجرد كبت، إذ هي تكافئ، إذا ما جرت الأشياء بصورة مثلى، تدميراً للعقدة وتصفية لها. وإننا لنميل إلى الافتراض بأننا نواجه هنا خطّ الحدود الفاصل، الذي لا يتمّ تخطيه أبداً بصورة تامة، بين السويّ والمَرَضي. فإن لم يتوصل الأنا فعلاً إلى ما هو أكثر بكثير من مجرد كبت للعقدة، فإن هذه الأخيرة تبقى مقيمة في هذه الحال بصفة لاشعورية في الهذا، وسوف يظهر في وقت لاحق مفعولها الإمراضي.

تتيح لنا الملاحظة التحليلية أن نعرف أو نحدس بارتباطات كهذه بين التنظيم القضيبي وعقدة أوديب والتهديد بالخصاء وتكوين الأنا الأعلى ومرحلة الكمون. وتبرر هذه الارتباطات الأطروحة التي مؤداها أن عقدة أوديب تضمحل من جراء التهديد بالخصاء. غير أن المشكلة لا تكون قد سُوِّيت بنتيجة ذلك؛ فثمة مجال بعد لتأمل نظري قد يقلب النتيجة المتحصلة أو يسلِّط عليها ضوءاً جديداً. لكن قبل أن نمضي في هذا الطريق يتعيَّن علينا أن نلتفت إلى مسألة كنا أثرناها في معرض مناقشاتنا السابقة ثم نحَّيناها جنباً. ذلك أن السيرورة التي وصفناها تتصل فقط، كما أكدنا ذلك بصريح العبارة، بالطفل الذكر. فكيف يتمّ نظير هذا التطور لدى البنت الصغيرة؟

هنا تغدو معطياتنا ـ على نحو لا سبيل إلى فهمه ـ أشدَّ إبهاماً وأكثر امتلاء بالثغرات بكثير. فالجنس المؤنث يعرف هو أيضاً عقدة أوديب، وأنا أعلى، وزمنَ كمونٍ. فهل بوسعنا أن نعزو إليه أيضاً تنظيماً قضيبياً وعقدة خصاء؟ إن الجواب



لهو بالإيجاب، ولكن من غير الممكن أن يكون الأمر هنا مماثلاً لما هو عند الصبي. والمطالبة النسوية بمساواة في الحقوق بين الجنسين لا يعتدّ بها في المجال الذي نحن بصدده هنا، إذ لا مناص من أن يتظاهر الفارق البيولوجي في فوارق النمو النفسي. ونعدِّل هنا قولة نابليون فنقول: التشريح هو القدر. فبظر البنت يسلك في بادئ الأمر مسلك القضيب تماماً، ولكن الطفلة إذ تقارن بينه وبين رفيق ذكَر لها في اللعب يتضح لها أنه «دون ما هو مطلوب» وتستشعر من جراء ذلك غبناً وسبباً للدونية. وتؤاسي نفسها لأجل آخر من الزمن بالتعلل بالأمل في الحصول في طور لاحق، حينما تكبر، على استطالة تضاهي في الكبر استطالة الصبي. وهنا تكمن نقطة تمفصل عقدة الذكورة لدى المرأة. فالطفلة لا تفطن إلى أن فقدانها الحالي للقضيب هو خاصية جنسية، بل تفسِّره بافتراضها أنه كان لها فيما مضى عضو كبير هو الآخر وأنها فقدته بالخصاء. ولا يبدو عليها أنها تسحب هذا الاستنتاج على إناث أُخَر، على نساء راشدات، بل تفترض بالأحرى أن لهؤلاء عضواً تناسلياً كاملاً كبيراً، بمعنى يتساوق تماماً مع المرحلة القضيبية، وبكلمة واحدة: عضواً مذكراً. وهذا ما يترتب عليه الفارق الأساسي التالي: إن البنت تقبل بالخصاء باعتباره واقعة تمَّت في الماضي، على حين أن ما يتسبب في خوف الصبي هو احتمال وقوعها مستقبلاً.

وباستبعاد حصَر الخصاء يتعطل أيضاً دافع قوي إلى بناء الأنا الأعلى وإلى تهديم التنظيم التناسلي الطفلي. فهذان التحولان يتبدَّيان لدى البنت، أكثر بكثير مما لدى الصبي، كنتيجة ناجحة للتربية وللترهيب الخارجي الذي يتهددها بألا تعود محبوبة. وعقدة أوديب لدى البنت أحادية المعنى أكثر بكثير من عقدة الحامل الصغير للقضيب. وبحسب خبرتي، إنها نادراً ما تتعدى الحلول محلّ الأم ووقوف موقف أنثوي من الأب. ولا تتحمل البنت فقدان القضيب بدون محاولة للتعويض. فهي تنزلق ـ كان ينبغي أن نقول: على طول معادلة رمزية ـ من القضيب إلى الطفل، وتبلغ عقدتها الأوديبية ذروتها في رغبتها ـ التي طالما احتبستها ـ في أن تتلقى من الأب طفلاً على سبيل الهدية، في أن تنجب له طفلاً. ويساورنا الانطباع بأن عقدة أوديب تُهجر عندئذ على مهل لأن هذه



الرغبة لا تتحقق أبداً. وتبقى الرغبتان المشرئبتان إلى امتلاك قضيب وامتلاك طفل موظفتين بقوة في اللاشعور وتساعدان على إعداد الكائن الأنثوي برسم دوره الجنسي المقبل. والمساهمة الضئيلة للمقوِّم السادي في الدافع الغريزي الجنسي - وهذا أمر نستطيع الربط بينه وبين الضمور القضيبي - تسهِّل تحوُّل الميول الجنسية المباشرة إلى ميول حنوّ ومحبة مكفوفة من حيث الهدف. ولكن يتعيَّن علينا بالإجمال أن نقرّ بأن فهمنا لسيرورات النمو لدى البنت لا يبعث على الرضى، وأنه كثير الفجوات والنقاط المعتمة.

إنني لا أشكّ في أن العلاقات الزمنية والسببية كما نصفها هنا بين عقدة أوديب والترهيب الجنسي (التهديد بالخصاء) وتكوين الأنا الأعلى ومجيء زمن الكمون هي من نوع نمطي؛ لكنني لا أريد أن أجزم بأن هذا النمط هو الوحيد الممكن. ذلك أن أي تغيرات في التسلسل الزمني في ترابط هذه السيرورات لا بدّ أن تترتب عليه نتائج مُهِمَّة للغاية بالنسبة إلى تطور الفرد.

ومنذ أن نشر أ. رانك دراسته المثيرة للاهتمام حول **رضة الميلاد**(٢)، صار لا يسعنا القبول بلا نقاش بالنتيجة التي انتهى إليها بحثنا المقتضب هذا، وهي أن عقدة أوديب عند الصبي تتلاشى من جراء خوف الخصاء. لكن يبدو لي أنه من السابق لأوانه الدخول الآن في هذا النقاش، وأنه ربما كان من غير المناسب الشروع هنا بنقد تصور رانك أو كيل الثناء له(٣).

---

٢ ـ الإحالة هنا إلى مبحث أوتو رانك: **رضّة الميلاد ودلالتها بالنسبة إلى التحليل النفسي** المنشور في المكتبة الدولية للتحليل النفسي، ١٩٢٤، المجلد ١٤. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣ ـ طبقاً لما يذكره إرنست جونز في كتابه: **حياة فرويد وأعماله**، كانت الصيغة الأولى للنص تشتمل على نقدة خفيفة هنا لنظرية رانك، ولكن فرويد ما عتم أن حذفها في الطبعات اللاحقة بناء على طلب من ساندور فيرنزي في أرجح الظن. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



- ١١ -

بعض النتائج النفسية للفارق بين الجنسين على المستوى التشريحي (١٩٢٥)

إن مباحثي ومباحث تلاميذي تنحو إلى التوكيد بصورة جازمة أكثر فأكثر على أن تحليل العصابيين لا بدّ أن ينفذ أيضاً إلى الحقبة الأولى من الطفولة، أي إلى عهد التفتُّح المبكِّر للحياة الجنسية. وإنما متى ما تقصَّينا التظاهرات الأولى للجبلَّة الغريزية الفطرية وآثار انطباعات الخبرات الحياتية الأبكر عهداً تأتَّى لنا أن نتعرَّف بدقَّةٍ القوى الغريزية للأعصبة اللاحقة ودرأنا عنا الأخطاء التي تسوقنا إلى الوقوع فيها التعديلاتُ الجديدة لمرحلة النضوج وتشكُّلاتها. ومدَّعانا هذا لا ينطوي على دلالة نظرية فحسب، بل على دلالة عملية أيضاً لأنه يميِّز جهودنا عن عمل أولئك الأطباء الذين لا يستخدمون إلا بمقدار معلوم الطرائق التحليلية بالنظر إلى أن توجُّههم الوحيد هو توجُّه علاجي. وإن تحليلاً كهذا للطفولة الأولى يستغرق أمداً طويلاً ويقتضي جهوداً شاقة، وما يستلزمه من الطبيب والمريض معاً ليس مما يتحقق على الدوام عملياً. ثم إنه يفضي إلى مناطق معتمة تعوزنا على الدوام لاجتيازها لافتاتٌ إرشادية. وإني لأعتقد اعتقاداً جازماً أنه بوسعنا أن نُطمْئِن المحللين النفسيين إلى أنهم لن يجدوا أنفسهم، خلال العقد القادم أيضاً، عرضة لخطر تحوُّل عملهم العلمي إلى عمل ميكانيكي، مما هو قمين بأن يفقده طابعه الممتع.

في الصفحات التالية سأقدِّم بياناً بواحدة من النتائج التي انتهى إليها البحث التحليلي، وهي نتيجة ستكون لها أهميتها القصوى إذا ما ثبت أنها قابلة لتطبيق



عام. فلماذا لم أؤخِّر نشرها إلى أن تمدَّني خبرات ثرّة بالبرهان عليها، هذا إن كان ثمة برهان؟ لأن شروط عملي طرأ عليها تبدُّل لا أستطيع المماراة في نتائجه. فقد مرّ حين من الزمن لم أكن فيه من أولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يحتفظوا في سرِّهم بما يفترضون أنه طرفة جديدة إلى أن تظفر بتوكيد أو تبرير. فقد احتجزت **تأويل الحلم** و **نبذة من تحليل حالة هستيريا** (حالة دورا)، إن لم يكن تسع سنوات بحسب وصفة هوراسيوس[1]، فعلى أي حال أربع سنوات أو خمس سنوات، قبل أن أسلمهما للناشر. ولكن الزمن كان يمتدّ أمامي آنئذ على مدى النظر ـ **أوقيانوس من الزمن** على حدّ تعبير شاعر ظريف[2] ـ وكانت المادة تتدفق عليَّ ثرّة إلى حدٍّ يشقّ عليّ معه أن أردّ عني إغراء التجارب العملية. وكنت أيضاً الباحث الوحيد في ميدان جديد. ولم يكن تحفظي ينطوي على أي خطر بالنسبة إليّ، كما لم يكن يلحق بالآخرين أي ضير.

أما اليوم فالأمر مختلف الاختلاف كله. فالزمن أمامي محدود؛ وما عدت أستنفده كله في العمل؛ وما عادت تسنح لي مثل تلك الفرص الواسعة للقيام بتجارب جديدة. وحينما يتراءى لي أني وقعت على شيء جديد، أجدني غير متيقِّن كما من قبل من أنه سيكون في وسعي أن أنتظر ثبوت صحَّته. ثم إن كل ما هو على السطح قد تمّ احتلابه، وما تبقّى لا بدّ من أن يُغترف من الأعماق أياً ما كان الثمن. وأخيراً، إنني ما عدت وحيداً مفرداً، فثمة فريق كثير التعداد من المعاونين المخلصين يقف على أهبة الاستعداد لاستثمار ما هو غير مكتمل ناجز، وما هو غير محقق ثابت، وبوسعي أن أتخلى لهم عن جانب من العمل الذي لم يكن أمامي مناص في الماضي من أن أتولاه كله بنفسي. وهكذا أشعر أنه من المباح لي أن أقدِّم هذه المرة بياناً بما يقتضي تمحيصاً عاجلاً قبل إثبات صحته أو الطعن فيها.

---

١ ـ كوانتوس هوراسيوس فلافيوس: شاعر لاتيني (٦٥ ـ ٨ ق.م). حبا الآداب الرومانية بنتاج متكامل قومي وديني معاً. ومن القواعد التي سنّها في مطوّلته **فن الشعر** وجوب تمثُّل الشاعر لقصيدته على مدى أعوام تسعة قبل أن يصدرها للناس. «م».

٢ ـ بالإنكليزية في النص OCEANS OF TIME. والإشارة هنا إلى قصيدة الشاعر الإنكليزي شيلّي(١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) المعنونة: **الزمن**. «م».



يوم درسنا التشكلات النفسية الأولى للحياة الجنسية لدى الطفل، كان الموضوع الذي اعتمدناه على الدوام هو الطفل من الجنس المذكر، أي الصبي الصغير. وكنا نعتقد أن الأمر لا بدّ أن يصدق على البنات الصغيرات، وإن بطريقة مختلفة إلى حدّ ما. ولم يكن في مستطاعنا آنئذ أن نتبيَّن بوضوح أين يتكشف هذا الفارق في مجرى النمو.

إن موقف عقدة أوديب هو أول محطة نتعرفها على وجه اليقين لدى الصبي. ومن السهل علينا أن نفهمها لأن الطفل يبقى متشبثاً بذلك الموضوع الذي سبق له أن وظَّف فيه في الطور السابق، حين كان رضيعاً وطفلاً صغيراً، ليبيدوه الذي لم يكن قد صار بعد تناسلياً. ثم إن وقوع الأب من نفسه موقع الغريم المزعج، الذي يطيب له لو أنه ينحِّيه ويودّ لو أنه ينوب منابه، واقعة تنبع بيسر وسهولة من ظروف عينية. وقد شرحت في غير هذا المكان[٣] أن الموقف الأوديبي للصبي الصغير ينتمي إلى المرحلة القضيبية ويضمحلّ بفعل الخوف من الخصاء، أي بفعل الاهتمام النرجسي بالعضو التناسلي. بيد أن فهم الموقف يغدو أشدَّ عسراً من جراء تعقيد معيَّن: وآية ذلك أن عقدة أوديب نفسها تكون لدى الصبي مزدوجة التوجُّه، إيجابياً وسلبياً، وهو ما يتناظر مع جِبِلَّته الجنسية الثنائية. فالصبي يرغب أيضاً في أن ينوب مناب الأم كموضوع حبِّي للأب، وهذا ما نحدِّده بأنه موقف أنثوي.

إن ما قبل تاريخ عقدة أوديب لدى الصبي لن يتضح لنا لردح طويل من الزمن، بعد، بجلاء كامل. فنحن نعلم أنه يتضمن تماهياً من طبيعة حبِّية مع الأب، تماهياً لا ينطوي بعد على معنى التنافس على الأم. ومن العناصر الأخرى في ما قبل التاريخ هذا النشاطُ الاستمنائي على مستوى الأعضاء التناسلية، وهو في رأيي نشاط لا ينعدم وجوده أبداً؛ ومن شأن القمع المتفاوت القوة لأونانية[٤] الطفولة الأولى هذه من قبل الأشخاص الذين يتولون العناية بالطفل أن يحرِّك

---

٣ ـ **أفول عقدة أوديب** (انظر البحث السابق). «م».

٤ ـ الأونانية أي الاستمناء: نسبة إلى أونان، وهو شخصية توراتية رفض أن تحبل امرأة أخيه منه فكان لا يأتيها في مهبلها. «م».



عقدة الخصاء. وإننا لنسلِّم بأن هذه الأونانية منوطة بعقدة أوديب ومعناها تفريغ التهيُّج الجنسي. فهل تقوم هذه العلاقة من البداية أم أن الاستمناء يظهر بالأحرى عفوياً كنشاط متموضع عضوياً ولا يرتبط إلا في وقت لاحق فحسب بعقدة أوديب؟ الحق أن المسألة تبقى معلقة، غير أن الاحتمال الأخير يبقى إلى حدّ بعيد هو الأرجح كفة. ومن الإشكالات الأخرى بعد دور سلس البول وزوال هذه العادة بفعل تدخل التربية. وإننا لنميل إلى الأخذ بالتركيب البسيط التالي: إن سلس البول المستديم هو نتيجة الأونانية، وقمعه يعني عند الطفل كفّاً للنشاط التناسلي، أي أنه عنده بمثابة تهديد بالخصاء. لكن ما من شيء يبيح لنا الجزم بأننا محقّون في ذلك. وأخيراً، يتيح لنا التحليل أن نتبيَّن على نحو مبهم أن واقعة مراقبة الجماع بين الوالدين، في الطفولة الصغرى، قد ينشأ عنها التهيُّج الجنسي الأول وقد تصبح، بفعل تأثيراتها الآجلة، نقطة انطلاق للتطور الجنسي بجملته. وترتبط الأونانية لاحقاً، مثلها مثل موقفي العقدة الأوديبية الاثنين، بذلك الانطباع الذي يقوم الطفل فيما بعد بتأويله. بيد أنه لا يسعنا الافتراض بأن مثل هذه المشاهدات للجماع هي خبرة مطَّردة، ومن ثم نصطدم هنا بمشكلة «الأخاييل الابتدائية». وهكذا ينطوي ما قبل تاريخ عقدة أوديب لدى الصبي على جوانب كثيرة غير مفسَّرة تنتظر من يدرسها ويبتّ في ما إذا كان من الواجب الافتراض بأن مسارها هو على الدوام متماثل أم في ما إذا كانت أطوار ابتدائية بالغة الاختلاف هي التي تفضي، عند نقطة التلاقي، إلى الموقف النهائي نفسه.

أما عقدة أوديب عند البنت الصغيرة فتنطوي على مشكلة إضافية أخرى بالقياس إلى عقدة الصبي. ففي البداية تكون الأم، للبنت كما للصبي، هي الموضوع الأول، وليس لنا أن نعجب إن وجدنا الصبي يحتفظ به برسم عقدته الأوديبية. لكن ما الذي يحمل البنت الصغيرة على العزوف عن الأم وعلى اتخاذ الأب موضوعاً لها؟ لقد تسنى لي، وأنا أدرس هذه المسألة، أن أتثبت من بعض الوقائع التي من شأنها، تحديداً، أن تلقي ضوءاً على ما قبل تاريخ العلاقة الأوديبية لدى البنت الصغيرة.

إن كل محلل يعرف أولئك النساء اللائي يتشبثن بقوة وعناد بالغين برابطتهن



بأبيهن، وبرغبتهن، التي هي ذروة هذه الرابطة، في إنجاب طفل من أبيهن. ولدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الافتراض بأن هذا التخييل الرغبي هو أيضاً القوة الحافزة لأونانيتهن الطفلية. ويراودنا بسهولة انطباع بأن ما نواجهه هنا هو واقع أولي في الحياة الجنسية، لا سبيل إلى المضيّ إلى أبعد من ذلك في تحليله. بيد أن التحليل الدقيق لهذه الحالات عينها يزيح النقاب عن شيء آخر؛ إذ يُظهِر أن عقدة اوديب لها هنا ما قبل تاريخ مديد، وأنها إلى حدٍّ ما تشكيل ثانوي.

وبحسب ملاحظة أبداها طبيب الأطفال لندنر LINDNER(٥)، فإن الطفل يكتشف في أثناء لذة المصّ (التمصص) المنطقة التناسلية التي هي مصدر اللذة: القضيب أو البظر(٦). وسأدع مفتوحة المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان الطفل يتخذ حقاً من هذا المصدر اللذّي المقتنى حديثاً بديلاً عن ثدي الأم الذي خسره مؤخراً، وهذا ما قد تنمّ عنه التخييلات اللاحقة (مصّ القضيب). وباختصار، إن المنطقة التناسلية يتمّ اكتشافها، بطريقة أو بأخرى وفي يوم أو في آخر، ولا يبدو أنه من المبرر أن نعزو إلى الأنشطة الأولى ذات الصلة بها مضموناً نفسياً. على أن الخطوة التالية في المرحلة القضيبية، التي على ذلك النحو يكون مبتدؤها، ليست ربط هذه الأونانية بالتوظيفات الموضوعانية لعقدة أوديب، وإنما هي اكتشاف تترتب عليه عواقب جسيمة بالنسبة إلى البنت الصغيرة التي تقوم به. فهي تلاحظ القضيب الكبير، البارز للنظر، لدى أخ لها أو رفيق في اللعب، وتتعرف فيه للحال نسخة متفوقة عن عضوها الصغير الخبيء، وتقع منذئذ ضحية الحسد القضيبي.

إن ثمة تعارضاً مثيراً للاهتمام بين سلوك كل من الجنسين: ففي حالة مماثلة، ومتى ما وقع نظر الصبي الصغير لأول مرة على المنطقة التناسلية للبنت الصغيرة، نراه يتصرف تصرف من لم يثبت عند رأي، وفي المقام الأول تصرُّف من لم يثر له اهتمام؛ فهو لا يرى شيئاً، أو إنه يخفف بالإنكار من وقع إدراكه البصري،

---

٥ ـ صمويل لندنر: طبيب أطفال مجري لا تتوفر عنه معلومات كثيرة. وقد استشهد فرويد في عدة مواضع من كتاباته بأطروحته عن لذة التمصص الجنسية لدى الأطفال. ولكن منتقدي فرويد أنكروا أن يكون لندنر قال بمثل هذه الفكرة الجنسية عند الأطفال واتهموا فرويد بتزوير رأيه. «م».

٦ ـ انظر **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** (انظر أعلاه ص٥٤ ـ ٥٥). «م».



ويفتِّش عن معلومات وذرائع تتيح له أن يوفِّق بينه وبين ما يتوقعه. وفي وقت لاحق فحسب، وحينما يقع تحت التأثير الآجل لتهديدٍ بالخصاء، تغدو تلك الملاحظة حافلة بالمعنى بالنسبة إليه: فإن استعادها في ذاكرته أو إن تجدَّد التهديد وقعَ فريسة عاصفة انفعالية عنيفة وطفق يؤمن بواقعية التهديد الأول الذي كان قد سخر منه إلى ذلك الحين. ومن هذا التلاقي تتولد استجابتان قابلتان لأن تتثبّتا ولأن تحدِّدا من ثم، إما على حدة، وإما بالمعية، وإما أيضاً بالترابط مع عوامل أخرى، سلوكه الدائم إزاء النساء: التقزز من هذه الكائنات الشائهة البتراء أو الازدراء المظفَّر حيالهن. بيد أن هذه التطورات هي بنت المستقبل، حتى وإن لم يكن مستقبلاً نائياً جداً.

وليس الأمر بالمثل بالنسبة إلى البنت الصغيرة. فهي تحكم وتبتّ دفعة واحدة. فقد رأت ذلك، وتعرف أنه ليس لها منه، وتريد أن يكون لها منه(٧).

هنا تحديداً تكمن نقطة تمفصل ما يسمى بعقدة الذكورة لدى المرأة، وهي عقدة من شأنها احتمالياً أن تنصب عقبات كأداء في طريق تطور البنت النظامي نحو الأنوثة إن لم تفلح في الظهور عليها بسرعة. فالأمل في أن تحصل ذات يوم، وبالرغم من كل شيء، على قضيب، وأن تغدو بالتالي عديلة الرجال، قد يبقى قائماً إلى زمن متأخر فوق الحدّ، ليتحول من ثمّ إلى دافع إلى أفعال غريبة كان سيعزّ بغير ذلك فهمها. أو فلنقل إن تلك العملية التي أحبِّذ أن أسمِّيَها إنكاراً تتدخل هنا؛ وهي لا تبدو نادرة ولا شديدة الخطورة على الحياة النفسية للطفلة، ولكنها قد تتمخض لدى الراشدات عن ذهان. فالبنت الصغيرة ترفض القبول بواقع خصائها، وتعاند في يقينها بأنها تمتلك قضيباً، وتجد نفسها مكرهة من ثم على أن تتصرف كما لو أنها رجل.

٧ ـ هي ذي مناسبة لمراجعة رأي كنت أفصحت عنه قبل سنوات. فقد ذهبت إلى أن الاهتمام الجنسي عند الأطفال لا يبتعثه، كما يبتعثه عند أولئك الذين يدنون من سن النضوج، الفارقُ بين الجنسين، وإنما توقظه بالأحرى مشكلة أصل الأطفال. والحال أن هذا قد لا يطابق واقع الحال بصفة مؤكدة بالنسبة إلى البنت الصغيرة على الأقل؛ أما عند الصبي فقد تجري الأمور في هذا المجرى، وأحياناً في مجرى آخر؛ أو إن مناسبات محكومة بالمصادفة في مجرى الحياة هي التي تبتّ في الأمر بالنسبة إلى الجنسين كليهما.



إن العواقب النفسية للحسد القضيبي، وذلك بقدر ما لا يتمخض عن ذلك التشكيل الارتجاعي الذي يعرف باسم عقدة الذكورة، عديدة وبعيدة المدى. إذ يستقرّ شعور بالدونية ـ كما الندبة ـ لدى المرأة التي تعترف بجرحها النرجسي. ومتى ما تغلَّبت على محاولتها الأولى التي فسَّرت بموجبها فقدان القضيب لديها على أنه عقاب شخصي، وفهمت على العكس عمومية هذه الخاصية الجنسية، تطفق تشارك الرجل ازدراءه لجنس يعاني من مثل هذا الاختزال الفادح في نقطة حساسة، وتلحّ في هذا الحكم، على أي حال، على تساويها مع الرجل(٨).

وحتى عندما يتخلى الحسد القضيبي عن موضوعه الحقيقي، فإنه لا ينتفي من الوجود، بل يستمر عبر السمة الطبعية: **الغيرة**، مقرونةً بانزياح طفيف. صحيح أن الغيرة ليست وقفاً على جنس بعينه وأنها ترتكز إلى أساس أوسع، لكني أعتقد أنها تلعب دوراً أكبر بكثير في حياة المرأة النفسية، لأنها تتلقى مدداً ضخماً من ذلك المنبع المتمثِّل بالحسد القضيبي المحوَّل عن مجراه. وقبل أن أعرف بعدُ هذا المصدر الاشتقاقي للغيرة، كنت افترضت للتخييل الأوناني الكثير التواتر لدى البنت الصغيرة، تخييل **الطفل الذي يُضرب**، طوراً أول تكون له الدلالة التالية، وهي أن طفلاً آخر، تغار منه البنت الصغيرة لأنه منافس لها وغريم، هو الذي ينبغي أن يُضرب(٩). ويبدو أن هذا التخييل هو رسابة من المرحلة القضيبية عند

٨ ـ كنت في أول نص نقدي لي، **مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي**، ١٩١٣، قد أوضحت أن تلك هي نواة الحقيقة في النظرية الآدلرية التي لا تتردد في تفسير الكون بأسره بدءاً من هذه النقطة اليتيمة (الدونية العضوية، الاحتجاج الذكوري، التنائي عن خط السلوك الأنثوي)، والتي تتباهى بأنها جرّدت الجنسية من أهميتها وأعلت بدلاً منها من شأن الطموح إلى القوة والسلطة! وعلى هذا الأساس، يكون العضو «الدوني» الوحيد الذي يستأهل بلا لبس تسمية كهذه هو البظر. ومن جهة أخرى يقال إن ثمة محللين نفسيين يدَّعون أنهم، بعد عشرات من السنين من الجهود، لم يقعوا على شيء يثبت لهم وجود عقدة خصاء. والحق أنه يتعيَّن علينا أن ننحني بإعجاب أمام عظمة هذه التجلية، وإن تكن لا تعدو أن تكون تجلية سلبية، تجلية في الإصرار على عدم الرؤية وعلى عدم المعرفة. والنتيجة التي تتمخض عنها النظريتان هي المقابلة الضدية الطريفة التالية: هنا لا أثر إطلاقاً لعقدة خصاء، وهناك لا شيء سوى عواقبها.

٩ ـ انظر: **طفل يُضرب**(*).

(*) هو مقال نشره فرويد عام ١٩١٩ مع عنوان فرعي: **مساهمة في معرفة الانحرافات الجنسية**. وانظر نصّ المقال في الكتاب التالي: **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي**. «م».



البنت الصغيرة. ثم إن ما استرعى انتباهي من تصلب شديد في تكرار الصيغة الرتيبة: طفل يُضرب، يفسح في المجال بعد أمام احتمال تأويل ذي طابع خاص. فالطفل الذي يُضرب ويُداعب معاً آنئذ قد لا يكون في واقع الحال سوى البظر نفسه، بحيث أن هذا التصريح يتضمن، في أعمق جوانبه، إقراراً بالاستمناء الذي يرتبط من بداية المرحلة القضيبية، وحتى زمن متأخر، بمضمون تلك الصيغة.

وثمة نتيجة ثالثة للحسد القضيبي تتجلى، فيما يبدو، في تراخي علاقة المحبة الحانية بالأم بصفتها موضوعاً. وهذا الترابط ليس مفهوماً لنا أوضح الفهم، ولكننا لا نجد بدأً من الاقتناع بأن الأم هي التي تُحمَّل على الدوام تقريباً في خاتمة المطاف تبعة فقدان القضيب، تلك الأم التي زجّت بطفلتها في خضمّ الحياة بعُدَّة غير كافية. والتسلسل التاريخي لهذه الحالة هو في الغالب كالتالي: بعد اكتشاف الأذى اللاحق بالأعضاء التناسلية بوقت قليل، تظهر الغيرة حيال طفل آخر يبدو أنه يحظى بقدر أكبر من الحبّ من جانب الأم، مما يقدِّم ذريعة لفكِّ الارتباط مع الأم. وإن يكن الطفل الأثير لدى الأم هو الذي يغدو الموضوع الأول لتخييل الضرب بالسوط ـ وهو التخييل الذي يفضي إلى الاستمناء ـ فإن هذه واقعة تتمشى على أكمل وجه مع ما تقدم.

إن للحسد القضيبي ـ أو لاكتشاف دونية البظر ـ مفعولاً مدهشاً آخر بعد، وهو بلا أدنى شك أهم المفاعيل إطلاقاً. فكثيراً ما تهيَّأ لي من قبل أن المرأة لا تطيق الاستمناء بوجه عام بقدر ما يطيقه الرجل، وأنها تنفر منه وتصدّ عنه ولا تجد في نفسها قِبلاً للجوء إليه، على حين أن الرجل يلجأ بلا تردد إلى هذه الوسيلة في ظل الظروف عينها. ومن المؤكد أننا لو شئنا أن ننزل هذه الدعوى منزلة القاعدة العامة، فلن تلبث التجربة أن تسوق لنا استثناءات لها لا يحصى لها عدّ. فاستجابات أفراد البشر من كلا الجنسين تتألف في آن معاً من سمات ذكرية وسمات إنثية. على أن الاستمناء فيما يبدو أشد نأياً عن طبيعة المرأة، وقد يمكننا، حلاً لهذه المشكلة، أن نعتبر الاستمناء البظري نشاطاً مذكراً، وأن نعدّ استبعاد الجنسية البظرية شرطاً لنموّ الأنوثة. وقد تبيَّن لي الآن من تحاليل المرحلة القضيبية الأكثر تبكيراً أنه يظهر لدى البنت، بعد زمن وجيز من ظهور علامات الحسد



القضيبي، ردٌّ فعلٍ شديد على الأونانية لا نملك أن نردّه إلى تأثير الأشخاص الموالجين بالتربية وحده. فجليٌّ للعيان أن هذه الحفزة هي مقدِّمة لاندفاعة الكبت التي ستنحّي جانباً، ساعة البلوغ، شطراً لا يستهان به من الجنسية المذكرة لتفسح في المجال أمام نمو الأنوثة. وقد يتفق ألا تبلغ هذه المعارضة الأولى للنشاط الإيروسي الذاتي هدفها. وهذا ما حدث في الحالات التي توليتها بالتحليل. فالصراع يستمرّ في هذه الحال، وتروح البنت الصغيرة تبذل قصاراها، في ذلك الحين كما من بعد، لتنعتق من هاجس الأونانية ذاك. وإن العديد من التظاهرات اللاحقة الأخرى في حياة المرأة الجنسية يبقى مستغلقاً على الفهم بالنسبة إلى من لم يتعرف قوة ذلك الدافع.

إنني لا أستطيع تفسير ثورة البنت الصغيرة هذه على الأونانية القضيبية إلا بالفرض التالي: وهو أن هذا النشاط المولِّد للذة يصير عندها موضعاً لاشمئزاز شديد تحت ضغط عامل موازٍ. وما علينا أن نوغل في البعد بحثاً عن هذا العامل؛ فهو لا يمكن أن يكون سوى ذلك الإذلال النرجسي المرتبط بالحسد القضيبي، سوى ذلك التحذير من أنه لا سبيل بالرغم من كل شيء إلى الدخول في تحدٍ بصدد هذه النقطة مع الصبي، وأنه من الأفضل بالتالي الامتناع عن التنافس وإياه. وعلى هذا النحو ينأى اكتشاف الفارق التشريحي بين الجنسين بالبنت الصغيرة عن الذكورة والأونانية المذكَّرة ويزجّ بها في دروب جديدة تتأدى إلى تفتُّح الأنوثة.

إلى الآن لم يرد ذكر لعقدة أوديب، وهي لا تكون لعبت بالأصل دوراً إلى هذا الحين. ومن الآن فصاعداً ينزلق ليبيدو البنت الصغيرة، على طول ما يمكن أن نسميه بالمعادلة الرمزية: القضيب = الطفل، نحو موقع جديد. فهي تتخلى عن الرغبة في القضيب لتستبدلها بالرغبة في طفل. **وبهذا القصد** تتخذ الأب موضوعَ حبٍّ لها. أما الأم فتغدو موضوع غيرتها؛ فالبنت الصغيرة في سبيلها إلى أن تصير امرأة. ولو أخذتُ بنتائج استبار تحليلي منفرد، لقلت إن هذا الموقف الجديد قد يتمخَّض عن أحاسيس بدنية ينبغي أن نرى فيها يقظة سابقة لأوانها للجهاز التناسلي المؤنث. وحينما تأفل فيما بعد شمس هذه الرابطة بالأب ويتعيَّن



التخلي عنها، فقد تخلي مكانها لتماهٍ مع الأب تعود البنت من خلاله إلى عقدة الذكورة التي لا يندر أن تتثبت عليها.

لقد أنجزت الآن قول جوهر ما كنت أريد قوله، وسأتوقف هنيهة لتملِّي النتيجة. لقد بدأنا بالتعرُّف إلى ما قبل تاريخ عقدة أوديب لدى البنت. وما يناظر ذلك لدى الصبي يكاد يكون إلى حدٍّ ما مجهولاً. وعقدة أوديب لدى البنت تشكيل ثانوي، تسبقها وتمهِّد لها آثار عقدة الخصاء. وفيما يتصل بالعلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء، ثمة تعارض رئيسي بين الجنسين. **فعلى حين تضمحل عقدة أوديب لدى الصبي تحت تأثير عقدة الخصاء[١٠]، تجعل عقدة الخصاء من عقدة أوديب ممكنة لدى البنت وتكون بمثابة مدخل إليها.** ويغدو هذا التناقض مفهوماً متى ما أخذنا في اعتبارنا أن عقدة الخصاء تفعل على الدوام فعلها في الاتجاه المتعيِّن بمضمونها: فهي تكفّ الذكورة وتحدّها وتشجّع الأنوثة. والفارق الذي يكمن في هذا الجانب من النمو الجنسي لكل من الرجل والمرأة هو نتيجة طبيعية لتمايز أعضائهما التناسلية وللموقف النفسي المرتبط بهذا التمايز؛ فهو الفارق بين خصاء ناجز وبين مجرد تهديد لفظي بالخصاء. وهكذا، إن النتيجة التي انتهينا إليها هي في الواقع من بديهيات الأمور، وكان يمكن لنا أن نتوقّعها.

بيد أن عقدة أوديب أمر بالغ الأهمية بحيث أن الكيفية التي يتمّ بها الدخول فيها والخروج منها لا يمكن إلا أن تترتب عليها نتائج وعواقب. فلدى الصبي - وهذا ما أوضحته في المقال الذي ذكرته لتوِّي والذي به يرتبط جوهر ملاحظاتي هذه ـ لا تُكبت العقدة فحسب، بل تتفجر وتتطاير شظاياها بملء معنى الكلمة تحت صدمة التهديد بالخصاء. ومن ثم، إن توظيفات الصبي الليبيدوية تُهجر، وتُجرَّد من طابعها الجنسي، ويتم إسماؤها جزئياً؛ كما أن مواضيعها تُستدمج في الأنا حيث تؤلف نواة الأنا الأعلى وتسبغ على هذا التشكيل الجديد خواص مميزة. وفي الحالات السوية، أو بالأحرى في الحالات المثالية، لا يتبقى عندئذ شيء من عقدة أوديب، ولا حتى في اللاشعور، ويصبح الأنا الأعلى هو وريث

١٠ ـ انظر: **أفول عقدة أوديب**.



العقدة. وما دام القضيب ـ على حدّ قول فيرنزي[11] ـ يدين بتوظيفه النرجسي المرتفع إلى حدّ خارق للمألوف لما له من دلالة عضوية بالنسبة إلى استمرار النوع البشري، فبوسعنا أن نعتبر المنعطف الانقلابي الذي يطرأ على عقدة أوديب (التحول عن المحارم وتوطد الضمير والأخلاق) بمثابة انتصار للنوع على الفرد. وهذه وجهة نظرة مثيرة للاهتمام، إن أخذنا في اعتبارنا أن العصاب يرتكز إلى تمرد الأنا على متطلبات الوظيفة الجنسية. غير أن التخلي عن وجهة نظر علم النفس الفردي لا يقود حالاً إلى توضيح هذا التشابك في العلاقات.

أما الدافع إلى انهدام عقدة أوديب لدى البنت فلا يقع في متناول إدراكنا. فالخصاء قد آتى مفعوله الذي تمثَّل في إرغام البنت على الدخول في وضعية العقدة الأوديبية. ولهذا تفلت هذه العقدة من المصير الذي ينتظرها لدى الصبي؛ فمن الممكن أنْ يتمّ التخلي عنها ببطء وأن تُصفَّى عن طريق الكبت، ومن الممكن أن ترجأ مفاعيلها إلى زمن متأخر جداً في الحياة النفسية السوية للمرأة. وقد نتردد في الجهر برأينا، ولكننا لا نملك أن ندفع عن أنفسنا فكرة أن ما هو سويّ أخلاقياً له عند المرأة مستوى آخر. فأناها الأعلى لن يكون أبداً متصلباً، لاشخصياً، مستقلاً عن أصوله العاطفية إلى الحدّ الذي نتطلبه من الرجل. وربما كان هذا الاختلاف في تكوين الأنا الأعلى، الذي أوضحنا لتونا مصدر اشتقاقه، علة كافية لتلك السمات الطبعية اتي أُنتقدت لدى المرأة وأُخذت عليها في كل آن وزمان: تدليلها على حسٍّ بالعدل أوهى مما هو عليه لدى الرجل، وعلى ميل أوهى أيضاً إلى الخضوع لضرورات الوجود الكبرى، وعلى استعداد أقوى بالمقابل للانسياق في قراراتها وراء عواطف الحب والكره لديها. ولن تجعلنا نشيح عن هذه الاستنتاجات حججُ أنصار المرأة الذين يريدون أن يفرضوا علينا مساواة تامة في الوضع وفي التقييم بين الجنسين. على أننا نسلِّم عن طواعية بأنَ معظم الرجال يبقون دون مستوى المثال المذكر، وبأن جميع أفراد النوع البشري يملكون، بحكم جِبِلِّتهم الجنسية الثنائية ووراثتهم المتصالبة، سمات ذكرية وسمات أنثية في آن

١١ ـ الإحالة هنا إلى كتاب ساندور فيرنزي: **محاولة في النظرية التناسلية، ١٩٢٤**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



معاً، بحيث أن مضمون الإنشاءات النظرية للذكورة الخالصة وللأنوثة الخالصة يبقى محفوفاً بالرِيَب.

إنني أميل إلى أن أعلِّق أهمية على العرض الذي قدّمته هنا عن النتائج النفسية للفارق التشريحي بين الجنسين، لكنني أعلم أن هذا التقييم لن يكون جديراً بالاعتبار ما لم يثبت أن الكشوف التي انتهيت إليها من خلال عدد ضئيل من الحالات هي ذات دلالة عامة ونمطية، وإلا فلن يبقى من كل ما تقدم سوى مساهمة في معرفة الطرق المتعددة لتطور الحياة الجنسية.

إن المباحث القيِّمة والأساسية لكل من أبراهام ABRAHAM[١٢] وهورني HORNEY[١٣] وهيلين دويتش DEUTSCH[١٤] حول عقدة الخصاء لدى المرأة[١٥] تنطوي على أشياء كثيرة قريبة للغاية مما تقدمت به. ولكن لا شيء فيها يتطابق مطلق التطابق معه، ومن ثم إن مقالي الذي أنشره هنا له هو الآخر ما يبرِّره.

١٢ ـ كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). من أبرز متابعي فرويد ومؤسس **الجمعية البرلينية للتحليل النفسي** (١٩١٠) ورئيس **الرابطة التحليلية النفسية الدولية** (١٩١٤ ـ ١٩١٨). أولى اهتماماً خاصاً للجنسية الطفلية بطوريها الشفوي والشرجي. جُمعت أعماله الكاملة تحت عنوانين: ١ ـ **الحلم والأسطورة**، ٢ ـ **دراسات سريرية**. «م».

١٣ ـ هورني: **حول تكوين عقدة الخصاء لدى المرأة**، المصدر نفسه، السنة ٩.

١٤، هيلين دويتش: **التحليل النفسي للوظائف الجنسية لدى المرأة**، في مجلة **مباحث جديدة في التحليل النفسي التطبيبي**، العدد ٥.

١٥ ـ أبراهام: **الأشكال التي تتجلى بها عقدة الخصاء لدى المرأة**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ٧.



ـ ١٢ ـ

التميمية
(١٩٢٧)

أتيحت لي الفرصة، في السنوات الأخيرة، لأدرس تحليلياً عدداً من الأشخاص كانت تهيمن على اختيارهم الموضوعاني تميمة FETICHE[١]. وليس لنا أن نتوقع أن هؤلاء الأشخاص طلبوا تحليلهم نفسياً بسبب التميمة؛ فصحيح أن هذه الأخيرة يقرّ أتباعها بأنها ضرب من الشذوذ، ولكن يندر أن يستشعروها كموضوع مؤلم؛ فغالبية أتباعها راضون بها مسرورون، بل يغبطون أنفسهم على التسهيلات التي ترفد بها حياتهم الحبِّية. ومن ثم كان من دارج العادة ألا يكون لاكتشافهم للتميمة سوى دور هامشي.

إن خصوصيات هذه الحالات ـ وهذا مفهوم ـ ليست مما يمكن أن يكون مباحاً نشرها. كذلك لا يسعني أن أوضح ما الظروف العارضة التي تأدت إلى اختيار التميمة. ولقد كانت ألفت الحالات للنظر حالة شاب جعل شرط التميمة وجود «لمعانٍ معيَّنٍ في الأنف». وكان التفسير المدهش لذاك أن مريضنا هذا قد أنشئ في دار حضانة إنكليزية، ثم قدم بعد ذلك إلى ألمانيا وقد نسي بصورة شبه تامة لغته الأم. وهذه التميمة التي كان أصلها يكمن في الطفولة الأولى ينبغي أن تُفهم بالإنكليزية لا بالألمانية؛ وبالفعل، كان «اللمعان في الأنف» في حقيقته «نظرة على الأنف»[٢]؛ وهكذا كان الأنف تلك التميمة التي يستطيع، متى شاء، أن

---

١ ـ التميمية: حرفياً الفيتيشية Fétichisme نسبة إلى الفيتيش Feitiço، وهو المصطلح الذي أطلقه البرتغاليون على موضوع العبادة لدى الأقوام الإفريقية. والفيتيش إما أن يكون شيئاً مادياً أو حيواناً، ويقابله الصنم في الديانات الوثنية. «م».

٢ ـ يقال للمعان بالألمانية GLANZ، والحال أن GLANCE تعني بالإنكليزية «نظرة». «م».



يخلع عليها ذلك اللمعان المشعّ الخاص الذي ما كان الآخرون يستطيعون تبيّنه.

لقد كانت المعلومات التي زوّدنا بها التحليل بصدد معنى التميمة ومرماها واحدة في الحالات كافة. وكان بالإمكان استخلاصها بمنتهى العفوية. وقد بدا لي أنها تفرض نفسها من تلقاء نفسها إلى حدٍّ بتٍّ معه أتوقع أن يكون لجميع حالات التميمية حلّ واحد عام. ولا ريب في أنني مخيِّب الآمال إذا ما قلت إن التميمة بديل للقضيب. وعليه أسرع فأضيف إنها ليست بديلاً لأي قضيب كان، وإنما لقضيب من نوع خاص تكون له دلالة كبرى في مقتبل الطفولة ثم لا يلبث أن يزول لاحقاً. أي أنه كان يفترض في هذا القضيب في الحالة السوية أن يُهجر، ولكن التميمة ما وجدت إلا لتكون له بمثابة ضمانة ضد الزوال. وبمزيد من الوضوح سأقول إن التميمة بديل فالوس المرأة (الأم) الذي آمن به الصبي الصغير والذي لا يريد ـ ونحن نعلم السبب ـ أن يتخلى عنه[٣].

لقد كانت السيرورة كما يلي إذاً: فقد أبى الطفل أن يقرّ بواقعية إدراكه أن المرأة ليس لها قضيب. كلا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، إذ لو كانت المرأة مخصية فإن الخطر سيحدق بامتلاكه هو نفسه لقضيبه، الأمر الذي لا بدّ أن ينتفض ضده ذلك القسط من النرجسية الذي حبت به الطبيعة البصيرة ذلك العضو تحديداً. ولعل ذعراً كهذا سيستولي على الراشد متى ما طرق مسمعيه صياح الصائحين: «العرش والهيكل في خطر»[٤]، ذعراً من شأنه أن يدفع به إلى نتائج براء هي الأخرى من المنطق. وإذا كنت لا أجانب الصواب فإن لافورغ[٥]

٣ ـ كنت أوردت من قبل هذا التأويل، بدون أن أعلّله، في نصي الصادر عام ١٩١٠: **ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي**.

٤ ـ صيغة متواترة بالألمانية يكنى بها، على نحو لا يخلو من السخرية، عن الدولة والكنيسة. وهناك من يرجِع هذا التعبير إلى الكاتب الفرنسي الملكي النزعة لوي دي بونالد (١٧٥٤ ـ ١٨٤٠) في مذكراته التاريخية عن لويس السادس عشر. كما هناك من يرجعه إلى فولتير في مسرحيته: **التعصب أو محمد النبي** (١٧٣٦). «م».

٥ ـ رينيه لافورغ: طبيب ومحلل نفسي فرنسي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢). كان أول من فتح عيادة تحليلية نفسية في فرنسا. ترأس **جمعية التحليل النفسي الباريسية** وأسس مع ماري بونابرت **المجلة الفرنسية للتحليل الفرنسي**. وكانت له مراسلات مع فرويد. من مؤلفاته: **نسبية الواقع**، **فيما وراء النزعة العلموية**. «م».



سيقول في حالة مشابهة إن الطفل «يعتِّم بصرياً» على إدراكه لفقدان القضيب لدى المرأة[٦]. والحال أن اختيار مصطلح جديد يكون مبرراً إذا كان المطلوب وصف واقعة جديدة أو تسليط الضوء عليها، لكننا لسنا هنا أمام حالة من هذا القبيل. فأقدم لبنة في بنيان مصطلحاتنا التحليلية النفسية، أعني لفظة Verdrangung (الكبت)، تحيل أساساً إلى هذه السيرورة المرَضية. فإن شئنا أن نميِّز فيها بمزيد من الوضوح مصير التمثل من مصير الانفعال الوجداني وأن نحتفظ بمصطلح «الكبت» للانفعال الوجداني، فقد يكون من الصواب أن نقول بالألمانية VERLEUGNUNG[٧]. ولا يبدو لي مصطلح التعتيم البصري Scotomisation موائماً بصورة من الصورة، إذ إنه يوحي بفكرة مؤداها أن الإدراك قد مُحي تماماً، كما في الحالة التي يقع فيها انطباع بصري ما على النقطة العمياء في الشبكية. وعلى العكس من ذلك، يدلّ الموقف الذي نصفه على أن الإدراك باقٍ، وعلى أن ثمة مجهوداً قوياً للغاية قد بُذل للتشبث بإنكاره. وليس من الصواب أن نقول إن الطفل الذي يسترق النظر إلى امرأة يحافظ، دونما تعديل، على اعتقاده بأن للمرأة قضيباً. فهو يحافظ على هذا الاعتقاد، لكنه يهجره أيضاً. ففي خضم الصراع بين ثقل الإدراك غير المرغوب فيه وبين قوة الرغبة المضادة، يتوصل إلى حلّ توفيقي على نحو لا يتأتى له نظيره إلا تحت سلطان قوانين الفكر اللاشعوري:أي سلطان السيرورات الأولية. فالمرأة تملك بكل تأكيد، من المنظور النفسي لذلك الطفل، قضيباً، لكن هذا القضيب لا يعود هو القضيب عينه الذي كانه من قبل. فثمة شيء آخر قد أخذ مكانه، قد جرى تعيينه، إن جاز القول، بديلاً عنه وصار وريث الاهتمام الذي كان ينصبّ على

---

٦ ـ أصحّح بنفسي بقولي إن لديّ من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن لافورغ ما كان ليقول ذلك البتة. فقد أوضح هو نفسه أن التعتيم البصري SCOTOMISATION مصطلح يكمن أصله في وصف الخبل المبكر، وأنه غير متأتٍ من تحويل التصور التحليلي النفسي إلى الأذهنة، وأنه غير قابل للتطبيق على سيرورات تكوين الأعصبة وتطورها. والنص يجاهد ليجعل هذا التنافي واضحاً جلياً.

٧ ـ الإنكار. والإنكار مفهوم أساسي طوره فرويد ابتداء من عام ١٩٢٤، وهو عنده آلية من آليات الدفاع يرفض بموجبها الفردُ الاعترافَ بواقعية إدراك رضّي، وعلى الأخص إدراك غياب القضيب لدى المرأة. والتمييز بين الكبت والإنكار يتيح لفرويد التمييز بين العصاب والذهان: فالعصابي يكبت مطالب الهذا، بينما الذهاني ينكر الواقع. «م».



القضيب الأول. بيد أن هذا الاهتمام قد زاد زيادة خارقة للمألوف لأن خوف الخصاء قد ابتنى لنفسه نصباً ضخماً بخلقه البديل. والذهول أمام الأعضاء التناسلية الفعلية للمرأة ـ وهو الذهول الذي لا نعدم وجوده لدى أي تميمي ـ يبقى **شهادة دامغة**[٨] على حدوث الكبت. هنا يتضح لنا ما تحققه التميمة وما الذي يبقيها محافَظاً عليها. فالتميمة علامة انتصار على التهديد بالخصاء وحماية من هذا التهديد، كما أنها تجنِّب التميمي الأيلولة إلى جنسي مثلي إذ يعير المرأة تلك الخاصية التي بفضلها تغدو محتملة كموضوع جنسي. ويعتقد التميمي، في الآتي من أيام حياته، أنه ينعم أيضاً بمزية أخرى من مزايا هذا البديل عن العضو التناسلي. فالآخرون لا يتعرفون التميمة في دلالتها الخاصة، وهم بالتالي لا يرفضونها، ومن ثم يكون ميسوراً الدنو منها، وميسوراً أيضاً الفوز بالإشباع الجنسي المرتبط بها. فما ينشده الرجال الآخرون، وما يتجشمون في سبيله عناء ومشقة، لا يقتضي أي مجهود من جانب التميمي.

أرجح الظن أن ما من كائن مذكر يفلت من معاناة الرعب من الخصاء حينما يقع نظره على العضو التناسلي المؤنث. فلأية أسباب يتأدى هذا الانطباع ببعضهم إلى أن يصيروا من الجنسيين المثليين، وببعضهم الآخر إلى أن يدرأوا عنهم هذا الخطر بخلقهم تميمة، بينما تظهَر الغالبية الساحقة على هذا الذعر وتتغلب عليه، فذلك بالتأكيد ما نقف عاجزين عن بيانه. ومن المحتمل أننا لا نزال نجهل، بين جملة الشروط التي تفعل فعلها في آن متواقت، الشروط التي تتحكم بالسيرورات التي تفضي في نادر من الأحوال إلى المرض. ولزام علينا، على أي حال، أن نقنع بالقدرة على تفسير ما حدث، وأن ننحي جانباً بصورة مؤقتة مهمة تفسير لماذا أن هذا الشيء أو ذاك لم يحدث.

وربما كان يفترض بنا أن نتوقع أن يقع الاختيار، كبديل عن ذلك الفالوس الذي تفتقر إليه المرأة، على أشياء أو أعضاء تمثل بدورها رموزاً للقضيب. وكثيراً ما يكون هذا هو بالفعل واقع الحال، ولكن ليس هذا على كل حال هو الأمر الحاسم. بل يبدو بالأحرى، في عملية تأسيس التميمة، أننا أمام سيرورة تشبه

٨ ـ باللاتينية في النص: STIGMA INDELEBILE. «م».



تعطُّل الذاكرة في النساية الرَضِّية. ففي هذه الحال أيضاً يبقى الاهتمام وكأنه علِّق في وسط الطريق؛ فآخر انطباع مما هو مقلق، مما هو راضّ بنوع ما، هو الذي سيُحتفظ به ليكون تميمة. وهكذا، إن القدم أو الحذاء أو جزءاً منهما تكون هي التمائم المفضلة، وتدين بذلك لواقع أن الصبي راقب، مدفوعاً بفضوله، عضو المرأة التناسلي من أسفل، من بين الساقين؛ والحال أن الفرو والساتان يثبّتان ـ وهذا كان موضع تخمين منذ زمن بعيد ـ مشهد شعر العانة الذي كان يفترض أن يعقبه مرأى العضو المؤنث المشتهى بمنتهى الحرارة والتوق؛ والاختيار الكثير التواتر لقطع الملابس الداخلية لتكون تميمة إنما مردّه إلى الاحتفاظ بذكرى تلك اللحظة الأخيرة من التعري التي أمكن فيها الاستمرار في الاعتقاد بأن المرأة قضيبية. لكني لا أشاء التوكيد أنه في مستطاعنا في كل مرة أن نتوصل إلى معرفة أكيدة بما الذي يتحكم بتعيين التميمة. ولزامٍ علينا أن نوصي حالاً بدراسة النزعة التميمية جميعَ أولئك الذين لا يزالون يشكون في وجود عقدة الخصاء أو أولئك الذين قد يتهيأ لهم أن الذعر إزاء العضو التناسلي للمرأة له أصل آخر، كاشتقاقه، مثلاً، من الذكرى الافتراضية لرضة الميلاد[9]. على أن جلاء سر التميمة انطوى بالنسبة إليّ على أهمية نظرية أخرى بعد.

فعن طريق تأملي صرف اكتشفت مؤخراً أن العصاب والذهان يختلفان اختلافاً جوهرياً من حيث أن الأنا، العامل في خدمة الواقع، يقمع في العصاب شطراً من الهذا، بينما ينقاد في الذهان وراء الهذا وينفصل عن شطر من الواقع. وفيما بعد، عدت مرة ثانية إلى هذه الموضوعة[10]. لكنني سرعان ما أسفت على اجترائي على التوغل إلى مثل هذه المسافة البعيدة. فقد اتضح لي من تحليل شابين أن أياً منهما لم يأخذ علماً بموت أبيهما الحبيب في سنتهما الثانية والعاشرة على التوالي؛ فكلاهما قد «عتَّم» على هذا الموت ـ ومع ذلك لم يتجه أي منهما نحو الذهان. إذاً ثمة شطر من الواقع له بكل تأكيد شأن

---

٩ ـ إشارة انتقادية إلى أوتو رانك ونظريته ذات الطابع الحصري في رضة الميلاد. «م».

١٠ ـ **العصاب والذهان**، ١٩٢٤، وكذلك: **فقدان الواقع في العصاب والذهان**، ١٩٢٤، المؤلفات الكاملة، م١٣.



ودلالة قوبل في هاتين الحالتين بالإنكار من قبل الأنا، تماماً كما يُقابل واقع خصاء المرأة المستكره بالإنكار من قبل التميمي. وعلى الأثر افترضت أن خبرات كهذه ليست نادرة على الإطلاق في الطفولة، وأمكن لي بالتالي أن أقتنع بأني وقعت في الخطأ في توصيفي للعصاب وللذهان. على أنه كان قد بقي مع ذلك ثمة مخرج: فصيغتي ما كان لها أن تثبت صحتها إلا متى ما بلغ الجهاز العصبي درجة من التمايز أعلى؛ وآية ذلك أن الطفل قد يباح له ما يستوجب لدى الراشد أن يعاقب عقاباً صارماً. غير أن التعمق في البحث أفضىٰ إلى حلٍّ آخر للتناقض.

فقد اتضح أن الشابين المذكورين «عتَّما» على وفاة والدهما مثلما يعتِّم التميميون على خصاء المرأة. فقد كان تيار واحد فقط من حياتهما النفسية لا يعترف بتلك الوفاة، بينما كان تيار آخر يقيم لها كامل الاعتبار. وكان الموقفان كلاهما، الموقف المبني على الرغبة والموقف المبني على الواقع، يتعايشان. وكان هذا الانفلاق، في واحدة من الحالتين، في أساس عصاب وسواسي متوسط الشدة؛ ففي جميع الظروف والأوضاع كان المريض يتأرجح بين فرضيتين: واحدة تصوِّر له أن أباه لا يزال حياً ويقف حائلاً دون نشاطه، وثانية تصوِّر له، انطلاقاً على العكس من أن أباه قد تُوفِّي، أن في مستطاعه بحقٍّ أن يعتبر نفسه خليفته. وهكذا أمكن لي أن أتشبث بفرضي القائل إن أحد التيارين، وهو ذاك المطابق للواقع، يكون قد تلاشى تماماً في حالة العصاب.

فإن عدت إلى وصف التميمة وجدت لزاماً عليّ أن أذكر أن ثمة حججاً كثيرة، وحججاً ذات وزن، تؤيد واقع الموقف الانفلاقي للتميمي من مسألة خصاء المرأة. ففي حالات بلغت درجة عالية من التفنُّن والتصنُّع وجد إنكار الخصاء وتوكيده معاً منفذاً لهما في بناء التميمة بالذات. ومن قبيل ذلك حالة رجل كانت تميمته مشدّاً عانياً[11] كان في مقدوره أيضاً أن يرتديه كلباس بحر. وكانت قطعة الثياب هذه تخفي تماماً الأعضاء التناسلية، وبالتالي الفارق بين الأعضاء التناسلية. وبحسب مستندات التحليل كان هذا يعني على حدٍّ

---

١١ ـ حرفياً: ساتر عورة. «م».



سواء واحداً من أمرين: إما أن المرأة مخصية وإما أنها غير مخصية. وكان هذا يفسح في المجال، علاوة على ذلك، أمام افتراض الخصاء في الرجل، إذ إن هذه الاحتمالات جميعها كان يمكن أن تختفي تمام الاختفاء خلف المشدّ الذي كان نموذجه الأول ورقة التوت الساترة لعورة تمثال وقع عليه نظر ذلك الرجل في طفولته. وطبيعي أن تميمة كهذه، مرتبطة بأصليها المتضادين كليهما، تكون على قدر كبير من المتانة والصلابة. وفي حالات أخرى يظهر انشقاق بين ما يفعله التميمي بتميمته في الواقع أو في خياله. ولا نكون قد قلنا كل شيء إن شدَّدنا على القول إنه يعبد تميمته؛ ففي العديد من الحالات يعاملها بطريقة تنمّ على نحو ظاهر للعيان عن تمثيل رمزي للخصاء. وهذا ما يحدث في الدور المعزوّ إلى الأب بوجه خاص حينما يكون التماهي معه على درجة كبيرة من القوة، إذ يكون الطفل قد عزا إلى هذا الأب خصاء المرأة. وفي بعض الحالات تمتزج المحبة والعدائية اللتان يعامل بهما التميمي تميمته - وهما تناظران إنكار الخصاء والاعتراف به في آن معاً - امتزاجاً متفاوتاً، بحيث يكون من السهل تعرُّف إحداهما تارة، والأخرى طوراً آخر. وعلى هذا النحو نفهم فيما نعتقد، ولو من زاوية بعيدة للغاية، سلوك قصّاص الضفائر الذي تبرز لديه على نحو لا يحتمل لبساً الحاجة إلى تنفيذ الخصاء الذي هو قيد إنكار من قبله. فعمله يوفِّق بين التوكيدين المتنافيين التاليين: المرأة حافظت على قضيبها والأب قد خصى المرأة. وربما جاز لنا أن نرى صيغة أخرى من التميمية - ولكنها ستكون هذه المرة مقتبسة من علم نفس الشعوب - في تلك العادة التي درج عليها الصينيون في تشويه قدم المرأة أولاً ثم في عبادة هذه القدم المشوَّهة كما لو أنها تميمة[١٢]. وقد يجوز لنا أن نفترض أن الصيني يريد بذلك أن يشكر المرأة على رضوخها للخصاء.

وفي نهاية المطاف نرانا مباحاً لنا أن نصرِّح بأن النموذج الأول الطبيعي

١٢ - معلوم أنه قد درجت العادة في الصين ما قبل الحديثة على إلباس الفتاة الصغيرة حذاء حديدياً أو خشبياً صُلباً يمنع قدميها من النمو. وكانت القدمان المكفوفتان على هذا النحو من النموّ تُعتبران من علامات جمال المرأة. «م».

للتميمة هو قضيب الرجل، مثلما أن النموذج الأول للعضو الموصوم بالدونية[١٣] هو قضيب المرأة الفعلي الصغير، أي البظر.

١٣ ـ تلميح إلى نظرية ألفريد آدلر عن «عقدة الدونية». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

- ١٣ -

حول الجنسية المؤنثة[1]

(١٩٣١)

(١)

في طور عقدة أوديب السوية نجد الطفل وقد تعلَّق حبِّياً تعلقاً حانياً بالوالد الذي من الجنس الآخر، بينما تهيمن على علاقته بالوالد الذي من الجنس عينه العدائية. وليس عسيراً علينا أن نصل إلى هذه النتيجة مع الصبي. فقد كانت أمه موضوعه الحبِّي الأول، وكذلك بقيت؛ وبحكم تعزيز نوازعه الحبِّية وتعمُّق إدراكه للصلة التي تجمع بين أبيه وأمه يغدو الأب لا محالة غريمه ومنافسه. لكن الأمر ليس بالمثل بالنسبة إلى البنت الصغيرة. فقد كان موضوعها الأول أمها؛ فكيف تهتدي إلى الطريق الموصل إلى أبيها؟ وكيف ومتى ولماذا تنفصل عن أمها؟ لقد أدركنا منذ زمن بعيد أن نموّ الجنسية المؤنثة يتعقد بحكم المهمة الموجبة للعزوف عن المنطقة التناسلية الراجحة في الأصل، وأعني البظر، لصالح منطقة تناسلية جديدة، هي المهبل. ويبدو لنا اليوم أن تحولاً ثانياً من الطراز نفسه، ونعني به مقايضة الموضوع الأصلي ـ الأم ـ بالأب، ليس سمة أقل أهمية وتمييزاً لتطور المرأة. بيد أننا لا نعرف بعد الكيفية التي تترابط بها هاتان المهمتان واحدتهما بالأخرى.

١ ـ يستعيد فرويد في هذه المقالة الأفكار التي كان عرضها عام ١٩٢٥ في مقالته السابقة: **بعض النتائج النفسية للفارق التشريحي بين الجنسين**، وهي المقالة التي كانت الحافز للعديد من أنصار التحليل النفسي على الإدلاء بدلوهم في الموضوع كما سيتضح من مناقشة فرويد لآرائهم في خاتمة هذا النص. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



يغلب جداً أن نلتقي، كما هو معلوم، نساء تصلهن بأبيهن رابطة متينة؛ وهذا لا يوجب إطلاقاً أن يكنَّ من العصابيات. وإنما على نساء كهؤلاء أجريتُ الملاحظات التي أنشرها هنا والتي تأدت بي إلى تصور معيَّن للجنسية المؤنثة. وأول ما استرعى انتباهي واقعتان: أولاهما أنه حيثما دل التحليل على وجود رابطة مفرطة في قوتها بالأب تكون قد سبقتها مرحلة من الارتباط بالأم، قاصرة عليها، وبقدر متماثل من الشدة والشغف. وباستثناء تبديل الموضوع، لا تكون المرحلة التالية قد أضافت سمات جديدة تذكر إلى الحياة الحبِّية. إذ إن العلاقة الأولية بالأم تكون قد نُظِّمت على نحو بالغ الغنى والتنوع.

أما الواقعة الثانية فقد نبهتني إلى أن مدة هذا التعلق بالأم كانت لقيت منا سوء تقدير بالغ. ففي العديد من الحالات كان التعلق يمتدّ حتى السنة الرابعة، وفي واحدة من الحالات حتى سن الخامسة، ويشغل بالتالي شطراً من التفتح الجنسي المبكر أطول بكثير. وفي الواقع، كان يتحتّم علينا أن نقبل بفكرة أن بعض النساء يبقين متشبثات بعلاقتهن الأصلية بالأم ولا يتوصلن أبداً إلى تحويلها حقاً باتجاه الرجل.

وبحكم ذلك تكتسب المرحلة القبأوديبية لدى المرأة أهمية ما عزوناها إليها قط حتى الآن.

وبما أن هذه المرحلة تفسح في المجال أمام جميع ضروب التثبيت والكبت التي نردّ إليها أصل الأعصبة، يبدو ضرورياً لنا أن نعدل عن إطلاقية الأطروحة التي تقول إن عقدة أوديب هي نواة الأعصبة. لكن إن وجد من ينفر من هذا التصحيح فلا شيء يرغمه على القيام به. فمن الممكن، من جهة أولى، سحب مضمون عقدة أوديب على جميع علاقات الطفل بوالديه؛ ومن الممكن، من جهة ثانية، أخذ كشوفنا الجديدة هذه بعين الاعتبار والقول بأن المرأة لا تبلغ الموقف الأوديبي العادي والإيجابي إلا متى ما تغلَّبت على طور سابق كانت تهيمن عليه العقدة السلبية. وفي الحق، إن الأب لا يعدو أن يكون بالنسبة إلى البنت الصغيرة، في هذه المرحلة، غريماً مزعجاً، ولكن بدون أن يبلغ العداء له أبداً مبلغه الذي يتميَّز به سلوك الصبي تجاه أبيه. ولقد أقلعنا منذ زمن بعيد عن توقع توازٍ وثيق في التطور الجنسي لدى كل من الذكور والإناث.



إن النفاذ إلى المرحلة القبأوديبية لدى البنت الصغيرة يفجؤنا كما فجأنا، في مضمار آخر، اكتشاف الحضارة المينوسية ـ الميقينية خلف حضارة الإغريق[٢].

إن كل ما يتصل بمجال هذه الرابطة بالأم قد بدا لي عسيراً أشدَّ العسر فهمه تحليلياً. فالسنون قد محت آثاره محواً يكاد يكون تاماً، فأمسى غائماً، غير قابل تقريباً للانبعاث، فلكأنه يرزح تحت نير كبت شديد الوطأة. ولكن قد لا يكون هذا الانطباع ساورني إلا لأن النساء اللواتي توليت تحليلهن كان في مستطاعهن أن يحافظن على هذه الرابطة عينها بالأب، وهي الرابطة التي لذن بملاذها منذ تلك المرحلة القبأوديبية التي عنها يدور الكلام. ويظهر في الحقيقة أن النساء المحلِّلات ـ من أمثال حنة لامبل دي غروت LAMPL DE GROOT[٣] وهيلين دويتش DEUTSCH[٤] ـ قد تسنى لهن أن يفطنّ بمزيد من اليسر وبقدر أكبر من الجلاء إلى هذه الواقعة، يعينهنّ على ذلك التحويلُ لدى مريضاتهن على بديل مناسب عن الأم. كما أنني لم أتوصل بعد إلى استكناه حالة بعينها تمام الاستكناه؛ ولهذا السبب سأقتصر على بسط أعمّ النتائج ولن أضرب إلا أمثلة قليلة على الأفكار الجديدة التي انتهيت إليها. وهاكم واحدة من تلك النتائج: إنني أشتبه في وجود علاقة وثيقة للغاية بين مرحلة الارتباط بالأم وبين إتيولوجيا الهستيريا، وليس في هذا ما يبعث على العجب إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشيئين كليهما، أعني المرحلة والعصاب، يندرجان في عداد خصائص الأنوثة؛ وأشتبه، علاوة على ذلك، في أن بذرة البارانويا اللاحقة لدى المرأة تكمن في هذه التبعية

٢ ـ الحضارة المينوسية ـ الميقينية: حضارة تطورت في جزيرة كريت بين ١٧٠٠ و١٢٠٠ ق.م، وينسب اسمها إلى الملك الأسطوري مينوس قبل أن ينتقل إشعاعها إلى البر اليوناني الناطق يومئذ باللغة الميقينية. «م».

٣ ـ حنة لامبل غروت: طبيبة ومحللة نفسية هولندية (١٨٩٥ ـ ١٩٨٧). درست التحليل النفسي على يد فرويد وصادقت ابنته آنا وتزوجت من صديقه هانز لامبل. تخصصت بطب الأطفال النفسي. من أشهر مؤلفاتها: **الألم والمتعة، الجنسية المؤنثة**. «م».

٤ ـ هيلين دويتش: محللة نفسية أميركية من أصل نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٨٢). تولى فرويد نفسه تحليلها، ودافعت عن تصوره للجنسية المؤنثة. من مؤلفاتها: **التحليل النفسي للوظائف الجنسية عند المرأة، مشكلات المراهقين**. «م».



إزاء الأم(٥). ويبدو بالفعل أن هذه البذرة هي خوف البنت من أن تغتالها (أو تفترسها) الأم، وهو خوف يبعث على العجب، ولكنه مطَّرد الوجود. وإننا لنميل إلى التوكيد بأن هذا الخوف يناظره عداء تجاه الأم تتظاهر أعراضه لدى الطفلة من جراء القيود العديدة المرتبطة بالتربية والعناية البدنية، وبأن آلية الإسقاط PROJECTION ييسِّرها كون التنظيم النفسي لا يزال في بدايته.

(٢)

لقد أعطيت الأولوية في العرض للواقعتين اللتين استرعتا انتباهي بجِدّتهما: كون تبعية المرأة الشديدة إزاء أبيها هي مجرد وراثة لرابطة بالأم لا تقلّ قوة، وكون هذه المرحلة الأقدم عهداً تدوم وتستمر على امتداد حقبة غير متوقعة. وأريد الآن أن أعود إلى الوراء لأدرج هاتين النتيجتين في الصورة المعروفة لدينا جيداً عن التطور الجنسي الأنثوي؛ وإني إذ أفعل ذلك لا أملك أن أتفادى تكرار أقوالي. وليس من شأن المقارنة المتواصلة مع ما يماثلها من الوقائع لدى الرجل إلا أن تعود بالفائدة على عرضنا هذا.

من الواضح للعيان بادئ ذي بدء أننا حين نؤكد أن جِبِلَّة الكائنات البشرية تنطوي على جنسية ثنائية، فإن هذه الجنسية الثنائية أشد بروزاً لدى المرأة منها لدى الرجل. فالرجل لا يملك، في حاصل الكلام، سوى منطقة تناسلية غالبة واحدة: العضو الجنسي، بينما تملك المرأة منطقتين: المهبل الذي هو أنثوي محض والبظر الذي يماثل آلة الرجل. وإننا لنعتقد أننا لا نجانب الصواب إذ نفترض أن المهبل يكون غائباً عن الوجود، إن جاز القول، على مدى سنوات عديدة؛ ومن الجائز أنه لا يشرع بتوليد أحاسيس إلا مع البلوغ. صحيح أنه تتكاثر في الآونة الأخيرة أصوات المراقبين الذين يرجِعون زمن الحاثات المهبلية أيضاً إلى تلك المرحلة الابتدائية. غير أن جوهر ما يتصل

٥ ـ في حالة معروفة جيداً كما روتها روث ماك برونشفيك(*) «**تحليل لهذاء غيرة**» في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٤، ١٩٢٨، نشأ المرض مباشرة عن التثبيت القبأوديبي (على الأخت).

(*) روث ماك برونشفيك: محللة نفسية أميركية (١٨٩٧ ـ ١٩٤٦). حملتها الصعوبات التي اصطدمت بها في حياتها الزوجية الأولى على التوجه إلى فيينا ليتولى تحليلها فرويد نفسه. وبعد زواجها الثاني من مارك برونشفيك، وإزاء تجدد الصعوبات، قصد الزوجان كلاهما فرويد لتحليلهما معاً، وكان هذا باعتراف فرويد نفسه خطأً، وكانت لها أسبقية إلى استخدام مفهوم العقدة ما قبل الأوديبية. «م».



بالتعضية التناسلية في فترة الطفولة يبقى وثيق الصلة بالبظر. وفي العادة تنقسم حياة المرأة الجنسية إلى مرحلتين، أولاهما ذات طابع مذكر، وثانيتهما هي وحدها المؤنثة نوعياً. وعلى هذا، إن تطور المرأة يشتمل على سيرورة انتقال من مرحلة إلى أخرى، ولا وجود لشيء من هذا القبيل لدى الرجل. ومن أوجه التعقيد الأخرى أن وظيفة البظر الذكري تستمرّ في الأطوار اللاحقة من حياة المرأة الجنسية على نحو شديد التنوع وغير مفهوم، وهو وجه لا يعتبر بكل تأكيد يبعث على الرضى. ونحن لا نعرف بطبيعة الحال ما هو الأساس البيولوجي لخاصية المرأة هذه؛ كما أنه يشقّ علينا أكثر أن نعيِّن لها قصداً غائياً.

بالتوازي مع هذا الفارق الكبير الأول يظهر الفارق الثاني المتصل باكتشاف الموضوع. فالأم هي الموضوع الأول للحب لدى الرجل، على اعتبار أنها هي التي تقيته وتبذل له العناية البدنية ـ وتبقى كذلك إلى أن يحلّ محلها موضوع آخر مشابه لها أو مشتقّ منها. وبالنسبة إلى المرأة أيضاً لا بدّ أن تكون الأم بالضرورة هي الموضوع الأول. وبديهي أن الشروط الأولية للاختيار الموضوعاني واحدة بالنسبة إلى الأطفال جميعاً. لكن الرجل/ الأب لا بدّ أن يغدو، في نهاية مرحلة التطور، الموضوع الحبِّي الجديد للمرأة؛ وبعبارة أخرى، إن تغيُّر عضو جنس المرأة لا بدّ أن يناظره تغيُّر في جنس الموضوع. وهنا تبرز بالنسبة إلى البحث مهام جديدة، ومنها مسألة معرفة ما الطريق الذي يسلكه هذا التحول؟ وهل يتمّ بصورة جذرية أو ناقصة؟ وما مختلف الاحتمالات التي يتمخّض عنها هذا التطور؟

لقد سبق لنا أن سلَّمنا بأن ثمة فارقاً آخر بين الجنسين يتصل بعلاقتهما بعقدة أوديب. ويُخيَّل إلينا أن كل ما قلناه عن عقدة أوديب يرجع على وجه الدقة إلى الطفل من الجنس المذكر، وأننا في حِلّ بالتالي من رفض اسم عقدة إلكترا الذي يبغي الإلحاح على التشابه بين الجنسين[٦]. فعلاقة التزامن المحتومة بين حبّ أحد الوالدين وكراهية الوالد الآخر، المنظور إليه على أنه غريم، لا تقوم إلا بالنسبة إلى

٦ ـ عقدة إلكترا: مصطلح نظري صاغه كارل غوستاف يونغ كمكافئ لعقدة أوديب عند الرجل. وكما هو واضح من النص فقد رفضه فرويد لأن القانون هو في نظره وتعريفاً قانون الأب وليس قانون الأم. «م».



الطفل الذكر. وعندئذ يأتي اكتشاف إمكانية الخصاء، لدى مرأى هذا الأخير العضو التناسلي المؤنث، ليرغمه على تحويل عقدته الأوديبية؛ ويتأدى به هذا الاكتشاف إلى خلق الأنا الأعلى وإلى إطلاق جميع السيرورات التي ترمي إلى اندماج الفرد في الجماعة المتحضرة. وبعد استدخال السلطة الأبوية في صورة أنا أعلى، تكون المهمة التي لا تزال تتطلب التنفيذ فصل هذا الأنا الأعلى عن الأشخاص الذين كان في الأصل ممثِّلهم النفسي. وفي مجرى هذا التطور المرموق، يكون الشاغل التناسلي النرجسي، أي الاهتمام بصيانة القضيب والمحافظة عليه، هو على وجه التحديد ما يكون قد حُوِّل اتجاهه نحو تقييد الجنسية الطفلية.

إن مقداراً من الازدراء حيال المرأة التي يجري تعرُّفها باعتبارها مخصية هو ما يتبقى أيضاً لدى الرجل من تأثير عقدة الخصاء. وقد يترتب عليه، في الحالات القصوى، كفّ للاختيار الموضوعاني، وبمساندة عوامل عضوية نزوع إلى جنسية مثلية حَصْرية. والحال أن نتائج عقدة الخصاء مختلفة تماماً لدى المرأة. فالمرأة تعترف بواقع خصائها وتعترف أيضاً إلى جانب ذلك بتفوق الرجل وبدونيتها هي، ولكنها تتمرد أيضاً عل هذا الوضع المستكره. وتترتب على هذا الموقف المنقسم ثلاثة اتجاهات في التطور. اتجاه أول يتأدى بالمرأة إلى الانصراف بصفة عامة عن الجنسية. فالمرأة الصغيرة التي أرعبتها المقارنة مع الصبي تمسي غير راضية عن بظرها؛ فتمسك عن نشاطها القضيبي وتعزف فوق ذلك عن الجنسية بصفة عامة، وكذلك، وفي مضامير أخرى، عن جانب لا يستهان به من ذكورتها. أما الاتجاه الثاني فيتأدى بها على العكس إلى عدم التنازل، بوثوق صفيق، عن ذكورتها المهددة؛ فالأمل في أن تتلقى من جديد قضيباً يظلّ يداعبها إلى مرحلة متأخرة فوق الحدّ، فيغدو هو هدف حياتها، ويبقى تخيُّلها بأنها بالرغم من كل شيء رجل عاملاً يلعب دوره في تكوين شخصيتها لفترات مديدة من حياتها. و«عقدة الذكورة» هذه لدى المرأة يمكن أن تنتهي أيضاً إلى اختيار موضوعاني جنسي مِثلي سافر. واتجاه التطور الثالث، الشديد التعرج، هو وحده الذي يفضي إلى الموقف الأنثوي السوي النهائي الذي يختار الأب موضوعاً ويتلبس على هذا

النحو الشكل المؤنث لعقدة أوديب. هكذا تكون عقدة أوديب لدى المرأة المحصّلة النهائية لتطور طويل الأمد؛ وهي لا تتدمر تحت تأثير الخصاء بل على العكس تتكون؛ ثم إنها تفلت من التأثيرات المناوئة القوية التي قد يكون من شأنها، لدى الرجل، أن تدمرها؛ وفي الكثير الغالب جداً من الأحيان قد يتفق ألا تتغلب عليها المرأة على الإطلاق. ولهذا أيضاً تكون النتائج الحضارية لدمارها زهيدة وغير ذات شأن. وأرجح الظن أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذا الفارق في العلاقة المتبادلة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء يسبغ على الشخصية الأنثية صفتها ككائن اجتماعي(٧).

إن مرحلة الارتباط الحصْري بالأم، وهي المرحلة التي يمكن أن توصف بأنها قبأوديبية، تتلبس على هذا النحو لدى المرأة أهمية أعظم بكثير من تلك التي تعود إليها لدى الرجل. والعديد من ظاهرات الحياة الجنسية المؤنثة، التي ما كانت تحظى بفهم جيد من قبل، تجد تفسيرها التام بالإحالة إلى هذه المرحلة. فقد لاحظنا منذ زمن بعيد، مثلاً، أن الكثيرات من النساء اللائي اخترن أزواجهن وفق النموذج الأول الأبوي، أو أعطيناهم مكان الأب، يكررن معهم ضمن إطار الزواج علاقتهن السيئة بالأم. فقد كان المفروض بالزوج أن يرث العلاقة بالأب فإذا به يرث في الواقع العلاقة بالأم. ويسير علينا أن ندرك أن هذه حالة قريبة من حالة النكوص REGRESSION. فالعلاقة بالأم كانت العلاقة الأصلية التي على أساسها شيدت الرابطة بالأب، ولكن ها هو ما كان هو الأصل يعاود ضمن

٧ ـ يمكن لنا أن نتوقع هنا أن أنصار المرأة من الرجال وكذلك المحلّلات من النساء لن يوافقوا على هذا الكلام. وهم لن يتوانوا عن الاعتراض بأن أمثال هذه النظريات إنما يكمن أصلها في «عقدة الذكورة» لدى الرجل وأن لا شأن لها غير أن تفيد في تقديم تبرير نظري للميل الفطري لدى الرجل إلى احتقار المرأة واضطهادها. غير ان محاجّة تحليلية نفسية كهذه من شأنها أن تذكّرنا في هذه الحالة، كما في الكثير من الحالات، بسلاح دستويفسكي ذي الحدَّين الشهير(*). أما المعارضون فسيرون، من جانبهم، أنه من المفهوم ألا يقبل الجنس المؤنث بما من شأنه، في ظاهر الأمر، أن ينقض تلك المساواة التي طالما تاق إليها مع الرجل. والحق أن استخدام التحليل كسلاح للمساجلة لا يمكن ان يفضي إلى حسم واضح للمسألة.

(*) الإحالة هنا إلى الصيغة المشهورة للروائي الروسي دوستويفسكي في مشهد المحاكمة في رواية **الإخوة كارامازوف**: «إن علم النفس سلاح ذو حدين». «م».



إطار الزواج انبثاقه من الكبت. والحق أن إحالة الروابط العاطفية بالموضوع الأموي إلى الموضوع الأبوي تؤلف المضمون الرئيسي للتطور الذي يفضي إلى صيرورة الأنوثة لدى المرأة.

ولئن كانت الكثيرات من النساء يخلِّفن لدينا انطباعاً بأن مرحلة النضج في حياتهن حافلة بالمشاحنات مع أزواجهن، مثلما كان شبابهن حافلاً بالمشاحنات مع أمهاتهن، فإننا سنخلص مع ذلك إلى الاستنتاج، على ضوء الملاحظات السابقة، بأن موقفهن العدائي من الأم ليس نتيجة للتنافس في طور عقدة أوديب، بل ينبع على العكس من الطور السابق، وكل ما فعله الموقف الأوديبي أنه عززه واستغله. ومن الواجب أن نوجِّه اهتمامنا نحو الآليات التي فعلت فعلها باتجاه التخلي عن الموضوع الأموي الذي كان من قبل موضوع حب عارم وحصري. وإننا لنتوقع أن سلسلة من العوامل، لا عاملاً وحيداً، هي التي تفعل فعلها هنا مجتمعة برسم الهدف النهائي ذاته.

إن من جملة هذه العوامل عوامل مشروطة بوجه خاص بظروف الجنسية الطفلية، ومفعولها يسري بالتالي على الحياة الحبِّية لدى الصبي أيضاً. وينبغي أن نخصّ بالذكر في المقام الأول الغيرة من أشخاص آخرين، من إخوة وأخوات منافسين، ممن يتسع بينهم مكان للأب أيضاً. فالحب الطفلي مسرف لا يعرف حدوداً، وهو يطالب بالمقصورية ولا يكتفي بنتف وكسور. على أنه يتصف أيضاً بصفة ثانية: فهو حب لا هدف له، يعجز عن الوصول إلى إشباع تام، ولهذا السبب يكتب عليه أساساً أن ينتهي إلى خيبة وتثبيط وأن ينوب منابه موقف عدائي. وفي طور لاحق من الحياة يمكن لغياب إشباع نهائي أن يفضي إلى مخرج آخر. ففي مقدور هذا العامل، كما في العلاقات الحبِّية المكفوفة من حيث الهدف، أن يضمن الدوام الهادئ للتوظيف الليبيدوي؛ لكن يحدث بصورة مطردة، تحت ضغط سيرورات النمو، أن يتخلى الليبيدو عن الموضوع غير الإشباعي ليبحث عن واحد آخر.

ثمة حافز آخر، من طبيعة أكثر خصوصية، يدفع باتجاه التحول عن الأم وينبع من تأثير عقدة الخصاء على الكائن الذي بلا قضيب. ففي يوم من الأيام تكتشف



البنت الصغيرة دونيتها العضوية؛ وهي تصل إلى هذا الاكتشاف في وقت أبكر بطبيعة الحال إن كان لها أخوة أو إن كان في جوارها صبيان. وقد رأينا من قبل ما هي الاتجاهات الثلاثة التي تبرز إلى حيِّز الوجود عندئذ: أ ـ الاستنكاف عن كل حياة جنسية؛ ب ـ الإلحاح الصفيق من قبل البنت على ذكورتها؛ ج ـ بدايات الأنوثة التي ستكون نهائية. وليس من اليسير تعيين المواقيت الدقيقة لكل ذلك ولا تقرير مسارات التطور. وحتى زمن اكتشاف الخصاء يتفاوت من حالة إلى أخرى، كما أن العوامل الأخرى تبدو متقلبة ومنوطة بالمصادفة. وينبغي أن نأخذ في اعتبارنا شروط النشاط الفالوسي الذاتي، وكذلك كون البنت الصغيرة قد اكتشفته أم لم تكتشفه ومدى شدة المنع الذي كابدت منه بعد هذا الاكتشاف.

إن البنت الصغيرة تكتشف عفوياً في غالب الأحيان نشاطها الفالوسي الخاص، أي الاستمناء على مستوى البظر، الذي لا تصاحبه في أول الأمر تخييلات. والتخييل الكثير التواتر، الذي يلبِس الأم أو المرضع أو المربية ثوب المغوية، يشفّ عن مدى تأثير العناية البدنية في هذه اليقظة. أما مسألة معرفة ما إذا كانت أونانية البنت أندر، ومن البداية أوهى شأناً، من أونانية الصبي فتبقى معلَّقة، وإن يكن ذلك محتملاً جداً. والإغواء الفعلي متواتر هو الآخر: وقد يأتي إما من جانب أطفال آخرين وإما من جانب أشخاص مكلفين بالاهتمام بالطفلة ممن يريدون تسكينها أو إنامتها أو يودّون شدّ وثاقها إليهم. والإغواء، حيثما يقع، يعكّر المسار الطبيعي لسيرورات النمو، وتكون عواقبه في الغالب جسيمة ودائمة.

إن حظر الاستمناء يغدو، كما رأينا، سبباً للإقلاع عنه، لكنه يمسي أيضاً حافزاً إلى التمرد على الشخص الذي ينهى عنه، سواء أكان هو الأم أم البديل الأموي الذي لا يلبث لاحقاً، وبصورة مطردة، أن يندمج بشخص الأم. ويبدو أن المثابرة العنيدة على الاستمناء تشقّ الطريق إلى الذكورة. ولكن حتى حيثما لم تفلح الطفلة في كبح الاستمناء، فإن ذلك الحظر، الذي لم يؤتِ مفعوله في الظاهر، يتجلى في الجهود التي تبذلها البنت لاحقاً لتتحرر، لقاء تضحيات كبرى، من ذلك الإشباع الذي أُفسد عليها. وناهيك عن ذلك، إن الاختيار الموضوعاني لدى



الفتاة عندما تبلغ سن النضج يمكن أن يتأثر بديمومة هذا المجهود. والضغينة من جراء منع النشاط الجنسي الحرّ تلعب دوراً كبيراً في الانفصال عن الأم. هذا الدافع نفسه سيسري مفعوله مجدداً، عقب البلوغ، يوم تُدرِج الأم في عداد واجباتها السهر على عفة ابنتها. ولا يجوز لنا أن ننسى بطبيعة الحال أن الأم تعارض بالطريقة نفسها استمناء الصبي وتتيح له، بنتيجة ذلك، دافعاً قوياً إلى العصيان والتمرد.

حين تختبر البنت الصغيرة ما بها من نقص لدى مرآها العضو التناسلي المذكر، فإنها لا ترضى إلا بعد تردد وتمرد بقبول هذا الدرس الذي ما كانت لتتمناه. فقد رأينا أنها تحافظ بقوة على الأمل في أن تتلقى ذات يوم عضواً كذاك، والرغبة في ذلك تستمر طويلاً بعد انقطاع الرجاء. وفي الأحوال جميعاً تحمل الطفلة هذا الخصاء على محمل سوء الطالع الفردي؛ وفي طور لاحق فحسب تسحبه على طفلات أُخَر فرادى، وفي خاتمة المطاف على راشدات أخر فرادى. وحينما تتأكد لها فكرة عمومية هذه الصفة السلبية تنظر بعين الانتقاص الشديد إلى النساء، وكذلك إلى أمها.

من المحتمل تماماً أن الوصف الذي أوردته للكيفية التي تتصرف بها البنت الصغيرة حيال الخصاء وحظر الأونانية يترك لدى القارئ انطباعاً مشوشاً ومتناقضاً. وتبعة ذلك لا تقع كلها على عاتق الكاتب. والحق أنه يكاد يكون من المتعذر تقديم عرض ذي دلالة عامة. فلدى مختلف الأفراد تختلف الاستجابات أشد الاختلاف؛ ولدى الفرد الواحد تتجاور مواقف متناقضة. ومن التدخل الأول للحظر يظهر النزاع ليرافق مذّاك فصاعداً تطور الوظيفة الجنسية. ومما يزيد في صعوبة فهم هذه الفكرة وجوب بذل جهود كبرى لتمييز السيرورات النفسية التابعة لهذا الطور الأول من السيرورات اللاحقة التي تحجبها وتحرِّفها في الذاكرة. هكذا تُفهم واقعة الخصاء في وقت لاحق، مثلاً، على أنها عقاب على النشاط الاستمنائي. ويُعزى تنفيذها إلى الأب، والشيئان كلاهما ليسا بالتأكيد أوليين. ويخشى الصبي هو الآخر الخصاء على يد الأب، وإن كان التهديد يأتيه في غالب الأحيان من الأم.

مهما يكن من أمر فإن أقوى دافع للابتعاد عن الأم يبرز إلى حيِّز الوجود في



نهاية هذه المرحلة الأولى من الصلة بالأم هو كونها لم تهب الطفلة عضواً تناسلياً حقيقياً، أي كونها ولدتها أنثى. وبقدر من الدهشة نكتشف مأخذاً آخر يرجع عهده إلى زمن أبكر قليلاً ومفاده أن الأم لم تعطِ الطفلة كفايتها من اللبن ولم ترضعها زمناً طويلاً بما فيه الكفاية. وفي شروط حضارتنا قد يحدث هذا تكراراً، ولكن بالتأكيد ليس بالتواتر الذي يشفّ عنه التحليل. ويبدو هذا الاتهام أقرب بكثير إلى أن يكون تعبيراً عن عدم الإشباع العام للطفل الذي يُفطم، في الشروط الحضارية للزواج الأحادي، بين الشهر السادس والتاسع، بينما تنذر الأم نفسها لطفلها لدى البدائيين على مدى سنتين أو ثلاث سنوات؛ فلكأن أطفالنا يبقون أبد حياتهم على جوع وطوى، ولكأنهم لم يرضعوا زمناً طويلاً بما فيه الكفاية ثدي الأم. ولكني لست متيقناً من أننا لن نصطدم بالمأخذ نفسه فيما لو حلّلنا أطفالاً نالوا حظهم من الرضاع أمداً طويلاً يضاهي ما هو عليه الحال لدى البدائيين. فما أعظم شراهة الليبيدو الطفلي! لننظر الآن في جملة التحفيزات التي يكشف عنها التحليل والتي يُتذرع بها لتعليل واقعة الإشاحة عن الأم: لقد أهملت الأم تزويد البنت الصغيرة بالعضو التناسلي الصحيح الوحيد؛ ولم ترضعها بما فيه الكفاية؛ وقد أرغمتها على مشاطرة آخرين الحب الأموي؛ ولم تفِ على الدوام بما كانت تتوقعه منها؛ وأخيراً، إنها نبّهت في أول الأمر ثم حظرت النشاط الخاص للبنت الصغيرة. وجميع هذه الدوافع تبدو غير كافية لتبرير العداء النهائي. وبعض هذه الدوافع نتائج محتومة لطبيعة الجنسية الطفلية، وبعضها الآخر لا يعدو أن يكون تصورات تالية لتغيُّر العاطفة الذي لا تجد البنت تعليلاً له. ولعل الأمر لكذلك بالأحرى، ولعل التعلق بالأم مقدَّر عليه التلاشي لأنه الأول ولأنه بالغ الشدة، وهذا ما قد تمكن ملاحظته لدى المرأة الصبية في زواجها الأول الذي يتوِّج ذروة حبها. ففي الحالين كليهما تكون خيبات الأمل محتومة، ويؤدي تكدس الحاثات العدوانية إلى تقويض الموقف الحبِّي. وفي العادة تكون الزيجات الثانية أحسن مآلاً.

لا يسعنا أن نمضي إلى حدّ التوكيد بأن ازدواجية التوظيفات العاطفية قاعدة سيكولوجية ذات صلاحة عامة، وبأنه من المستحيل على الأخص الشعور بحبّ



كبير تجاه شخص من الأشخاص من غير أن يقترن بكره قد لا يقلّ عنه شأناً، أو العكس بالعكس. وما من شك في أن الإنسان السويّ والراشد يفلح في تمييز الموقفين واحدهما من الآخر، فلا يكره موضوعه الحبّي، ولا يعدّ نفسه ملزماً بأن يحبّ عدوه. لكن هذا يبدو ناجماً عن تطورات لاحقة. أما في الأطوار الأولى من الحياة الحبّية فإن الازدواجية تكون على نحو مكشوف هي السارية المفعول. ولدى الكثيرين من الأشخاص تبقى هذه السمة البالغة القدم ملازمة لهم طوال حياتهم؛ وإنه لمن العلامات الفارقة للأشخاص المصابين بالعصاب الوسواسي أن الحب والكره يتوازنان في علاقاتهم الموضوعانية. ولدى البدائيين أيضاً في مقدورنا أن نؤكد غلبة الازدواجية. وعلى هذا، إن صلة البنت الصغيرة الوثيقة بأمها لا بدّ أن تكون على أساس هذا الفرض مطبوعة بقوة بطابع الازدواجية؛ ومن ثم لا بدّ أن تجد البنت الصغيرة نفسها مضطرة، من جراء هذه الازدواجية تحديداً، وبتضافر عوامل أخرى، إلى الإشاحة عن أمها؛ وهذه هي، مرة أخرى، نتيجة إحدى الخصائص العامة للجنسية الطفلية.

في مواجهة محاولة التفسير هذه ينهض للحال سؤال: كيف يمكن، والحال هذه، للصبيان الصغار أن يحافظوا على صلتهم بالأم مع أنها بكل تأكيد لا تقلّ وثاقة عن صلة البنت الصغيرة بها؟ ونحن على أهبة للإجابة حالاً: لأنه في مستطاعهم أن يصفّوا تصفية كاملة كل ازدواجيتهم إزاء الأم بإلقائهم بكل مشاعرهم العدائية على الأب. ولكن لا يجوز لنا، أولاً، أن نعطي هذا الجواب قبل أن ندرس بعمق المرحلة القبأوديبية لدى الصبي، ومن الأحصف بكثير في أرجح الظن، ثانياً، أن نقرّ بأننا لا نفهم بعد عميق الفهم هذه السيرورات التي تعرَّفنا إليها لتوّنا فحسب.

(٣)

ثمة سؤال آخر: ماذا تطلب البنت الصغيرة من أمها؟ وما طبيعة أهدافها الجنسية في زمن صلتها الحصْرية بأمها؟ إن الجواب الذي نقبسه من معين المادة التحليلية يطابق كل المطابقة توقعاتنا. فالأهداف الجنسية للبنت الصغيرة حيال أمها هي من طبيعة إيجابية وسلبية في آن معاً، إذ إنها متعينة بالمرحلة الليبيدوية



التي تجتازها الطفلة. وعلاقة الإيجابية بالسلبية تستأهل هنا أن نوليها اهتماماً خاصاً. فمن اليسير أن نلاحظ أن الانطباع الذي يكون له في نفس الطفل وقع سلبي يولِّد لديه ميلاً إلى رد فعل إيجابي، وهذا ليس في المضمار الجنسي وحده، وإنما أيضاً في سائر مضامير الحياة النفسية. فهو يسعى إلى أن يفعل هو نفسه ما كان فُعل به أو معه من قبل. وهذا جانب من المهمة المطلوبة منه للسيطرة على العالم الخارجي، والتي من شأنها هي نفسها أن تقود الطفل إلى محاولة تكرار انطباعات وخبرات كان يفترض به أن يتحاشاها بسبب مضمونها المستكره. وحتى ألعاب الأطفال قد توظَّف في خدمة هذا التصميم على تكميل تجربة معاشة سلبية بسلوك إيجابي، وبنوع ما على إلغاء هذه التجربة. فحين يفتح الطبيب فم الطفل، الذي يتمنَّع، ليرى ما بداخل حلقه، فإنه ما إن يبارح الطبيب المكان حتى يبادر الطفل إلى لعب دوره ويكرر امتحان القوة هذا على أخ له أو أخت أصغر منه سناً ولا طاقة لهما على مواجهته مثلما كان هو نفسه بلا حول ولا قوة في مواجهة الطبيب. ولا نستطيع أن نتجاهل ما ينطوي عليه هذا الموقف من تمرد على السلبية وعلى إيثار للدور الإيجابي. بيد أن هذا القلب للسلبية إلى إيجابية غير مطَّرد التكرار، وبالقوة ذاتها، لدى جميع الأطفال؛ وقد ينعدم لدى بعضهم بالمرة. وبوسعنا أن نستخلص من سلوك الطفل هذا استنتاجات بصدد ما سيظهره في حياته الجنسية من قوة نسبية لكل من الذكورة والأنوثة.

إن أولى الخبرات الجنسية أو المصبوغة بصبغة جنسية، التي يعيشها الطفل مع أمه، هي بالبداهة من طبيعة سلبية. فالأم ترضعه وتطعمه وتنظِّفه وتلبسه وتوجِّهه في أفعاله كافة. ويبقى جزء من ليبيدو الطفل مثبَّتاً على هذه الخبرات ويتمتع بالإشباعات المرتبطة بها، ويسعى جزء آخر إلى تحويل هذه الخبرات إلى نشاط إيجابي. فهو يستبدلَ بادئ ذي بدء إرضاع ثدي الأم له بمصٍّ إيجابي لهذا الثدي. ويكتفي الطفل في الميادين الأخرى إما بالاستقلال الذاتي، فينجز بمفرده ما كان يُفعل معه إلى ذلك الحين، وإما بالتكرار الإيجابي أثناء اللعب لخبراته السالبة، وإما باتخاذ أمه موضوعاً بملء معنى الكلمة، فيتصرف إزاءها باعتباره ذاتاً فاعلة. ولأمد طويل من الزمن بدا لي هذا الاحتمال الأخير، الذي يندرج في



عداد الإيجابية الخالصة، مما لا يصدق، إلى أن قشعت التجربة كل شك بهذا الصدد.

يندر أن نسمع من يقول إن بنتاً صغيرة تريد أن تغسل أمها أو أن تلبسها أو أن تعلِّمها النظافة. صحيح أنه يتَّفق لها أن تقول: «لنلعب الآن لعبة الماما، أنا الأم وأنت الطفلة»، لكنها تحقق في أغلب الأحيان هذه الرغبات الإيجابية بصورة غير مباشرة، من خلال لعبها مع دميتها، إذ تتصور نفسها هي الأم، والدمية هي الطفلة. وإن ما تبديه البنات من إيثار، على العكس من الصبيان، لأن يلعبن مع دُماهن يُفسَّر في العادة على أنه علامة على أنوثة بكَّرت إلى الاستيقاظ. وهذا التفسير لا يجانب الصواب، بيد أنه لا يجوز أن يغرب عنا أن الجانب الإيجابي من الأنوثة هو الذي يفصح عن نفسه على هذا النحو، وأن إيثار البنت هذا ينمّ بوجه الاحتمال عن حصرية علاقتها بالأم مع الإغفال التام للموضوع/ الأب.

إن النشاط الجنسي الباعث على عظيم الدهشة للبنت في علاقتها بأمها يتجلى على التوالي في نوازع فموية، وسادية، وأخيراً قضيبية، تُوجَّه نحو الأم. ومن العسير بيان ذلك بصورة مفصَّلة، إذ إن هذه النوازع لا تعدو أن تكون في أغلب الأحيان حاثات غريزية غامضة مبهمة؛ والطفلة لا تستوعب نفسياً هذه الحاثات لحظة ظهورها، ولهذا السبب لا تستطيع أن تعطيها تأويلاً إلا آجلاً؛ ثم لا تلبث هذه الحاثات بعد ذلك أن تتجلى في أثناء التحليل من خلال أنماط تعبيرية ما هي بالتأكيد أنماطها الأصلية. وقد نلتقيها أحياناً في صورة تحويلات نحو الموضوع الأبوي اللاحق حيث لا مكان لها، فتشوِّش علينا بصورة محسوسة الفهم. ونلتقي الرغبات الفموية العدوانية والرغبات السادية في الصورة التي اتخذتها تحت وطأة الكبت، أي في صورة خوف لدى البنت من أن تقتلها الأم، وهذا الخوف يبرر بدوره الرغبة في موت الأم، متى ما أخذت هذه الرغبة طريقها إلى الشعور. ومن المستحيل أن نحدد مدى ارتكاز هذا الخوف من الأم إلى عدائية لاشعورية من جانب الأم عينها، وهي عدائية ترهص بها الطفلة حدساً (لم ألتقِ حتى اليوم إلا لدى الرجال بالخوف من أن يُفترسوا؛ ويرتبط هذا الخوف بالأب، لكنه ينتج في أرجح الظن عن تحول للعدوان الفموي الموجَّه نحو الأم. فالطفل

يرغب في أن يفترس الأم التي تقيته؛ أما الأب فلا وجود لأي عامل من شأنه أن يولِّد مثل هذه الرغبة في افتراسه).

إن الإناث اللائي تأتَّى لي أن أدرس المرحلة القبأوديبية عندهن، واللائي تتسم رابطتهن بالأم بالقوة والمتانة، قد أجمعن على القول إنه كان من عادتهن أن يواجهن بمقاومة شديدة الغسول والحقن المعوية التي كانت الأم تريد إعطاءها لهن وإنه كان من عادتهن أن يقابلن ذلك بالقلق وبصراخ حانق. وقد يكون هذا سلوكاً دارجاً جداً أو مطرداً جداً لدى الأطفال. وإنني أدين لروث ماك برونشفيك BRUNSWICK، التي اهتمت بهذه المشكلة في وقت واحد معي، بفهمي لأساس هذا التمرد البالغ القوة. فقد كان يطيب لروث ماك برونشفيك أن تقارن ذلك الصراخ الحانق بعد الحقنة الشرجية بالرعشة بعد الإثارة التناسلية. أما الحصر فينبغي فهمه في رأيها على أنه تحوُّل للذة العدوانية التي نبَّهتها تلك الحقن. واعتقادي أن هذا كله مطابق للواقع: فالحثّ القوي السلبي للمنطقة المعوية، في المرحلة السادية ـ الشرجية، يستتبع كاستجابة تفجراً للذة العدوانية التي تفصح عن نفسها مباشرة في صورة غضب، أو من جراء قمعها في صورة حصر. ويبدو أن هذه الاستجابة تتوقف في السنوات اللاحقة.

في ظل سيادة الحاثات السلبية للمرحلة الفالوسية نلاحظ أن البنت تتهم الأم باطراد بغوايتها لأنها استشعرت أحاسيسها التناسلية الأولى، أو على كل حال الأقوى، في أثناء تغسيلها أو في أثناء بذل العناية البدنية لها من قبل الأم (أو من يمثِّلها من الأشخاص المكلَّفين بالأطفال). وكثيراً ما أخبرتني الأمهات أنهن لاحظن أن بناتهن الصغيرات، اللائي لهن من العمر سنتان أو ثلاث سنوات، تطيب لهن تلك الأحاسيس وأنهن يسألن أمهاتهن أن يكررن تلك الملامسات والمعكات. ولئن ظهر الأب باطراد في تخييلات السنوات اللاحقة على أنه هو المغوي الجنسي، فالتبعة في ذلك تقع، في رأيي، على الأم التي لا يمكنها أن تتحاشى افتتاح المرحلة الفالوسية لدى الطفلة. فبالتواقت مع الإشاحة عن الأم، يتمّ أيضاً تسجيل الدخول في الحياة الجنسية في حساب الأب.

في المرحلة الفالوسية تطرأ أيضاً حاثات رغبية إيجابية بالغة القوة تجاه الأم.



فالنشاط الجنسي لهذه المرحلة يبلغ أوجه في الاستمناء البظري؛ وأرجح الظن أن ذلك يترافق بحضور تخيُّلي للأم، لكن خبرتي لا تأذن لي بأن أخمِّن ما إذا كان ذلك يتأدى بالطفلة إلى تصور هدف جنسي وما كنه هذا الهدف. وليس في مستطاع الطفلة أن تتعرف بوضوح إلى مثل هذ الهدف إلا متى جاء ميلاد أخ صغير أو أخت صغيرة ليعطي اهتماماتها كافة حفزة جديدة. فالبنت الصغيرة، مثلها مثل الصبي الصغير، تودّ لو كانت هي التي استولدت أمها هذا الطفل الجديد. وردّ فعلها إزاء هذا الحدث وسلوكها حيال الطفل مماثلان لما هما عليه لدى الصبي. قد يبدو هذا بعيداً عن المعقول، ولكن ربما كان ذلك فقط لأنه يبدو لنا غير مألوف.

إن واقعة إشاحة البنت الصغيرة عن الأم خطوة بليغة الدلالة في طريق نموّ البنت وتطورها، وهي أكثر من مجرد تغيير للموضوع. وقد سبق لنا أن وصفنا أصل هذه الواقعة وتعدد تحفيزاتها المفترضة، ونضيف الآن أنه ينبغي، جنباً إلى جنب مع هذه الواقعة، أن نلاحظ انخفاضاً قوياً في الحاثات الجنسية الإيجابية وارتفاعاً في الحاثات الجنسية السلبية. صحيح أن النوازع الإيجابية عانت من الإحباط بقوة أشدّ، إذ اتضح أنها غير قابلة على الإطلاق للتحقيق وسيكون بالتالي من الأسهل على الليبيدو أن يتخلى عنها، غير أن النوازع السلبية عانت هي الأخرى من الخيبة وانقشاع الوهم. وغالباً ما يتمّ الإقلاع، في آن واحد مع واقعة الإشاحة عن الأم، عن الاستمناء البظري؛ وفي كثير من الأحيان، وعقب كبت الذكورة التي كانت نمَت حتى ذلك الحين لدى البنت الصغيرة، يصاب بتلف دائم شطرٌ لا يستهان به من نوازعها الجنسية بوجه عام. ويتم الانتقال إلى الموضوع/ الأب بمعونة النوازع السلبية بقدر ما يُقيَّض لهذه الأخيرة أن تبقى على قيد الوجود. ويصبح طريق نمو الأنوثة الآن سالكاً بالنسبة إلى البنت، وذلك بقدر ما لا تعيقه مخلفات الرابطة بالأم، أي الرابطة القبأوديبية التي تمّ لها الظهور عليها.

إذا ألقينا الآن نظرة إجمالية على ذلك الشطر من التطور الجنسي المؤنث الذي أتينا بوصفه هنا، نجدنا غير مستطيعين إلا أن نصدر حكماً معيَّناً على الأنوثة في



جملتها. فقد رأيناها مسرحاً تفعل فيه فعلها القوى الليبيدوية عينها التي تنشط لدى الطفل من الجنس المذكر، وقد أمكن لنا أن نقتنع بأن الطريق الذي يتمّ اجتيازه، في هذه الحالة كما في تلك، واحد، وبأن النتائج التي يتمّ الوصول إليها واحدة.

ولا تلبث بعدئذ أن تتدخل عوامل بيولوجية لتحرف تلك القوى عن الأهداف التي كانت لها في بداية الأمر، ولتوجِّه نحو طريق الأنوثة نوازع إيجابية، مذكرة بكل معاني الكلمة. وبما أننا لا نستطيع أن نرفض عزو التهيُّج الجنسي إلى تأثير بعض المواد الكيماوية، فقد نجدنا ميالين إلى أن نتوقع أن تكشف لنا الكيمياء الحيوية ذات يوم عن مادة من شأنها فيما إذا وجدت أن تولِّد التهيج الجنسي المذكر وعن مادة أخرى تفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى التهيج الجنسي المؤنث. بيد أن هذا الأمل لا يبدو أقل سذاجة من الأمل ـ الذي تمّ تجاوزه لحسن الحظ اليوم ـ في التوصل بواسطة المجهر إلى اكتشاف العوامل التي تتسبب، كلاً على حدة، في الهستيريا والعصاب الوسواسي والسويداء، إلخ.

إن الأمور لا بدّ أن تكون حتى في الكيمياء الجنسية أشدّ تعقيداً، ولكن سيان عند علم النفس أن يكون في الجسم مادة واحدة مهيِّجة جنسياً أو مادتان أو جملة كبيرة من مواد من هذا القبيل. أما التحليل النفسي فيعلِّمنا أن نتدبر أمرنا ونقنع بوجود ليبيدو واحد يعرف على كل حال أهدافاً ـ أي أنماطاً للإشباع ـ إيجابية وسلبية معاً. وإنما في هذا التعارض، وقبل كل شيء في وجود نوازع ليبيدوية ذات أهداف سلبية، تكمن بقية المشكلة.

(٤)

عندما نتفحص الأدبيات التحليلية المتصلة بموضوعنا، نقتنع بأن كل ما عرضته هنا موجود فيها أساساً. وربما ما كانت لتكون هناك جدوى من نشر هذا البحث لولا أنه من المفيد دوماً، في مضمار يعسر أشد العسر النفاذ إليه، إيراد تجارب خاصة وتصورات شخصية. وهناك، فضلاً عن ذلك، نقاط عديدة قد أوضحتها وأفردتها عن غيرها على نحو أفضل. وفي بعض النصوص الأخرى التي عالجت المسألة ذاتها كان محتماً أن يجيء عرض الوقائع محفوفاً بالالتباس نظراً إلى



مناقشة مشكلات الأنا الأعلى والشعور بالذنب في الآن نفسه. وهذا ما تحاشيته هنا؛ وفي وصفي لمختلف مخارج مرحلة النمو هذه لم أعالج أيضاً التعقيدات التي تظهر متى ما عادت الطفلة، وقد خيَّب أبوها أملها، إلى صلتها بالأم بعد أن كانت فصمتها، أو متى تنقلت تكراراً على مدى حياتها بين موقف وآخر. ولكن على وجه التحديد لأن بحثي هذا لم يكن إلا مساهمة ضمن جملة مساهمات، فقد أمكنني أن أوفِّر على نفسي مشقة المراجعة الدقيقة للأدب المكتوب في الموضوع، وتيسَّر لي أن أحدَّ بحثي بإبراز أهم نقاط الاتفاق مع بعض من البحوث الأخرى، وكذلك أهم نقاط الاختلاف مع بعضها الآخر.

كنت أحبِّذ لو أن بحث أبراهام ABRAHAM، الذي ما تخطاه أحد بعد، عن «**تظاهرات عقدة الخصاء لدى المرأة**» في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ٧، ١٩٢١، أخذ بعين الاعتبار عامل الرابطة الحَصْرية بأمِّ الطور الأول. ولا بدّ لي كذلك من أن أفصح عن اتفاقي، بصدد النقاط الأساسية، مع حنة لامبل دي غروت[٨] في بحثها المهم[٩]. فهذه الكاتبة تقول بتماثل المراحل القبأوديبية لدى كل من الصبي والبنت، وتؤكد وجود النشاط الجنسي (الفالوسي) لدى البنت تجاه الأم، وتغنيه بالملاحظات. فهي تردّ واقعة الإشاحة عن الأم إلى تأثير المعرفة بالخصاء التي ترغم الطفلة على العزوف عن الموضوع الجنسي، وفي الوقت نفسه عن الأونانية أيضاً في أحيان كثيرة. وتختصر في ذلك المقال هذا التطور كله في الصيغة التالية: إن البنت تجتاز مرحلة «سالبة» من عقدة أوديب قبل أن يتاح لها الدخول في المرحلة الموجبة. لكن وجه القصور في هذا المبحث أنه يصوِّر واقعة الإشاحة عن الأم على أنها مجرد تغيير للموضوع من دون أن يسلِّم بأن ذلك يتمّ مصحوباً بأجلى علائم العدائية. وهذه العدائية تجاه الأم تقدِّرها حقَّ قدرها هيلين دويتش في مقالها الأخير: «**المازوخية المؤنثة وصلتها بالبرودة**»، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٦، ١٩٣٠، وفيه تقرّ أيضاً بالنشاط القضيبي لدى البنت وبشدّة تعلّقها بأمها. وتشير هـ. دويتش كذلك إلى أن واقعة

٨ ـ صُحِّح هنا، بحسب رغبة الكاتبة، اسمها الذي كانت المجلة أوردته كما يلي: أل. دي غر.

٩ ـ **تاريخ تطور عقدة أوديب لدى المرأة**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٣، ١٩٢٧.



التحول نحو الأب تتمّ عن طريق الميول السلبية (التي سبق توظيفها في العلاقة مع الأم). أما في المؤلَّف الذي نشرتْه سابقاً: **التحليل النفسي للوظائف الجنسية المؤنثة**، ١٩٢٥، فلم تكن قد أعفت نفسها بعد من تطبيق المخطط الأوديبي على المرحلة القبأوديبية؛ ومن ثم أوَّلت نشاط البنت الفالوسي على أنه تماهٍ مع الأب.

يلحّ فينيخل FENICHEL[١٠] بسداد في مقاله حول «**التاريخ القبتناسلي لعقدة أوديب**»، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٦، ١٩٣٠، على صعوبة التمييز في المعطيات التي يتمّ تجميعها في أثناء التحليل بين ما هو مضمون لا تغيير فيه للمرحلة القبأوديبية وبين ما جرى تحريفه نكوصياً (أو بطريقة أخرى). وهو لا يعترف بنشاط البنت الفالوسي كما وصفته حنة لامبل دي غروت، ويحتجّ أيضاً على ما صوَّرته ميلاني كلاين KLEIN[١١]، في مقالها عن «**الأطوار الابتدائية للعقدة الأوديبية**» في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٤، ١٩٢٨، على أنه تسبيق لعقدة أوديب التي تُرجِع زمنها إلى مطلع السنة الثانية من العمر. والحق أن هذا التاريخ، الذي يعدِّل بالضرورة أيضاً تصورنا لسائر معطيات النمو وظروفه، لا يتفق مع نتائج تحليل الراشدين، ويتنافى بوجه خاص مع كشوفي عن طول مدة التعلق القبأوديبي بالأم لدى البنات. ومن الممكن التلطيف من حدّة هذا التناقض إذا ما لاحظنا أننا لا نستطيع بعد، في هذا المضمار، التفرقة بين ما هو مثبَّت بحكم القوانين البيولوجية وما هو قابل لأن يتبدل ويتنوع تحت تأثير صروف الحياة. وكما نعلم منذ عهد بعيد بخصوص أثر الغواية، فإن ثمة عوامل أخرى قد تتسبب في تسريع نمو الطفل الجنسي وإنضاجه، ومنها: أوان ولادة إخوة له وأخوات، وأوان اكتشاف الفارق بين الجنسين،

١٠ ـ أوتو فينيخل: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٩٧ ـ ١٩٤٦). اتصل بفرويد عام ١٩١٨ ونُفي عام ١٩٣٣ إلى الدانمرك ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية، وانتمى إلى التيار الماركسي الفرويدي. من مؤلفاته: **النظرية التحليلية النفسية للأعصبة**. «م».

١١ ـ ميلاني كلاين: محللة نفسية بريطانية من أصل نمساوي (١٨٨٢ ـ ١٩٦٠). كانت لها ريادة في مجال التحليل النفسي للأطفال، وإن كانت لها مواقف خلافية مع المحللين النفسيين «الأورثوذكسيين». من مؤلفاتها: **التحليل النفسي للأطفال، عقدة أوديب، الحسد وعرفان الجميل، الحب والحقد**. «م».



والمشاهدة المباشرة للعلاقة الجنسية، وتصرف الأهل التشجيعي أو التحظيري، إلخ.

يميل عدد من الباحثين إلى الانتقاص من أهمية الحاثات الليبيدوية الأولى والأكثر ابتدائية لدى الطفل لصالح سيرورات النمو اللاحقة، بحيث لا يبقى لهذه الحاثات من دور - في الحالات القصوى - سوى الإشارة إلى بعض الاتجاهات، على حين أن بعض النكوصات والتشكيلات الارتجاعية اللاحقة هي التي تكون على درجة كافية من الشدة لتسلك هذه الطرق. هكذا ترى هورني HORNEY[١٢]، مثلاً، في مقالها عن «**الهرب خارج الأنوثة**»، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٢، ١٩٢٦، أننا نغالي كثيراً في أهمية الحسد القضيبي الأولي لدى البنت، على حين أنه ينبغي أن نعزو شدة النازع المذكر الذي يفصح عن نفسه لاحقاً إلى حسد قضيبي ثانوي يفيد في توفير الحماية ضد الحاثات المؤنثة، وعلى وجه الخصوص ضد العلاقة المؤنثة بالأب. وهذا لا يتوافق مع انطباعاتي. فمهما تكن مؤكدة واقعة التعزيزات اللاحقة عن طريق النكوص والتشكيل الارتجاعي، ومهما يكن عسيراً تقييم الأهمية النسبية للمقومات الليبيدوية التي تتساتل وتتلاقى، فإني أعتقد أنه لا يجوز لنا أن ننسى أن هذه الحاثات الليبدوية الابتدائية تتسم بدرجة من الشدة أعلى من تلك المتاحة للحاثات اللاحقة، وهذا إلى حدٍّ نستطيع أن نقول عنه بكل معنى الكلمة إنه لا يضاهى. ومن المحقق أنه من الصواب القول إن هناك تضاداً بين العلاقة بالأب وبين عقدة الذكورة - وذلك هو التعارض العام بين الإيجابية والسلبية، بين الذكورة والأنوثة - لكن ذلك لا يعطينا البتة الحق في أن نقول إن واحدة منهما فحسب هي الأولية بينما لا تدين الثانية بقوتها إلا للدفاع. فلئن أفلح الدفاع ضد الأنوثة في أن يكون على ذلك القدر الكبير من القوة، فمن أين له أن يستمدّ هذه القوة إن لم يكن من النازع إلى الذكورة الذي وجد تعبيره الأول في الحسد

١٢ - كارين هورني: محللة نفسية ألمانية من أصل هولندي ونرويجي (١٨٨٥ - ١٩٥٢). تولى تحليلها كارل أبراهام واختلفت معه، وبالتالي مع فرويد، حول دور الحسد القضيبي في الجنسية النسوية مرتئية أن في هذه الفرضية إهانة للمرأة. وقد أُنتقدت بدورها من قبل ثيودور أدورنو على مفارقتها للمواقف الفرويدية المكرَّسة. من مؤلفاتها: **تحليل الذات**، **الشخصية العصابية في عصرنا**، **سيكولوجيا المرأة**. «م».



القضيبي الذي تفصح عنه الطفلة والذي يستأهل بالتالي أن يسمى بالإحالة إليه؟

إن اعتراضاً كهذا يمكن أن يوجَّه إلى تصور جونز JONES[١٣] في مقاله عن «**النمو الأول للجنسية المؤنثة**»، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، السنة ١٤، ١٩٢٨، إذ يرى أن الطور الفالوسي لدى البنت لا بدّ أن يكون استجابة حمائية ثانوية أكثر منه طوراً حقيقياً من أطوار النمو. والحال أن هذا لا يتمشى مع المعطيات الدينامية ولا مع المعطيات الزمانية.

١٣ ـ إرنست جونز: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بسيرة حياة فرويد التي وضعها بعنوان **حياة فرويد وأعماله**، ومؤسس **الجمعية البريطانية للتحليل النفسي**. له دراسات تحليلية في الفن واللغة والأنتروبولوجيا، وقدَّم مساعدة كبيرة للمحللين النفسيين الذين لجؤوا إلى إنكلترا فراراً من الاضطهاد النازي. «م».




مكتبة
الفكر الجديد

ـ ١٤ ـ

أنماط ليبيدوية
(١٩٣١)

تدلنا مشاهداتنا أن الكائنات البشرية تحقق فردياً الصورة العامة للإنسانية بتنوُع يكاد يكون غير محدود. فإن سلَّمنا بضرورة التمييز بين أنماط فردية في هذا الحشد ـ وهي ضرورة لها ما يبرِّرها ـ فسيكون خيارنا الأول أن نحدد أية خصائص ومن أي منظور ينبغي أن نقوم بتلك التفرقة. ومن المؤكد أن السمات البدنية ليست أقل قابلية للتعويل عليها، لبلوغ هذا الهدف، من السمات النفسية؛ فأثمن التمايزات إطلاقاً هي تلك التي تجمع قياسياً بين الخصائص البدنية والنفسية معاً.

إنه من المشكوك فيه أن نتمكن من الآن من العثور على أنماط ليبيدوية تستجيب لهذه الشروط، ولكننا سنتوصل بالتأكيد إلى العثور في زمن لاحق على أنماط كهذه على أساس لا يزال مجهولاً بعد. أما إذا قصرنا جهودنا الآن على رسم أنماط سيكولوجية خالصة، فإن مضمار الليبيدو سيكون هو أول ما يطالب باتخاذه قاعدة للتوزيع. ومن حقنا أن نتطلب ألا يتحدد هذا التوزيع بما نعرفه أو نفترضه بخصوص الليبيدو فحسب، بل أن نتمكن أيضاً من الاهتداء بسهولة إليه على الصعيد الاختباري، وأن يسهم، من جانبه، في توضيح كتلة ملاحظاتنا ومشاهداتنا دعماً لأطروحتنا. وبوسعنا أن نسلِّم، دونما صعوبة، بأنه لا حاجة البتة، حتى في المضمار النفسي، إلى أن تكون هذه الأنماط الليبيدوية هي الوحيدة الممكنة، وبأننا لو انطلقنا من صفات وكيفيات أخرى فلربما أمكننا أن نقرر مجموعة بكاملها من أنماط سيكولوجية أخرى. على أنه من المهم ألا تتطابق هذه الأنماط مع لوحات سريرية بعينها، بل ينبغي على العكس أن تشمل جميع



الأصناف التي يدرجها تقييمنا، الموجَّه توجيهاً عملياً، في عداد ما هو سويّ. بيد أنها تبقى قابلة، في تشكيلاتها القصوى، لأن تضارع اللوحة السريرية وتساعد من ثمّ على ردم الهوة المزعومة بين السويّ والمرضيّ.

بوسعنا أن نميِّز، عندئذ، ثلاثة أنماط ليبيدوبة رئيسية بحسب الموقع الذي يشغله الليبيدو في مناطق الجهاز النفسي. وليس من اليسير أن نعطيها اسماً؛ على أنه في مقدوري، طبقاً لنظريتنا عن الأعماق النفسية، أن أصفها بأنها نمط **إيروسي** ونمط **وسواسي** ونمط **نرجسي**.

من الممكن تحديد مواصفات النمط **الإيروسي** بسهولة. فالإيروسيون أشخاص ينصبّ اهتمامهم الرئيسي ـ الشطر الأكبر نسبياً من الليبيدو عندهم ـ على الحياة الحبِّية. فالأهمّ الأهمّ في نظرهم أن يُحِبوا، وبوجه خاص أن يُحَبوا. وهم يرزحون تحت هاجس الخوف من أن يفقدوا الحب، ومن ثم، إنهم يعيشون في تبعية للآخرين الذين يمكن لهم أن يحرموهم من هذا الحب. وهذا النمط غالباً ما نلتقيه حتى في شكله الخالص. وتوجد له تنوعات تبعاً لتمازجه مع نمط آخر ولنسبة العدوانية المزامنة له. ويمثِّل هذا النمط، من وجهة النظر الاجتماعية كما من وجهة النظر الحضارية، المطالب الغريزية الابتدائية للهذا الذي تكون سائر الهيئات النفسية قد أمست طوع بنانه.

أما النمط الثاني الذي أطلقت عليه اسماً قد يبدو غريباً للوهلة الأولى ـ النمط **الوسواسي** ـ فيتميَّز بغلبة الأنا الأعلى الذي ينفصل عن الأنا في حالات التوتر المرتفع. ويرزح هذا النمط تحت هاجس قلق الضمير بدل أن يرزح تحت هاجس القلق من فقدان الحب. وهو يدلل على تبعية داخلية، إن جاز التعبير، لا على تبعية خارجية، ويبدي عن مقدار مرتفع من الثقة بالنفس ويغدو، من المنظور الاجتماعي، الركيزة الحقيقية، وعلى الأخص المحافِظة، للحضارة.

أما النمط الثالث، المسمى بحق **بالنرجسي**، فلا سبيل إلى توصيفه إجمالاً إلا سلبياً. فلا وجود عنده لتوتر بين الأنا والأنا الأعلى ـ فعلى أساس نمط كهذا يكاد يتعذر الوصول إلى تقرير وجود أنا أعلى ـ كما لا غلبة عنده للحاجات الإيروسية، إذ إن اهتمامه الرئيسي منصبّ على الحفاظ على نفسه: فهو مستقل بذاته، ولا



سبيل إلى ترهيبه. ويكون في متناول الأنا كمّ كبير من العدوانية يتمثل أيضاً في وقوفه على أهبة الاستعداد للعمل. أما في الحياة الحبِّية فيؤثر أن يحِبّ على أن يكون محبوباً. ومن ينتمِ إلى هذا النمط من الناس يفرض نفسه على الآخرين باعتباره «شخصية»؛ وهوَ أهل ليكون للآخرين سنداً، وليتولى دور القائد، وليعطي التطور الحضاري حفزة جديدة أو ليتعدى على ما هو قائم.

إن هذه الأنماط الخالصة لن تفلت إلا بلأي من شبهة تفرُّعها عن نظرية الليبيدو. ولكن لو التفتنا إلى الأنماط المزيجة التي يمكن رصدها بتواتر أكبر بكثير من الأنماط الخالصة، لشعرنا بأننا نقف فوق أرضية التجربة الموثوقة. وبالفعل، إن هذه الأنماط الجديدة، وأعني بها النمط **الإيروسي/ الوسواسي والنمط الإيروسي/ النرجسي والنمط الوسواسي/ النرجسي**، تتيح لنا فيما يبدو أن نحدِّد بدقة مواقع البنى النفسية الفردية كما تعلَّمنا أن نتعرَّفها في التحليل. فإذا تتبَّعنا هذه الأنماط المزيجة انتهينا إلى نماذج طبائعية مألوفة لدينا منذ زمن بعيد. ففي النمط **الإيروسي/الوسواسي** تبدو غلبة الحياة الغريزية محدودة بتأثير الأنا الأعلى؛ ولدى هذا النمط تدرك التبعية المتزامنة لمواضيع إنسانية حديثة ولمخلفات الوالدين والمربين والأشخاص المقتدى بهم أعلى درجاتها. أما النمط **الإيروسي/ النرجسي** فربما كان النمط الذي ينبغي أن نفترض أنه الأكثر تواتراً. وهو يجمع بين متناقضات يخفِّف الواحد منها من غلواء الآخر؛ وإذا ما قارنَّا بينه وبين النمطين الإيروسيين الآخرين[1]، فقد يفيدنا بأن العدوان والإيجابية يتمشيان تماماً مع غلبة النرجسية. وأخيراً، إن النمط الوسواسي/النرجسي ينتج نوعاً هو، من وجهة النظر الحضارية، الأعظم قيمة، إذ إنه يضيف إلى الاستقلال الخارجي ومراعاة المقتضيات الأخلاقية القدرة على التصرف الحازم، علاوة على أنه يعزز الأنا في مواجهة الأنا الأعلى.

قد يذهب بعضهم إلى الظن بأنه لن يكون إلا مازحاً فيما لو سألَنا لماذا لا نذكر هنا نمطاً آخر ممكناً من الناحية النظرية، ونعني به **النمط الإيروسي/ الوسواسي/النرجسي**. غير أن الجواب عن هذا المزاح سيكون جواباً جاداً: فنمط

---

١ ـ يقصد النمط الإيروسي/الوسواسي والنمط الوسواسي/النرجسي. «م».



كهذا لن يعود في هذه الحال نمطاً، بل سيكون هو الشكل المطلق، التساوق الأمثل. وهنا ندرك أن ظاهرة النمط تنبع تحديداً من واقع أن واحداً أو اثنين من الاستعمالات الرئيسية الثلاثة لليبيدو في التنظيم النفسي قد رُجِّحت كفته على حساب الباقي.

من الممكن للمرء أن يتساءل أيضاً عن العلاقة بين هذه الأنماط الليبيدوية وبين أسباب نشوء الأمراض: فهل لدى بعض هذه الأنماط استعداد أكثر من سواها للإصابة بالعصاب؟ وفي هذه الحال ما الأنماط التي تتأدى إلى هذا الشكل أو ذاك من أشكال العصاب؟ وسيكون الجواب أن عرضنا لهذه الأنماط الليبيدوية لا يلقي ضوءاً جديداً على تكوين الأعصبة. فالخبرة تدلّ على أن جميع هذه الأنماط يمكن أن توجد بلا عصاب. ويبدو أن الأنماط الخالصة، أي تلك التي تكون الغلبة فيها بلا منازع لهيئة نفسية واحدة، تتمتع بحظ موفور في أن تكون محض لوحات طبائعية خالصة، على حين أنه من المباح لنا أن نتوقع أن تقدِّم الأنماط المزيجة أرضية أكثر مواءمة لشروط العصاب. غير أنني أعتقد على كل حال أنه لا يجوز لنا أن نبتّ في أمر هذه العلاقات قبل أن نقوم بتحقيق خاص ومدقِّق.

أما أن الأنماط الإيروسية تنتهي، في حال الوقوع في المرض، إلى الهستيريا، والأنماط الوسواسية إلى العصاب الوسواسي، فهذا أمر يبدو سهلاً أن نحدس به، ولكنه يبقى مع ذلك عرضة للتشكك الذي تقدمت الإشارة إليه. أما الأنماط النرجسية التي تبقى معرَّضة، رغم ما تتمتع به من استقلال في العادة، لإحباطات العالم الخارجي، فتنطوي على استعداد خاص للذهان، فضلاً عن أنها تنطوي أيضاً على شروط أساسية للإجرام.

معلوم أن الشروط الإتيولوجية للأعصبة لم تُعرف بعد على وجه يقيني. والظروف التي تتسبب في العصاب تتمثل بالإحباطات والصراعات الداخلية، أي الصراعات بين الهيئات النفسية الثلاث الكبرى[٢]، والصراعات في داخل اقتصاد الليبيدو بحكم الجبِلّة الجنسية الثنائية، والصراعات بين المقوِّمات الغريزية الإيروسية

٢ ـ تتألف النفسية في طبوغرافيا فرويد الثانية من ثلاث هيئات: الهذا والأنا والأنا الأعلى. «م».



والعدوانية. ويبذل علم نفس الأعماق[٣] قصاراه ليهتدي إلى ما يجعل من هذه السيرورات التي تنتمي إلى المجرى السويّ للحياة النفسية سيرورات إمراضية.

٣ ـ علم نفس الأعماق هو الاسم المرادف لعلم النفس التحليلي من حيث أنه علم اللاشعور بقدر ما هو علم الشعور. وقد بات يطلق لاحقاً، وحصراً، على علم النفس اليونغي. «م».



العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي



تقديم

أكثر ما يميِّز هذه المباحث الستة عشر المنشورة بين ١٩٠٨ و١٩٢٤ هو أنها لا تنطلق من النظرية لتنتهي إلى عرض حالات عينية، وعلى سبيل البيان والبرهان، بل تبدأ على العكس بعرض نماذج من أعراض وحالات عصابية قد تبدو، للوهلة الأولى على الأقل، مفارقة للأطروحات الأساسية للنظرية التحليلية النفسية وغير قابلة للفهم بمجرد التطبيق الميكانيكي لتلك الأطروحات. أضف إلى ذلك أن الحقبة الزمنية الطويلة نسبياً ـ نحوا من خمسة عشر عاماً ـ التي تتالت فيها كتابة تلك المباحث قد شهدت تطوراً مرموقاً في المدوّنة النظرية للتحليل النفسي. والحال أن ما يميِّز النظرية العلمية عن الإيديولوجيا هو قابليتها لإعادة النظر وللتطوير على ضوء الممارسة المتراكمة، وذلك على عكس حال الإيديولوجيا التي لا ترجع إلى الممارسة إلا بهدف إثبات صحة أطروحاتها. وكما كان يحلو لفرويد أن يستشهد بقولة لطبيب الأعصاب المشهور في زمانه جان مارتن شاركو: «النظرية شيء حسن، ولكنها لا تمنع الأشياء من أن توجد»، كذلك فإن الحالات التي يوردها فرويد في هذه المباحث الستة عشر تبدو وكأنها تضيء النظرية نفسها بقدر ما تضيئها النظرية، مع كل ما يترتب على هذه الإضاءة المتبادلة من مزيد من ثقابة في الرؤية ومن تطور في المفاهيم.

وقد كنا اعتمدنا في ترجمة هذه النصوص، التي لم يُقيَّض لها أن تأخذ طريقها إلى القارئ العربي قبل اليوم، على الترجمة الفرنسية التي تولاها جان لابلانش، الخبير المشهود له بالمعجم التحليلي النفسي، بمشاركة دانييل غيرينو وآخرين، والتي صدرت عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٧٣. وقد استفدنا كذلك من الطبعة الفرنسية الكاملة لمؤلفات فرويد، والصادرة عن دار



النشر إياها بين عامي ١٩٩٢ و٢٠١٠، لندخل على ترجمتنا ما رأيناه ضرورياً من التعديلات.

ج.ط



(١)
الطبع والإيروسية الشرجية
(١٩٠٧)

ثمة نمط واسع الانتشار للغاية بين الأشخاص الذين يحاول التحليل النفسي أن يبذل لهم يد العون، وهو نمط يتصف باجتماع عدد من السمات الطبعية المحددة، علاوة على أن ما يجذب الانتباه في طفولة هؤلاء الأشخاص هو مسلك وظيفة بدنية معيَّنة والأعضاء ذات العلاقة. ولقد بات من المتعذر عليَّ اليوم أن أوضح الظروف الخاصة التي خطرت فيها ببالي فكرة وجود ارتباط عضوي بين مثل ذلك الطبع وبين مثل هذا المسلك العضواني، ولكن في وسعي أن أؤكد أن ما من توقع نظري مسبق أسهم في تكوين هذا الانطباع.

وبنتيجة الخبرة المتراكمة، تعزز اقتناعي بوجود ذلك الارتباط إلى الحدّ الذي أبيح معه لنفسي أن أجازف بالمجاهرة به.

إن الأشخاص الذين سأصفهم يسترعون الانتباه بجمعهم، بصورة قياسية مطردة، بين الخصائص المميزة الثلاث التالية: فهم يتصفون بوجه خاص **بحبّ الترتيب والاقتصاد والعناد**. وكل كلمة من هذه الكلمات تخفي وراءها، في الحقيقة، مجموعة صغيرة أو طائفة من السمات الطبعية التي تمتّ إلى بعضها بعضاً بصلة قربى. فحبُّ «الترتيب» يشمل أيضاً النظافة البدنية، والتدقيق الشديد في أداء أبسط الواجبات، والحرص على استئهال ثقة الآخرين. والطبع المحبّ للاقتصاد قد يغلو إلى حدّ البخل والشحّ. أما العناد فقد ينقلب إلى التحدي الذي يرتبط به بسهولة النزوع إلى النزق وسرعة الغضب والروح الانتقامية. وهاتان السمتان الأخيرتان ـ الاقتصاد والعناد ـ أقوى ترابطاً فيما بينهما منهما مع السمة الأولى: «حب الترتيب»، كما أنهما يمثلان العنصر الأكثر ثباتاً واستمرارية في



المركّب بجملته، وإن كان يتراءى لي بإلحاح آسر أن هذه السمات الطبعية الثلاث تتآزر فيما بينها بصورة أو بأخرى.

إن تاريخ الطفولة المبكرة لهؤلاء الأشخاص ينبئنا بيسر أن **التحكم بإخراج المحتوى المعوي**[1] قد اقتضاهم زمناً طويلاً نسبياً، وأنهم كانوا يشكون حتى في السنوات التالية من طفولتهم من خلل عارض في هذه الوظيفة. ويلوح أنهم كانوا من أولئك الأطفال الرضَّع الذين يمتنعون عن إفراغ معيهم عندما يوضعون فوق «القصرية»، لأنهم يجتنون غنماً إضافياً من اللذة من تغوُّطهم[2]. فهم يفيدوننا بالفعل أنهم كانوا لا يزالون يجدون متعة في إمساك برازهم حتى بعد أن تقدم بهم العمر قليلاً، ويستذكرون ضروباً شتى من أفعال غير لائقة فعلوها بالبراز الخارج من معيهم، وإن كان يطيب لهم أن يعزوها عن طواعية إلى إخوتهم وأخواتهم لا إلى أنفسهم. ومن هذه الدلائل والقرائن نستنتج وجود نشاطية شهوية قوية في المنطقة الشرجية محكومة بالجِبِلّة الجنسية التي قُيِّضت لهم. ولكن بما أن هؤلاء الأشخاص لا يعودون يكشفون متى ما اجتازوا طور الطفولة عن شيء من هذه النقائص ومن هذه الغرابات، فلا مناص لنا من الافتراض بأن المنطقة الشرجية فقدت قيمتها الشهوية في مجرى نموهم، ومن التكهن بالتالي بأن ثبات ذلك الثالوث من الشمائل في طباعهم يمكن أن يكون مرتبطاً بانطفاء الإيروسية الشرجية.

إني أعلم أن المرء لا يتجرأ على تصديق ظاهرة من الظاهرات ما دامت تبدو عصية على الفهم ولا تقدِّم أي مرتكز لتفسيرها. بيد أننا نستطيع على كل حال، فيما يتصل بالمبدأ الأساسي للظاهرة التي نحن بصددها، أن نقترب بعض الاقتراب من فهمها بالرجوع إلى الفروض التي صغتها عام ١٩٠٥ في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**. فقد حاولت أن أثبت في هذا الكتاب أن الدافع الغريزي الجنسي لدى الإنسان تركيب بالغ التعقيد، متولد عن مساهمة مقومات وعناصر ودوافع غريزية جزئية عديدة. وتسهم التنبيهات المحيطة لبعض المواضع المتميزة من الجسم (الأعضاء التناسلية، الفم، الشرج، الفتحة البولية) بقسط

١ ـ باللاتينية في **النص**: ALVI. «م».

٢ ـ **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، المبحث الثاني.



رئيسي في «التهيُّج الجنسي»، مستأهلة بالتالي أن تُسمَّى بـ «المناطق الشهوية». بيد أن كميات التنبيه الصادرة عن هذه المواضع لا تعرف في جميع أطوار الحياة ولا في كل طور منها على حدة مصيراً واحداً. وبوجه الإجمال، يوضع مقدار معيَّن فقط من هذه الكميات في خدمة الحياة الجنسية، بينما تتحول المقادير الأخرى عن الأهداف الجنسية وتُوجَّه نحو أهداف أخرى، وهذه السيرورة هي ما نطلق عليه اسم «الإسماء»[٣]. بل إن تلك الفترة من العمر التي يجوز وصفها بأنها «مرحلة الكمون الجنسي»، والتي تمتد من نهاية السنة الخامسة إلى بواكير البلوغ (عند تخوم السنة الحادية عشرة)، هي الفترة التي تتخلق في أثنائها، في مجال الحياة النفسية وعلى حساب تلك التنبيهات الصادرة عن المناطق الشهوية، تشكيلات ارتجاعية، قوى مضادة، نظير الخجل والقرف والأخلاق، لتعترض، كالسدود، النشاطية اللاحقة للدوافع الغريزية الجنسية. وبما أن الإيروسية الشرجية تنتمي إلى تلك العناصر والمقوِّمات الغريزية التي تغدو، في مجرى النمو وضمن التوجه التربوي لحضارتنا الراهنة، غير قابلة للاستعمال لغايات جنسية، فإننا نجدنا ميالين إلى أن نتعرف في السمات الطبعية التي يكشف عنها بجلاء سافر في أغلب الأحيان الحاملون القدامى للإيروسية الشرجية ـ حبّ الترتيب والاقتصاد والعناد ـ النتائجَ المباشرة والأكثر ثباتاً لإسماء الإيروسية الشرجية[٤].

طبيعي أن الضرورة الباطنة لهذا الارتباط ليست واضحة كل الوضوح حتى

---

٣ ـ أو الإعلاء أو التصعيد كما ترجمها غيرنا: Sublimation. «م».

٤ ـ نظراً إلى أن الملاحظات بصدد الإيروسية الشرجية لدى الطفل الرضيع كما وردت في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** قد صدمت بقوة المستغلقي الفهم من القراء، فإني أحلّ لنفسي هنا أن أورد ملاحظة أدين بها لمريض مفرط الذكاء: «حدّثني أحد معارفي، ممن قرأوا **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، عن الكتاب، فقال إنه يتقبله بتمامه لولا فقرة **واحدة** فيه؛ ومع أنه يوافق بطبيعة الحال على هذه الفقرة ويفهمها من ناحية مضمونها، إلا أنها بدت له من حيث الشكل فجّة ومضحكة إلى حدٍّ انقلب معه على قفاه وراح يضحك ويقهقه ربع ساعة كاملاً. هذه الفقرة هي التالية: «إن واحدة من أجلى علامات الشذوذ الطبعي أو العصبي الذي سيتظاهر مستقبلاً يقدِّمها الطفل حين يجلس على «القصرية» ويأبى إفراغ أمعائه ويعصى أوامر الأهل ويصرّ على ألا «يفعلها» إلا متى طاب ذلك له هو. وبديهي أنه لا يبالي إن وسَّخ حفاظه، وما يهمه هو ألا تضيع منه اللذة الإضافية التي يستمدّها من التغوُّط». إن صورة هذا الطفل الرضيع الجالس على القصرية والمتسائل بينه وبين نفسه عما إذا كان يخلق به أن يسمح بمثل ذلك التقييد لحرية إرادته الشخصية، والحريص فضلاً عن ذلك على ألا يضيع كسبه من اللذة المصاحبة للتغوُّط، قد استثارت لدى صديقي نوبة

بالنسبة إليّ، بيد أنه في مستطاعي مع ذلك أن أتقدم ببعض مقترحات قد يكون من شأنها أن تساعد على فهمه. فأن يكون المرء نظيفاً، محباً للترتيب، أهلاً للثقة، فهذا بالضبط ما يوحي بوجود تشكيل ارتجاعي ضد الاهتمام بما هو غير نظيف، بما يفسد النظام، وبما لا يؤلف جزءاً من الجسم: Dirt is matter in the wrong place[5]. والربط بين العناد وبين الاهتمام بالتغوط لا يبدو مهمة سهلة؛ ولكن لنتذكر على كل حال أن الطفل الرضيع نفسه يمكن أن يدلل على عناد فيما يتصل بتوقيت إفراغ برازه (انظر أعلاه)، وأن من الوسائل الدارج استعمالها في تربية الأطفال تعريض مؤخرة الطفل المرتبطة بالمنطقة الشهوية الشرجية لتنبيهات جلدية مؤلمة بغية تحطيم عناد الطفل وتليين إرادته. وإننا لا نزال نلجأ اليوم كما في الماضي، للتعبير عن التهكم الذي يأخذ شكل تحدٍّ، إلى مسبّة، فحواها: «لحس

من الضحك. وبعد زهاء عشرين دقيقة، وفيما كنا نتناول «التعصيرة» ونحتسي الكاكاوا طالعني على حين غرة، بلا مقدمات، بالعبارة التالية: «إسمع، إني إذ أرى الآن أمامي الكاكاوا تحضرني فكرة طالما ساورتني وأنا طفل. فقد كنت أتصور آنذاك أنني صانع الكاكاوا فان هوتن VAN HOUTEN - وقد لفظها: VAN HAUTEN - وأنني أحوز سراً هائلاً لصنع هذه الكاكاوا، وأن الناس كلهم يسعون إلى انتزاع هذا السرّ مني، هذا السر الذي من شأنه أن يحقق للناس قاطبة السعادة والذي كنت أذود عنه بغيرة. لماذا اخترت فان هوتن تحديداً؟ لست أدري. أرجح الظن أن دعايته هي أكثر ما أثَّر فيَّ». وفيما رحتُ أضحك، وفي الحقيقة بدون أن أربط ذلك بعدُ بقصدٍ أبعد غوراً، وجدتني أفكر: «متى تضرب الأمهات أطفالهن على مؤخراتهم WANN HAUT'N DIE MUTTER؟». وإنما بعد هنيهة من الزمن فطنت إلى أن المجانسة اللفظية، كما رويتها، تشتمل بالفعل على مفتاح تلك الذكرى التي بزغت على حين بغتة من طيات الطفولة، وفهمت عندئذ أنها مثال ساطع على أخيولة ستارية: فهذه الأخيولة استطاعت، بصونها عناصر الواقع الفعلي (عملية التغذية) وبالاستناد إلى تداعيات صوتية (WANN HAUT'N - KAKAO)، أن تسكّن الشعور بالذنب عن طريق **قلب كامل للقيم** في المضمون الذاكري (نقل من الوراء إلى الأمام، والغذاء الذي يتخلص منه الإنسان بإخراجه يصير هو الغذاء الذي يتناوله، والمحتوى المخجل الذي ينبغي ستره يتحول إلى سرٍّ من شأنه أن يحقق السعادة للناس طراً)(*). والشيء الذي أثار اهتمامي هو: «كيف أمكن لذلك الصديق الذي روى النكتة، بعد محاولة دفاعية أخذت شكلاً مخففاً من خلال احتجاج شكلي، أن يجد نفسه مضطراً، بعد مضيّ ربع ساعة، إلى التسليم بالبرهان الدامغ المستمدّ من لاشعوره بالذات».

(*) حتى نفهم التداعي المشار إليه والذي يدور حول الكاكاوا وصانعها الألماني الشهير فان هوتن ينبغي أن نلحظ لا الجناس اللفظي بين VAN HOUTEN و WANN HAUT'N فحسب، بل كذلك بين الكاكاوا وبين الكاكا، وهو الاسم الذي يطلقه الأطفال في أوروبا كما في بلادنا على برازهم. «م».

٥ - بالإنكليزية في النص: الوسخ مادة وضعت في غير موضعها، وهو قول ينسب إلى رئيس الوزراء البريطاني اللورد بالمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥). «م».



المنطقة الشرجية، وهذا ما ينمّ في الحقيقة عن بادرةٍ محبَّةٍ ضُرب عليها الكبت. وكشف المرء عن مؤخرته يمثّل ما طرأ من وهن على تلك الكلمة المسبّة التي انقلبت إلى مجرد حركة. وفي مسرحية غوته: **غوتز فون برليشنغن** تُستخدم الكلمة والحركة على حدّ سواء في اللحظة المناسبة للتعبير عن التحدي[٦].

أما العقدتان المتباينتان أشد التباين في الظاهر، وأعني عقدة الاهتمام بالمال وعقدة التغوط، فوفيرة هي الدلائل على متانة الأواصر بينهما. وأي طبيب زاول التحليل النفسي يعرف حق المعرفة أن سلوك هذا الطريق تحديداً هو ما يمكن أن يفضي إلى إزالة الحالات المألوفة للقبض المستحكم والمزمن لدى المرضى العصبيين. وربما تضاءلت دهشتنا لو تذكّرنا أن هذه الوظيفة أظهرت طواعية مماثلة لتأثير الإيحاء التنويمي. غير أننا لا نتوصل في التحليل النفسي إلى إحراز هذه النتيجة إلا متى مسسنا عقدة المال لدى المرضى وأتحنا لهم إمكانية سوق هذه العقدة إلى مجال الشعور بكل علائقها وارتباطاتها. وقد نميل إلى الاعتقاد بأن العصاب لا يفعل هنا سوى أنه يقفو أثر اللغة التي تطلق على الفرد الذي يمسك ماله بقلق وحرص مجاوز الحدّ اسم المُسَكَة والقُبَضَة[٧]. غير أن افتراضاً كهذا افتراضٌ مغالٍ في سطحيته. والحق أنه حيثما سادت أو ما زالت سارية المفعول الطريقة العتيقة في التفكير، برزت بجلاء في الحضارات القديمة، وفي الأسطورة والحكاية والخرافة، وفي الفكر اللاشعوري والحلم والعصاب، الصلةُ الوثيقة بين المال والبراز. ومعروف أن الذهب الذي يهديه الشيطان للمغرمين به ينقلب برازاً بعد رحيله، ومن المحقق أن الشيطان إن هو إلا تجسيد للحياة الغريزية اللاشعورية المكبوتة[٨]. ومعروفة هي، من ناحية أخرى، الخرافة التي تربط بين اكتشاف

٦ . في الفصل الثالث والمشهد الثاني من هذه المسرحية، التي كتبها غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) في شبابه يوم كان ينتمي إلى حركة «**العاصفة والاندفاع**»، ينذر رسول الإمبراطور الفارس الثائر غوتز، الملقَّب بالقبضة الحديدية، بالاستسلام، فيجيبه هذا: «قل لقائدك كما لصاحب الجلالة الإمبراطور إنني أقدِّم، شأني دائماً، احترامي المتواضع. ولكن قل له إن بوسعه أن يلحس إستي!». لكن هذا الجواب، الذي اعتبره النقاد غير موائم، حمل غوته على تلطيفه في الطبعات اللاحقة. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٧ - بالألمانية SCHMUTZIG و FILZIG وبالإنكليزية: FILTHY. «م».



الكنوز والتغوط، وليس يجهل أحد شخصية «خرّاء الليرات الذهبية»[٩]؛ كما أن الذهب كان في نظر أهالي بابل القديمة غائط الجحيم: مامون = إيلو مانمان[١٠]. وعليه، عندما يقفو العصاب أثر العرف اللغوي، فإنه يأخذ الكلمات، هنا كما في أي مكان آخر، بمعناها الأصلي، المشحون بكامل دلالته؛ وحيثما يستخدم كلمة ما بمعناها المجازي، فإنه لا يفعل بوجه عام أكثر من أن يحيي دلالتها القديمة.

ومن المحتمل أن التضاد بين ما تواضع الإنسان على إسباغ أعظم القيمة عليه وبين ما هو خلو من كل قيمة وما درج على اطّراحه باعتباره نفاية[١١]، من المحتمل أن هذا التضاد هو الذي حدَّد تلك المماثلة بين الذهب والبراز.

وثمة جانب آخر في الفكر العصابي يعزِّز هذه المماثلة. فالاهتمام الإيروسي المنشأ بالتغوُّط مقيَّض له، كما نعلم، أن يهمد وينطفئ في سنوات النضوج. ففي إبان هذه السنوات يظهر الاهتمام بالمال باعتباره شيئاً جديداً ما عرفه الطفل إلى ذلك الحين، وهذا ما ييسّر انزياح الاهتمام القديم، الذي على وشك أن يفقد هدفه، نحو الهدف الجديد الذي يوشك أن يبزغ.

إن يكن ثمة أساس واقعي للصلة ـ التي أكَّدتُ وجودها ـ بين الإيروسية الشرجية وذلك الثالوث من السمات الطبعية، فليس لنا أن نتوقع أن نلتقي أية علامة خاصة لـ «الطبع الشرجي» لدى الأشخاص الذين حافظوا في حياتهم الراشدة على الخاصية الشهوية للمنطقة الشرجية عندهم، كما عند بعض الجنسيين المثليين على سبيل المثال. وإن لم أكن مخطئاً خطأً فادحاً، فإن الخبرة

٨ ـ مثال ذلك المسّ الهستيري والأوبئة الشيطانية.

٩ ـ بالألمانية DUKATENSCHEISSER، وهو شخصية من القصص الشعبي. «م».

١٠ ـ إرِمياس: **كتاب العهد القديم على ضوء الشرق القديم**، الطبعة الثانية، ١٩٠٦، ص ٢١٦، وكذلك: **العالم البابلي في كتاب العهد الجديد**، ١٩٠٦، ص ٩٦: «مامون هو البابلي مان ـ مان»، لقب فرغال إله العالم السفلي. وطبقاً للميتولوجيا الشرقية، التي استمر إرثها في الحكايات الخرافية والقصص الشعبي، فإن الذهب غائط الجحيم. انظر: **التيارات التوحيدية في الديانة البابلية**، ص ١٦، الحاشية ١.

(*) مامون: كلمة آرامية ورد ذكرها في الأناجيل ويشار بها إلى المال الحرام. «م».

١١ ـ بالإنكليزية في النص: REFUSE. «م».



تأتي موافقة في أغلب الأحيان لهذا الاستنتاج.

وبصفة عامة يتوجب علينا أن نتساءل عما إذا لم يكن من المحتمل أن ترتبط بنى طبعية أخرى بتنبيه مناطق شهوية محددة. ولست أعرف حالياً سوى الطموح المجاوز الحدّ و«المتحرِّق» لدى الأشخاص الذين كانوا مصابين في السابق بسلس البول. وبوسعنا على كلٍ حال أن نقترح، فيما يتصل بالتكوين النهائي للطبع بدءاً من الدوافع الغريزية الجِبِلِّية، الصيغة التالية: إن السمات الطبعية التي تبقى ملازمة لصاحبها هي إما استمرار بلا تبدل للدوافع الغريزية الأصلية، وإما إسماء لهذه الدوافع، وإما تشكيلات ارتجاعية ضد هذه الدوافع.




مكتبة
الفكر الجديد

(٢)

الأخاييل الهستيرية
وصلتها بالجنسية المثلية
(١٩٠٨)

معروفة لدينا الأخاييل الهذائية للمصابين بالبارانويا، هذه الأخاييل التي تدور حول عظمة الأنا المعني أو شقائه وعذاباته والتي نلتقيها في أشكال نمطية تماماً وشبه رتيبة. ومن ناحية أخرى تعرَّفنا، من خلال تقارير علمية عن عديد من الحالات، على الآليات الفريدة في نوعها التي يعتمدها بعض المنحرفين للوصول ـ بالفكر أو الفعل ـ إلى إشباعهم الجنسي. وبالمقابل، قد يكون من المستجدات بالنسبة إلى الكثيرين أن يعلموا أن تشكيلات نفسية مشابهة تماماً تشاهد بصورة مطردة في جميع الأعصبة النفسية، وبخاصة في الهستيريا، وأن هذه الحالات، أو ما يسمى بالأخاييل الهستيرية، تتكشف عن أنها ذات صلة بأسباب نشوء الأعراض العصابية.

ونستطيع أن نجد مصدراً مشتركاً ونموذجاً سوياً لجميع هذه المنتجات التخييلية في ما يسمى بأحلام اليقظة لدى الشباب، هذه الأحلام التي حظيت في الأدب من قبل ببعض الاهتمام وإن لم يكن بقدر كافٍ[1]. وربما كان تواتر أحلام اليقظة هذه واحداً لدى الجنسين، لكن يبدو أنها تكون على الدوام لدى الفتاة

١ ـ انظر: ج. بروير وس. فرويد: **دراسات في الهستيريا** ١٨٩٥. ب. جانيه: **الأعصبة والأفكار المتسلطة**، م١، **أحلام اليقظة التحت شعورية**، ١٨٩٨. هافلوك إلِّيس: **دراسات في السيكولوجيا الجنسية**، ١٨٩٩. س فرويد: **تأويل الحلم**، ١٩٠٠. أ. بيك: **حول أحلام اليقظة الباتولوجية وعلاقاتها بالهتسيريا**، في **مجلة الطب النفسي وعلم الأعصاب**، السنة ١٤، ١٨٩٦.



ولدى المرأة من طبيعة إيروسية، بينما هي لدى الرجال إما من طبيعة إيروسية وإما من طبيعة طموحية. بيد أننا لا نستطيع أن ننبذ إلى منزلة ثانوية أهمية العامل الإيروسي حتى لدى الذكور؛ فلو أمعنا النظر في حلم اليقظة لدى الرجل لوجدناه يكشف في الغالبية العظمى من الأحوال عن أن جميع تلك الأفعال البطولية لا تُجترح وأن جميع تلك النجاحات لا تُحرز إلا للفوز بإعجاب امرأة وللوقوع من نفسها موقعاً أفضل من الرجال الآخرين[٢]. وما هذه الأخاييل إلا إشباعات رغَبية، مصدرها الحرمان والحنين. وهي تحمل بحق اسم «أحلام اليقظة» لأنها تقدِّم المفتاح لفهم الأحلام الليلية التي لا تتألف فيها نواة تشكيل الحلم إلا من مثل تلك الأخاييل النهارية، المعقدَّة، المحرَّفة، المفهومة فهماً مغلوطاً من قبل الهيئة النفسية الشعورية[٣].

تعار أحلام اليقظة هذه قيمة كبيرة من قبل صاحبها، فيحيطها بالرعاية، ويخفيها بحياء عظيم عن الآخرين في معظم الأحيان كما لو أنها مُلك شخصي حميم. لكننا نتعرف بسهولة في الشارع من يكون مأخوذاً في دوامة حلم من أحلام اليقظة، وذلك من ابتسامة مباغتة تعلو وجهه فيما هو شبه غائب عن الوجود، أو من تكليمه نفسه، أو تسريعه خطاه، مما يدلّ على بلوغ حلمه نقطة أوج في الموقف. وجميع النوبات الهستيرية التي تسنى لي حتى الآن أن أدرسها قد تكشفت عن أنها هجمات غير إرادية لأحلام يقظة من ذلك القبيل. وبالفعل، لا تترك الملاحظة مجالاً للشك في وجود مثل هذه الأخاييل سواء أفي شكل شعوري أم لاشعوري، وفي أنها متى ما صارت لاشعورية فقد تصبح أيضاً إمراضية[٤]، أي تفصح عن نفسها في أعراض ونوبات. ومن الممكن للشعور في بعض الظروف المؤاتية أن يضبط مثل هذا التخييل اللاشعوري. روت لي إحدى مريضاتي، وكنت قد حثثتها على التنبه لأخاييلها، أنها فيما كانت تسير يوماً في الطريق انهمرت الدموع فجأة من

٢ ـ يرى هافلوك إلِّيس الرأي نفسه في كتابه الآنف الذكر، ص ١٨٥، الطبعة الثالثة، ١٩١٠.

٣ ـ انظر س. فرويد: **تأويل الحلم**، المؤلفات الكاملة، م٢ ـ ٣، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

٤ ـ Pathogène: مسبِّبة للمرض. «م».



عينيها، ولما أعملت الفكر على الفور بحثاً عن السبب الحقيقي لبكائها تسنى لها أن تضبط الأخيولة التالية: كانت قد عقدت علاقة حب مع عازف بيانو بارع ومشهور (ولكنه غير معروف من قبلها شخصياً)، وأنجبت منه طفلاً (لم يكن لها أطفال)، فما كان منه إلا أن هجره لمصير بائس. وفي هذا الموضع من القصة انهملت دموعها.

إن الأخاييل اللاشعورية إما أن تكون لاشعورية على الدوام ومتكونة أصلاً في اللاشعور، وإما أنها كانت في السابق ـ وهذا هو الغالب ـ أخاييل شعورية، أحلام يقظة، ثم أُنتسيت بعد ذلك بغير ما قصد، فسقطت في لجة اللاشعور بفعل «الكبت». وفي هذه الحال إما أن يبقى مضمونها كما هو، وإما أن تطرأ عليه تحويرات بحيث تمثِّل الأخيولة ـ وقد غدت الآن لاشعورية ـ فسيلة من فسائل الأخيولة الشعورية القديمة. للأخيولة اللاشعورية إذاً صلة وثيقة للغاية بالحياة النفسية للشخص المعني؛ وبالفعل، إنها تطابق الأخيولة التي كان هذا الشخص قد لجأ إليها في فترة من فترات الاستمناء للفوز بالإشباع الجنسي. وكان الفعل الاستمنائي بمعناه الأوسع: الأوناني[٥]، يتألف آنذاك من عنصرين: استحضار الأخيولة، وفي ذروة هذه الأخيرة المبادرة إلى الفعل الإيجابي بهدف الإشباع الذاتي. ومعروف أن هذا المركَّب هو في الواقع بمثابة لِحام[٦]. ففي الأصل كان النشاط الأوناني ممارسة إيروسية ذاتية خالصة للفوز بكسب من اللذة بدءاً من منطقة بدنية محددة يصحّ وصفها بأنها شهوية. وفيما بعد يندمج هذا النشاط مع تصورات رغبية نابعة من مضمار الحب الموضوعاني ويفيد في تحقيق جزئي

٥ ـ نسبة إلى أونان، وهو رجل جاء ذكره في التوراة، وقد تزوج زوجة أخيه بعد وفاته، فتألم ولم يمارس معها سوى الجماع المبتور تفادياً لاختلاط النسل. وقيل إن زوجة أخيه كانت تستمني. «م».

٦ ـ اللِحام VERLOTONG بالألمانية و WELDING بالإنكليزية و SOUDURE بالفرنسية: مصطلح صاغه فرويد في المبحث الأول من **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** حيث قال: «لقد تنبهنا الآن للخطأ الذي كنا وقعنا فيه إذ أقمنا روابط أوثق مما ينبغي بين الدافع الغريزي الجنسي والموضوع الجنسي. فقد أفادتنا الخبرة، التي زوَّدتنا بها الحالات الي نعدّها غير سوية، أنه يوجد بين الدافع الغريزي الجنسي والموضوع الجنسي لِحام قد يغيب عن انتباهنا في الحياة الجنسية السوية حيث يبدو الدافع الغريزي وكأنه يحتوي بذاته من الأساس على موضوعه». «م».



للموقف الذي تبلغ فيه هذه الأخيولة ذروتها. وحينما يقلع الشخص في وقت لاحق عن هذا النمط من الإشباع الاستمنائي ـ التخييلي، يستنكف عن النشاط، بينما تصير الأخيولة في الشعور لاشعورية. فإن لم يلح في الأفق أي ضرب من الإشباع الجنسي وإن بقي الشخص على استنكافه ولم يتوصل إلى إسماء ليبيدوه، أي إلى تحويل النشاط الجنسي نحو هدف أسمى، فعندئذ تتوفر الشروط كيما تنتعش الأخيولة اللاشعورية من جديد، وكيما تزدهر وتتكاثر، وكيما تفرض نفسها بكل قوة الحاجة إلى الحبّ، على الأقل بالنسبة إلى جزء من مضمونها في صورة عرَض مرضي.

على هذا النحو تشكل الأخاييل اللاشعورية الطور النفسي السابق مباشرة لطائفة بكاملها من الأعراض الهستيرية. وما الأعراض الهستيرية سوى الأخاييل اللاشعورية وقد تلبست، عن طريق الاستبدال(٧)، شكلاً مشخَّصاً؛ وبقدر ما تكون أعراضاً بدنية فإن المعين الذي تُستقى منه هو في كثرة من الأحيان معين الأحاسيس الجنسية عينها والتعصيبات المحركة عينها التي كانت رافقت الأخيولة حين كانت لا تزال شعورية. وبذلك يعود إلى الانتفاء في الواقع القرار بهجر العادات الأونانية، ويتمّ بلوغ الهدف الأخير لكل السيرورة المرضية ـ استرداد الإشباع الجنسي السابق، الأولي ـ إن لم يكن بكل تأكيد بصورة كاملة فعلى كل حال بصورة تقريبية.

إن اهتمام دارس الهستيريا سرعان ما يتحول عن الأعراض لينصبّ على الأخاييل التي منها تنبع الأعراض. وتتيح لنا تقنية التحليل النفسي أن نتكهن، بدءاً من الأعراض، بطبيعة هذه الأخاييل اللاشعورية أول الأمر، وأن نجعلها بعد ذلك شعورية بالنسبة إلى المريض. والحال أنه تسنى لنا عن هذا السبيل أن نكتشف أن أخاييل الهستيريين اللاشعورية تطابق تماماً في مضمونها المواقف الإشباعية التي يحققها المنحرفون بملء الوعي. وإن شقَّ علينا أن نعثر على أمثلة من هذا القبيل، فما علينا إلا أن نعود إلى التاريخ لنتذكر ما كان يدبره الأباطرة

٧ ـ الاستبدال CONVERSION: انقلاب ما هو نفسي إلى عرض بدني في الهستيريا. ومن هنا جاز أيضاً أن نقول: الاستبدان. «م».



الرومان من مكائد، يوم لم يكن للشطط الجنوني من حدود بطبيعة الحال غير السلطان اللامحدود لمنتجي تلك الأخاييل. والتشكيلات الهذائية لدى المصابين بالبارانويا هي أخاييل من النوع نفسه، وإنما صارت للحال شعورية بدفع من المقوِّم السادي ـ المازوخي في الدافع الغريزي الجنسي، ومن الممكن أن نجد لها هي الأخرى نظائرها التامة في بعض أخاييل الهستيريين اللاشعورية. ومعروفة لدينا أصلاً ـ وهذه واقعة ذات أهمية عملية كبيرة ـ الحالة التي يفصح فيها الهستيريون عن أخاييلهم لا في صورة أعراض، بل في صورة تحقيق شعوري، حينما يتخيَّلون وينفذِّون في آن معاً أعمال عدوان وعنف جنسية.

إن كل ما يمكن أن نعلمه عن الجنسية في الأعصبة النفسية، بما في ذلك الظاهرة التي هي الموضوع الرئيسي لهذا المقال التمهيدي الصغير، تزوِّدنا به هذه الطريقة التحليلية النفسية في البحث والاستقصاء التي تردّنا من الأعراض السافرة إلى الأخاييل اللاشعورية الخبيئة.

وأرجح الظن أن الصعاب التي يصطدم بها ميل الأخاييل اللاشعورية إلى التعبير عن نفسها تجعل علاقة الأخاييل بالأعراض غير بسيطة، بل متعددة ومعقدة[8]. وكقاعدة عامة، أي حينما يبلغ العصاب كامل تطوره ويدوم أجلاً كافياً من الزمن، فإن العرض يكون مطابقاً لا لأخيولة لاشعورية وحيدة، بل لعدة أخاييل لاشعورية، وذلك ليس على نحو عسفي واعتباطي وإنما طبقاً لتركيب محكوم بقوانين. وبديهي أن جميع هذه التعقيدات لا تكون قد تطورت جميعها في مستهل المرض.

حرصاً مني على الفائدة العامة أقطع هنا مجرى هذا العرض لأقحِم عليه جملة صيغ ترمي إلى توضيح طبيعة الأعراض الهستيرية بصورة تدريجية. إن هذه الصيغ لا يناقض بعضها بعضاً. ولكنها تطابق من جهة أولى تصورات تنزع إلى أن تتكامل وتتوضح، وتناظر من الجهة الثانية الأخذ بوجهات نظر متباينة.

١ ـ إن العرض الهستيري هو الرمز الذاكري لبعض الانطباعات والخبرات

٨ ـ كذلك حال العلاقة بين أفكار الحلم «الكامنة» وبين عناصر المضمون «الظاهر». انظر فصل «عمل الحلم» في **تأويل الحلم**.



المعاشة الفاعلة (الرضات).

٢ ـ العرض الهستيري هو البديل، الذي أنتج بواسطة الاستبدال، عن عودة تلك الخبرات الرضية بطريق التداعي.

٣ ـ العرض الهستيري هو التعبير ـ كما في سواه من التشكيلات النفسية ـ عن تحقيق رغبة.

٤ ـ العرض الهستيري هو التحقيق لأخيولة لاشعورية غرضها تنفيذ رغبة.

٥ ـ العرض الهستيري يفيد في تحقيق الإشباع الجنسي ويمثّل جانباً من الحياة الجنسية للشخص المعني (جانباً مناظراً لمقوِّم من مقوِّمات دافعه الغريزي الجنسي).

٦ ـ العرض الهستيري يناظر عودة لنمط في الإشباع الجنسي كان واقعياً في الحياة الطفلية ثم ما لبث بعدئذ أن كُبت.

٧ ـ العرض الهستيري يطرأ كتسوية بين حاجتين انفعاليتين أو حاجتين غريزيتين متقابلتين تجاهد واحدتهما للتعبير عن دافع غريزي جزئي أو مقوِّم من مقومات الجبِلَّة الجنسية، بينما تجاهد ثانيتهما لقمع الأولى.

٨ ـ العرض الهستيري يمكن أن يتولى تمثيل حاجات لاشعورية وغير جنسية متباينة. ولكن لا محيص له عن حمل دلالة جنسية.

إن السابع بين هذه التعاريف المختلفة هو الذي يعبِّر أكمل تعبير عن طبيعة العَرَض الهستيري باعتباره تحقيقاً لأخيولة لاشعورية. والثامن هو الذي يفصح بصورة صحيحة عن أهمية العامل الجنسي. وهذه الصيغة تتضمن بعض الصيغ السابقة لها باعتبارها مراحل تمهيدية.

هذه العلاقة بين الأعراض والأخاييل تتيح لنا أن نبلغ بلا صعوبة، وانطلاقاً من تحليل الأعراض، إلى معرفة مقوِّمات الدافع الغريزي الجنسي التي تهيمن على الفرد. وهذا ما كنت فعلته في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**. بيد أن هذا البحث يفضي في العديد من الحالات إلى نتيجة غير متوقعة. فهو يظهِر أن كشف النقاب عن أخيولة جنسية لاشعورية واحدة، أو عن جملة أخاييل لاشعورية لا تتصف سوى أخيولة واحدة منها بالصفة الجنسية، وإن تكن



أهمها وأعرقها أصالة، لا يكفي لتصفية العرض؛ فهذه التصفية تقتضي أخيولتين جنسيتين، لواحدتهما طابع مذكر وللثانية طابع مؤنث، مما يوجب أن يكون المصدر الذي تمتح منه إحدى الأخيولتين حاثة جنسية مثلية. والأطروحة التي تتضمنها الصيغة السابقة لا تنتفي من جراء هذا الكشف: فالعرَض الهستيري يناظر بالضرورة تسوية بين حاثة ليبيدوية وحاثة كابتة، لكن قد يناظر فضلاً عن ذلك اتحاداً بين أخيولتين ليبيدويتين متعارضتين من حيث طابعهما الجنسي.

سأمسك عن ضرب أمثلة تأييداً لهذه الأطروحة. فقد دلتني التجربة أن التحليلات المقتضبة، المكثَّفة في صورة خلاصة، لا يمكن أن تكون لها أبداً تلك القوة الإقناعية التي ننتظرها منها. ولكن من جهة أخرى، لا أجد بداً من أن أحتفظ لمناسبة أخرى بسرد حالات مَرَضية محللة تحليلاً كاملاً.

أكتفي إذاً بالتقدم بالأطروحة التالية مع تبيان أهميتها:

٩ ـ العرض الهستيري هو التعبير ـ من جهة أولى ـ عن أخيولة جنسية لاشعورية مذكرة، ومن الجهة الثانية عن أخيولة جنسية لاشعورية مؤنثة.

ولزام عليّ أن أنوّه بأني لا أستطيع أن أسلِّم لهذه الأطروحة بصلاحة عامة نظير سائر الصيغ. فهي لا تصدق بقدر ما يمكن أن يتراءى لي على جميع أعراض حالة بعينها من الحالات ولا على الحالات كافة. بل لا يصعب على النقيض من ذلك التنويه بحالات وجدت فيها حاثات الجنس المقابل تعبيراً أعراضياً منفصلاً بحيث يمكن تمييز أعراض الجنسية الغيرية وأعراض الجنسية المثلية بعضها من بعض بجلاء بمثل ذاك الذي يمكن أن تُميَّز به الأخاييل الخبيئة وراءها. ومع ذلك، إن العلاقة التي تفصح عنها الصيغة التاسعة كثيرة التواتر بما فيه الكفاية، وتكون، في حال مثولها، على جانب كافٍ من الأهمية لإيلائها انتباهاً خاصاً. ويلوح لي أنها تتطابق مع أعلى درجة من التعقيد يمكن أن يرتفع إليها تعيين العرض الهستيري، ولا يجوز لنا بالتالي أن نتوقع التقاءها إلا في عصاب مضى زمن طويل على نشوئه ورسوخه وخضع لمجهود تنظيمي كبير[٩].



إن الدلالة الجنسية الثنائية للأعراض الهستيرية، القابلة للإثبات في العديد من الحالات بالأصل، هي بلا شك تأكيد مثير للاهتمام لما سبق لي أن قلت به[١٠] من أن جِبِلّة الكائن البشري الثنائية الجنسية كما افترضناها قابلة للتمييز بجلاء خاص عن طريق تحليل الأعصبة النفسية. ونلتقي سيرورة مماثلة تماماً في المضمار عينه عندما يحاول المستمني، في أخاييله الشعورية، أن يستشعر ما يحسّه الرجل والمرأة على حدّ سواء في الموقف الذي يتخيّله. وتطالعنا بأمثلة أخرى النوبات الهستيرية التي تلعب فيها المريضة كلا الدورين الجنسيين المتخيَّلين في آن معاً؛ ومن ذلك أن المريضة في حالة تسنَّت لي ملاحظتها كانت تمسك بإحدى يديها ثوبها الملتصق بجسمها (باعتبارها امرأة) بينما تحاول باليد الأخرى انتزاعه (باعتبارها رجلاً). وهذا التزامن التناقضي يشرط إلى حدّ كبير ما يبدو عصياً على الفهم في موقف النوبة البالغ مع ذلك مستوى عالياً من التشخيص التشكيلي، ويتهيأ له بالتالي أن يحجب عن النظر تماماً الأخيولة اللاشعورية الفاعلة في هذا الموقف.

إنه لمن الأهمية بمكان في المعالجة التحليلية النفسية أن نتوقع أن يكون للعرض دلالة جنسية ثنائية. فعندئذ لن نعجب ولن يُسقط في أيدينا إذا ما وجدنا العرض يستمرّ بدون أن يطرأ عليه تخفيف ظاهر على الرغم من فلاحنا في تحليل إحدى دلالاته الجنسية. فالعرض يبقى مستنداً في هذه الحال إلى الدلالة الجنسية المقابلة التي ربما لا تكون دارت لنا ببال. وفي معالجتنا نظير هذه الحالات يتسنى لنا أيضاً أن نشاهد كيف يستخدم المريض هذه الوسيلة المناسبة ليلوذ باستمرار، في أثناء

---

٩ ـ بيد أن إ. سادجر SADGER(*)، الذي اكتشف بدوره ومن خلال تحليلاته الخاصة الأطروحة المشار إليها، يعزو إليها صلاحة عامة. انظر مقاله: **أهمية طريقة فرويد في التحليل النفسي في مجلة الطب العصبي والنفسي**، ١٩٠٧.

(*) إيزودور إسحق سادجر: طبيب شرعي ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٧ ـ ١٩٤٢). درس الجنسية المثلية والتميمية، ونحت مفهومي النرجسية والسادية ـ المازوخية. وأقرّ فرويد بمديونيته له. مات في معسكر اعتقال نازي. «م».

١٠ ـ **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**.



تحليل إحدى الدلالتين الجنسيتين، بحمى الدلالة المعاكسة، وكأنه بذلك يشقّ لنفسه طريقاً فرعياً.



(٣)

الرواية العائلية للعصابيين[١]

(١٩٠٩)

إن واحدة من أكثر نتائج النمو لزوماً وأشدها إيلاماً في الوقت نفسه انفصال الفرد في مسار تطوره عن سلطة والديه. فمن مطلق الضرورة أن يتمّ هذا الافتراق، وبوسعنا الافتراض أن كل كائن إنساني نما نمواً سوياً لا بدّ أن يكون إلى حدّ ما قد أنجزه. والواقع أن تقدم المجتمع يرتكز بصفة عامة إلى هذا التعارض بين الجيلين. ولكن من ناحية أخرى، ثمة فئة من العصابيين نستطيع أن نتبيَّن أن حالتهم مشروطة بكونهم قد أخفقوا في هذه المهمة.

إن الوالدين هما، بالنسبة إلى الطفل الصغير، السلطة الوحيدة ومصدر كل اعتقاد وإيمان في بادئ الأمر. وأحرُّ رغبة من رغبات سنيّ الطفولة تلك وأخطرها من حيث النتائج هي تطلُّع الطفل إلى أن يصير مثلهما، أي مثل الوالد الذي من جنسه، وأن يكبر مثل البابا والماما. لكن لا مناص، طرداً مع تقدم النمو الفكري، من أن يتعلم الطفل رويداً رويداً كيف يميِّز الفئة التي إليها ينتمي والده. فهو يتعرف إلى آباء غيره من الأطفال وأمهاتهم، ويقارن بينهم وبين والديه ويكتسب على هذا النحو الحقَّ في الشكّ في ما كان عزاه إليهما من طابع فريد لا يضاهى. وبعض الخبرات البسيطة التي تعرُض للطفل في حياته، والتي تستثير لديه شعوراً

١ ـ نُشر مقال فرويد هذا لأول مرة عام ١٩٠٩ بلا عنوان في كتاب أوتو رانك: **أسطورة ميلاد البطل**. وقد كان فرويد استخدم تعبير «الرواية العائلية» في رسالة منه إلى فلهلم فليس (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨) في ٢٠ حزيران/ يونيو ١٨٩٨ قال فيها: «إن جميع العصابيين يبتدعون ما يسمَّى بالرواية العائلية (التي تغدو في البارانويا واعية) التي تعمل من جهة أولى في خدمة الحاجة إلى العَظَمة، ومن الجهة الثانية في خدمة الدفاع ضد حبّ المحارم». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



بعدم الرضى، تتيح له الفرصة للشروع بانتقاد والديه، فإذا به يستخدم، في موقفه الجديد المناهض لهما، المعرفة التي تحصلت له بأن غيرهما من الوالدين يفضلونهما من أكثر من وجهة نظر. ويفيدنا علم نفس الأعصبة أن من جملة العوامل التي تسهم في صنع هذه النتيجة حاثّات بالغة الشدة من التنافس الجنسي. ومضمون الخبرات المشار إليها هو بكل جلاء شعور الطفل بأنه مقصى. والحق أنها ليست بنادرة المناسبات التي يقصى فيها الطفل، أو يشعر فيها على أية حال بأنه مقصى، والتي يتراءى له فيها أنه لا يتلقى كل حب والديه، ويتحسر بوجه خاص على اضطراره لمشاطرة إخوته وأخواته هذا الحب. وشعور الطفل بأن عواطفه الخاصة لا تقابل بمثلها يفصح عندئذ عن نفسه في فكرة تهيمن على السنوات الأولى من طفولته، وغالباً ما يتذكرها في وعيه، ومؤداها أنه طفل أُنجب من زواج آخر أو أنه طفل متبنى. وكثيرون من الأشخاص، ممن لم يقعوا فريسة العصاب، تحضرهم في كثرة كثيرة من الأحوال ذكرى مناسبات من ذلك القبيل تكوَّنت لديهم فيها - تحت تأثير المطالعات في غالب الأحيان - مثل تلك التصورات عن سلوك والديهم العدائي نحوهم وجاءت استجابتهم لها على النحو الذي نصف. لكن حتى في هذا الطور يتجلى أثر الجنس، إذ إن الصبي أشدّ نزوعاً بكثير إلى إضمار مشاعر معادية نحو أبيه منه نحو أمه، ولا شك أيضاً في أنه أشدّ ميلاً بكثير إلى طلب الانعتاق من الأب منه من الأم. والنشاط التخييلي عند البنات يمكن أن يأتي من هذه الناحية أشدّ وهناً بكثير. وفي عداد تلك الحاثّات النفسية العائدة إلى سنوات الطفولة، والمستحضرة في الذاكرة شعورياً، نعثر على العامل الذي يتيح لنا إمكانية فهم الأسطورة.

فالطور اللاحق في مسار هذا التطور، الذي يبدأ فيه الطفل بالتحول إلى كائن غريب بالنسبة إلى والديه، يمكن أن نطلق عليه اسم **الروايات العائلية للعصابيين**. وهذا الطور، الذي نادراً ما تستحضره الذاكرة الشعورية، لا سبيل إلى إزاحة النقاب عنه في غالب الأحيان إلا بالتحليل النفسي. وبالفعل، إن نشاطاً تخييلياً بالغ الأهمية يلازم طبيعة العصاب وطبيعة كل شخص حُبيَ بمواهب متفوقة. ويتجلى هذا النشاط بادئ ذي بدء في ألعاب الطفولة، ثم يتخذ موضوعاً له بعد



ذلك، ابتداء من سنّ ما قبل البلوغ إجمالاً، العلاقات العائلية. ومن الأمثلة البيّنة على هذا النشاط التخييلي الخاص ما يعرف باسم **أحلام اليقظة**، هذه الأحلام التي تستمر إلى ما بعد البلوغ أيضاً[٢]. والملاحظة الدقيقة لهذه الأحلام النهارية تبيِّن لنا أنها تفيد في تحقيق رغبات، وفي تصحيح واقع الحياة، وأن لها هدفين رئيسيين: واحدهما إيروسي والثاني طموحي (لكن خلف هذا الأخير يختبئ في غالب الأحيان أيضاً الهدف الإيروسي). والحال أن النشاط التخييلي يأخذ على عاتقه في الطور الذي نحن بصدده أن يتخلص من الوالدين، اللذين باتا منذ ذلك الحين موضع ازدراء، واستبدالهما بوالدين آخرين، وعموماً من منزلة اجتماعية أرقى. وتُستغل في هذه العملية طوارئ الخبرات المعاشة حقاً (في الريف لقاء صاحب القصر أو مالك الأرض، وفي المدينة لقاء الأمير أو مَن في منزلته). ومثل هذه الخبرات العارضة تبتعث في الطفل الحسد الذي يفصح عن نفسه في هذه الحال في أخيولة يتمّ فيها استبدال الوالدين الحقيقيين بآخرَيْن متخيَّلين أرفع مقاماً. وكل شيء منوط، في أسلوب إنتاج هذه الأخاييل، التي تكون بطبيعة الحال شعورية عهدئذ، بذكاء الطفل وبالمعطيات التي في متناوله. ومما يؤخذ هنا في الحسبان ما تقتضيه هذه الأخاييل من مجهود ضروري لصوغها وإخراجها حتى تأتي مشاكِلة للواقع. ويتمّ بلوغ هذا الطور قبل أن تتحصل للطفل المعرفة بالشروط الجنسية للولادة.

حينما يتوصل الطفل، فضلاً عن ذلك، إلى معرفة الفارق بين الأب والأم فيما يتصل بالجنسية، وحينما يدرك أن **الأبوة هي على الدوام محط شكوك**[٣] بينما **الأمومة فوق الشبهات**[٤]، فعندئذ يطرأ على الرواية العائلية تقييد من نوع خاص: إذ تكتفي في هذه الحال بأن تبوِّئ الأب مكانة عالية من دون أن تعود

٢ ـ انظر في هذا الصدد س. فرويد: **الأخاييل الهستيرية وصلتها بالجنسية المثلية**، ١٩٠٨، الأعمال الكاملة، م٧، ص ١٩١ ـ ١٩٩. وهو مقال فيه إحالة إلى الأدبيات المكتوبة حول هذا الموضوع(*). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) انظر المقال السابق. «م».

٣ ـ باللاتينية في النص: pater semper incertus est. «م».

٤ ـ باللاتينية في النص: Certissima. «م».



إلى التشكيك في الواقعة التي لا رجوع فيها بعد الآن، أي واقعة انحدار الطفل من الأم. هذا الطور الثاني (الطور الجنسي) من الرواية العائلية ينبثق أيضاً عن دافع ثانٍ ما كان يتوفر للطور الأول (الطور اللاجنسي). فمع المعرفة بالعملية الجنسية يظهر لدى الولد ميل إلى تصور نفسه في مواقف وعلاقات إيروسية؛ وقوة الدافع الغريزي التي تتدخل هنا هي الرغبة في وضع الأم ـ التي تكون قد صارت محط فضولٍ جنسي جارف ـ في موقف المرأة الخائنة التي تعقد في الخفاء علاقات غرامية. وعلى هذا النحو ترتفع الأخاييل الأولى، التي هي بنوع ما لاجنسية، إلى مستوى المعرفة التي تحصلت الآن للولد.

وعلى كل حال، إن الانتقام والردّ بالمثل ـ وهما اللذان كانا يتبوَّآن سابقاً كدافع مكانة الصدارة ـ يظهران هنا أيضاً. فهؤلاء الأولاد المعصوبون هم أيضاً، في غالب الأحيان، أولئك الذين كان ذووهم قاصصوهم ليحملوهم على نبذ عاداتهم الجنسية السيئة والذين ينتقمون الآن من ذويهم عن طريق مثل تلك الأخاييل.

إنهم بوجه خاص أطفال جاؤوا إلى الدنيا متأخرين، فراحوا (كما في المكائد التاريخية) يجرِّدون سابقيهم، بهذا النوع من الأخاييل، من امتيازهم، وقد لا يتورعون في بعض الأحيان عن أن يختلقوا للأم علاقات غرامية تعادل في العدد عدد ما يواجهونه من منافسين غرماء. وثمة صيغة مثيرة للاهتمام من هذه الرواية العائلية هي تلك التي يعود فيها البطل، بعد أن يكون أقصى في خياله باقي إخوته وأخواته باعتبارهم أولاداً غير شرعيين، أدراجه هو نفسه إلى الشرعية. ومن الممكن في هذه الحال أن يتدخل اهتمام خاص ليوجِّه في وجهة أخرى الرواية العائلية التي تصلح، بحكم تعدد مظاهرها وتنوع إمكانياتها، لأن تكون مطية لميول ونوازع شتى. ومن ذلك على سبيل المثال أن يتخلص صانع الأخاييل الصغير بهذه الطريقة من صلة الرحم التي تربط بينه وبين أخت أمكن لها أن تجتذبه جنسياً.

أما من قد يشيح مستفظعاً عما نقوله هنا عن الفساد الذي يمكن أن تنطوي عليه النفس الطفلية، ومن قد يتنطع للمماراة في إمكان حصول أمور كهذه،



فبوسعنا أن نلفت نظره إلى أن تلك الأخاييل، التي هي في ظاهرها ممعنة في العدائية، لا تنمّ في الحقيقة عن نية سيئة إلى هذا الحدّ، بل تحافظ، وإن بتنكر خفيف، على الحب الأصلي الذي يكنّه الطفل لوالديه. فنحن أمام ظاهر فحسب من الخيانة والجحود؛ أما إذا أنعمنا النظر عن كثب في أكثر هذه الأخاييل الروائية تواتراً، أعني أخيولة استبدال الوالدين، أو الأب وحده، بأشخاص أرفع مقاماً، فلن نلبث أن نكتشف أن هذين الوالدين الجديدين، الأعلى منزلة، محبوّان بقسمات تنبع جميعها من ذكريات واقعية عن الوالدين الحقيقيين المتواضعي الحال، مما يعني أن الطفل لا يتخلص من أبيه بحقّ معنى الكلمة، بل على العكس يرفعه ويعلي كعبه. وحتى المجهود الذي يبذله الطفل لاستبدال أبيه الواقعي بأب أرفع مقاماً لا يعدو أن يكون تعبيراً عن حنينه إلى ذلك الزمن السعيد المنصرم الذي كان فيه أبوه يتبدى له أقوى الرجال وأعلاهم منزلة، وأمه أجمل النساء وأعزّهن. إنه ينأى عن الأب كما يعرفه الآن ليعود أدراجه إلى ذاك الذي آمن به في سنوات طفولته الأولى؛ وما هذه الأخيولة، بحقّ معنى الكلمة، إلا التعبير عن الحسرة على زوال ذلك الزمن السعيد. إذاً فالمغالاة في تقييم السنوات الأولى من الطفولة تستعيد كامل حقوقها في هذه الأخاييل. وتقدِّم لنا دراسة الأحلام مساهمة مهمة في هذا الموضوع. فتأويل الحلم يدلّ بالفعل أن شخصيتي الإمبراطور والإمبراطورة في الأحلام التي تُشاهد في زمن لاحق من العمر إنما تمثلان الأب والأم(٥). هكذا تستمر المغالاة الطفلية في تقييم الوالدين في حلم الراشد السويّ أيضاً.

٥ ـ **تأويل الحلم**، الأعمال الكاملة، م ٢ ـ ٣، ص٣٩٩.


مكتبة
الفكر الجديد

(٤)

تأملات عامة حول النوبة الهستيرية

(١٩٠٩)

(أ)

حينما نجري التحليل النفسي على مريضة بالهستيريا يفصح داؤها عن نفسه في صورة نوبات، نقتنع في يسر بأن هذه النوبات ما هي إلا أخاييل ترجمت إلى اللغة الحركية، وأسقطت على الطاقة المحرّكة، وتجسدت وفق نمط التعبير الإيمائي. إنها بكل تأكيد أخاييل لاشعورية، ولكنها مماثلة في النوع لتلك التي نتبيَّنها حالاً في الأحلام النهارية أو نستنتجها بالتأويل بدءاً من الأحلام الليلية. فغالباً ما يكون الحلم بديلاً عن نوبة، والأغلب من ذلك أنه يساعد في فهم النوبة، نظراً إلى أن الأخيولة الواحدة تجد في الحلم وفي النوبة وسائل تعبير متباينة. من حقنا إذاً أن نتوقع التوصل من خلال دراسة النوبة إلى معرفة الأخيولة المتجسدة فيها، ولكن نادراً ما نصيب فلاحاً في ذلك. فالتشخيص الإيمائي للأخيولة يتعرض إجمالاً، تحت تأثير الرقابة، لتحريفات مماثلة تماماً لتحريفات التشخيص الهلوسي في الحلم، مما يجعل التشخيصين كليهما مستغلقين على وعي الفرد المعنيّ كما على فهم المتفرج. النوبة الهستيرية تقتضي إذاً معالجة تأويلية مماثلة لتلك التي نخضِع لها الأحلام الليلية. فليست قوة التحريف ولا غاية هذا التحريف هما وحدهما اللتين تطابقان ما ألِفْناه في تأويل الأحلام، بل كذلك أسلوب هذا التحريف.

١ ـ إن ما يجعل النوبة مستغلقة على الفهم هو أنها تنطوي على تشخيص متزامن لعدة أخاييل في مادة واحدة، أي أنها تلجأ إلى **التكثيف**. وسواء أكانت هذه الأخاييل لا تتجاوز الاثنتين عدداً أم تتعداهما، فإن سماتها المشتركة تؤلف



كما في الحلم نواة التشخيص. والأخاييل التي يطابق على هذا النحو بعضها بعضاً هي في الغالب من أنواع متمايزة تماماً، ومن ذلك على سبيل المثال جمعها بين رغبة حديثة وبين إحياء لخبرة طفلية؛ وفي هذه الحال تعمل تعصيبات واحدة في خدمة الغرضين، وفي الغالب بأسلوب هو من البراعة في منتهاها. وهكذا، إن بعض الهستيريين الذين يستخدمون إلى حدّ كبير التكثيف يصلون إلى مبتغاهم عبر شكل واحد من أشكال النوبة؛ بينما يعبِّر غيرهم عن جملة من الأخاييل الإمراضية بمضاعفتهم أيضاً أشكال النوبة.

٢ ـ إن ما يجعل النوبة عصيَّة على الفهم هو أن المريضة تؤدي أفعال الشخصين الاثنين اللذين يضطلعان بدور في الأخيولة، أي أنها تقوم بعملية **مماهاة متعددة**. وليعد القارئ إلى المثال الذي ذكرته في **الأخاييل الهستيرية وصلتها بالجنسية المثلية** (**مجلة العلم الجنسي**، لناشرها هيرشفلد، م١، العدد١) عن المريضة التي تنتزع ثوبها بيد (بوصفها رجلاً) بينما تشدّه بيدها الأخرى إلى جسمها (بوصفها امرأة).

٣ ـ إن تحريفاً عجيباً تماماً ينجم عن **القلب الطباقي للتعصيبات**، فيكون مشابهاً من ثم لانقلاب العنصر إلى ضده على النحو المألوف في الأحلام؛ فالعناق على سبيل المثال تشخِّصه النوبة على النحو التالي: ذراعان تُمدَّان بصورة متشنجِّة إلى الوراء إلى أن تلتقي أصابع اليدين من فوق العمود الفقري. ومن المحتمل أن «القوس الدائري»، المشهور في النوبة الهستيرية الكبرى[1]، هو مجرد إنكار قوي، بطريق التعصيب الطباقي، لوضعية جسمية مناسبة للاتصال الجنسي.

٤ ـ وتكاد لا تقلّ عن ذلك فداحة البلبلة والأخطاء التي تنجم عن **عكس التسلسل الزمني** في داخل الأخيولة المشخَّصة؛ ويجد هذا التحريف بدوره

---

١ ـ القوس الدائري: عرض هستيري كان أول من وصفه طبيب الأعصاب الفرنسي بول ريشر (١٨٤٩ ـ ١٩٣٣) في كتابه: **دراسات سريرية حول الهستيريا الكبرى** بالإحالة إلى مريضة في العشرين من العمر كان يتولى معالجتها. فقد أخذت النوبة الهستيرية لديها، بين الصراخ والزعيق، شكل تشنُّج جسدي لكامل جذعها كقوس الدائرة، فيما الرأس يدور يميناً ويساراً والعينان غاب بؤبؤهما ولم يعد يظهر منهما سوى بياضهما، واللسان متدلٍّ ومتورِّم. «م».



صورة طبق الأصل عنه في الكثير من الأحلام التي تبدأ من نهاية الحدث لتنتهي ببدايته. لنأخذ مثالاً على ذلك مريضة هستيرية تدور أخيولتها الإغوائية حول المضمون التالي: إنها جالسة على مقعد في حديقة تطالع، وقد ارتفع طرف ثوبها قليلاً فبانت قدمها؛ يقترب منها رجل ويراودها عن نفسها ويقتادها إلى موضع آخر ليضاجعها. أما أثناء النوبة فتأخذ الأخيولة الشكل التالي: تبدأ بالتشنج ويتخذ جسمها وضعية مناظرة لوضعية الجماع، ثم تنهض وتنتقل إلى غرفة أخرى حيث تجلس على أريكة لتطالع، وفي النهاية تردّ على العبارات التي يوجِّهها إليها محاور وهمي.

إن آخر تحرفين تكلمت عنهما يتيحان لنا أن نرهص بشدة المقاومات التي يتعيَّن على المكبوت أن يحسب حسابها إلى حين فيضه في صورة نوبة هستيرية.

(ب)

يتقيد ظهور النوبات الهستيرية بقوانين سهل فهمها. فما دام قوام العقدة المكبوتة توظيفاً ليبدوياً ومضموناً فكرويا (الأخيولة)، فمن الممكن أن تنجم النوبة: ١ ـ بطريق **التداعي** متى ما تحرك المضمون (الموظّف بما فيه الكفاية) من جراء ارتباط ما بالحياة الشعورية؛ ٢ـ **عضوياً** متى ما ارتفع التوظيف الليبيدوي لأسباب بدنية باطنة، وتحت التأثير النفسي لعامل خارجي، إلى ما فوق مستوى محدّد؛ ٣ ـ في خدمة **الميل الأولي**، كتعبير عن «اللواذ بالمرض»، متى ما غدا الواقع مؤلماً أو مرعباً، أي كعزاء؛ ٤ ـ في خدمة **الميول الثانوية** التي يتحالف معها المرض متى ما كان في الإمكان بلوغ هدف نافع للمريض عن طريق إنتاج النوبة. وفي هذه الحالة الأخيرة تُوقَّت النوبة بدالّة بعض الأشخاص، ومن الممكن أن تُرجأ بسببهم، وقد توحي بأنها محض محاكاة مصطنعة واعية.

(ج)

إذا درسنا التاريخ الطفلي للهستيريين تبيَّن لنا أن الغرض من النوبة الهستيرية أن تكون بديلاً عن إشباع **إيروسي ذاتي** كان المريض يوفِّره لنفسه فيما سبق ثم ما



لبث أن أقلع عنه بعد ذلك. وفي عدد كبير من الحالات نرى هذا الإشباع (الاستمناء عن طريق الملامسة أو ضغط الساقين أو حركة اللسان، إلخ) يعاود ظهوره في النوبة ذاتها بفضل غياب الوعي. وظهور النوبة تحت تأثير ارتفاع شدة الليبيدو وكعزاء في خدمة الميل الأولي يكرر أيضاً بدقَّة الشروط التي كان المريض قد طلب في ظلِّها عن عمد في الماضي ذلك الإشباع **الإيروسي الذاتي**. وتاريخ الحالة المرضية يكشف عن الأطوار التالية: أ ـ إشباع إيروسي ذاتي بدون مضمون فكروي؛ ب ـ الإشباع الإيروسي الذاتي عينه بالترابط مع أخيولة تفضي إلى فعل الإشباع؛ ج ـ الإقلاع عن الفعل مع الحفاظ على الأخيولة؛ د ـ كبت هذه الأخيولة التي تفرض نفسها فيما بعد على النوبة سواء أبقيت كما هي بلا تغيير أم تبدلت لتتكيَّف مع خبرات حياتية جديدة؛ هـ ـ ليس من المستبعد أن تحيي الأخيولة بنفسها من جديد الفعل الإشباعي الخاص بها والذي يبدو وكأنها نسيت عادته. والدائرة هنا نمطية: نشاط جنسي طفلي ـ كبت ـ فشل الكبت ـ عودة المكبوت.

من المحقق أن سلس البول لا يجوز أن يعدّ متنافياً مع التشخيص الطبي للنوبة الهستيرية؛ وكل ما في الأمر أنه يكرر الشكل الطفلي للاحتلام القسري. وقد يصادفنا أيضاً، في حالات هستيرية أخرى لا مماراة فيها، عضّ اللسان، وهذا الفعل لا يتنافى هو الآخر مع الهستيريا مثلما لا يتنافى مع لعبة الحب؛ ومما يسهِّل ظهوره في النوبة تنبُّه المريضة لصعوبات التشخيص التفاضلي نتيجة لما توفَّر لها من معلومات أمدّها بها الفحص الطبي. وقد يتفق أن يجرح الهستيريون، وعلى الأخص الذكور، أنفسهم في أثناء النوبة: وفي هذا تكرار لمضرة وقعت في عهد الطفولة (على سبيل المثال نتيجة لمشاجرة).

إن الغياب عن الوعي، أو «غيبوبة» النوبة الهستيرية، مرده إلى الانسحاب العارض، لكن غير القابل للمماراة فيه، للوعي في ذروة كل إشباع جنسي جارف (بما فيه الإشباع الإيروسي الذاتي). وأصل الغيبوبات الهستيرية الناجمة عن عوارض الاحتلام لدى من هنّ في مقتبل العمر من الإناث هو الذي يتيح لنا أن نتتبع على أوثق نحو هذا التطور. وأرجح الظن أن ما يعرف باسم الحالات



النوامية[٢]، والغيبوبات في أثناء أحلام اليقظة ـ وهي كثيرة التواتر لدى الهستيريات ـ ناجمة عن المصدر نفسه. وآلية هذه الغيبوبات بسيطة نسبياً. فالانتباه يُركِّز بادئ الأمر على مسار عملية الإشباع، ثم متى ما حان حين الإشباع يُعلَّق على حين بغتة كل ذلك التوظيف الانتباهي، بحيث يحدث فراغ مؤقت في الوعي. وهذه الثغرة الفيزيولوجية ـ إن صح التعبير ـ في الوعي لا تلبث أن تتوسع لحساب الكبت، إلى أن تقتدر على استقبال كل ما تنحيّه الهيئة الكابتة بعيداً عنها.

(د)

إن الآلية التي تهدي الليبيدو المكبوت إلى طريق التصريف الحركي في النوبة آلية جاهزة نلتقيها لدى الناس كافة بمن فيهم النساء: الآلية الانعكاسية لفعل الجماع التي تسفر عن نفسها في الاستسلام بغير ما حدود للنشاط الجنسي. وقد كان القدامى يقولون إن الجماع «نوبة صرع صغيرة»[٣]. وما علينا إلا أن نبدّل الصيغة كالآتي: إن النوبة التشنجية الهستيرية هي مكافئ للجماع. والمقايسة مع نوبة الصرع لا تجدينا فتيلاً: فأصل هذه الأخيرة أعصى على الفهم حتى من أصل النوبة الهستيرية.

وبالإجمال، إن النوبة الهستيرية والهستيريا بصفة عامة تحييان لدى المرأة من جديد جانباً من النشاط الجنسي الذي عرفته في الطفولة والذي كان ينمّ عهدئذ عن طابع ذكوري محض. وبوسعنا أن نلاحظ في كثرة غالبة من الأحوال أن بعض البنات اللواتي كن يبدين حتى سنيّ البلوغ عن طبيعة وميول غلامية يصرن هستيريات بدءاً من زمن البلوغ. وفي طائفة بكاملها من الحالات لا يكون العصاب الهستيري مطابقاً إلا للأثر البالغ الشدة لتلك الاندفاعة الكبتية النمطية التي تقصي الجنسية الذكرية لتستولد المرأة (انظر: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، ١٩٠٥).

---

٢ ـ الحالات النوامية: مصطلح صاغه جوزيف بروير في **دراسات حول الهستيريا**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٣ ـ قول منسوب إلى كبير أطباء اليونان أبقراط (٤٦٠ ـ ٣٥٦ ق.م). «م».



(٥)

اضطراب الرؤية النفسي المنشأ في التصور التحليلي النفسي (١٩١٠)

سادتي وزملائي الأعزاء[١]، بودي أن أوضح لكم من خلال مثال اضطراب الرؤية النفسي المنشأ ما التغييرات التي طرأت على تصورنا لأصل هذا الداء تحت تأثير منهج البحث التحليلي النفسي. أنتم تعلمون أن العمى الهستيري يُعدّ النموذج الأول لاضطراب الرؤية النفسي المنشأ. أما أصل هذا الاضطراب فالمفروض أنه تحدَّد بعد أبحاث المدرسة الفرنسية، وعلى الأخص شاركو CHARCOT[٢] وجانيه JANET[٣] وبينيه BINET[٤]. بل صار بالإمكان اصطناع هذا العمى تجريبياً إذا وجد شخص لديه قابلية للسرنمة

---

١ ـ ألقى فرويد هذه المداخلة في الأول من أيار/مايو ١٩١٠ ضمن سلسلة من المداخلات التي ألقيت تكريماً لليوبولد كونيغشتاين احتفالاً بعيد ميلاده الستين. وليوبولد كونيغشتاين طبيب عيون ألماني (١٨٥٠ ـ ١٩٢٤) كان من أقدم أصدقاء فرويد، وقد ساهم في المؤتمر الأول للتحليل النفسي الذي انعقد في مدينة سالزبورغ النمساوية في نيسان/ أبريل ١٩٠٨. بيد أن فرويد نفسه هو من أبدى، في رسالة منه إلى ساندور فيرنزي في ١٢ نيسان/ أبريل ١٩١٠، عن عدم رضاه عن هذا «العمل الصغير» الذي جاء مراعاة لطلب مسبق. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢ ـ جان مارتن شاركو: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٠). أستاذ التشريح الباتولوجي في مستشفى السالبترير. درس الهستيريا بوجه خاص، ولاحظ أن النوبات تنشأ عن ذكرى دفينة لصدمة انفعالية قوية. درس عليه فرويد لحين من الزمن. «م».

٣ ـ بيير جانيه: عالم نفس فرنسي (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧). أشرف على مختبر علم النفس في السالبترير، وقال بوجوب اقتصار هذا العلم على الملاحظة والتجريب، وكان من الممهدين لاكتشاف اللاشعور. «م».

٤ ـ ألفريد بينيه: عالم نفس فرنسي (١٨٥٧ ـ ١٩١١). مدير مختبر علم النفس الفيزيولوجي في السوربون. اهتم بدراسة الذكاء، ووضع أول روائزه، ومهدّ لعلم النفس الحسابي. «م».



SOMNAMBULISME. فلو نُوِّم هذا الشخص تنويماً عميقاً وأوحي إليه أنه لا يرى بإحدى عينيه شيئاً، لتصرَّف بالفعل تصرُّف إنسان عميت عينه تلك، تصرُّف امرأة هستيرية مصابة باضطراب تلقائي في الرؤية. من حقنا إذاً أن نبني آلية الاضطراب البصري الهستيري التلقائي طبقاً لنموذج الاضطراب البصري الموحى به تنويمياً. ولكن اعتقاد الهستيري بأنه «أعمى» لا ينبع مما يوحي إليه المنوِّم، بل ينشأ من تلقاء نفسه كما لو بالإيحاء الذاتي كما يقال. بيد أن هذا الاعتقاد بالعمى في كلتا الحالتين قوي للغاية بحيث يشقّ طريقه إلى الواقع، مثله مثل الهلوسة الموحى بها أو الشلل الموحى به أو غير ذلك من الظاهرات المماثلة.

يقيناً، إن قولاً كهذا يبدو موثوقاً تماماً، ولا مناص من أن يرضي كل من يستطيع أن يغضّ النظر عن الألغاز الكثيرة التي تختبئ وراء مفاهيم التنويم والإيحاء والايحاء الذاتي. والحال أن الإيحاء الذاتي هو الذي يثير بوجه خاص أسئلة جديدة. فمتى، وفي أية شروط، تغدو فكرة من الأفكار قوية إلى حدّ تتمكن معه من سلوك مسلك الإيحاء ومن شقّ طريقها بصفتها هذه إلى الواقع؟ لقد دلتنا هنا أبحاث أكثر تعمقاً أنه من المستحيل الإجابة عن هذا السؤال بدون الاستعانة بمفهوم «اللاشعور». وكثيرون هم الفلاسفة الذين يأبون التسليم بوجود لاشعور نفسي كهذا، لأنهم ما شغلوا أنفسهم قط بالظاهرات التي توجب افتراض وجوده. أما المعالِجون النفسانيون فقد بات محتماً عليهم أن يتعاملوا مع سيرورات نفسية لاشعورية، ومع تمثلات وأفكار لاشعورية، إلخ.

لقد دلت تجارب حاذقة على أن المصابين بالعمى الهستيري يستمرون بمعنى ما في الرؤية، وإن لم يكن بملء معنى الكلمة. وبالفعل، إن التنبيهات التي تصل إلى العين «العمياء» يمكن أن تترتب عليها بعض النتائج النفسية، كأن تستثير انفعالات وجدانية، وإن لم يقيَّض لها أن تصير شعورية. إذاً، فالمصابون بالعمى الهستيري ليسوا عمياناً إلا بالنسبة إلى الشعور، أما في اللاشعور فيبصرون. وإن تجارب من هذا النوع تحديداً هي التي أرغمتنا على التفريق بين السيرورات النفسية الشعورية والسيرورات النفسية اللاشعورية. فكيف لنا أن نفسّر «إيحاءهم الذاتي» اللاشعوري لأنفسهم بأنهم «عميان» مع أنهم في اللاشعور مبصرون؟



عن هذا السؤال الجديد يجيب الباحثون الفرنسيون بأن المرضى الذين لديهم استعداد للهستيريا يوجد لديهم من البداية ميل إلى التفكك - أي إلى انحلال الترابط والتلاحم في اشتغال الجهاز النفسي - يحول دون أن يتابع العديد من السيرورات النفسية طريقه إلى الشعور. وبدلاً من أن نتساءل عن قيمة هذه المحاولة لتفسير الظاهرات التي هي موضع اهتمامنا، لنأخذ بوجهة نظر مغايرة تماماً. فقد أدركتم ولا بدّ، يا سادتي، أن وحدة الهوية بين العمى الهستيري والعمى المستحدث بالإيحاء، وهي الوحدة التي ألححت عليها في بادئ الأمر، قد أُسقطت الآن من الاعتبار. فالهستيريون ليسوا عمياناً من جراء الفكرة التي توحي لهم ذاتياً بأنهم لا يبصرون، وإنما من جراء الانفكاك بين السيرورات اللاشعورية والسيرورات الشعورية في فعل الإبصار؛ فاعتقادهم بأنهم لا يبصرون هو التعبير المبرَّر عن الحالة النفسية الفعلية، ولكنه ليس علّتها.

سادتي، لئن أخذتم على العرض الذي قدّمته لكم افتقاره إلى الوضوح، فلن يكون يسيراً عليّ الدفاع عنه. فقد حاولت أن أقدِّم لكم تركيباً لوجهات نظر باحثين مختلفين، وأرجح الظن أن ذلك هو ما حملني على الشطط والغلوّ في التوكيد على الترابط بين الأشياء. فقد أردت أن أكثِّف في صيغة مركّبة متجانسة واحدة المفاهيم التي بها أنيط فهم الاضطرابات النفسية المنشأ: تكوّنها بدءاً من أفكار مفرطة القوة، التمييز بين السيرورات النفسية الشعورية والسيرورات النفسية اللاشعورية، وفرضية التفكك النفسي. وما كان لي أن أصيب في ذلك نجاحاً أكبر من ذاك الذي أصابه الباحثون الفرنسيون، وعلى رأسهم ب. جانيه. أستمحيكم إذاً معذرة لا عن قلة الوضوح في عرضي فحسب، بل كذلك عن عدم أمانته، واسمحوا لي بأن أسرد على مسامعكم كيف قادنا التحليل النفسي إلى تصور للاضطرابات البصرية النفسية المنشأ هو بحدّ ذاته أرسخ أسساً وأقرب بوجه الاحتمال إلى ما يجري في الحياة فعلياً.

يقبل التحليل النفسي هو الآخر بفرضيتي التفكك واللاشعور، لكنه يربط بينهما ربطاً مغايراً تماماً. فالتحليل النفسي عبارة عن تصور دينامي، يردّ الحياة النفسية إلى تصارع بين القوى التي يؤازر أو يقمع بعضها بعضاً. ففي الحالات



التي تبقى فيها طائفة من التمثلات[٥] حبيسة اللاشعور لا يستنتج التحليل النفسي وجود عجز جِبِلّي عن التركيب يتجلى تحديداً في ذلك التفكك، بل يؤكد على العكس من ذلك أن التمرد الفعال لطائفة أخرى من التمثلات هو الذي تسبَّب في انعزال الطائفة الأولى وبقائها حبيسة اللاشعور. ويطلق التحليل النفسي اسم «الكبت» على السيرورة التي تؤول بمقتضاها إحدى الطائفتين إلى مثل ذلك المصير، ويتعرف فيها شيئاً يضارع في مجال المنطق الحكم بالردّ. ويوضح أن هذه الكبوتات تضطلع بدور خارق الأهمية في حياتنا النفسية، وأنها قابلة من جهة أخرى لأن تمنى في كثير من الأحوال بالفشل بالنسبة إلى الفرد، وأن فشل الكبت هذا هو الشرط المسبق لتكوين العرض.

إن يكن اضطراب الرؤية النفسي المنشأ يرتكز إذاً، كما سبق لنا بيان ذلك، إلى بقاء بعض التمثلات المرتبطة بالإبصار منفصلة عن الشعور، فإن طريقة التحليل النفسي في التفكير ترغمنا في هذه الحال على الافتراض بأن هذه التمثلات تقع تحت تأثير نير الكبت بحكم تعارضها مع تمثلات أخرى صارت أقوى منها وعليها نطلق اسم «الأنا»، وهو مفهوم عام يختلف تركيبه من حالة إلى أخرى. لكن من أي مصدر يُمتح مثل هذا التعارض الذي يقوم بين الأنا وبين مجموعات منفردة من التمثلات والذي يتأدى إلى الكبت؟ إنكم ستلحظون أن هذا النوع من الأسئلة ما كان ممكناً قبل التحليل النفسي، إذ ما كان يُعرف شيء قبله عن الصراع النفسي والكبت. وقد أهَّلتنا أبحاثنا الآن للتقدم بالجواب المنتظر. فقد صرنا نعير انتباهاً لأهمية الدوافع الغريزية في حياة التمثلات والأفكار، وقد دلتنا التجربة أن كل دافع غريزي يسعى إلى فرض نفسه بنفخه الحياة في التمثلات المواتية لأهدافه. فهذه الدوافع الغريزية لا تتوافق دواماً فيما بينها، بل كثيراً ما ينشب فيما بينها نزاعُ مصالح؛ وما التعارضات بين التمثلات إلا التعبير عن المعارك بين شتى الدوافع الغريزية. والتعارض الذي لا مرية فيه بين الدوافع الغريزية التي تعمل في خدمة الجنسية والفوز باللذة الجنسية وبين الدوافع الغريزية الأنوية

٥ ـ أي الأفكار. لكن فرويد يؤثر تعبير التمثلات (ومفردها تمثل) المقتبس مباشرة من التراث الفلسفي الألماني.



التي ترمي إلى تمكين الفرد من المحافظة على ذاته وبقائه يرتدي أهمية بالغة بالنسبة إلى محاولتنا التفسيرية. وجميع الدوافع الغريزية العضوية التي تفعل فعلها في نفسنا يمكن أن تُصنَّف، طبقاً لقول الشاعر، إلى «جوع» و«حبّ»[٦]. وقد تتبعنا «الدافع الغريزي الجنسي» ابتداء من تظاهراته الأولى لدى الطفل وإلى أن يبلغ تشكله النهائي الذي يوصف بـ «السواء»، واكتشفنا أنه مركَّب من «دوافع غريزية جزئية» عديدة مرتبطة بالتنبيهات التي تطال مناطق شتى من الجسم؛ وقد اتضح لنا أن هذه الدوافع الغريزية الجزئية المنعزلة لا بدّ أن تمرّ بتطور معقد قبل أن تتمكن من الانضواء تحت لواء أهداف التناسل بكيفية موائمة. وقد تبيَّن لنا من دراسة تطورنا الحضاري على ضوء علم النفس أن ظهور الحضارة يتمّ بصورة أساسية على حساب الدوافع الغريزية الجنسية، وأن هذه الدوافع لا بدّ من أن تُحدّ وتُقمع ويعاد تشكيلها وتُحوَّل نحو أهداف أسمى وأرفع لتشيد صرح الأبنية النفسية الحضارية. وإننا لندين لهذه البحوث بنتيجة قيّمة لا يريد زملاؤنا أن يأخذوا بها بعد، وهي أن عذابات البشرية التي تعرف باسم «الأعصبة» ينبغي أن تُردّ إلى مختلف أنماط الفشل في عمليات إعادة التشكيل التي يفترض أن تخضع لها الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية. فـ «الأنا» يشعر بأنه مهدَّد من جراء مطالب الدوافع الغريزية الجنسية، فيتَّقي شرَّها بكبوتات لا تتمخض على الدوام عن النتيجة المرجوة، بل تنجم عنها على العكس تشكيلات بديلة للمكبوت منذرة بالخطر وتشكيلات ارتجاعية للأنا مضنية ومؤلمة. وإنما من هاتين الفئتين من الظاهرات يتألف ما نسمِّيه أعراض الأعصبة.

لقد قادنا استطرادنا الطويل إلى ابتعادنا ظاهرياً عن موضوعنا، لكن ذلك أتاح لنا أن نقول بضع كلمات عن كيفية ارتباط الحالات المَرَضية العصابية بمجمل حياتنا النفسية. فلنعد الآن أدراجنا إلى مشكلتنا الخاصة والأضيق نطاقاً. فبصفة عامة، إن الأعضاء والأجهزة العضوية التي تعمل في خدمة الدوافع الغريزية الجنسية هي عينها التي تعمل في خدمة الدوافع الغريزية الأنوية. فاللذة الجنسية

---

٦ ـ شيلر: **حكماء العالم**. وهو استشهاد يحلو لفرويد أن يكرره في عديد من المواضع. هامش الترجمة الفرنسية.



لا ترتبط بوظيفة الأعضاء التناسلية وحدها؛ فالفم يفيد في التقبيل كما في الأكل والتواصل الكلامي، والعينان لا تدركان فقط تبدلات العالم الخارجي ذات الأهمية بالنسبة إلى بقاء الحياة، بل كذلك خواص المواضيع التي عن طريقها تُرفع هذه الأخيرة إلى مرتبة مواضيع للاختيار الحبِّي وتضفي عليها «جاذبيتها». وعندئذ يتأكد أنه ليس من السهل على أحد أن يخدم سيدين معاً. فكلما توثقت العلاقة التي يعقدها عضو محبوّ بتلك الوظيفة ذات الوجهين مع أحد الدافعين الغريزيين الأكبرين، تأبّى على الآخر وتمنّع. ويفضي هذا المبدأ حتماً إلى عواقب باتولوجية إذا ما انفصمت عرى الدافعين الغريزيين الرئيسيين، وإذا ما قابل الأنا بالكبت الدافع الغريزي الجزئي الجنسي ذا العلاقة. وليس من العسير تطبيق ذلك على العين والإبصار. فإن يكن الدافع الغريزي الجزئي الجنسي الذي يستخدم النظر، أي اللذة السكوبتوفيلية الجنسية[٧]، قد جلب عليه بسبب الشطط في صبواته هجوماً مضاداً من قبل الدوافع الغريزية الأنوية، بحيث يتحتم أن تقع التمثُّلات التي يفصح فيها عن صبواته تحت نير الكبت وأن يُسدّ عليها المنفذ إلى الشعور، فعندئذ يطرأ خلل كامل على علاقة العين والإبصار بالأنا وبالشعور. فالأنا يفقد سيطرته على العضو الذي بات الآن يعمل بتمامه في خدمة الدافع الغريزي الجنسي المكبوت. وهذا يوحي بأن الكبت من جانب الأنا يشطّ ويغلو في الشطط فيرمي بالطفل مع ماء الحمام[٨]: فمنذ أن احتلت الاهتمامات الجنسية مقدمة المسرح في حقل الرؤية، عدل الأنا عن رؤية أي شيء على الإطلاق. لكن الطريقة المقابلة في تصوير الأمور، أي تلك التي تعزو الفاعلية إلى السكوبتوفيليا المكبوتة، تبدو أوفق وأكثر سداداً. فالدافع الغريزي المكبوت، المحال بينه وبين كل تفتُّح نفسي لاحق، يأخذ بثأره ويعوِّض عن خسارته: إذ يسعه من الآن فصاعداً أن يشدد هيمنته على عضو الإبصار الموضوع في خدمته. ففقدان السيطرة الشعورية على هذا العضو هو التشكيل

---

٧ ـ السكوبتوفيليا أو النظارية الجنسية: اللذة الجنسية التي يجنيها المرء من أن يَنظر أو أن يُنظر، ومن ثم هي ذات شقين: إيجابي وسلبي، تقابلهما التلصصية VOYEURISME والاستعرائية EXHIBITIONNISME. «م».

٨ ـ تعبير لغوي دارج اليوم في اللغات الأوروبية نقلاً عن الألمانية، ويقصد به السهو عما هو أساسي. «م».



البديل الضارّ الذي يحلّ محلّ الكبت الفاشل والذي ما كانت لتتاح إمكانيته إلا لقاء هذا الثمن.

إن العلاقة بين العضو الذي يطالب به كلا الجانبان وبين الأنا الشعوري والجنسية المكبوتة تتضح بقدر أكبر من الجلاء بعدُ في الأعضاء الحركية منها في عضو البصر؛ وعلى سبيل المثال حينما تصاب اليد، التي كانت ترغب في ارتكاب عدوان جنسي، بشلل هستيري ولا يعود في مقدورها، بعد كفّ العدوان، أن تفعل شيئاً آخر، وكأنها تتشبث تشبثاً عنيداً بتنفيذ ذلك الفعل المكبوت تعصيبياً؛ أو حينما تأبى أصابع الأشخاص الذين أقلعوا عن الاستمناء أن تتعلم الحركات المرهفة التي يتطلبها عزف البيانو أو الكمان. أما فيما يتصل بالعين فمن عادتنا أن نحلل السيرورات النفسية الغامضة، التي تتدخل في كبت السكوبتوفيليا الجنسية وفي حدوث اضطراب الرؤية النفسي المنشأ، بافتراضنا مجازياً أن صوتاً قصاصياً يرتفع في داخل الفرد قائلاً له وكأنما يعلن عن موافقته على مآل المحاكمة: «بما أنك رغبت في أن تسيء استعمال عضوك البصري باستخدامك إياه من أجل لذة شهوانية خبيثة، فمن العدل ألا تبصر بعد الآن شيئاً». الفكرة المتضمنة هنا هي إذاً فكرة قصاص بالمثل، وتفسيرنا للاضطراب البصري النفسي المنشأ يتمشى تماماً مع التفسير الذي تشير به الحكاية والأسطورة والخرافة. ففي قصة **الليدي غوديفا**[٩] الرائعة يختبئ جميع سكان البلدة الصغيرة خلف نوافذهم المغلقة ليسهِّلوا على السيدة أداء فريضتها، أي التجوال في الطرق عارية في وضح النهار فوق صهوة حصان. والشخص الوحيد الذي تلصص من خلال خصَص الشباك على الجمال المعرّى عوقب بالعمى. وليس هذا أصلاً بالمثال الوحيد الذي يحملنا على التكهن بأن علم الأعصبة يشتمل أيضاً على مفتاح الميتولوجيا.

٩ ـ الليدي غوديفا: سيدة أنغلو ساكسونية من القرن الحادي عشر تزوجت من الكونت ليوفريك المرسي. وقد ارتبط اسمها بأسطورة تدوولت بعد قرن من موتها، ومفادها أنها اضطرت إلى أن تجتاز شوارع المدينة على الحصان وهي عارية تمام العري لتقنع زوجها بتخفيف الضرائب التي يفرضها على سكانها. ورغم أن القصة لا أساس تاريخي لها من الصحة، فقد ألهمت العديد من الرسامين، وكذلك المسرحي الفرنسي جان كانول. «م».



سادتي، من المآخذ التي تؤخذ ظلماً وبهتاناً على التحليل النفسي تمخُّضه عن نظريات سيكولوجية خالصة بصدد السيرورات الباتولوجية. والحق أن محض تشديده على الدور الإمراضي للجنسية، التي ما هي بكل تأكيد عامل نفسي صرف، كان يُفترض أن يدرأ عنه هذا المأخذ. فالتحليل النفسي لا يغيب عنه أبداً أن النفسي يرتكز إلى العضوي، وإن لم يكن في مستطاع عمله أن يتتبع النفسي إلا حتى هذا الأساس العضوي وليس إلى ما بعده. وعلى هذا، إن التحليل النفسي على أتمّ استعداد بدوره للتسليم، بل للمصادرة على أن اضطرابات البصر الوظيفية لا يمكن أن تكون كلها نفسية المنشأ نظير تلك التي تنشأ عن كبت السكوبتوفيليا الجنسية. فإن تعزز الدور الشهوي لعضو عامل في خدمة الدافعين الغريزيين، جاز لنا أن نتوقع بصورة عامة تماماً أن ذلك لن يمرّ بدون أن تطرأ على تعصيبه وقابليته للتنبيه تعديلات تترجم عن نفسها باضطرابات في الوظيفة العضوية العاملة في خدمة الأنا. كذلك إذا رأينا عضواً، يخدم في العادة الإدراك الحسي، يسلك على المكشوف سلوك عضو تناسلي من خلال مغالاته في دوره الشهوي، فإننا لن نستبعد أيضاً احتمال انطوائه على تعديلات سُمِّية. وهذان النوعان من الاضطرابات الوظيفية الناجمة عن تضخُّم في الدلالة الشهوية، أي الاضطرابات الفيزيولوجية الأصل والاضطرابات السُمِّية الأصل على حدّ سواء، لا نجد لفظاً نطلقه عليهما خيراً من الاسم القديم وغير المطابق: الاضطرابات «العصابية». والعلاقة بين اضطرابات البصر العصابية وبين الاضطرابات النفسية المنشأ هي بصفة عامة تماماً كالعلاقة بين الأعصبة الراهنة والأعصبة النفسية[١٠]. فاضطرابات الرؤية النفسية المنشأ لا يمكن أبداً أن تحدث بدون أن ترافقها اضطرابات عصابية. لكن هذه الأخيرة يمكن أن تحدث بدون الأولى. ومن سوء الحظ أن هذه الأعراض «العصابية» لا تزال إلى اليوم موضع اعتبار قليل وفهم أقلّ،

١٠ ـ الأعصبة الراهنة عند فرويد هي الأعصبة التي ينبغي البحث عن منشئها في حاضر المريض لا في ماضيه، وهي ترجع أساساً إلى الإحباط في الإشباع الجنسي أو استبداله بأشكال بديلة (الاستمناء، إلخ). وقد صنَّف فرويد في عدادها العصاب الحصَري والنوراستانيا وهجاس المرض. أما الأعصبة النفسية، كالهستيريا الاستبدالية والعصاب الوسواسي، فهي التي ينبغي البحث عن سرها في طفولة المريض. «م».



لأنها ليست في متناول التحليل النفسي مباشرة، كما أن طرائق البحث والتقصي الأخرى لم تولِ عامل الجنسية اعتباراً.

تتفرع عن التحليل النفسي أيضاً طائفة أخرى من الاستدلالات التي تتصل بالبحث العضوي. فبوسعنا أن نتساءل عما إذا كان قمع الدوافع الغريزية الجزئية الجنسية تحت ضغط التأثيرات الحياتية يكفي وحده لإنتاج الاضطرابات الوظيفية في الأعضاء، أم هل ينبغي أن تتوفر شروط جِبِلِّية خاصة تحضّ الأعضاء من الأساس على المغالاة بدورها الشهوي، فتحفز من ثمّ على كبت الدوافع الغريزية؟ وربما كان يُفترض بنا أن نرى في هذه الشروط حصة الجِبِلَّة في الاستعداد للإصابة باضطرابات باتولوجية نفسية المنشأ وعصابية. وهذا العامل هو ما أسميته بصفة مؤقتة، في الهستيريا، بـ «المسايرة البدنية» من قبل الأعضاء المعنية[11].

---

١١ ـ في الطبعة الأولى لهذه المداخلة (١٩١٠) كان النص مختتماً بالعبارة التالية التي حذفها فرويد نهائياً عام ١٩١٣ فصاعداً: «إن كتابات ألفريد آدلر المعروفة جيداً تسعى إلى تحديد هذا العامل بمصطلحات بيولوجية». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



(٦)
حول أنماط الدخول في العصاب
(١٩١٢)

سنصف في الصفحات التالية، ومن منطلق انطباعات ذات أصل اختباري، كنه التبدّلات التي يتعيَّن أن تطرأ على الشروط والظروف كيما تظهر الإصابة العصابية لدى الشخص الذي لديه استعداد مسبق لها. بيت القصيد إذاً أن ندرس العوامل التي تتسبب في ظهور المرض. ولن نتطرقِ إلا نادراً إلى أشكال المرض. والصورة التي نقدِّمها هنا عن الظروف المسبِّبة للمرض تتميَّز عن غيرها من بيانات العوامل بكونها تعزو إلى ليبيدو الفرد حصراً جملة التعديلات التي سيأتي بيانها. وقد أتاح لنا التحليل النفسي أن ندرك أن مصائر الليبيدو هي صاحبة القول الفصل في الصحة أو في المرض العصبيين. وسياق مقالنا هذا لا يبيح لنا أن نتوسع بغير ما جدوى في الكلام عن مفهوم الاستعداد. فالبحث التحليلي النفسي هو بالتحديد ما أتاح لنا أن نبيِّن أن الاستعداد العصابي يندرج في سياق تاريخ تطور الليبيدو، وأن نرجِع العوامل الفاعلة فيه إلى تنوعات فطرية في الجِبِلّة الجنسية وإلى تأثيرات العالم الخارجي المعاشة في الطفولة الأولى.

أ ـ إن أجلى الشروط التي تتسبب في الدخول في العصاب وأسهلها اكتشافاً وفهماً يتمثل في ذلك العامل الخارجي الذي يصح إطلاق اسم عام عليه هو **الحرمان** REFUSEMENT. فالفرد يكون في أتمّ صحة وعافية ما دامت حاجته الماسة إلى الحب تجد ما يشبعها في موضوع واقعي من العالم الخارجي؛ لكنه يصير معصوباً حالما يُسحب منه هذا الموضوع بدون أن يتقدم بديل للحلول محله. هنا تتوافق السعادة مع الصحة، والتعاسة مع العصاب. والشفاء يعود في



هذه الحال إلى القدَر ـ نظراً إلى ما يملكه من قدرة على تقديم بديل لإمكانية الإشباع المفتقدة ـ أكثر منه إلى الطبيب.

إن احتمال السقوط فريسة المرض بالنسبة إلى هذا النمط الذي يكاد يكون القاسم المشترك لغالبية الكائنات البشرية لا يبدأ إلا مع الاستنكاف والقطاعة، مما يتيح لنا أن نقيس مدى أهمية دور التقييدات التي تفرضها الحضارة على مجمل الإشباعات المتاحة إمكانيتها لنا في نشوء العصاب. وللحرمان مفعوله الإمراضي من حيث أنه يحتجز الليبيدو، واضعاً الفرد بالتالي على محكّ الاختبار لمعرفة كم من الزمن سيحتمل هذا الارتفاع في التوتر النفسي، وما الطرق التي سيسلكها ليتخلص من هذا التوتر. ولا وجود لغير إمكانيتين للبقاء في صحة جيدة في حال ديمومة أجل الحرمان الفعلي من الإشباع؛ قوام أولاهما قلب التوتر النفسي إلى طاقة موجبة وفعالة تبقى متوجهة نحو العالم الخارجي وترغم في نهاية المطاف هذا العالم على توفير إشباع فعلي لليبيدو؛ وقوام ثانيتهما العزوف عن الإشباع الليبيدوي، وإسماء الليبيدو المحتجز، واستخدامه في الوصول إلى أهداف غير إيروسية هذه المرة ولا تقع في دائرة الحرمان. فإن قُيِّض لهاتين الإمكانيتين أن تتحققا في مصائر الكائنات البشرية، كان في ذلك ما يثبت لنا أن التعاسة لا تتطابق مع العصاب، وأن الحرمان ليس وحده صاحب الأمر والنهي في صحة من يكابد منه أو في مرضه. والدور الأول للحرمان أن يطلق حرية الحركة للعوامل الجبلِّية التي بقيت إلى ذلك الحين خامدة عديمة الفاعلية.

ومتى ما توفرت هذه العوامل وكانت قوية بما فيه الكفاية، تعاظم خطر تحول الليبيدو إلى ليبيدو **انطوائي**[١]. فهو يشيح عن الواقع الذي يكون قد فقد قيمته في نظر الفرد من جراء استمرار الحرمان، ويلتفت نحو الحياة التخيُّلية فيختلق لنفسه في إطارها تشكيلات رغَبية جديدة أقدم عهداً ومنسية. وبحكم الصلة الوثيقة بين النشاط التخييلي والمادة الطفلية، الموجودة لدى كل فرد وإن تكن قد كبتت وأمست لاشعورية، ونظراً إلى المكانة الاستثنائية التي تتبوأها الحياة التخيُّلية في مواجهة امتحان الواقع[٢]، يمكن لليبيدو الآن أن يتراجع القهقرى إلى مسافة

١ ـ على حدّ التعبير الذي نحته ك. غ. يونغ: Autististique.



بعيدة، وأن يهتدي، وهو على طريق النكوص، إلى سبل طفلية وأن ينزع نحو أهداف مناظرة لها. ومتى اكتسبت هذه الميول، غير المتوافقة مع المرحلة الراهنة من تطور شخصية الفرد، قدراً كافياً من الشدة، تحتَّم نشوب نزاع بينها وبين الشطر الآخر من الشخصية الذي بقي على صلة بالواقع. ويجد هذا النزاع حلَّه في تشكيلات أعراضية ويتأدى إلى مرض سافر. وأما أن الحرمان الفعلي كان هو المنطلق للسيرورة برمتها، فإننا نلمس أثر ذلك في كون الأعراض التي تتيح إمكانية الوقوف على أرض الواقع من جديد تمثِّل إشباعات بديلة.

ب ـ إن النمط الثاني من الظروف المسبِّبة للمرض ليس جلياً جلاء النمط الأول؛ والواقع أن الأبحاث التحليلية النفسية المعمَّقة، ذات صلة بنظرية العقد كما تقول بها مدرسة زوريخ[٣]، هي التي أتاحت كشفه[٤]. فهنا لا يقع الفرد فريسة المرض من جراء تبدل في العالم الخارجي يُحِلّ الحرمانَ محلَّ الإشباع، بل من جراء مجهود داخلي يبذله الفرد نفسه للفوز بالإشباع المتاح على صعيد الواقع. فهو يسقط مريضاً في محاولته التكيُّف مع الواقع وتلبية **طلب الواقع**، وهي المحاولة التي يصطدم فيها بصعاب داخلية كأداء.

إنه لمن المرتجى التمييز تمييزاً دقيقاً صارماً بين هذين النمطين من الدخول إلى المرض، بل تمييزاً أدقّ وأصرم مما تسمح به في العادة الملاحظة. ففي النمط الأول يضطلع بالدور الرئيسي تبدُّل يطرأ على العالم الخارجي، بيما يؤول هذا الدور في النمط الثاني إلى تبدُّل داخلي. في النمط الأول يقع الفرد فريسة المرض عقب خبرة معاشة، وفي الثاني عقب سيرورة من سيرورات النمو والتطور. في الحالة الأولى يكون المطلوب العزوف عن الإشباع، ويسقط الفرد مريضاً بسبب عجزه عن المقاومة؛ وفي الحالة الثانية يكون المطلوب مقايضة ضرب من الإشباع بضرب آخر، ويخفق الفرد

٢ ـ انظر مقالي: **ملاحظات حول مبدئي الاشتغال الاشتغال النفسي** (المنشور في **حولية التحليل النفسي والأمراض النفسية** عام ١٩١١). «م».

٣ ـ مدرسة زوريخ: هي المدرسة التي كان رائدها بلولر ويونغ، وهي التي أوجدت في علم النفس مصطلح العقدة. «م».

٤ ـ انظر مقال يونغ: **أهمية الأب في مصير الفرد**، **حولية التحليل النفسي**، المجلد١، ١٩٠٩.



بسبب تصلبه. النزاع في الحالة الثانية قائم من البداية بين مجهود الفرد ليبقى كما هو وبين مجهوده ليتبدل بدالَّة مقاصد جديدة ومطالب جديدة للواقع؛ أما في الحالة الأولى فإن النزاع لا ينشب إلا بعد أن يختار الليبيدو المحتجز إمكانيات أخرى للإشباع، إمكانيات لا سبيل إلى التوفيق فيما بينها. ودور النزاع ودور التثبيت السابق لليبيدو أجلى بما لا يضاهى في النمط الثاني منهما في النمط الأول، حيث قد لا تحدث هذه التثبيتات القابلة للتوظيف إلا في أعقاب حرمان خارجي.

إن الفتى الذي أشبع حتى الساعة ليبيدوه بتخييلات كانت تنتهي بالاستمناء يمكنه الآن أن يقايض هذا الأسلوب القريب من الإيروسية الذاتية باختيار موضوعاني واقعي؛ والفتاة التي نذرت كل محبتها لأبيها أو لأخيها يتعيَّن عليها الآن أن تطلق الحرية، بمناسبة مغازلة رجل من الرجال لها، للرغبات الليبيدوية المحرمية التي كانت بقيت حتى ذلك الحين لاشعورية لكي تتظاهر في الشعور؛ والمرأة التي تبغي العزوف عن نزوعها إلى تعدد الأزواج وعن أخاييلها المومسية لكي تغدو رفيقة وفية لزوجها وأماً ناصعة الذيل لطفلها: إن جميع هؤلاء الأشخاص يسقطون فريسة المرض لما يبذلونه من جهود حميدة متى ما كانت تثبيتاتهم الليبيدوية السابقة قوية بما فيها الكفاية للوقوف في وجه أية عملية إزاحة ونقل؛ وهنا من جديد تضطلع العوامل ذات الصلة بالاستعداد والتكوين الجبلِّي والخبرات المعاشة الطفلية بدور حاسم. إن مصير جميع هؤلاء الأشخاص هو ـ يمكننا أن نقول ذلك ـ كمصير الشجرة الصغيرة التي تريد تبديل أوراقها في قصة غريم GRIMM(٥). ومن وجهة نظر علم الصحة، التي ليست هي بكل تأكيد وجهة النظر الوحيدة التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار هنا، لا نستطيع إلا أن

٥ ـ جاكوب غريم: كاتب وعالم لغة ألماني (١٧٨٥ ـ ١٨٦٣). مؤسس فقه اللغة الألمانية. جمع مع أخيه فلهلم (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) مجموعة كبيرة من القصص الشعبي الجرماني أطلقا عليها اسم : **حكايات للأطفال وللبيت**. «م»(*).

(*) وفي الواقع، إن نسبة هذه القصة إلى غريم سهو من قبل فرويد. فهو في الأصل حكاية شعرية برسم الأطفال نظمها الشاعر والمستشرق الألماني فريدريش روكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦)، ومدارها على شجرة رغبت في أن تبدِّل إبرها إلى أوراق ذهبية وأوراق زجاجية وأوراق خضر على التوالي. وقد أمكنها الحصول على هذه الأوراق، ولكن كان عليها في كل مرة أن تتجرد منها مع تغيُّر الفصول. فانتهى بها الأمر إلى أن تعود إلى المطالبة بإبرها، فتحصل عليها في نهاية الأمر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



نتمنى لهم لو أنهم بقوا، كما كانوا قبل مرضهم، ناقصي النمو، غير متفوقين، فاشلين، لا يصلحون لشيء. والتبدل الذي يصبو إليه هؤلاء المرضى، والذي لا يستطيعون مع ذلك تحقيقه إلا بصورة منقوصة، هذا إن توصلوا إلى تحقيقه على الإطلاق، هو قياسياً خطوة إلى الأمام باتجاه الحياة الواقعية. ولكن الوضع يختلف في حال تطبيق معيار أخلاقي؛ فعندئذ نتبيَّن أن الناس يسقطون فريسة المرض عندما ينفضون أيديهم من المثل الأعلى كما عندما يصبون إلى بلوغه سواء بسواء.

على الرغم من الفروق البالغة الوضوح بين كلا نمطي الدخول في المرض اللذين تقدم بنا وصفهما، فإنهما يتلاقيان بصدد ما هو جوهري، ولا يعسر إطلاقاً ردُّهما إلى وحدة واحدة. فالدخول في المرض من جراء الحرمان يندرج هو أيضاً تحت لافتة العجز عن التكيُّف مع الواقع، وتحديداً في الحالة التي يضنّ فيها الليبيدو بالإشباع. كما أن الدخول في المرض في شروط النمط الثاني يفضي مباشرة إلى حالة خاصة من الحرمان. صحيح أن الواقع لا يضنّ في هذه الحالة بأي ضرب كان من ضروب الإشباع، بل على وجه التحديد بالضرب الوحيد الذي يصرِّح الفرد أنه متاح له، وصحيح أن الحرمان ليس مصدره العالم الخارجي مباشرة وإنما، على مستوى أوَّليّ، بعض ميول الأنا ونوازعه، بيد أن الحرمان يبقى على كل حال هو العامل العام والأكثر شمولاً من غيره من العوامل. ومن جراء النزاع الذي ينشب في النمط الثاني دفعة واحدة من البداية، يتعرّض للكفّ في كلا الضربين من الإشباع: الإشباع الذي اعتاده الفرد والإشباع الذي يصبو إلى بلوغه؛ وبذلك يؤول الليبيدو إلى ركود كما في الحالة الأولى، مع كل ما يترتب على ذلك من عواقب. وأرجح الظن أن السيرورات النفسية التي تفضي إلى تشكيل العرض يسهل تتبُّعها في النمط الثاني أكثر مما في الأول، لأن التثبيتات الإمراضية لليبيدو ما كانت تستوجب هنا أن تحدث هي أولاً، بل كانت سارية المفعول حتى في أثناء فترة الصحة. وبصفة عامة يتسم الليبيدو في هذه الحال بقدر من الانطواء؛ كما أن جانباً من النكوص باتجاه الطفولة يمكن تحاشيه في هذه الحال نظراً إلى أن النمو لا يكون قد استكمل بعد تمام مساره.



ج ـ أما النمط الثالث من الدخول في المرض فيتبدى في صورة غلوّ وشطط في النمط الثاني الذي هو **مطلب الواقع**؛ وسأصفه بأنه دخول في المرض عن طريق **كفّ النمو**. ولن نميِّزه عنه لاعتبارات نظرية، بل لاعتبارات عملية، إذ يتعلق الأمر هنا بأشخاص يقعون فريسة المرض حالما يتخطون سنّ الطفولة اللامسؤول بحيث لا يُقيَّض لهم أبداً أن يبلغوا طوراً من الصحة، أي من القدرة، بغير ما تقييد إجمالاً، على الفعل وعلى الاستمتاع. وسيرورة الاستعداد المسبق هي هنا، في جوهرها، جلية كل الجلاء. فالليبيدو لم يهجر قط التثبيتات الطفلية، ومطلب الواقع لا يطرح نفسه أبداً بغتة ودفعة واحدة على فرد ناضج جزئياً أو كلياً، بل يأتي نتيجة للشيخوخة، إذ من نافل القول أنه يتبدل باستمرار مع تقدم الفرد في العمر. والنزاع يتلاشى هنا أمام القصور وعدم الاقتدار؛ لكن كل ما نعرفه من ناحية أخرى يقسرنا على افتراض وجود ميل، في هذه الحالة أيضاً، إلى التغلب على تثبيتات الطفولة، وإلا لما أمكن قط أن تكون نتيجة هذه السيرورة هي العصاب، وإنما فقط طفالة infantilisme راكدة.

د ـ كما أن النمط الثالث مثّل لنا، بصورة شبه منفردة، شرط الاستعداد المسبق، كذلك إن النمط الرابع يوجِّه انتباهنا الآن إلى عامل آخر له فعاليته في الحالات كلها، وهذا بالذات ما يزيد في احتمالات إغفاله بسهولة أكبر في معرض النقاش النظري. فقد يتفق لنا أن نرى أفراداً يسقطون فريسة المرض مع أنهم كانوا إلى ذلك الحين في أتمّ صحة وعافية وما اصطدموا في حياتهم بأية خبرة جديدة، وما طرأ على علاقتهم بالعالم الخارجي أي تبدل، بحيث أن دخولهم في المرض لا بدّ أن يوحي وكأنه حدث عفواً ومصادفة. بيد أننا لو دقَّقنا النظر في هذه الحالات، لتبيَّن لنا أن ثمة تبدلاً قد طرأ لديهم مع ذلك، تبدلاً لا مناص لنا من تقدير دوره في تسبيب المرض بحقّ قدره. فحينما دلف هؤلاء الأفراد إلى مرحلة محددة من العمر، وبالتضافر مع السيرورات البيولوجية النظامية، طرأ ارتفاع على **كمية** الليبيدو في اقتصادهم النفسي[٦]، وكان هذا الارتفاع كافياً وحده للإخلال بتوازن حالة الصحة ولتوفير شروط العصاب.

٦ ـ الاقتصاد النفسي: التوزيع الكمي الداخلي لقوى الإنسان النفسية. «م».



ومعروف أن هذه الارتفاعات المفاجئة إلى حدّ ما في الليبيدو ترتبط نظامياً بالبلوغ والإياس[٧]، أي بالأطوار التي تبلغ فيها النساء سناً معيَّنةً؛ أضف إلى ذلك أنه من المحتمل أن تظهر هذه الارتفاعات لدى بعض الأفراد على نحو دوري لا يزال إلى الآن بلا تفسير. وركود الليبيدو هو هنا العامل الأولي، ويغدو إمراضياً من جراء الحرمان **النسبي** من قبل العالم الخارجي الذي كان من الممكن له أن يستمرّ في توفير الإشباع لمطلب ليبيدوي أضأل شأناً. ومن الممكن لليبيدو الراكد وغير المشبع أن يفتح من جديد طريق النكوص وأن يؤجج جذوة النزاعات عينها التي لاحظناها في حالة الحرمان الخارجي المطلق. ويأتي هذا ليذكّرنا بأنه لا يحقّ لنا أن نُغفِل العامل الكمّي في أي فحص للظروف المسبِّبة للمرض. فسائر العوامل الأخرى، من حرمان وتثبيت وكفّ للنمو، تبقى عديمة الفاعلية بقدر ما لا تطال كمية معينة من الليبيدو ولا تتسبب في ركود ليبيدوي من مستوى عالٍ. هذه الكمية من الليبيدو التي تبدو لنا لازمة لا غنى عنها لاستحداث مفعول إمراضي لا نملك بكل تأكيد المقدرة على قياسها؛ وكل ما نستطيعه هو أن نصادر على وجودها بعد أن تنجلي للعيان نتيجتها التي هي المرض. وليس ثمة سوى اتجاه واحد يسعنا أن نحدِّدها فيه بمزيد من الدقة؛ ففي مقدورنا أن نفترض أن المسألة ليست مسألة كمية مطلقة، وإنما مسألة العلاقة بين الكمّ الليبيدوي الفاعل وبين تلك الكمية من الليبيدو التي يتأتى للأنا أن يتحكم بها، أي أن يبقيها رهن التوتر، أو أن يتسامى بها أو أن يستخدمها استخداماً مباشراً. ويترتب على ذلك أن ارتفاعاً نسبياً في كمية الليبيدو يمكن أن يكون له مفعول مماثل لما للارتفاع المطلق. فإذا ما أصاب الأنا وهن من جراء مرض عضوي أو من جراء مصادرة من نوع خاص لطاقته، أمكن أن يتسبب ذلك في أعصبة ما كان لها في غير هذه الحال إلا أن تبقى كامنة، على الرغم من جميع الاستعدادات المسبقة الممكن افتراضها.

إن الأهمية التي يتعيَّن علينا أن نعزوها إلى كمّ الليبيدو في تسبيب المرض تتمشى على خير وجه مع قضيتين أساسيتين قررهما التحليل النفسي في إطار

٧ ـ الإياس: سنّ انقطاع الطمث لدى المرأة. «م».



نظرية الأعصبة. فحوى القضية الأولى أن الأعصبة تنشأ من الصراع بين الأنا والليبيدو، وفحوى الثانية أنه لا وجود لأي فارق نوعي بين شروط الصحة وشروط العصاب؛ بل على العكس من ذلك، فالأفراد الأصحاء مطالبون بوضع أنفسهم على محكّ المهمة عينها: التحكم بالليبيدو، علماً بأن الفارق الوحيد هو أنهم يصيبون في ذلك قدراً أكبر من الفلاح.

يبقى علينا بعدُ أن نضيف بعض الملاحظات عن العلاقة بين هذه الأنماط وبين الخبرة والتجربة. فلو شملتُ بنظرة واحدة المرضى الذين أتولى في الوقت الحاضر تحليلهم، فلن أجد مناصاً من القول إن ما من أحد منهم يحقق أي نمط من الأنماط الأربعة للدخول في المرض بتمام نقائه. بل أجد بالأحرى لدى كل واحد منهم تأثير قدر من الحرمان إلى جانب قدر من العجز عن التكيُّف مع مطلب الواقع؛ ولا مناص من أن يؤخذ بعين الاعتبار لديهم جميعاً عامل كفّ النمو، وهو العامل الذي يتوافق بكل تأكيد مع تصلب التثبيتات؛ وكما شددنا على القول من قبل، لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نغفل عن أهمية كمّ الليبيدو. وفي الواقع، وبحسب خبرتي، ظهر المرض لدى معظم هؤلاء المرضى في صورة دفقات متتالية تفصل بينها فترات من الصحة، ومن الممكن ردّ كل دفقة من هذه الدفقات إلى نمط مغاير من أنماط العوامل الإمراضية. وعلى هذا، إن تقريرنا وجود هذه الأنماط الأربعة لا ينطوي على قيمة نظرية كبيرة؛ فالأمر لا يعدو أن يكون أمر سبل متباينة تتأدى إلى تشكيل بؤرة إمراضية في الاقتصاد النفسي: ركود الليبيدو الذي لا يستطيع الأنا أن يتلافاه، بالوسائل المتاحة له، بدون أن يلحقه ضرّ وأذى. غير أن الموقف نفسه لا يغدو إمراضياً إلا من جراء عامل كمّي؛ فهذا الموقف ليس بحدّ ذاته من المستجدات بالنسبة إلى الحياة النفسية، وهو ينشأ عن تدخُّل ما يُسمّى بـ «علة المرض».

بالمقابل، نقرّ عن طيبة خاطر لأنماط الدخول في المرض بقدر من الأهمية العملية. بل يمكننا في بعض الحالات الخاصة أن نلحظ هذه الأنماط في تمام نقائها؛ وما كان النمطان الثالث والرابع ليسترعيا انتباهنا لولا أنهما يلخِّصان في حدّ ذاتهما، بالنسبة إلى عدد من الأفراد، عوامل الدخول في المرض. فالنمط



الأول يبقي التأثير الخارق القوة للعالم الخارجي ماثلاً أمام أذهاننا، وكذلك يفعل الثاني بالنسبة إلى تأثير مزاج الفرد الخاصّ الذي لا يقلّ أهمية والذي ينهض في مواجهة التأثير الأول. وما كان لعلم الأمراض أن يعالج معالجة صحيحة مشكلة الظروف المسبِّبة للمرض في الأعصبة ما دام يركِّز جهوده حصراً على فحص التمييز بين الطبيعة **الداخلية المنشأ** والطبيعة **الخارجية المنشأ** لهذه الأمراض. وجميع التقارير التي تنوِّه بدور الاستنكاف أو القطاعة (بالمعنى الواسع للكلمة) كعامل مسبِّب للمرض تواجَه حالاً باعتراض مؤداه أن أشخاصاً آخرين يتحملون المصير ذاته بدون أن يقعوا فريسة للمرض. لكن حين كان علم الأمراض يرغب في الإلحاح على مزاج الفرد بوصفه العامل الفاصل في المرض والصحة كان يُواجه باعتراض آخر مؤداه أن أشخاص آخرين ذوي مزاج خاص من هذا القبيل يمكن أن يبقوا في أحسن صحة وعافية ما دام مباحاً لهم أن يحتفظوا بهذه الخصوصية. ولقد حضَّنا التحليل النفسي على التخلي عن المقابلة العقيمة بين العوامل الخارجية والداخلية، بين القدَر والجِبِلَّة، وعلَّمنا أن نبحث بصورة مطَّردة عن تعليل الدخول في المرض العصابي في موقف نفسي محدَّد يمكن أن ينشأ بسُبُلٍ مختلفة.



(٧)

أكذوبتان من أكاذيب الأطفال

(١٩١٣)

من الطبيعي أن يكذب الأطفال متى ما كانوا يحاكون بذلك أكاذيب الراشدين. بيد أن بعض أكاذيب الأطفال الحسني التربية لها دلالة خاصة؛ وإنها لَحَرية في هذه الحال بأن تحمل المربِّين على إعمال الفكر بدلاً من أن تثير غيظهم. فهذه الأكاذيب تُختلق بتأثير دوافع حبِّية بالغة القوة، وتغدو ضارة متى ما ترتب عليها سوء تفاهم بين الطفل والشخص الذي يحبّه.

(١)

سألتْ تلك البنت الصغيرة التي لها من العمر سبع سنوات (في عامها المدرسي الثاني) أباها نقوداً لتبتاع بها ألواناً لصبغ بيض عيد الفصح. فرفض أبوها محتجاً بأن ليس معه نقود. وبعيد ذلك بمدة وجيزة طلبت الطفلة من والدها نقوداً مساهمة منها في شراء إكليل للأميرة التي حضرها الأجل. وكان على كل تلميذ أن يسهم بخمسين من البفينيكات[١] فأعطاها والدها عشرة ماركات؛ فدفعت البنت الصغيرة مساهمتها وأودعت تسعة ماركات على مكتب والدها، وابتاعت بالبفينيكات الباقية ألواناً خبَّأتها في خزانة لُعَبها. وعلى المائدة سأل طفلته، وقد ساورته شكوك، ماذا فعلت بالخمسين بفينيكاً الناقصة؟ أفما اشترت بها ألواناً؟ فأنكرت؛ لكن أخاها، الذي يكبرها بعامين والذي كانت تريد أن تلّون معه البيض، فضح أمرها: فكان أن أُكتشفت الألوان في الخزانة. غضب الأب وكلّف

١ ـ واحدها بفينيك: جزء من مئة من المارك. «م».



الأم بمعاقبة المذنبة؛ وكان قصاصها بالغ الشدة. بيد أن الأم، بعد أن عاقبتها، حزّ في نفسها الغمّ الشديد الذي انتاب طفلتها. فلاطفتها، وخرجت بها في نزهة سلواناً لها. بيد أنه كان من المستحيل محو آثار هذه الخبرة المعاشة التي وصفتها المريضة نفسها بأنها «منعطف» في حداثتها. فبدءاً من تلك الساعة آلت الطفلة، التي كانت من قبل على قدر كبير من «الشقاوة» والاعتداد بالنفس، إلى كائن وجِل فزِع. وحينما خُطبت استشاطت غضباً على نحو غير مفهوم لما أبدته أمها من اهتمام بجهاز عرسها وأثاث بيتها. فقد ساورها الشعور بأن المال «مالها»، وبأنه لا يجوز لأحد سواها أن يتصرف به. وغبّ زواجها راحت تتهيب أن تسأل زوجها تغطية نفقاتها الشخصية وتفْصُل بغير ما طائل مالها «هي» عن مال زوجها. وفيما كانت قيد العلاج اتفق لها في غير مرة أن وجدت نفسها في حالة عوز كامل في مدينة غريبة، لأن المبالغ التي يرسلها زوجها إليها كانت تصلها متأخرة بعض الشيء. ولما كلّمتني في الأمر، أردتُ أن تعاهدني على أن تقترض مني، في حال تجدد هذا الموقف، المبلغ الزهيد الذي قد تمسّ حاجتها إليه في غضون ذلك. فقطعت لي عهداً. لكنها لما وجدت نفسها من جديد وقد فرغ مالها حنثت بوعدها وآثرت أن ترهن حليها، وقالت إنها لا تريد أن تأخذ مالاً مني.

ما كان للأب أن يشتبه في دلالة فعلتها حينما وضعت يدها على الخمسين بفينيكاً في طفولتها. وكانت، قبيل أيام من دخولها إلى المدرسة، قد مثّلت إزاء المال دوراً له وجهه من الغرابة. فقد كانت جارة من الصديقات كلّفتها باصطحاب ابنها، الأصغر منها، إلى أحد المخازن للتبضع وعهدت إليها بمبلغ قليل من المال. وبما أنها كانت هي الأكبر سناً، فإنها هي التي حملت بقية المبلغ في طريق العودة. لكنها لما التقت في الطريق خادمة الجارة رمت بالمال على الناصية. وفي معرض تحليل هذا الفعل، الذي عزّ عليها هي نفسها أن تفهمه، خطر في بالها يهوذا الذي كان رمى بالدراهم التي قبضها لقاء خيانته الرب[2]. وكانت

٢ ـ في الإنجيل أن يهوذا، تلميذ المسيح، خان معلمه بثلاثين من الفضة، ثم لما أنّبه ضميره رمى بالنقود وانتحر شنقاً. «م».



راسخة الاقتناع بأنها سمعت قصة آلام المسيح قبل زمن طويل من ذهابها إلى المدرسة. لكن إلى أي حدّ كان في مستطاعها أن تتماهى مع يهوذا؟

حين كان لها من العمر ثلاثة أعوام ونصف عام كانت لها مربية، وكانت شديدة التعلق بها. وكانت هذه المربية الشابة على علاقة غرامية بطبيب كانت تقصد عيادته مع الطفلة. ويبدو أن الطفلة حضرت آنذاك أنشطة جنسية شتى. ولا نستطيع القول بيقين إنها رأت الطبيب يعطي الفتاة مالاً، لكن الشيء المؤكد أن الفتاة كانت تعطي الطفلة بعض القروش لتضمن سكوتها؛ وبهذا المال كانت تبتاع في طريق العودة بعض الأشياء (على الأرجح سكاكر). ومن المحتمل أيضاً أن الطبيب نفسه اتفق له أن أعطى الطفلة مالاً. بيد أن هذه الأخيرة، وقد استبدّت بها الغيرة، وشت بمربيتها لدى الأم. فقد راحت تلعب بالنقود التي آبت بها إلى البيت على نحو مكشوف ما أمكن معه للأم إلا أن تسألها: «من أين جئت بهذا المال؟». وهكذا صُرفت المربية من الخدمة.

كان تلقي المال من شخص ما يعني إذاً في نظر الطفلة منذ نعومة أظفارها منح جسدها والدخول في علاقة غرامية. وكان أخذ المال من الأب يعدل بوحاً بالحبّ. وكانت الأخيولة التي تصوِّر لها الأب عشيقاً لها على جانب كبير من الإغراء بحيث أمكن للرغبة الطفلية في الحصول على الألوان لبيض العيد أن تتغلب بسهولة، بمساعدة الأخيولة، على المحظور. وما كان في مستطاع الطفلة أن تقرّ بأنها أخذت مالاً، بل كانت مكرهة على الإنكار لأن الدافع إلى هذا الفعل ـ دافع لاشعوري بالنسبة إليها ـ لم يكن مما يباح به. ولما عاقبها أبوها، كان عقابه بمثابة رفض للمحبة التي تعرضها عليه، وعلامة ازدراء، وتحطيم لمعنوياتها. وفي أثناء التحليل سقطت فريسة حالة اكتئابية شديدة حينما اضطررتُ ذات يوم إلى أن أحاكي ازدراء الأب ذاك إذ رجوتها ألا تأتيني بعد ذلك اليوم بزهور؛ وجلاء سرّ هذا الاكتئاب هو الذي تأدى بنا إلى الذكرى التي رويتها هنا.

هل من حاجة إلى تنبيه المحلل النفسي إلى أننا نلتقي في هذه الخبرة المعاشة الطفلية البسيطة واحدة من الحالات الكثيرة التواتر التي تبقى فيها الإيروسية



الشرجية المبكرة مستمرة في الحياة الحبِّية اللاحقة؟ والواقع أن لذة تلوين البيض تنبع هي الأخرى من المصدر نفسه.

(٢)

امرأة أخرى، تعاني اليوم من مرض خطير من جراء الإحباط في حياتها، كانت فيما غبر فتاة مقتدرة، صريحة، رصينة، طيبة، ثم زوجة مُحبَّة. لكنها في عهد سابق، في السنوات الأولى من حياتها، كانت طفلة عنيدة غير رَضِيّة. ولئن تحولت بسرعة إلى إنسانة مفرطة الطيبة والوسوسة، فقد جرت في الفترة ذاتها التي حدث فيها هذا التحول، وهي لا تزال على مقاعد المدرسة، أمورٌ كثيرة تنحي بسببها على نفسها الآن، وقد سقطت فريسة المرض، باللائمة الشديدة وترى فيها الدليل على خسَّةِ نفسٍ متأصلة فيها. وهي تذكر أنها كانت مغرورة وكذابة في تلك الأيام. ففيما كانت في طريقها ذات مرة إلى المدرسة تباهت أمامها رفيقة لها بأنها أكلت بالأمس، عند الغداء، بوظة. فأجابتها: «أوه، نحن لدينا بوظة في كل يوم». وفي الواقع، ما كانت تدري ما معنى أن تتضمن وجبة الغداء بوظة؛ فهي ما كانت تعرف سوى تلك الألواح الطويلة التي تحملها العربات[٣]، لكنها افترضت أنها ولا بدّ أكلة فاخرة، ولم تشأ أن تبدو أدنى مقاماً.

في سنتها العاشرة طُلب إليها، في حصة الرسم، أن ترسم باليد دائرة. غير أنها، بدلاً من ذلك، تناولت فرجارها، ورسمت به دائرة في منتهى الدقة، وأرتها بظفر لزميلتها. لكن المعلِّم الذي سمع المتبجِّحة كشف أثر الفرجار وطلب منها إيضاحاً. فأنكرت بعناد، ولم ترضَ أن تقتنع بأي برهان، ولاذت بحمى صمت عنيد. وتداول المعلم في الأمر مع الأب وقرَّ رأي الاثنين على طيّ صفحة هذه الفعلة بالنظر إلى ما كانت تتميَّز به البنت الصغيرة من لطف في العادة.

لقد كانت عقدة واحدة تتحكم بكذبتيها. كانت الكبرى بين خمسة أطفال، وكانت تعلّقت بأبيها منذ نعومة أظفارها؛ وكانت تعلُّقها هذا شديداً إلى حدّ خارق للمألوف، وهو الذي سيتسبَّب في إخفاقها على دروب السعادة عندما

---

٣ ـ هي ألواح الجليد التي كانت تباع قطع منها بالمفرق. «م».



ستكبر. على أنه سرعان ما تحتّم عليها أن تكتشف أن ذلك الأب المحبوب ليس رجلاً عظيماً إلى الحدّ الذي كانت تتصوره. فقد كان عليه أن يواجه بتخبُّط صعوبات مالية، ولم يكن قوياً وعالي المقام إلى الحدّ الذي افترضته. بيد أنها ما استطاعت أن ترضخ أمام هذا الخفض لمثلها الأعلى. فبما أنها كانت تضع كل طموحها، نظير ما تفعل النساء، في شخص الرجل الذي تحبّه، فقد صارت مؤازرتها لأبيها في مواجهة العالم الخارجي حافزاً مفرط القوة من الحوافز المحركة لها. وعليه، ولئن تباهت أمام زميلاتها، فإنما كان ذلك كيلا تضطر إلى الانتقاص من قدر أبيها. وقد علمت فيما بعد أن البوظة (EIS) التي تؤكل تترجم إلى الفرنسية بـ GLACE[٤]؛ وكان ذلك هو الطريق الذي أتاح للتبكيت بصدد تلك الذكرى أن يتمخَّض عن خوف من قِطَع الزجاج المكسور وشظاياه.

كان الأب بارعاً في الرسم، وكانت موهبته مصدر غبطة وإعجاب لأولاده. وإنما بالتماهي معه رسمت في الصف دائرة ما كان لها أن تتقن رسمها إلا إذا غشَّت. فلكأنها أرادت أن تتباهى بقولها: «انظروا كيف يحسن أبي الرسم!». والشعور بالذنب الذي ترتَّب على ميلها المسرف إلى أبيها أفصح عن نفسه في محاولة الغش، وكان مستحيلاً عليها أن تعترف، تماماً كما في الحالة الأولى: فالاعتراف كان معناه الإقرار بالحب المحرمي الدفين.

* * *

لا يجوز لنا أن نهوِّن من شأن خبرات الحياة الطفلية هذه. وسنتورط في خطأ فادح إذا ما انتهينا من هذه الجُنَح الطفلية إلى أن نشخِّص نمواً لطبع لاأخلاقي. بل علينا بالأحرى أن نفترض أن هذه الأكاذيب ترتبط بأقوى الدوافع في نفس الطفل وتشي باستعداد مسبق لمصائر لاحقة أو لأعصبة مقبلة.

---

٤ - GLACE بالفرنسية تعني البوظة والزجاج معاً. وبالألمانية أيضاً يقال للزجاج GLASS. «م».



(٨)

الاستعداد للعصاب الوسواسي
مساهمة في مشكلة اختيار العصاب
(١٩١٣)

لماذا وكيف يسقط الكائن البشري فريسة عصاب؟ هذه بكل تأكيد واحدة من المشكلات التي يتعيَّن على التحليل النفسي أن يجيب عنها. لكن أرجح الظن أنه لن يكون ميسوراً إعطاء هذا الجواب إلا في سياق مشكلة أخرى، أكثر خصوصية، هي معرفة لماذا يتعيَّن ألا يسقط هذا الشخص أو ذاك إلا فريسة عصاب بعينه دون سواه من الأعصبة. تلكم هي مشكلة اختيار العصاب.

ماذا نعرف لحدّ الآن عن هذه المشكلة؟ الحق أننا لسنا متيقِّنين إلا من قضية واحدة ذات طابعٍ عام. ففي عداد علل المرض التي تدخل في الاعتبار في الأعصبة نميِّز عللاً جِبِلِّية يحملها الكائن البشري معه عندما يرى الحياة، وعللاً عارضة تأتيه بها الحياة، والمفعول المتضافر لهذه العلل الجِبِلِّية والعارضة هو وحده الذي يتسبب في العادة في إحداث المرض. والحال أن الأسباب التي لها القول الفصل في اختيار العصاب تنتمي جميعها بلا استثناء، بموجب منطوق القضية التي تقدّم بنا بيانها، إلى الفئة الأولى؛ هي إذاً بطبيعتها من نوع الاستعدادات المسبقة، ومستقلة عن الخبرات المعاشة التي يمكن أن يكون لها مفعول إمراضي.

أين ينبغي أن نبحث عن أصل هذه الاستعدادات؟ لقد استرعى انتباهنا أن الوظائف النفسية التي تدخل في الاعتبار ـ الوظيفة الجنسية في المقام الأول، ولكن كذلك وظائف أنوية مهمة شتى ـ يتحتّم عليها أن تمرّ بتطور طويل الأمد ومعقَّد قبل أن تصل إلى الحالة التي تتسم بها لدى الراشد السوي. والحال أننا



نسلِّم بأن هذه التطورات لا تتم على الدوام على نحو أمثل يتاح معه للوظيفة في جملتها أن تمرّ بتبدل تدريجي. فحسب أحد عناصر هذه الوظيفة أن يعلَق عند الطور السابق حتى تكون قد وجدت «نقطة تثبيت» كما نسمِّيها، أي نقطة يمكن أن تنكص نحوها الوظيفة في حال الوقوع في مرض ناشئ عن اضطراب خارجي.

استعداداتنا هي إذاً ضروب من الكفّ في النمو. ومما يعزِّز تصورنا هذا التشابهُ مع وقائع الباتولوجيا العامة لأمراض أخرى. لكن عندما تنطرح مسألة معرفة ما العوامل التي يمكن أن تحدِث مثل هذه الاضطرابات في النمو، لا يملك التحليل النفسي إلا أن يستعفي ويترك المشكلة للبحث البيولوجي[1].

لقد اجترأنا، بمساعدة هذه الفروض، على التطرق، قبل بضع سنوات، إلى مشكلة اختيار العصاب[2]. وقد تأدى بنا اتجاهنا في العمل، الذي يرمي إلى الحدس بالحالة السوية انطلاقاً من اختلالاتها، إلى اختيار نقطة للشروع به غير متوقعة على الإطلاق ومن نوع خاص تماماً. فالترتيب الذي تُعدَّد به في العادة الأشكال الرئيسية للأعصبة النفسية ـ الهستيريا، العصاب الوسواسي، البارانويا، الخبل المبكر ـ يناظر (وإن على نحو غير دقيق تمام الدقة) التسلسل الزمني لظهور

١ ـ منذ أن كشفت بحوث فليس(*) عن دلالة الكميات الزمنية وأهميتها في البيولوجيا، بات من المعقول أن يعزى اختلال النمو إلى الخلل الزمني في أطوار النمو.

(*) فلهلم فليس: طبيب ألماني مختص بأمراض الأنف والأذن والحنجرة. التقى فرويد عام ١٨٨٧ وتبادل وإياه مراسلات مطولة استمرت حتى عام ١٩٠٤. ولكنه قطع صلته به بعد أن اتهمه بانتحال نظريته عن الجنسية الثنائية. فبادر فرويد إلى إحراق جميع رسائله وعزا موقفه إلى البارانويا. أما رسائله هو إلى فليس فقد بيعت إلى تاجر عاديات، فاشترتها ماري بونابرت وأبت تسليمها لفرويد حتى لا يحرقها، وأخذت طريقها إلى النشر عام ١٩٨٥. وقد صاغ فليس نظرية خاصة به عن الثنائية الجنسية النفسية، عازياً إلى الرجل دورة شهرية من ٢٣ يوماً، مما جعل فرويد يصف صديقه القديم بأنه «كبلر البيولوجيا». وقال أيضاً بنوع من عصاب أنفي بحكم وجود رابطة بين الأنف والأعضاء التناسلية في رأيه. وعالج العصابيين بإجراء عملية أنفية لهم أو عن طريق تخدير غشائهم المخاطي الأنفي بالكوكائين. من أبرز مؤلفات فليس: **العلاقات بين الأنف والأعضاء التناسلية عند المرأة**. «م».

٢ ـ الإحالة هنا إلى بحثين كتبهما فرويد بعنوان: **ملاحظات تحليلية نفسية بصدد حالة بارانويا**، و **افتراضات بصدد مبدئي الصيرورة النفسية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



هذه الأمراض في الحياة. فالأشكال المَرَضية للهستيريا تُلحظ حتى في الطفولة الأولى؛ ويبدي العصاب الوسواسي في العادة عن أعراضه الأولى في الطور الثاني من الطفولة (من السنة السادسة إلى الثامنة)؛ أما العصابان النفسيان الآخران، اللذان جمعتُ بينهما تحت اسم البارافرينيا، فلا يظهران إلا بعد البلوغ وفي سنّ النضج. والحال أن هذه الأمراض التي يأتي ترتيب ظهورها في الأخير تكشفت عن أنها الأولى من حيث قابليتها للفهم على ضوء مبحثنا في الاستعدادات التي تفضي إلى اختيار العصاب. وقد أرغمتنا خصائصها المميّزة: هذاء العظمة، الإشاحة عن عالم المواضيع، صعوبة متزايدة في التحويل، على استخلاص نتيجة مؤداها أن التثبيت الذي يتولد عنه استعداد مسبق ينبغي البحث عنه في طور من تطور الليبيدو سابق لظهور الاختيار الموضوعاني، أي في طور الإيروسية الذاتية والنرجسية. هذه الأشكال المرَضية، التي لا تظهر إلا بعد طول تأخير، تعود إذاً في أصلها إلى كفوف وتثبيتات مبكرة للغاية.

على هذا، سنجدنا ميالين إلى الافتراض بأن الاستعداد للهستيريا وللعصاب الوسواسي، وهما العصابان التحويليان بحصر المعنى والعصابان اللذان تتشكل أعراضهما في زمن مبكر للغاية، يتموضع زمنياً في أحدث مراحل تطور الليبيدو. لكن ما كنه هذا الكفّ للتطور هنا، وبالأخص، ما كنه الفارق المرحلي الذي يفترض فيه أن يكون هو الأساس الذي ينهض عليه العصاب الوسواسي بالتعارض مع الهستيريا؟ إن التجربة في هذا المجال لم تفدنا شيئاً على مدى زمن طويل. أما المحاولات التي كنت قمت بها في وقت مبكر لاستكناه طبيعة هذين الاستعدادين، مفترضاً مثلاً أن السلبية في مجرى الحياة الطفلية لا بدّ أن تكون هي شرط الهستيريا، بينما الإيجابية شرط العصاب الوسواسي، فسرعان ما اضطررت إلى نفض يدي منها باعتبارها فاشلة.

أرجع الآن إلى مجال الملاحظة السريرية لحالات خاصة. فقد درست ردحاً طويلاً من الزمن مريضاً طرأ على عصابه تحوُّلٌ غير معتاد. فقد بدأ هذا العصاب، على إثر تجربة معاشة رَضِّية، في صورة هستيريا حصرية موصوفة، ودام على هذا النحو بضع سنوات. بيد أنه تحول فجأة ذات يوم إلى عصاب وسواسي فادح



الخطورة. وحالة كهذه كان لا بدّ أن تكون غنية الدلالة من أكثر من وجهة نظر. فمن جهة أولى كان في مستطاعها أن تدعي لنفسها قيمةَ وثيقةٍ ثنائيةِ اللغة لأنها تبيِّن كيف يكون التعبير عن مضمون واحد بلغتين متمايزتين في كلا العصابين. ومن الجهة الثانية، كانت تهدِّد بتكذيب نظريتنا القائلة إن الاستعداد يرجع بصورة رئيسية إلى كفّ للنمو، اللهم إلا إذا قرّ قرارنا على الافتراض بأن الشخص الواحد يمكن أن ينطوي على أكثر من نقطة ضعف واحدة في نمو الليبيدو عنده. وكنت أقول لنفسي إنه ليس من حقِّنا أن نستبعد هذه الإمكانية الأخيرة، لكنني كنت أتلهف بنفاد صبر إلى فهم هذه الحالة المَرَضية.

في أثناء التحليل تحتَّم عليّ أن ألحظ أن الموقف مختلف تماماً عما كنت تصورته. فالعصاب الوسواسي لم يكن ردَّ فعل جديداً على تلك الرضّة عينها التي تسببت أولاً في نشوء الهستيريا الحصرية، بل كان ردّ فعل على تجربة معاشة ثانية أبطلت إبطالاً كاملاً قيمة التجربة الأولى (إذاً فنحن أمام نقض ـ وإن يكن قابلاً بعد للنقاش ـ لأطروحتنا التي تؤكد على أن اختيار العصاب مستقلّ عن التجربة المعاشة).

لا يسعني مع الأسف، ولأسباب معروفة جيداً، أن أتعمَّق بالقدر الذي كنت أتمَّناه في تاريخ هذه الحالة، ولزام عليَّ أن أكتفي ببيان ما يلي: لقد كانت المريضة، حتى ابتداء مرضها، زوجة سعيدة، راضية رضى شبه تام. وإذ رغبت، بحكم تثبيتها على صبوة طفلية، في إنجاب أطفال، سقطت مريضة لما أدركت أنها لن تستطيع أن تنجب أولاداً من الرجل الذي لا تحب أحداً سواه: زوجها. وكانت الهستيريا الحصرية التي ردّت بها على هذا الإحباط تناظر، كما استطاعت هي نفسها أن تفهم ذلك بعد زمن وجيز، نبذها لتخييلات التورط في علاقة غير شرعية، وهي التخييلات التي كانت تترجم عن رغبتها المتأصلة الجذور في إنجاب طفل. وعندئذ فعلت كل ما يمكن فعله لتخفي عن زوجها واقع أنها ما مرضت إلا من جراء الإحباط الذي كان هو سببه. لكن كل إنسان يملك، كما أكدتُ لها استناداً إلى أسباب لا تخلو من وجاهة، في لاشعوره بالذات الأداة التي تمكّنه من تأويل تظاهرات اللاشعور لدى الآخر؛ وهكذا يكون الزوج قد



فهم، بغير ما إقرار أو شرح، ما دلالة حصر زوجته، فاستشعر الهوان بدون أن يفصح عنه، وجاء ردّ فعله بدوره عصابياً، فأخفق - للمرة الأولى - في المعاشرة الزوجية. وغبّ ذلك مباشرة سافر، وحكمتْ بأنه صار عنيناً لا براء له، وتمخضت عندها أولى الأعراض الوسواسية عشية اليوم المرتقب لعودة زوجها.

كان قوام عصابها الوسواسي حفزة قهرية مضنية إلى الاغتسال والطهارة، وتدابير وقائية بالغة الشدة ضد ضروب خطيرة من الأذى يحقّ للآخرين أن يخشوها من جانبها، أي تشكيلات ارتجاعية ضد حاثات إيروسية - شرجية وسادية. وكان من المحتم أن تفصح حاجتها الجنسية عن نفسها في مثل هذه الأشكال بعد خسران حياتها التناسلية كل قيمة من جراء عنة زوجها الذي لا رجل آخر لها سواه.

بهذه النقطة تحديداً ترتبط تلك الشذرة الصغيرة من النظرية التي صغتها مؤخراً والتي لا ترتكز بطبيعة الحال إلا في الظاهر فحسب إلى ملاحظة هذه الحالة وحدها، مع أنها ترتكز في الواقع إلى عدد كبير من انطباعات وخبرات أقدم عهداً، وإن لم يتسنَّ لي النفاذ إلى معناها إلا بعد تلك التجربة الأخيرة. وقد قلت في نفسي عندئذ إنه لا بدّ لي من إدخال عنصر جديد على مخططي عن تطور الوظيفة الليبيدوية. فأنا لم أميّز في بادئ الأمر سوى مرحلتين: مرحلة الإيروسية الذاتية، التي تسعى فيها الدوافع الغريزية الجزئية، كلاً على حدة، إلى طلب إشباعها من اللذة في جسم ذات الشخص؛ وبعدئذ المرحلة التي تتركز فيها الدوافع الغريزية الجزئية مجتمعة على الاختيار الموضوعاني تحت زعامة الأعضاء التناسلية وفي خدمة التناسل. ومعلوم أن تحليل البارافرينيا كان أرغمنا على أن ندرج بين هاتين المرحلتين طوراً على حدة، وهو طور النرجسية، وفيه يكون الاختيار الموضوعاني قد تمّ، ولكن الموضوع يكون لا يزال فيه متطابقاً مع أنا الشخص المعني. وها نحنذا نقرّ بضرورة افتراض مرحلة لاحقة تقع قبل التشكيل النهائي وتكون فيها الدوافع الغريزية الجزئية قد تجمعّت وتركّزت برسم الاختيار الموضوعاني، ويكون فيها الموضوع قد صار يواجه ذات الشخص باعتباره شخصاً آخر، لكن بدون أن تكون **زعامة المناطق التناسلية قد توطدت بعد**، نظراً إلى أن



الدوافع الغريزية الجزئية التي تهيمن على هذا التنظيم **القبتناسلي** للحياة الجنسية هي في المقام الأول الدوافع الغريزية الإيروسية ـ الشرجية والسادية.

إنني أعرف أن أية توليفة نظرية من هذا القبيل تبدو في بادئ الأمر باعثة على البلبلة. وهي لا تغدو أليفة لدينا إلا عند اكتشاف صلاتها بما نعرفه من قبل، ومصيرها المعتاد في خاتمة المطاف أن يتم تعرّفها باعتبارها تجديداً غير كبير الأهمية كان موضع إرهاص منذ زمن طويل. وبانتظار مصير كهذا فلنتحوَّل إلى مناقشة «النسق الجنسي القبتناسلي».

أ ـ إن الدور الذي تلعبه حاثات الكراهية والإيروسية الشرجية في نشوء أعراض الوسواس العصابي كان قد استرعى من قبل انتباه الكثيرين من المراقبين، وقد سلَّط عليه مؤخراً إ. جونز ضوءاً باهراً[٣]. والحال أن ذلك يتمشى تماماً مع أطروحتنا، إذا صحّ أن هذه الدوافع الغريزية الجزئية هي التي اضطلعت بتمثيل الدوافع الغريزية التناسلية وكانت هي البواكير المبشِّرة بها في مسار النمو.

هنا يجد جانبٌ لم نتحدث عنه بعد من التاريخ المرَضي للحالة التي نحن بصددها نقطةَ تَمَفْصُله. فمريضتنا بدأت حياتها الجنسية منذ نعومة أظفارها بتخييلات سادية يدور موضوعها حول الجلد بالسوط. وبعد قمع هذه التخييلات طرأت مرحلة كمون طويلة الأمد إلى حدّ خارق للمألوف، عرفت في أثنائها البنت الصغيرة تطوراً أخلاقياً رفيع المستوى، وبدون أن تستيقظ فيها الحساسية الجنسية المؤنثة. وقد تزوجت في سن مبكرة وعاشت أول الأمر، كزوجة سعيدة، فترة عادية من النشاط الجنسي دامت عدة سنوات إلى أن كان الإحباط الكبير الأول الذي تأدى بها إلى العصاب الهستيري. ومع خسوف الحياة التناسلية الذي أعقبه، عادت حياتها الجنسية فسقطت، كما نوهتُ بذلك من قبل، في الطور الطفلي من السادية.

---

٣ ـ إ. جونز(*): **الكراهية والإيروسية الشرجية في العصاب الوسواسي**، في: **المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي**، السنة١، ١٩١٣، العدد ٥.

(*) إرنست جونز: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بسيرة حياة فرويد التي وضعها بعنوان **حياة فرويد وفكره**، ومؤسس **الجمعية البريطانية للتحليل النفسي**. له دراسات تحليلية في الفن واللغة والأنتروبولوجيا، وقدَّم مساعدة كبيرة للمحللين النفسيين الذين لجؤوا إلى إنكلترا فراراً من الاضطهاد النازي. «م».



ليس عسيراً علينا أن نحدد الطابع الذي تتميّز به حالة العصاب الوسواسي التي نحن بصددها عن غيرها من الحالات، الأكثر تواتراً، التي تبدأ في السنوات الأولى ثم تتابع مجراها بصورة مزمنة ومتواكبة بفترات احتداد وتفاقم متفاوتة في شدتها. ففي هذه الحالات الأخرى لا يتمّ أبداً التغلب على التنظيم الجنسي الذي ينطوي على الاستعداد للعصاب الوسواسي، بعد إرساء أسسه، تمام التغلب. أما في الحالة التي نحن بصددها فقد ناب منابه في أول الأمر طور أعلى من النمو، ثم عاد النشاط فدّب فيه من جديد بنتيجة النكوص بدءاً من الطور الأخير هذا.

ب ـ حينما نسعى إلى ربط أطروحتنا هذه باعتبارات من طبيعة بيولوجية، لا يجوز أن يغرب عنا أن التعارض بين المذكر والمؤنث، الذي أقحمته الوظيفة التناسلية، يمكن ألا يكون قد قام له قوام بعد في طور الاختيار الموضوعاني القبتناسلي. بل نجد مكانه التعارض بين ميول ذات أهداف إيجابية وأهداف سلبية، وهو التعارض الذي سيلتحم لاحقاً مع التعارض بين الجنسين. فالإيجابية مردّها إلى غريزة السيطرة بالمعنى الواسع للكلمة، وهي التي نسمّيها تحديداً بالسادية حين تعمل في خدمة الوظيفة الجنسية؛ فغريزة السيطرة هذه لا بدّ أن تضطلع، حتى في الحياة الجنسية السوية المكتملة النمو، بخدمات فرعية مهمة. وبالمقابل، يتغذى التيار السلبي بالإيروسية الشرجية التي تناظر منطقتها الشهوية المخرج القديم اللاامتمايز(٤). واشتداد هذه الإيروسية الشرجية في طور التنظيم القبتناسلي سيرسي لدى الإنسان عند بلوغه الطور التالي من أطوار الوظيفة الجنسية، أي طور زعامة الأعضاء التناسلية، استعداداً مسبقاً مهماً للجنسية المثلية. والحال أن تشييد هذه المرحلة التناسلية على أساس المرحلة السابقة لها، مع ما يترتب على ذلك من إعادة نظر في التوظيفات الليبيدوية، يطرح على البحث التحليلي النفسي مهامَّ تنطوي على جانب لا يستهان به من الأهمية.

قد نميل إلى الاعتقاد بأننا سنتملص من جميع الصعاب والتعقيدات التي نتكلم عنها هنا إذا ما أنكرنا وجود تنظيم قبتناسلي للحياة الجنسية وافترضنا وجود تطابق

٤ ـ المخرج CLOAQUE: الفتحة المشتركة للمسالك البولية والمعوية والتناسلية لدى بعض الفقاريات وكذلك في الأجنة من بني البشر. «م».



بين الحياة الجنسية وبين الوظيفة التناسلية والإنجابية، وجعلنا تلك تبدأ مع بداية هذه. وإن شئنا أن نأخذ بعين الاعتبار نتائج البحث التحليلي التي لا تحتمل أي سوء فهم، فسيكون لزاماً علينا عندئذ أن نقول إن الأعصبة مكرهة، بحكم عملية الكبت الجنسي، على التعبير عن الميول الجنسية بدوافع غريزية أخرى غير جنسية، وبالتالي على تجنيس هذه الأخيرة من باب التعويض. بيد أننا بسلوكنا هذا المسلك نكون قد وضعنا أنفسنا خارج التحليل النفسي، ونكون قد عدنا أدراجنا إلى حيث كنا قبل التحليل النفسي، وسيتحتم علينا من ثم أن نعزف عما وفَّره لنا من تفهم للرابط بين الصحة والانحراف والعصاب. والحال أن الاعتراف بالدوافع الغريزية الجزئية الجنسية، وبالمناطق الشهوية، وبالتوسع الذي اكتسبه على هذا النحو مفهوم «الوظيفة الجنسية» بالمقابلة مع مفهوم «الوظيفة التناسلية» الأضيق نطاقاً، هو مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى التحليل النفسي. وعلى كل، إن ملاحظة التطور السوي للطفل تكفي وحدها للطعن في صلاحة محاولة كتلك.

ج ـ في مجال تطور الطبع يتحتم أن نلتقي تلك القوى الغريزية عينها التي كشفنا ما يدور بينها من صراع في الأعصبة، غير أن واقعة واحدة تكفينا لنقيم تمييزاً نظرياً واضحاً: فما هو لازمة ضرورية لآلية العصاب، أي عدم نجاح الكبت وعودة المكبوت، لا وجود له بالنسبة إلى الطبع. فإما أن الكبت لا دور له في تكوين الطبع، وإما أنه يبلغ بلا عراقيل هدفه الذي يتمثل بإحلال تشكيلات ارتجاعية وإسماءات محل المكبوت. ولهذا تكون سيرورات تكوين الطبع أقل شفافية من سيرورات العصاب وأعسر منها متناولاً على التحليل.

غير أن مضمار تطور الطبع هو على وجه التحديد ما يقدم لنا مماثلة جيدة مع الحالة المَرَضية التي وصفناها، ومن هنا يتأكد وجود التنظيم الجنسي القبتناسلي السادي ـ الشرجي. فمن الوقائع المعروفة، والتي غالباً ما اتخذها الرجال مادة للمعايرة والمهاترة، أن طباع للنساء تتبدل تبدلاً غريباً متى ما عزفن عن وظيفتهن التناسلية. فنراهنّ يبدين عن ولع بالخصام والمشاحنة والمشاكسة والمماحكة وعن ميل إلى الخسة والبخل؛ ويكشفن على هذا النحو عن سمات من الإيروسية السادية ـ الشرجية ما كن يتّسمن بها من قبل في زمن أنوثتهن. وقد رشق



الكتاب الهزليون والهَّجاؤون في كل عصر وزمان بسهامهم «القهرمانة العجوز» التي آلت إليها الصبية الظريفة والزوجة المحبة والأم الحانية. هذا التغيُّر في الطبع يناظر في تصورنا نكوص الحياة الجنسية إلى طور الاستعداد للعصاب الوسواسي. ليس هذا الطور إذاً مجرد بشير بالمرحلة التناسلية: فكثيراً ما يأتي بعدها ويقوم مقامها بعد أن تكون الأعضاء التناسلية قد أدّت وظيفتها.

إن المقارنة بين مثل هذا الانحراف في الطبع وبين العصاب الوسواسي لتبعث فعلاً على الدهشة. ففي الحالين كلتيهما يفعل النكوص فعله؛ ولكن في الحالة الأولى نكوص كامل بعد كبت (أو قمع) نُفِّذ بسهولة؛ وفي حالة العصاب بالمقابل مجهود لعدم الاستسلام للنكوص، مع تشكيلات ارتجاعية ضده، وتكوين أعراض بداعي التسوية والتوفيق بين الطرفين، وانشقاق في الأنشطة النفسية إلى أنشطة قابلة لأن تكون شعورية وإلى أنشطة لاشعورية.

د ـ إن أطروحتنا عن تنظيم جنسي قبتناسلي ناقصة في الحقيقة من ناحيتين. فهي لا تأخذ بعين الاعتبار أولاً مسلك دوافع غريزية جزئية أخرى، مع أنه يستأهل من أكثر من زاوية أن يُتوقَّف عنده ويُدرس، وتكتفي بتسليط الضوء على أولوية السادية والإيروسية الشرجية اللافتة للنظر. والدافع الغريزي إلى المعرفة هو، بوجه خاص، ما يوحي إلينا في غالب من الأحيان بأن في مقدوره بمنتهى البساطة أن ينوب مناب السادية في آلية العصاب الوسواسي. بيد أنه لا يعدو أن يكون في الحقيقة فسيلة مصعَّدة، معقلنة، من الدافع الغريزي إلى السيطرة؛ والتنكر له، في صورة الشك، يشغل مكاناً واسعاً في اللوحة السريرية للعصاب الوسواسي.

أما وجه النقص الثاني في أطروحتنا فأخطر شأناً بعد. فنحن نعلم، في ما يخصّ تاريخ التطور، أن الاستعداد للوقوع في العصاب لا يكتمل إلا متى ما أخذت في الاعتبار، إلى جانب مرحلة تطور الليبيدو، مرحلة تطور الأنا التي فيها حدث التثبيت. والحال أن أطروحتنا لم تتخذ من مرجع لها سوى مرحلة التطور الليبيدوي، وهي بالتالي لا تشتمل على كل المعرفة التي نحن بحاجة إلى تطويرها والتقدم بها. فأطوار تطور الدوافع الغريزية الأنوية لا تزال إلى اليوم غير معروفة كثيراً. ولا علم لي إلا بمحاولة يتيمة للإحاطة بهذه المسألة، هي المحاولة الواعدة

التي قام بها فيرنزي[٥]. ولا أدري إن كان من المغالاة في الجرأة التقدم بفرض، مطابق للمسالك الراهنة في البحث، مؤداه أن الواقعة الجديدة بالتسجيل في الاستعداد للعصاب الوسواسي هي أن تطور الأنا يتقدم زمنياً على تطور الليبيدو. وبحكم هذا السبق تُقسر الدوافع الغريزية الأنويةٍ على الاختيار الموضوعاني قبل أن تبلغ الوظيفة الجنسية إلى الصورة النهائية لتشكّلها؛ وهذا ما ينجم عنه تثبيت على المرحلة القبتناسلية من التنظيم الجنسي. وإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن العصابيين الوسواسيين ملزمون بالتدليل على نزعة أخلاقية متضخمة ليدافعوا عن حبهم الموضوعاني ضد العدائية التي تقف بالمرصاد من خلفه، فسنميل إلى الافتراض بأن درجة معيَّنة من الأسبقية في تطور الأنا هي سمة نموذجية للطبيعة الإنسانية، وبأن استباق الحب بالكراهية، من منظور التطور، هو الأساس الذي يمكن أن تنهض عليه إمكانية نشوء الأخلاق. ولعل هذا ما تعنيه جملة وردت بقلم ف. شتيكل[٦]، كانت بدت لي فيما غبر غير مفهومة، وفحواها أن الكراهية، لا الحب، هي العلاقة العاطفية الأولية بين الكائنات الإنسانية[٧].

هـ ـ بمقتضى ما تقدم بنا قوله تبقى الصلة وثيقة، فيما يخص الهستيريا، بالمرحلة الأخيرة من تطور الليبيدو، وهي المرحلة التي تؤول فيها الزعامة إلى الأعضاء التناسلية وتظهر إلى حيِّز الوجود الوظيفة التناسلية. ففي العصاب الهستيري يقع هذا المكتسب الأخير تحت نير الكبت، لكن بغير ما نكوص إلى المرحلة القبتناسلية. وبالنظر إلى جهلنا بتطور الأنا، فإن الثغرات في تعيين

---

٥ ـ فيرنزي[*]: **مراحل تطور حس الواقع**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي**، السنة الأولى، ١٩١٣، العدد ٢.

(*) ساندورز فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). تولى فرويد تحليله نفسياً، ولكن طريقيهما افترقا لاحقاً. لُقِّب بـ «الطفل الرهيب للتحليل النفسي» بعد الانتقادات اللاذعة التي وجّهها إلى «المرائين» من معاصريه من المحللين النفسيين. من مؤلفاته: **الرضة، تأملات حول المازوخية، الطفل في الراشد**. «م».

٦ ـ فلهلم شتيكل: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٠). تولى فرويد نفسه تحليله، وقد أسس عام ١٩٢٠ **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **الأونانية (الاستمناء) والجنسية المثلية، الرجل العنين، المرأة الباردة**. «م».

٧ ـ ف. شتيكل: **لغة الحلم**، ١٩١١، ص ٥٣٦.



الاستعداد محسوسة هنا أكثر مما في حالة العصاب الوسواسي.

بالمقابل، لا يعسر علينا أن نثبت أن نكوصاً آخر إلى مستوى سابق يطال أيضاً الهستيريا. فمعلوم أن جنسية البنت ترزح تحت هيمنة عضو قيادي مذكَّر (البظر) وتسلك في الغالب مسلك جنسية الصبي. والمفروض أن تتلاشى هذه الجنسية المذكرة وتزول تحت ضغط آخر اندفاعات النمو، في زمن البلوغ، ليصير المهبل، المتحدِّر من المخرج، هو المنطقة الشهوية السائدة. والحال أنه غالباً ما يتفق أن تنتعش من جديد، في ظل العصاب الهستيري لدى النساء، هذه الجنسية المذكرة، مما يستتبع أن تنتصب في مواجهتها، في حرب دفاعية، الدوافع الغريزية المواتمة للأنا. بيد أنه يلوح لي أنه من السابق لأوانه الدخول في مناقشة لمشكلات الاستعداد الهستيري.




مكتبة
الفكر الجديد

(٩)

حلم بمثابة برهان

(١٩١٣)

طلبت سيدة تعاني من هوس الشك ومن طقوسية وسواسية من ممرضتها ألا تفارقها بنظرها لحظة واحدة، وإلا فإنها ستستعرض في ذهنها من جديد كل المحظورات التي يمكن لها أن تقارفها في تلك الهنيهة من الزمن التي ستبقى فيها بلا مراقبة. وذات مساء، وفيما هي متمددة على أريكتها طلباً للراحة، تراءى لها أنها لمحت الممرضة القائمة على خدمتها وقد غطّت في النوم. فسألتها: «هل رأيتِني؟». فانتفضت المرضة وأجابت: «بلى بالتأكيد». وكان هذا موضوعاً جديداً للشكّ بالنسبة إلى المريضة التي عادت بعد هينهة من الزمن فكررت سؤالها. وكررت الممرضة بدورها توكيدها. وهنا دلفت إلى الحجرة خادمة أخرى حاملة طعام العشاء.

حدث ذلك في مساء يوم جمعة. وفي صبيحة اليوم التالي روت الممرضة حلماً بدّد شكوك المريضة[1].

الحلم: «عُهد إليها بطفل سافرت أمه، ولكنها لم تلبث أن أضاعت الطفل. راحت تسأل الناس في الطريق إن كانوا رأوا الطفل. ثم وصلت إلى غدير ماء شاسع فاجتازته فوق معبر صغير (ستضيف إلى ذلك فيما بعد: على هذا المعبر انتصبت فجأة أمامها، كسراب، ممرضة أخرى). ثم وجدت نفسها في منطقة تعرفها والتقت فيها بامرأة عرفتها يوم كانت فتاة وكانت عهدئذ، وقبل أن تتزوج،

١ - سهو من فرويد أو من المطبعة: فحتى يصحّ السياق كان ينبغي القول: «روت الممرضة لسيدتها حلماً...». «م».



بائعة في مخزن للمأكولات. وسألت المرأة التي كانت تقف عند عتبة بابها: هل رأيت الطفل؟ لكن المرأة، بدل أن تهتم لسؤالها، روت لها أنها انفصلت الآن عن زوجها، ثم أضافت إلى ذلك قولها إن الأمور لا تسير دوماً على ما يرام في الزواج أيضاً. عندئذ استيقظت المريضة مطمئنة، قائلة في نفسها إن الطفل سيُعثر عليه بلا ريب لدى إحدى الجارات».

تحليل: الغرض الذي ذهبت إليه المريضة هو أن هذا الحلم ذو صلة بالإغفاءة التي أنكرتها المرضة وما قَصَّتْهُ عليها هذه الأخيرة على سبيل التكملة للحلم بدون أن يسألها أحد ذلك هيَّأها للقيام بتأويل كافٍ عملياً، وإن ناقصاً، في عديد من النقاط. وأنا نفسي لم أسمع سوى رواية السيدة، ولم أكلِّم المرضة. وبعد أن تنتهي المريضة من عرض تأويلها سأضيف التكملة التي يمكن استنتاجها من معرفتنا العامة بقوانين تشكيل الحلم.

«قالت المرضة إن طفل الحلم ذكَّرها بمهمة تمريضية شعرت برضى خارق للمألوف عنها. كان المريض طفلاً يعاني من التهاب سيلاني في العينين، فلا يستطيع إبصاراً. لكن والدة هذا الطفل لم تسافر، بل كانت تحيطه هي أيضاً بعنايتها. وبالمقابل، أعرف أن زوجي، الشديد التمسك بهذه المرضة، وضعني تحت حمايتها يوم رحيله، فقطعتْ له عهداً آنئذ بأن تسهر عليَّ... سهرَها على طفل!».

من جهة أخرى أمكن لنا، بفضل تحليل المرضة، أن نتكهن بأنها، إذ طلبت من ممرضتها ألا تفارقها بنظرها، وضعت نفسها بنفسها في عهد الطفولة.

تابعت المريضة تقول: «لقد أضاعت الطفل، وهذا معناه أنها لم ترني، وأنها أضاعتني عن نظرها. وبذلك تكون قد أقرّت بأنها أغفت فعلاً لهنيهة من الزمن، ثم لم تقل لي بعد ذلك الحقيقة».

كان الحلم ينطوي على مقطع بقي غامضاً بالنسبة إلى السيدة: وهو المقطع الذي تسأل فيه المرضة الناس في الطريق إن كانوا رأوا الطفل. وبالمقابل، استطاعت أن تجد حلاً مُرضياً لعناصر الحلم الظاهر الأخرى.

«إن غدير الماء الشاسع قد ذكَّرها بنهر الراين، لكنها أضافت تقول: إلا أنه



أعرض بعد من الراين. وتذكرتُ عندئذ أنني كنت قرأت لها البارحة قصة يونس والحوت ورويت لها أنني رأيت أنا نفسي ذات يوم حوتاً في المانش. وفي رأيي أن غدير الماء الشاسع هو البحر، وبالتالي تلميح إلى قصة يونس.

«أعتقد أيضاً أن المعبر الضيِّق مصدره القصة الهازلة نفسها مكتوبة باللغة الدارجة. فمما يروى أن معلم التعليم الديني شرح للتلاميذ مغامرة يونس العجيبة، فاعترض غلام بقوله إن الأمر لا يصحّ، لأن المعلم كان في مرة سابقة قد ذكر إن حلقوم الحوت ضيِّق إلى حدّ لا يستطيع معه أن يبلع سوى الحيوانات الصغيرة جداً. فتملَّص المعلم من الورطة بأن قال إن يونس كان يهودياً وكان بوسعه من ثم أن يندسّ في كل مكان. وممرضتي متديِّنة للغاية، ولكن تساورها أيضاً شكوك دينية ؛ وعليه لمت نفسي على أنني ربما كنت أثرت شكوكها بما قرأته لها.

«على ذلك المعبر الضيق رأت إذاً ممرضة أخرى من معارفها، وقد روت لي قصتها: فهذه الممرضة ألقت بنفسها في الراين لأنها رُفتت من الخدمة بسبب غلطة اقترفتها[٢]. إنها تخشى إذاً أن ترفت هي الأخرى لأنها غطَّت في إغفاءة. وعلى كلٍّ، وغداة الحادث وقصة الحلم، بكت بدموع حارة، ولما سألتها عن السبب في بكائها أجابتني بجفاء: إنك تعرفينه بقدر ما أعرفه، وأنت لم تعد لك من ثقة فيَّ».

بما أن ظهور الممرضة التي انتحرت غرقاً أضافته الحالمة استلحاقاً إلى قصة حلمها، وبما أنه كان غاية في الوضوح، فقد كان يخلق بنا أن ننصح السيدة بأن تبدأ من هذه النقطة تحديداً تأويلها للحلم. ومن ناحية أخرى كان هذا الجزء

٢ ـ عند هذا الموضع وقعتُ في خطأ تكثيف للمواد، وقد تسنى لي تصحيح هذه الغلطة بعد مراجعة مدونات السيدة التي منها أخذت القصة. فالممرضة التي ظهرت فوق المعبر لم تقارف أي غلطة في أثناء خدمتها. وإنما رُفتت لأن والدة الطفل، التي كانت مرغمة على السفر، أعلنت أنها تريد أن يتولى أمر طفلها في أثناء غيابها شخص أكبر سناً ـ وبالتالي أجدر بالثقة. وبهذه القصة ترتبط قصة ثانية، قصة ممرضة أخرى صُرفت فعلاً من الخدمة لتقصير وقعت فيه، ولكنها لم تنتحر غرقاً من جراء ذلك. والمواد اللازمة لتأويل هذه النبذة من الحلم تتوزع هنا تبعاً لمصدرين، وذلك هو الواقع في أغلب الحالات. وذاكرتي هي التي بنت التركيب الذي أفضى إلى التأويل. وعلى كل، تنطوي قصة الممرضة التي انتحرت غرقاً هي أيضاً على فكرة رحيل الأم، التي ربطتها السيدة برحيل زوجها. فلكأن في الأمر هنا تعدداً في تعيين حوافز الحلم ينال من جمال التأويل ورشاقته.



الأول من الحلم مشوباً، بموجب تقرير الحالمة عنه، بحَصَر بالغ الشدة، على حين يميل الجزء الثاني إلى التسكين الذي عليه ستستيقظ.

أردفت السيدة تقول في معرض تحليلها للحلم:

«في الفقرة التالية من الحلم وجدتُ دليلاً أكيداً جديداً يؤيِّد ما ذهبت إليه من أن مداره هنا على حادث مساء الجمعة، لأن المرأة التي كانت فيما مضى بائعة في مخزن للمأكولات لا يمكن أن تكون أحداً آخر سوى الفتاة التي حملت طعام العشاء في ذلك المساء. وقد لاحظتُ أن الممرضة كانت اشتكت طيلة النهار من أمور عديمة الأهمية. والسؤال الذي وجَّهَتْه إلى المرأة ـ هل رأيت الطفل؟ ـ متفرع على نحو جليّ كل الجلاء من سؤالي ـ هل رأيتني؟ ـ كما صغته بالضبط في المرة الثانية لما دلفت الفتاة حاملة الصحاف».

في الحلم أيضاً طُرح السؤال عن الطفل مرّتين. وأما واقعة امتناع المرأة عن الإجابة وعدم اكتراثها بالسؤال فبوسعنا تأويلها، إذا شئنا، على أنها انتقاص من قدر الخادم الأخرى لصالح الحالمة التي ترتفع من حيث المنزلة في الحلم فوق منزلة الخادمة الأخرى على وجه التحديد لأنها هي من يتعيَّن عليها أن تردّ على المآخذ التي تُوجَّه إليها بسبب عدم انتباهها.

«إن المرأة التي ظهرت في الحلم غير منفصلة في الواقع عن زوجها. والمقطع كله مصدره قصة حياة الفتاة الأخرى التي أُبعدت ـ فصلت ـ بقرار عسفي من قبل ذويها عن رجل أراد أن يتزوجها. والعبارة التي مؤداها أن الأمور لا تسير دوماً على ما يرام في الزواج أيضاً هي في أرجح الظن تعزية تضمَّنها الكلام الذي تبادلته الفتاتان. وهذه التعزية هي، بالنسبة إليها، بمثابة نموذج للتعزية الأخرى التي عليها ينتهي الحلم: سيُعثر بلا ريب على الطفل».

«لكنني استنتجت من هذا الحلم أن الممرضة أغفت فعلاً في ذلك المساء، ولهذا السبب كانت تخشى أن تُصرف. وقد أمسكتُ لهذا السبب عن الشكّ في ما أدركته أنا نفسي. وعلى كل، وبعد أن فرغت الفتاة من سرد قصة حلمها أضافت قولها إنها تعضّ أصابع الندم لأنها لم تحمل معها كتاباً لتفسير المنامات. فلما لفتُّ نظرها إلى أن هذه الأنواع من الكتب لا تتضمن سوى أتفه الأباطيل



ردّت عليّ بأنها ليست من أولئك الذين يؤمنون بالأباطيل ويتطيرون، ولكن لا مناص لها من القول إن جميع ما وقع لها من منغِّصات في حياتها وقع يوم جمعة[٣]. وفضلاً عن ذلك، فإنها تسيء الآن معاملتي، وتبدي عن فرط حساسية وسرعة غضب، وتوبّخني وتعنّفني».

أعتقد أنه يتحتّم علينا أن نعترف للسيدة بأنها أوَّلت تأويلاً صحيحاً حلم ممرضتها وأحسنت استغلاله. وكما هي الحال غالباً في تأويل الأحلام في التحليل النفسي، ليست نتائج التداعي هي وحدها التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار من أجل ترجمة الحلم، بل كذلك الظروف التي صاحبت رواية هذا الحلم، وسلوك الحالم قبل تحليل الحلم وبعده، وكذلك كل ما يبديه وينمّ عنه في حوالي الزمن الذي يروي فيه الحلم - حتى في أثناء جلسة المعالجة بالذات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار فرط حساسية الممرضة، والصلة التي تقيمها مع يوم الجمعة الذي هو يوم نحس، إلخ، فسنؤيِّد حكم مخدومتها: فالحلم يقرّ بما أنكرته الممرضة، أي بكونها أغفت فعلاً وخشيت لهذا السبب أن تُصرف من الخدمة وأن يؤخذ منها الطفل الذي عُهد برعايته إليها[٤].

والحال أن الحلم، الذي كانت له بالنسبة إلى السيدة دلالة عملية، يثير اهتمامنا النظري من ناحيتين. فصحيح أن الحلم ينتهي بتعزية، لكنه ينطوي أساساً على اعتراف ذي أهمية بصدد علاقة الفتاة بمعلمتها. فكيف أمكن للحلم، الذي يفترض فيه أن يفيد في تحقيق رغبة، أن يصير بمثابة بديل عن اعتراف لا حظَّ له على الإطلاق في أن يكون مفيداً للحالمة؟ لكن أيتوجب علينا حقاً في هذه الحال أن نحسب أننا مضطرون إلى التسليم، كما يقال لنا، بوجود أحلام اعتراف، وأحلام تحذير، وأحلام تفكير، وأحلام تكيُّف، إلخ، إلى جانب أحلام الرغبة وأحلام الحَصَر؟

---

٣ - يسود الاعتقاد لدى الطبقات الشعبية في بعض البلدان الأوروبية أن يوم الجمعة هو يوم نحس، ولا سيما إذا صادف يوم الثالث عشر من الشهر. «م».

٤ - لقد اعترفت الممرضة على كل حال بعد بضعة أيام لشخص ثالث بأنها أغفت في ذلك المساء، وبررت على هذا النحو تأويل السيدة.



إنني أقرّ عن طواعية هنا بأني لا أفهم بعد تمام الفهم لماذا تصطدم وجهة النظر التي أخذت بها في تأويلي للأحلام حيال هذا النوع من البحوث بمقاومة عدد كبير من المحللين النفسيين، بمن فيهم بعض من ذوي الشأن. ولا يبدو لي أن التمييز بين أحلام الرغبة وأحلام الاعتراف وأحلام التنبؤ وأحلام التكيُّف، إلخ، يتجاوز التمييز الذي لا نجد مناصاً من إقامته بين الأطباء الاختصاصيين: أطباء النساء، وأطباء الأطفال، وأطباء الأسنان. وأحلّ لنفسي أن أكرر هنا بأقصى حدٍّ ممكن من الإيجاز النتائج التي انتهيت إليها في كتابي **تأويل الحلم**.

إن وظيفة تعكير صفو النوم وتكوين الحلم يمكن أن تضطلع بها «البقايا النهارية» كما نسمِّيها، وهذه البقايا هي بمثابة عمليات فكرية مشحونة انفعالياً ومتخلفة عن النهار السابق للحلم وقادرة إلى حدٍّ ما على مقاومة الانخفاض العام للحيوية أثناء النوم. ونحن نكتشف هذه البقايا النهارية حينما نردّ الحلم الظاهر إلى أفكار الحلم الكامنة؛ وهي نتف من هذه الأفكار وتنتمي بالتالي ـ سواء أكانت شعورية أم بقيت لاشعورية ـ إلى أنشطة حالة اليقظة التي قد تستمرّ في أثناء النوم. وإن لهذه البقايا النهارية، المناظرة لتنوع العمليات الفكرية في الشعور والقبشعور[٥]، دلالات متعددة وبالغة التباين؛ فقد تكون عبارة عن رغبات غير مشبعة أو توجسات، كما قد تكون عبارة عن مقاصد أو مداولات أو تحذيرات أو محاولات للتكيُّف مع مشكلات طارئة، إلخ. وضمن هذا الإطار لا بدّ أن يأتي التوصيف المطلوب مبرراً من ناحية المضمون الذي أمكن للتأويل تعرّفه. بيد أن هذه البقايا النهارية ليست هي الحلم بعد، بل إنها تفتقر إلى جوهر ما يشكِّل الحلم. إنها عاجزة بحدّ ذاتها عن تكوين حلم. وهي لا تعدو أن تكون، بدقيق التعريف، المادة النفسية التي يحتاج إليها عمل الحلم، مثلما أن التنبيهات الحواسية أو الجسمانية التي قد تطرأ مصادفة واتفاقاً، أو الشروط التي تُقحم اختبارياً، تؤلف مادته البدنية. أما من يعزو إليها الدور الرئيسي في تكوين الحلم فلا يكون قد فعل شيئاً سوى انه كرَّر في موضع آخر الخطأ الذي كان سائداً في عهد ما قبل التحليل والذي يتمثَّل في الاعتقاد بأن الأحلام تُفسَّر حالما يتضح وجود عسر هضم أو ضغط على موضع من الجلد. وهذا ما يؤكد لنا أن الأخطاء العلمية طويلة العمر، وهي متأهبة دوماً وأبداً، في

٥ ـ القبشعور: اختصار لما قبل الشعور. «م».



حال تنحيتها، للرجوع خلسة تحت أقنعة شتى.

وبقدر ما تأتّى لنا أن ننفذ إلى لبّ هذه الواقعة، يتعيَّن علينا أن نقول إن العامل الرئيسي في تكوين الحلم رغبة لاشعورية، وبالعموم رغبة لاشعورية طفلية، هي الآن مكبوتة، لكنها تستطيع أن تتوصّل إلى الإفصاح عن نفسها في تلك المادة البدنية أو النفسية (وبالتالي في البقايا النهارية أيضاً)، وتخلع عليها لهذا السبب قوة تتيح لها أن تشقّ طريقها إلى الشعور حتى في أثناء التوقف الليلي للفكر. وتحقيق هذه الرغبة اللاشعورية هو هذه المرة الحلم بعينه، حتى وإن انطوى هذا الحلم، شأنه في كل مرة، على تحذير أو تفكير أو اعتراف، وعلى كل ما تأتَّى من المضمون الثرّ لحياة اليقظة القبشعورية واستمرّ في الليل بدون أن تتمّ تصفيته. والرغبة اللاشعورية هي التي تضفي على عمل الحلم طابعه الخاص، طابع الصياغة اللاشعورية لمادة قبشعورية. ولا يسع المحلِّل النفسي أن يعرِّف الحلم إلا على أنه نتيجة عمل الحلم؛ ولا يستطيع أن ينسب أفكار الحلم الكامنة إلى الحلم نفسه، بل لا بدّ له أن يعزوها إلى التفكير القبشعوري، وإن لم يتسنّ له أن يتعرف هذه الأفكار إلا عن طريق تأويل الحلم أولاً (تنضاف في الوقت نفسه إلى عمل الحلم الصياغة الثانوية التي تتولاها الهيئة الشعورية؛ وبوسعنا أن نضرب صفحاً عنها بدون أن نغيِّر شيئاً في التصور الذي عرضناه هنا. وسيكون لزاماً علينا في هذه الحال أن نقول إن الحلم بالمعنى التحليلي النفسي للكلمة يتضمن عمل الحلم بحصر المعنى والصياغة الثانوية لنتيجة هذا العمل). والنتيجة التي يمكن الخلوص إليها من هذه التأملات هي أننا لا نستطيع أن نضع الطابع الذي يتصف به الحلم بوصفه تحقيقاً لرغبة على مستوى واحد مع طابعه بوصفه تحذيراً أو اعترافاً أو محاولة للحلّ، إلخ، بدون أن نتنكر لوجهة النظر القائلة بالبعد العُمْقيّ للنفس البشرية، أي لوجهة نظر التحليل النفسي.

لنرجع الآن إلى حلم الممرضة لنثبت من خلال مثاله أن البعد العمقي للأحلام هو تحقيق رغبة. إننا متهيئون لفكرة أن التأويل الذي قامت به السيدة ليس كاملاً. إذ تبقى هناك تلك الأجزاء من مضمون الحلم التي ما كان في ميسورها أن تجد لها تعليلاً. ثم إن تلك السيدة تعاني، ناهيك عن ذلك، من عصاب وسواسي،



وهو اضطراب يقف بحسب انطباعاتي عقبة لا يستهان بها أمام فهم رموز الحلم، مثلما أن الخبل المبكر يسهِّل على العكس هذا الفهم.

غير أن معرفتنا برمزية الحلم تتيح لنا أن نفهم الفقرات غير المؤوَّلة من ذلك الحلم وأن نحدس بمعنى أعمق يكمن وراء تلك التي تمَّ تأويلها. وثمة واقعة لا مفرّ من أن تستوقف انتباهنا وتتمثل في أن عناصر بعينها من المادة التي استخدمتها الممرضة تأتي من عقدة الوضع والإنجاب. فغدير الماء الواسع (الراين، المانش الذي شوهد فيه الحوت) هو بكل تأكيد الماء الذي يخرج منه الأطفال. وهي تصل إليه «بحثاً عن الطفل». وأسطورة يونس الكامنة وراء تعيين هوية هذا الماء، ومسألة معرفة كيف يمرّ يونس (الطفل) عبر الشقّ الضيِّق، تنتميان إلى السياق نفسه. والممرضة التي ألقت بنفسها في الراين على إثر إهانة لحقت بها وجدت حتى في يأسها وقنوطها من الحياة تعزية جنسية رمزية بالطريقة التي ماتت بها. أما المعبر الضيِّق الذي ظهر فوقه السراب فينبغي تأويله في أغلب الظن هو الآخر على أنه رمز تناسلي، وإن كنا ننتظر بعد ـ أقرُّ بذلك ـ أن تكون لنا به معرفة أوضح وأدقّ.

إن الرغبة: «أريد أن يكون لي طفل» تبدو، إذاً، أنها هي العامل المكوِّن للحلم والآتي من اللاشعور، ولا يبدو أن ثمة رغبة أنسب منها لتعزية الممرضة عن الموقف الذي يجبهها به الواقع. «إنهم سيصرفونني، سأفقد الطفل الذي أقوم على رعايته. لا يهمّ! في هذه الحال سأخلق بنفسي طفلاً يكون لي ويولد من جسمي بالذات». وربما كان هذا هو السياق الذي تنتمي إليه الفقرة غير المؤولة التي تسأل فيها الحالمة جميع الناس الذين تصادفهم في الطريق عن الطفل؛ وربما كان ينبغي أن نترجمه على هذا الأساس كالتالي: سأعرف كيف أنجب طفلاً حتى لو اضطررت إلى التعهُّر في الشارع. وهنا ينفجر بغتة تحدٍّ كانت الحالمة قد كتمته حتى الآن، وبهذا التحدي ارتبط أولاً إقرارها: «ليكن! لقد أغمضت عينيّ وأسأت إلى الثقة التي اكتسبتها كممرضة. والآن سأفقد عملي. فهل سأكون غبية إلى حدّ ألقي معه بنفسي في الماء نظير س؟ كلا، لن أبقى بعد الآن مجرد ممرضة، بل سأتزوج، وسأكون امرأة، وسأنجب طفلاً لي، ولن أسمح بأن يمنعني من ذلك أحد». ويكون لهذه الترجمة ما يبررها إذا أخذنا بعين الاعتبار أن



«إنجاب طفل» هو بالفعل التعبير الطفلي عن الرغبة في المعاشرة الجنسية، وأن الشعور يمكن أن يدع هذه التورية تمرّ كإشارة إلى أمنية مثيرة للاستنكار.

إن ما يتيح في الحلم إمكانية الإقرار الذي هو في غير صالح الحالمة، وإن يكن لها إليه بعض الميل في حياة اليقظة، هو إذاً سمة كامنة من سمات شخصيتها التي تستغل تحقيق رغبة طفلية للإدلاء بهذا الإقرار. ومن حقّنا أن نفترض أن هذه السمة الطبعية ترتبط وثيق الارتباط ـ من ناحية الزمن كما من ناحية المضمون ـ بالرغبة في إنجاب طفل أو بالرغبة في المتعة الجنسية.

إن المزيد من التقصي مع السيدة التي أدين لها بالشطر الأول من هذا التأويل للحلم أزاح النقاب، فيما يتصل بسيرة المرضة وقِسْمتها من الحياة، عن المعلومات التالية اللامتوقعة: فقبل أن تصير ممرضة رغبت في أن تتزوج من رجل كان يغازلها بلهفة. غير أنها عزفت عن ذلك بسبب معارضة عمّة لها كانت تقيم معها علاقة غريبة، مزيجة من الولاء والتحدي. وهذه العمة، التي حرمتها من الزواج، كانت هي نفسها رئيسة أخوية لراهبات ممرضات؛ وقد رأت فيها الحالمة على الدوام قدوتها، كما كانت تربطها بها اعتبارات تتصل بالإرث، غير أنها كانت في الوقت نفسه قاومتها برفضها الدخول إلى الرهبانية، على نحو ما كانت العمة نذرتها له. إذاً فالتحدي الذي أفصح عن نفسه في الحلم إنما هو موجَّه إلى العمة. وقد كنا عزونا إلى هذه السمة الطبعية أصلاً إيروسياً شرجياً[٦]، وهانحنذا نعلم بالضبط أن مصالح مالية هي التي قضت بأن ترتهن الفتاة لعمتها؛ ولنضف إلى ذلك أن الطفل يعطي الأفضلية للنظرية الشرجية عن الميلاد[٧].

ربما أتاح لنا هذا العامل، التحدي الطفلي، أن نفترض وجود ارتباط أوثق عرى بين المشهد الأول والأخير من الحلم. فالبائعة السابقة للمنتجات الغذائية التي تظهر في الحلم هي أولاً الخادمة الأخرى للسيدة، الخادمة التي دخلت إلى الحجرة حاملة طعام العشاء لحظة طرح السؤال: «هل رأيتِني؟». لكن يبدو أنه كان مقيَّضاً

٦ ـ الإحالة الضمنية هنا إلى مقال فرويد: **الطبع والإيروسية الشرجية** (١٩٠٧) الذي تقدَّمت ترجمته. «م».

٧ ـ كان فرويد عرض هذه النظرية في مقاله: **النظريات الجنسية الطفلية** (١٩٠٨). راجع ترجمتنا لهذا المقال في: **الحياة الجنسية**. «م».



لها، على الأخصّ، أن تؤدي دور الغريمة العدوة. فهي، كممرضة مولجة بالعناية بالآخرين، مخفوضة المقام بالنظر إلى أنها لا تكترث للطفل الضائع ولا تجيب إلا لتتكلم عن شؤونها الخاصة. هكذا تكون اللامبالاة حيال الطفل المطلوب العناية به قد أسقطت عليها، هي التي إليها توجهت الحالمة بالسؤال. وإليها أيضاً عُزيَ فشل الزواج والانفصال، وهو ما لا بدّ أن الحالمة كانت تخشى، في داخل نفسها، وقوعه لها. بيد أننا نعلم أن العمة هي التي فرَّقت بين الحالمة وخطيبها. وعلى هذا من المحتمل أن «بائعة المنتجات الغذائية» (والأمر لا يخلو من دلالة رمزية طفلية) صارت هي ممثلة العمة رئيسة الرهبانية، التي لم تكن في الواقع تكبرها سناً إلى حدّ يذكر، والتي كانت اضطلعت لدى حالمتنا بالدور المعتاد للأم المنافسة. ومما يؤيد صحة هذا التأويل أن المكان «المعروف» الذي وجدتْ فيه المرأةَ المعنية واقفةً عند عتبة بابها، في الحلم، هو بالضبط المكان الذي تعيش فيه تلك العمة بصفتها أماً رئيسة.

يخلق بنا، نظراً إلى المسافة التي تفصل المحلِّل عن موضوع التحليل، ألا نتوغل إلى أبعد من ذلك في نسيج هذا الحلم. لكن بوسعنا على كل حال أن نقول إنه بقدر ما انفتح للتأويل كشف عن إنه ثرّ بأدلة توكيدية، وحافل في الوقت نفسه بمعضلات جديدة.

(١٠)

تقرير عن حالة بارانويا مناقضة للنظرية التحليلية النفسية[1]

(١٩١٥)

قبل عدة سنوات راجعني محامٍ ذائع الصيت لمعرفة رأيي في حالة بدا له فهمها محفوفاً بالشكوك. فقد قصدته سيدة في مقتبل العمر تطلب حمايته لها من ملاحقات رجل كان ورّطها في عقد علاقات غرامية معه. وقد ذكرت له أن ذلك الرجل استغلّ مسايرتها لأخذ صور فوتوغرافية لهما من قبل نظّار غير مرئيين وهما في أوضاع الحب. ومن ثم صار في مكنته أن يجلّلها بالعار بعرضه تلك الصور وأن يقسرها على ترك وظيفتها. وكان لدى رجل القانون ما فيه الكفاية من الخبرة ليفطن إلى الطابع المَرَضي لهذه الشكوى. لكن كان من رأيه أن أموراً كثيرة تحدث في هذه الحياة قد يستسهل المرء إسقاطها من حياته باعتبارها مما لا يصدق، ومن ثم، إن حكماً يصدره طبيب نفسي في المسألة يمكن أن ينطوي على قيمة كبرى. وقد وعد بأن يعود إلى رؤيتي بصحبة الشاكية.

قبل أن أتابع تقريري أجدني مضطراً إلى الاعتراف بأنني حوَّرت في الظروف

١ ـ في رسالة إلى كارل غوستاف يونغ بتاريخ ١٧ شباط/ فبراير ١٩٠٨ أعرب فرويد عن اعتقاده بوجود علاقة بين البارانويا والجنسية المثلية، وهي فكرة أوحى بها إليه مسلك الطبيب فلهلم فليس (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨) عندما اتهمه، بعد صداقة دامت بينهما خمس عشرة سنة، بانتحال أطروحته عن الجنسية المثلية، مما حمل فرويد على الردّ ناسباً إليه هذاء بارانوئياً للتغطية على شعوره الجنسي المثلي تجاهه. وبعد أن عرض فرويد وجهة نظره حول العلاقة بين البارانويا والجنسية المثلية في بحثه المطوَّل عام ١٩١١ عن حالة رئيس المحكمة شريبر، عاد في مقاله الجديد هذا إلى توكيد أطروحته من خلال الحالة التالية التي بدت في أول الأمر وكأنها تنقضها. «م».



المحيطة بالوقائع المطلوب درسها، بحيث يتعذر التعرف إلى الأشخاص الحقيقيين، لكن بدون أن أبدِّل أي شيء آخر. وإني أرى بالأصل أن من الخطل تشويه معالم تاريخ حالة المريض، عند وضع تقرير عنه، كائناً ما كان الدافع، ولو كان خير الدوافع إطلاقاً، لأنه من المتعذر أن نعرف أي جانب من الحالة سيستأثر باهتمام القارئ الذي يريد محاكمة الأمور بنفسه، وإننا نجازف بالتالي فيما لو لجأنا إلى التشويه بإيراد هذا القارئ موارد الخطأ.

كانت المريضة، التي تعرفتُ إليها بعد ذلك بزمن وجيز، فتاة لها من العمر ثلاثون عاماً، وكانت على قدر يعزّ نظيره من الحسن والجمال؛ وكانت تبدو أصغر سناً من العمر الذي أشارت إليه، وكانت تترك في النفس انطباعاً جارفاً بالأنوثة. وقد سلكت إزاء الطبيب مسلكاً سلبياً خالصاً، ولم تجشِّم نفسها مشقَّة إخفاء ريبيَّتها وعدم ثقتها. وظاهر للعيان أنها ما روت إلا تحت ضغط رجل القانون الذي كان حاضراً القصةَ التالية التي طرحت عليَّ مشكلة سأعود إلى بيانها لاحقاً. وما كانت سيماؤها أو تعابيرها الانفعالية تشي بشيء من حرج الحياء، مع أن قدراً منه كان سيكون في محله في حضرة محاور غريب. فقد كان ذهنها ملبّداً بالغمّ الذي سبّبته لها التجربة التي عاشتها.

كانت عملت مستخدمة على مدى سنوات عدة في مؤسسة كبرى حيث شغلت مركزاً له مسؤوليته وتبعته، مما أرضاها وأرضى في الوقت نفسه رؤساءها. ولم تجدّ في إثر علاقات غرامية مع الرجال؛ بل كانت تعيش في هدوء ودعة مع أمها العجوز التي كانت السند الوحيد لها. ولم يكن لها أخ ولا أخت؛ أما الأب فكانت قد انقضت عدة سنوات على وفاته. وفي الآونة الأخيرة غازلها مستخدم من مكتبها نفسه، وكان رجلاً حسن التربية، جذاباً، فما استطاعت أن تحجب عنه ودَّها. وكانت ظروف خارجية تحول دون عقد زواج بينهما، ولكنه أبى بشدة أن ينقطع عنها بسبب هذه الاستحالة. وكان يؤكد لها أنه من الجنون أن يتخليا، بسبب المواضعات الاجتماعية، عن كل ما يرغبان فيه كلاهما، وما لهما فيه حق لا يبطل، وما يسهم بأوفر قسط، وأكثر من أي شيء آخر، في نشوة حياتهما. وبما أنه قطع لها عهداً بأنه لن يجعلها تتعرض لأي خطر، فقد قبلت في



نهاية المطاف بأن تزوره في النهار، في شقته العزوبية. فلما وافته إلى هناك تبادلا القبل والعناق، وتمددا جنباً إلى جنب، وراح يتأمل جمالها الذي تبدَّى بعض منه. ولكن في أثناء ساعة الحب تلك أفزعها أن تسمع صوتاً غريباً يشبه النبضان أو الخشخشة. وكان هذا الصوت آتياً من صوب المكتب الذي يقع مقابل النافذة منحرفاً؛ وكانت المساحة بين الطاولة والنافذة تشغلها جزئياً ستارة ثقيلة. وروت أنها استفهمت من صديقها للحال عن معنى ذلك الصوت، فكان جوابه أن مصدره في أرجح الظن الساعة الدقاقة الصغيرة الموضوعة فوق المكتب؛ لكني سأُحِلّ لنفسي فيما بعد أن أبدي ملاحظة بصدد هذا الجزء من روايتها.

فيما كانت تغادر الشقة، التقت على الدرج برجلين تهامسا لدى مرآها بشيء ما. وكان أحد الرجلين يحمل غرضاً مغلَّفاً يشبه العلبة. وشغل هذا اللقاء بالها؛ وتكونت في ذهنها، وهي لا تزال في طريق العودة، فكرة أنه من المحتمل أن تكون تلك العلبة آلة تصوير، وأن الرجل الذي كان يحملها هو مصور فوتوغرافي، وأنه كان، في أثناء وجوده في الغرفة، مختبئاً خلف الستارة، وأن الخشخشة التي سمعتها هي الطقطقة التي أحدثتها الآلة حين أراد الرجل تثبيت الوضع المثير الذي وقعت عيناه عليه في صورة. وهي ما عادت تستطيع بعد الآن أن تضرب صفحاً عن الشكوك التي تساورها حيال عاشقها؛ لذا راحت تلاحقه بأسئلتها مشافهةً وبالمراسلة، سائلة إياه إيضاحاً وتسكيناً لهواجسها، ومنحية عليه باللائمة. ولكن التطمينات التي بذلها لها، والتي أكّد لها من خلالها صدق عواطفه وبطلان التهمة التي تلقي بباهظ عبئها على شخصه، لم تمسّ فيها وتراً. وفي نهاية الأمر قصدت المحامي، وسردت عليه قصة التجربة التي عاشتها، وأودعته الرسائل التي تلقّتها في هذا الخصوص من الرجل الذي تحوم شبهاتها حوله. وفي وقت لاحق تسنى لي أن أطَّلع على بعض من هذه الرسائل؛ وقد تركت فيّ خير انطباع. وقد أورثني فحواها أسفاً على كون تفاهم بمثل تلك الروعة ومثل تلك العذوبة قد تقوَّض من جراء تلك «الفكرة المَرَضيَّة المشؤومة».

من نافل القول أنني أتبنى حكم الرجل المتهم، ولست مطالباً على ما أعتقد بتبرير ذلك. لكن الحالة كانت تنطوي بالنسبة إليّ على أهمية أخرى غير الاهتمام



التشخيصي الصرف. فقد كان ثبت في أدبيات التحليل النفسي أن المصاب بالبارانويا يناضل ضد اشتداد ميوله الجنسية المثلية، مما يردّنا في الواقع إلى اختيار موضوعاني نرجسي. بل أكثر من ذلك، فقد انتهينا إلى تأويل مؤداه أن المضطهِد هو في الحقيقة الكائن المحبوب، أو الشخص الذي كان محبوباً فيما سبق. وكان الجمع بين هاتين الأطروحتين يعني أن المضطهِد هو من نفس جنس المضطَهد. وبديهي أننا لم نصادر على أن مبدأ انشراط البارانويا بالجنسية المثلية يسري في جميع الحالات بلا استثناء. ولكن ذلك كان لسبب بسيط وهو أن الحالات التي درسناها لم تكن عديدة بما فيه الكفاية. وكانت هذه الأطروحة على كل حال واحدة من تلك الأطروحات التي لا تغدو دالّة، بحكم ترابطات معينة، إلا يوم يتسنى لها أن تطمح إلى الشمولية. وليست الحالات التي يعتقد فيها المريض بأنه يذوق مرَّ الاضطهاد من قبل أشخاص ينتمون إلى الجنس الآخر بمنعدمة الوجود في أدبيات التحليل النفسي، لكن قراءة حالة من الحالات شيء، وشيء آخر أن يشاهدها المرء عياناً. وكان ما تسنى لي ولأصدقائي من قبل أن نلاحظه ونحلِّله قد أكّد بلا مشقة حتى الآن الصلة بين البارانويا والجنسية المثلية. ولكن الحالة التي عرضناها هنا كانت تنقض ذلك نقضاً حاسماً. فآنستنا تبدو وكأنها تدفع عن نفسها حبَّها للرجل بتحويلها مباشرة المحبوب إلى مضطهِد. وبالمقابل يغيب غياباً تاماً أي اثر لوجود امرأة وأي أثر لتمرد على علاقة جنسية مثلية.

إزاء هذا الوضع كان أبسط الأمور أن نعيد النظر من جديد في موقفنا المسبق القائل بارتهان جميع حالات هذاء الاضطهاد بالجنسية المثلية، وفي كل ما يترتب على ذلك من نتائج. وكان محتَّماً علينا أن نعدل عن هذه المعرفة المتحصلة لنا فيما لو أجبرنا هذا الاستثناء اللامتوقع على الأخذ برأي رجل القانون وعلى التسليم مثله بأننا حيال تجربة معاشة أوِّلت تأويلاً صحيحاً، لا حيال تركيبة بارانوئية. بيد أنني اهتديت إلى منفذ آخر، أرجأت معه في بادئ الأمر البتّ في المسألة. فقد تذكرت كم من مرة ننقاد إلى إصدار حكم خاطئ على المرضى النفسيين لأننا لم ندرس حالتهم بمزيد من التعمق ولم نستخلص منهم كل ما يمكن أن يفيدونا به. وعليه، قلت إنه من المتعذر عليّ أن أصدر حكماً في اليوم

نفسه، ورجوت المريضة بإلحافٍ أن تأتي لرؤيتي مرة ثانية، لتروي لي القصة على نحو أكثر تفصيلاً وبجميع الحذافير التي يمكن أن تكون ضربت عنها صفحاً في المرة الأولى. وبمساعدة المحامي انتزعت منها موافقتها، على الرغم من ترددها وتحفظها. بل إن المحامي أسدى إليَّ مزيداً من العون حينما أعلن أن حضوره لن يكون ضرورياً في هذه المحادثة التالية.

إن رواية المريضة الثانية لم تلغِ الأولى، لكنها جاءت بتكملات كثيرة انقشعت معها جميع الشكوك والصعوبات. وعلى سبيل البداية نقول إنها ما زارت الشاب في شقَّته مرة واحدة بل مرتين. وفي أثناء اللقاء الثاني أزعجها فجأة ذلك الصوت الذي بنت عليه شكوكها؛ ولئن حذفت أو أهملت في روايتها الأولى زيارتها الأولى فلأن هذه الزيارة ما عادت تبدو لها ذات أهمية. وفي أثناء هذه الزيارة الأولى لم يقع شيء يستحق الذكر، لكن الأمور لم تسر في اليوم الثاني على المنوال نفسه. ففي المؤسسة الكبيرة التي كانت تعمل فيها كانت تترأس قسمها سيدة متقدمة في السن وصفتها بهذه العبارة: إن لها شعراً أبيض مثل أمي. وكانت ألِفت أن تُعامَل من قبل هذه المرأة العجوز، المتقدمة عليها مرتبة، بقدر كبير من الحنوّ، بل من المداعبة أحياناً، وكانت تعدّ نفسها صغيرتها الأثيرة. وفي غداة زيارتها الأولى لشقة المستخدَم الشاب، حضر هذا الأخير إلى المكتب ليبلغ السيدة العجوز بعض الأمور التي تتعلق بالقسم، وفيما كان يكلِّمها بصوت خافت، تولَّد لدى المريضة على حين غرة يقين بأنه يطلعها على تفاصيل مغامرة البارحة، وبأنه يقيم معها منذ زمن بعيد ولا بدّ علاقةً ما كانت المريضة نفسها فطنت إلى شيء من أمرها إلى ذلك الحين. وعلى هذا فقد أمست السيدة العجوز الأموية ذات الشعر الأبيض على معرفة الآن بكل شيء. وقد عززت حركات السيدة العجوز وتصرفاتها في بقية ذلك النهار شكوكها، فاغتنمت أول فرصة سنحت لتسائل حبيبها عن خيانته. وطبيعي أن هذا أنكر بقوة ما وصفه بأنه افتراض جنوني. ولا بدّ لنا من القول إنه أفلح على هذا النحو، ولتلك المرة، في عتقها من هذيانها، فاستعادت ما فيه الكفاية من الثقة لتجدِّد زيارتها بعد مضي بعض الوقت ـ بضعة أسابيع، فيما أظن ـ لشقة



الفتى. أما تتمة ما حدث فقد عرفناها من القصة الأولى التي روتها المريضة.

إن الجديد الذي علمناه يضع بادئ ذي بدء حداً للشك بخصوص الطبيعة المَرَضية للشبهة التي انتابتها. فليس من العسير أن ندرك أن الرئيسة البيضاء الشعر بديل للأم، وأن الرجل قد وُضع، رغماً عن فتوته، موضع الأب، وأن قوة العقدة الأموية هي التي أرغمت المريضة على أن تفترض، بعكس ظاهر الحق، وجود علاقات غرامية بين ذينك الشريكين غير المتكافئين. ولكن بذلك تبخَّر أيضاً التناقض الظاهري مع توقع النظرية التحليلية النفسية التي تفترض وجود صلة جنسية مثلية مفرطة في متانتها كشرط لتمخُّض هذاء الاضطهاد. فالمضطهِد الأصلي، الذي يبغي المضطهَد أن ينعتق من ربقة سلطانه، ليس هو، حتى في هذه الحال، الرجل، وإنما المرأة. فالرئيسة عارفة بعلاقات الفتاة الغرامية، وهي تشجبها، وتكشف لها بإشارات غامضة عن استنكارها وإدانتها. والارتباط بالجنس المماثل يشلّ الجهود المبذولة لاتخاذ فرد من الجنس الآخر موضوعاً للحب. وحب الفتاة للأم يغدو الناطق بلسان جميع الميول والنوازع التي تضطلع بدور «الضمير» وترمي إلى إيقاف تقدم الفتاة، من الخطى الأولى، على الطريق الجديد المحفوف، من أكثر من وجهة نظر، بالأخطار، والذي من شأنه أن يتأدى بها إلى الإشباع الجنسي السوي؛ وحب الأم ذاك هو ما أفلح فعلاً في تعكير علاقتها بالرجل.

حينما تكبت الأم نشاط ابنتها الجنسي أو توقفه، فإنما تؤدي وظيفة سوية، رسمت العلاقات الطفلية معالمها الأولى، وتعتمد على تحفيزات قوية، لاشعورية، وتحظى بموافقة المجتمع. وعلى عاتق البنت تقع مهمة الانعتاق من هذا النفوذ لتقرر، بالاستناد إلى حوافز أوسع نطاقاً وأكثر عقلانية، مدى ما ستبيحه لنفسها من متعة جنسية أو مدى ما ستحرم نفسها منها. فإن سقطت في أثناء محاولة التحرر هذه فريسة مرض عصابي، كان مردّ ذلك بصفة عامة إلى وجود عقدة أموية مفرطة القوة، أو على الأقل غير مسيطر عليها، يجد صراعها مع التيار الليبيدوي الجديد حلَّه، طبقاً للاستعداد المسبق الصالح للاستعمال، في شكل أو في آخر من أشكال العصاب. وفي جميع الأحوال، لا تتحدد تظاهرات

الاستجابة العصابية بالعلاقة الحاضرة مع الأم الحالية، وإنما بالعلاقات الطفلية مع الأم العائدة إلى الزمن الأول.

أما فيما يتصل بمريضتنا، فنحن نعلم أنها كانت بلا أب منذ سنين كثيرة، ومن حقنا أن نفترض أيضاً أنها ما كانت لتبقى بدون ارتباط برجل ما إلى سن الثلاثين لولا أن رابطة عاطفية قوية بالأم كانت تقدِّم لها سنداً. وهذا السند تحوَّل إلى قيد باهظ حينما شرع الليبيدو عندها يصبو نحو الرجل، تلبية لنداء ملحّ آسر. وقد سعت على هذا النحو إلى التحرر من ذلك القيد، وإلى الانعتاق من رابطتها الجنسية المثلية. وقد أتاح استعدادها المسبق ـ الذي لا يتسع المجال هنا للكلام عنه ـ أن يحدث ذلك في صورة تشكيل هذائي بارانوئي. وهكذا أصبحت الأم رقيبةً ومضطهِدةً وميالة إلى الإيذاء. ولقد كان من الممكن، بصفتها هذه، التغلب عليها، لو لم تحافظ العقدة الأموية لدى الفتاة على القوة الكافية لتفرض ما انعقدت نية تلك الأم عليه: إبقاءها بعيدة عن الرجل. وعند نهاية هذا الطور الأول من الصراع ابتعدت الفتاة عن الأم ولكن من غير أن تلتحق بالرجل. أفليس الاثنان يتآمران عليها؟ ولكن عندئذ أفلح الرجل ظاهرياً، بمجهود قوي بذله، في جذبها إليه. فتغلبت على اعتراض الأم وأبدت استعداداً لمنح حبيبها لقاء جديداً. ولم تعد الأم إلى التدخل في الأحداث اللاحقة؛ ولكن هذا لا يدعونا إلى العدول عن قولنا بأن الرجل المحبوب أصبح في هذا الطور هو المضطهِد، ولكن ليس بصورة مباشرة، بل عن طريق الأم، وبفضل علاقته بهذه الأم التي كانت اضطلعت بالدور الرئيسي في التشكيل الهذائي الأول.

قد نميل عندئذ إلى الاعتقاد بأن المقاومة أمكن الظهور عليها بصفة نهائية، وأن الفتاة، التي كانت مشدودة الوثاق حتى الآن إلى أمها، توصلت إلى أن تحبّ رجلاً. لكن بعد الخلوة الثانية طرأ تشكيل هذائي ثانٍ أفلح، عن طريق استخدام بارع لبعض وقائع عارضة، في إفساد هذا الحب، وحقق على هذا النحو نجاحاً كاملاً لمقاصد العقدة الأموية. وما يبقى في نظرنا باعثاً على الحيرة هو أن تكون الفتاة قد اضطرت إلى أن تدرأ عنها حب الرجل بالاستعانة بهذاء بارانوئي. لكن قبل أن نسلط مزيداً من الضوء على هذه العلاقة سنلقي نظرة سريعة على الحدث



الطارئ الذي إليه ارتكز التشكيل الهذائي الثاني، وهو التشكيل الوحيد الموجَّه ضد الرجل.

كانت ممددة نصف عارية على الأريكة بجانب حبيبها حينما سمعت صوتاً يشبه خشخشة أو دقاً أو نبضاً، فما عرفت سببه، لكنها أوَّلته فيما بعد، إثر التقائها على درج البيت برجلين كان أحدهما يحمل غرضاً يشبه علبة مغلَّفة. ومن ثم فقد استقرّ لديها يقين بأنها روقبت وصُوِّرت في أثناء لقائهما الحميم بناء على طلب من حبيبها. وطبيعي أنه ليس في نيتنا على الإطلاق أن نفترض أنه لو لم يصدر ذلك الصوت المزعج لما ظهر أيضاً التشكيل الهذائي. بل إننا نستشفّ بالأحرى خلف هذا الحدث الطارئ شيئاً ضرورياً كان من المحتّم أن يفرض نفسه على نحو لا يقلّ قسراً عن النحو الذي فرضت به نفسها فكرة وجود علاقة غرامية بين الرجل المحبوب وبين الرئيسة العجوز التي وقع عليها الاختيار كبديل أموي. فمشاهد الاتصال الحبِّي بين الوالدين هي قطعة نادراً ما تغيب عن ذلك الكنز من التخييلات والاستيهامات اللاشعورية الذي يمكن اكتشافه بالتحليل لدى العصابيين كافة، وفي أغلب الظن لدى جميع أطفال بني الإنسان. هذه التشكيلات التخييلية والاستيهامية، كمشاهدة المجامعة الجنسية بين الوالدين، والإغواء، والخصاء، وغير ذلك، أسميها **الأخاييل الابتدائية**، وسأقوم في غير هذا المكان ببحث مفصَّل حول أصلها ومنشئها كما حول صلتها بالتجربة المعاشة الفردية. الصوت الطارئ لا يلعب، إذاً، سوى دور تحريضي إذ ينشِّط أخيولة الاستماع النمطية التي تنطوي عليها العقدة الوالدية. بل قد يكون في وسعنا أن نتساءل هل يصحّ وصفه بأنه «عارض»؟ وكما كان أ. رانك لفت نظري إلى ذلك، فإن أخيولة الاستماع هي التي تقتضي حضور هذا الصوت كجزء من المشهد، إذ هو يكرر إما الصوت الذي يشي بالجماع بين الوالدين، وإما الصوت الذي يخشى الطفل المسترِق للسمع أن يفضح أمره. وهكذا نتبيَّن على حين فجأة على أية أرض نقف. فالمحبوب يبقى هو الأب. أما الأم فتحلّ محلها المريضة نفسها. وفي هذه الحال يتعيَّن أن يعزى الاستماع إلى شخص غريب. وبذلك تتوضح لنا الكيفية التي انعتقت بها المريضة من التبعية الجنسية المثلية حيال أمها



عن طريق قدر طفيف من النكوص؛ فبدلاً من أن تتخذ أمها موضوعاً حبِّياً لها، تماهت معها، وصارت هي نفسها الأم. وإمكانية هذا النكوص تهدينا إلى الأصل النرجسي لاختيارها الموضوعاني الجنسي المثلي، وبالتالي إلى الاستعداد الكامن فيها للإصابة بالبارانويا. وبوسعنا، إذا شئنا، أن نقيم تسلسلاً آخر للأفكار يفضي إلى النتيجة عينها التي أفضى إليها هذا التماهي: إذا فعلت أمي ذلك، فمن حقي أن أفعل أنا أيضاً، فأنا لي من الحقوق ما لأمي.

نستطيع أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام في استبعاد الأحداث الطارئة، بدون أن نطالب القارئ بتتبعنا، لأن النقص في الاستقصاء التحليلي النفسي المعمَّق في الحالة التي نحن بصددها لا يتيح لنا أن نتخطى درجة معلومة في مشاكلة الواقع. فقد كانت المريضة ذكرت لنا، في أثناء المحادثة الأولى، أنها استعلمت حالاً عن سبب الصوت. فأجابها الشاب أنه صادر في أغلب الظن عن الساعة التي دقّت فوق المكتب. وأحلّ لنفسي هنا أن أؤوِّل هذا المعطى على أنه وهم ذاكري، إذ يلوح لي أنه من الأرجح بكثير ألا يكون الصوت قد استثار في بادئ الأمر لدى الفتاة أية استجابة، وألا يكون قد بدا لها ذا دلالة إلا بعد التقائها بالرجلين على الدرج. والرجل، الذي يُحتمل ألا يكون سمع الصوت على الإطلاق، لم يجازف بمحاولة تعليله بعزوه إياه إلى دقّ الساعة إلا في وقت لاحق، حين رمت الفتاة حوله شبهاتها: «لست أدري ما تعنين بذلك، ولكن لعل الساعة دقت في تلك اللحظة، وهذا دأبها في بعض الأحيان». ومثل هذا الاستلحاق في تقييم الانطباعات، ومثل هذا النقل والإزاحة في الذاكرة يكثر تواترهما في البارانويا تحديداً، وهما واحدة من علاماتها الفارقة. ولكنني بما أني لم أكلِّم الرجل ولم أستوفِ تحليل الفتاة، فإن فَرَضي يبقى بلا برهان.

بوسعي أن أجازف بالتوغل إلى أبعد من ذلك قليلاً في تحليل «الحادث الطارئ»، الواقعي زعماً. فأنا لا أعتقد البتة أن الساعة قد دقت، أو أنه صدر صوت يمكن سماعه. فالموقف الذي كانت فيه الفتاة كان يبرر الإحساس بنبضات أو دقّ على البظر. وهذا بالضبط ما صوَّرت لنفسها لاحقاً على أنه إدراك حسي لموضوع خارجي. والشيء نفسه على وجه الدقة ممكن في الحلم.



فقد روت لي مرة واحدة من مريضاتي الهستيريات حلماً صغيراً من أحلام الإيقاظ استعصى عليها استحضار أية متداعيات بخصوصه. كان الحلم يقول: «هناك من يدقّ»، فاستيقظت. ولم يكن أحد دقّ على الباب، لكن المريضة كانت قد استيقظت في الليالي السابقة على أحاسيس احتلام مضنية، ومن ثم توفر لها دافع لكي تستيقظ حالما استشعرت أولى علائم التهيُّج الجنسي. لقد دُقّ إذاً على البظر. وعملية الإسقاط هذه هي عينها التي أودّ أن أضعها موضع الصوت الطارئ لدى مريضتنا البارانوئية. وبديهي أنني لن أضمن أن تكون المريضة، التي لم تكن لي بها إلا معرفة عارضة، قد أعطتني، من بين جملة القرائن على هاجس وسواسي لا يقع من نفسها موقع الرضى، تقريراً صحيحاً عما جرى في أثناء ذينك اللقائين الغراميين، لكن التقلص العارض للبظر يتمشى مع التوكيد بأن تلك المطارحات لم تتمخض عن اتصال للأعضاء الجنسية. ومن الممكن بكل تأكيد عزو رفضها للرجل ـ كنتيجة لذلك ـ إلى عدم الإشباع من جهة، وإلى «الضمير» من جهة أخرى.

لنعد إلى تلك الواقعة الجديرة بالاهتمام والمتمثلة في استعانة المريضة بتشكيل هذائي بارانوئي لتحتمي من حبّ الرجل. ومفتاح السر يقدِّمه لنا تاريخ تمخُّض هذا الهذاء. فقد كان الهذاء موجهاً في الأصل، كما أمكن لنا أن نتوقع ذلك، ضد المرأة، **ولكن تم الانتقال الآن، فوق أرض البارانويا، من المرأة إلى الرجل كموضوع**. ومثل هذا الانتقال ليس مألوفاً في حالة البارانويا؛ فنحن نلاحظ بوجه عام أن المضطهَد يبقى مثبّتاً إلى الأشخاص أنفسهم، وبالتالي إلى الجنس نفسه الذي كان اختياره الحبّي وقع عليه قبل الانقلاب البارانوئي. وبالمقابل، إن الانتقال المشار إليه ليس مستبعداً في الإصابة العصابية، وكان من الممكن لملاحظتنا أن تكون نمطية في العديد من الحالات الأخرى. وكثيرة هي، خارج إطار البارانويا، السيرورات المشابهة ـ وبعضها معروف جيداً ـ التي لم تحظَ بالاهتمام والدراسة من هذه الزاوية. ومن قبيل ذلك أن المصاب بما يعرف باسم النوراستانيا يجد نفسه، بحكم ارتباطه اللاشعوري بمواضيع حبّية محرمية، محظوراً عليه اتخاذ امرأة غريبة موضوعاً له، ويكون نشاطه الجنسي مقصوراً على التخييل والاستيهام.



غير أنه يحقق في مجال التخييل والاستيهام التقدم الذي حُرم منه، فيتأتى له أن يستبدل الأم والأخت بمواضيع غريبة. ونظراً إلى أنه لا يواجه اعتراضات رقابية، فإن اختياره لهؤلاء الأشخاص البدلاء يغدو شعورياً بالنسبة إليه في تخييلاته.

إن الظاهرات المرتبطة بمحاولة التقدم، بدءاً من الموقع الذي تمّ كسبه بطريقة نكوصية في غالب الأحيان، ينبغي أن توضع في خانة واحدة مع الجهود التي تُبذل في العديد من الحالات العصابية لاستعادة الموقع الليبيدوي الذي كان مشغولاً فيما سبق قبل أن يتمّ إخلاؤه. وهاتان السلسلتان من الظاهرات يكاد لا يجوز التفريق بينهما من الزاوية المفهومية. وقد نميل هنا أكثر مما ينبغي إلى الأخذ بتصور يفترض أن الصراع الذي هو للعصاب بمثابة الأساس ينتهي مع تشكيل العرض. غير أن المعركة تبقى مستمرة في الواقع، على نحو لا يخلو من تعقيد، حتى بعد تشكيل العرض. فمن كلا الجانبين تتدفق إمدادات غريزية جديدة تبقي نار المعركة مستعرة. ويغدو العرض نفسه موضوع الرهان في هذه المعركة؛ فالنوازع التي تريد تثبيته تتبارى مع نوازع أخرى تعمل على إلغائه وعلى إعادة الوضع إلى نصابه السابق. وكثيراً ما يجري البحث عن طرق من شأنها أن تفسح في المجال للانتقاص من قيمة العرض، فتبذل المساعي للفوز من جديد، وبسبل أخرى، بما كان العرض تسبب في خسارته والحرمان منه. وتلقي هذه المعطيات ضوءاً باهراً على أطروحة تقدم بها ك. غ. يونغ مفادها أن عطالة نفسية من نوع خاص، معارضة للتغيير والتقدم، هي الشرط الأساسي للعصاب. فهذه العطالة هي بالفعل من نوع بالغ الخصوصية؛ فما هي من نمط عام، وإنما من نمط خاص للغاية؛ كما أنها ليست صاحبة الأمر والنهي المطلقة حتى في مجالها. بل تكافح ضد النوازع إلى التقدم والإبلال، هذه النوازع التي لا يخمد لها أوار حتى بعد تشكيل العرض العصابي. ولو تقصينا عن منشأ هذه العطالة الخاصة لتكشَّف لنا أنها بمثابة تعبير عن ارتباطات، انعقدت أواصرها في زمن مبكر للغاية ـ ويعسر كل العسر تفكيكها ـ بين الدوافع الغريزية من جهة أولى وبين الانطباعات والخبرات وما تنطوي عليه من مواضيع من الجهة الثانية، وهي ارتباطات أدت إلى وقف التطور اللاحق لتلك الإمدادات الغريزية. أو بعبارة أخرى، ما هذه «العطالة



النفسية» المتخصصة سوى تعبير آخر، يكاد لا يكون أفضل، عما درجنا في التحليل النفسي على تسميته **بالتثبيت**.

(١١)

«طفل يُضرب»
مساهمة في معرفة نشأة الانحرافات الجنسية
(١٩١٩)

(١)

«طفل يُضرب» هو تصور تخييلي يقرّ به بتواتر مدهش أشخاص طلبوا العلاج التحليلي النفسي للبرء من هستيريا أو من عصاب وسواسي. وأرجح الظن أنه أكثر تواتراً بعدُ لدى أشخاص آخرين ممن لا يرغمهم مرض سافر على إبرام قرار كذاك.

ترتبط بهذا التخييل مشاعر وأحاسيس لاذّة، ولهذا يُكرَّر عدداً لا يحصى من المرات أو بصورة دائمة. وعندما يبلغ الموقف المتخيَّل أوجه يطرأ، بصورة شبه مطَّردة، إشباع استمنائي (إذاً على مستوى الأعضاء التناسلية). في أول الأمر بمحض إرادة الشخص المعني، ولكن بعد ذلك بكيفية قهرية ورغماً عن إرادته.

إن الإقرار بهذا التخييل لا يأتي إلا بعد تردد، وذكرى ظهوره الأولى يحيط بها الشك؛ وثمة مقاومة لا تخفي نفسها تعترض سبيل المعالجة التحليلية لهذا الموضوع؛ كما أن مشاعر الخجل والذنب تثور في هذه المناسبة، وربما بقوة أشدّ مما عند الإدلاء باعترافات مشابهة تتصل بالذكريات الأولى للحياة الجنسية.

بوسعنا أخيراً أن نتثبت من أن التخييلات الأولى من هذا القبيل تُرعى وتُغذّى في زمن مبكر للغاية، وبالتأكيد قبل سن المدرسة، وبالتحديد ابتداء من السنة الخامسة أو السادسة. وحينما يشهد الطفل في المدرسة ضرب أطفال آخرين أو جلدهم من قبل المعلم، توقظ هذه الخبرة تخييلاته إن تكن قد خمدت، وتعززها



إن تكن ما زالت نشِطة، مع إجراء تعديل ملموس في مضمونها. وابتداء من تلك اللحظة يتكاثر كثرة لا تقع تحت التعيين عدد الأطفال الذين ضُربوا. وتأثير المدرسة واضح هنا كل الوضوح بحيث أن المرضى المعنيين يحاولون في بادئ الأمر عزو تخييلاتهم الجلّدية إلى خبرات تلك المرحلة المدرسية وحدها، بعد السنة السادسة. بيد أن ذلك لا يستقيم أبداً؛ فهذه التخييلات وُجدت قبل ذلك.

إن يكن جلد الأطفال يتوقف في الصفوف العليا، فإن أثره يجد له أكثر من مجرد بديل في تأثير المطالعات التي سرعان ما تتشح بالأهمية. وفي الأوساط التي يجيء منها مرضاي تكاد تكون واحدة على الدوام الكتب المتاحة لصغار السن وللأحداث والتي منها تستمد أخاييل الجلد نسغاً جديداً: السلسلة التي تعرف باسم **المكتبة الوردية**[1]، و**كوخ العم توم**[2]، ونظير ذلك من الكتب. وبالتضافر مع هذه المؤلفات الروائية يعكف النشاط التخييلي الخاص لدى الطفل على اختلاق وفرة من المواقف والأوضاع التي يُضرب فيها أطفال أو يعاقبون ويقاصصون بطريقة مختلفة، لأنهم ما كانوا عاقلين أو لأنهم أساؤوا السلوك.

وبما أن التصور التخييلي: «طفل يُضرب» يكون مشحوناً على الدوام بلذة كبيرة ويفضي إلى فعل يتمخض عن إشباع إيروسي ذاتي لاذّ، فربما كان سيجوز لنا أن نتوقع أن يكون مشهد الطفل الذي يُضرب في المدرسة مصدراً هو الآخر للذة مماثلة. لكن ليس كذلك هو واقع الحال. فرؤية مشاهد الجلد الفعلية في المدرسة تثير لدى الطفل شعوراً شديد الحدة، هو في الغالب مزيج يستأثر منه الاشمئزاز بقسط موفور. وفي بعض الحالات يستشعر الطفل الخبرة الفعلية لمشاهد الجلد على أنها شيء لا يطاق. ثم إنه حتى الأخاييل التي تميل في السنوات

١ ـ **المكتبة الوردية**: سلسلة مشهورة لكتب الأحداث بدأت دار هاشيت الفرنسية بإصدارها منذ عام ١٨٥٦ وعرفت انتشاراً كبيراً في العديد من بلدان أوروبا الغربية. ومن أشهر ما صدر عنها روايات الكونتس دي سيغور. «م».

٢ ـ **كوخ العم توم**: رواية للكاتبة الأميركية هارييت بيشر ستو صدرت عام ١٨٥٢ وتروي عذابات الإنسان الأسود في أميركا البيضاء. وكانت أكثر الكتب مبيعاً بعد التوراة. «م».



اللاحقة إلى مزيد من التفنن والإرهاف تتمسك بشرط لا تتنازل عنه، وهو أن ألا يصيب الأطفال المقاصصين أي أذى خطير.

ما كان في مقدورنا أن نتفادى طرح السؤال التالي: ما هي العلاقة التي يمكن أن تقوم بين كثرة تواتر أخاييل الجلد وبين الدور الذي تكون قد لعبته العقوبات الجسمانية الفعلية في التربية العائلية للطفل؟ وكان أول فرض طرح نفسه هو أن ما بين الظاهرتين علاقة عكسية، ولكن كان من المستحيل إقامة البرهان على هذا الفرَض بالنظر إلى الطابع الأحادي الجانب للمعطيات. فالأشخاص الذين أمدّونا بمادة هذه التحاليل نادراً ما ضُربوا في طفولتهم، وهم على كل حال لم يُربُّوا بالعصا. ولكن من الطبيعي أن كل واحد من هؤلاء الأطفال أتيحت له الفرصة في يوم من الأيام لاختبار تفوق القوة الجسدية لوالديه أو مربِّيه؛ ولا جدوى من الإفراط في الإلحاح على الضربات التي لا يعدم الأطفال أنفسهم أن يتبادلوها في كل حجرة تجمع بينهم.

لقد كان في ودّ بحثنا هذا لو يعلم المزيد عن هذه الأخاييل المبكرة والبسيطة التي لا ترجعنا على نحو جليّ صريح إلى تأثير الخبرات المدرسية أو المشاهد المستخلصة من المطالعة. من كان الطفل المضروب؟ أهو مختلِق التخييل نفسه أم طفل آخر؟ وهل هو على الدوام الطفل نفسه أم سيان إن كان في كثير من الأحيان غيره؟ ومن كان الذي يضرب الطفل؟ أشخص راشد؟ ولكن من هذا الشخص، بمزيد من التحديد؟ جميع هذه الأسئلة لم نجد لها أي حلّ قاطع. بل فقط هذا الجواب الواحد الوجِل: لست أدري أكثر من ذلك، إنما فقط طفل يُضرب.

كانت الأسئلة المتصلة بجنس الطفل أكثر نجعاً، لكن بدون أن تساعدنا على فهم أفضل. فكثيراً ما كان يأتي الجواب: صبيان فقط على الدوام؛ أو: بنات فقط؛ وفي الغالب: لست أدري، أو: الأمر سيان. والفكرة التي تكونت لدى السائل عن وجود علاقة دائمة بين جنس الطفل، مختلق الأخيولة، وبين جنس الطفل المضروب لم يُقيَّض لها أن تخرج إلى حيِّز الواقع. مرة فقط تكشَّف له تفصيل مميِّز لمضمون الأخيولة: إن الطفل الصغير يُضرب على مؤخرته العارية.



وما كان من الممكن في هذه الظروف حتى أن نقرر ما إذا كان تخييل الجلد قابلاً للوصف بأنه سادي أو مازوخي.

(٢)

بموجب ما نعرفه في الوقت الحاضر فإن تخييلاً كهذا ـ بزغ في الطفولة الأولى، وربما في مناسبات عارضة، وتمسك به الطفل برسم الإشباع الإيروسي الذاتي ـ لا يمكن تصوره إلا على أنه سمة أولية من سمات الانحراف. ففي هذه الحال يكون أحد مقوِّمات الوظيفة الجنسية قد سبق المقوِّمات الأخرى إلى النمو، واستقلّ بنفسه في وقت مبكر، وتثبَّت، وأفلت بالتالي من سيرورات النمو اللاحقة، فكان بذلك بمثابة شاهد على جبلَّة خاصة وغير سويِّة للشخص. ونحن نعلم أن انحرافاً طفلياً كهذا يمكن ألا يدوم مدى الحياة، وأنه قد يقع لاحقاً تحت نير الكبت، فيقوم بديلاً عنه تشكيلٌ ارتجاعي، أو قد يتحول بفعل الإسماء (لكن أليس من الممكن أن يكون الإسماء قد تولّد عن سيرورة خاصة أعاقها الكبت؟). لكن إن غابت هذه السيرورات، فعندئذ يستمر الانحراف في سنّ النضج، ومتى ما وجدنا لدى شخص راشد شذوذاً جنسياً ـ انحرافاً أو تميمية أو ارتكاساً[٣] ـ كان من حقنا أن نتوقع أن نكتشف من خلال تاريخ الحالة حدثاً تثبيتياً كذاك في الطفولة. وحتى قبل زمن من ظهور التحليل النفسي أمكن لمراقبين من أمثال بينيه أن يرجعوا الضروب الغريبة من الشذوذ الجنسي في سن النضج إلى خبرات من ذات النوع، يعود تاريخها تحديداً إلى السنة الخامسة أو السادسة من الطفولة[٤]. ومن المؤكد أن فهمنا للانحرافات كان يصطدم هنا بحدٍّ، إذ إن الخبرات التثبيتية كانت متجردة من كل قوة رَضِّية، وكانت في معظم الأحيان عادية وعاجزة عن إثارة انفعال أشخاص آخرين؛ ومن ثم ما كان في وسعنا أن نبيِّن لماذا تثبتت الميول الجنسية عليها تحديداً. لكن كان في مقدورنا أن نجد لها دلالة: فقد أتاحت

٣ ـ الفيتيشي أو التميمي هو المولّه جنسياً بقدم المرأة أو بأي عضو جزئي من جسمها أو بشيء من أشيائها، والمرتكس هو الجنسي المثلي. «م».

٤ ـ الإحالة هنا إلى كتاب بينيه: **دراسات في علم النفس التجريبي**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة. «م».



للمقوِّمات الجنسية، السابقة لغيرها والمتأهبة للاندفاع، فرصة ولو عارضة للتعلُّق والتثبُّت. ولزام علينا بالفعل أن نكون متهيئين لفكرة أن سلسلة الترابط السببي يمكن أن تجد عند نقطة ما نهاية مؤقتة لها. ويبدو أن البنية الجِبلَّية تناظر بالضبط كل ما يمكن تطلُّبه من نقطةِ توقُّفٍ كتلك.

حين يكون المقوِّم الجنسي الذي بكَّر إلى الانفصال هو المقوِّم السادي فإننا نتوقع، على أساس ما علمناه في غير هذا المجال، أن يتمخَّض الكبت اللاحق لهذا المقوِّم عن استعداد للعصاب الوسواسي. ولا يسعنا أن نقول إن هذا التوقع قد كذَّبته نتائج استقصائنا. فبين الحالات الست التي ضمَّنَّا مقالنا الصغير هذا نتائج دراستنا المفصَّلة لها (أربع نساء واثنان من الرجال)، كان ثمة حالات عصاب وسواسي، وكانت إحدى الحالات على درجة بالغة من الخطورة تقوَّضت معها حياة المريض، وحالة ثانية متوسطة الخطورة وغير مستعصية على التأثير العلاجي، وأخيراً حالة ثالثة تتسم على الأقل ببعض السمات الجليَّة للعصاب الوسواسي. وكانت الحالة الرابعة بما لا يدع مجالاً للشك هستيريا واضحة مع آلام وضروب من الكفّ؛ أما الحالة الخامسة، التي ما طلب فيها المريضُ التحليلَ إلا بسبب عجزه عن اتخاذ قرارات، فما كان للتشخيص السريري المتعجل أن يصنِّفها على الإطلاق أو كان سيتملَّص منها بإدراجه إياها في باب «السيكاستينيا»[٥]. وأرجو ألا نجد في هذه الإحصائية مدعاة للخيبة. فنحن نعرف أولاً أنه ليس من الضروري أن يتمخض كل استعداد مسبق عن مرض لاحقاً، وفي مقدورنا ثانياً أن نقنع بتفسير ما حدث، ومن حقّنا أن نستنكف بصفة عامة عن وجوب تعليل ما لم يحدث.

إلى هذا الحدّ، وإلى هذا الحدّ فقط، تبيح لنا معارفنا الراهنة أن نتوغل في فهم أخاييل الجلد. أما الإرهاص بأن المشكلة لم تجد بذلك حلَّها فمردُّه بكل تأكيد إلى ذهنية الطبيب المحلِّل حينما يضطر إلى الإقرار بينه وبين نفسه بأن هذه

٥ ـ أو النهك النفسي: مرض عصابي يتميَّز بالعجز عن التخلص من الشكوك وعن مقاومة الهواجس والمخاوف، وبالخجل والشعور بعدم الاكتمال والعجز عن إبرام القرار واللواذ بعالم الخيال. وقد أرجع جانيه هذا المرض إلى الجِبِلَّة الفطرية، لكن التحليل النفسي رفض بطبيعة الحال هذا التعليل. «م».



الأخاييل تبقى في معظم الأحيان في معزل عن بقية مضمون العصاب ولا تجد مكاناً خاصاً لها في نسيجه؛ ولكن درجت العادة، كما تفيديني بذلك خبرتي الشخصية، على غضّ الطرف بكل طيبة خاطر عن هذه الانطباعات وعلى تجاوزها.

(٣)

إذا اردنا الدقة في الكلام ـ ولماذا لا نتكلم دوماً بأكبر قدر ممكن من الدقة؟ ـ فإن صفة التحليل النفسي الصحيح لا يجوز أن تطلق إلا على المجهود التحليلي الذي أفلح في إزالة النساية التي تُخفي عن الراشد المعرفة ببداياته الطفلية (أي بالحقبة التي تمتد من السنة الثانية إلى السنة السادسة). وهذه الحقيقة ينبغي أن تردَّد باستمرار وبأعلى صوت في أوساط المحللين النفسيين. صحيح أن الدوافع التي يمكن أن تحمل المحلِّل على عدم أخذ هذا التحذير في اعتباره مفهومة؛ فهو يحبّذ أن يصل إلى نتائج عملية في زمن أقصر وبمشقة أقلّ. لكن المعرفة النظرية في الوقت الراهن أهمّ بما لا يضاهى بالنسبة إلى كل واحد منا من النجاح العلاجي؛ ومن يغفِل تحليل الطفولة فسيسقط لا محالة في أخطاء تترتب عليها أوخم العواقب. وإذ نشدِّد على أهمية الخبرات المعاشة الأولى لا نهوِّن البتة من شأن تأثير الخبرات المتأخرة زمنياً؛ ولكن الخبرات الحياتية التي تأتي لاحقاً تنطق بما فيه الكفاية من القوة في التحليل من فم المريض، بينما يتعيَّن على الطبيب أن يرفع الصوت أولاً مراعاة لحقّ الطفولة.

إن حقبة الطفولة التي تقع ما بين السنة الثانية والسنة الرابعة أو الخامسة هي الحقبة التي تستيقظ فيها لأول مرة العوامل الليبيدوية الفطرية بفعل الخبرات المعاشة وترتبط ببعض العقد. وأخاييل الجلد التي نعالجها هنا لا تظهر إلا في نهاية هذه الحقبة أو عقب تصرُّمها. من المحتمل إذاً أن يكون لها ما قبل تاريخ، ومن الممكن أن تمرّ بنمو وتطور، وهي تناظر نتيجة نهائية أكثر مما تؤلِّف تعبيراً أولياً.

إن هذا الافتراض يؤيده التحليل. فالتطبيق المتماسك لهذا الأخير يفيدنا أن لأخاييل الجلد تطوراً تاريخياً ليس بحال من الأحوال بسيطاً، تطوراً تتغير في أثنائه معظم مظاهرها غير مرة: علاقتها بصانع الأخيولة، موضوعها، مضمونها،



دلالتها.

وكيما يتسنى لنا أن نتتبع بسهولة أكبر هذه التحولات التي تطرأ على أخاييل الجلد سأُحِلّ لنفسي الآن أن أقصر الوصف على الإناث من المرضى، وهنّ يؤلفن أصلاً الجزء الأكبر من مادتي (أربع مقابل اثنين). هذا فضلاً عن أن أخاييل الجلد لدى الذكور ترتبط بموضوعة أخرى لن أتطرّق إليها في هذا المقال. وسأحاول جهدي أن أمتنع عن التعميم أكثر من القدر الذي تبيحه حالة متوسطة. وحتى إذا جاءت ملاحظة حالة لاحقة غنية بقدر أكبر من المعطيات، فإني لعلى اقتناع مع ذلك بأنني وضعت يدي على ظاهرة نمطية، وما هي بكل تأكيد من نوع نادر.

الطور الأول من أخاييل الجلد عند البنت يعود إذاً، ولا بدّ، إلى مستهل الطفولة. وثمة شيء في هذه الأخاييل يبقى، على نحو لافت للنظر، عصياً على أي تحديد، كما لو أن هذا الشيء غير ذي بال. والإجابة الهزيلة التي حصلنا عليها من المريضات في روايتهن الأولى: «طفل يُضرب» تبدو مبررة بالنسبة إلى هذه الأخيولة. لكن ثمة شيء آخر قابل بكل تأكيد للتحديد، وذلك في اتجاه واحد في كل مرة. فالطفل المضروب ليس في أي مرة الطفل صانع التخييل، بل هو على الدوام طفل آخر، وفي معظم الأحيان أخ صغير أو أخت صغيرة، إذا كانا موجودين. وبما أنه يمكن أن يكون أخاً أو أختاً، فلا سبيل إلى اكتشاف أية علاقة دائمة بين جنس صانع الأخيولة وجنس الطفل المضروب. ثابت إذاً أن الأخيولة ليست مازوخية؛ بل كنا سنميل إلى وصفها بأنها سادية لولا أننا لا نستطيع أن نغضّ النظر عن واقع أن الطفل صانع الأخيولة ليس هو أيضاً الضارب. والحق أننا لا نتبيَّن بجلاء في بادئ الأمر من هو في الواقع الشخص الذي يَضرب. وبوسعنا فقط أن نقرر ما يلي: إنه ليس طفلاً آخر، بل شخص راشد. وهذا الشخص الراشد واللامتعين الهوية يمكن فيما بعد تعرُّفه على نحو جليّ ولا لبس فيه على أنه **الأب** (أبو البنت).

هذا الطور الأول من تخييل الجلد سيجد إذاً ملء تعبيره في جملة: **الأب يضرب الطفل**. وإنني أفشي شطراً كبيراً من المضمون الذي يفترض فيَّ ألا أزيح عنه النقاب إلا فيما بعد إذا ما قلت بدل الجملة السابقة: الأب يضرب الطفل



المكروه من قبلي. وبديهي أنه بوسعنا أن نتردد فيما لو تساءلنا عما إذا لم يكن مفروضاً بنا من الآن أن نقرّ بصفة «التخييل» لما لا يعدو أن يكون بعد المرحلة التمهيدية من أخيولة الجلد اللاحقة. وربما كان الأمر أمر ذكريات تتصل بمشاهد رآها الطفل[٦] وهي تحدث، أو برغبات أفصحت عن نفسها في مناسبات شتى، غير أن هذه الشكوك لا أهمية لها على الإطلاق.

بين هذا الطور الأول والطور التالي تتمّ تحولات كبرى. فالشخص الضارب يبقى هو ذاته، أي شخص الأب، بينما يغدو الطفل المضروب طفلاً آخر، وبصورة قياسية شخص الطفل مختلِق الأخيولة بالذات. وهذا التخييل يتَّسم بقدر كبير من اللذة ويمتلئ بمضمون دالّ سنهتم لاحقاً ببيانه. وعلى هذا تكون صياغته الآن كالتالي: **إنني مضروب من قبل أبي**. ويكون له بما لا يدع مجالاً للبس طابع مازوخي.

هذا الطور الثاني هو أهم الأطوار إطلاقاً، وأحفلها بالنتائج. ولكن في وسعنا أن نقول عنه بمعنى من المعاني إنه ما عرف قط وجوداً فعلياً. فالذاكرة لا تستحضره في أية حال من الأحوال؛ ومضمونه لا يتقدم أبداً ليبلغ الشعور. إنه إنشاء من إنشاءات التحليل، ولكن ذلك لا ينتقص من ضرورته.

أما الطور الثالث فيشبه من بعض الوجوه الطور الأول. وصياغته هي الصياغة التي تفيدنا بها رواية المريضة. فالشخص الذي يضرب لا يكون أبداً شخص الأب، أو هو يبقى غير متعيِّن الهوية كما في الطور الأول، أو ينوب منابه بصورة نمطية بديل للأب (المعلِّم). أما الطفل صانع الأخيولة فلا يعود شخصه إلى الظهور في أخيولة الجلد. وإذا ما ألحفنا بالأسئلة على المريضات كان جوابهن الوحيد: أغلب الظن أنني كنت أتفرج. وبدلاً من طفل واحد يُضرب يكثر الآن، وفي معظم الأحيان، عدد الأطفال الذين يُضربون. وفي أغلب الحالات يكون الأطفال الذين يُضربون (في أخاييل البنات) من الصبيان، لكن بدون أن يكونوا معروفين إفرادياً. ومن الممكن أن يطرأ على الموقف الأصلي، البسيط والرتيب، الذي لا

---

٦ ـ كان سياق النص يقتضينا أن نقول «الطفلة» بدلا من «الطفل». ولكن لا ننسَ أن لفظة «الطفل» تطلق في العربية كما في الأجنبية على الذكور والإناث، وإن أريد التخصيص قيل أيضاً «طفل» و«طفلة». «م».



يتعدى الضرب، تحويرات وتجميلات بالغة التنوع، فتحلّ محلّ الجلد عقوبات وإذلالات من نوع آخر. لكن السمة الرئيسية التي تميّز حتى أبسط أخاييل هذا الطور عن أخاييل الطور الأول، والتي لا تقطع الصلة بالطور الوسيط، هي التالية: إن الأخيولة حاملة الآن لإثارة قوية هي بما لا يدع مجالاً للبس جنسية، وتؤدي بصفتها هذه إلى الإشباع الاستمنائي. لكن هنا بالضبط يكمن اللغز: فعن أي طريق تصبح الأخيولة، التي صارت من الآن فصاعداً ساديةً، والتي تصوِّر صبياناً صغاراً أغراباً وغير معروفين وهم يُضربون، هي الأساس الدائم من الآن فصاعداً أيضاً للرغبة الليبيدوية لدى البنت الصغيرة؟

إننا لا نخفي أيضاً أن الارتباط بين الأطوار الثلاثة لأخيولة الجلد وتعاقبها قد بقيا حتى الآن، شأنهما شأن سائر خصائص هذه الأخيولة، غير مفهومين بتاتاً.

(٤)

إذا تتبعنا التحليل عبر جميع هذه المراحل المبكرة التي نموضع فيها أخيولة الجلد والتي بدءاً منها تستحضرها الذاكرة، وجدناه يصوِّر لنا الطفل متخبِّطاً في تهيُّجات عقدته الوالدية.

فالبنت الصغيرة متعلقة تعلقاً حانياً بأبيها، الذي يكون في أغلب الظن قد بذل كل ما بوسعه ليكسب حبَّها، فأودع فيها على هذا النحو بذرة موقف كراهية ومزاحمة حيال الأم، وهو موقف يستمر قائماً إلى جانب تيار من العطف الحاني، وقد يُقيَّض له أن يغدو بمرّ السنين أقوى وأجلى شعورياً أو أن يحفز على علاقة حبِّية بالأم تكون ارتكاسية وتتصف بالشطط. لكن ليس بالعلاقة بالأم ترتبط أخيولة الجلد. فحجرة الأطفال تضمّ أطفالاً آخرين، أكبر سناً أو أصغر سناً بسنوات قليلة جداً، أطفالاً لا تكنّ لهم البنت الصغيرة حباً جماً، وذلك لأسباب عدة، ولكن في المقام الأول لأنها مضطرة إلى أن تقاسمهم حبَّ والديها، مما يحملها على أن تدفعهم عنها بكل الطاقة الوحشية التي هي سمة الحياة العاطفية في تلك السنوات. فإن يكن أخاً صغيراً أو أختاً صغيرة أصغر سناً (كما في ثلاث حالات من حالاتي الأربع) عاملته بازدراء، علاوة على كرهه، وإن لم يكن أمامها مناص من أن تتحمل رؤيته وهو



يجتذب إليه ذلك المقدار من المحبة الذي يخصّ به الوالدان، المضروبة على أبصارهما غشاوة، أصغر أطفالهما سناً. وسرعان ما يدرك الطفل أن ضربه، حتى وإن لم يسبِّب له وجعاً شديداً، هو بمثابة حجب للحب وإذلال. وعلى هذا، كم من طفل كان يتصوّر أنه يتربَّع بكل أمان على عرش حبٍّ والديه غير القابل لأن يتزعزع وجد نفسه على حين بغتة وقد سقط، وبضربة واحدة، من عالي سماوات كلية قدرته المزهوة المعتدَّة. ومن ثم، إنه لتصوُّرٌ محبّب إلى النفس ذاك الذي يرائي للطفل أن الأب يضرب الطفل المكروه منه، بصرف النظر عن كونه رآه أو لم يره يضربه فعلاً. فهذا معناه: إن أبي لا يحبّ ذلك الطفل الآخر، **إنه لا يحبّ أحداً غيري.**

ذلك هو إذاً مضمون أخيولة الجلد ومدلولها في طورها الأول. فالأخيولة تشبع على نحو سافر غيرة الطفل، وتكون مرتبطة بحياته الحبية، ومدعومة بقوة في الوقت نفسه باهتماماته الأنانية. ومن ثم يبقى ثمة شكّ محوٌماً: هل يمكن وصفها بأنها أخيولة «جنسية» صرف؟ كذلك إننا لا نجرؤ على أن نسمِّيها أخيولة «سادية». فنحن نعلم أن جميع السمات التي اعتدنا على أن نشيِّد عليها تمييزاتنا تميل عند نقطة المنشأ إلى الامِّحاء. فما أشبه ذلك بالوعد الذي تقطعه الأخوات الساحرات الثلاث لبانكو(٧): ليس بالتأكيد جنسياً، ولا حتى سادياً، وإنما مع ذلك المادة التي منها سينبع هذا وذاك. لكن لا مجال في أي حال من الأحوال للافتراض بأن هذا الطور الأول من الأخيولة يعمل منذ ذلك الحين في خدمة إثارة قادرة على أن تتعلم، تحت ضغط الأعضاء التناسلية، كيف تفوز بالتصريف من خلال فعل استمنائي.

من خلال هذا الاختيار الموضوعاني المبكر للحب المحرمي تبلغ حياة الطفل الجنسية بوضوح وجلاء مرحلة التنظيم التناسلي. وهذا أمر يسهل أكثر إثباته بالنسبة إلى الصبيان، ولكن لا جدال فيه أيضاً بالنسبة إلى البنات الصغيرات.

٧ ـ بانكو: من ولاة دونكان، ملك إسكتلندا في مسرحية **مكبث** لشكسبير. شهد صامتاً مصرع سيده على يد القائد مكبث. والوعد الذي تقطعه له الأخوات الساحرات الثلاث مثال للالتباس: «أقلّ من مكبث وأكبر! أقل سعادة ومع ذلك أسعد! وستنجب ملوكاً، ولكنك لن تكون أنت نفسك ملكاً!». «م».



ويهيمن على رغبة الطفل الليبيدوية شيء أشبه بالنذير المسبق بما ستكون عليه لاحقاً الأهداف الجنسية النهائية والسوية. ومن حق المرء أن يتساءل بدهشة من أين يأتي ذلك، لكن لدينا على ذلك دليل، وهو أن الأعضاء التناسلية تبدأ منذ ذلك الحين بلعب دورها في عملية التهيُّج. والرغبة في استيلاد الأم طفلاً لا تغيب في أية حالة من الحالات لدى الصبي، والرغبة في إنجاب طفل من الأب دائمة لدى البنت، وهذا مع عجزهما التام عن تكوين فكرة واضحة عن الطريق الذي يمكن أن يفضي إلى تحقيق هاتين الرغبتين. ويبدو أنه لا بدّ أن نقرر أن الطفل يدرك أن للأعضاء التناسلية ضلعاً في الأمر، وإن يكن يطيب له في نشاطه الذهني الاجتراري أن يبحث عن كنه الصلة الحميمة التي يفترض وجودها بين والديه في علاقات من نوع آخر، وعلى سبيل المثال في نومهما معاً، في تبولهما معاً، إلخ، علماً بأن مضموناً كهذا أسهل قابلية للوقوع تحت إدراكه بواسطة تمثلات لفظية من النشاط الغامض ذي الصلة بالأعضاء التناسلية.

لكن لا يلبث أن يأتي حين من الزمن يتعطّل فيه هذا التفتح الأول بفعل الجمود، إذ ليس في مكنة أي حالة من حالات حبّ المحارم هذه أن تفلت من حتمية الكبت. وهي تقع بالفعل تحت نيره، إما بمناسبة أحداث خارجية قابلة للإثبات تسبَّبت في خيبة (إهانات غير متوقعة، ولادة غير مرغوب فيها لأخ صغير أو لأخت صغيرة يكون لها في نفس الطفل وقع الخيانة وعدم الوفاء)، وإما بدون مناسبة من هذا النوع، أي لأسباب داخلية، وربما فقط من جراء طول أمد الاستنكاف عن إنجاز ما تشتهيه نفسه. ولسنا نستطيع أن نتجاهل أن الظروف المسبِّبة ليست هنا هي العلل الفاعلة، وأن تلك العلاقات الحبِّية مقيَّض لها أن تتلاشى وتبيد في يوم أو آخر من غير أن ندري لذلك سبباً. والاحتمال الأرجح هو أنها تضمحل لأن أوانها قد فات، ولأن الأطفال يدخلون في مرحلة جديدة من نموهم يُكرهون في غضونها على تكرار كبت الاختيار الموضوعاني المحرمي، وهو الكبت الذي يمليه عليهم تاريخ البشرية، تماماً مثلما كان دُفع بهم بالأمس إلى تبني مثل ذلك الاختيار الموضوعاني(القدر في أسطورة أوديب). وما يكون موجوداً في الحالة اللاشعورية كنتيجة نفسية للحاثات الحبِّية المحرمية لا يعود

الشعور إلى تبنيه في المرحلة الجديدة، فإذا بما كان أمسى شعورياً يُدفع به من جديد خارج الشعور. وبالتواقت مع سيرورة الكبت هذه يظهر شعور بالإثم، من المصدر المجهول نفسه. ولكنه يكون مرتبطاً بغير ما شك بتلك الرغبات المحرمية ومبرَّراً بدوامها في اللاشعور[٨].

كانت أخيولة مرحلة الحب المحرمي قد قالت: إنه (الأب) لا يحبّ أحداً غيري، وليس الطفل الآخر، لأنه يضرب هذا الأخير تحديداً. والشعور بالإثم يعجز عن الاهتداء إلى عقوبة أقسى من قلب هذا الانتصار إلى عكسه: «كلا، إنه لا يحبك، لأنه يضربك». وهكذا تغدو أخيولة الطور الثاني ـ أن يكون هو من يُضرب من قبل الأب ـ تعبيراً مباشراً عن الشعور بالإثم، ذلك الشعور الذي يكون أساسه في هذه الحال الحب المكنون للأب. وبذلك تكون الأخيولة قد غدت مازوخية. والأمر يتكرر على هذا النحو، على حدّ علمي، كل مرة يكون فيها الشعور بالإثم هو العامل الذي يقلب السادية إلى مازوخية. لكن ليس هذا، بالتأكيد، هو كل مضمون المازوخية. والشعور بالإثم لا يمكن أن يبقى هو وحده صاحب القول الفصل في الميدان؛ فلا بدّ أن يكون للحاثة الحبِّية هي أيضاً نصيبها. ولنتذكر أن الأمر يتعلق بأطفال يمكن أن يبرز لديهم المقوِّم السادي قبل الأوان ومنفرداً لأسباب ذات صلة بالجِبِلَّة. ولن يكون علينا أن نتخلى عن وجهة النظر هذه. فلدى أمثال هؤلاء الأطفال يكون ميسَّراً للغاية التراجع بالحياة الجنسية إلى التنظيم القبتناسلي، الشرجي ـ السادي. وإذا ما طال الكبت التنظيم التناسلي الذي تكوَّن لتوه، لم تكن النتيجة الوحيدة لذلك أن كل تمثُّل نفسي للحب المحرمي يغدو أو يبقى لاشعورياً، بل إن التنظيم التناسلي نفسه يصيبه، فضلاً عن ذلك، خفض نكوصي. فعبارة «الأب يحبِّني» كانت تُفهم من قبل بالمعنى التناسلي؛ ولكن تحت تأثير النكوص تنقلب إلى ما يلي: الأب يضربني (إنني مضروب من قبل الأب). وواقعة المضروبية هذه تكون مركَّبة هذه المرة من الشعور بالإثم ومن الإيروسية؛ فهي لم تعد **مجرد عقاب على العلاقة التناسلية**

---

٨ ـ انظر بيان هذه الموضوعة في **أفول عقدة أوديب**، ١٩٢٤ (راجع ترجمتنا لهذا المقال في: **الحياة الجنسية**. «م»).



المحظورة، بل أمست كذلك هي البديل النكوصي عن هذه العلاقة؛ وإنما من هذا المصدر الأخير تستمد الإثارةَ الليبيدوية التي سترتبط بها من الآن فصاعداً والتي ستأخذ طريقها إلى التصريف في أفعال استمنائية. والحال أن ذلك هو بالتحديد ما سيكونه جوهر المازوخية.

إن أخيولة الطور الثاني ـ أن يكون الطفل المعني نفسه مضروباً من قبل الأب ـ تبقى بوجه الإجمال لاشعورية، من جراء شدة الكبت في أرجح الظن. وليس في استطاعتي أن أذكر لماذا أمكن مع ذلك للذاكرة في واحدة من حالاتي الست (حالة ذكورية) أن تستحضره. فهذا الرجل، الراشد الآن، احتفظ في ذاكرته في جلاء بالعادة التي اعتادها في أن يستخدم لغايات استمنائية تصوره بأنه لا «يُضرب من قبل الأم»؛ على أنه ينبغي أن نذكر أنه سرعان ما استعاض عن أمه بأمهات زملائه في المدرسة أو بنساء أخريات يشبهنها من وجه من الوجوه. ولا يجوز أن يغرب عنا أنه يطرأ، لدى تحول الأخيولة المحرمية عند الصبي إلى الأخيولة المازوخية المناظرة لها، انقلابٌ لا نجد له نظيراً في حالة البنت، وهو استبدال السلبية بالإيجابية، وأن هذا التحريف الإضافي يمكن أن يعفي الأخيولة من البقاء قيد اللاشعور من جراء الكبت. وعلى هذا يكون الشعور بالذنب قد قنع بالنكوص بديلاً عن الكبت؛ أما في حالات الإناث فإن الشعور بالذنب، الذي ربما كان بحدّ ذاته أكثر تشدّداً وتطلُّباً، فما كان يسكن له أوار إلا عن طريق الاشتغال المتضافر لكلتا الآليتين.

لقد تطورت في حالتين من حالاتي النسوية الأربع، بالإضافة إلى أخيولة الجلد المازوخي، بنية فوقية معقَّدة من أحلام اليقظة، لها أهميتها الجلّى بالنسبة إلى حياة المرأتين المعنيّتين، وبها أنيطت مهمة محددة، وهي إتاحة إمكانية الإحساس بالإثارة المشبعة حتى بعد التخلي عن الفعل الاستمنائي. ففي إحدى الحالتين أبيح لمضمون «إنني مضروبة من قبل الأب» أن يتسرب من جديد إلى الشعور بعد أن بات من المتعذر أن تتعرَّف المرأة المعنيَّة أناها على إثر تنكر خفيف. فبطلة هذه القصص كانت تُضرب بصورة منتظمة من قبل الأب، وفي زمن لاحق فحسب عوقبت وأُذلِّت، إلخ.

غير أنني أكرر القول إن الأخيولة تبقى بصفة عامة لاشعورية، ولا مناص في بادئ الأمر من إعادة بنائها عن طريق التحليل. ولعل ذلك يبيح لنا أن نحكم بالحقّ للمرضى الذين يعتقدون أنهم يتذكرون أن الأونانية ظهرت لديهم في زمن أبكر من ظهور أخيولة الجلد في طورها الثالث ـ ولنا إلى هذا الموضوع عودة ـ وأن هذه الأخيولة جاءت كإضافة لاحقة، وفي أرجح الظن تحت تأثير مشاهد مدرسية. وكل مرة حملْنا فيها هذه الإيضاحات على محمل الصدق وجدنا ميالين إلى الافتراض بأن الاعتراف بالأونانية يتمّ أول الأمر تحت سلطان أخاييل لاشعورية لا تلبث أن تنوب منابها في زمن لاحق أخاييل شعورية.

على هذا الأساس نفهم الأخيولة المعهودة للطور الثالث على أنها أشبه ببديل من هذا القبيل، وهي لا تعدو في حقيقتها أن تكون الصورة النهائية لأخيولة الجلد التي لا يعود فيها الطفل، صانع الأخيولة، إلى التدخل عند الاقتضاء إلا بصفته متفرجاً، والتي يضطلع فيها بدور الأب شخص المعلم أو أي رئيس آخر. إن الأخيولة، التي باتت تشبه الآن أخيولة الطور الأول، تبدو وكأنها انقلبت من جديد إلى أخيولة سادية. ويتراءى لنا أن التشديد في عبارة: «الأب يضرب الطفل الآخر، إنه لا يحب أحداً غيري» يتركز الآن على القسم الأول من الجملة بعد أن رزح القسم الثاني منها تحت نير الكبت. غير أن شكل هذه الأخيولة هو وحده السادي؛ أما الإشباع المتحقق بدءاً منها فهو إشباع مازوخي؛ وأهميته إنما تكمن في أنه أخذ على عاتقه التوظيف الليبيدوي للعنصر المكبوت، ومعه الشعور بالإثم المرتبط به. فجميع أولئك الأطفال غير المحددة هويتهم، والمضروبين من قبل المعلم، ما هم في واقع الأمر إلا بدائل عن شخص الطفل صانع الأخيولة.

هنا يتكشف أيضاً للمرة الأولى شبه ثبات في الجنس لدى الأطفال الذين يؤدون دوراً في الأخيولة. فالأطفال المضروبون هم بصفة شبه حصرية صبيان، سواء أفي أخاييل الصبيان أم في أخاييل البنات. وهذه السمة لا يمكن تفسيرها تفسيراً معقولاً بالتنافس بين الجنسين، إذ لو صحّ أن الأمر كذلك لكان مفروضاً أن تنطوي أخاييل الصبيان على عدد من البنات المضروبات أكبر بكثير؛ كما أنه



لا ضلع لها بجنس الطفل المكروه في الطور الأول، بل مردّها إلى سيرورة تواكبها لدى البنات تعقيدات. فحين تشيح البنات عن الحب التناسلي المحرمي حيال الأب ينعتقن بسهولة فائقة من دورهن المؤنث، وتظهر لديهن «عقدة الذكورة» (فان أوفويزن VAN OPHUIJSEN)[٩]، ولا يردن بعد الآن غير أن يكنّ صبياناً. ولهذا، إن الضحايا التي يقع اختيارهن عليها كبدائل يكونون أيضاً من الصبيان. وفي كلا النوعين من أحلام اليقظة ـ ويكاد واحدهما يرتفع إلى مستوى تخييل روائي ـ يكون الأبطال على الدوام من الشبان حصراً، أي أن النساء لا يتدخلن على الإطلاق في هذه الأخاييل، ولا يُقْبَلْن فيها إلا بعد مضي سنوات طويلة، وحتى في هذه الحال لا يفزن إلا بأدوار ثانوية.

(٥)

آمل أن أكون عرضت خبراتي التحليلية عرضاً مفصَّلاً بما فيه الكفاية، ويبقى عليّ فقط أن أرجو القارئ أن يأخذ في اعتباره أن الحالات الست التي كثيراً ما أتيت بذكرها لا تستنفد مادتي كلها، وأن في حوزتي، مثلي مثل كثيرين غيري من المحللين، عدداً أكبر بكثير من الحالات التي لم يُقيَّض لها أن تدرس مثل هذه الدراسة المعمقة. ومن الممكن الاستفادة من هذه الملاحظات في اتجاهات عدة لتسليط الضوء على منشأ الانحرافات بصورة عامة، والمازوخية بصورة خاصة، ولتقييم الدور الذي يضطلع به فارق الجنسين في العصاب إجمالاً.

إن أكثر نتائج هذا النقاش لفتاً للنظر تتصل بمنشأ الانحرافات. صحيح أن التصور الذي يبرز أهمية التعضيد الجِبِلّي أو التقدم السابق لأوانه لأحد المقوِّمات

٩ ـ يوهان فان أوفويزن: طبيب ومحلل نفسي هولندي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٠). عمل في عيادة يوجين بلولر في زوريخ. تولى تحليله كارل غوستاف يونغ، وأسس معه عام ١٩١٧ **الجمعية الألمانية للتحليل النفسي**. وتابع تحليله لاحقاً مع كارل أبراهام. هاجر إلى جنوب أفريقيا ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية هرباً من الاضطهاد النازي حيث بقي يمارس الطب النفسي والتحليل النفسي بنجاح مرموق إلى يوم وفاته. والإحالة في النص إلى بحثه المنشور في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** تحت عنوان: **مساهمات في عقدة الذكورة لدى المرأة** (١٩١٧). «م».



الجنسية في نشوء الانحرافات لا تتزعزع أسسه من جراء ذلك، لكن ليس هذا كل ما يمكن أن يقال في الموضوع. فالانحراف لا يعود يشغل موقعاً على حدة في حياة الطفل الجنسية، بل يندرج على العكس من ذلك في سياق سيرورات النمو النمطية ـ إن لم نقل السوية ـ التي نعرفها. ويتمّ تسليط الضوء على علاقته بمواضيع الحب المحرمي لدى الطفل وبعقدته الأوديبية، وهو يتكشف لنا لأول مرة في سياق هذه العقدة، ويكون في غالب الأحيان الشيء الوحيد الذي يتبقى منها بعد انهيارها، وارثاً شحنتها الليبيدوية ومرهَقاً بشعور الإثم المرتبط بها. وتكون الجبِلَّة الجنسية اللاسوية قد دللت في خاتمة المطاف على قوتها من حيث أنها دفعت بعقدة أوديب في اتجاه خاص وأرغمتها على الإفصاح عن نفسها في مظهر رسابيّ غير معهود.

يمكن للانحراف الطفلي كما نعلم أن يقوم مقام الأساس لنشوء انحراف مكافئ يدوم مدى الحياة ويستوعب كل الحياة الجنسية للكائن البشري، كما يمكن أيضاً أن يوضع حدٌّ له بتفكيكه واحتجازه في خلفية نمو جنسي سويّ، بدون أن يتوقف عن سحب كمية معينة من الطاقة منه. والحالة الأولى هي تلك التي كانت معروفة في زمن ما قبل التحليل النفسي، بيد أن الهوة بين الاثنين تكاد أن تكون رُدمت بتمامها عن طريق الدراسة التحليلية لمثل تلك الانحرافات عند الراشدين. وبالفعل، غالباً ما نكتشف أن هؤلاء المنحرفين كانوا هم أيضاً قد عرفوا، في زمن البلوغ في العادة، بداية نشاط جنسي سويّ. لكن هذه البداية لم تكن على درجة كافية من القوة، فتمّ الإقلاع عنها عند الاصطدام بالعقبات الأولى التي لا يمكن أن تخلو منها الساحة، ثم عاد الشخص بعد ذلك القهقرى بصورة نهائية إلى التثبيت الطفلي.

لن يخلو الأمر من أهمية بطبيعة الحال أن نعلم هل من حقِّنا أن نؤكد بصفة عامة تماماً أن تكوُّن الانحرافات الطفلية يتمّ بدءاً من عقدة أوديب. وبديهي أنه ليس في مستطاعنا أن نقرر ذلك بدون أبحاث أوسع نطاقاً، ولكن لا يبدو أن ذلك بحكم المستحيل. وإذا قلَّبنا النظر في تواريخ حالات الانحراف لدى الراشدين التي تسنى لنا الحصول عليها، لتبيَّن لنا مع ذلك أن الخبرة الفاصلة، أي



«التجربة المعاشة الأولى»، لدى جميع هؤلاء المنحرفين، من تميميين وغيرهم، لا تعود البتة إجمالاً إلى أزمنة سابقة للسنة السادسة. ولكن في مثل هذا العمر تكون هيمنة عقدة أوديب قد أفلت وزالت في ذلك العمر؛ ومن ثم إن التجربة المعاشة المستحضرة إلى الذاكرة، والتي تفعل فعلها بصورة شديدة الإبهام والإلغاز، يمكن كل الإمكان أن تكون قد مثّلت ميراث هذه العقدة. والعلاقات بين هذه التجربة المعاشة وبين العقدة التي غدت الآن مكبوتة تبقى بالضرورة غامضة ما دام التحليل لم يسلط الضوء على الفترة السابقة للخبرة «الإمراضية» الأولى. ولنلحظ بالمناسبة كم نجازف بالتنكّب عن جادة الصواب فيما لو جزمنا، مثلاً، بأن الجنسية المثلية فطرية بدون أن يكون لنا من سند نحتج به في دعوانا هذه سوى معلومة تقول إن الشخص المعني كان قد استشعر منذ السنة الثامنة أو حتى من السنة السادسة ميلاً إلى جنسه نفسه.

لكن إن يكن بالإمكان اشتقاق الانحرافات بدءاً من عقدة أوديب في الحالات كافة، فإن تقييمنا لهذه العقدة يحظى في هذه الحال بتأييد جديد. وبالفعل، إننا نعتقد أن عقدة أوديب هي النواة الحقيقية للعصاب، وأن الجنسية الطفلية، التي تبلغ ذروتها فيها، هي شرطه الفعلي، وأن ما يبقى من هذه العقدة في اللاشعور يمثل استعداد الراشد للإصابة لاحقاً بعصاب. ومن ثم، إن أخيولة الجلد وتثبيتات منحرفة مماثلة أخرى لن تعدو أن تكون هي الأخرى في هذه الحال رسابات خلّفتها عقدة أوديب، أو ندوباً إن جاز القول، بقايا من سيرورة طويت صفحتها، تماماً كما أن «الدونية» التي ذاع صيتها[10] تناظر نَدْبة نرجسية مماثلة. ومن هذا المنظور أوافق بلا تحفظ مارسينوفسكي[11] الذي أخذ على عاتقه باقتضاب وتوفيق الدفاع عنها (**المصادر الإيروسية لمشاعر الدونية**، في «**مجلة علم النفس**» م٤، ١٩١٨).

١٠ ـ غمزة بحق ألفريد آدلر الذي كان قد قال إن « عقدة الدونية»، أو «عقدة النقص» كما درجت ترجمتها بالعربية، هي شعور دارج لدى كل كائن بشري في طفولته، وإنه طرداً مع تقدُّمه في العمر يتغلَّب عليها محوِّلاً إياها، في العديد من الحالات، إلى «عقدة تفوُّق» كما في مثال نابليون الذي كان من أصل كورسيكي ووضيع الهيئة، فصار واحداً من عظماء الأباطرة. «م».



ومعلوم أن هذاء الصَغار هذا لدى العصابيين إن هو إلا هذاء جزئي، ومتوافق تمام التوافق مع وجود مغالاة في تقييم الذات نابعة من مصادر أخرى. أما أصل عقدة أوديب نفسها، وأما المصير الذي يبدو أنه قُيِّض للإنسان وحده دون سائر الحيوانات حينما كتب عليه أن يبتدئ حياته الجنسية مرتين: أولاً كسائر المخلوقات الأخرى بدءاً من الطفولة الأولى ثم مرة ثانية في زمن البلوغ بعد طول انقطاع، وأما أخيراً كل ما له صلة بـ «الميراث الأثري» للإنسان، فذلك كله ما أوضحته في غير هذا المكان[١٢]، ولا أزمع الكلام عنه هنا.

إن مناقشتنا لأخاييل الجلد لا تقدِّم سوى مساهمات شحيحة في ما يتصل بأصل المازوخية. ويبدو أنه يثبت بادئ ذي بدء أن المازوخية ليست تظاهرة غريزية أولية، بل تنبع من انقلاب للسادية على الشخص المعني نفسه، أي أنها لا تناظر نكوصاً من الموضوع إلى الأنا (انظر **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**، ١٩١٨)[١٣]. وينبغي علينا أن نسلِّم بأنه توجد دوافع غريزية ذات هدف سلبي من البداية، وعلى الأخص لدى المرأة، لكن السلبية ليست هي بعد كل المازوخية؛ فهذه الأخيرة تشتمل أيضاً على صفة الكدر والألم التي تبدو باعثة على الاستغراب في تحقيق النوازع الغريزية. ويظهر أن تحول السادية إلى مازوخية يتمّ تحت تأثير شعور الإثم الذي له دوره في عملية الكبت. يفصح الكبت إذاً عن نفسه هنا في ثلاثة مفاعيل: فهو يجعل نتائج التنظيم التناسلي لاشعورية، ويرغم هذا التنظيم نفسه على النكوص إلى الطور الشرجي/السادي السابق، ويقلب سادية هذا الطور إلى مازوخية سالبة، وبمعنى ما نرجسيةٍ من جديد. وثانية هذه النتائج الثلاث يتيح إمكانيتها ضعف التنظيم التناسلي الذي لا مناص من التسليم به في هذه الحالات؛ أما ثالثة هذه النتائج فتغدو ضرورية لأن الوعي بالإثم

---

١١ ـ يوهان مارسينوفسكي: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٦٨ ـ ١٩٣٥). انتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. أشاد به فرويد لأنه أول من فتح أبواب مصحة ألمانية أمام التحليل النفسي. من مؤلفاته: **العصبية وتصور العالم**. «م».

١٢ ـ على الأخص في **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، المحاضرتان الحادية والعشرون والثالثة والعشرون. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٣ ـ انظر ترجمة هذا البحث في **ما بعد علم النفس**. «م».



تصدمه السادية بقدر ما يصدمه الاختيار الموضوعاني المحرمي مأخوذاً بالمعنى التناسلي. من أين ينبع الوعي بالإثم هو نفسه؟ إن التحاليل لا تفصح عن شيء هذه المرة أيضاً. ويبدو أن هذا الوعي يطرأ مع المرحلة الجديدة التي يدخل فيها الطفل، وأنه إذا ما استمر بدءاً من هذه المرحلة صار بمثابة تكوين نَدْبيّ(١٤) مماثل لذلك الذي ينشأ عن الشعور بالدونية. وبحسب الاتجاه الذي لا تزال تحفّه الشكوك لأبحاثنا حول بنية الأنا، فإننا نميل إلى أن نعزو الوعي بالإثم إلى تلك الهيئة التي تُنْتِج في الحلم، باعتبارها ضميراً أخلاقياً نقدياً يقف موقف المعارضة من بقية الأنا، ما أسماه سيلبرر SILBERER(١٥) بالظاهرة الوظيفية، والتي تنفصل عن الأنا في هذاء الترصد.

وبودِّنا أن نذكر بالمناسبة أن تحليل الانحراف الطفلي الذي يدور عنه الكلام هنا يساعد أيضاً في حلّ لغز قديم كان في الحقّ مصدر بلبلة أعظم لأولئك الذين بقوا خارج نطاق التحليل النفسي منه للمحلِّلين أنفسهم. ولكن ي. بلولر BLEURER(١٦) نفسه أقرّ مؤخراً بأنه أمرٌ لافت للنظر ومستعصٍ على التفسير أن يجعل العصابيون من أونانيتهم مركز وعيهم بالإثم. وقد كنا ذهبنا منذ زمن بعيد إلى أن هذا الوعي بالإثم يرتكز إلى أونانية الطفولة الأولى لا إلى أونانية البلوغ، وإلى أنه ينبغي ربطه في معظم الأحيان، لا بالفعل الاستمنائي نفسه، بل بما هو كامن وراء هذا الفعل، أي بأخيولة نابعة من عقدة أوديب وإن تكن لاشعورية.

١٤ ـ من النَدْبة: أثر الجرح في الجلد، وهنا في البنية النفسية. «م».

١٥ ـ هربرت سيلبرر: محلل نفسي نمساوي عصامي (١٨٨٢ ـ ١٩٢٣). له بحوث عن الرمزية، وتحول لاحقاً نحو التصوف والباطنية ومات منتحراً. والظاهرة الوظيفية ظاهرة اكتشفها عام ١٩٠٩، واعتبرها فرويد الإضافة الوحيدة المهمة إلى نظرية الحلم كما صاغها هو. والظاهرة الوظيفية هي، على وجه التبسيط، شعور النائم بنفسه في أثناء نومه، وضرب من الترصد الذاتي يمكن عزوه إلى رقيب الحلم، أي إلى الأنا الأعلى. «م».

١٦ ـ يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩). أدخل إلى معجم الطب النفسي مصطلحي الفصام والتوحُّد الانطوائي Autisme. أدار عيادة طبية نفسية في زوريخ تعرف باسم عيادة بورغوزلي. وكان من مساعديه فيها كارل غوستاف يونغ وكارل أبراهام. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وشارك في تأسيس **الجمعية الدولية للتحليل النفسي** عام ١٩١٠. من أهم مؤلفاته: **الخبل المبكر وفئة الفصاميين، التاريخ الطبيعي للنفس، حول سيكولوجيا التنويم المنغطيسي**. «م».



لقد بيَّنتُ من قبل ما الدلالة التي يتلبسها في العادة الطور الثالث، السادي في الظاهر، لأخيولة الجلد، وذلك من حيث أن هذا الطور هو حامل الإثارة التي تحضّ على الأونانية، ومن حيث أنه هو الحافز عادة على النشاط التخييلي الذي يواصل هذه الأونانية بما هي كذلك جزئياً، ويعلّقها على نحو تعاوضي جزئياً. بيد أن الطور الثاني من الأخيولة، الطور اللاشعوري والمازوخي الذي بموجبه يكون الطفل نفسه مضروباً من قبل الأب، أهمّ بما لا يضاهى. فهو لا يواصل فعل فعله من خلال الطور الذي يحلّ محلّه فحسب، بل يكون له أيضاً على الطبع تأثير ممكنٌ التحقُّقُ منه ومشتقٌ مباشرة من صيغته اللاشعورية. فالأشخاص الذين يحملون في دخيلة أنفسهم أخيولة كهذه يدللون على حساسية وقابلية كبيرة للتأثر والانفعال حيال الأفراد الذين يمكن لهم إدراجهم في السلسلة الأبوية؛ فهم ينجرحون بسهولة من قبل هؤلاء الأخيرين، ناقلين بذلك إلى حيِّز التطبيق الموقف المتخيَّل، أي كونهم يُضربون من قبل الأب، على ما في ذلك من عظيم التعاسة لهم. ولن أدهش إذا ما أمكن التوصل يوماً إلى إثبات أن هذه الأخيولة نفسها هي في أساس هذاء التقاضي لدى البارانوئيين.

(٦)

كان وصف أخاييل الجلد الطفلية سيستغلق تماماً على الفهم لو لم أحصره، خلا بعض العلاقات، بالظروف التي تحيط بهذه الأخاييل لدى الأشخاص من الجنس المؤنث. وسأكرر بإيجاز النتائج: إن أخيولة الجلد لدى البنات الصغيرات تمرّ بثلاثة أطوار، أولهما وثالثهما تستحضرهما الذاكرة باعتبارهما شعوريين، بينما يبقى الطور الوسيط لاشعورياً. ويبدو لي الطوران الشعوريان ساديين؛ ولا مرية بالمقابل في أن الطور الوسيط، الطور اللاشعوري، هو من طبيعة مازوخية: فمضمونه «إنني مضروبة من قبل الأب»، وبه ترتبط الشحنة الليبيدوية والشعور بالإثم. والطفلة المضروبة في الأخيوليتين الأولى والثالثة هي على الدوام طفلة أخرى، وفي الطور الوسيط هي حصراً الطفلة مختلِقة الأخيولة نفسها، وفي الطور الثالث، الطور الشعوري، يغلب أن يكون الذين يُضربون هم من الصبيان وحدهم. أما الشخص الذي يضرب فهو من البداية الأب، وفي طور لاحق،

بديل يجري اختياره من السلسلة الأبوية. ويكون للأخيولة اللاشعورية في الطور الوسيط دلالة تناسلية في الأصل، وهي تنبع عبر الكبت والنكوص من الرغبة المحرمية في الفوز بحبّ الأب. وبالارتباط، الرخو في الظاهر، مع هذه النتائج، تنضاف واقعة تغيير البنات لجنسهن بين الطورين الثاني والثالث إذ يتخيَّلن أنفسهن صبياناً.

إنني لم أتوغل إلى مثل هذه المسافة في معرفة أخاييل الجلد لدى الصبيان، ربما بكل بساطة لأن المادة لم تكن مؤاتية. ومفهوم أن أكون توقعت تماثلاً تاماً بين الظروف التي نلتقيها لدى البنات والظروف التي نلتقيها لدى الصبيان الذين كان يفترض في هذه الحال أن نلقى في أخاييلهم الأم مكان الأب. بل بدا وكأن هذا التوقع تأكّد، إذ إن أخيولة الصبي التي تُعدُّ مكافئة لأخيولة البنت كان مضمونها: «إنني مضروب من قبل الأم (وفيما بعد من قبل شخص بديل عنها)». بيد أن هذه الأخيولة، التي يُعامل فيها الشخصُ ذاته وكأنه موضوع، تتميز عن الطور الأنثوي الثاني بكونها قابلة لأن تكون شعورية. لكن إن شئنا في هذه الحال أن نجعل منها مكافئة للطور الأنثوي الثالث، قام في وجهنا فارق جديد، وهو أن شخص الصبي المعني ليس له، كبدلاء، عدد كبير من الصبيان الغرباء اللامتحددة هويتهم، ولا بالأوْلى عدد كبير من البنات. هكذا يكون توقُّع التوازي الكامل قد خاب.

ما كانت مادتي المذكرة تنطوي إلا على عدد ضئيل من الحالات التي تواكبت بأخيولة جلد طفلي من دون أن يلحق من جراء ذلك ضرّ كبير بالنشاط الجنسي، لكنها كانت تشتمل بالمقابل على عدد كبير بما فيه الكفاية من الأشخاص الذين يصدق عليهم الوصف بأنهم مازوخيون حقيقيون بمعنى الانحراف الجنسي لهذا الوصف. فإما أن هؤلاء الرجال كانوا يجدون إشباعهم الجنسي حصراً في أونانية موشّاة بأخاييل مازوخية، وإما أنهم أفلحوا في المزاوجة بين المازوخية والممارسة التناسلية بحيث يتوصلون إلى الانتصاب وإلى القذف، بل يقتدرون على إنجاز مجامعة سوية في أثناء حفلات مازوخية أو في شروط مماثلة. وكانت تنضاف إلى ذلك حالة أشد ندرة، هي حالةُ مازوخيةٍ يتعكر



مجرى عملها الانحرافي بظهور تصورات وسواسية ذات قوة لا تطاق. ونادراً ما يكون لدى المنحرفين الراضين بانحرافهم والحاصلين على الإشباع سببٌ لطلب التحليل؛ ولكن الفئات الثلاث من المازوخيين الذين تكلمت عنهم يمكن أن تتهيأ لهم دوافع قوية لطلب مساعدة المحلِّل. فالأوناني المازوخي يجد نفسه في حال من العنة التامة إذا ما حاول بالرغم من كل شيء في نهاية المطاف أن يجامع امرأة؛ ومن مارس الجماع إلى ذلك الحين بمعونة تخييل أو إخراج مسرحي مازوخي يمكن أن يكتشف على حين بغتة أن هذا الربط المحبَّب إليه يتمنع من الآن فصاعداً عن الاضطلاع بدوره: فالعضو التناسلي ما عاد يستجيب للحثّ المازوخي. ومن عادتنا أن نجزل الوعود للأعنّاء النفسيين الذين يركنون إلى علاجنا بالشفاء الأكيد، لكن يتحتّم علينا أيضاً أن نتحفظّ في هذا التشخيص ما دامت دينامية الخلل الذي يعانون منه غير معروفة لنا. والمفاجأة التي تنتظرنا لن تكون مستحبة إذا ما كشف التحليل عن أن علة العنة «النفسية الخالصة» هي وضعية مازوخية ناجزة، وربما متأصلة منذ زمن بعيد.

الاكتشاف الذي ينتظرنا إذاً لدى هؤلاء الرجال المازوخيين ينبِّهنا إلى أنه من الضروري، ما لم نتوسع أكثر بعدُ في الاستقصاء والتحقيق، أن نمتنع عن المضيّ إلى أبعد من ذلك في المماثلة مع الظروف التي تطالعنا بها المرأة، وإلى أنه يتعيَّن علينا على العكس من ذلك أن نحكم على الوقائع في حدّ ذاتها. ويلوح بالفعل أن هؤلاء المازوخيين يأخذون بصورة مطَّردة في أخاييلهم المازوخية، أو في تدابير إخراجها إلى حيِّز التنفيذ، أدوارَ نساء، أي أن مازوخيتهم تتوافق مع موقف **أنثوي**. ومن اليسير إثبات ذلك بدءاً من تفاصيل أخاييلهم؛ غير أن الكثيرين من المرضى يعرفون ذلك أيضاً ويعبِّرون عنه بيقين ذاتي. ولا يتغير شيء في المسألة إذا حافظ الديكور المسرحي للمشهد المازوخي على وهم صبيٍّ أو خادم أو تلميذ مسيء مستأهل للعقاب: فالأشخاص الذين ينزلون العقَاب هم في كل مرة، في الأخاييل كما في الإخراج، من النساء. وهذا أمر يبعث على الحيرة والبلبلة؛ ولقد كنا نودّ أيضاً لو نعلم إن كانت مازوخية أخاييل الجلد الطفلية ترتكز إلى الاستعداد الأنثوي نفسه(١٧).



لندع إذاً جانباً الظروف التي يصعب جلاؤها بخصوص المازوخية لدى الراشدين ولنلتفت إلى أخاييل الجلد الطفلية لدى أفراد الجنس المذكر. هنا يتيح لنا تحليل الطفولة الأولى أن نكتشف من جديد اكتشافاً مدهشاً: إن الأخيولة الشعورية أو القابلة لأن تكون شعورية التي مضمونها «إنني مضروب من قبل الأم» ليست أولية، بل لها طور تمهيدي هو باطِّراد لاشعوري، ومضمونه: **إنني مضروب من قبل الأب**. هذا الطور التمهيدي يتطابق إذاً فعلاً مع الطور الثاني لأخيولة الفتاة. فالأخيولة المعروفة والشعورية: «إنني مضروب من قبل الأم» يشغل مكان الطور الثالث من أخيولة البنت التي يكون فيها صبيان مجهولون، كما قلنا، هم الموضوع المضروب. وما استطعت أن أثبت أن الصبي يوجد عنده طور تمهيدي من طبيعة سادية قابل للمقارنة مع الطور الأول من أخيولة البنت، لكنني لا أريد أن أنطق هنا بنفي نهائي لأنني أدرك احتمال وجود أنماط أشدَّ تعقيداً.

أن يكون الطفل مضروباً في الأخيولة الذكرية ـ إذا شئنا الاختصار هنا في تسميتها وعلى نحو لا يفتح على ما آمل باباً للبس ـ فهذا معناه أيضاً أنه محبوب بالمعنى التناسلي للكلمة، بعد خفضٍ وإذلال من جراء النكوص. إذاً، في الأصل لم تكن صيغة الأخيولة اللاشعورية الذكورية هي: «إنني مضروب من قبل الأب»، كما كنا قررنا ذلك أول الأمر بصورة مؤقتة، بل كانت بالأحرى: **إنني محبوب من قبل الأب**. وقد حُوِّلت، بالطرق المعهودة، إلى أخيولة شعورية: **إنني مضروب من قبل الأم**. إذاً فأخيولة الجلد لدى الصبي هي من البداية أخيولة سلبية، نابعة فعلياً من الموقف المؤنث إزاء الأب. وهي تتطابق، مثلها مثل الأخيولة الأنثية تماماً (أخيولة البنت)، مع عقدة أوديب، وكل ما هنالك أن التوازي الذي كنا نتوقعه ينبغي أن يُستبعد لصالح تشابه من نوع آخر: **فأخيولة الجلد تُشتقّ في الحالتين كلتيهما من الصلة المحرمية بالأب**.

---

١٧ ـ لمزيد من التفاصيل انظر: **المشكلة الاقتصادية للمازوخية**، ١٩٢٤. (انظر: البحث الخامس عشر من هذا الكتاب). «م».



إن رؤيتنا الإجمالية هذه لن تزداد إلا وضوحاً إذا أضفتُ هنا التشابهات والاختلافات الأخرى بين أخاييل الجلد لدى كل من الجنسين. فالأخيولة المازوخية اللاشعورية لدى البنت تنبع من الموقف الأوديبي السويّ، أما لدى الصبي فتنبع من الموقف الأوديبي المعكوس الذي يتخذ من الأب موضوعاً حبّياً. ولدى البنت يكون لأخيولة الجلد مرحلة تمهيدية (الطور الأول) يتبدى فيها الجلد في دلالته اللاامتمايزة ويكون موضوعه شخصاً مكروهاً بداعي الغيرة؛ وبالمقابل تنعدم هاتان الصفتان لدى الصبي، لكن ليس من المتعذر أن تتمكن ملاحظة أكثر تدقيقاً وتوفيقاً من إلغاء هذا الفارق. وعند الانتقال إلى الأخيولة الشعورية التي تنوب مناب الأخيولة السابقة، تتمسك البنت بشخص الأب، وبالتالي بجنس الشخص الذي يَضرِب؛ لكنها تغيِّر الشخص المضروب وجنس هذا الشخص، بحيث يقوم رجل في نهاية المطاف بضرب أطفال من الجنس المذكر؛ أما الصبي فيبدِّل على العكس الشخص الذي يضرِب وجنسَه إذ يُحِلّ الأمَّ محلَّ الأب، ويتمسك بشخصه ذاته، بحيث يكون الشخص الذي يَضرب والشخص الذي يُضرب في نهاية المطاف من جنس مختلف. والموقف المازوخي (السلبي) أصلاً لدى البنت ينقلب بفعل الكبت إلى موقف سادي يكاد طابعه الجنسي أن يكون ممحواً؛ أما لدى الصبي الصغير فيبقى مازوخياً ويحافظ، من جراء فارق الجنس بين الشخص الضارب والشخص المضروب، على قدر أكبر من التشابه مع الأخيولة الأصلية مفهومةً بالمعنى التناسلي. ويتملَّص الصبي، بفعل كبت الأخيولة اللاشعورية وإعادة إخراجها، من جنسيته المثلية؛ وما يسترعي الانتباه في أخيولته الشعورية اللاحقة هو أن مضمونها يمثِّل موقفاً أنثوياً بدون اختيار موضوعاني جنسي مثلي. وبالمقابل تتملص البنت، في أثناء السيرورة نفسها، من مطلب الحياة الحبية بوجه عام، فتتخيَّل نفسها ذكراً بدون أن تغدو هي ذاتها إيجابية ذكورياً، ولا تعود تشاهِد إلا كمتفرجة عملية الضرب التي تنوب مناب عملية جنسية.

إن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الافتراض بأنه لا يتغيَّر شيء يذكر بنتيجة كبت الأخيولة اللاشعورية الأصلية. وكل ما جرى بالنسبة إلى الشعور كبته



وإحلالُ بديلٍ محلَّه يبقى محفوظاً في اللاشعور وقادراً على التـأثير. وليس الأمر بالمثل بالنسبة إلى تأثير النكوص على مرحلة لاحقة من التنظيم الجنسي. ويحقّ لنا أن نفترض أن النكوص يتمكن حتى من تغيير الظروف في اللاشعور، بحيث أن ما يبقى قائماً في اللاشعور لدى الجنسين كليهما بعد الكبت ليس هو بكل تأكيد الأخيولة (السلبية): «إنني محبوب من قبل الأب»، وإنما الأخيولة المازوخية: «إنني مضروب من قبل الأب». ولا تعوزنا القرائن التي تنمّ عن أن الكبت لم يبلغ قصده إلا على نحو منقوص للغاية. فالصبي الذي أراد أن يتملَّص من الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي ولم يغيِّر جنسه يستشعر نفسه مع ذلك أنثى في أخاييله الشعورية ويخلع على النساء الضاربات صفات وخصائص مذكرة. أما البنت التي عزفت من جانبها عن جنسها وأنجزت عملاً كبتياً هو بالإجمال أعمق غوراً، فلا تتخلص مع ذلك من الأب، ولا تجازف بأن تتولى شخصياً الضرب؛ ولأنها تكون قد غدت هي نفسها صبياً فإن من تتخيلهم يُضربون هم في المقام الأول من الصبيان.

أعرف أن الفروق الموصوفة هنا في سلوك أخيولة الجلد لدى الجنسين لم تتوضح بما فيه الكفاية، لكنني أمسك عن محاولة تبسيط هذه التعقيدات عن طريق تقصي العوامل الأخرى التي ترتبط بها لأنني أعتبر أنا نفسي أن مادة الملاحظة ليست على قدر كافٍ من الشمول. لكن ما دام توفَّر لي منها القدر الذي توفَّر فإنني أميل إلى استخدامها في التحقق من صحة نظريتين متنافستين تعالجان كلتاهما العلاقة بين الكبت والخصائص الجنسية وتصوِّر كل منهما على طريقتها هذه العلاقة على أنها حميمة للغاية. وسأبادر إلى الملاحظة حالاً أنني اعتبرتهما على الدوام خاطئتين وخادعتين كلتيهما.

أولى هاتين النظريتين مغفلة؛ وقد شرحها لي قبل بضع سنوات زميل كانت تربطني وإياه آنذاك آصرة صداقة[١٨]. وبساطتها البيانية ذات وقع شديد الإغراء بحيث لا يسعنا إلا أن نتساءل بدهشة لماذا لم تجد منذ زمن بعيد تمثيلاً لها في الأدب إلا من خلال إشارات متفرقة. والركيزة التي ترتكز إليها هي الجِبِلَّة

١٨ ـ هو فلهلم فليس. «م».



الجنسية الثنائية لبني الإنسان، وفحوى مدَّعاها أن المعركة بين الخصائص الجنسية لدى كل فرد منهم هي الدافع إلى الكبت. فالجنس الأقوى تكويناً والراجح الكفة لدى الفرد هو الذي يَكبت في اللاشعور التمثيل النفسي للجنس المغلوب على أمره. وعلى هذا تكون نواة اللاشعور، أي المادة المكبوتة، قد تكوَّنت لدى كل إنسان من جراء انطواء جِبِلَّته على الجنس المقابل. لكن لا يمكن أن يكون لهذه الدعوى معنى قابل للتعيين إلا إذا قبلنا بتحديد جنس الكائن البشري ببنية أعضائه التناسلية، وإلا انعدم المعيار الذي على أساسه يمكن أن نقرر ما الجنس الأقوى لديه، وجازفنا من ثمّ بأن نستنتج من محصِّلة بحثنا ما كان ينبغي أن يكون نقطة انطلاق له. زبدة القول: إن المكبوت اللاشعوري ينبغي إرجاعه لدى الرجل إلى حاثات غريزية مؤنثة، ولدى المرأة إلى حاثات غريزية مذكرة.

النظرية الثانية بالمقابل أحدث عهداً؛ وهي تتفق مع الأولى في مصادرتها بدورها على أن الصراع بين الجنسين حاسم الأثر في الكبت. أما فيما عدا ذلك فلا تستطيع إلا أن تقف موقف المعارضة من الأولى؛ والأسانيد التي تبحث عنها سوسيولوجية لا بيولوجية. وفحوى نظرية «الاحتجاج الذكوري» هذه ـ وهي النظرية التي يرفع لواءها ألفريد آدلر ـ أن كل فرد يثور على فكرة بقائه أسير «الخطّ المؤنث» ذي القيمة الأدنى، ويرنو مشرئباً إلى الخطّ المذكر الذي لا خطّ سواه تغتبط له النفس. ومن منطلق هذا الاحتجاج الذكوري يفسِّر آدلر على نحو بالغ العمومية تكوين الطبع وتكوين العصاب على حدٍّ سواء. ومن سوء الحظ، أن آدلر لا يقيم أي تمييز بين هاتين السيرورتين مع أنه ليس ثمة شك في وجوب اعتبارهما منفصلتين، ولا يحفل بصفة عامة لواقعة الكبت، مما يعرِّضنا لخطر سوء الفهم إذا ما حاولنا تطبيق نظرية الاحتجاج الذكوري على الكبت. وأعتقد أن هذه المحاولة لا بدّ أن تتمخض عن النتيجة التالية: إن الاحتجاج الذكوري، أي إرادة الابتعاد عن الخطّ المؤنث، هو في الأحوال جميعاً الدافع إلى الكبت. وعلى هذا سيكون الكابت على الدوام حاثة غريزية مذكرة، والمكبوت حاثة غريزية مؤنثة. ولكن على أساس هذا الافتراض سيكون



العَرَض بدوره ثمرة حاثة مؤنثة.

لنضع الآن على حجر المحكّ، على مثال أخيولة الجلد التي تفحصناها في هذه الدراسة، تينك النظريتين اللتين تجمع بينهما صفة مشتركة، ألا هي ما يمكن أن نسمِّيَه تجنيسهما لعملية الكبت. فالأخيولة الأصلية، أخيولة «إني مضروب من قبل الأب»، تناظر إذاً لدى الصبي وضعية مؤنثة؛ ومن ثم فهي تعبير عن استعداده المسبق للانتماء إلى الجنس المقابل. فإن رزحت هذه الأخيولة تحت نير الكبت، بدت النظرية الأولى هي المصيبة، لأن قاعدتها تنصّ على أن ما ينتمي إلى الجنس المقابل يتوافق مع المكبوت. والحق أن ما لا يتفق كثيراً مع توقعنا هو أن ما يتظاهر حال إنجاز الكبت، أي الأخيولة الشعورية، يشفّ من جديد عن وجود الوضعية المؤنثة، وإن حيال الأم وحدها هذه المرة. لكن فلنمسك عن إبداء شكوك بعد أن باتت ساعة الحسم وشيكة. إن أخيولة البنت الأصلية ـ «إنني مضروبة (أي محبوبة) من قبل الأب» ـ تتطابق بالتأكيد، من حيث أنها موقف مؤنث، مع الجنس الظاهر الغالب لديها. ومن ثم كان يُفترض فيها، طبقاً للنظرية، أن تفلت من الكبت وما كانت لتكون بها حاجة إلى أن تصير لاشعورية. أما في الواقع فهذا بالضبط ما يحدث، ومحل هذه الأخيولة تحلّ أخيولة شعورية هي بمثابة نفي للخاصية الجنسية الظاهرة. هذه النظرية لا تصلح إذاً للاستخدام في فهم أخاييل الجلد، بل إن هذه الأخاييل تدحضها. ومن الممكن هنا الاعتراض علينا بأن الصبيان المتخنثين والبنات المسترجلات هم على وجه التحديد الذين يتخيَّلون أخاييل الجلد هذه، وهم الذين يؤول بهم الأمر إلى مثل هذا المصير، أو بأن سمة من سمات الأنوثة لدى الصبي وسمة من سمات الذكورة لدى البنت هي التي ينبغي أن تُحمَّل تبعة تكوين الأخيولة السلبية متى كان الأمر متعلقاً بالصبي، وتبعة كبتها متى كان الأمر متعلقاً بالبنت. ولقد كنا سنعرب في أرجح الظن عن موافقتنا على هذا التصور لولا أن العلاقة التي يقيمها بين الخاصية الجنسية الظاهرة وبين اختيار الخاصية المقيَّض لها أن تُكبت تظلّ بالرغم من ذلك لا سند لها. والواقع أننا نشاهد فقط بروز حاثات غريزية مذكرة ومؤنثة على حدّ سواء لدى أفراد من الجنس المذكر والجنس المؤنث على السواء؛ وهذه الحاثات، المذكرة منها



والمؤنثة، يمكن أن تصير لاشعورية من جراء الكبت.

بالمقابل، إن نظرية الاحتجاج الذكوري تبدو أقدر بكثير على اجتياز امتحان أخاييل الجلد. فلدى الصبي كما لدى البنت تناظر أخيولة الجلد موقفاً مؤنثاً، أي توقفاً طويل الأمد عند الخط المؤنث، ويتعجل الجنسان كلاهما التخلص من هذا الموقف عن طريق كبت الأخيولة. والحقّ أن الاحتجاج الذكوري لا يبدو أنه يصيب نجاحاً كاملاً إلا لدى البنت: فلديها نلتقي بمثال نموذجي حقاً على تأثير الاحتجاج الذكوري. أما لدى الصبي فلا يكون النجاح باعثاً تماماً على الرضى، إذ إن الخط المؤنث لا يُهجر هجراً نهائياً، و«الغلبة» في أخيولة المازوخية الشعورية لا تكون بكل تأكيد للصبي. وهذه الواقعة تتجاوب مع التوقع الذي يترتب على النظرية إذا ما تعرَّفنا في هذه الأخيولة عرَضاً متولداً عن إخفاق الاحتجاج الذكوري. والحق أن ما يبلبلنا هو أن الأخيولة الناجمة عن الكبت لدى البنت تكون مساوية في القيمة وفي الدلالة لعرَض. وعلى هذا، حيثما يحقق الاحتجاج الذكوري مبتغاه، يُفترض أن يغيب نهائياً الشرط الذي يسمح بتكوين الأعراض.

قبل أن نستخلص من هذا الإشكال دعوى مؤداها أن وجهة نظر الاحتجاج الذكوري هي في مجملها غير متكيفة مع مشكلات الأعصبة والانحرافات وأن تطبيقها على هذه المشكلات عقيم، سنحوِّل نظرنا عن أخاييل الجلد السلبية لنوجِّهه نحو تظاهرات غريزية أخرى للحياة الجنسية الطفلية ترزح جزئياً تحت الكبت. وبطبيعة الحال، لا يسع أحداً أن يشكّ في وجود رغبات وأخاييل تتبع دفعة واحدة الخطَّ المذكر وتعبِّر عن حاثات غريزية مذكرة، وعلى سبيل المثال الحفزات السادية أو الرغبات الاشتهائية، المتولدة عن عقدة أوديب السوية، التي يستشعرها الطفل تجاه أمه. ولا مجال للشك كذلك في أن الكبت يطال أيضاً هذه الأخاييل وهذه الرغبات. لكن إن سلَّمنا بأن الاحتجاج الذكوري قد أحسن تفسير كبت الأخاييل السلبية، والمازوخية فيما بعد، فإنه يغدو من هنا بالذات غير قابل للتطبيق على الإطلاق على الحالة المعاكسة، أي حالة الأخاييل الإيجابية. وبعبارة أخرى، إن نظرية الاحتجاج الذكوري تتنافى مطلق التنافي وواقعة الكبت. ووحدهم الذين لديهم استعداد لاطِّراح كل المكاسب التي تحصَّلت لعلم



النفس منذ أول علاج تطهيري قام به بروير[١٩]، وبفضله، يمكن لهم أن يتوقعوا أن يكون لمبدأ الاحتجاج الذكوري قيمة ما في تفسير الأعصبة والانحرافات.

إن النظرية التحليلية النفسية، التي تستند إلى الملاحظة والمعاينة، تتمسك بقوة بفكرة أن الدوافع إلى الكبت لا تستوجب التجنيس. فما يؤلف نواة اللاشعور النفسي هو الميراث الأثري للكائن البشري، وما يقع تحت عملية الكبت هو تلك الحصة من هذا الميراث التي ينبغي دوماً أن تُنحّى جانباً عند التقدم نحو أطوار لاحقة من النمو والتطور، لأنها غير صالحة للاستعمال ولأنها تتنافى مع ما هو جديد وتُلحِق به الضرر. هذا الاختيار يُكلّل بقدر أكبر من النجاح بالنسبة إلى مجموعة بعينها من الدوافع الغريزية دون المجموعة الأخرى. فهذه الأخيرة، أقصد الدوافع الغريزية الجنسية، تمتلك المقدرة، بحكم ظروف خاصة سبق شرحها مراراً وتكراراً، على إحباط مقاصد الكبت وعلى الحصول بالقوة على تمثيل لها بواسطة تشكيلات بديلة مولِّدة لاضطرابات. ولهذا تكون الجنسية الطفلية، الخاضعة للكبت، هي القوة الغريزية الرئيسية لتشكيل العرض، ويكون العنصر الأساسي في مضمونها ـ عقدة أوديب ـ هو العقدة النووية للعصاب. وآمل أن يحفزنا هذا البحث الذي نضعه في متناول القارئ على أن نتوقع أن تكون الانحرافات الجنسية في الطفولة نابعة هي الأخرى من العقدة عينها التي تنبع منها الانحرافات الجنسية لدى الراشدين.

١٩ ـ جوزف بروير: طبيب وعالم فيزيولوجي نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). اشتهر في تاريخ التحليل النفسي بوصفه محلل برتا بابنهايم المعروفة باسمها المستعار آنا أو، وهو التحليل الذي ترك بالغ الأثر لدى فرويد، فكان أن نشر بالاشتراك مع بروير عام ١٨٩٣ بحثاً عنوانه: **عن الآلية النفسية للظاهرة الهستيرية**. وبعد قدر من الخلاف معه وقدر من التفاهم أيضاً نشرا معاً عام ١٨٩٥ **دراسات في الهستيريا**. وقد اشتكى بروير لاحقاً من عجرفة فرويد وقال إنه كان يشعر وكأنه «دجاجة أمام نسر». وأنكر أن يكون الجنس هو في أصل جميع الاضطرابات العصابية. وبالمقابل، انتقده فرويد على كونه لم ينتبه إلى البعد الجنسي في الحالة المَرَضية لآنا أو، ولذلك لم يكتب لها الشفاء. ولكن إذا كان فرويد هو الأب المؤسس للتحليل النفسي، فإن بروير يكون بمثابة الجدّ الأول. «م».



(١٢)

حول المنشأ النفسي لحالة جنسية مثلية مؤنثة (١٩٢٠)

(١)

إن الجنسية المثلية المؤنثة، التي لا تقلّ شيوعاً بكل تأكيد عن الجنسية المثلية المذكرة وإن تكن أقل منها بكثير إثارة للضجيج، لم تفلت من قبضة قانون العقوبات وحده: فقد أُهملت أيضاً من قبل البحث التحليلي النفسي. ومن ثم، إن نشر تقرير عن حالة فردية غير مفرطة الحدّة، أمكن استجلاء منشأها النفسي بدون ثغرات تقريباً وبيقين تام، يمكن أن يطمح في أن يولى قدراً من الاهتمام. ولئن لم يرسم هذا التقرير سوى المعالم العامة للأحداث ولم يتوقف إلا عند الأفكار التي أمكن استخلاصها من الحالة، بدون أن يأتي بذكر دقائق السمات والخصائص الفردية التي عليها ارتكز التأويل، فإن هذا التقييد قابل بسهولة للتفسير بالكتمان الطبي الذي تقتضيه حالة حديثة العهد جداً.

فتاة في الثامنة عشرة، جميلة وذكية، متحدرة من أسرة رفيعة المقام اجتماعياً، زرعت الهمّ والكدر في فؤادي والديها بما كانت تبديه من حب وشغف في ملاحقة سيدة من سيدات «المجتمع» تكبرها بحوالي عشرة أعوام. ويدَّعي الأهل أن هذه السيدة، على كرم محتدها، لا تعدو أن تكون في الواقع عاهرة. وهم لا يجهلون أنها تعيش لدى صديقة متزوجة تربطها وإياها علاقة حميمة، بدون أن يحول ذلك بينها وبين الإبقاء على علاقات غرامية عارضة بعدد من الرجال. ولا تنكر الفتاة هذه الشائعات، ولكن بدون أن يحملها ذلك على التنكر لعبادتها



لتلك السيدة، علماً بأنها أبعد ما تكون عن الافتقاد إلى حسّ الحشمة والاستقامة. وما كان لأي حظر ولأي رقابة أن يردعاها عن اهتبال كل فرصة نادرة تسنح لتجتمع بتلك التي هي بها مغرمة، ولتستعلم عن عاداتها وطريقتها في العيش، ولتنتظرها أمام باب بيتها أو عند مواقف الترامواي، ولترسل إليها زهوراً، إلخ. وظاهر للعيان أن هذا الاهتمام الأوحد طغى على كل ما عداه لدى الفتاة. فهي لا تلقي بالاً لمتابعة تعليمها ولا تحفل إطلاقاً للحياة الاجتماعية ولضروب التسلية التي تستهوي من هنّ في سنها من البنات، ولا تحتمل سوى عِشرة بعض الفتيات ممن يسعها أن تتخذهن نجيات مؤتمنات على سرّها أو أن يساعدنها في تحقيق مأربها. أما إلى أي حدّ وصلت الأمور بين الفتاة وتلك السيدة المريبة السمعة وهل تخطّت حدود الحب العاطفي الرقيق، فذلك ما لا يعلم عنه ذووها شيئاً. وهم لم يلحظوا قط أن فتاتهم تهتم لمن هم في سنِّها من الشبان أو أنها تطيب نفساً بما يحيطونها به من اهتمام ومجاملة؛ وبالمقابل، ثمة نقطة واحدة هم منها على ثقة، وهي أن هذا الميل الراهن نحو امرأة بعينها إن هو إلا استمرار على درجة أعلى لما كان ظهر منها في السنوات الأخيرة من تعلق بأفراد آخرين من الجنس المؤنث ولما كان أثار ريبة الأب وصرامته في آن معاً.

كان مسلكها ينطوي على أمرين متضاربين في الظاهر كانا أكره ما يكرهه الوالدان في فتاتهما. فقد كانت من ناحية أولى لا تتردد في الظهور علناً في الشوارع المزدحمة بصحبة حبيبتها المشبوهة ضاربة عرض الحائط بالتالي بمقتضيات سمعتها، ولا تتورع من الناحية الثانية عن اللجوء إلى مختلف أساليب المكر والتعلُّل والكذب لتدبِّر على غير علم من والديها لقاءاتهما. إذاً، صراحة مفرطة من جهة أولى، ومداجاة مسرفة من الجهة الثانية. وذات يوم وقع ما لم يكن بدّ من وقوعه في مثل هذه الظروف: فقد التقى الأب ابنته في الطريق بصحبة تلك السيدة التي كان يعرفها من قبل بالنظر. فما كان منه إلا أن رماهما بنظرة حانقة لا تنبئ بخير. وللحال سحبت الفتاة ذراعها من ذراع السيدة، واعتلت حاجزاً للسكة الحديدية ورمت نفسها في المنخفض الذي يمرّ منه قطار المدينة. وقد اقتضتها محاولة الانتحار هذه ـ وكانت على درجة لا تنكر من

الخطورة ـ أن تلزم الفراش ردحاً طويلاً من الزمن، ولكن لحسن الحظ بدون أن يتخلف عنها ضرّ جسيم. وغبّ شفائها وجدت الموقف وقد صار أوفق لرغائبها. فوالداها ما عادا يجترئان على معارضتها بمثل تلك الطريقة القاطعة؛ والسيدة التي كانت إلى ذلك اليوم صَدَّت بجفاء عن تودداتها تأثّرت بذلك البرهان الساطع على صدق هواها فأقبلت عليها تعاملها بمزيد من الودّ.

بعد هذا الحادث بزهاء ستة أشهر قصد الوالدان الطبيب وعهدا إليه بمهمة إرجاع ابنتهما إلى الطريق السواء. ولا شك في أن محاولة الفتاة الانتحار قد بيّنت لهما أن وسائل التأثير عن طريق الانضباط البيتي ليست بذات جدوى في مواجهة المشكل المثير لقلقهما.

لكن من المفيد أن نتناول هنا بالتحليل، بالمناسبة، كلاً من موقف الأب وموقف الأم على حدة. فقد كان الأب رجلاً رزيناً ومحترماً، ينطوي في صميمه على قدر كبير من الحنوّ، وإن يكن أولاده أعرضوا عنه بعض الشيء لما يتكلّفه من صرامة. وكان مسلكه إزاء ابنته الوحيدة يتحددّ إلى درجة أكبر مما ينبغي بمراعاته لزوجته، والدة الفتاة. وحين علم لأول مرة بميول ابنته إلى الجنسية المثلية استحوذ عليه غضب عظيم وأراد أن يقمعها بقوة التهديد؛ ومن المحتمل أنه تردد يومئذ بين طرائق شتى، كلها مما يحزّ في النفس، في فهم واقع الأمر: فهل عليه أن يرى في ابنته كائناً قاصراً أو منحطاً أو مريضاً عقلياً؟ وحتى بعد الحادث لم يرتفع بالمسألة إلى مستوى ذلك الاستسلام المتسامي الذي عبَّر عنه أحد زملائنا الأطباء في مواجهة ضرب مماثل من الضلال ظهر في أسرته حينما قال: «إنها، على كل حال، مصيبة كغيرها!». وكانت جنسية ابنته المثلية تثير في نفسه كوامن مرارته. وقد عقد العزم على مكافحتها بكل وسيلة ممكنة؛ ولم يمنعه الازدراء الذي يقابل به التحليل النفسي في شتى الأوساط بفيينا من أن ييمِّم شطره طلباً لمساعدته. فإن استعصى حتى على هذا الطريق أن يتأدى إلى نتيجة، فقد كان يحتفظ على سبيل الاحتياط بترياق شديد القوة: زواج سريع يفترض فيه أن يوقظ الدوافع الغريزية الطبيعية لدى الفتاة وأن يخمد جذى نوازعها الخارجة على ناموس الطبيعة.



بالمقابل لم يكن يسيراً إلى هذا الحدّ النفاذ إلى موقف والدة الفتاة. كانت لا تزال امرأة في مقتبل العمر ولا تريد على ما تشير الدلائل أن تتخلى عن تطلعها إلى أن تكون هي نفسها، بجمالها، موضع إعجاب. وكان ثمة شيء واحد جلياً للعيان، وهو أنها لا تنظر إلى نزوات ابنتها بمثل المنظار المأساوي الذي ينظر منه الأب إليها، وأن الأمر ما كان يصدمها ويسوءها إلى الحدّ الذي كان يصدمه ويسوءه هو. بل أكثر من ذلك: فقد كانت هي نفسها لأجل طويل من الزمن المؤتمنة على سرّ الحب الذي تكنُّه ابنتها لتلك السيدة؛ ولئن وقفت ضده في نهاية الأمر فإنما في المقام الأول، على ما يبدو، للعلانية المؤسفة التي راحت تفصح بها ابنتها عن عواطفها بمنتهى السخاء أمام الملأ. وكانت قد عانت هي نفسها من إصابة عصابية على مدى سنين عديدة، وكان يطيب لها أن تعامَل من قبل زوجها بقدر كبير من المراعاة؛ وكانت تعامل أولادها معاملة غير متساوية، إذ كانت تقسو قسوة شديدة على ابنتها وتلين ليناً مجاوز الحدّ مع صبيانها الثلاثة الذين كان أصغرهم قد رأى النور في زمن متأخر، فما بلغ أعواماً ثلاثة من العمر. ولم يكن ميسوراً الحصول على معطيات أكثر تحديداً عن شخصيتها، إذ إن المعلومات التي كانت المريضة تفضي بها عن أمها كانت تتَّسم، بدوافع لن تتوضح إلا فيما بعد، بتحفُّظ لم نصطدم بمثله في حالة الأب.

كالن لدى الطبيب، الذي كان عليه أن يتولى الفتاة بالعلاج التحليلي النفسي، عدة أسباب للشعور بعدم الارتياح. فلم يكن الموقف الذي يواجهه هو الموقف الذي يقتضيه التحليل النفسي والذي فيه وحده يمكن أن توضع على حجر المحك فعالية هذا الأخير. ومعلوم أن هذا الموقف في نموذجه المثالي يتمثل في ما يلي: شخص، مسيطر على نفسه أصلاً، يشكو من صراع داخلي لا يسعه أن يضع له حداً بمفرده، فيعقد العزم في نهاية الأمر على الذهاب إلى المحلل النفسي ليشكو له ما يعانيه وليطلب عونه. عندئذ يعمل الطبيب يداً بيد مع أحد طرفي هذه الشخصية، المنقسمة مرَضياً إلى قسمين، ضد الطرف الآخر في الصراع. وأي موقف غير هذا الموقف لا يكون مؤاتياً للتحليل، بل لا يكون من شأنه إلا أن يضيف صعاباً، تقلّ أو تزيد، إلى الصعاب الداخلية للحالة. إن موقفاً كموقف

المالك العقاري الذي يوصي المهندس المعماري بأن يبني له فيلا توائم مشاربه وحاجاته، أو كموقف الواهب المتديِّن الورع الذي يطلب إلى الفنان أن يرسم مشهداً من المشاهد الدينية وأن يفسح مكاناً في ركن اللوحة لشخصه بالذات وهو راكع فوق المصلى، ليس مما يتفق بحال من الأحوال مع شروط التحليل النفسي. صحيح أنه قد يحدث يوماً أن يقصد رجل متزوج الطبيب ويقول له: إن زوجتي عصبية، وقد بات من المتعذر عليها أن تتفاهم معي، فأرجعْ إليها صحّتها، لنعود من جديد إلى سابق الألفة والوئام بيننا. لكن كثيراً ما يتضح أن هذه مهمة مستحيلة، أعني أن الطبيب يعجز عن الوصول إلى النتيجة التي من أجلها رغب الزوج في إجراء العلاج. إذ ما إن تنعتق الزوجة من ضروب الكفّ العصابي التي تعاني منها حتى تنفصم عرى الزواج الذي ما كان استمراره ممكناً إلا في ظل عصاب الزوجة. أو قد يطالب الأهل الطبيب بأن يعيد الصحة والعافية إلى طفلهم الذي هو طفل عصبي ومشاكس. وما يقصدونه بالطفل الصحيح المعافى هو طفل لا يسبِّب أي مشكلة لوالديه، ويكون لهما مدعاة للاغتباط الدائم. وقد يتفق أن يفلح الطبيب في ردّ الطفل إلى عافيته، غير أن هذا يتابع، بعد شفائه، طريقه الخاص بمزيد من التصميم، فإذا بالوالدين يزيد استياؤهما عن ذي قبل زيادة كبيرة. زبدة الكلام: إنه ليس سيان أن يأتي الإنسان إلى التحليل من تلقاء نفسه وطوع إرادته أو أن يفعل ذلك لأن آخرين حملوه على فعله، ولا يستوي أن يكون هو نفسه راغباً في تغيير حاله أو أن يكون ذووه هم وحدهم الراغبين في هذا التغيير بصرف النظر عن حبّهم له، أو بصرف النظر عن حقّنا في أن نتوقع منهم حبّاً كهذا.

ثمة واقعتان أخريان ينبغي أخذهما بعين الاعتبار في جملة تلك العوامل غير المؤاتية: فالفتاة لم تكن مريضة ـ فهي ما كانت تتألم لأسباب داخلية وما كانت تتشكى من حالتها ـ والمهمة المطلوبة لم تكن حلّ صراع عصابي، بل تمرير إحدى صيغتي التنظيم الجنسي التناسلي من خلال الصيغة الأخرى. وبحسب خبرتي، إن هذه العملية ـ إلغاء الارتكاس التناسلي أو الجنسية المثلية ـ لم تكن في يوم من الأيام سهلة. بل إنني وجدت بالأحرى أنها لا تنجح إلا في ظروف خاصة

مؤاتية، وأنه حتى في هذه الحال لا يتعدى النجاح فتح الطريق، الذي كان مسدوداً من قبل، إلى الجنس الآخر أمام الشخص المغلول إلى الجنسية المثلية، أي ردّ الوظيفة الجنسية الثنائية إلى هذا الشخص كاملة. وسيكون هذا الأخير في حل عندئذ من أن يترك الطريق الآخر المزدرى من قبل المجتمع مهجوراً، وهذا ما حدث فعلاً في بعض الحالات الفردية. وينبغي هنا أن نذكر أن الجنسية السوية ترتكز هي الأخرى إلى تقييد في الاختيار الموضوعاني، وأن تحويل الجنسي المثلي المكتمل التطور إلى جنسي غيريّ مشروع لا يتاح له من فرص النجاح أكثر مما يتاح للعملية المعاكسة، سوى أن هذه الأخيرة لا تجد أبداً، لأسباب عملية وجيهة، من يتنطع لها.

إن نجاحات الطريقة التحليلية النفسية في معالجة الجنسية المثلية (التي هي في الحق متعددة الأشكال إلى أقصى حدّ) هي بالفعل عديمة الدلالة من وجهة النظر العددية. فالجنسي المثلي يقف عاجزاً بصفة عامة عن التخلي عن موضوعه اللذّي؛ ونحن لا نتوصل إلى إقناعه بأنه سيجتني، في حال انقلابه، من الموضوع الجديد اللذة عينها التي يتخلى عنها الآن. ولئن أسلم قياده للمعالجة، فذلك لأن دوافع خارجية في الجوهر تكون حدت به إلى ذلك. وأعني بها المحاذير والأخطار الاجتماعية التي تترتب على اختياره الموضوعاني، ولأن مقومات غريزة البقاء والمحافظة على الذات هذه تكون قد برهنت على أنها أضعف من أن تخوض غمار المعركة ضد النوازع الجنسية. وسرعان ما يتأتى لنا أن نكتشف خطته السرية التي ترمي إلى توظيف الفشل المدوي لهذه المحاولة في جلب الطمأنينة والهدوء إلى باله: فهو يكون قد فعل كل ما يمكن له فعله في مواجهة خصوصيته الجنسية، ومن ثم سيكون في حِلٍّ من الآن فصاعداً من إسلاس قياده لها بضمير مرتاح. أما حيثما يكون الدافع إلى محاولة الشفاء الحرص على مداورة الأهل وذوي القربى والجوار من المحبّين المخلصين، فإن الحالة تختلف قليلاً. وإنما عندما يكون التثبيت على الموضوع الذي من الجنس ذاته لم يصبح على قدر كبير من القوة، أو عندما توجد عناصر أو بقايا ذات شأن من الاختيار الموضوعاني الجنسي الغيري، أي بالتالي في حالة تنظيم لا يزال متردداً أو ذا



طابع جنسي ثنائي سافر، فعندئذ فقط يمكن التكهن بأن العلاج التحليلي النفسي قد تمخّض عن نتائج أجدى.

لهذه الأسباب كلها تحاشيت أن أقطع أي عهد لأهل الفتاة باحتمال تحقيق أمنيتهم. بل أعلنت لهم فقط عن استعدادي لفحص الفتاة بدقة على مدى بضعة أسابيع أو بضعة أشهر، كيما أتمكن بعد ذلك من تكوين فكرة عن فرص الجدوى من متابعة التحليل. ذلك أن التحليل ينقسم بالفعل في عدد كبير من الحالات إلى مرحلتين منفصلتين بجلاء: ففي مرحلة أولى يجمع الطبيب عن المريض المعلومات اللازمة، ويطلعه على مسلمات التحليل وفروضه، ويعرض أمام ناظريه الكيفية التي تكوّن بها داؤه وهي الكيفية التي يحقّ له استنتاجها من المادة التي أمدّه بها التحليل. وفي المرحلة الثانية يضع المريض نفسه يده على المعطيات الموضوعة في متناوله، ويشتغل بها، ويتذكر ما يمكن له أن يتذكره مما يظن أنه هو المكبوت عنده، وأما ما تبقى فيجاهد لكي يكرره من خلال ضرب من إعادة الإحياء. ومن الممكن، بعمله هذا، أن يؤكد ويكمّل ويصحّح أطروحات الطبيب. وإنما في أثناء هذه العملية يختبر بنفسه، من خلال تغلّبه على المقاومات، التغيير الداخلي الذي هو الهدف الذي حدّده لنفسه، ويكتسب الاقتناع الذي يتيح له أن يستقل بذاته عن السلطة الطبية. هاتان المرحلتان لا يقوم بينهما على الدوام فاصل قاطع في أثناء مسار العلاج التحليلي النفسي؛ فمثل هذا الفصل لا يمكن أن يحدث إلا متى ما انطوت المقاومة على شروط محددة. ولكن حيثما وقع فصل كهذا جازت لنا المقارنة مع المرحلتين اللتين تتمّ بهما إجراءات السفر. فالمرحلة الأولى تشتمل على جميع الاستعدادات والتدابير الضرورية، البالغة التعقيد والصعبة التفيذ اليوم، التي لا بدّ من اتخاذها إلى أن يقطع المرء في النهاية تذكرته ويأتي إلى رصيف المحطة ويشغل مكانه في عربة القطار. وعندئذ يكون قد صار له الحق والإمكان للسفر إلى أمصار نائية. لكنه بالرغم من كل هذه الإجراءات التمهيدية لم يصل بعد إلى غايته، بل لم يقترب، والحق يقال، كيلومتراً واحداً من هدفه. ولنضف إلى ذلك أن السفرة نفسها تتمّ محطة محطة، وهذا الشطر الأخير منها هو ما يشبه المرحلة الثانية في العلاج التحليلي.



لقد دار التحليل لدى المريضة التي سأتكلم عنها الآن تبعاً لهذا المخطط الثنائي المرحلة، لكنه لم يُواصَل إلى ما بعد بداية المرحلة الثانية. وعلى الرغم من كل شيء أتاح لي شكل خاص من المقاومة أن أصل إلى تأييد كامل لفروضي وإلى فكرة كافية بقدر أو بآخر عن مسار التطور الذي سلكه الارتكاس لدى مريضتي، لكن قبل أن أعرض نتائج تحليلها يتعيَّن عليَّ أن أسوِّي بعض النقاط التي سبق لي أنا نفسي أن ألممت بها أو التي فرضت نفسها على القارئ كموضوعات أولى لاهتمامه.

لقد كنت رهنت جزئياً التشخيص بهذا السؤال: إلى أي حدٍّ ذهبت الفتاة في إشباع هواها؟ والجواب الذي حصلت عليه في أثناء التحليل بدا من وجهة النظر هذه مؤاتياً. فاللذة التي اجتنتها من مواضيع هواها لم تتعدَّ قط بضع قبلات ومعانقات؛ ومن ثم، إن عفتها التناسلية، إن جاز القول، بقيت سليمة سالمة. فالسيدة الغانية، التي كانت أيقظت فيها أحدث المشاعر عهداً وأقواها بما لا يضاهى، حافظت على موقف بارد منها ولم تنعِم عليها بأكثر من أن تسمح لها بتقبيل يدها. وأرجح الظن أن الفتاة كانت تجعل من الضرورة فضيلة حينما كانت تلحّ باستمرار على نقاوة حبّها وعلى نفورها الجسدي من الاتصال الجنسي. لكن لعلها ما كانت تجانب الصواب تماماً حينما صرّحت أن حبيبتها الجليلة، التي كانت من أصل نبيل وما تدهورت إلى وضعها الراهن إلا بنتيجة ظروف عائلية غير موائمة، قد حافظت على قدر كبير من عزة النفس والكرامة. وفي الواقع ما كان يفوت السيدة أن تحضَّها، عند كل لقاء من لقاءاتهما، على أن تشيح عنها وأن تصرف عنها وعن النساء عموماً ميول فؤادها، وكانت إلى حين محاولتها الانتحار قد قابلتها على الدوام برفض جازم.

ثمة نقطة ثانية سأحاول إيضاحها حالاً، وتتصل بدوافع الفتاة التي كان يمكن للعلاج التحليلي أن يجد فيها سنداً ما. فهي لم تحاول أن تخدعني بأن تزعم أن دافعها هو حاجة ملحة آسرة إلى التحرر من جنسيتها المثلية. بل على العكس من ذلك، فهي ما كانت تستطيع أن تتصور أي شكل آخر لعلاقة حب، ولكنها تريد صادقة ـ كما أضافت القول ـ أن تمدّ يد العون للمحاولة العلاجية إكراماً

لوالديها، لأنه يحزّ في نفسها بقوة أن تتسبب لهما في ما تتسبب من هموم. وفي بادئ الأمر لم يكن أمامي مناص من اعتبار هذا التصريح أيضاً موائماً؛ وما كان في مستطاعي أن أرهص بالموقف العاطفي اللاشعوري الذي يختبئ وراء ذلك. وما تكشَّف فيما بعد بصدد هذا الموضوع كان له أثر حاسم في الانعطاف الذي طرأ على العلاج وفي إيقافه قبل الأوان.

لا بدّ أن وقتاً طويلاً مضى على القراء غير المتضلِّعين بالتحليل النفسي وهم ينتظرون بفارغ الصبر جواباً عن سؤالين آخرين: هل كانت هذه الفتاة الجنسية المثلية تبدي عن خصائص جسمانية بيِّنة من الجنس الآخر، وهل ينبغي أن نرى فيها حالة من الجنسية المثلية الفطرية أم حالة من الجنسية المثلية المكتسبة (تطورت لاحقاً)؟

لست أجهل الأهمية التي يرتديها السؤال الأول. بيد أنه لا يجوز مع ذلك المغالاة بهذه الأهمية وتغييب الواقعتين التاليتين لصالحها: وأولاهما أن سمات ثانوية منعزلة تابعة للجنس الآخر يتواتر وجودها لدى الأفراد الأسوياء، وثانيتهما أنه يمكن أن نلتقي خصائص جسمانية بارزة للجنس الآخر لدى أشخاص لم يطرأ على الاختيار الموضوعاني لديهم أي تعديل باتجاه الارتكاس. بعبارة أخرى إذاً، **إن درجة الخنوثة النفسية لدى الجنسين مستقلة إلى حدّ كبير عن درجة الخنوثة الجسمانية**. وتضييقاً لنطاق هذه الأطروحة المزدوجة لنضف القول إن هذا الاستقلال أجلى لدى الرجل منه لدى المرأة التي تتوافق عندها بانتظام أكبر العلامات الجسمية والنفسية للجنس المقابل. على أنني لست في وضع يؤهلني، في الحالة التي تشغلنا هنا، للإجابة بصورة مُرضية عن أول السؤالين المطروحين أعلاه. فقد درجت العادة بالمحلِّل النفسي على الامتناع عن إجراء فحص جسماني مفصَّل لمرضاه في بعض الحالات المحددة. ومهما يكن من أمر، فإنه ما كان يبدو عليها أي شذوذ ظاهر عن النمط الجسماني للمرأة، كما أنها ما كانت تعاني من أي اضطراب في الطمث. كانت فتاتنا جميلة، حسنة التكوين، طويلة بقامة أبيها، بارزة تقاطيع الوجه، أكثر مما هي ممحوة شأنها في العادة لدى الفتيات؛ وكان من الممكن أن نرى في ذلك قرائن على ذكورة



بدنية. كما كان في مقدورنا أيضاً أن نعزو إلى الطبيعة الذكرية بعضاً من خصالها الفكرية، كحدة ذكائها وصحو فكرها وبرودته، حينما لا يستبدّ بها سلطان هواها. بيد أن هذه التمييزات اصطلاحية أكثر منها ذات أساس علمي. والأبلغ دلالة من ذلك هو بكل تأكيد كونها تبنت تماماً في سلوكها إزاء الموضوع الحبّي النمط المذكّر، أي أنها كانت تبدي عن مذلة الرجل العاشق، وعن مغالاته التفخيمية في التقييم الجنسي، وكذلك عن العزوف عن كل إشباع نرجسي، وعن إيثارها أن تكون هي المحِبَّة على أن تكون هي المحبوبة. وعلى هذا لا تكون قد اختارت موضوعاً مؤنثاً فحسب، بل وقفت منه أيضاً موقفاً مذكراً.

أما السؤال الآخر، المتعلق بمعرفة إذا كانت حالتها تناظر جنسية مثلية فطرية أو جنسية مثلية مكتسبة، فإن كل تاريخ تمخُّض الاضطراب الذي تعاني منه هو الذي يفترض به أن يجيب عنه. وبهذه المناسبة سنلاحظ كم أن طريقة طرح السؤال بالذات هي العقيمة وغير السديدة.

(٢)

لست أستطيع أن أُتْبع مقدمة مستفيضة كهذه إلا بعرض مقتضب مجمل للتاريخ الليبيدوي لهذه الحالة. كانت الفتاة في سنيّ طفولتها قد مرّت بالموقف السويّ لعقدة أوديب الأنثية[١] مروراً ليس فيه ما يستوقف النظر، وفي زمن لاحق طفقت تُحِلّ محلَّ أبيها أخاها الذي يكبرها سناً بقليل. ولم تستذكر أي حلم جنسي من حداثتها ولم يكتشف التحليل حلماً كهذا. والمقارنة التي أجرتها في مستهل الكمون (عند السنة الخامسة أو قبلها بقليل) بين أعضائها التناسلية

١ ـ لست أرى أننا نحرز تقدماً أو نجتني فائدة من إدخال مصطلح «عقدة إلكترا»، ولست بحال موصياً به[*].

(*) عقدة إلكترا: مفهوم نظري قال به كارل غوستاف يونغ كمقابل عند الأنثى لعقدة أوديب لدى الذكر. فكما أن أوديب قتل أباه وتزوج أمه، كذلك فإن إلكترا، في الأسطورة كما في المسرحية، قتلت أمها لتنتقم لأبيها أغاممنون. ولا شك في أن رفض فرويد لمفهوم عقدة إلكترا وتمسّكه بمفهومه عن «عقدة أوديب مؤنثة» يرتبطان بكون اجتهاد كارل غوستاف يونغ تعدى حدود الاختلاف في الرأي ليتحول إلى انشقاق حقيقي في الحركة التحليلية النفسية. «م».



وأعضاء أخيها خلَّفت فيها انطباعاً آسراً بقيت أصداؤه تترجع زمناً طويلاً. ولم نفز إلا بإشارات طفيفة للغاية عن أونانية الطفولة الأولى، أو فلنقل إن التحليل لم يتوغل بعيداً بما فيه الكفاية لجلاء هذه النقطة. ولا يبدو أن مولد أخ ثانٍ لها حينما بلغت الخامسة أو السادسة من العمر ترك أثراً خاصاً في تطورها. وفي سنِّي المدرسة والبلوغ اطَّلعت شيئاً فشيئاً على وقائع الحياة الجنسية واستقبلتها بذلك المزيد من الاغتلام والاشمئزاز المذعور الذي في مستطاعنا أن ننعته بالسواء والذي لم يأخذ حجماً مفرطاً في تضخُّمه. وهذه المعلومات تبدو هزيلة ضحلة؛ ومن ثم لا يسعني أن أضمن كمالها. وربما كان تاريخ حداثة مريضتي أغنى فحوى بكثير مما ذكرت، ولكني لا أستطيع أن أقطع بشيء. فقد توقف التحليل كما كنت ذكرت بعد فترة وجيزة ولم يتمخَّض، لهذا السبب، إلا عن معطيات ليست أجدر بالثقة من المعطيات التي تتصل بتاريخ حياة جنسيين مثليين آخرين، والتي تحوم بحقٍّ الشكوكُ حولها دوماً. ومن جهة أخرى، لم تكن الفتاة قد عانت قط من العصاب، ولم تحمل معها إلى التحليل عرَضاً هستيرياً، بحيث أن فرص البحث للنفاذ إلى تاريخ طفولتها ما كان مقيَّضاً لها أن تعلن عن نفسها مبكراً.

في الثالثة عشرة والرابعة عشرة أظهرت، باتفاق رأي الجميع، عطفاً وإيثاراً مجاوزي الحد في شدَّتهما نحو صبي صغير لم يبلغ الثالثة من العمر، كان في مستطاعها أن تراه بانتظام في حديقة للأطفال. وقد حدبت على الطفل حدباً عظيماً حدا بها إلى أن تعقد صلة صداقة دائمة مع والديه. وبوسعنا أن نستنتج من هذه الواقعة أنها كانت واقعة آنئذ تحت سلطان رغبة جارفة في أن تكون هي نفسها أماً وفي أن تنجب طفلاً. لكن بعيد ذلك بزمن وجيز تجرَّد الصغير من أية أهمية في نظرها، وبدأت توجِّه اهتمامها نحو نساء ناضجات ما جاوزن بعد سنّ الشباب، وسرعان ما جلبت عليها مظاهر هذا الاهتمام تقريع والدها الذي كان له في نفسها وقع ممضّ.

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً لأدنى شك أن هذا التحول توافق زمنياً مع حدث عائلي معيَّن، مما يبيح لنا بالتالي أن نتوقَّع منه تفسير ذلك التحوُّل. فمن قبل كان الليبيدو عندها قد اتخذ من الأمومة موقعاً يتحصّن به، ومن بعد آلت الحال بفتاتنا

إلى أن تصير جنسية مثلية مغرمة بالنساء الناضجات، وكذلك بقيت منذئذ، وكان ذلك الحدث البالغ الأهمية لفهم حالتها هو حَبَل أمها من جديد، ومولد أخ ثالث، يوم كانت لا تزال تناهز السادسة عشرة.

إن الارتباط الذي سأكشف عنه في ما يلي ليس من ثمار قدرتي على التركيب، بل أوحت به إليّ مادة تحليلية جديرة بالثقة إلى حدّ يمكنني معه أن أضمن لها يقينيةً موضوعية. ذلك أن سلسلة من الأحلام المتداخل بعضها مع بعض والقابلة بسهولة للتأويل هي التي كان لها القول الفصل هنا.

لقد دلّ التحليل بغير لبس أن السيدة المحبوبة كانت بديلاً عن الأم. صحيح أن هذه السيدة لم تكن هي نفسها أماً، لكنها لم تكن أيضاً أول حب للفتاة. فالمواضيع الأولى لهواها منذ مولد أخيها الأخير تمثلت فعلاً بأمهات، بنساء تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، تعرفت إليهن مع أطفالهن في المصيف أو في اللقاءات بين الأسر في العاصمة. وقد تخلت في زمن لاحق عن شرط الأمومة، لأنه ما كان يتفق في الواقع جيِّد الاتفاق مع شرط آخر كان وزنه آخذاً بالتعاظم. ذلك أن الصلة البالغة المتانة بالحبيبة الأخيرة، أي «السيدة»، كانت ترتكز إلى سبب آخر اهتدت إليه الفتاة ذات يوم بغير مشقة. فمشاقة السيدة وجمالها الصارم وجفاؤها في المعاملة كانت تذكِّرها بأخيها البكر الذي يكبرها سناً بقليل. والموضوع الذي وقع عليه اختيارها في خاتمة المطاف لم يكن يطابق مثلها الأعلى فحسب، بل كذلك مثلها الأعلى المذكر، وكان يوفِّق بين إشباع التوجه الجنسي المثلي لرغباتها وبين إشباع توجُّهها الجنسي الغيري. ومعلوم أن تحليل جنسيين مثليين ذكور قد كشف في العديد من الحالات عن التلاقي نفسه، وهذه إشارة تنبِّهنا إلى وجوب الامتناع عن تصور طبيعة الارتكاس وأصله تصوراً مغرقاً في بساطته تغيب معه عن أنظارنا الجنسية الثنائية العامة للكائن البشري(٢).

لكن كيف لنا أن نفهم أن تكون الفتاة قد وجدت نفسها، على وجه التحديد بسبب بميلاد طفل متأخر في زمن كانت فيه هي نفسها قد نضجت واعتملت

---

٢ ـ انظر إ. سادجر: **تقرير سنوي عن الانحرافات الجنسية**، في «**حولية التحليل النفسي**»، السنة الرابعة، ١٩١٤، وجملة من مقالات أخرى.



في نفسها رغبات عاتية، محمولةً على التحوُّل بحبِّها المشبوب نحو تلك التي وضعت ذلك الطفل، أعني أمها بالذات، وعلى التعبير عن هذا الهوى بنقله إلى امرأة هي البديل عن أمها؟ إن كل المتوفر لنا من المعلومات من مصادر أخرى كان يُفترض به أن يدفع بنا إلى توقع العكس. فمن عادة الأمهات في أشباه هذه الظروف أن يشعرن بالحرج إزاء بناتهن اللائي أدركن ـ أو كدن ـ سن الزواج، كما أن البنات يساورهن حيال أمهاتهن شعور هو مزيج من الشفقة والازدراء والحسد لا يسهم بأي قسط في إنماء محبتهن لهن. والفتاة التي نحن بصدد البحث في حالتها ما كانت تتوفر لها من أسباب لتضمر لأمها عطفاً ومحبة. فبالنسبة إلى هذه المرأة التي كانت لا تزال في مقتبل العمر تحولت ابنتها ـ وقد نضجت على حين بغتة ـ إلى منافِسة مزعجة، ثم إنها كانت تقدِّم عليها في المعاملة الصبيان، وتضيِّق بقدر الإمكان من نطاق استقلالها، وتظهر حرصاً غيوراً على إبقائها بعيدة عن أبيها. وعليه، كانت الحاجة إلى أم مُحِبَّة حاجة قابلة لأن يكون لها على الدوام ما يبررها لدى الفتاة؛ غير أن ما يبدو غير مفهوم هو لماذا تفجرت هذه الحاجة في تلك اللحظة وفي صورة هوى جائح.

إن تفسير ذلك كما يلي: فقد كانت الفتاة تمرّ، وهي على عتبة سن البلوغ، بطور إعادة إحياء عقدة أوديب الطفلية حين منيت بالخيبة. وغدت الرغبة في إنجاب طفل، طفل من جنس مذكر، رغبة شعورية سافرة بالنسبة إليها؛ أما ما لم يكن يجوز لشعورها أن يعرفه فهو وجوب أن يكون هذا الطفل من أبيها وأن يكون على صورة هذا الأب. ولكن ما حدث في الواقع هو أنها ليست هي التي أنجبت الطفل وإنما الغريمة التي كانت تكرهها في لاشعورها: الأم. وهكذا أشاحت، وقد تميَّزت غيظاً وامتلأت نفسها بالمرارة، عن أبيها وعن الرجل بصفة عامة. وبعد هذا الفشل الكبير الأول نبذت أنوثتها وبحثت لليبيدوها عن توظيف آخر.

بهذا كان سلوكها مشابهاً تماماً لسلوك الكثيرين من الرجال الذين ما إن يفشلوا في تجربة أولى حتى يقطعوا صلتهم دفعة واحدة ونهائية بالجنس المؤنث المتقلب ويلتحقوا بمعسكر أعداء المرأة. ومما يروى عن واحد من أكثر أمراء عصرنا



تعاسة وأكثرهم جاذبية في آن معاً أنه صار جنسياً مثلياً لأن خطيبته خانته مع شاب آخر. لست أدري إن كانت هذه حقيقة تاريخية. بيد أن قسطاً لا يستهان به من الحقيقة السيكولوجية يختفي وراء هذه الشائعة. إن الليبيدو عندنا جميعاً يتردد مدى الحياة وبصورة طبيعية بين الموضوع المذكر والموضوع المؤنث: فالعازب يتخلى عن صداقاته متى ما تزوج، ويرتدّ إلى ناديه للعب متى ما ساءت علاقته الزوجية. ومن المحقق أنه حيثما كان هذا التحول أساسياً ونهائياً لدى كائن من الكائنات اتجهت تخميناتنا نحو عامل خاص يقدم مؤازرة فاصلة لجانب من الجانبين بدون أن ينتظر في أغلب الظن الوقت المناسب لينجز الاختيار الموضوعاني في اتجاهه الطبيعي.

لقد دفعت فتاتنا إذاً، بعد تلك الخيبة، بعيداً عنها رغبتها في إنجاب طفل، وحبَّها للرجل، والدور المؤنث بصفة عامة. وعندئذ بات في الإمكان بطبيعة الحال أن تقع أمور شديدة التباين: وما وقع فعلاً كان الحالة القصوى. فقد انقلبت إلى رجل واتخذت الأم بدل الأب موضوعاً حبّياً[٣]. وما من ريب في أن العلاقة بالأم كانت تتسم لديها من البداية بطابع الازدواجية الوجدانية، فكان سهلاً عليها أن تنفخ الحياة من جديد في الحب القديم للأم وأن تعوّض أضعافاً مضاعفة عن العداء الذي تكنّه لها حالياً. وبما أنه لم يكن ثمة مجال لأن تفعل شيئاً يذكر مع الأم الواقعية فقد نجم عن انزياح العواطف الذي وصفناه نشدانٌ لبديل عن الأم يتيح لها أن تتعلق به بهوى مشبوب[٤].

وقد انضاف إلى ذلك، وعلى سبيل «المكسب من المرض»، دافع عملي يتصل

---

٣ ـ لا يندر أن يصرم المرء علاقة حبّية لأنه يتماهى هو نفسه مع الموضوع، مما يعدل ضرباً من النكوص إلى النرجسية. ومن الممكن له بسهولة، بعد أن يحدث ذلك، أن يوظف ليبيدوه، لدى قيامه باختيار موضوعاني جديد، في الجنس المقابل للجنس السابق.

٤ ـ إن انتقالات الليبيدو التي نصفها هنا معروفة بكل تأكيد لكل محلل عن طريق استكشاف تواريخ المرضى العصابيين. ولكن تلك الانتقالات تحدث في مثل هذه الحالات في عهد الطفولة الأولى، في زمن التفتح الأول للحياة الحبّية، على حين أنها قد تمّت لدى مريضتنا، التي لم تكن بعصابية على الإطلاق، في السنوات الأولى التي تلت البلوغ، وإن في هذه الحالة أيضاً بطريقة لاشعورية تماماً. ومن يدري أنه لن يثبت ذات يوم أن عامل التسلسل الزمني هذا ينطوي على أهمية كبرى؟



بعلاقاتها الفعلية بأمها. فقد كانت الأم لا تزال تغتبط هي نفسها لاحتفال الرجال لها ومغازلتهم إياها. ومن ثم إن الفتاة، إذ صارت جنسية مثلية وتخلّت لأمها عن الرجال و«انسحبت» ـ إذا جاز القول ـ من المعركة، نحّت عقبة كانت قد عادت عليها إلى ذلك الحين بعداوة أمها(٥).

وقد جرى فيما بعد تعزيز الموقع الليبيدوي الذي كُسب على هذا النحو حينما لاحظت الفتاة كم كان لذلك من وقع مستهجن لدى الأب. فمن المرة الأولى التي قرّعها فيها على ارتباطها بإحدى النساء بعلاقة مودة مفرطة، باتت تعلم كيف تجرحه وكيف تنتقم منه. وهي الآن مقيمة على جنسيتها المثلية تحدياً منها لأبيها. وما كان لوازع من ضمير أن ينهاها عن خداعه والهزء منه في كل مناسبة. أما حيال أمها فما كانت تخلّ بمبدأ الصدق إلا بقدر ما يكون ذلك ضرورياً لكيلا يعلم الأب شيئاً. وقد تراءى لي أنها تتصرف وفق شريعة الثأر

٥ ـ بما أن انسحاباً كهذا لم يرد له قط إلى اليوم ذكر في عداد أسباب الجنسية المثلية كآلية للتثبيت الليبيدوي، فإنني سأضيف هنا ملاحظة تحليلية مماثلة يضفي عليها ظرفٌ خاص قدراً من الأهمية. فقد تعرفت ذات يوم إلى شقيقين توأمين كانا محبوَّين كليهما بحفزات ليبيدوية جامحة. وكان واحدهما يحظى بنجاح كبير لدى النساء، ويعقد علاقات لا تقع تحت حصر مع نساء وفتيات. أما ثانيهما فقد سلك في أول الأمر الطريق نفسه، ولكنه ما لبث في زمن لاحق أن استكره الصيد في أراضي أخيه، واستكره بوجه خاص، بحكم تشابههما، أن تختلط النساء بينه وبين أخيه في بعض الظروف الحميمة؛ وتخلَّص من المأزق بأن صار جنسياً مثلياً. ترك النساء لأخيه وانسحب لصالحه. وفي مرة أخرى تعهَّدتُ بالعلاج فناناً شاباً، لديه بلا مراء استعدادات جنسية ثنائية، وقد ظهرت لديه الجنسية المثلية في آن واحد مع اضطراب في القدرة على العمل، فصار يهرب من النساء ومن فنه دفعة واحدة. وقد دل التحليل، الذي أمكن له أن يردَّه إلى الاثنين، أن الخوف من الأب كان الدافع الأقوى للاضطرابين اللذين كانا كلاهما بمثابة عزوف. ففي تصوره كانت النساء كلهن مُلكاً للأب، وقد لاذ بحمى الرجال بداعي الامتثال والرضوخ، تفادياً للنزاع مع الأب وانسحاباً لصالحه. ومثل هذا التحفيز للاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي كثير التواتر ولا بدّ؛ ففي الأزمنة الأولى للجنس البشري يبدو فعلاً أن النساء قاطبة كنّ ملكاً للأب، القائد الأعلى للعشيرة البدائية. ويلعب هذا الانسحاب عينه لدى الإخوة أو الأخوات غير التوائم دوراً كبيراً أيضاً في ميادين أخرى غير ميدان الاختيار الجنسي. فالأخ الأكبر مولع مثلاً بالموسيقى وبارع فيها، فإذا الأخ الأصغر، المحبوّ بموهبة موسيقية أعظم بكثير، يوقف دراسته الموسيقية على الرغم من رغبته الحارة في متابعتها ويمسي من المستحيل حمله على لمس آلة من الآلات. ذلك مثال منفرد على ظاهرة عظيمة الشيوع. ويكشف لنا الاستقصاء عن الدوافع التي تتأدى بصاحبها إلى الانسحاب من المنافسة، بدل القبول بها، عن شروط نفسية بالغة التعقيد.



بالمثل: لقد خدعْتَني، فعليك الآن أن تتحمل خداعي لك بدوري. لست أستطيع أن أحكم بغير هذا الحكم على أفعال طائشة ومتهورة إلى حدّ يبعث على الدهشة من قبل فتاة تتمتع بالأصل بذكاء مرهف. فقد كان من اللازم أن يعرف الأب بين الحين والآخر شيئاً ما عن لقاءاتها بالسيدة، وإلا لعزّ عليها أن تصل إلى مبتغاها من الانتقام، وهو عندها أكثر المطالب إلحاحاً. لذا كانت تحرص على الظهور العلني برفقة سيدة أفكارها، وتتنزه وإياها في الشوارع المجاورة لمكان عمل أبيها، وهلمّ جرّا. إذاً، لم تكن تلك الفِعال الخرقاء تصدر عنها بغير ما قصد. وإنه لمما يلفت النظر أصلاً أن الوالدين يتصرفان كلاهما تصرف من يدرك السيكولوجيا الخفية لابنتهما. فالأم كانت تبدي حلُماً وتسامحاً، وكأنها تدرك أن انسحاب ابنتها هو بمثابة جميل وحسن صنيع. وبالمقابل، كان الأب يغضب ويحنق وكأنه يحدس بنيّة الانتقام الموجَّهة ضد شخصه.

غير أن ارتكاس الفتاة عرف تعزيزاً أخيراً حينما وجدتُ في شخص «السيدة» موضوعاً يشبع في الوقت نفسه الشطر الجنسي الغيري من الليبيدو عندها. وهو الشطر الذي بقي على تعلقه بالأخ.

(٣)

إن الاقتضاب في العرض ليس مما يصلح كثيراً في وصف السيرورات النفسية، التي هي في الأساس متداخلة متشابكة، والتي تدور بين طبقات نفسية شتى. لذا أجدني مضطراً إلى قطع مناقشة الحالة، لأوسِّع وأعمِّق بعض النقاط من تقريري.

لقد أشرت إلى أن الفتاة كانت تأخذ، في علاقتها بالسيدة التي تعبدها، بالنمط المذكر في الحب. فمذلّتها، ومحبّتها التي لا تشترط مقابلاً، **وترجّيها للقليل وعدم مطالبتها بشيء**[٦]، واغتباطها حينما تسمح لها السيدة بأن ترافقها شطراً من الطريق وبأن تقبّل يدها ساعة فراقها، وفرحها متى ما طرق مسمعها مديح لجمال السيدة، على حين أن اعتراف الآخرين بجمالها هي نفسها ما كان يعني لها شيئاً على الإطلاق، وحجّها إلى الأماكن التي وطئتها قدما معبودتها

٦ ـ بالإيطالية في النص: CHE POCO SPERA E NULLA CHIEDE.



مرة، وخَرَس كلِّ رغبةٍ شهوانية قد تشطّ إلى أبعد مما ينبغي: إن جميع هذه القسمات تتطابق بما فيه الكفاية مع الهوى الأول الملتهب الذي يكنّه مراهق لفنانة مشهورة يعتقد انها أرفع مقاماً منه بما لا يقاس ولا يجرؤ على رفع نظره إليها إلا مرتجفاً. والتوافق مع ما وصفته بأنه «النمط المذكّر في الاختيار الموضوعاني»، وما عزوت خصائصه إلى العلاقة بالأم[٧]، يطال حتى التفاصيل. وقد يبدو مدهشاً أنها لم تذعر على الإطلاق من سوء سمعة معبودتها، على الرغم من أن ملاحظاتها الخاصة قد أقنعتها بما فيه الكفاية بوجود أساس من الصحة لتلك الشائعات. وهذا مع أنها كانت فتاة عاقلة وحسنة التربية، كما يقال، نأت بشخصها عن المغامرات الجنسية وتحكم على الضروب الشهوانية الخسيسة من الإشباع بأنها غير جمالية. غير أن الطفح الأول لعواطفها كان موضوعه نساء ما عُرفن بوجه خاص بتزمُّت الأخلاق. فأول احتجاج قابل به أبوها اختيارها الحبِّي كان سببه ما أبدته من عناد في السعي إلى الارتباط بممثلة سينمائية في مصيف كان أهلها ينتجعونه. وبالمقابل، ما كانت هؤلاء النساء على الإطلاق من أولئك اللواتي اشتهرن بأنهن جنسيات مثليات وما كان لهن بالتالي أن يفتحن لها مجالاً للإشباع من هذه الناحية؛ بل كانت، خلافاً لكل منطق، تلقي بصبابتها على نساء مغناجات بالمعنى العادي للكلمة، وقد صرمت صلتها بلا تردد بصديقة جنسية مثلية من مثل عمرها كانت على استعداد لأن تقع في شراك الإغواء بمنتهى السهولة. غير أن سوء سمعة «السيدة» كان بحقٍّ شرطاً لازماً للحبّ بالنسبة إليها، وكل لغز هذا السلوك ينقشع متى ما تذكرنا أن الشرط الأول لهذا النمط المذكر في الاختيار الموضوعاني المشتقّ من الأم هو أن تكون المعبودة معروفة نوعاً ما بـ «انفلاتها الجنسي» وأن يكون في الإمكان تسميتها، بملء معنى الكلمة، بالعاهرة. وحينما علمت فتاتنا فيما بعد إلى أي حدّ يصدق هذا الوصف على سيدة أفكارها، وأن هذه تعيش فعلاً من بغائها بجسدها، أخذ ردُّ فعلها شكل شفقة جارفة وأخاييل وخطط ترمي، في ما ترمي، إلى «إنقاذ» المعبودة من

---

٧ ـ **انظر مساهمة في علم نفس الحياة الحبية: أ ـ حول نمط خاص من الاختيار الموضوعاني لدى الرجل، الأعمال الكاملة**، م٨، ١٩١٠ (انظر ترجمة هذا المقال أعلاه في **الحياة الجنسية**. «م»).



ذلك الوضع المهين. هذه النوازع الإنقاذية عينها كانت قد استرعت انتباهنا لدى الرجال من النمط الذي وصفت، وقد حاولت في المقال الآنف الذكر أن أقدم التعليل التحليلي لهذه الصبوة.

وبالمقابل، إن تحليل محاولة الانتحار، التي يتعيَّن عليّ أن أرى فيها محاولة جادة حتى وإن تكن أفضت إلى تحسُّن ملحوظ في وضع الفتاة لدى والديها ولدى السيدة المعشوقة على حدٍّ سواء، يتأدى بنا إلى مجالات مغايرة تماماً من التفسير. فذات يوم خرجت للتنزه معها في حيٍّ وفي وقت كان من المحتمل فيهما أن تلتقيا بالأب خارجاً من مكتبه. وبالفعل، صادفهما الأب ورمى ابنته ورفيقتها، التي كان يعرفها من قبل بالنظر، بنظرة متفجرة غضباً. وما هي إلا هنيهة من الزمن حتى كانت رمت بنفسها في منخفض السكة الحديدية المدينية. وكان الدافع الفوري الذي عللت به هذه الفعلة الهوجاء مما يحتمل إجمالاً التصديق. فقد أقرّت للسيدة بأن السيد الذي رماهما بنظرة حانقة هو أبوها الذي لا يريد أن يسمع البتة عن علاقتهما. فثارت ثائرة السيدة عندئذ، وأمرتها بأن تغادرها حالاً، وبألا تعود إلى انتظارها أو توجيه الكلام إليها مرة ثانية، وبأن هذه القصة ينبغي، في حاصل القول، أن تنتهي. ولشدة ما اغتمّت من فكرة فقدان معبودتها إلى الأبد طلبت لنفسها الموت. غير أن التحليل كشف خلف هذا التأويل تأويلاً آخر أقدر على النفاذ إلى لب الأشياء، وكان يمكن أن يجد تأييداً له في أحلام الفتاة. فكما كان لنا أن نتوقع كانت محاولة الانتحار تعني أيضاً شيئين آخرين: تحقيق عقاب (مقاصصة الذات) وتحقيق رغبة. ومن وجهة النظر الأخيرة هذه كانت محاولة الانتحار تعني انتصار الرغبة ـ بعد أن كانت خيبة هذه الرغبة قد دفعت بها إلى أحضان الجنسية المثلية ـ أقصد الرغبة في إنجاب طفل من أبيها. فهي «تسقط»[٨] الآن من جراء غلطة أبيها[٩]. وصلة هذا التأويل العميق بالتأويل

٨ ـ جناس غير قابل للترجمة. ففعل NIEDERKOMMEN يعني بالألمانية «سقط» و«وضع» أو «أنجب» في آن معاً. «م».

٩ ـ إن هذه التأويلات لطرق الانتحار، كتحقيق لرغبات جنسية، معروفة منذ عهد بعيد للمحللين (تسممت المرأة = حبلت، غرقت = أنجبت، سقطت من علٍ = وضعت).



السطحي الذي تقدم إلى وعي الفتاة تكمن في أن السيدة تكلمت في تلك اللحظة كما يتكلم الأب وتلفظت بالتحظير نفسه. أما كعقاب للذات فإن فعلة الفتاة تثبت لنا أنها رعت في لاشعورها رغبات قوية في موت أحد طرفي الشراكة الزوجية الوالدية. ولربما كان ذلك بدافع الانتقام من الأب الذي قوّض حبها، أو ـ وهذا أرجح احتمالاً ـ من الأم منذ أن حبلت بأخيها الصغير. وبالفعل، كان التحليل قد أمدّنا فيما يتعلق بلغز الانتحار بالتفسير التالي، وهو أنه ربما ما كان لأحد أن يجد القدرة النفسية لقتل نفسه لولا أنه يقتل في الوقت ذاته موضوعاً تماهى وإياه، ولولا أنه يقلب ثانياً ضد نفسه رغبة في الموت كان يوجهها نحو شخص آخر. وكشفنا المطَّرد لرغبات الموت اللاشعورية هذه لدى المنتحر ليس من شأنه أصلاً أن يبعث فينا الدهشة أو أن يوهمنا بأنه بمثابة توكيد لاستنتاجاتنا، إذ إن اللاشعور لدى جميع الأحياء يغصّ برغبات الموت تلك، حتى ضد أشخاص محبوبين(١٠). غير أنه في التماهي مع الأم، التي كان ينبغي أن تموت عندما وضعت ذلك الطفل الذي حرمت منه هي (أي فتاتنا)، يغدو هذا التحقيق للعقاب بدوره تحقيقاً لرغبة. ولئن تكن دوافع أخرى شتى وبالغة القوة قد أسهمت أخيراً في حمل فتاتنا على الإقدام على مثل الفعلة التي أقدمت عليها فإن ذلك ليس من شأنه أن يكذِّب توقعنا.

إن الأب لا يضطلع بأي دور في التعليل الذي قدمته الفتاة، بل لا يأتي مرة واحدة ذكر للقلق الذي ابتعثه في نفسها غضبه. أما في التعليل الذي أزاح النقاب عنه التحليل فإليه يرجع الدور الأول. والعلاقة بالأب كان لها الأهمية المحدِّدة نفسها في مسار العلاج، أو الاستقصاء التحليلي بالأحرى، وفي النتيجة التي تمخض عنها. فخلف واجهة الشفقة البنوية (قالت إنها حباً بوالديها أرادت أن تمدّ يد العون لمسعاهما إلى إحداث تبدل لديها) كان يختبئ موقف تحدٍ وانتقام من الأب، وهو ما أبقاها أسيرة الجنسية المثلية. وقد أتاحت المقاومة، المعضَّدة بهذه التغطية، مجالاً واسعاً للتنقيب التحليلي. فقد دار التحليل بلا أدنى علامة تقريباً من علائم المقاومة: فقد أبدت المحلِّلة تعاوناً كبيراً من وجهة النظر العقلية،

١٠ ـ انظر **تأملات راهنة حول الحرب والموت**، ١٩١٥ (**الأعمال الكاملة**، م١٠).



والتزمت في الوقت نفسه بهدوء انفعالي تام. وفيما كنت ذات يوم أشرح لها نقطة من النظرية على جانب كبير من الأهمية وتتصل بها مباشرة، ردّت للحال بلهجة لا يمكن تقليدها «آه، إن ذلك لمثير حقاً!» ـ مثلها مثل سيدة من الطبقة الراقية يُطاف بها في متحف وتتأمل من خلال نظارتها ذات المقبض أشياء لا تعني لها شيئاً على الإطلاق. وكان تحليلها يوحي بأنه أشبه بمعالجة تنويمية، تتراجع فيها المقاومة بالطريقة نفسها نحو حدّ معين متى ما تخطته بات من رابع المستحيلات التغلب عليها. ذلك هو التكتيك ـ الروسي كما يمكننا أن نسمّيه[11] ـ الذي تتّبعه في غالب من الأحيان المقاومة في حالات العصاب الوسواسي التي تقدِّم، لهذا السبب بالذات، أوضح النتائج وأجلاها لفترة أولى من الزمن، وتتيح إمكانية تكوين فكرة معمَّقة عن سببية الأعراض.

وفي بادئ الأمر لا يملك المرء إلا أن يتساءل بدهشة لماذا لا يترافق مثل هذا التقدم الكبير في الفهم التحليلي بأدنى تغيُّر في وساوس المريض وفي ضروب الكفّ عنده. بيد أنه لا يعتم أن يلاحظ في خاتمة المطاف أن كل ما أنجزه التحليل قد استقى مادته من احتياطيّ الشك الذي خلف سوره الحامي كان يمكن للعصاب أن يشعر أنه في أمان. يقول المريض في دخيلة نفسه وبطريقة شعورية في كثير من الأحيان: «لا أروع من ذلك لو كان في مقدوري أن أمحض هذا الرجل ثقتي. ولكن لا مجال لذلك، وما دامت الأمور على ما هي عليه فلن يكون عليّ أن أغيِّر أي شيء على الإطلاق». فإن اقتربنا من اهتداء إلى تعليل أسباب هذا الشك، بدأت عندئذ المعركة ضد المقاومة بصورة جدية.

لدى فتاتنا لم يكن الشك، وإنما العامل العاطفي المتمثل بالرغبة في الانتقام من الأب هو ما أتاح لها أن تبدي ما أبدته من تحفظ بارد وهو ما قسم التحليل بوضوح إلى مرحلتين، وأتاح لنتائج المرحلة الأولى أن تكون على ذلك القدر الكبير من الكمال ومن الصفاء والشفافية. وقد بدا أيضاً أنه لم يحدث لدى الفتاة

---

١١ ـ التكتيك الروسي: تكتيك حربي جرت عادة الروس على اتباعه في حال تعرض بلادهم لغزو طارئ ساحق. إذ تُخلى أمام العدو مساحات شاسعة من الأرض لتتبدّد قواه ولتتمّ المحافظة في الوقت نفسه على العتاد الحربي في مناطق محصّنة ينطلق بدءاً منها الهجوم المضاد. «م».



شيء يداني من قريب أو بعيد التحويل باتجاه شخص الطبيب. غير أن هذا الافتراض كان بالبداهة لاغياً، أو فلنقل إن التعبير عنه لم يكن صحيحاً؛ فثمة علاقة ما تنعقد مع الطبيب بالضرورة، وتكون في معظم الحالات محوَّلة عن علاقة طفلية. والواقع أن الفتاة حولّت نحوي ما كان يهيمن عليها، منذ أن خيَّب أبوها أملها، من رفض جذري للرجل. فالضغينة على الرجل تجد على وجه العموم إشباعها في سهولة من خلال شخص الطبيب: فهي لا تحتاج إلى أن تثير عواصف من التظاهرات العاطفية، بل تفصح عن نفسها بمنتهى البساطة في واقع أن المريضة تحبط جهود الطبيب كلها وتستمر برسوخ في حالتها المَرَضية. وأنا أعرف بالتجربة كم يعسر علينا أن نُفهِم من نتولى تحليلهم هذا التمخض الصامت للأعراض وأن نجعل مثل هذا العداء الكامن والمفرط في القوة في كثير من الأحيان شعورياً بالنسبة إليهم بدون أن نعرِّض العلاج للخطر. وعليه، فقد بادرت أضع حداً للتحليل حالما عرفت بموقف الفتاة من أبيها، ونصحتها بأن تتابع المحاولة التحليلية، إذا كانت تقرّ بقيمتها، لدى طبيبة امرأة. وكانت الفتاة في غضون ذلك قد وعدت أباها بأن تضع على الأقل حداً لعلاقتها بـ «السيدة»، ولست أدري إن كانت نصيحتي، التي كان تعليلها بطبيعة الحال شفافاً، قد جرى الأخذ بها.

لمرة واحدة ووحيدة على كل حال حدث في هذا التحليل شيء كان يمكنني أن أفهمه على أنه تحويل إيجابي[١٢]، كنسخة جديدة موهنة للغاية عن الحبّ المشبوب الذي كانت الفتاة تكنُّه في الأصل لأبيها. وحتى هذه الظاهرة لم تكن تخلو من دافع إضافي آخر، ولكني أخصّها بالذكر لأنها تثير، ضمن سياق آخر، مشكلة مهمة تتصل بتقنية التحليل النفسي. ففي طور معَّين، وبعد وقت وجيز من بدء العلاج، كاشفتني الفتاة بطائفة من الأحلام التي تسهل ترجمتها بدون مجازفة بالوقوع في الخطأ، على الرغم من أنها كانت محرَّفة بالمعنى الكامل للكلمة، ومحرّرة باللغة الحلمية المضبوطة. غير أن مضمونها المؤوَّل كان مدهشاً. فقد كانت تبشِّر بشفاء الارتكاس عن طريق

١٢ ـ التحويل الإيجابي: إسقاط المريض قيد التحليل لمشاعره الحبِّية على الطبيب المعالِج؛ وبعكسه التحويل السلبي، أي إسقاطه لمشاعره العدائية. «م».



المعالجة، وتعبِّر عن فرحة الفتاة بما سينفتح أمام حياتها من آفاق، وتجهر بالرغبة الملفَّحة بالحنين والتوق في أن يحبها رجل وتنجب منه أطفالاً، وكان من الممكن بالتالي أن تلقى منا الترحاب باعتبارها تمهيداً مشجعاً للتحول المنشود. وكان التناقض سافراً مع مظاهر حالة اليقظة عندها في الفترة نفسها. فهي ما كانت تكتمني إطلاقاً أنها تفكر فعلاً بالزواج، ولكن لسبب واحد يتيم، وهو الخلاص من طغيان أبيها لتحيا من ثم حياتها وفق أهوائها وميولها الفعلية بغير ما قيد أو عائق. أما الزوج فقد ارتأت، وإن بلهجة لا تخلو من ازدراء، أنها ستتدبر أمرها معه في أقرب وقت ممكن وستتوصل في خاتمة المطاف، على منوال السيدة المعبودة، إلى أن تقيم علاقات جنسية مع رجل ومع امرأة في آن واحد. وأوضحتُ لها ذات يوم، وقد نبَّهني إلى الأمر شعور طارئ ساورني ولا أملك له تحديداً، أنني لا أثق في أحلامها، وأنها أحلام كاذبة أو مرائية، وأن في نيتها هي أن تخدعني كما درجت على خداع أبيها. وكنت على صواب، إذ بدءاً من يوم هذا الإيضاح غاب ذلك النوع من الأحلام، لكنني أعتقد مع ذلك أن هذه الأحلام كانت تنطوي، إلى جانب النية المعقودة على إيرادي موارد الخطأ، على قدر من الغواية؛ وكانت أيضاً بمثابة محاولة لإثارة اهتمامي ولاستمالة رأيي، ربما لتخيِّب ظنّي فيما بعد على نحو أشدّ وأعمق.

أعتقد أنني، إذ أنوِّه بوجود أحلامٍ مسايرةٍ كاذبةٍ كهذه، سأثير لدى أكثر من واحد من أولئك الذين يتسمُّون باسم المحلِّلين النفسيين عاصفة حقيقية من الاستنكار والبلبلة. «إذاً، فلاشعورنا يمكن له هو الآخر أن يكذب، لاشعورنا الذي هو النواة الفعلية لحياتنا النفسية، لاشعورنا الذي هو أدنى بكثير من شعورنا البائس إلى أن يكون إلهياً! فكيف يمكن لنا بعد هذا أن نتّكل على تأويل التحليل وعلى يقين معرفتنا؟». ينبغي أن نجيب عن ذلك بالقول إن اعترافنا بوجود أحلام خدَّاعة كتلك ليس ضرباً من التجديد الذي يقلب الأمور رأساً على عقب. إنني أعلن، بكل تأكيد، أن حاجة الإنسان إلى الروحانيات ثابتة يتعذر اقتلاعها، وأنه يبذل محاولات، يكررها بلا كلل، ليعيد إلى عالم الروحانيات المضمار الذي سلخه عنه «**تأويل الحلم**»[١٣]، غير أن الأمر

١٣ ـ الإحالة هنا إلى كتاب فرويد «**تأويل الحلم**» الذي اشتهر في الثقافة العربية الحديثة بعنوان **تفسير الأحلام** بالجمع مع أنه في الأصل الألماني بالمفرد. «م».



على جانب كافٍ من البساطة في الحالة التي تشغلنا هنا. فالحلم ليس هو «اللاشعور»، وإنما هو الشكل الذي يمكن فيه لفكرة رسوبية قادمة من القبشعور أو حتى من الشعور في حياة اليقظة أن يعاد صهرها من جديد بفضل حالة النوم. ففي حالة النوم تتلقى هذه الفكرة رفداً من حاثات رغبية لاشعورية، وتتعرض بهذه المناسبة للتحريف الذي يقوم به «عمل الحلم»، هذا العمل الذي تحكمه بدوره الآليات التي تفعل فعلها في اللاشعور. وأرجح الظن أن الرغبة لدى حالمتنا في تضليلي، على غرار ما كانت تفعله بأبيها، كانت تنبع من القبشعور، هذا إن افترضنا أنها لم تكن شعورية تماماً؛ والحال أنه كان في ميسور هذه الفكرة أن تفرض نفسها من خلال ارتباطها بالحاثة الرغبية اللاشعورية: «نيل إعجاب الأب (أو بديل الأب)»، وبذلك ابتدعت حلماً كاذباً. والقصدان كلاهما، خداع الأب والفوز بإعجاب الأب، يصدران عن عقدة واحدة؛ فالأول نبع من كبت الثاني، والثاني ردّه عمل الحلم إلى الأول. لا داعي إذاً للكلام عن الانتقاص من قدر اللاشعور، ولا مجال لزعزعة الثقة في نتائج تحليلنا.

لن أدع الفرصة تمرّ بدون أن أردِّد القول مرة أخرى كم يدهشني أن يقتدر الناس على قطع أشواط بمثل هذه الأهمية وبمثل هذه الدلالة من حياتهم الحبية بدون أن ينتبهوا إلى شيء يذكر منها، بل أحياناً بدون أن يشتبهوا في الأمر ولو مجرد اشتباه، أو إذا ما بلغ الأمر إلى شعورهم أخطؤوا مثل ذلك الخطأ الفادح في الحكم الذي يصدرونه عليه. وهذا لا يحدث فقط في شروط العصاب حيث الظاهرة مألوفة لدينا: إذ يبدو أن ذلك معهود تماماً خارج نطاق هذه الشروط. وفي الحالة التي نحن بصددها طفق قلب فتاة يخفق حباً للنساء، وهو أمر وجد فيه الأهل في البداية ما يدعو إلى الأسف، ولكنهم ما حملوه على محمل من الجدّ؛ ومع أن الفتاة نفسها تعلم كم يستحوذ الأمر على مشاعرها ويملك عليها فكرها، فإنها لم تساورها مع ذلك مشاعر انغرام جارف إلى أن اصطدمت يوماً بصدودٍ أثار لديها ردّ فعلٍ مفرط الشدة أظهر لجميع الأطراف المعنية أن المسألة مسألة هوى ضارٍ ذي قوة جائحة. كذلك لم تنتبه الفتاة إلى شيء من المقدمات المطلوبة لانفجار مثل تلك العاصفة النفسية. وفي حالات أخرى نرانا في مواجهة فتيات أو نساء يعانين من أشكال خطيرة من الاكتئاب،



فإن سألناهن عن الأصل المحتمل لحالتهن كان الجواب الذي يطلعن به علينا: أجل، لقد استشعرن قدراً من الاهتمام حيال شخص بعينه، غير أن هذا الاهتمام لم ينفذ إلى أعماقهن، وسرعان ما ظهرن عليه بعد اضطرارهن إلى العزوف عنه. ومع ذلك، إن هذا العزوف الذي تحمَّلنه في ظاهر الأمر بمنتهى اليسر والسهولة كان هو علة ذلك الاضطراب الخطير. أو قد نواجه أيضاً رجالاً لا يكادون يضعون حداً للعلاقات الغرامية السطحية، التي كانت تجمع بينهم وبين امرأة بعينها، حتى تقسرهم العواقب التي تترتب على هذه القطيعة على أن يلمسوا لمس اليقين أنهم كانوا مشدودين بأواصر هوى مشبوب إلى الموضوع الذي كان في زعمهم مخفوض القيمة. وقد ندهش كذلك للنتائج اللامتوقعة التي يمكن أن تنجم عن إجهاض مصطنع (بغية قتل ثمرة حب) كان قرار المرأة المعنية قد قرّ عليه بغير ما أسف ولا تبكيت. هكذا نرانا مضطرين إلى أن نحكم بالصواب للشعراء الذين يطيب لهم أن يصوِّروا لنا أشخاصاً يحبّون بدون معرفتهم، أو لا يعرفون أنهم يحبّون، أو يعتقدون أنهم يكرهون في حين أنهم في الواقع يحبّون. ويظهر أن المعلومات التي يحصل عليها شعورنا بصدد حياتنا الحبِّية قابلة في سهولة لأن تكون ناقصة أو مليئة بالفجوات أو خاطئة. وبديهي أنني لم أغفل في هذه التفاسير عن أن آخذ في الحسبان الحصة التي تعود إلى نسيان طرأ في زمن لاحق.

(٤)

أعود الآن إلى نقاش الحالة الذي كنت قطعته. فلقد كوَّنا فكرة إجمالية عن القوى التي انتقلت بليبيدو الفتاة من الموقف الأوديبي السويّ إلى الجنسية المثلية، وعن الطرق النفسية التي سُلكت في هذا الانتقال. وكان في طليعة هذه القوى المحركة خبرة عاشتها الفتاة لدى مولد أخيها الصغير، مما يحدو بنا إلى تصنيف الحالة في عداد حالات الارتكاس المكتسب آجلاً.

لكن هنا تنبَّهنا إلى وضع كنا قد واجهناه من قبل في العديد من أمثلة الاستكناه التحليلي النفسي لسيرورة من السيرورات النفسية. فما دمنا نتتبع تطور السيرورة بدءاً من نتيجتها النهائية رجوعاً إلى منشئها، فإن ما يتكون تحت أنظارنا



عبارة عن ترابط لا ثغرات فيه، ومن ثم يتراءى لنا أن الفكرة التي كوّناها عنه باعثة على الرضى التام، بل شاملة جامعة. لكن لو سلكنا الطريق المعكوس، فانطلقنا من المقدمات التي كشف عنها التحليل، وحاولنا أن نتتبع هذه المقدمات وصولاً إلى نتائجها، فعندئذ يبارحنا تماماً الشعور بوجود ذلك التسلسل اللازم الذي كان تهيأ لنا ألا سبيل إلى تحديده بطريقة أخرى. وسرعان ما نلاحظ أنه كان من الممكن أيضاً أن ينجم عن تلك المقدمات شيء آخر، وأنه كان سيتأتى لنا أن نفهم هذه النتيجة الأخرى وأن نفسّرها بدورها. التركيب إذاً لا يبعث على الرضى بقدر التحليل؛ وبعبارة أخرى، إننا لسنا في وضع يؤهّلنا لأن نتكهّن، انطلاقاً من معرفة المقدمات، بطبيعة النتيجة.

من السهولة بمكان أن نردّ هذه الملاحظة الباعثة على البلبلة إلى أساسها. فعلى فرض أننا نعرف معرفة تامة العوامل الإتيولوجية التي تتضافر في عملها لتعطي نتيجة بعينها، فإننا لن نعرفها حتى في هذه الحال إلا تبعاً لخصوصيتها النوعية، لا تبعاً لقواها النسبية. فبعض هذه العوامل أضعف مما ينبغي، ومن ثم فإنها ستُكبح من قبل عوامل أخرى، ولن يكون لها من حساب في المحصلة النهائية. لكننا لن نعرف مقدماً أبداً أي من هذه العوامل المحدّدة سيكون هو الأضعف أم هو الأقوى. وإنما في النهاية فقط سنقول عن تلك العوامل التي فرضت نفسها بأنها كانت هي الأقوى. وعلى هذا النحو، إن الأسباب التي تحكّمت باتجاه التحليل يمكن أن تُعرف في كل مرة معرفة يقينية، بينما يستحيل التنبؤ بدورها في اتجاه التركيب.

نحن لا نقصد إذاً أن نقول إن كل فتاة تمنى بمثل تلك الخيبة في صبوتها الحبِّية الناجمة عن الموقف الأوديبي لسنوات البلوغ ستسقط لا محالة في شراك الجنسية المثلية. فكثيرة هي، على العكس من ذلك، الضروب الأخرى من الاستجابات لهذه الرضة. ولكن لا مناص من أن تكون عوامل خاصة قد جعلت كفة الميزان ترجح لدى فتاتنا، وهي عوامل لا صلة لها بالرضة ومن طبيعة داخلية في أغلب الظن. وليس ثمة من صعوبة على الإطلاق في بيان ما كنه هذه العوامل.



معلوم أنه لا بدّ من مرور بعض الوقت، حتى لدى الفرد السويّ، كيما يتمكن القرار المتعلق بجنس الموضوع الحبِّي من فرض نفسه بصورة نهائية. فالافتتانات الجنسية المثلية والصداقات المفرطة في متانة أواصرها والمصبوغة بشيء من الشهوية ظاهرات مألوفة لدى كلا الجنسين في السنوات الأولى التالية للبلوغ. وكذلك كانت الحال مع فتاتنا، غير أن هذه النوازع تبدت لديها بلا مراء أعظم قوة ودامت زمناً أطول مما لدى غيرها. وبالإضافة إلى ذلك، إن بواكير الجنسية المثلية اللاحقة تلك شغلت على الدوام حياتها الشعورية بينما بقي الموقف النابع من عقدة أوديب لاشعورياً ولم يشفّ عن نفسه إلا من خلال بعض القرائن، ومنها مثلاً تلك الكيفية التي دلَّلت بها الصبي الصغير. وعلى مقاعد المدرسة تولَّهت، كبديل أموي سافر، بحبٍّ معلمةٍ لا تُقرب لشدة صرامتها. وقد أبدت عن اهتمام بالغ الحدة بعدد من الأمهات الصبايا قبل زمن طويل من مولد أخيها، وقبل ذلك بزمن أطول من تأنيب أبيها لها لأول مرة على نحو ما تقدّم وصفه. هكذا كان الليبيدو عندها يجري من البدء في مجريين، كان يمكن وصف أكثرهما سطحية بلا تردّد بأنه جنسي مثلي. وكان في أغلب الظن استمراراً مباشراً، لا تحوير فيه، لتثبيت طفلي على الأم. ومن المحتمل أننا، بتحليلنا، لم نكشف شيئاً آخر سوى تلك السيرورة التي اهتبلت فرصة مؤاتية لتدفع بالتيار الليبيدوي الجنسي الغيري الأكثر عمقاً إلى مجرى التيار الجنسي المثِلي الظاهر.

أفادنا التحليل، فضلاً عن ذلك، أن الفتاة حملت معها من سني طفولتها «عقدة ذكورة» شديدة البروز. كانت متقدة الحيوية، محبة للكفاح، عاقدة العزم على ألا تكون هي المهزومة في مواجهتها مع أخيها الذي يكبرها سناً بقليل. ومنذ أن وقع نظرها على الأعضاء التناسلية لهذا الأخير نما لديها حسد قضيبي شديد ملأت عليها مشتقاته نفسها وفكرها. كانت بكل معنى الكلمة نصيرة للمرأة، وكانت ترى أن من الظلم والغبن ألا تنعم الفتيات بما للصبيان من حرية في الاستمتاع، وكانت بصفة عامة تثور على المصير المقيَّض للمرأة. وفي زمن التحليل كان الحمل والإنجاب من جملة التمثلات المستكرهة بالنسبة إليها، وربما أيضاً، على ما أخمِّن، بسبب التشويه الذي يلحق بالجسم من جرائهما. وإلى هذا

الخط الدفاعي انسحبت نرجسيتها كفتاة[١٤]، هذه النرجسية التي ما عادت تفصح عن نفسها في الاعتزاز بكونها جميلة. وثمة قرائن شتى تحملنا على الافتراض بأنها كانت تميل ميلاً شديداً فيما غبر إلى التلصصية والاستعرائية. وإذا لم نشأ أن نسقط من حسابنا الدور الذي يعود إلى الاكتساب في تسبيب المرض، فسنلفت النظر إلى أن سلوك الفتاة كما تقدم بنا وصفه كان بالفعل كما ينبغي أن يكون، أي سلوكاً متحدداً بالتأثير المتضافر لازدراء الأم وللمقارنة التي تقيمها البنت الصغيرة بين أعضائها وأعضاء أخيها التناسلية، في إطار تثبيت قويّ على الأم. لكن حتى في هذه الحال يبقى ثمة إمكان لإرجاع ما قد يطيب لنا أن نتصوره على أنه خصوصية جِبِلِّية إلى الأثر الذي خلَّفه في زمن مبكر تأثير خارجي قوي. وحتى هذا الاكتساب ذاته ـ إن يكن قد جرى فعلاً ـ يتعيَّن أن يعزى شطر منه إلى الجِبِلَّة الفطرية. هكذا يتداخل ويتراكب في المشاهدة العملية ما قد نميل في مضمار النظرية إلى تفكيكه إلى زوج من الأضداد: الفطري والمكتسب.

لئن يكن استنتاجٌ أول للتحليل قد قادنا في النهاية إلى الحكم بأن الحالة حالة جنسية مثلية مكتسبة آجلاً، فإن الفحص الجديد الذي نقوم به الآن للمعطيات يدفع بنا بالأحرى نحو استنتاج مؤداه أن ثمة جنسية مثلية فطرية لم تتثبت ولم تفصح عن نفسها بلا لبس، كما هو مألوف، إلا في زمن ما قبل البلوغ. وكل من هذين التصنيفين يتطابق مع قسم فقط من الوقائع التي قررتها الملاحظة ويهمل باقي الوقائع. وأحسن موقف نقفه في هذه الحال هو ألا نولي سوى اعتبار قليل

١٤ ـ انظر اعتراف كريمهيلدا في **أنشودة النيبلونجن**(*).

(*) **أنشودة النيبولجن**: ملحمة ألمانية من القرن الثالث عشر، ولها أيضاً مصادر إسكندنافية وإسلندية، وتشير إلى وقائع وشخصيات تاريخية لعبت دوراً في أثناء هجرات الشعوب الجرمانية. وهي تروي مآثر سيغفريد، الأمير القيّم على كنوز الأقزام المعروفين باسم النيبلونجن وزوج كريمهيلدا أخت الملك (التي تزوجته بعد تمنّع). وقد كان مقتله غيلة سبباً في مجزرة كبيرة قادتها كريمهيلدا نفسها بحقّ القتلة وقبائلهم على ضفاف نهر الدانوب. أما اعتراف كريمهيلدا كما يشير إليه فرويد فهو ما قالته لأمها عندما عرضت عليها أن تتزوج من سيغفريد: «لمَ تحدثينني عن زوج، أيتها الأم الحبيبة؟ إنني لا أريد البتة أن أقع في حب بطل. إنني جميلة، وكذلك أريد أن أبقى إلى نهاية أيامي». «م».



لهذه الكيفية في طرح المشكلة.

لقد درجت أدبيات الجنسية المثلية على عدم الفصل بقدر كافٍ من الوضوح بين مسألة الاختيار الموضوعاني من جهة أولى وبين الخصائص الجنسية والموقع الجنسي من الجهة الأخرى، كما لو أن القرار بصدد إحدى النقطتين يرتبط لزوماً بالأخرى. وهذا مع أن التجربة تثبت العكس: فالرجل الذي تظهر عليه على نحو غالب الخصائص المذكرة وينتمي أيضاً إلى النمط المذكر في الحياة الحبية، يمكن مع ذلك أن يكون مرتكساً من ناحية الموضوع، فلا يحبّ سوى الرجال بدل النساء. ثم إن الرجل الذي تغلُب عليه في طباعه السمات المؤنثة غلبة باهرة، وقد لا يحجم عن التصرف في الحب كامرأة، يُفترض فيه من حيث المبدأ أن يحفزه هذا الموقف المؤنث على الاشرئباب إلى الموضوع الحبِّي المذكر؛ لكن من الممكن رغماً عن كل شيء أن يكون جنسياً غيرياً وألا يبدو عليه من علائم الارتكاس من ناحية الموضوع أكثر مما يمكن أن يبدو على فرد سويّ كل السواء. والشيء نفسه يصدق على النساء: فعندهن أيضاً لا تجمع علاقة تطابق ثابتة بين الخصائص الجنسية النفسية والاختيار الموضوعاني. سرّ الجنسية المثلية ليس إذاً بمثل تلك البساطة التي قد يطيب لنا أن نصوِّره بها برسم الاستعمال الشعبي: نفس مؤنثة، مقدَّر عليها بالتالي أن تهفو إلى حبّ الرجال، شاء لها سوء الحظ أن تسقط في جسم مذكر؛ أو نفس مذكرة، منجذبة عل نحو لا يقاوم نحو النساء، ولكنها نفيت مع الأسف إلى جسم امرأة. بل تواجهنا بالأحرى ثلاث سلاسل من الخصائص:

الخصائص الجنسية البدنية	الخصائص الجنسية النفسية
(خنوثة جسمانية)	(موقف مذكر/مؤنث)

نمط الاختيار الموضوعاني

وهذه السلاسل الثلاث تتنوع وتتباين إلى حدّ ما بمعزل عن بعضها بعضاً؛ وهي قابلة، لدى مختلف الأفراد، لمبادلات شتى فيما بينها. وقد حال الأدب دون فهم شيء منها عندما دفع إلى مكانة الصدارة، عن تغرض ولدوافع عملية، السلوك الذي يأتي ثالثاً في الترتيب والذي يستوقف وحده انتباه غير



الاختصاصيين، أعني به الاختيار الموضوعاني، مع مغالاته في الوقت نفسه في ثبات العلاقة بين هذه النقطة الثالثة وبين النقطة الأولى. وقد سدَّ على نفسه أيضاً كل منفذ إلى فهم أعمق لكل ما يُسمّى في جميع الحالات بلا تمييز بالجنسية المثلية، ضارباً عرض الحائط بواقعتين أساسيتين كشف عنهما البحث التحليلي النفسي. أولاهما أن الرجال الجنسيين المثليين عاشوا علاقة بالغة القوة بأمهاتهم؛ وثانيتهما أن جميع الأفراد الأسوياء يظهرون، إلى جانب جنسيتهم الغيرية السافرة، نسبة لا يستهان بها إطلاقاً من الجنسية المثلية الكامنة أو اللاشعورية. فإذا أخذنا في اعتبارنا هذين الكشفين انهارت بكل تأكيد الفرضية التي تزعم أن الطبيعة خلقت في لحظة من لحظات نزوتها «جنساً ثالثاً».

إن التحليل النفسي ليس مدعواً إلى حلّ مشكلة الجنسية المثلية. وإنما عليه أن يقنع بالكشف عن الآليات النفسية التي أفضت إلى إبرام القرار بخصوص الاختيار الموضوعاني، وبتتبع الطرق التي تقود من هذه الآليات إلى الاستعدادات الغريزية المسبقة. وهو عند هذه النقطة يتوقف، ويدع الباقي للبحث البيولوجي: والحال أن النتائج المهمة التي تمخضت عنها في الوقت الحاضر أبحاث شتايناخ STEINACH[١٥] تسلِّط الضوء على الكيفية التي تتأثر بها ثانية سلاسلنا وثالثتها بأولاها[١٦]. ويقف التحليل النفسي مع علم الأحياء على أرض واحدة من حيث أنه ينطلق من فرضية وجود جنسية ثنائية أصلية لدى الفرد الإنساني (والحيواني). أما كنه ما يسمى، بالمعنى الاصطلاحي أو بالمعنى البيولوجي،

---

١٥ ـ يوجين شتايناخ: طبيب نمساوي مختص بعلم وظائف الأعضاء (١٨٦١ ـ ١٩٤٤). تولى إدارة المعهد البيولوجي لأكاديمية العلوم بفيينا وأجرى تجارب لزرع خصيتي قارض يعرف باسم خنزير غينيا في جسم قارضة أنثى. وقد أدى هذا الزرع إلى ظهور سلوك مذكَّر لديها. وقد استنتج شتايناخ من ذلك أن إفرازات الغدد هي التي تتحكم بالحياة الجنسية للإنسان كما للحيوان. وقد اشتهر أيضاً بعملية جراحية تعرف باسم عملية شتايناخ وتستهدف، عن طريق ربط العروق، تقليص حالة التعب والشيخوخة وتقوية الطاقة الجنسية. وقد كان فرويد نفسه خضع لعملية مماثلة بهدف التغلب على السرطان الذي كان يعاني منه. «م».

١٦ـ انظر أ. ليبشوتز(*): **الغدة البلوغية وآثارها**. بيرن، منشورات إ. برشيه، ١٩١٩.

(*) ألكسندر ليبشوتز: طبيب ليتواني (١٨٨٣ ـ ١٩٨٠). أجرى بحوثاً في مستشفيات جامعات زوريخ وبون وبيرن وفيينا، ودرّس في أستونيا والتشيلي. ألّف أكثر من عشرين كتاباً في البحوث العلمية، ولا سيما في مجال الغدد الصمّ. «م».



بـ«المذكر» و«المؤنث»، فلا يملك التحليل أن يجلو سره؛ بل هو يتبنى المفهومين كليهما ويتخذهما أساساً لأبحاثه. فإن حاولنا إرجاعهما إلى مبادئ أكثر ابتدائية تبخرت الذكورة إلى محض إيجابية، والأنوثة إلى محض سلبية، وهذا غنم لا يذكر. أما إلى أي حدّ يمكن القبول أو إلى أي حدّ يمكن للتجربة أن تؤيد فكرة قدرة التحليل النفسي، بالقسط الذي يقع على عاتقه من مهمة التفسير والتوضيح، على الإسهام في تغيير الارتكاس الجنسي، فهذا ما حاولت بيانه في الصفحات التي سبقت. وبديهي أن مدى هذه المساهمة، بالمقارنة مع النتائج المذهلة التي توصل إليها شتايناخ عن طريق عمليات جراحية في بعض الحالات الفردية، ليس مما يمكن أن يكون له وقع عظيم. على أنه من السابق لأوانه أو من الشطط المحفوف بالمخاطر أن نعقد الآمال من الآن على طريقة في علاج الارتكاس قابلة للتطبيق في جميع الحالات بلا استثناء. فحالات الجنسية المثلية المذكرة التي أحرز فيها شتايناخ نجاحاً يتوفر فيها شرط محدد لا يتوفر دواماً، وهو انطواؤها هلى «خنوثة» بدنية جلية سافرة. أما اتباع الطريقة نفسها في معالجة الجنسية المثلية المونثة فلا نستطيع أن نتصوَّر بوضوح ما يمكن أن يتمخَّض عنه. فهل سيكون المطلوب في هذه الحال استئصال المبيضين المشتبه بأنهما خنثيان وزرع مبيضين آخرين يُفترض أنهما أحاديا الجنس؟ إن طريقة علاجية كهذه لن يكون لها مجالات واسعة للتطبيق العملي. فالفرد من الجنسِ المؤنث، الذي تعتمل في نفسه مشاعر ذكرية والذي يحبّ كما يحب الرجالّ، لن يقبل في سهولة أن يُرغم على تبنِّي الدور المؤنث إن كان الثمن الذي يتوجَّب عليه أن يدفعه لقاء هذا التحوُّل ـ وما هو بمجزٍ من النواحي جميعاً ـ هو العزوف عن الأمومة.



(١٣)

حول بعض الآليات العصابية
في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية
(١٩٢٢)

(أ)

تنتمي الغيرة إلى تلك الحالات العاطفية التي يسعنا وصفها بأنها سوية، مثلها مثل الحداد. فإن بدا وكأننا نفتقدها في طبع رجل وفي سلوكه جاز لنا أن نستنتج أنها ناءت تحت وقر كبت شديد وأنها تلعب لهذا السبب دوراً أكبر في الحياة النفسية اللاشعورية. وحالات الغيرة التي يواجهها التحليل والتي تكون مشتطة إلى حدٍّ غير طبيعي تتوزع إلى ثلاث طبقات. وطبقات الغيرة أو مراحلها الثلاث تستأهل أن تُوصف بأنها غيرة: ١ ـ **تنافسية** أو سوية؛ ٢ ـ **إسقاطية**؛ ٣ ـ **هذائية**.

ليس لدينا شيء ذو بال نقوله بصدد الغيرة السوية من وجهة النظر التحليلية. فمن السهل أن نتبيَّن أنها تتألف جوهرياً من الحداد، ومن الألم، بخصوص الموضوع الحبي الذي يعتقد المرء أنه أضاعه، ومن الإذلال النرجسي، وهذا بقدر ما يمكن فصل العنصر الأخير عن سواه من العناصر. وتنطوي هذه الغيرة أيضاً على مشاعر عدائية موجهة ضد الغريم الذي اختُصَّ بالإيثار، وعلى قدر يقلّ أو يكثر من النقد الذاتي الذي يبغي تحميل أنا الشخص المعني مسؤولية خسارة الحب. ولئن وصفنا هذه الغيرة بأنها سوية فهذا لا يعني البتة أنها عقلانية تامة، أي ناجمة عن علاقات راهنة، ومتناسبة مع الظروف الفعلية، ومسيطر عليها بلا تحفظ من قبل الأنا الشعوري؛ بل هي تضرب جذورها عميقاً في اللاشعور، وتكون على تواصل مع النوازع المبكرة للعاطفية الطفلية، وتتحدر من عقدة



أوديب أو من العقدة الأخوية للمرحلة الجنسية الأولى. ومهما يكن من أمر فإنه لما يلفت النظر أن كثيرين من الأشخاص يعيشون الغيرة التنافسية السوية وفق نمط جنسي ثنائي. فلدى الرجل، وعلاوةً على الألم الذي تتسبب فيه المرأة المحبوبة وعلى الكراهية التي تُكنّ للغريم المذكّر، يلعب دوراً تعزيزياً أيضاً الحدادُ على الرجل المحبوب لاشعورياً والكراهيةُ المصبوبة على المرأة من حيث أنها غريمة في حبّه. بل إني أعرف رجلاً يعاني معاناة قاسية من نوبات غيرته، ويتحمل على حدّ ما يدّعي عذاباً لا يطاق من خلال اضطلاعه الشعوري بدور المرأة الخائنة. أما ما كان يساوره عندئذ من شعور بالهجران والتعاسة، والصور التي يتصورها عن حالته (إنه ملقى به مثل بروميثيوس[1] فريسة لعُقاب من كواسر الطير ينهشه، أو مرمى به مقيَّداً في جحر للثعابين)، فكان يعزوها هو نفسه إلى الأثر الذي تركته في نفسه عدة محاولات للاعتداء الجنسي المثلي تعرَّض لها يوم كان لا يزال فتى غضَّ العود.

تنبع غيرة الفئة الثانية، أي الغيرة **الإسقاطية**، لدى الرجل كما لدى المرأة، من الخيانة التي يرتكبها الشخص المعني نفسه في الحياة أو مما وقع تحت نير الكبت من الحفزات إلى الخيانة. وإنها لواقعة من وقائع الخبرة اليومية أن الوفاء، ولا سيما ذاك المطلوب في الزواج، لا سبيل إلى التقيُّد به إلا في مواجهة التجارب والإغراءات المستديمة. وحتى من ينكر هذه التجارب والإغراءات في داخل نفسه يشعر مع ذلك بضغطها الشديد عليه فلا يحجم عن اللجوء إلى آلية لاشعورية بعينها للتفريج عن نفسه. فهو يبلغ إلى مثل هذا الانفراج، بله إلى تبرئة ذمته تجاه ضميره، بإسقاطه حفزاته الذاتية إلى الخيانة على الطرف الآخر الذي يدين له بواجب الوفاء. ويمكن عندئذ لهذا الدافع القوي أن يستخدم المعطيات الإدراكية التي تكشف عن وجود حفزات لاشعورية مماثلة لدى الطرف الآخر، كما يمكن

١ - بروميثيوس: في الميتولوجيا اليونانية تنين خلق بني البشر من بقايا الطين المتحجر وسرق المعرفة الإلهية وأخفاها في جذع شجرة ثم قدَّمها للبشر. وقد عاقبه زفس، كبير الآلهة، على جريرته بافتراس كبده من قبل الغربان السود. ولذلك قُيِّد على صخرة في جبال القفقاس ليأكل النسر كبده وليعاود أكله كلما تجدد. وعلى هذا النحو يكون بروميثيوس قد لعب في الميتولوجيا اليونانية دور آكل الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة في ميتولوجيا الديانات التوحيدية. «م».



أن يجد مبرراً له عن طريق التفكير بأن الشريك أو الشريكة ليس بوجه الاحتمال أفضل منه هو نفسه[٢].

وقد أخذت الأعراف الاجتماعية هذه الواقعة بعين الاعتبار الحكيم بسماحها للمرأة المتزوجة بممارسة شيء من رغبتها في نيل إعجاب الرجال وللزوج بممارسة شيء من رغبته في غزو قلوب النساء، بأمل تصريف الدافع الجارف إلى الخيانة وبتجريده على هذا النحو من قدرته على الأذى. فقد تواضعت هذه الأعراف على أن الشريكين غير ملزمين بمحاسبة واحدهما الآخر حساباً عسيراً على هذه الضروب الطفيفة من الزيغان باتجاه عدم الوفاء، وهي تضمن في معظم الأحيان أن يكون مآل التوق، الذي التهب من خلال التماس مع الموضوع الأجنبي، إلى انطفاء من خلال إشباعه عن طريق العودة إلى الوفاء والتواصل مع الموضوع الأصلي. بيد أن الشخص الغيور لا يريد أن يعترف بهذا التسامح المتواضع عليه، ولا يؤمن بأن هناك توقفاً أو رجوعاً متى ما سُلك الطريق مرة، أو بأن «المغازلة» المتواضع عليها اجتماعياً يمكن أن تكون ضمانة ضد خيانة فعلية. وفي معالجتنا لغيور كهذا ينبغي أن نتحاشى مناقشته بصدد المعطيات التي يرتكز إليها، وكل ما يسعنا أن نأمل فيه أن نحمله على تقييم هذه المعطيات تقييماً مختلفاً.

لا ريب في أن الغيرة التي تستمدّ أصلها من إسقاط كهذا تتسم بطابع شبه هذائي، غير أنها لا تصمد أمام المجهود التحليلي الذي يميط اللثام عن أخاييل الخيانة اللاشعورية لدى الغيور نفسه. وتتفاقم الأمور مع الغيرة التي من الطبقة الثالثة والتي هي **هذائية** بحق معنى الكلمة. فهذه الغيرة تنبع هي الأخرى من ميول ونوازع إلى الخيانة جرى كبتها، غير أن مواضيع هذه الأخاييل هي من نفس جنس صاحبها. فالغيرة الهذائية تناظر جنسية مثلية قيد الاختمار، وفي مقدورها أن تطالب شرعياً بمكانها بين الأشكال التقليدية للبارانويا. وبوصفها

٢ ـ قارن مع البيتين اللذين تتغنى بهما ديمونة:

سمَّيت حبّاً كاذباً حبي، فماذا قال؟

لئن غازلتُ نساءً غيركِ، فستضاجعين رجالاً غيري

(**عطيل**، الفصل ٤، المشهد٣، البيتان ٥٣ ـ ٥٤).



محاولة دفاعية ضد حاثة جنسية مثلية بالغة القوة قد يجوز لنا أن نترجمها (لدى الرجل) إلى الصيغة التالية:

لست أنا الذي يحبها، وإنما **هي** التي تحبه[٣].

وفي حالة من حالات هذاء الغيرة يتعيَّن علينا أن نتوقع أن نجد الغيرة تنبع من الطبقات الثلاث، ثلاثتها جميعاً، وليس في حال من الأحوال من الطبقة الثالثة وحدها.

(ب)

البارانويا ـ لأسباب معروفة تفلت حالات البارانويا في معظم الأحيان من التنقيب التحليلي. غير أنه تسنى لي في الآونة الأخيرة أن أستخلص من الدراسة المعمقة لحالتين من حالات البارنويا شيئاً كان جديداً بالنسبة إليّ. كانت الحالة الأولى تخصّ فتى يعاني من بارانويا الغيرة المكتملة التكوين، وكان موضوعها زوجته التي لا غبار إطلاقاً على إخلاصها. وكان قد خرج لتوه من فترة هائجة استحوذ في أثنائها الهذاء عليه بلا توقف. وحينما رأيته كانت النوبات قد صارت لا تأتيه إلا متباعدة، لتدوم عدة أيام؛ والشيء الملفت للنظر أنها كانت تظهر بانتظام غداة كل مجامعة جنسية، وكان الطرفان بالأصل يجدان في هذه المجامعة متعة كاملة. ومن حقنا أن نستنتج أنه، في كل مرة كان يتمّ فيها إشباع الليبيدو الجنسي الغيري، كان المقوّم الجنسي المثلي المستثار هو الآخر يتوصّل إلى الإفصاح عن نفسه من خلال نوبة الغيرة.

كانت هذه النوبة تستمدّ مادتها من ملاحظة أبسط الدلائل التي تفضح في نظر المريض ـ حيثما ما كان لأحد غيره أن يلحظ شيئاً ـ غنج زوجته اللاشعوري

---

٣ ـ انظر بيان هذه الفكرة في مقالي عن حالة شريبر(*): **ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا (الخبل الهذائي)**.

(*) دانييل بول شريبر: رئيس سابق لمحكمة الاستئناف في الساكس. ومن هنا لقبه بـ «الرئيس شريبر». نشر سنة ١٩٠٣ سيرة ذاتية بعنوان **مذكرات مريض بالأعصاب**. وقد حلل فرويد هذه المذكرات في مقال طويل له سنة ١٩١١ بعنوان: **ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا (الرئيس شريبر)**. «م».



تماماً. فتارة تكون يدها قد لامست سهواً الرجل الذي كان يقف على مقربة منها، وطوراً تكون قد مالت برأسها أكثر مما ينبغي نحوه ورمقته بابتسامة فيها من الودّ أكثر مما كانت ستبديه فيما لو كانت مع زوجها على انفراد. وبحصر المعنى كان شذوذه يقتصر على كونه يراقب لاشعور امرأته ويوليه أهمية أكبر بكثير مما كان سيخطر في بال أي رجل آخر.

لنتذكر أن المصابين بالبارنويا الاضطهادية يسلكون هم أيضاً سلوكاً مشابهاً. فهم أيضاً لا يرون لدى الآخرين شيئاً عديم المعنى والأهمية، بل يخلعون في «هذائهم العلائقي» قيمة كبيرة على أبسط الدلائل التي يطالعهم بها الآخرون، الغرباء. ومعنى هذائهم العلائقي هو على وجه التحديد كونهم ينتظرون من الغرباء قاطبة شيئاً قريب الصلة بالحبّ؛ غير أن الآخرين لا يظهرون لهم شيئاً من هذا القبيل، بل يمرون بهم ضاحكين وهم يهزّون عصاهم. وقد لا يتورعون حتى عن البصاق أرضاً في لحظة مرورهم بهم، وهو بالفعل أمر لا يأتيه المرء إن كان يضمر أي قدر من الاهتمام والودّ للشخص الذي يسير بمحاذاته. وهو لا يأتيه إلا إذا كان هذا الشخص لا يعني له شيئاً على الإطلاق، وإلا إذا كان في مقدوره أن يعامله وكأنه لا أحد. ونظراً إلى صلة القربى الوثيقة بين مفهوم «الغريب» ومفهوم «العدو»، فإن المصاب بالبارانويا لا يكون على خطأ فادح من أمره حينما يستشعر أن لامبالاة كتلك هي، إزاء ما يتطلبه من الحب، بمثابة عداوة.

إنه ليخامرنا الآن شعور بأن وصفنا لسلوك الغيور، وكذلك لسلوك المريض المعاني من البارانويا الاضطهادية، غير كافٍ بالمرة حينما نقول إنهما كليهما يسقطان على الغير ما لا يريدان أن يدركاه في دخيلة نفسيهما.

هذا بالتأكيد ما يفعلانه، ولكنهما لا يُسْقِطان ما يسقِطانه في الهواء، إن جاز القول، ولا حيثما لا وجود لشيء يضاهي من قريب أو بعيد ما يسقطانه، بل إنهما على العكس من ذلك يسلسان قيادهما لمعرفتهما باللاشعور ويحوِّلان إلى لاشعور الغير الانتباه الذي يصرفانه عن لاشعورهما الشخصي. فصاحبنا الغيور يتحقق من خيانة زوجته بدلاً من أن يتحقق من خيانته هو ذاته؛ وهو إذ يعمد إلى تكبير خيانة زوجته وتضخيمها لتتبوأ مكانها في شعوره، يفلح في الإبقاء على



خيانته هو ذاته أسيرة اللاشعور. فإن اعتبرنا أن هذا المثال هو القاعدة، كان لنا أن نستنتج أن العداوة التي يلقاها المضطهَد لدى الآخر هي بدورها انعكاس لمشاعره العدائية الخاصة إزاء هذا الآخر. والحال أننا نعلم أن الشخص المحبوب من الجنس نفسه هو الذي يغدو مضطهِداً لدى المريض بالبارانويا؛ ومن ثم لن يكون أمامنا مفرّ من أن نتساءل عن مصدر هذا القلب الوجداني. والجواب الذي يحضر حالاً إلى الذهن هو أن الازدواجية العاطفية الماثلة دوماً هي أساس الكره الذي يعضده عدم تحقيق مطلب الحب. هكذا تسدي ازدواجية العاطفة للمضطهَد الخدمة نفسها التي تسديها الغيرة لمريضنا، إذ تتيح كلتاهما لكليهما حاجزاً دفاعياً ضد الجنسية المثلية.

كانت أحلام مريضي تعدّ لي مفاجاة كبرى. صحيح أنها لم تظهر في آن واحد مع تفجر النوبة، ولكنها إذ جرت في الفترة التي كانت لا تزال واقعة تحت سيطرة الهذاء كانت خلواً من أي هذاء، وكانت تشفّ عن الحاثات الجنسية المثلية المستترة خلف تنكر أقوى مما في المعتاد. وبما أن خبرتي كانت ضئيلة بأحلام البارانوئيين فقد كنت على استعداد للتسليم كمبدأ عام بأن البارانويا لا تدلف إلى الحلم.

كان من السهل تكوين نظرة إجمالية عن حالة الجنسية المثلية لدى هذا المريض. فهو لم يعقد آصرة صداقة ولم تشغله اهتمامات اجتماعية؛ وما كان بوسعي أن أدفع عن نفسي الشعور بأن الأمر عنده كما لو أن الهذاء أخذ على عاتقه التطوير اللاحق لعلاقاته بالرجل، وكأنما ليستدرك جانباً مما فات سابقاً. وكان انعدام شأن الأب في أسرته ورضة جنسية مثلية مُذلِّة تعرّض لها في حداثته قد تضافرا على سوق جنسيته المثلية إلى الكبت وعلى سدّ طريق الإسماء عليها. وقد أزجى حداثته كلها في ظل تعلُّق قوي بالأم. وكان بين العديد من الأبناء مدلَّلَ أمِّه، فنمت لديه تجاهها غيرة جارفة من النمط السوي. وحينما قام فيما بعد باختيار زوجة له تحت سيطرة دافع أساسي: توفير أسباب الغنى لأمه، أفصحت حاجته إلى أم عذرية عن نفسها بشكوك وسواسية حول عذرية خطيبته. وتصرمت السنوات الأولى من الزواج خالية من الغيرة. ثم خان

زوجته وعقد صلة دائمة مع امرأة أخرى. وما إن حدا به ذعر متولد عن شك معيَّن إلى وضع حدّ لهذه العلاقة الغرامية، حتى تفجرت لديه غيرة من النمط الثاني، أي غيرة إسقاطية، مما أتاح له أن يخمد صوت التبكيات بخصوص خيانته هو ذاته. وسرعان ما تعقدت هذه الغيرة من جراء انضمام حاثات جنسية مثلية إليها، كان حموه هو موضوعها. وآلت في نهاية المطاف إلى بارانويا غيرة تامة كاملة.

أرجح الظن أن حالتي الثانية ما كان لها، لولا التحليل، أن تُصنَّف في عداد البارانويا الاضطهادية، ولكن كان لزاماً عليّ على كل حال أن أعدّ الفتى مرشحاً لهذا المآل المرَضي. فقد كان ينطوي في دخيلة نفسه على ازدواجية وجدانية ذات مدى خارق للمألوف في علاقته بأبيه. كان من جهة أولى متمرداً بأقصى قدر من العلانية وعلى أكمل نحو على رغبات أبيه ومُثُله العليا؛ وكان على الدوام من الجهة الثانية، وعلى مستوى أعمق، أكثر الأبناء خضوعاً، إلى حدّ أنه حرم نفسه غبّ وفاة الأب من متعة المرأة تحت وطأة شعور حنون بالذنب. وكانت علاقاته الفعلية بالرجال تنعقد في ظاهر الأمر تحت عنوان الريبة وعدم الثقة؛ وبفضل ما أوتيه من ذكاء ثاقب كان يعرف كيف يعقلن هذا الموقف وكيف يتفنن في تدبير الأشياء بحيث يتاح لمعارفه أن يخدعوه ولأصدقائه أن يستغلوه. والجديد الذي أفدته منه أن أفكار الاضطهاد التقليدية يمكن أن تظهر إلى حيِّز الوجود حتى بدون أن يوليها المرء قيمة أو يعيرها تصديقاً. فقد كانت تمرّ عرضاً كلمح البرق في تحليله، لكن بدون أن يعلِّق عليها أية أهمية، بل كان على العكس يتخذ منها بصورة مطردة موضوعاً للهزء والسخرية. وقد يتكرر هذا الموقف في حالات كثيرة أخرى من البارانويا. وحين تظهر إصابة كهذه فقد نعدّ الأفكار الهذائية المعبَّر عنها منتجاتٍ جديدة مع أنه من الممكن في الواقع أن يكون قد انقضى زمن طويل على وجودها.

تتبدى لي هنا فكرة على جانب من الأهمية وهي أن عاملاً كيفياً محدداً، وأعني به وجود بعض التشكيلات العصابية، يكون أقل أهمية من الناحية العملية من العامل الكمي، وأعني به درجة الاهتمام، أو بتعبير أدق مقدار التوظيف الذي



يمكن لهذه التشكيلات أن تجتذبه إليها. ولقد كانت مناقشة حالتنا الأولى، حالة بارانويا الغيرة، قد حضّتنا بالمثل على إبراز أهمية العامل الكمي، إذ أظهرت لنا أن الشذوذ يكمن جوهرياً في توظيف مغالى فيه لتأويلات اللاشعور لدى الغير. وقد أخذنا علماً منذ زمن بعيد بواقعة مماثلة عن طريق تحليل الهستيريا. فالتخييلات الإمراضية، المتفرعة من الحاثات الغريزية المكبوتة، يفسح لها على مدى زمن طويل مكان إلى جانب الحياة النفسية السوية ولا يكون لها من مفعول إمراضي إلا أن تحظى بتوظيف مضاعف مردّه إلى انقلاب في اتجاه الاقتصاد الليبيدوي؛ فعندئذ فقط يتفجر الصراع الذي يتأدى إلى تشكيل العرض. هكذا نرى أن تقدم معرفتنا يحدو بنا دوماً أكثر فأكثر إلى تقديم وجهة النظر **الاقتصادية** وتبويئها مكانة الصدارة. وبودّي أيضاً أن أطرح مسألة معرفة ما إذا لم يكن العامل الكمّي الذي أشدّد عليه هنا كافياً لتغطية الظاهرات التني أراد بلولر[٤] وباحثون آخرون منذ بعض الوقت أن يوجدوا لها مفهوم «الدارة Circuit». والواقع أنه حسبنا أن نفترض أن زيادة في المقاومة في اتجاه بعينه للمجرى النفسي تكون نتيجتها توظيفاً مضاعفاً لطريق آخر، ومن ثم وصْلَ هذا الطريق بدارة المجرى النفسي.

لقد كشفت حالتا البارانويا اللتان درستُهما عن تضاد غني بالفائدة بالنسبة إلى العلم في مسلك الأحلام في كل منهما. فعلى حين أن الأحلام كانت في الحالة الأولى، كما ذكرنا، خلواً من الهذاء، أنتج المريض الثاني عدداً كبيراً من أحلام الاضطهاد التي يمكن لنا أن نعدّها طلائع او تشكيلات بديلة عن الأفكار الهذائية ذات المضمون المماثل. فالكائن المضطهِد، الذي لا يتأتى له أن يفلت من بين براثنه إلا بعد أن تمتلئ نفسه بحَصَر وخوف عظيمين، هو في العادة ثور ضخم قوي أو رمز آخر من رموز الذكورة تعرَّف فيه أحياناً، حتى في الحلم بالذات، ممثلاً أبوياً. وقد قصّ عليّ يوماً حلماً بليغ الدلالة من حيث التحويل البارانوئي. فقد رأى في منامه أنني أحلق ذقني في حضوره ولاحظ من الرائحة أنني أستعمل الصابون نفسه الذي يستعمله أبوه. وقد فعلت ذلك لأرغمه على

٤ ـ الإحالة هنا إلى مقال يوجين بلولر: **البدني والنفسي في علم أسباب نشوء الأمراض**، المنشور في مجلة **علم الأعصاب والطب النفسي**، ١٩١٦. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



التحويل الأبوي باتجاه شخصي. وكان اختيار موقف الحلم يشفّ بكل جلاء عن استخفاف المريض بتخييلاته البارانوئية وعن عدم تصديقه لها، إذ كان في مستطاعه في كل يوم أن يتحقق **بالمشاهدة العيانية**[٥] أنه لايتفق لي أبداً أن أستعمل صابوناً للحلاقة[٦] وأنني لا أقدم بالتالي من هذه الزاوية أي مرتكز للتحويل الأبوي.

غير أن المقارنة بين أحلام مريضينا أفادتنا بأن السؤال الذي كنا نطرحه على أنفسنا: هل يمكن للبارانويا (أو أي عصاب نفسي آخر) أن تدلف إلى الحلم؟ لا يستند إلا إلى أساس تصور مغلوط للحلم. فالحلم يتميَّز عن الفكر في حالة اليقظة بكونه يستطيع أن يستقبل مضامين (من مضمار المكبوت) ليس مباحاً لها أن تظهر في الفكر في حالة اليقظة. وباستثناء ذلك، يبقى الحلم مجرد **شكل من الفكر**، تبديل لمادة الفكر القبشعورية أو مسخ لها من قبل عمل الحلم وشروطه. ومصطلحنا عن الأعصبة غير قابل للانطباق على المكبوت الذي لا يمكن أن يُنعت بأنه هستيري، ولا بأنه وسواسي، ولا بأنه بارانوئي. وبالمقابل، إن الجزء الآخر من المادة التي تفيد كأساس لتكوين الحلم ـ أي الأفكار القبشعورية ـ يمكن أن يكون سوياً أو أن يحمل في ذاته طابع أي عصاب كان. ومن الممكن أن تكون الأفكار القبشعورية محصلة لجميع تلك السيرورات الإمراضية التي نتعرف فيها جوهر عصاب من الأعصبة. ولسنا ندري ما الذي يمكن أن يحول بين أية فكرة من هذه الأفكار المرضية وبين استحالتها إلى حلم. من الممكن إذاً للحلم أن يناظر هو نفسه تخييلاً هستيرياً، أو تصوراً وسواسياً، أو فكرة هذائية، أي أن يفصح عن جميع هذه العناصر لدى تأويله. وفي دراستنا للمريضين البارانوئيين وجدنا أن حلم أحدهما سويّ بينما الرجل في أوج النوبة، وأن حلم الآخر ذو مضمون بارانوئي بينما الرجل لا يزال يسخر من أفكاره الهذائية. لقد استقبل الحلم إذاً في الحالتين كلتيهما ما كان في تلك اللحظة منبوذاً في حالة اليقظة. على أن هذه ليست هي القاعدة بالضرورة.

---

٥ ـ باللاتينية في النص: DE VISU. «م».

٦ ـ معلوم أن فرويد كان يرسل لحيته. «م».



(ج)

الجنسية المثلية ـ إن اعترافنا بالعامل العضوي للجنسية المثلية لا يعفينا من واجب دراسة السيرورات النفسية التي تتحكم بنشوئها. والسيرورة النمطية، التي باتت بحكم المقررة الآن نتيجة لملاحظة حالات عديدة، تتمثل في أن الفتى الذي كان إلى ذلك الحين مثَّبتاً بقوة على أمِّه يطفق بعد بضع سنوات من اكتمال البلوغ بالتحول، فيتماهى هو نفسه مع الأم ويفتش عن مواضيع حبية يستطيع أن يلتقي فيها ذاته وأن يحبها مثلما كانت الأم أحبَّته. ومن العلامات الفارقة لهذه السيرورة اقترانها، على مدى سنوات في العادة، بالشرط التالي للحبّ: فمن الواجب أن تكون سنّ المواضيع المذكَّرة مطابقة لسنِّ الشخص المعني حينما حدث لديه التحوّل. وقد أخذنا علماً بعوامل شتى تسهم بوجه الاحتمال بقسط متفاوت في تكوين هذه المحصلة، وفي مقدمتها التثبيت على الأم الذي يقيم العراقيل أمام التثبيت على موضوع مؤنث آخر. والتماهي مع الأم هو مآل ممكن لهذا الارتباط بالموضوع ومن شأنه أن يفسح مجالاً بمعنى من المعاني أمام الشخص المعني ليبقى على وفائه في الوقت نفسه لذلك الموضوع الأول. وهناك بعد ذلك الميل إلى الاختيار الموضوعاني النرجسي، الذي هو بوجه العموم أيسر تحقيقاً وأسهل منفذاً بالنسبة إلينا من التحول إلى الجنس الآخر. ويختبئ خلف هذا العامل عامل آخر ذو قوة كبيرة، هذا إن لم يتطابق مع الأول: التقييم العالي لعضو الذكورة والعجز عن التخلي عن وجوده لدى الموضوع الحبِّي. وينبع ازدراء المرأة، والصدود عنها، بل القرف الذي توحي به، إجمالاً من الاكتشاف المبكر لكون المرأة لا تمتلك قضيباً. وقد أخذنا علماً أيضاً في وقت لاحق بوجود دافع قوي آخر للاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي وهو الاحترام أو الحصر الذي يوحي به الأب، إذ إن دلالة العزوف عن المرأة هي تفادي الدخول في مزاحمة مع الأب (أو مع جميع الأشخاص الذكور الذين يقومون مقامه). والدافعان الأخيران، التمسك بشرط القضيب وكذلك الانسحاب من المزاحمة، يمكن أن يعزيا إلى عقدة الخصاء. الارتباط بالأم ـ النرجسية ـ حصر الخصاء: تلك هي العوامل التي اكتشفناها حتى الآن ـ وما هي بنوعية على الإطلاق ـ في الإتيولوجيا النفسية



للجنسية المثلية؛ ومن الواجب أن نربط بها أيضاً تأثير الغواية، المسؤول عن تثبيت مبكر لليبيدو، وكذلك تأثير العامل العضوي الذي ييسّر الأخذ بالدور السلبي في الحياة الحبّية.

غير أنه لم يداخلنا قط الاعتقاد بأن هذا التحليل لمنشأ الجنسية المثلية تحليل كامل. وبوسعي اليوم الإشارة إلى آلية جديدة تفضي إلى الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي، على الرغم من أنه لا يسعني أن أقيّم أهمية دورها في تكوين الجنسية المثلية المشتطّة، السافرة والقاصرة على ذاتها. فقد لفتت الملاحظة انتباهي إلى عدة حالات ظهرت فيها منذ الطفولة الأولى حاثات ونوازع بالغة القوة، نابعة من العقدة الأموية، إلى الوقوف موقف الغيرة تجاه غرماء منافسين، وفي معظم الأحيان من الإخوة الأكبر سناً. فهذه الغيرة تتأدى إلى مواقف مسرفة في العداوة والعدوانية ضد الإخوة والأخوات، وقد تشطّ هذه المواقف إلى حدّ الرغبة في تمني الموت لهم، ولكنها لا تستمرّ من بعد النمو. إذ لا تلبث هذه الحاثات تحت تأثير التربية، وبلا ريب أيضاً من جراء عجزها المستديم، أن تقع تحت الكبت، وعندئذ يحدث تحوُّل في العواطف، فإذا بأولئك الغرماء السابقين يصيرون مذّاك فصاعداً هم المواضيع الحبِّية الجنسية المثلية الأولى. ومثل هذا المآل للارتباط بالأم ينطوي على علاقات، مثيرة للاهتمام، بسيرورات أخرى معروفة لنا من قبل. فهو في المقام الأول النقيض المطلق للبارانويا الاضطهادية التي ينقلب فيها الأشخاص الذين كانوا محبوبين في البدء إلى مضطهِدين مكروهين، بينما يتحول هنا الغرماء المكروهون إلى مواضيع حبِّية. ويأخذ هذا المآل أيضاً شكل مبالغة وتضخيم للسيرورة التي تفضي، من وجهة نظري، إلى النشوء الفردي للدوافع الغريزية الاجتماعية[٧]. ففي هذه الحالة كما في تلك توجد بادئ ذي بدء حاثات غيرة وعداوة لا يمكن أن تتمخض عن إشباع، وعندئذ ترى النور عواطف التماهي، التي هي من طبيعة ودية واجتماعية في آن معاً، بوصفها تشكيلات ارتجاعية ضد الحفزات العدوانية المكبوتة.

٧ ـ انظر: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**، ١٩٢١.



هذه الآلية الجديدة للاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي، وأعني بها تكوُّن الجنسية المثلية بدءاً من تنافس أمكن التغلب عليه ومن ميل إلى العدوانية جرى كبته، تختلط في العديد من الحالات بالشروط النمطية المعروفة من قبلنا. ولا يندر أن نعلم من تاريخ حياة الجنسيين المثليين أن تحولهم حدث على إثر مديح كالته الأم لصبي آخر وجعلت منه قدوة تحتذى. فعن هذا السبيل تولّد الميل إلى الاختيار الموضوعاني النرجسي، وبعد مرحلة وجيزة من الغيرة الحادّة صار الغريم موضوعاً للحب. غير أن الآلية الجديدة تفترق عن غيرها من الآليات بكون التبدل يحدث فيها في طور من الحياة أبكر بكثير وبكون التماهي مع الأم يفقد قدراً كبيراً من أهميته. ومن ثم، إنها لا تؤدي في الحالات التي تسنى لي أن أدرسها إلا إلى مواقف جنسية مثلية لا تتنافى والجنسية الغيرية ولا تستتبع أي **اشمئزاز من المرأة**[8].

إن لمن الوقائع المعروفة على نطاق واسع أن عدداً من الأشخاص الجنسيين المثليين يتميَّزون بنموّ خاص للحاثات الغريزية الاجتماعية عندهم، وبإخلاصهم وتفانيهم في خدمة الصالح العام. وإننا لنميل إلى تقديم التفسير التالي لهذه الواقعة: فالرجل الذي يرى في رجال آخرين مواضيع ممكنة للحب لا مندوحة له من أن يسلك إزاء معشر الرجال مسلكاً مغايراً لذاك الذي يسلكه رجل آخر مرغم على أن يرى قبل كل شيء في الرجل غريمه لدى المرأة. والاعتراض الوحيد الذي يمكن الردّ به على هذا التفسير هو التوكيد بأن الحب الجنسي المثلي لا يجهل هو الآخر الغيرة والتنافس، وبأن معشر الرجال يشتمل هو كذلك على أولئك الغرماء المحتملين. لكن حتى لو ضربنا صفحاً عن تلك الحجة النظرية الخالصة فليس لنا أن نتجاهل، ما دمنا بصدد الكلام عن الترابط بين الجنسية المثلية والعاطفة الاجتماعية، واقع أن الاختيار الموضوعاني المثلي غالباً ما ينجم عن تجاوز مبكر للتنافس مع الرجل.

لقد درجنا، من وجهة النظر التحليلية النفسية، على تصور العواطف الاجتماعية على أنها إسماءات لمواقف موضوعانية جنسية مثلية. وعليه، إن

٨ ـ باللاتينية في النص HORROR FEMINAE.



التفرقة بين العواطف الاجتماعية وبين الاختيار الموضوعاني لدى الجنسيين المثليين المحبوِّين بالحسّ الاجتماعي لن يكتب لها نصيب وفير من النجاح.


مكتبة
الفكر الجديد

(١٤)

العصاب والذهان

(١٩٢٤)

في بحث نشرته مؤخراً، **الأنا والهذا**، اقترحت تقسيماً للجهاز النفسي يمكن بدءاً منه أن نتصور سلسلة من العلاقات على نحو بسيط ومتكامل. بيد أن عدداً من النقاط الأخرى، وعلى سبيل المثال ما يتصل منها بدور الأنا الأعلى وأصله، لا يزال يلفّها قدر غير قليل من الإبهام، والحكم فيها مرجأ، ومن حقنا في مثل هذه الحال أن نتطلب من مخطط كذاك أن يكون صالحاً للاستعمال ومناسباً بالنسبة إلى موضوعات أخرى، ولو لغير ما غرض سوى الكشف، وفق تصور مختلف، عن مظاهر أخرى لما نعرفه سابقاً، وتصنيفه تصنيفاً مغايراً، ووصفه وصفاً أكثر إقناعاً. ومن الممكن لهذا الضرب من التفسير أن يتيح، علاوة على ذلك، فرصة للرجوع من النظرية الشائخة إلى التجربة الدائمة الاخضرار(١).

في النص المشار إليه وصف لولاءات الأنا المتعددة، ولموقعه الوسيط بين العالم الخارجي والهذا، ولتلهفه إلى إطاعة أوامر جميع هؤلاء السادة في آن معاً. وإنما في سياق جملة من التأملات التي كان الحافز إليها اهتمامات أخرى، والتي كان موضوعها أصل الأذهنة والوقاية منها، خطرت لي صيغة بسيطة تتصل بما قد يكون أهم فارق نوعي في نشوء كل من العصاب والذهان، ومؤداها: إن

١ ـ إحالة ضمنية هنا إلى ما يقوله مفيستو للتلميذ في مسرحية **فاوست** لغوته:

رمادية هي، يا صديقي، كل نظرية

وخضراء هي شجرة الحياة الذهبية

هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



العصاب هو نتيجة لنزاع بين الأنا والهذا، بينما الذهان هو المآل المماثل لمثل هذا الخلل في العلاقات بين الأنا والعالم الخارجي.

من المؤكد أنه من المبّرر لنا أن نذكِّر بأن حلولاً بمثل هذه البساطة ينبغي أن تُستقبل بحذر وريبة. ومن ثم، إن رجاءنا الأوحد أن تثبت صحة تلك الصيغة **بصورة إجمالية للغاية**. وهذا سيكون بحدّ ذاته كسباً لا يستهان به. وهنا ترد إلى ذهننا حالاً طائفة بكاملها من الأفكار والكشوف التي تؤيد فيما يبدو أطروحتنا. فالأعصبة التحويلية تنشأ، بحسب محصلة تحاليلنا كافة، من كون الأنا يرفض استقبال حاثة غريزية قوية في الهذا، أو يمتنع عن بذل المساعدة لتصفيتها حركياً، أو أنه ينكر عليها الموضوع الذي تصبو إلى أن تتخذه هدفاً لها. وعلى الأثر يحتمي الأنا منها بواسطة آلية الكبت؛ بيد أن المكبوت يتمرد على هذا المصير. وينتدب عنه، في مجال لا سلطان فيه للأنا بتاتاً، تمثلاً بديلاً يفرض نفسه على الأنا عن طريق التسوية والحلّ التوفيقي، أعني به العرَض؛ ويشعر الأنا عندئذ بوحدته وقد تهددها وأنزل بها هذا الدخيلُ الأذى، فيتابع المعركة ضد العرض، بالكيفية ذاتها التي كان احتمى بها من الحاثة الغريزية الأصلية، فتكون نتيجة هذا كله تبلور معالم العصاب. ولا شيء يمنعنا من الافتراض بأن الأنا، حينما يلجأ إلى الكبت، يطيع في الحقيقة أوامر أناه الأعلى التي تنبع بالمثل من تأثيرات العالم الخارجي الواقعي والتي تكون قد وجدت في الأنا الأعلى وسيلة لتمثيلها. ومهما يكن من أمر فإن الأنا ينحاز إلى صفّ هذه القوى، وتكون متطلباتها في دخيلته أقوى من مطالب الهذا الغريزية، كما أن الأنا هو القوة التي تجنِّد وتعزِّز الكبت ضد مشاركة الهذا، عن طريق توظيف المقاومة ضد ذلك الشطر من الهذا. ويدخل الأنا، بعد أن يكون وضع نفسه في خدمة الأنا الأعلى والواقع، في صراع مع الهذا؛ وعلى هذا المنوال تسير الأمور في الأعصبة التحويلية كافة.

أما فيما يتصل بالأذهنة فسيكون يسيراً علينا بالمثل، بدءاً مما نعرفه حتى الآن عن آلياتها، أن نسوق أمثلة ترمي إلى أن تُثبِت أن العلاقة بين الأنا والعالم الخارجي هي التي تضطرب في هذه الحالة. ففي الأمانسيا كما كشف عنها مينرت



MEYNERT[٢]، أي الخلط الهلوسي الحادّ الذي ربما كان أكثر أشكال الذهان تطرفاً وألفتها للانتباه، يغيب العالم الخارجي تماماً عن الإدراك أو يبقى إدراكه عديم الفاعلية بالمرة. وبالفعل، يمارس العالم الخارجي في الحالات السوية سيطرته على الأنا بطريقتين: أولاً عن طريق الإدراكات الراهنة، القابلة على الدوام لأن تتجدد، وثانياً عن طريق مخزون الذكريات الإدراكية السابقة التي تؤلف، باعتبارها «عالماً داخلياً»، مُلكاً يحوزه الأنا ومقوِّماً من مقوِّماته. والحال أنه لا يتعذر في الأمانسيا استقبال إدراكات جديدة فحسب، لكن العالم الداخلي نفسه، الذي كان بصفته نسخة مطابقة عن العالم الخارجي يمثِّل إلى ذلك الحين هذا الأخير، يجد نفسه وقد سحبت منه دلالته (توظيفه)؛ فيخلق الأنا لنفسه بصورة عسفية عالماً جديداً، خارجياً وداخلياً في آن معاً. وثمة واقعتان لا يرقى إليهما شك: فهذا العالم الجديد يشاد وفق الحاثات الرغبية للهذا، والدافع إلى هذه القطيعة مع العالم الخارجي هو أن الواقع امتنع عن تلبية تلك الرغبات وأخذ تأبِّيه هذا شكلاً خطيراً، فتبدى وكأنه لا يُحتمل ولا يطاق. ولا يجوز لنا أن نغفل عن القرابة الداخلية التي تربط هذا الذهان بالحلم السويّ. بيد أن شرط الحلم هو حالة النوم، ومن خصائصها الإشاحة التامة عن الإدراك وعن العالم الخارجي.

أما الأشكال الأخرى من الذهان، أي ضروب السكيزوفرينيا[٣]، فمعلوم أنها تنزع إلى أن تتأدى إلى البلادة العاطفية، أي إلى فقدان كل تعاطٍ مع العالم الخارجي. وأما فيما يتصل بتكوين التشكيلات الهذائية، فقد أفادتنا بعض التحاليل أن الهذاء يُستخدم فيها كقطعة تُلصق لصقاً حيثما يكون قد حدث في الأصل صدع في علاقة الأنا بالعالم الخارجي. ولئن يكن مآل الصراع مع العالم الخارجي لا يتبدى لنا بعد بوضوح أكبر مما نعرف عنه الآن، فذلك لأن تظاهرات

٢ ـ ثيودور مينرت: طبيب نفسي ألماني (١٨٣٣ ـ ١٨٩٢). تمحورت دراساته حول التشريح العصبي للدماغ. نشر عام ١٨٦٧ تصنيفاً للاضطرابات العقلية أثار انقساماً في صفوف زملائه. وأدخل في مجال الأمراض العقلية مفهوم الأمانسيا، أي الذهان الهلوسي الخلطي. وقد تدرب فرويد في أول أمره على يده في جامعة فيينا. والإحالة في النص إلى كتابه: **دروس سريرية في الطب النفسي على أسس علمية برسم الطلبة والأطباء والحقوقيين وعلماء النفس**. «م».

٣ ـ أو الفصام. «م».



السيرورة المسبِّبة للمرض، في اللوحة السريرية للإصابة الذهانية، تكون في كثير من الأحيان محتجبة خلف مظاهر محاولة الشفاء أو الترميم.

إن الإتيولوجيا المشتركة لتفجُّر عصاب نفسي أو ذهان تبقى على الدوام الحرمان، أي عدم تحقيق رغبة من تلك الرغبات الطفلية الجامحة دوماً، الشَموس أبداً، المتأثلة جذورها على عمق بالغ في تنظيمنا المتعيِّن سلالياً. هذا الحرمان هو على الدوام، في التحليل الأخير، حرمان خارجي، بشرط أن نضرب صفحاً عن الحالات التي يمكن أن يصدر فيها عن الهيئة الداخلية (في الأنا الأعلى) التي تكفلت بتمثيل مطالب الواقع. والحال أن المفعول الإمراضي رهن إما لبقاء الأنا، في هذا التوتر الصراعي، على وفائه لتبعيته للعالم الخارجي ومسعاه إلى تكميم الهذا وتكبيله، وإما لسماحه للهذا بأن يسيطر عليه وبأن يسلخه في الوقت نفسه عن الواقع. بيد أن تعقيداً يطرأ على هذا الموقف البسيط في ظاهره بحكم وجود الأنا الأعلى الذي يجمع في ذاته، طبقاً لترابط لا يزال مطلوباً استكناه سرِّه، مؤثرات نابعة من الهذا ومن العالم الخارجي على حدّ سواء، والذي يؤلف بنوع ما نموذجاً مثالياً لما يصبو إليه الأنا بكل نازع من نوازعه، وأعني التوفيق بين شتى ولاءاته وارتباطاته. والمفروض في هذه الحال، وخلافاً لكل ما جرى لحدّ الآن، أن يؤخذ مسلك الأنا بعين الاعتبار في جميع أشكال الدخول في المرض النفسي. على أنه يسعنا، بانتظار أن يتمّ ذلك، أن نصادر على أنه لا بدّ أن يكون ثمة إصابات مَرَضية أساسها الصراع بين الأنا والأنا الأعلى. ويأذن لنا التحليل أن نفترض أن السويداء[٤] حالة نموذجية لهذه الفئة من الإصابات، وأن نطلق على هذا النوع من الاضطرابات اسم «الأعصبة النفسية النرجسية». وبالفعل، لن تصطدم انطباعاتنا بما يناقضها إن اهتدينا إلى دوافع تحدو بنا إلى تمييز حالات من أشباه السويداء عن الأذهنة الأخرى. ولكننا نلاحظ عندئذ أنه كان في مقدونا أن نطوِّر صيغتنا البسيطة عن نشوء المرض ونحسِّنها بدون أن نغسل يدينا منها. فالعصاب التحويلي يناظر صراعاً بين الأنا والهذا، والعصاب النرجسي يناظر صراعاً بين الأنا والأنا الأعلى، بينما يناظر الذهان صراعاً بين الأنا والعالم

٤ ـ أو المالنخوليا. «م».



الخارجي. صحيح أننا لا نستطيع أن نقول من الآن ما إذا كنا حصَّلنا فعلاً معارف جديدة أو أغنينا فقط مخزوننا من الصيغ، لكني أعتقد أن إمكانية التطبيق تلك ينبغي أن تشجعنا على الاستمرار في التمسك بتقسيمنا للجهاز النفسي إلى أنا وأنا أعلى وهذا، وعلى إيلائه اهتمامنا الدائم.

تتولد الأعصبة والأذهنة إذاً عن صراعات الأنا مع مختلف الهيئات التي تسيطر عليه؛ وبعبارة أخرى، إنها تناظر فشلاً في وظيفة الأنا، وإن كان هذا الفشل ينمّ عن مجهود للتوفيق بين مختلف المطالب؛ على أن هذا التوكيد يتطلب، ضماناً لصحته، نقاشاً إضافياً. فبودِّنا أن نعرف مثلاً ما الظروف وبأية وسائل يفلح الأنا في الإفلات ـ بدون أن يسقط في المرض ـ من إسار تلك الصراعات الماثلة دوماً بكل تأكيد. وذلك هو ميدان جديد للبحث يقتضي أن تؤخذ فيه بعين الاعتبار العوامل الأكثر تنوعاً واختلافاً. على أنه من الممكن التنويه باثنين من هذه العوامل. فمآل جميع تلك المواقف منوط بلا أدنى شك بظروف اقتصادية، وبالكمّ النسبي لكل ميل من تلك الميول المتصارعة فيما بينها. بل لنتقدم خطوة أخرى إلى الأمام: ففي مكنة الأنا أن يتفادى القطيعة مع هذا الجانب أو ذاك بتشويهه ذاته بذاته، بارتضائه بدفع الغرامة على حساب وحدته، أو حتى بتصديعه هذه الوحدة وتمزيقه إياها. وعلى هذا النحو يكون في الإمكان وضع ضروب التناقض واللامنطق وغرابة الأطوار لدى البشر في سلة واحدة مع انحرافاتهم الجنسية التي توفِّر عليهم، إذا قبلوا بها، كبوتات كثيرة.

في النهاية يجدر بنا أن نتساءل عما يمكن أن تكونه الآلية، المشابهة للكبت، التي بها ينفصل الأنا عن العالم الخارجي. وفي رأيي أنه من المتعذر الإجابة عن هذا السؤال قبل القيام ببحوث جديدة، ولكن لا بدّ أن يكون قوام تلك الآلية، مثلها مثل الكبت، على ما نخمِّن، سحب الأنا للتوظيف الذي كان ثمَّره في الخارج.




مكتبة
الفكر الجديد

(١٥)

المشكلة الاقتصادية للمازوخية

(١٩٢٤)

من حقنا أن نستغرب، من وجهة النظر الاقتصادية، وجود الميل المازوخي في الحياة الغريزية للكائنات البشرية وأن نرى فيه لغزاً من الألغاز. وبالفعل، إن كان مبدأ اللذة يسيطر على السيرورات النفسية على نحو يتحتّم معه أن يكون الهدف الفوري لهذه السيرورات تحاشي الكدر والألم والفوز باللذة، فإن المازوخية تستغلق في هذه الحال على الفهم. وإن كان من الممكن أن يكون الكدر والألم بحدّ ذاتهما هدفين، لا مجرد تحذيرين، فإن مبدأ اللذة يكون قد أصابه الشلل، كما يكون حارس حياتنا النفسية قد جرى تخديره إن جاز التعبير.

هكذا تتبدى لنا المازوخية في صورة خطر داهم، وهذا ليس على الإطلاق شأن عديلتها، السادية. وإننا لنميل إلى أن نسمي مبدأ اللذة حارس حياتنا، لا حارس حياتنا النفسية وحدها. لكن عندئذ تنطرح علينا مهمة دراسة علاقة مبدأ اللذة بكلا نوعي الدوافع الغريزية اللذين ميّزنا بينهما: غرائز الموت وغرائز الحياة الإيروسية (الليبيدوية)، ولسنا بمستطيعين أن نتقدم إلى أبعد من ذلك في تمحيص مشكلة المازوخية قبل أن نلبي ذلك النداء.

لقد كنا، على ما يذكر القارئ[١]، فهمنا المبدأ المتحكم بالسيرورات النفسية كافة على أنه حالة خاصة مما يسمّيه فخنر Fechner[٢] **الميل إلى الاستقرار**،

١ ـ ما وراء مبدأ اللذة، **الأعمال الكاملة**، م ١٣.

٢ ـ غوستاف تيودور فخنر: فيلسوف ألماني (١٨٠١ ـ ١٨٨٧). أحد مؤسسي الفيزياء النفسية. واضع القانون المعروف باسم قانون فيبر ـ فخنر، ومؤداه أن «الإحساس يتنوع تبعاً للوغاريتم التنبيه». «م».



وعزونا من ثم إلى الجهاز النفسي نية تقليص مبلغ التنبيه المتدفق نحوه إلى الصفر أو إبقائه في أدنى مستوى ممكن. وقد اقترحت بربارة لاو low[٣] تسمية هذا الميل المفترض هنا **بمبدأ النيرفانا**، وإننا به لقابلون. بيد أننا ماهَيْنا عن عدم رويّة بين مبدأ اللذة/ الكدر وبين مبدأ النيرفانا هذا. ومن ثم افترضنا أن كل كدر لا بدّ أن يتوافق مع ارتفاع في التوتر التنبيهي الماثل في النفس، وكل لذة مع انخفاض فيه، ومن ثم يكون مبدأ النيرفانا (ومبدأ اللذة المعدود على أساس هذا الزعم مطابقاً له) عاملاً بكليته في خدمة غرائز الموت التي ترمي إلى الانتقال بالحياة الدائمة التبدل إلى استقرار الحالة اللاعضوية، كما تكون وظيفته التحذير من مطالب الغرائز الحياتية، أي الليبيدو، التي تسعى إلى تعكير الجريان الذي إليه تنزع الحياة. بيد أن هذا التصور لا يمكن أن يكون صحيحاً. إذ يبدو أننا نستشعر التزايد والتناقص في كميات التنبيه بصورة مباشرة في سلسلة الأحاسيس الناجمة عن التوتر، ولا مجال للشك في وجود توترات مترافقة باللذة وانفراجات متواكبة بالكدر. وحالة التهيُّج الجنسي هي أسطع مثال على زيادة في التنبيه مترافقة باللذة. لكن من المحقق أنها ليست المثال الوحيد. ليس في الإمكان إذاً عزو اللذة والكدر إلى تزايد أو إلى تناقص في كمية نسمِّيها كمية التوتر التنبيهي، وإن تكن صلاتهما بهذا العامل متعددة. ويبدو أنهما منوطان، لا بهذا العامل الكمي، بل بسمة من سماته لا نستطيع أن نصفها إلا بأنها كيفية. ولقد كنا سنحرز تقدماً كبيراً في مضمار علم النفس لو كان في مقدورنا أن نبيِّن ما كنه هذه السمة الكيفية. وربما كان الأمر يتعلق بالإيقاع أو

٣ ـ بربارة لاو: محللة نفسية إنكليزية (١٨٧٧ ـ ١٩٥٥). ناضلت في صفوف حزب العمال قبل أن تتحول نحو التحليل النفسي وتشارك في تأسيس **الجمعية البريطانية للتحليل النفسي**. وقد انتصرت لأطروحات آنا فرويد ضداً على أطروحات ميلاني كلاين. ومبدأ النيرفانا الذي كانت هي أول من روّج له هو بمثابة تسمية مجازية لميل النفس البشرية إلى تقليص كل تنبيه وكل كمّ من الطاقة الداخلية أو الخارجية إلى نقطة الصفر. ولكن خلافاً لما قد يوحي به نص فرويد فإن أول من صاغ مبدأ النيرفانا في الثقافة الأوروبية هو الفيلسوف الألماني شوبنهاور. وعلى أي حال، إن المفهوم التحليلي النفسي عن مبدأ النيرفانا لا يطابق حرفياً المفهوم الهندوسي الذي يعني العودة إلى العدم أو اللاوجود على حين أن المعنى الذي بات له في التحليل النفسي هو انطفاء الأهواء والعودة إلى نقطة الصفر. «م».



بالجريان الزمني للتبدلات، للارتفاعات والتدنيات في كمية التنبيه، لسنا ندري.

يتعيَّن علينا على كل حال أن ندرك أن مبدأ النيرفانا، التابع لغريزة الموت، قد طرأ عليه في الكائن الحيّ تحوير قلَبه إلى مبدأ لذة، وسنتفادى من الآن فصاعداً أن نعدّ المبدئين بمثابة مبدأ واحد. ولو مضينا قدماً إلى الأمام في هذ التفكير فلن يشقّ علينا أن نتكهن بالقوة التي منها يأتي ذلك التحوير. فليس في الإمكان أن تكون سوى غريزة الحياة، أي الليبيدو الذي تحصلت له، عن هذا السبيل، القوة للمشاركة، جنباً إلى جنب مع غريزة الموت، في تنظيم السيرورات الحياتية. هكذا نضع يدنا على سلسلة قصيرة، وإنما غنية بالفائدة، من العلاقات: فمبدأ **النيرفانا** يعبِّر عن ميل غريزة الموت، ومبدأ اللذة يمثل مطلب الليبيدو، وتعديل مبدأ اللذة هذا، أي مبدأ **الواقع**، يمثل تأثير العالم الخارجي.

ما من مبدأ من هذه المبادئ الثلاثة يبطل في الواقع مفعول أي من المبدئين الآخرين. فثلاثتها تعرف، بصفة عامة، كيف تتوافق فيما بينها، حتى وإن وجدت حالات يكون فيها الصراع محتوماً، إذ إن الهدف المنشود هو من جانب أول التقليل الكمِّي من شحنة التنبيه، ومن الجانب الثاني سمة كيفية لهذه الظاهرة، وأخيراً التـأجيل الزمني لتصريف شحنة التنبيه وإفساح المجال مؤقتاً لتوتر الكدر.

والمحصلة التي ينبغي أن نستخلصها من هذه التأملات هي أننا لا نملك أن نماري في تسمية مبدأ اللذة باسم حارس الحياة.

لكن لنعد أدراجنا إلى المازوخية. فهي تتبدى لنا في أشكال ثلاثة: كشرط مسبق للتهيُّج الجنسي، وكتعبير عن الكينونة الأنثوية، وكمعيار للسلوك في الحياة. ونستطيع، بدالّة ذلك، أن نميّز مازوخية **شهوية**، ومازوخية **مؤنثة**، ومازوخية **معنوية**. الأولى منها، المازوخية الشهوية، أي لذة الألم، هي في أساس الشكلين الآخرين، وأساسها بيولوجي وجِبِلِّي، وهي تبقى مستغلقة على الفهم ما لم نقرِّر أن نفرض بعض الفروض بصدد نقاط شديدة الغموض. وبالمقابل، إن الشكل الثالث الذي تتجلى فيه المازوخية، وهو من بعض وجهات النظر أهم أشكالها إطلاقاً، ما تسنى للتحليل النفسي إلا مؤخراً فحسب أن يتعرَّفه من حيث هو إحساس بالذنب، لاشعوري عموماً، بيد أننا نملك مع ذلك تفسيراً له وبوسعنا أن



نفسح له مكاناً في عداد جملة معارفنا. أما المازوخية المؤنثة فهي من جهتها الأسهل منالاً بالنسبة إلى ملاحظتنا، والأقل إلغازاً، وفي مقدورنا أن نمسك بها في جميع علاقاتها، وبها سنبدأ عرضنا.

إن لنا عن هذا النوع من المازوخية لدى الرجل (الذي سأقصر عليه الكلام هنا بالنظر إلى المادة المتاحة لي) معرفة كافية عن طريق أخاييل المازوخيين من الأشخاص (الذين يعانون لهذا السبب من العنّة في غالب من الأحيان)؛ فهذه الأخاييل إما أنها تؤدي إلى فعل الاستمناء، وإما أنها تمثل بحدّ ذاتها الإشباع الجنسي. والترتيبات الفعلية التي يعمد إليها المنحرفون المازوخيون تتمشى تماماً مع هذه الأخاييل، سواء أوضعت قيد التنفيذ باعتبارها غايات في ذاتها أم كان الغرض منها ترميم القوة الجنسية والتمهيد للفعل الجنسي. وفي الحالتين كلتيهما ـ إذ إن هذه الترتيبات ما هي بالتأكيد إلا تنفيذ للأخاييل على سبيل اللعب ـ يكون المضمون الظاهر هو: إن المرء يُكمَّم، يُقيَّد، يُضرب ضرباً مبرحاً، يُجلد بالسوط، تُساء معاملته بصورة أو بأخرى، يُرغم على طاعة لامشروطة، يُدنَّس، يُذلّ وتُخفض منزلته. ولا تنضاف تشويهات فعلية إلى هذا المضمون إلا فيما ندر جداً وضمن حدود ضيِّقة للغاية. وأول تأويل، يتمّ الوصول إليه بلا مشقة، هو أن المازوخي يريد أن يُعامل وكأنه طفل صغير في ضائقة، لا حول له ولا قوة، ولكنه يبغي قبل ذلك وعلى الأخص أن يُعامل باعتباره طفلاً شريراً. ولا جدوى هنا من إيراد دراسات عن حالات بعينها؛ فالمادة متشابهة وفي متناول كل مراقب، حتى وإن لم يكن محلِّلاً. ولكن لو سنحت للمرء الفرصة لدراسة حالات عرفت فيها الأخاييل المازوخية إعداداً مسبقاً غنياً، لاكتشف في سهولة أنها تضع الشخص المعني في وضع من الأوضاع المميِّزة للأنوثة. أي أنها تعني بالتالي أنه يُخصى، أو يُجامع، أو يلد. لهذا السبب تحديداً أطلقتُ، قبلياً إن جاز القول، اسم المازوخية المؤنثة على هذا الشكل من المازوخية الذي يحيلنا الكثير من عناصره مع ذلك إلى الحياة الطفلية. وهذا التناضد على شكل طبقات لما هو طفلي وما هو مؤنث سيجد فيما بعد تفسيراً بسيطاً. وكثيراً ما يترك الخصاء، أو بديله العمى، أثره السلبي في الأخاييل، ولكن لا يجوز في هذه الحالة تحديداً أن يلحق أي أذى



بالأعضاء التناسلية أو بالعينين (من النادر أصلاً أن تترك العذابات المازوخية انطباعاً بأنها جدِّية نظير أفعال القسوة والعنف السادية ـ المتخيَّلة أو المخرجة مسرحياً. ويترجم المضمون الظاهر للأخاييل المازوخية عن شعور بالذنب أيضاً: فمن المسلَّم به أن الشخص المعنيّ اقترف جريمة (تبقى بغير تحديد) يتحتم التكفير عنها بمختلف طرائق الألم والتعذيب تلك. ويتبدى لنا هذا على أنه عقلنة سطحية للمضامين المازوخية، لكن خلفه تختفي العلاقة بالاستمناء الطفلي. ومن جهة أخرى، إن هذا العامل/الذنب هو بمثابة صلة وصل مع الشكل الثالث من المازوخية، أي المازوخية المعنوية.

ترتكز المازوخية المؤنثة، التي تقدَّم بنا هنا وصفها، بتمامها إلى المازوخية الأولية، الشهوية، مازوخية لذة الألم التي لا نفلح في تفسيرها إلا بالرجوع إلى أصول واعتبارات ضاربة في القدم.

لقد أكدت في **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية** ـ في الفقرة عن مصادر الجنسية الطفلية ـ أن التهيُّج الجنسي يحدث كمفعول هامشي في سلسلة كبيرة من السيرورات الداخلية متى ما تجاوزت شدة هذه السيرورات بعض الحدود الكمية. بل أكثر من ذلك، فلعله لا يحدث شيء في الجسم ذو دلالة بدون أن يسهم بقسطه في تنبيه الدوافع الغريزية الجنسية. ومن ثم إن تنبيه الألم والكدر لا بدّ أن تكون له، هو الآخر، هذه النتيجة. ولنا أن نفترض أن هذا التنبيه الليبيدوي المشارك الناجم عن توتر الألم والكدر هو آلية فيزيولوجية طفلية لا تلبث أن ينضب معينها لاحقاً. وهي تحظى في مختلف الجِبِلّات الجنسية بنموّ متفاوت في أهميته، يكون في الأحوال جميعاً بمثابة الإسماء الفيزيولوجي الذي تشاد عليه فيما بعد، على مستوى البنية النفسية الفوقية، المازوخيةُ الشهوية.

بيد أن قصور هذا التفسير يتَّضح للعيان من حيث أنه لا يسلِّط أي ضوء على العلاقات النظامية والحميمة بين المازوخية وبين قرينتها المقابلة في الحياة الغريزية، السادية. وإن رجعنا إلى الأصول الأبعد أيضاً، وصولاً إلى فرضية النوعين الاثنين للدوافع الغريزية اللذين نتخيَّل أنهما فاعلان في الكائن الحيّ، خلصنا إلى استنتاج آخر لا يتنافى أصلاً مع الأول. فالليبيدو يلاقي في الكائنات الحيّة (المتعددة



الخلايا) غريزة الموت أو الهدم المهيمنة فيها، هذه الغريزة التي تتطلع إلى تمزيق هذا الكائن الخلوي إرباً إرباً وإلى إرجاع كل عضوية أولية فردية إلى حالة الهمود اللاعضوي (حتى وإن يكن هذا الهمود نسبياً ليس إلا). ومهمة الليبيدو أن يجرِّد هذه الغريزة الهدامة من أذيَّتها، وهو يفي بهذه المهمة بتحويله مجرى هذه الغريزة في شطرها الأكبر نحو الخارج، وفي وقت لاحق بمعونة جهاز عضوي خاص هو الجهاز العضلي، وبتوجيهه إياها ضد مواضيع العالم الخارجي. وعندئذ يخلق بنا أن نسمِّيها غريزة الهدم أو غريزة السيطرة أو غريزة القوة[٤]. ويوضع جزء من هذه الغريزة مباشرة في خدمة الوظيفة الجنسية حيث يضطلع بدور ذي شأن. وتلكم هي السادية بحصر معنى الكلمة. وثمة جزء آخر لا يشارك في هذا الانزياح نحو الخارج، بل يبقى في داخل الجسم حيث يتقيَّد ليبيدوياً بمساعدة التنبيه الجنسي المشارك الذي سبق لنا الكلام عنه؛ وفي هذا الجزء تحديداً ينبغي أن نتعرف المازوخية الشهوية الأصلية.

إننا لا نملك أي تصور فيزيولوجي من شأنه أن يجعلنا نفهم ما الطرق والوسائل التي يمكن أن يتمّ بها هذا الترويض لغريزة الموت من قبل الليبيدو. وكل ما يسعنا افتراضه بالمقابل في مضمار التصورات التحليلية النفسية هو أنه يحدث على نطاق واسع للغاية بين كلا النوعين من الغرائز تخالط وتمازج متفاوتان جداً في نسبهما، بحيث يتعيَّن علينا أن ندخِل في حسابنا لا ضروباً خالصة من غرائز الحياة والموت، وإنما فقط خلائط مزيجة ومتفاوتة القيمة منهما. وتمازج الغرائز هذا سيقابله تحت تأثير بعض الشروط انفصال بينها. أما ما حجم عناصر غرائز الموت التي تفلت من مثل هذا الترويض عن طريق ارتباطها بإمدادات ليبيدوية، فلسنا نستطيع أن نتكهن بذلك حالياً.

بوسعنا القول، إذا أفسحنا لأنفسنا هامشاً من عدم الدقة، إن غريزة الموت الفاعلة في الجسم ـ السادية الأصلية ـ تتطابق والمازوخية. فبعد أن ينزاح الشطر الأكبر من تلك الغريزة نحو الخارج ويتحول نحو المواضيع، فإن ما يتبقى كرسابة

٤ ـ يؤثر فرويد في جميع نصوصه أن يستخدم مصطلح «الدافع الغريزي» بدلاً من «الغريزة». ولكننا وجدنا نفسنا هنا مضطرين إلى اعتماد مصطلح الغريزة دفعاً لارتباك النص بالعربية. «م».



منها في الداخل هي المازوخية بحصر المعنى، أي المازوخية الشهوية التي تكون من جهة أولى قد صارت مقوِّماً من مقومات الليبيدو ويبقى موضوعها من جهة ثانية هو الفرد ذاته. وعلى هذا ستكون هذه المازوخية شاهداً وبقية متخلفة من تلك المرحلة التكوينية التي تمّ فيها ذلك التمازج، البالغ الأهمية للحياة، بين غريزة الموت والإيروس. ولن يدهشنا أن نعلم أن السادية أو غريزة الهدم، الموجهة نحو الخارج، المسقطة عليه، يمكن لها في ظروف محددة أن تُستبطن من جديد، أن تُوجَّه نحو الداخل، فتنكص على هذا النحو إلى وضعيتها الأولى. وعندئذ تتمخض عن المازوخية الثانوية التي تنضاف إضافة إلى المازوخية الأولية.

تساهم المازوخية الشهوية في جميع مراحل نمو الليبيدو وتستعير منها أغلفتها النفسية المتقلِّبة. فخوف الفرد من أن يفترسه الحيوان/ الطوطم (الأب) يكمن مصدره في التنظيم الفموي البدائي، في حين أن رغبته في أن يُضرب من قبل الأب تنبع من المرحلة التالية، الشرجية/ السادية؛ أما مرحلة التنظيم القضيبي[٥] فتقحم على مضمون الأخاييل المازوخية راسبها، الخصاء، على الرغم من أن هذا الخصاء سيصير في وقت لاحق موضوعاً لإنكار؛ ومن التنظيم التناسلي النهائي ستتفرع بطبيعة الحال المواقف المميِّزة للأنوثة، أي المواقف التي يتصور فيها الفرد المعني أنه يُجامَع ويلد. ودور الإليتين[٦] في المازوخية يسهل، هو الآخر، فهمه، بصرف النظر عن أساسه البيِّن في الواقع. فالإليتان هما الجزء المتميِّز من الجسم من الناحية الشهوية في المرحلة الشرجية/السادية، مثلهما مثل الحلمتين في المرحلة الفموية، ومثل القضيب في المرحلة التناسلية.

أما الشكل الثالث من المازوخية، أي المازوخية المعنوية، فأول ما يسترعي فيه الانتباه هو ارتخاء صلته بما نعتبر أنه هو الجنسية. ففي جميع الحالات الأخرى تفترض الأوجاع المازوخية شرطاً: أن يكون مصدرها الشخص المحبوب، وأن تُكابَد بأمر منه؛ والحال أن هذا التقييد يُرفع في المازوخية المعنوية. فالمهم هنا هو

---

٥ ـ انظر: **التنظيم التناسلي الجنسي**، **الأعمال الكاملة**، م١٣.(انظر ترجمة هذا النص أعلاه في: **الحياة الجنسية**. «م»).

٦ ـ باللاتينية في النص: NATES.



العذاب بحدّ ذاته؛ وسواء أكان مصدره شخصاً محبوباً أم حيادياً فذلك لا يلعب أي دور؛ ومن الممكن أن تتسبب فيه أيضاً قوى أو ظروف لاشخصية، إذ إن المازوخي الحقيقي يدير على الدوام خدَّه في الاتجاه الذي يتوقع أن تأتي منه الصفعة. وإن الإغراء لكبير، في سياق مسعانا إلى تفسير هذا السلوك، بأن ندع الليبيدو جانباً وبأن نكتفي بالقبول بالفرضية القائلة إن غريزة الهدم قد توجهت من جديد إلى الداخل لتركِّز عنيف هجومها على ذات الشخص المعنيّ؛ ولكن لئن يكن العُرف اللغوي لم يستنكف عن ربط هذا الشكل من السلوك الحياتي بالإيروسية وعن إطلاق اسم المازوخيين في الوقت نفسه على أولئك الأشخاص الذين يؤذون أنفسهم بأنفسهم، فأمر لا بدّ أن يكون له من معنى.

إننا سنولي اهتمامنا بادئ ذي بدء، وفاء منا لعادةٍ تقنيةٍ، للشكل المشتطّ، المَرَضي بلا جدال، من هذه المازوخية. وكنت أوضحت في غير هذا المكان(٧) أننا نلتقي، ضمن سياق العلاج التحليلي، بمرضى يرغمنا سلوكهم المعارض لتأثير المعالجة على أن نعزو إليهم إحساساً «لاشعورياً» بالذنب، وقد بيَّنت في ذلك النص ما المعيار الذي نستند إليه في تعرُّف هؤلاء الأشخاص (= استجابتهم السلبية للعلاج)، ولم أكتم أن قوة هذه الحالة المناوئة للعلاج هي واحدة من أخطر المقاومات، بل هي الخطر الأعظم الذي يعترض سبيل نجاح مقاصدنا الطبية أو مرامينا التربوية. وربما كان إشباع هذا الإحساس اللاشعوري بالذنب البند الأهمّ في مكسب المرض ـ هذا المكسب الذي يتألف كقاعدة عامة من عدة عناصر ـ والقوة الأبرز في جملة القوى التي تعارض الشفاء ولا تريد التخلي عن حالة المرض؛ وما العذاب الذي يصاحب العصاب إلا العامل الذي عن طريقه يغدو العصاب عزيزاً لا غنى عنه للميل المازوخي. وإنه لمن المفيد أيضاً أن نعلم من خلال التجربة أن عصاباً من الأعصبة تحدَّى جميع الجهود العلاجية يمكن له، رغم أنف كل نظرية وكل توقُّع، أن يختفي متى ما وقع الشخص في الشدة نتيجة لزواج فاشل، أو أضاع ثروته، أو ألمَّ به مرض عضوي عضال. فهنا يكون شكل من العذاب قد ناب مناب آخر، ومن ثم يتضح لنا أن بيت القصيد

٧ ـ **الأنا والهذا، الأعمال الكاملة**، م١٣.



أن يكون في مقدور الفرد الحفاظ على مقدار معيَّن من العذاب.

حينما نكلِّم المرضى عن الإحساس اللاشعوري بالذنب[٨]، لا يصدقوننا في سهولة. فهم يعلمون حقَّ العلم ما طبيعة الآلام (التبكيتات الضميرية) التي يفصح بها الإحساس الشعوري بالذنب، أي الوعي بالذنب، عن نفسه، ولا يستطيعون بالتالي التسليم باحتمال كونهم يبطنون في داخل أنفسهم حاثات مماثلة تماماً بدون أن يشعروا بها على الإطلاق. وفي رأيي أننا نولي احتجاجهم حقَّه من الاعتبار إلى حدٍّ ما فيما لو تخلينا عن تعبير «الإحساس اللاشعوري بالذنب» ـ وهو غير صحيح أصلاً من وجهة النظر السيكولوجية ـ لنستعيض عنه بتعبير «الحاجة إلى القصاص» الذي يعبِّر بسداد عن الحالة التي نحن بصددها. لكن لا يسعنا مع ذلك أن نمتنع عن أخذ هذا الإحساس اللاشعوري بالذنب بعين الاعتبار، وعن تحديد موقعه طبقاً للإحساس الشعوري.

لقد عزونا إلى الأنا الأعلى الوظيفة الضميرية، وتعرَّفنا في الشعور بالذنب التعبير عن توتر بين الأنا والأنا الأعلى. فالأنا يستجيب لمشاعر حصَر (حصَر ضميري) لإدراكه بأنه بقي دون مستوى المتطلبات التي طرحها مثاله: أي الأنا الأعلى. والآن نريد أن نعرف كيف توصَّل الأنا الأعلى إلى هذا الدور التطلُّبي المتشدِّد ولماذا يتحتَّم على الأنا أن يخاف متى ما وقع خلاف بينه وبين مثاله.

بعد أن قلنا إن وظيفة الأنا هي التسليم بمطالب الهيئات الثلاث التي يقوم على خدمتها، والتوفيق بينها، يسعنا أن نضيف أنه يجد أيضاً في الأنا الأعلى نموذجاً يقتدي به في اضطلاعه بهذا الدور. وبالفعل، إن هذا الأنا الأعلى هو ممثل الهذا مثلما هو ممثل العالم الخارجي. وما قيَّض له أن يرى النور هو أن المواضيع الأولى لحاثّات الهذا الليبيدوية، أي الوالدين، قد تمَّ استدماجها في الأنا؛ وفي أثناء عملية الاستدماج هذه جُرِّدت العلاقة بهذه المواضيع من طابعها الجنسي وحُرفت عن أهدافها الجنسية المباشرة. وإنما على هذا النحو وحده يكون قد أمكن الظهور على عقدة أوديب. ومنذئذ يحتفظ الأنا الأعلى بالصفات الأساسية للأشخاص

٨ ـ اضطررنا إلى أن نعتمد في الترجمة تعبير « الإحساس اللاشعوري بالذنب» دفعاً للالتباس فيما لو قلنا ـ كما كان ينبغي ـ «الشعور اللاشعوري بالذنب». «م».



المستدمجين، وبقوّتهم، وصرامتهم، ونزوعهم إلى المراقبة والمقاصصة. وكما كنت أوضحت في غير هذا الموضع[٩]، من السهل أن ندرك أن انفصال الدوافع الغريزية، الذي يصاحب مثل هذا الاستدخال في الأنا، يؤدي إلى تزايد في الصرامة. فعندئذ يمكن للأنا الأعلى، للضمير الفاعل فيه، أن يغدو قاسياً متشدداً، عديم الرحمة تجاه الأنا الذي يتولى مراقبته. هكذا يكون آمر كانط المطلق[١٠] الوريث المباشر لعقدة أوديب.

غير أن أولئك الأشخاص أنفسهم الذين يستمرون في فعل فعلهم في الأنا الأعلى كسلطة ضميرية، بعدما كفّوا عن أن يكونوا مواضيع لحاثات الهذا الغريزية، ينتمون أيضاً مع ذلك إلى العالم الخارجي الواقعي. وإنما من معين هذا العالم جرى استقاؤهم؛ وما كانت سلطتهم، التي تختفي وراءها جميع مؤثرات الماضي والتقاليد، إلا مظهراً من مظاهر الواقع الأكثر وقوعاً تحت اللمس. وبفضل هذا التلاقي يغدو الأنا الأعلى، ذلك البديل عن عقدة أوديب، ممثل العالم الخارجي الواقعي أيضاً، وكذلك القدوة المقترحة لصبوات الأنا.

تتكشف عقدة أوديب إذاً، على نحو ما كنا افترضناه من وجهة نظر تاريخية[١١]، عن أنها منبع أخلاقنا الفردية. ففي مجرى نمو الطفل، الذي يتأدى إلى انفصال تدريجي عن الوالدين، تتراجع سلطة هذين الأخيرين لصالح الأنا الأعلى. والصور الذهنية المثالية المتخلفة عنهما ترتبط بها في زمن لاحق تأثيرات المعلمين، والسلطات، والقدوات التي وقع عليها اختيار الفرد عفوياً، والأبطال المعترف بهم من قبل المجتمع، وغيرهم من الأشخاص الذين لا تعود بالأنا حاجة، وقد اشتدّ عوده، إلى استدماجهم. والوجه الأخير في هذه السلسلة التي تبدأ بالوالدين هو القدر، تلك القوة الغامضة التي لا تتوصل إلا قلة قليلة منا إلى تصورها في صورة لاشخصية. فحينما يستبدل الشاعر الهولندي مولتاتولي

٩ - **الأنا والهذا**.

١٠ - الآمر المطلق في فلسفة كانط الأخلاقية هو السلطة الداخلية الضميرية، التي تأمر كل إنسان بأن يكون في سلوكه مطابقاً للقانون الذي يريد له أن يصبح قانوناً شاملاً لكل الناس. «م».

١١ - **الطوطم والتابو**، **الأعمال الكاملة**، مجلد ٩، الفصل ٤.



MULTATULI[١٢] القدر[١٣] الإغريقي بالزوج الإلهي «العقل» و«الضرورة»[١٤]، فليس لنا في ذلك من مطعن؛ لكن جميع أولئك الذين يكلون إدارة عجلة الكون إلى **العناية الإلهية** أو إلى **الله** أو إلى **الله والطبيعة** معاً يحملوننا على الاشتباه بأنهم لا يزالون يستشعرون هذه القوى، وإن تكن خارجية ونائية إلى أقصى حدّ، على أنها زوجان والديان ـ بالمعنى الميتولوجي ـ ويتصورون أنهم يرتبطون بها بروابط ليبيدوية. وقد حاولت في **الأنا والهذا** أن أستخلص أيضاً من مثل هذا التصور الوالدي للقدر الخوف الفعلي الذي يساور الكائنات البشرية من الموت. ويلوح أن الانعتاق من هذا التصور أمر في منتهى العسر.

بعد هذه التمهيدات نستطيع ان نعود إلى دراسة المازوخية المعنوية. قلنا إن الأشخاص المعنيين يتركون لدينا من خلال سلوكهم ـ في العلاج وفي الحياة ـ انطباعاً بأنهم يعانون من كفّ أخلاقي بالغ الشدة، فلكأنهم يرزحون تحت وقر ضمير مفرط الحساسية، على الرغم من أن هذا التضخم الأخلاقي ليس شعورياً بالنسبة إليهم. وإذا تعمّقنا في المسألة تسنّى لنا أن ندرك الفارق الذي يفصل بين مثل هذه الاستطالة اللاشعورية للأخلاق وبين المازوخية المعنوية. ففي الأول تُعطى مكانة الصدارة لسادية الأنا الأعلى المتضخمة التي يخضع لها الأنا، وفي الثانية تعطى مكانة الصدارة على العكس لمازوخية الأنا الذي يطلب العقاب سواء من الأنا الأعلى أو من القوى الوالدية في الخارج. والخلط الذي وقعنا فيه من البداية له ما يعذره. إذ إن المسألة في الحالتين مسألة علاقة بين الأنا وبين الأنا الأعلى أو القوى المكافئة له؛ وفي الحالتين كلتيهما يرجع الأمر إلى حاجة تجد إشباعها في العقاب والعذاب. بيد أن النقطة التفصيلية التي لا يجوز إغفالها هي أن سادية الأنا الأعلى تغدو في غالب الأحوال شعورية إلى أقصى حدّ بينما تبقى الصبوات

---

١٢ ـ مولتاتولي: هو الاسم المستعار الذي تسمَّى به الشاعر والروائي الفوضوي الهولندي إدوارد دويس ـ ديكر (١٨٢٠ ـ ١٨٨٧). وقد نحت اسمه هذا بالاستعارة من بيت شعر للشاعر اللاتيني هوراسيوس: MULTA TULI أي «تحملت كثيراً» في كتابه **فن الشعر** الذي كان فرويد يعتبره واحداً من أهم عشرة كتب في «مكتبته المثالية». «م».

١٣ ـ باليونانية في النص: مويرا. «م».

١٤ ـ باليونانية في النص: «لوغوس» و«أنانكيه». «م».



المازوخية للأنا كقاعدة عامة محجوبة عن الشخص المعني ولا سبيل إلى استنتاجها إلا من سلوكه.

إن كون المازوخية المعنوية لاشعورية يهدينا بطبيعة الحال إلى أثر يمكننا اقتفاؤه بسهولة. فقد أمكن لنا ترجمة تعبير «الإحساس اللاشعوري بالذنب» إلى حاجة إلى القصاص من قبل سلطة والدية. والحال أننا نعلم أن أمنية الفرد، الكثيرة التواتر في الأخاييل، في أن يُضرب من قبل الأب قريبة غاية القرب من تلك الأمنية الأخرى في أن تكون له به علاقة جنسية سلبية (مؤنثة)، على اعتبار أن الرغبة الأولى هي مجرد تحريف نكوصي للثانية. فإن أدرجنا هذا التوضيح في مضمون المازوخية المعنوية انكشف لنا معناها الخبيء. فالضمير والأخلاق ظهرا إلى حيِّز الوجود بعد أن تمّ التغلب على عقدة أوديب وتجريدها من الطابع الجنسي؛ وعن طريق المازوخية المعنوية يعاد تجنيس الأخلاق، وتُبعث الحياة في عقدة أوديب من جديد، ويُشقّ طريق نكوصي من الأخلاق إلى عقدة أوديب. وهذا كله لا يتمّ لصالح الأخلاق ولا لصالح الفرد. صحيح أنه من الممكن أن يكون هذا الأخير قد احتفظ، إلى جانب مازوخيته، بأخلاقيته بتمامها أو بجزء منها، بيد أن شطراً لا يستهان به من ضميره يمكن أيضاً أن يكون قد تلاشى لصالح المازوخية. ثم إن المازوخية تولِّد من جهة أخرى إغراءً بارتكاب «الخطيئة» ليتمَّ من ثمَّ التكفير عنها بتبكيتات الضمير السادي (كما لدى العديد من الأنماط الطبعية الروائية الروسية) أو بقصاص من القدر، تلك السلطة الوالدية الكبرى. ولزام على المازوخي، كيما يجلب على نفسه قصاص هذا الممثل الوالدي الأخير، أن يسلك عكس السلوك الواجب، وأن يعمل ضد مصلحة نفسه، وأن يدمِّر الآفاق التي تنفتح له في العالم الواقعي، بل حتى أن يقضي على وجوده الواقعي هو نفسه.

إن ارتداد السادية ضد ذات الشخص يتمّ عادة في أثناء **القمع الحضاري للدوافع الغريزية**، هذا القمع الذي يمسك شطراً كبيراً من المقوِّمات الغريزية الهدامة لدى الشخص المعني عن إتيان مفعولها في الحياة. وبوسعنا أن نتصوَّر أن هذا العنصر من غريزة الهدم الذي تقهقر وانسحب يترجم عن نفسه في صورة زيادة في المازوخية في الأنا. غير أن الظاهرات الضميرية تشفّ لنا عن أن الهدم

المرتدّ عن العالم الخارجي يتبناه أيضاً الأنا الأعلى، وهذا حتى بدون أن يطرأ عليه مثل ذلك التبدل، وعن أنه يتأدى إلى تسعير سادية هذا الأخير ضد الأنا. فسادية الأنا الأعلى ومازوخية الأنا تكملان واحدتهما الأخرى وتتحدان لتتولد عنهما عواقب واحدة. وعندي أنه على هذا المنوال وحده يمكننا أن نفهم أن ينجم عن القمع الغريزي ـ في أحيان كثيرة أو بصورة عامة إجمالاً ـ شعور بالذنب، وأن يغدو الضمير أكثر صرامة وحساسية طرداً مع استنكاف الشخص عن الاعتداء على الآخرين. ولربما كان لنا أن نتوقّع أن الفرد، الذي يعرف أن من عادته تحاشي ارتكاب الأفعال العدوانية المرغوب عنها حضارياً، يعيش في كنف ضمير راض ويراقب أناه بقدر أقل من الريبة. ذلك أن الأمور تُصوَّر في العادة كما لو أن المطلب الأخلاقي هو العامل الذي له الأولوية وكما لو أن العزوف الغريزي هو نتيجته. ولكن على هذا النحو يبقى أصل الأخلاقية بغير تفسير. وفي الواقع، يلوح أن العكس هو ما يحدث؛ فأول عزوف غريزي إنما تفرضه قوى خارجية، وهو وحده الذي يبتدع النزعة الأخلاقية التي تفصح عن نفسها في الضمير وتتطلب عزوفاً غريزياً جديداً.

على هذا المنوال تغدو المازوخية المعنوية شاهداً تقليدياً على وجود التمازج بين الدوافع الغريزية. فخطورتها تتأتى من كونها تمتح أصلها من معين غريزة الموت، ومن كونها تناظر ذلك الجزء من هذه الغريزة الذي حيل بينه وبين التحوُّل نحو الخارج بوصفه دافعاً غريزياً إلى الهدم. ولكن بما أن لها، من جهة أخرى، دلالةَ مقوِّمٍ إيروسي، فإن تدمير الشخص المعني لذاته لا يمكن له هو نفسه أن يتمّ بدون إشباع ليبيدوي.



(١٦)

فقدان الواقع في العصاب والذهان (١٩٢٤)

حددت مؤخراً[١] إحدى السمات التي تميِّز العصاب عن الذهان: فالأنا، الذي هو في موقف تبعية للواقع، يقمع في العصاب شطراً من الهذا (الحياة الغريزية)، بينما يضع الأنا نفسه، في الذهان، في خدمة الهذا بانسحابه من شطر من الواقع. وعلى هذا ربما جاز لنا أن نفترض أن العامل المحدِّد في العصاب هو شطط في قوة تأثير الواقع، بينما العامل المحدِّد في الذهان شطط في قوة الهذا. ومن ثم، إن خزان الواقع هو معطى أول في الذهان؛ بينما ثمة مجال للافتراض بأنه يُتفادى في العصاب.

من سوء الحظ أن ذلك لا يتمشى إطلاقاً مع واقعة نستطيع جميعاً أن نتحقق منها بالتجربة: وهي أن كل عصاب يعكِّر بطريقة أو بأخرى علاقة المريض بالواقع، وأنه يكون بالنسبة إليه وسيلة للانسحاب من الواقع، وأنه يعني مباشرة في أشكاله الخطيرة هرباً خارج الحياة الواقعية. هذا التناقض يحفز على التفكير؛ غير أنه من اليسير الكشف عنه، وسيسهم تفسيره على أية حال في إفهامنا طبيعة الأعصبة.

وبالفعل، إن التناقض لا يدوم إلا ما دمنا نحصر نظرنا في موقف البدء بتمخض العصاب، وهو الموقف الذي يعمد فيه الأنا، العامل في خدمة الواقع،

١ ـ **العصاب والذهان**، في: **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، (١٩٢٤)(*).

(*) انظر البحث السابق.«م».



إلى كبت حاثة غريزية. لكن ليس ذلك هو العصاب بعد. فالعصاب يتمثل بالأحرى في السيرورات التي تحمل تعويضاً إلى الجانب المتضرر من الهذا، أي في ردّ الفعل على الكبت، وفي فشل هذا الردّ. عندئذ يكون ارتخاء العلاقة بالواقع هو نتيجة هذا الطور الثاني من تكوين العصاب، ولا موجب لأن ندهش إن دل البحث التفصيلي أن خسران الواقع يطال على وجه التعيين ذلك الشطر من الواقع الذي كان من نتيجة تطلباته الكبت الغريزي.

إن تحديد العصاب بأنه نتيجة كبت فاشل لا ينطوي على شيء من الجدة. فذلك ما قلناه دوماً بالمصطلح نفسه، وإنما تجديد البحث هو ما أوجب تكراره.

إن الفكرة التي تستأثر باهتمامنا هنا ستحظى أصلاً باستقبال رائع إن كانت الحالة حالة عصاب سببه المباشر (المشهد الرَّضي) معروف، ومن خلاله نستطيع أن نتبيَّن كيف يشيح الشخص المعني عن تجربة معاشة كهذه ويسلم أمرها للنساية. وتمثيلاً على ذلك سأعود إلى حالة سبق لي تحليلها قبل العديد من السنين[٢]: فتاة مولهة بحب زوج أختها هزّتها، أمام سرير موت أختها، الفكرة التالية: الآن إنه حرّ، وفي مستطاعه أن يتزوجني. هذا المشهد سرعان ما أُنتسي وبدأت في الوقت نفسه سيرورة النكوص التي أفضت إلى الآلام الهستيرية. لكن من المفيد هنا تحديداً أن نتبيَّن عن أي طريق يحاول العصاب تسوية الصراع. فهو ينتقص من شأن التبدل الطارئ على الواقع بكبته المطلب الغريزي المشار إليه، أي حبّ الفتاة لزوج أختها. أما لو كان ردّ الفعل ذهانياً لكان سيكون في هذه الحال إنكار واقع موت الأخت.

ويفترض بنا هنا أن نتوقع أنه عندما تطرأ حالة ذهانية فلا بدّ أن يحدث شيء مطابق لمجرى العصاب، ولكن بين هيئات نفسية مختلفة بطبيعة الحال. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفترض أنه في الذهان أيضاً يكون ثمة طوران متمايزان بجلاء: طور أول يقطع، هذه المرة، صلة الأنا بالواقع، وطور ثانٍ يحاول، بالمقابل، أن يصلح الأضرار وأن يعيد بناء العلاقة بالواقع على حساب الهذا. وبالفعل، يسعنا أن نلاحظ بعض التماثل في المصير في الحالة الذهانية. ففيها أيضاً يكون هناك طوران يتَّصف

٢ ـ في: **دراسات في الهستيريا**: ١٨٩٥.



ثانيهما بطابع ترميمي. غير أن هذا التماثل لا يعدو أن يكون في الواقع تشابهاً في اتجاه السيرورات له أهمية أكبر بعد. فالطور الثاني من الذهان يرمي هو الآخر إلى التعويض عن فقدان الواقع، ولكن ليس على حساب تقييد للهذا، على منوال ما أن ذلك يتمّ، في العصاب، على حساب العلاقة بالواقع؛ فالذهان يسلك طريقاً أكثر استبداداً، فيخلق واقعاً جديداً ليس له ذلك الطابع الصادم الذي كان يتَّسم به الواقع الذي هُجر. إذاً، فالطور الثاني تتحكم به، في العصاب كما في الذهان، نوازع واحدة: فهو يخدم في الحالتين كلتيهما صبوات الهذا، الذي يأبى أن يروِّضه الواقع، إلى القوة والسيطرة. العصاب والذهان يعبران كلاهما إذاً عن تمرد الهذا على العالم الخارجي، عن كدره، أو إذا شئنا عن عجزه عن التكيُّف مع الضرورة الواقعية، مع **الأنانكيه**[٣]. والحق أن العصاب والذهان يتمايزان واحدهما عن الآخر في ردّ الفعل الأولي الذي يصدر عنهما، أكثر بكثير مما في محاولة الإصلاح التي تعقبه.

إن الفارق الأولي يفصح عن نفسه عندئذ في النتيجة النهائية: ففي العصاب يُتحاشى شطر من الواقع وفق نمط هروبي، وفي الذهان بالمقابل يعاد بناؤه بعد تعديله. أو كذلك: إن الهرب الأولي تعقبه في الذهان مرحلة إيجابية، هي مرحلة إعادة التعمير؛ وفي العصاب تعقب الطاعة الأولية محاولة للهرب آجلاً. أو أيضاً بتعبير آخر: إن العصاب لا ينكر الواقع، بل كل ما يبغيه ألا يعرف عنه شيئاً، أما الذهان فينكره ويسعى إلى إبداله بغيره. ونحن نطلق صفة «السوي» أو «الصحي» على سلوك يجمع بين بعض من سمات الاستجابتين كلتيهما، فلا ينكر، كما في العصاب، الواقع، بل يجاهد بعد ذلك، كما في الذهان، لتعديله وتغييره. هذا السلوك السوي والمطابق لهدف محدَّد يتأدى بطبيعة الحال إلى القيام بعمل خارجي في العالم الخارجي، ولا يقنع نظير الذهان بإحداث تغييرات داخلية؛ إنه لا يعود **تشكيلياً ذاتياً** AUTOPLASTIQUE، بل **تشكيلياً غيرياً** ALLOPLASTIQUE[٤].

إن تعديل الواقع يطال في الذهان الرواسب النفسية للعلاقات السابقة بهذا

٣ ـ باليونانية في النص. والأنانكيه هي الضرورة ومبدأ الواقع. «م».

٤ ـ مصطلحان اعتمدهما ساندور فيرنزي في مقال له عام ١٩١٩ بعنوان: **الظاهرات التشكيلية الهستيرية**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الواقع، أي الآثار الذاكرية والتمثُّلات والأحلام التي كُوِّنت إلى ذلك الحين عنه والتي عن طريقها جرى تمثيله في الحياة النفسية. غير أن هذه العلاقة لم تكن قط علاقة مغلقة، بل كانت تُغنى وتُعدَّل باستمرار بإدراكات جديدة. وعلى هذا النحو تكون مهمة الذهان هو الآخر أن يخلق مثل هذه الإدراكات الصالحة لأن تناظر الواقع الجديد، وهو هدف يتمّ بلوغه على أتمّ نحوٍ عن طريق الهلوسة. ولئن تكن الأوهام الذاكرية والتشكيلات الهذائية والهلوسات في العديد من أشكال الذهان وحالاته تتَّسم بطابع مؤلم للغاية وترتبط بتصاعد للحصر، فهذا مؤشِّر على أن كل سيرورة التعديل تتمّ بمواجهة قوى معارضة عنيفة. ومن الممكن بناء هذه السيرورة بحسب نموذج العصاب الذي لنا به معرفة أفضل. ففي العصاب يردّ الفرد باستجابة حصَر على كل محاولة اختراق من جانب الدافع الغريزي المكبوت؛ ونتيجة الصراع لا تكون، رغماً عن ذلك، سوى مجرد تسوية لا تأتي إلا بإشباع ناقص. أما في الذهان في أغلب الظن فإن ذلك الشطر الذي يُنتبذ من الواقع يعود باستمرار ليشقّ طريقه عنوة إلى الحياة النفسية، على نحو ما يفعل في العصاب الدافع الغريزي المكبوت، لهذا تكون العواقب واحدة في الحالتين كليتهما. وتمحيص مختلف الآليات التي يكون من وظيفتها في الأذهنة الإشاحة عن الواقع وتعمير غيره مكانه، وكذلك التحقق من مدى النجاح الذي يمكن لهذه الآليات أن تصبو إليه، هو مهمة للطب النفسي المتخصص، وهي مهمة لم يُشرع بها بعد.

ثمة تماثل أكثر بروزاً بعد بين العصاب والذهان: ففي الحالتين كلتيهما تمنى المهمة التي يُشرع بها في الطور الثاني بفشل جزئي، إذ لا يتمكن الدافع الغريزي المكبوت من خلق بديل كامل (العصاب)، كما أن تمثيل الواقع يستعصي على السبك في أشكال حاملة للإشباع (على أية حال ليس في جميع أشكال الإصابات النفسية). غير أن النقاط التي يجري التشديد عليها ليست واحدة في الحالتين. ففي الذهان يكون التشديد كلية على الطور الأول الذي هو مَرَضي بحدّ ذاته ولا يمكن أن يفضي إلا إلى حالة مَرَضية؛ أما في العصاب فيكون التشديد، بالعكس، على الطور الثاني، أي فشل الكبت، بينما يمكن للطور الأول



أن يُكتب له النجاح، هذا إن لم نقل إنه ينجح بالفعل في العديد من الحالات في إطار الصحة، وإن لم يكن ذلك بدون تكاليف وبدون أن تتخلف عنه آثار من الإنفاقات النفسية الواجبة. هذه الفروق، وربما كثير غيرها أيضاً، هي نتيجة الفارق الطبوغرافي في الوضعية التي ينطلق منها الصراع الإمراضي، وهذا تبعاً لكون الأنا تنازل عن انتمائه إلى العالم الواقعي أو عن تبعيته للهذا.

يقنع العصاب كقاعدة عامة بتحاشي الشطر موضوعِ المواجهة من الواقع وبوقاية نفسه من أي لقاء معه. غير أن الفارق القاطع الذي يميِّز العصاب عن الذهان يتموَّه وتخفّ حدَّته بحكم انطواء العصاب هو الآخر على محاولات للاستعاضة عن الواقع اللامرغوب فيه بواقع آخر أكثر مواءمة للرغبة. ويتيح إمكانية ذلك وجود **عالم تخييلي**، مضمار كان فُصل غابراً، لدى تأسيس مبدأ الواقع، عن العالم الخارجي الواقعي، وتُرك منذئذ، على سبيل الاحتياط، شاغراً أمام متطلبات ضرورات الحياة. وما ذلك لأن هذا «الاحتياطي» ليس في متناول الأنا، بل لأنه لا يرتبط به إلا برباط رخو. ومن معين هذا العالم التخييلي يغرف المصاب المادة التي تتطلبها تشكيلاته الرغبية الجديدة، ويجدها عادة عن طريق النكوص إلى زمن سابق واقعي أبعث على الرضى.

لا يكاد يكون ثمة من شكّ في أن العالم التخييلي يضطلع بالدور نفسه في الذهان. فهو يمثِّل المخزن الذي منه تؤخذ المادة أو النماذج لبناء الواقع الجديد. لكن عالم الذهان الخارجي هذا، المتخيَّل تخيُّلاً، يتطلع إلى أن يَحُلَّ محلَّ الواقع الخارجي الفعلي، على حين أن العالم التخييلي للعصاب يطيب له، على العكس، أن يرتكز، نظير الأطفال في لعبهم، إلى شطر من الواقع ـ شطر آخر غير ذاك الذي يتعيَّن عليه أن يتقيه ويحتمي منه ـ وأن يخلع عليه دلالة خاصة ومعنى سرياً نصفه ـ وقد لا يكون هذا الوصف سديداً دوماً ـ بأنه **رمزي**. وعلى هذا النحو إن السؤال الذي يطرح نفسه بصدد العصاب كما بصدد الذهان لا يدور فقط حول **خسران الواقع**، بل كذلك حول **بديل عن الواقع**.



ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية

الحياة الجنسية

العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي

منذ أن أصدر فرويد في عام 1905 كتابه الذي أثار فضيحة كبرى: ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية والتهم ما فتئت تنهال على التحليل النفسي بأنه يفسِّر كل شيء بالجنس. والنصوص التي يتضمنها هذا المجلد الرابع من مؤلفات فرويد شبه الكاملة، والتي نشرت في السنوات ما بين 1905 و1931، لا تدع مجالاً للشك في بطلان هذه التهمة، وهذا بدون تنكُّر ولا تنكير لمدى أهمية الجنس في حياة الإنسان، الشعورية واللاشعورية على حدٍّ سواء. وبالنظر إلى تمادي تاريخ تأليف هذه النصوص على مدى ربع قرن، فإنها تتيح للقارئ أن يتتبع نشوء وتطور مفاهيم أساسية في التحليل النفسي من قبيل: الجنسية الطفلية، الجنسية المثلية، النرجسية، السادية/المازوخية، عقدة أوديب، الرواية العائلية، العصاب والذهان، إلخ.





Madarek مدارك
Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر